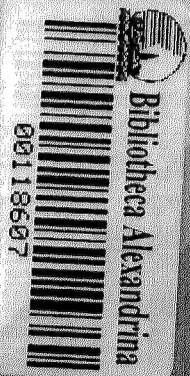


# الفكر الليبرالي في الصحافة المصرية

تأليف  
أ.د. فاروق أبوزيد  
عميد كلية الإعلام - جامعة القاهرة

عالم الكتب





# الفكر الليبرالي في الصحافة المصرية

تأليف  
أ.د. فاروق أبوزيد  
عميد كلية الإعلام - جامعة القاهرة



٣٨ شارع عبد الحالى قنوت - القاهرة ٢٩٦٦٠١

# عالم الكتب

نشر \* توزيع \* طباعة

## الإدارة:

١٦ شارع جواد حسنى

تليفون ٣٩٢٤٦٢٦

فاكس ٣٩٣٩٠٢٧

## المكتبة:

٣٨ شارع عبد الخالق ثروت

تليفون: ٣٩٢٦٤٠١

ص. ب ٦٦ محمد فريد

الرمز البريدي ١١٥١٨



# مقدمة

يلاحظ في أكثر الدراسات التاريخية المعاصرة أنها تعاني نقصاً شديداً في الربط بين حركة التاريخ المصرى وبين الأبنية الفكرية المعبرة عن هذه الحركة وتظهر خطورة هذه الظاهرة إذا ما أدركنا الأهمية البالغة لهذا الربط.. إذ بدونها لا يمكن فهم حركة التاريخ أو التطور فهما كاملاً.

ومن هذا المنطلق تبدأ هذه الدراسة التي تستهدف الكشف عن الفكر الليبرالى فى الصحافة العربية فى مصر.. محاولين أن نربط خلالها بين حركة التاريخ المصرى فى فترة البحث وبين البناء الفكرى ككل لا يتجزأ خاصة وأن الصحافة المصرية تنفرد بأنها تعتبر أوفى المراجع التى تسجل آثار الفكر المصرى الحديث.

وهذا الكتاب هو الطبعة الثانية المنقحة من ثلاثة كتب تعرضت لهذا الموضوع الهام وهى «الصحافة وقضايا الفكر الحر فى مصر» وقد صدر فى عام ١٩٧٣ و «أزمة الفكر القومى فى الصحافة المصرية» الذى صدر فى عام ١٩٧٦، و«أزمة الديمقراطية فى الصحافة المصرية» وصدر فى عام ١٩٧٧، والكتب الثلاث تحوى مسحاً شاملاً للأفكار الليبرالية فى الصحافة المصرية منذ نشأة هذه الصحافة فى عام ١٨٢٨ وحتى عام ١٩٢٤ م.

وكنى ومازلت أتمنى أن يتاح لى الوقت لاستكمال هذا العمل العلمى حتى يتمكن الباحثون من تحقيق الاستفادة الفعلية عند دراسة تلك الفترة التاريخية الحيوية فى الصحافة المصرية باعتبارها سجل لآثار الفكر المصرى بصفة عامة والفكر الليبرالى منه بصفة خاصة منذ بدايات القرن التاسع عشر وحتى قرب منتصف القرن العشرين.

ويتحدد هدفنا من هذه الدراسة تحقيق أمرين رئيسين:-

الأول: الكشف عن الدور البارز الذى لعبته الصحافة المصرية فى وضع الأساس الأيديولوجى للفكر الليبرالى فى مصر... والذى خاضت من أجله العديد من المعارك ضد الفكر المتخلف. وضد الحكم المطلق.. والسلطة الاستبدادية.. وحملت الصحف لواء الدعوة إلى الوطنية المصرية والحكم الديموقراطى والحياة النيابية وحرية الفكر والتعبير وسيادة القانون وحرية المرأة.. وغير ذلك من الأفكار التى ساهمت فى صياغة العقل المصرى فى العصر الحديث.

الثانى: أن نضع أيدينا على كثير من الآثار الفكرية المهمة لعدد من كبار المفكرين والكتاب والصحفيين المصريين التى لم يسبق كشفها من قبل وبالتالي لم يسبق تناولها بالتحليل أو الدراسة.. وهذا من شأنه أن يلقي أضواء جديدة على اتجاهات ومواقف هؤلاء الكتاب تجاه بعض القضايا المهمة التى شغلت العقل المصرى فى فترة البحث.

وكمحاولة لوضع صياغة علمية للدراسة تساعد على الوفاء بأهدافها حاولنا اختبار صحة فرض. يقول بأن الفكر الليبرالى فى مصر لم يظهر بفعل حركة الترجمة أو البعثات إلى أوروبا فقط.. وإنما كان بالدرجة الأولى نتيجة للتحويلات التى حدثت فى بنية المجتمع المصرى والتغيير الذى أصاب تركيبه الاجتماعى والاقتصادى.. وحركة القوى الاجتماعية .

ويهمنا أن نؤكد أن نوعية الظاهرة الليبرالية فى مصر تتطلب منا مرونة فى استخدام المصطلح.. فعندما نبحث فى هذه الظاهرة المصرية فى إطار تعريف ضيق ينطلق من الفرضيات الأساسية للفكر الليبرالى الأوروبى فسنجد أنفسنا محصورين فى إطار ضيق.. ولكن عندما تفتح آفاق الدراسة بحيث تستوعب كل الجهود الفكرية التى ساهمت فى الدفاع عن الحريات السياسية والاجتماعية والاقتصادية للإنسان المصرى فسوف نجد تراثا ضخما للفكر الليبرالى فى الصحافة المصرية.

ولقد كان المصدر الأساسى لهذه الدراسة مجموعات الصحف العربية الصادرة فى مصر وإلى جانب هذا المصدر الأصيل استعنا بالمراجع العربية والمصرية والأجنبية التى تناولت موضوع البحث عن قرب أو عن بعد - ولقد كانت أدواتنا فى البحث تعتمد على كل من المنهجين التاريخى والمقارن.

**فاروق أبو زيد**

**الجزء الأول**  
**الفكر الليبرالى فى الصحافة المصرية**  
**(١٨٢٨ - ١٨٨٢ م)**



# تمهيد

## أولاً: مفهوم الليبرالية:

— الليبرالية اتجاه عقلى يسعى فى ضوء افتراضاته لأن يحلل العلاقات الثقافية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى المجتمع الإنسانى. ويؤكد على تعبير الإنسان عن ذاته. ويرى أن أى محاولة من السلطة لوضع حدود صناعية على الأفراد تدخل لا مبرر له، فالليبرالية ضد الحد من حرية الفرد سواء فى الأخلاق أو الدين أو الثقافة أو الاجتماع أو الاقتصاد أو السياسة، ولكن المفهوم لم يكن دائماً بهذا الاتساع، وإنما تبلور فى شكل الحرية السياسية على أساس أنها مدخل للخريات الأخرى فكان دائماً السعى إلى حصر دور الدولة فى أضيق الحدود بحيث يصبح قاصراً على حماية الحريات الفردية.<sup>(١)</sup>

— والليبرالية تعنى الاعتقاد فى مجموعة من المفاهيم والسياسات التى تهدف إلى منح المزيد من الحرية للفرد وهى تؤكد سواء فى مجال الفكر أو التطبيق على فكرتين رئيسيتين، الأولى: العمل ضد السلطات التحكمية وإحلال أشكال أخرى من التطبيقات الاجتماعية محل هذه السلطات والثانية: حرية التعبير عن الرأى وعن الشخصية الفردية.<sup>(٢)</sup>

— وتعتبر الليبرالية حركة اجتماعية متميزة فى العالم الحديث تعنى بمجابهة العمل الاجتماعى بمجابهة هندسية. إذ أنها كانت الحركة الاجتماعية التى تناولت بمنتهى الوضوح تطوير الإنسان الحديث للقوى الجديدة التى وضعتها الفنون الهندسية والتطبيقية والعلوم الطبيعية تحت تصرفه.. فهى حركة مقترنة بالطبقات الصناعية ووجهة النظر الصناعية التى انتهجتها حركة التصنيع فى العصر الحديث.

وهى حركة تعبر عن سكان المدن القلقين كثيرى الحركة.. لا سكان الريف المستقرين الموزعين فى طبقات معينة.<sup>(٣)</sup> كذلك فالليبرالية تكاد تكون عادة عقلية أكثر منها مذهبا فكريا وهى بوصفها الأخير تتعلق مباشرة بالحرية دون شك لأنها جاءت عدوة لامتياز طبقة فى المجتمع بسبب المولد أو العقيدة، ولكن هذه الحرية التى كانت تشدها لم تكن عامة، إذ أن ممارستها كانت مقصورة على من لهم ملكية فى حاجة إلى الحماية ولقد كانت تسعى منذ بدء تاريخها إلى محاولة تحديد مجال السلطة السياسية وتقييد عمل الحكومة داخل نطاق المبدأ الدستورى، إن الذى أنتج الليبرالية هو نشوء مجتمع اقتصادى جديد فى نهاية العصور الوسطى.. وقد شكلها بوصفها مبدأ حاجات ذلك المجتمع الجديد.<sup>(٤)</sup> وهى أيضا تقاليد أكثر منها مبدأ، والتقاليد الليبرالية كانت تعنى باستمرار أن المجتمع يجب ألا تكون له الأفضلية على حرية الأفراد، فحرية الفرد يمكن أن تحقق الرفاهية للفرد والمجتمع معا، فالأفراد يعرفون ما هو أفضل لمصلحتهم وليس

1 - Encyclopedia of the Social Science- Editor in Chief- Edwinr. Aselgiman. Vol. 9 The Macmillan Co. New York, 1959, p.p. 435 - 441

2- International Encyclopedia of the Social Sciences. Vol. 9. Editor: David. L. Sills. Macmillan Co. The Free Press. U.S., 1968. , p.p. 276 - 282

٣- تشارلز فرنكل - أزمة الإنسان الحديث - ترجمة الدكتور نقولا زيادة - مكتبة الحياة - بيروت - ١٩٥٩ - ص ٣٦ - ٣٩

من حق الحكومة أن تضع عقبات أو حدودا على السلوك الإنساني<sup>(١)</sup>

والمذهب الليبرالي يؤمن بالفرد وفى قدرته على إخضاع الطبيعة وإيماؤه بأن فى إخضاعه للطبيعة تحقيق الخير النهائى لحياته، والإيمان بأن الخير العام يتحقق عندما يتوقف الإنسان عن أن يكون روحانيا ويعود إلى الطبيعة أو عندما يتوقف عن أن يكون طبيعيا ويصبح ترشيدا، وأخيرا الإيمان بالتاريخ البشرى الذى هو حركة صاعدة نتيجة للقوى البشرية التى تحركه وليس مهما إن كان هذا الإيمان يعتمد على داروين أو هيجل فالنتيجة واحدة.<sup>(٢)</sup>

وهناك نوعان من الليبرالية: الليبرالية الاقتصادية والليبرالية غير الاقتصادية.. ونعنى بالآخيرة تلك التى تختص بالحريات المدنية والعلاقات الجنسية والعنصرية.. فالعامل الأساسى فى الليبرالية غير الاقتصادية ليست الطبقة وإنما التعليم والاستقرار والأمان النفسى.. أما الليبرالية الاقتصادية فهى بوجه عام مرتبطة بالوضع الاجتماعى.. فالفقراء أكثر ميلا إلى اليسار فى مواقفهم وفى قراراتهم.. بينما الطبقات الأكثر غنى هى التى قادت الكفاح السياسى من أجل الليبرالية.<sup>(٣)</sup>

ولابد من التمييز بين ليبرالية الذين يملكون.. وليبرالية الذين لا يملكون.. كذلك لابد من التفرقة بين ليبرالية الدول المتقدمة، وليبرالية الدول المتخلفة،.. وفى الآخيرة: الليبرالية تعبر عن حركات الأقلية فى مجتمع متخلف وهى بذلك لا تسير فى نفس المسار الذى تتخذه الليبرالية فى المجتمعات المتقدمة وإن كان هذا لا ينفى أن هناك بعض الأفكار والرموز الأيديولوجية، والبرنامج المشترك بين الاثنين.<sup>(٤)</sup>

إن الليبرالية تقف ضد الفكر الجامد فى الدين بنفس الدرجة التى تقف فيها ضد التعصب الدينى، وذلك راجع لكونها تدافع عن الأفراد ضد أى سلطة تحكمية حتى لو كانت هذه السلطة دينية.. كما أن العامل الدينى يقل تأثيره على تفكير الليبراليين كلما زادت الحريات الممنوحة لهم.<sup>(٥)</sup>

وهناك جناحان لليبرالية، جناح اقتصادى وجناح سياسى. فالليبرالية الاقتصادية تغنى الحرية الكاملة فى تبادل المنتجات التى تتم تلقائيا بحيث انسجاما طبيعيا للمصالح التى يجب أن تترك بمفردها بدون أى تدخل لتحقيق المصالح الاقتصادية لكل إنسان.

أما الجناح السياسى من الليبرالية فيعنى حرية المجتمع عن طريق برلمان يحقق مصالح الناس والإيمان بالانتخاب العام وجعل البرلمان مسئولا أمام الناخبين.. وهنا يظهر التركيز على وجود حدود دستورية كضمانات للحرية.<sup>(٦)</sup> ومن الناحية التاريخية فقد نشأت الليبرالية الاقتصادية

1- Harold J. Laski: The Rise of European Liberalism. Unwin Books - London- 1962 - p.p. 11- 16.

2- Karl de Sohwinz, jr. Industrialisation and Democracy. The Free Press of Blencoe- Collier- Macmillan. London, 1964. p.p. 270- 275.

3- Eugene Kgarber & John M. Crossett: Liberal and Conservative: Scott. Foresman & Co., U.S., 1968, p.p. 40- 42.

4- Seymour Martin Lipset: Political man: Heineman: London, 1969. p. p. 298 - 301.

5- George Fischer: Russian Liberalism: Harvard University Press, Cambridge, Massachusetts, 1958.

6- Russell Kirk: The Conservative Mind: Faber and Faber - London, 1953, p.p. 96- 97-3-9.

فى القرن التاسع عشر وساعد على نموها الثورة الصناعية التى كانت فى مسيس الحاجة إلى الحرية لتستكمل تطورها.. ولقد اتسعت النظرية الاقتصادية الليبرالية فى ضوء مؤلفات آدم سميث وجون ستيوارت مل وريكارد وبحيث صارت تعنى حرية الإنسان فى اختيار عمله وتؤمن بالمنافسة الحرة والتجارة الحرة، والبنوك الحرة وبضرورة وجود معدل تنافسى للفائدة ولقد تجمعت هذه الأفكار كلها فى الشعار الذى ساد القرن التاسع عشر «دعه يعمل .. دعه يمر».

أما الليبرالية السياسية.. فهى الفكرة التى تدعو لاستقلال الفرد عن السلطة، والتى تطالب بالحقوق المدنية فى ظل حكومة تتبع قانونا يعتمد على رضا المحكومين.<sup>(١)</sup>

إن الاستعمال الخاطئ لكلمة ليبرالية قد أضاع معناها الحقيقى فالليبرالية ليست جمهورية ولا ملكية بل إن أيا من أعضاء هذين الحزبين يستطيع أن يحققها ويعمل بموجبها.. كذلك فالليبرالية ليست علمانية أو دينية. فالعلمانى أو الدينى قد يكون ليبراليا أو غير ليبرالى.. فالليبرالية ليست مرادفة لأى عقيدة سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو دينية بالرغم من أن كل مفكر ليبرالى ملزم باتخاذ الموقف المعين من جميع هذه العقائد المختلفة.. ففى المجال السياسى على الليبرالى أن يصوت حسبما يملئ عليه ضميره.. إما مع الأقلية أو مع الأكثرية.. ولكنه فى كلتا الحالتين يهتم بأن تكون الانتخابات ديمقراطية قبل اهتمامه بالنصر.. وكذلك فإنه يعتبر حرية الكلام أهم من صواب نظرياته.. أما فى الحقل الاجتماعى فإنه يضع قضية العدالة الاجتماعية فوق كل قضية.<sup>(٢)</sup>

ولقد تعرض ماركس لليبرالية وقام بنقدها.. وإن كان يرى أنه ليس من الضرورى نقد الليبرالية كمبدأ مستقل عن الأيديولوجية الرأسمالية ككل.. فهو يعتقد أن فضح الرأسمالية يكفى لفضح الليبرالية.

ولقد كان ماركس ينظر إلى الليبرالية باعتبارها نظرية تبرير الحقوق المطلقة للرأسمالى كى يعمل ويستغل الآخرين. وهو يرى أن الليبرالية محدودة بأصولها ومصالحها الطبقية.

ورغم ذلك فإن ماركس لم يكن يعارض الأفكار الليبرالية كلها.. فهو أولاً يفضلها على الاقطاع ويراهم مرحلة أكثر تقدما فى تاريخ تطور البشرية وهو ثانياً كان يرى أنها شئ طيب فقط لو امتدت لتشمل كل الطبقات.<sup>(٣)</sup>

ولكن الفهم الكامل لمعنى الفكرة الليبرالية لا يمكن أن يتحقق بدون الرجوع إلى تلك الفترة الحاسمة من تاريخ أوروبا والتى تمتد ما بين حركة الإصلاح الدينى والثورة الفرنسية حيث أرسى

1- George. H. Sabine: A History of Political Theory. 3rd Edition.

Holt, Rinehart and Winston, New York, 1961, p.p.669 - 699.

2- Joseph Duner: Dictionary of Political Science.

Philosophical Library, New York, 1964, p.p. 313 - 314.

٣- تيودور ماير غرين- الليبرالية والموقف الليبرالى ترجمة جورج زينانى وفوزى قبلوى- المؤسسة الشرقية

للتزجمة والنشر- بيروت - ص ٢٤ - ٣٦

الطبقة البورجوازية أسس حقها الكامل في إدارة الدولة- فقد تولدت خلال تلك الفترة علاقات اجتماعية جديدة من ظروف مادية جديدة خلقت تبريرا عقليا للمجتمع الوليد... وكانت هذه الفلسفة هي الليبرالية وكان هذا المجتمع هو المجتمع البورجوازي، فالذي أنتج الليبرالية هو نشوء مجتمع اقتصادي في نهاية العصور الوسطى وقد شكلها بوصفها مبدأ حاجات ذلك المجتمع (١) ولكن ما هي هذه الظروف المادية الجديدة التي ولدت علاقات اجتماعية جديدة تكونت على أساسها هذه الفلسفة الجديدة؟

إن هذه الفترة التي استمرت ثلاثة قرون كاملة من القرن السادس عشر وحتى القرن التاسع عشر شهدت ميلاد النظام الرأسمالي في أوروبا الغربية.

ولقد نشأت البذور الأولى للنظام الرأسمالي الحديث عقب تعرض الإمبراطورية الرومانية لهجمات البربر والجرمان وتحولت إلى مجتمع زراعي يعيش في دوائر مغلقة تعتمد على الاكتفاء الذاتي وكان هذا المجتمع يتكون من طبقتين متميزتين: سادة الإقطاع واقتنا الأرض. وتعاقبت عهود من الفوضى ظهرت بعدها جماعات من المغامرين من خارج طبقة النبلاء.. لا أرض لهم ولا سلطان ولا مال.. واندفعوا إلى المغامرة وأعمال القرصنة. وشنوا الغارات على الموانئ. الإسلامية والسفن العربية وحملوا الأسلاب إلى مجاهل أوروبا وعرضوها للبيع فحصلوا على بعض المال مكنتهم من تمويل غارات أخرى حتى تجمع لديهم رصيد يسمح بتجارة منتظمة.. ثم استقروا في مواقع معينة ومناسبة لطرق التجارة العالمية فأقاموا بها أسواقا موسمية أصبحت تدريجيا منتظمة وتحولت من دورية إلى دائمة ومن سوق إلى مدينة.. وداوما كانت تقوم حول كاتدرائية الأسقف أو قلعة النبيل. ولأن تجمعات التجار تواجدت حول القلعة أو البرج سمي سكان المدن من التجار بأهل البرج أو البرجنس. Burgenses وقد صارت تعني منذ الثورة الفرنسية رجال التجارة والصناعة.. (٢)

ولقد كان ظهور المدن تهديدا مباشرا للنظام الإقطاعي الزراعي لأن النبلاء في قلاعهم المتناثرة وجدوا أنفسهم في مواجهة المدن التي كانت تفوقهم ثروة وثقافة.. بل وتسليحا. ولكن ظهور المدن لم يؤد إلى اختفاء نفوذ النبلاء فجأة.. وإنما أفقدهم بالتدريج أهميتهم الاقتصادية والسياسية.. ويتعدد المدن، وتعدد نواحي نشاطها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر يصل المجتمع الوسيط إلى نهايته (٣)

ولقد وافق ظهور المدن ونموها وزيادة نفوذها الاقتصادي والسياسي تطور كبير في النشاط التجاري بين الشرق والغرب. فقد فتحت الحملات الصليبية طريق البحر المتوسط أمام التجارة الأوروبية وسمحت بإقامة عدد كبير من التجار الأوروبيين في مدن الشرق الأدنى. (٤)

1- Feliks Cress: European Ideologies. Philosophical library, New York, 1948. p. p. 260 - 272.

2- Harold, J. Laaki: The Rise of European liberalism. p. p. 15.

٣- ثروت أنيس الأسبوطي - الصراع الطبقي وقانون التجار - دار النهضة العربية - القاهرة ١٩٦٥ - ص ٣٠ - ٣١

٤- سعيد عبد الفتاح عاشور - ود. محمد أنيس - النهضة الأوروبية في العصور الوسطى وبداية الحديثة - الطبعة الأولى - القاهرة ١٩٥٦ - ص ٢١١



وقد استفادت كثير من المدن الإيطالية بهذا الرواج التجارى مثل جنوا وبيزا والبندقية وفلورنسا.. وظهرت فى عدد منها ثروات ضخمة كان يملكها أصحاب السفن والبنوك فى هذه المدن (١) ولقد صارت فلورنسا منذ القرن الثالث عشر مركزا لعمليات البنوك فى أوروبا كلها. (٢)

ثم وقف الانقسام السياسى فى ظل النظام الإقطاعى عقبة كبيرة فى وجه تطور الإنتاج التجارى إذ كان الإقطاعيون يفرضون وفق هواهم ضرائب جمركية على السلع خالقين بذلك العقبات المعطلة للتجار (٣).

لذلك فقد تطلبت حاجات التجارة، وضرورتها، وكذلك وضرورات التطور الاقتصادى القضاء على الانقسام الإقطاعى لإقامة علاقات اقتصادية أكثر مرونة وتحررا بين الأقاليم المختلفة داخل البلد الواحد بحيث يمكن تكوين سوق وطنية.. لذلك كان من الطبيعى أن يقوم صراع بين التجار والإقطاع دام عدة قرون.. كانت السلطة فيه بيد النبلاء.. والمال عند التجار.. وكان لاندلاع الحروب الصليبية أن احتاج أمراء الإقطاع إلى المال لتمويل حملاتهم.. فاستغل التجار هذه الحاجة ليشتروا من الإقطاع الامتيازات التى مكنتهم فى أحيان كثيرة من الحصول على استقلال ذاتى فى مدنهم. (٤)

ورغم كل هذه التحولات الاقتصادية والاجتماعية التى تمت فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر.. فإن النظام الإقطاعى ظل يشكل عائقا حال دون المزيد من التطور وبذلك اصطدمت قوى الإنتاج الجديدة بالإطار الضيق لعلاقات الإنتاج الإقطاعية القديمة (٥) .. ولكن هذا الصدام لم يؤد فى البداية إلى نتائج حاسمة.. فقد كان الإطار الإقطاعى الضيق لا يتناسب مع هذه التحولات الاقتصادية والاجتماعية من ناحية ولكنه من ناحية أخرى كان من القوة والصلابة بحيث لم يتركها تحطمه.. وكان العامل الرئيسى فى ذلك هو الانقسام السياسى فى ظل النظام الإقطاعى والذى كان يقف فى مواجهة نمو التطور الاقتصادى.

ومع نهاية القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر بدأ النبلاء الإقطاعيون يفقدون قيمتهم بالتدريج، وأسباب ذلك متعددة منها حرب السبعين وحرب الوردتين لأن هذه الحروب ترتب عليها هلاك الكثير من النبلاء.. خاصة أن هذه الحروب وقعت فى عصر ظهرت فيه البندقية فكان استخدامها من عوامل كثرة الفتك بهم.

ثم ظهر نظام الجيوش القومية وبطل استخدام الجيوش المرتزقة.. كما أن الضرائب وحدث داخل الدولة وخضعت لسلطتها. ولقد ساعدت هذه العوامل على ازدياد نفوذ الملك وقوته واضعاف نفوذ النبلاء وبذلك التقت رغبة بورجوازية المدن مع رغبة الملوك فى تحطيم الانقسام الإقطاعى ومن ثم وجه الملوك بمساعدة البورجوازية ضربات قاصمة للأرستقراطية الإقطاعية.. وبذلك انفتح الطريق ممهدا لنمو الدولة الحديثة وتحققت الوحدة القومية لعدد كبير من الدول

١- أحمد محمد غنيم- تطور الملكية الفردية- دار النديم- القاهرة ١٩٥٧ ص ٨٤

٢- ثروت أنيس الأسبوطى- الصراع الطبقي وقانون التجار ص ٣٤

٣- أحمد محمد غنيم- مصدر سابق ص ٨٥

٤- ثروت أنيس الأسبوطى - مصدر السابق ص ٣٣

5- P. Nickitin: Fundamentals of political Economy. Progress Publisher Mosecow. 1966. p.p. 30- 34

الأوروبية الحديثة <sup>(١)</sup> وخاصة إنجلترا وفرنسا وأسبانيا مع بعض الاختلافات فى الظروف والوقت <sup>(٢)</sup>

ولقد رافق انهيار النظام الإقطاعى ظهور عاملين مهمين يرجع إليهما الفضل فى الإسراع بتكوين النظام الرأسمالى، الأول: عملية التراكم المستمر والسريع لرأس المال. والثانى: الاختراعات الفنية والعلمية فى القرن الثامن عشر.

وبدأت عمليات تراكم رأس المال بالاكشافات الجغرافية الكبرى التى تمت فى القرن السادس عشر والتى أدت إلى حدوث تغييرات اجتماعية واقتصادية داخل المجتمع الأوروبى فى ذلك الوقت.. فقد وسعت السوق العالمية وزادت من كمية البضائع المتداولة.. وظهر الصراع بين البلدان الأوروبية على ثروة القارات الأخرى وكانت إعلاناً عن بدء الاستغلال الاستعماري. <sup>(٣)</sup>

ولقد لعبت التجارة الاستعمارية وتجارة الرقيق دوراً رئيساً فى نشوء الإنتاج الرأسمالى فقد قدمت المستعمرات أسواقاً إضافية للصناعات السريعة التطور.. كما أدت الإمتيازات الاحتكارية المفروضة على هذه الأسواق إلى زيادة تراكم رأس المال.. كما تدفقت الثروات التى تم الحصول عليها عن طريق السلب المباشر للسكان المحليين إلى البلدان الأوروبية وتحولت إلى رأسمال. <sup>(٤)</sup>

ونتج عن هذا التراكم المتزايد لرأس المال تغييرات عميقة.. فى ظروف الإنتاج إذ لم يكن فى وسع صناعة العصور الوسطى المحدودة بقيود الطوائف الإستجابة لمقتضيات التجارة الجديدة.. وأيضاً لم يكن من السهل القضاء فوراً على هذه التنظيمات الطائفية ذات التقاليد العميقة والتى كانت تضمن للحرفيين نوعاً من الحماية- لذلك فقد تميزت هذه الفترة التى تبدأ من القرن السادس عشر بالخروج على النظام الطائفى نتيجة لظهور الصناعة فى الريف ولنمو صناعات جديدة أقل خضوعاً للقواعد الطائفية، فظهرت إلى جانب صناعة النسيج صناعات جديدة خلفتها النهضة الحديثة مثل صناعة الأدوات الكمالية والصناعات الدقيقة والحربية وقد خرجت هذه الصناعات الجديدة عن نطاق النظام الطائفى بسبب حدائتها وطبيعتها الذاتية ولذا لم يعد ممكناً تطبيق القواعد الطائفية القديمة، فقد كانت هذه الصناعات الجديدة فى حاجة إلى نوع من الحرية الفنية فضلاً عن احتياجها إلى آلات معقدة غالية الثمن أى إلى رأسمال يتجاوز الندرة المالية لرب العمل العادى <sup>(٥)</sup>

ولقد تضافرت عدة ظروف على تقدم الصناعة اليدوية مثل زيادة السلع المتداولة ونمو التجارة الدولية.. وتراكم رؤوس الأموال.. ووجود عدد كبير من الأشخاص الذين فقدوا موارد رزقهم <sup>(٦)</sup> ولم يمر وقت طويل حتى بدأت الصناعة اليدوية تحطم نظام الطوائف القديم..

١- بطرس بطرس غالى - ومحمد خيرى عيسى - المدخل فى علم السياسة - مكتبة الأنجلو طبعة أولى - القاهرة ١٩٥٩ ص ١٩٩

٢- أحمد محمد غنيم - تطور الملكية الفردية ص ٨٤ - ٨٦

٣- بطرس بطرس غالى ود. محمد خيرى عيسى - المصدر السابق ص ١٩٩

٤- ف. كيروف، ق. روبرتشكى و نروبولى - موجز تاريخ مجتمعات ما قبل الرأسمالية - ترجمة محمد يوسف الجندى - دار يوليو للنشر - القاهرة ص ١٢٩

٥- س. فيجورسكى - الاقتصاد الرأسمالى . ترجمة فؤاد عبدالحليم - دار يوليو للنشر - القاهرة - ص ٣٠

٦- جان بايى - القوانين الأساسية للاقتصاد الرأسمالى - ترجمة شريف حناتة - سعد كامل - محمد خليل قاسم - حليم طوسون - دار الفكر القاهرة ١٩٥٧ ص ٥٣ - ٥٤

بحيث صار رئيس الورشة الجديدة هو التاجر لا المعلم السابق للطائفة.. حدث صراع دموى فى كل مكان تقريبا.. بين الصناعة اليدوية والحرف.(١)

وظلت الصناعة اليدوية الشكل الأرقى للإنتاج الصناعى منذ منتصف القرن السادس عشر حتى الثلث الأخير من القرن الثامن عشر، عند مستهل ما يسمى بالثورة الصناعية.(٢)

وفى النصف الثانى من القرن الثامن عشر جاءت الاختراعات الفنية والعلمية فانفتح الباب واسعا أمام الصناعة الآلية الكبيرة.(٣)

ومنذ بدأت الثورة الصناعية فى إنجلترا لم تتوقف عمليات اكتشاف الوسائل الفنية الجديدة.. واختراع الآلات، فالرأسمالية النامية تغير باستمرار من ظروف الإنتاج مدفوعة إلى ذلك بالمنافسة والرغبة فى زيادة الربح وتخفيض النفقات(٤).

ومع بداية القرن التاسع عشر كانت البورجوازية تلعب دورها الثورى إلى نهايته سياسياً بالصراع ضد الحكومات الإقطاعية المتجمعة حول الحلف المقدس.. واقتصاديا بالدفاع عن رأس المال الصناعى ضد ملاك الأراضي الإقطاعيين.. ثم استولت البورجوازية نهائياً على السلطة السياسية فى أكبر بلدين رأسماليين هما إنجلترا وفرنسا؛ فى إنجلترا بصدر قانون الإصلاح الانتخابى عام ١٨٣٢ لمصلحة الطبقة الوسطى وصدر قوانين الغلال ضد ملاك الأرض، وفى فرنسا بسقوط الملكية عام ١٨٣٠ وحكم لوى فيليب رجل الرأسمالية المصرفية(٥).

وقد أدى انتصار البورجوازية وتوليها مقاليد السلطة فى إنجلترا أولاً ثم فى باقى دول أوروبا وأمريكا الشمالية بعد ذلك، إلى تخطيط القيود التى كانت تقف عقبة فى سبيل استقرار التطور الرأسمالى.

واستمر نمو الصناعة الحديثة بصورة متزايدة وبالتدريج أخذ أسلوب الإنتاج الرأسمالى فى السيادة شيئاً فشيئاً حتى صار هو الأسلوب الأساسى فى الإنتاج(٦)

ولقد كان الصراع بين البورجوازية والاقطاع صراعاً شاملاً امتد على جميع الجبهات السياسية والاقتصادية والفكرية وانتهى بانتصار البورجوازية.

والخلاصة أن مجموع الأفكار التى تتجمع ليطلق عليها لفظ الليبرالية ليست نتائج يوم واحد، ولا هى مثلاً - كالماركسية - من عمل فرد واحد، وإنما هى خلاصة تجربة إنسانية امتدت على طول أربعة قرون، فاختلفت مفاهيمها، وتعددت تعريفاتها تبعاً لاختلاف كاتبها، والزمان الذى عاشوا فيه.

وأكثر الكتاب يرجعون أصول الليبرالية إلى بداية القرن السادس عشر.. بينما يرجعها بعضهم إلى مدن اليونان القديمة حيث كان اليونانيون هم أول من أسسوا مبادئ الليبرالية ممثلة فى حرية الفكر، والحرية السياسية.

١ - المصدر السابق ص ٥٩

٢ - المصدر السابق ص ٦٤

٣ - دكتور أحمد جامع - الرأسمالية الناشئة - دار المعارف القاهرة ١٩٦٨ ص ٨٢

٤ - جان بايى - القوانين الأساسية للاقتصاد الرأسمالى ص ٧٤

٥ - الدكتور فؤاد مرسى - رأس المال لكارل ماركس - دار الكتاب العربى للطباعة والنشر - سلسلة الفكر السياسى والاشتراكى ص ١١

٦ - إبراهيم سعد الدين - نشوء وتطور النظام الرأسمالى - من محاضرات المعهد العالى للدراسات الاشتراكية ص ٥.

والأفكار الليبرالية لا تستمد مبادئها مما أبدعته عقول المفكرين والفلاسفة فقط. . وإنما هي أيضا نتاج حركة اجتماعية وصراع طبقي بدأ في المرحلة الأخيرة من العصور الوسطى بين الإقطاع وبين البورجوازية الناشئة حين عجزت علاقات الإنتاج الإقطاعية المتخلفة عن التلاؤم مع قوى الإنتاج الجديدة المتقدمة، وحين ظهرت أشكال اقتصادية رأسمالية دخلت بالتدريج في صراع مع الأشكال الإقطاعية، وبنمو الرأسمالية بدأت تتكون أفكار ليبرالية تحل محل الأفكار الإقطاعية القديمة، فالليبرالية إذا هي الفلسفة الاجتماعية للطبقات البورجوازية على السلطة السياسية، وكان أيضا الفلسفة التي استولت عن طريقها هذه الطبقات البورجوازية على السلطة السياسية، وكان سبيلها إلى ذلك محاولة تضيق مجالات التدخل السياسي للدولة.. بحيث يتحرر الفرد من كل القوى والسلطات التحكيمية.

لقد كان هدف الديمقراطية الليبرالية دائما هو تقليص القيود التي تضعها الدولة على الفرد إلى أقصى حد<sup>(١)</sup>، وحصص دور السلطة في ثلاثة أهداف فقط هي تحقيق أمن الفرد وسلامته وخيره العام.. فالليبرالية ترى أن الفرد هو خير حكم على الأعمال التي تعود عليه بالخير<sup>(٢)</sup>.. أما المجتمع فلا يمكن أن يحكم إلا على الأضرار التي قد تلحق بالآخرين.. فالجانب الوحيد من تصرفات الفرد الذي يقع تحت طائلة المجتمع هو ذلك الجانب الذي يدخل ضمن شئون الأفراد الآخرين.

وكما قال جون ستوارت مل<sup>(٣)</sup>: يجب أن يكون للفرد السيادة المطلقة على نفسه وعلى جسده وعلى عقله.. فالمبرر الوحيد لوجود السلطة في الليبرالية- هو منع الضرر عن الفرد فهي ترفض أي مبرر لتدخل الدولة في شئون الأفراد حتى ولو ادعت أنها تريد بذلك تحقيق مصلحة لهم.. ذلك أن الليبرالية تعتقد أن الفرد يعرف مصالحه بأفضل مما تعرفها الدولة.. وأن الأفراد يمكنهم تحقيق منفعتهم بصورة أفضل مما لو حدث أي تدخل يحد من حريتهم.

إن الليبرالية - عكس الماركسية- ترى أن الفرد هو محرك التاريخ، فالتاريخ الإنساني .. هو حركة نامية نتيجة لصراع القوى البشرية مع الطبيعة.. وهذه الحركة تستهدف دائما تحرير الإنسان من سيطرة الطبيعة على مقدراته.. وهي بالتالي تستهدف دائما تحرير الفرد من كل القيود التي تأتي من خارجه سواء كانت الطبيعة أو الدولة، أو المجتمع، فالليبرالية ترى أن الفرد هو مركز المجتمع وغايته.

إن إيمان الليبرالية بحرية الفرد هو الذي دفعها في المجال السياسي إلى الإيمان بالانتخاب العام، وبأن يكون البرلمان مسئولا أمام الناخبين.. فالتركيز على القواعد الدستورية في الليبرالية يستهدف أساسا تحقيق أقصى الضمانات للحرية الفردية.. لذلك نرى الليبرالية تناصر النظم

1- John Bowle- Politic And Opinion in the Nineteenth Century- Aleden Press- London- 1954 . p.p. 201 - 204

2- Lane W. Cancasters- Masters of Political Thought, Hegel to Dewey- Volume three- George G. Harrap and Co. Ltd. , London, 1959, p. 112

3- John Stuart Mill- On liberty- Memallum, Oxford, U. S, 1959- p. 267 .

David Thomson: Political Ideas- A pelican Book - London- 1969 - p. p. 162 - 163

البرلمانية والحريات المدنية وترفض احتكار السلطة.. فهي ترى أن هذا الاحتكار هو مصدر الظلم الاجتماعي.. لذلك نراها تعمل على توسيع انتشار السلطة بين الأفراد، وتطالب بالمحافظة على حقوق الأقليات وتؤيد حرية الكلام وحرية التعبير وحق الاجتماع.. وتدعو لفصل الكنيسة عن الدولة.. ورفض السيطرة الدينية على مجالات النشاط الاجتماعي.. فقد رفضت الليبرالية المبدأ المسيحي الذي يقول بأن أهداف الإنسان وقيمه تنبع من السماء.. فهي لا ترى سوى تلك الأهداف والقيم المادية التي تنبع من الأرض.. فأى تقييم لمبدأ اجتماعي لا بد من وجهة نظر الليبرالية أن يسترشد بمصالح الفرد ومنفعته..

والليبرالية في جانبها الاقتصادي تنادي بضرورة أن يكون الأفراد أحراراً في اختيار العمل الذي تملئهم عليه مصالحهم، وأن يكون لهم حق الانتقال حيث يشاءون وحق اكتساب الثروة والتصرف فيها، وليس للدولة أن تقف أمام نشاطهم.. وقد لخص هذا المبدأ في شعار «دعه يعمل.. دعه يمر..» فالعالم يسير من تلقاء ذاته»

فالليبرالية ترى أن الرغبة في الحصول على الربح هي العامل المؤثر في حركة النشاط الاقتصادي.. وأن الفرد حين يعمل على تحقيق مصلحته الفردية.. إنما يحقق في نفس الوقت مصالح المجتمع كله.. فإذا ترك الإنسان حراً في بحثه عن مصلحته.. فلسوف تتحقق تلقائياً مصالح المجتمع.. فالليبرالية تؤمن بالفرد.. ويقدرته على تغيير حياته.. وبأن في استطاعته أن يحقق الخير لنفسه.. وبالتالي يحقق الخير لباقي أفراد المجتمع بعيداً عن تدخل الدولة وقيدوها.. إن حرية الفرد هي المحرك الرئيسي للنمو الاقتصادي.. لذلك فلا بد وأن تتوفر للفرد أقصى حدود الحرية.. وبالتالي فليس للدولة الحق في التدخل للحد من حرية الأفراد، فإن التنافس بين الرأسماليين ضروري للوصول إلى التوازن الطبيعي في النظام الاقتصادي.

هذه هي المبادئ الليبرالية في قمة انتصارها عند نهاية القرن التاسع عشر.. وقد كانت هذه المبادئ بلا شك مرحلة تقدمية في التاريخ الإنساني، فيكفي أنها قضت على الإقطاعية.

ومع بداية القرن العشرين حدثت تطورات مهمة داخل الفكرة الليبرالية.. حيث دخلتها معان جديدة نتيجة للظروف الاقتصادية والسياسية الجديدة.. خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية.. فلقد نمت الصناعة وزادت حدة المنافسة وهذا ذلك في كثير من الأحيان سلامة البناء الاقتصادي للمجتمع كله، ولقد دفع الخطر إلى مجموعة من التنظيمات الحكومية كقانون هيبورن الذي أصدره روزفلت عام ١٩٠٦ ثم إجراءات نلسون.. ثم عندما استخدم جون كيندي نفوذه في تخفيض أسعار الصلب في عام ١٩٦٢.. كل هذه التشريعات ومحاولات التدخل من جانب الحكومة يطلق عليها بعض المفكرين في أوروبا وأمريكا (ليبرالية).. وقد صار هذا اللفظ يطلق الآن ليشير إلى تلك الحركة التي تعمل على تخفيف حدة الرأسمالية.. بل إن الليبرالية تتسع الآن لتشمل تلك الحركة التي يطلق عليها (دولة الرفاهية) أو دولة (الخدمة العامة) والتي تدعو إلى تدخل الدولة لتحقيق مجموعة من التشريعات التي تستهدف إيقاف تقدم الاشتراكية عن طريق مجموعة من التنازلات لصالح الطبقات العاملة والفقراء كقانون التأمين ضد البطالة.. والتأمين

ضد العجز .. والتأمين على الحياة بل إن أفكارا مثل الضرائب التصاعدية لصالح الأغلبية صارت جزءاً أساسياً اليوم من الفكرة الليبرالية.

إن جوهر المبدأ الليبرالي اليوم يقول إن الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج يجب أن تبقى .. ولكن لابد وأن ينظم نتاج هذه الملكية بحيث يمكن تقديم العمول لمن لا تمكنهم أجورهم من التمتع بمستوى معيشى معقول. لذلك فقد صار المثل الأعلى الليبرالي اليوم .. هو ما يطلق عليه دولة الخدمات العامة .. أو دولة الخدمة الاجتماعية.

## ثانياً: الأساس الاجتماعي للفكر الليبرالي في مصر

عند البحث في ظروف نشأة الفكر الليبرالي في مصر نواجه من البداية سؤال نرى أن الإجابة عليه سوف تحدد مسار هذا البحث ونتائجه وهو: هل كان الفكر الليبرالي في مصر فكراً وافداً من الخارج أم كان فكراً نابعاً من داخل المجتمع المصري؟ وبمعنى آخر هل كان الفكر الليبرالي في مصر من نتاج حركة اجتماعية وصراع طبقى بدأ في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر بين الاقطاع والبورجوازية حين عجزت علاقات الانتاج الاقطاعية المتخلفة عن التلاؤم مع قوى الانتاج الجديدة.. وحين ظهرت أشكال اقتصادية ورأسمالية دخلت بالتدريج في صراع مع الأشكال الاقطاعية.. وانه بنمو الرأسمالية تكونت أفكار ليبرالية بدأت تحل محل الأفكار الاقطاعية القديمة؟ أم أن الأمر لا يعدو كونه حركة ثقافية ظهرت على سطح المجتمع المصري نتيجة الاحتكاك الثقافي بين العقل المصري المثقف (الانتلجنسيا المصرية) والعقل الأوروبي خلال الحملة الفرنسية على مصر.. ومن خلال حركة البعثات والترجمة في عصر محمد علي وما بعده؟

ونحن نرى أن ظهور الفكر الليبرالي في مصر جاء تعبيراً مباشراً على ظهور قوى الانتاج الرأسمالية الجديدة في صراعها مع علاقات الانتاج الاقطاعية القديمة، وما حركة الترجمة والبعثات سوى أحد مظاهر هذا الصراع.. فلقد غمت الليبرالية في مصر نتيجة التحولات التي حدثت في بنية المجتمع المصري، والتغيير الذي أصاب تركيبه الاقتصادي والاجتماعي، واتجاه حركة القوى الاجتماعية به، فالليبرالية في مصر لم تكن سوى انعكاس لكل هذه التحولات على حركة الفكر المصري. وإن كان هذا لا ينفي تأثير الفكر الأوروبي على الفكر المصري.

إن التحليل الدقيق للتاريخ المصري يؤكد أن التطور الرأسمالي في مصر بدأ في نفس الوقت الذي بدأ فيه في أوروبا.

ويحدثنا الرحالة - فرسكو بالدي - الذي زار القاهرة عام ١٣٨٥م فيقول: إن عدد سكان القاهرة أكثر من سكان «توسكانيا» والمراكب الراسية في مينائها أكثر من المراكب التي ترسى في فينيسيا وجنوه واتكونا مجتمعة<sup>(١)</sup>.

وقد ساعد على ذلك موقع مصر الجغرافي في قلب الدنيا القديمة تتوسط أفريقيا وأوروبا وآسيا وهي التي تمثل مراكز الانتاج والصناعة والاستهلاك ووقوعها في أضيق بقعة بين البحرين الأبيض المتوسط والأحمر جعل منها مركزاً مهماً للتجارة والتي ترد إليها برا وبحرا<sup>(٢)</sup>.

(١) صبحي وحيدة - في أصول المسألة المصرية - مطبعة مصر - القاهرة - ١٩٥٠ ص ٨٤.

(٢) محمد رفعت رمضان - على بك الكبير - دار الفكر العربي - القاهرة ص ٤٩.

ولكن التفوق المصرى لم يلبث أن تلاشى أولا باكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح والذي وجه ضربة قاصمة للتطور الرأسمالى فى مصر اذ حرّمها من احتكار تجارة الشرق مع الغرب عن طريق البحر الأحمر عبر صحراء السويس إلى البحر الأبيض المتوسط.. وهذه التجارة التى كان من شأنها أن تكون أداة مصر لتحقيق تراكم رأس المال الذى هو الشرط الأساسى لخلق الصناعة وما يصحبها من تطور رأسمالى.

ثم كانت الضربة الثانية ممثلة فى الغزو العثمانى حيث فقدت مصر استقلالها السياسى وزاد على ذلك بأن نقل السلطان سليم الثانى أكبر عدد من الصناع والحرفيين المصريين إلى الأستانة وكانوا يمثلون الطبقة التى كان بإمكانها فى ظروف نمو طبيعى أن تتحول إلى طبقة وسطى تجارية وصناعية كما حدث فى أوروبا<sup>(١)</sup>.

وبعد ثلاثة قرون من الحكم العثمانى لمصر تجمدت خلاله حركة التطور الاجتماعى .. عاد المجتمع المصرى ليشهد فى الفترة التى سبقت الحملة الفرنسية بداية نمو رأسمالى جديد اذ قام على بك الكبير بمعاونة جماعات التجار الثرية بإقامة حكومة مركزية قوية فى القاهرة تمهيدا لفصل مصر عن الدولة العثمانية وإعلان الاستقلال.. والذي يؤكد المحتوى الرأسمالى لحركة على بك الكبير الاستقلالية ليس اعتماده على طبقة التجار فحسب وإنما أيضا تفكيره فى فتح طريق التجارة القديم بين الشرق والغرب (السويس - القاهرة - الاسكندرية) وهو نفس الطريق الذى كان مصدرا للتراكم الرأسمالى فى مصر قبل الفتح العثمانى والذي كان من شأنه لو استمر أن يفتح طريق النمو الرأسمالى أمام مصر فى ذلك الوقت.

وبعد نهاية على بك الكبير بيد تلميذه محمد بك أبو الذهب عادت مصر من جديد إلى الولاء السياسى للدولة العثمانية.. ومنذ وفاة أبو الذهب وحتى قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر وهى فترة تبلغ ثلاثة وعشرين عاما، تحولت البلاد خلالها إلى صورة دامية للصراع على السلطة والتطاحن بين المماليك والسعى لاغتصاب أموال المصريين والمغالاة فى الظلم، وما صحب ذلك من اضطراب فى الأمن وانتشار الأوبئة والمجاعات ووقوع الغلاء<sup>(٢)</sup>.

ولقد كانت هذه الاضطرابات تعبيرا عمليا عن الصراع الدائر داخل المجتمع المصرى بين الاقطاع المملوكى والبورجوازية المصرية النامية ممثلة فى التجار والصناع منضمين إليهم فئة لعبت فى هذه الفترة دورا بالغ الأهمية فى قيادة الصراع ضد الاقطاع المملوكى، وهم كبار العلماء ومشايخ الأزهر، وعلماء الدين من مثقفى مصر فى ذلك الوقت.

وعندما جاء بونابرت إلى مصر .. رأى أن يتحالف مع البورجوازية المصرية لضرب الاقطاع المملوكى.. ولعل هذا هو الذى يفسر لنا تعاون كبار علماء الأزهر.. وكبار التجار المصريين مع بونابرت.. لقد اتفقت مصلحة الاثنين على ضرب الاقطاع المملوكى، لذلك فنحن نعتقد أن من أبرز نتائج الحملة الفرنسية على مصر هو تمكينها للبورجوازية المصرية من أن تصل إلى الحكم..

(١) د. محمد أنيس - المجتمع المصرى من الاقطاع إلى الرأسمالية - من محاضرات المعهد العالى للدراسات الاشتراكية ص ٢

(٢) د. عبد العزيز محمد الشناوى - عمر مكرم - دار الكاتب العربى - القاهرة ١٩٦٧ - ص ١٦، ١٧.



وبالنظر إلى سماءات أعضاء الديوان العمومي الذي شكل بعد ثورة القاهرة الأولى والذي كان يتكون من ٦٠ عضواً سنجد أن من بينه ١٤ عضواً من العلماء والمشايع ٢٦ عضواً من التجار والصناع و١١ من العسكريين، ٤ من الأقباط، و٣ من الأجانب.. أضف إلى ذلك أن الديوان المخصوص (مجلس الوزراء) الذي كان يتكون من ١٤ عضواً.. كان أغلبه من المشايخ والتجار. ويكفي أن من أعضائه أكبر تاجرين في مصر في ذلك الوقت وهما السيد أحمد المحروقي والسيد أحمد محرم.

وبعد خروج الفرنسيين من مصر عادت مظالم العثمانيين والمماليك كما كانت قبل الحملة ولكن الشعب المصري بقيادة البورجوازية كان قد تغير... فقد تمرست قيادته بالحكم وعرفت معنى السلطة وذات طعم الحرية.. لذلك كان طبيعياً أن ترفض ممالك العثمانيين والمماليك.

ولقد خاضت البورجوازية المصرية في هذه الفترة معركتين مهمتين ضد الاقطاع المملوكي التركي حققت خلالهما نصراً ساحقاً.. المعركة الأولى هي ثورة مايو ١٨٠٥ ضد الوالي العثماني خورشيد والتي انتهت بتولية محمد علي الحكم، والمعركة الثانية هي معركة تثبيت محمد علي.

وكان من شأن هذه الانتصارات أن تضاعف من نفوذ الطبقة البورجوازية في ظل حكم محمد علي لولا أن محمد علي شاء ألا تقوم دولته على الاقتصاد الحر بمعاونة الطبقة البورجوازية.. ولكن بالانفراد بالسلطة وإنشاء دولة احتكارية، الأمر الذي أدى إلى اصطدامه بالطبقة البورجوازية الناشئة والإطاحة بها.. ولعل هذا هو الذي يفسر لماذا لم يجد محمد علي القوة الشعبية التي تسنده في معركته مع الاستعمار الأجنبي، فانهار نظامه عقب معاهدة لندن ١٩٤٠<sup>(١)</sup>.

ولكن الأساس المادي لقيام المجتمع البورجوازي كان لا يزال قائماً في مصر رغم النكسة التي واجهتها الطبقة البورجوازية على يد محمد علي.. ذلك أن انهيار الاقطاع في مصر لم يرتبط فقط بظهور الطبقة البورجوازية، وإنما ارتبط أيضاً بتعطيم الممالك كطبقة.. وبزوال الالتزام، وتحويل الانتاج الزراعي من انتاج للاستهلاك المحلي مثل الحبوب والبقول والكتان إلى إنتاج السلع المصدرة مثل القطن. وكذلك يرتبط هذا التحول بانتقال علاقة الفرد بالأرض من مجرد حق الانتفاع إلى ظهور الملكية الفرية للأرض وأخيراً بتوحيد الضرائب على الفلاحين في ضريبة واحدة<sup>(٢)</sup>.

لذلك فإن دراسة تاريخ ملكية الأرض الزراعية في مصر في فترة البحث يكشف لنا عن أن أول معول هدم في البناء الاقطاعي في الزراعة بدأ عندما حاولت الحملة الفرنسية تغيير نظام الاقتصاد من الاقطاعية إلى البورجوازية فقصت على قوة الممالك وألغت نظام الالتزام وصادرت أموال الأمراء، وجعلت الفلاح ينتفع بانتاج أرضه<sup>(٣)</sup>.

وفي ١٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨ أصدرت سلطات الحملة قانوناً أقر حق التوريث ووضع نظاماً

(١) د. محمد أنيس - المجتمع المصري من الاقطاع إلى الرأسمالية ص ١٢٠

(٢) د. محمد أنيس - المجتمع المصري في ظل الاقطاع ص ١٠٩.

(٣) د. أمين مصطفى عفيفي عبد الله - تاريخ مصر الاقتصادي والمالي في العصر الحديث - الطبعة الثانية ١٩٥٣ - ص ٢٦.

(٤) إبراهيم عامر - الأرض والفلاح - المسألة الزراعية في مصر - مطبعة الدار المصرية للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة ١٩٥٨ ص ٧٥ - ٧٦.

لتسجيل سندات (التمكين) الفردى وبذلك وضع النواة الأولى لنشأة الملكية الفردية فى الأرض الزراعية فى مصر وزعزع أسس نظام ملكية الدولة ونظام الانتفاع<sup>(٤)</sup>.

أما مشروعات محمد على الزراعية فقد بدأت بالغاء نظام الالتزام عام ١٨٠٩ ثم قام بمسح الأراضى وتقسيمها إلى مساحات ثابتة، وعين الحدود الفاصلة بين كل قرية وأخرى وقسم الأراضى إلى أحواض ثم قام بتوزيع تلك الأراضى على فئات معينة من رجال الدولة. وعلى الرغم من هذا التوزيع الشامل للأراضى الزراعية فقد تمسك محمد على بحق التصرف فى الأرض، وحرم بيعها أو توريثها ولم يتمتع الذين وزعت عليهم إلا بحق الانتفاع بها خلال حياتهم.

ولا بد من ملاحظة أن ثمة فارقا قد ظهر بين نظام تملك الدولة للأرض ونظام التملك الذى كان سائدا فى العهد العثمانى. وهذا الفرق هو أن الدولة فى العهد العثمانى كانت تحتكر الأرض بوصفها غرض تصرف وبوصفها غرض انتفاع فى الغالب الأعم - بينما كانت الدولة فى عهد محمد على تحتكر الأرض بوصفها غرض تصرف فى الوقت الذى أصبح فيه الانتفاع بالأغلبية العظمى من الأراضى الزراعية فى أيدى متفعين افراد. وهى أول ظاهرة تاريخية لنشوء الملكية الفردية للأرض الزراعية فى مصر جنبا مع وجود الشكل القديم للملكية الدولة وهو الشكل الذى كان متوجها إلى الاضمحلال.. بسبب تطورات الرأسمالية العالمية وبسبب التطورات الداخلية<sup>(١)</sup>.

وبعد معاهد لندن ١٨٤٠ فتحت أبواب مصر أمام الرأسمالية الأوربية التى عملت على تحطيم نظام الاحتكار الذى فرضه محمد على، على الأرض الزراعية فصدرت عدة لوائح للأطيان كان آخرها التعديل الذى أجرى فى القانون المدنى عام ١٨٩٦ الذى نص على: ان تسمى ملكا العقارات التى يكون للناس فيها حق التملك التام بما فى ذلك الأطيان الخراجية.

وباستقرار الملكية الفردية للأرض الزراعية فى مصر نشأت معها أشكال الاستغلال الرأسمالى للأرض الزراعية، باعتبار أن الأرض رأسمال يدر دخلا، أى ينتج فائض قيمة، وانقسمت الأراضى الزراعية إلى مزارع يستغلها اشخاص افراد أو معنويون - كالشركات المساهمة - يمارسون عليها كافة حقوق الملكية الخاصة .. ومع انه بقيت اشكال قديمة للملكية القديمة، وخاصة استمرار ملكية الدولة لمساحات من الأراضى الزراعية واستمرار وجود الوقف الخيرى الأهلى، فإن الغالبية العظمى من الأراضى أصبحت أغراض استغلال رأسمالى<sup>(٢)</sup>.

ومن هنا فإن تحليل التطور الاقتصادى فى مصر فى القرن التاسع عشر يؤكد أن الرأسمالية تكونت فى الأساس فى مجال الزراعة ذلك لأن استغلال الأراضى الزراعية فى مصر كان استغلال رأسمالية وإن أدق وصف لكبار ملاك الأراضى الزراعية فى مصر هو أنهم ملاك رأسماليون<sup>(٣)</sup>.

(١) المصدر نفسه ص ٨٠.

(٢) المصدر نفسه ص ٩٣.

(٣) إبراهيم عامر - ثورة مصر القومية - دار النديم - القاهرة ١٩٥٧ - ص ٤٣ - ٤٤.

ولكن هذا لا يعنى إنكار الدور الذى لعبته الطبقة التجارية والصناعية فى إحداث التطور  
البورجوازى فى مصر.

ففيما يتعلق بالطبقة التجارية.. فقد شهدت فترة البحث.. وخاصة فترة ما بعد انهيار حكم  
محمد على ظهور عدد من التجار استطاعوا جمع ثروات ضخمة.. وكان لهم ممثلون أقوياء فى  
مجلس شورى النواب الذى أنشئ فى عهد اسماعيل ولعبوا دورا مهما فى التصدى للنفوذ  
الأجنبى مثل عبد السلام المويلحى صاحب الموقف المشهور ضد حل مجلس شورى النواب فى  
أواخر عهد اسماعيل مما جعل البعض يطلق عليه ميرابو مصر.. ومنهم السيد موسى العقاد الذى  
تزعّم فى السنوات الأولى من حكم توفيق وقبل الثورة العربية بقليل حركة احتجاج على إلغاء  
قانون المقابلة، وقدم عريضة إلى الخديوى يتهمه فيها بالاستبداد وكان جزاؤه السجن ثم النفى إلى  
السودان.

أما الرأسمالية الصناعية فقد وضع أساسها محمد على عندما أقام عددا كبيرا من الورش  
والمصانع الحربية ومنها مصانع القلعة للأسلحة ومصانع الخوض المرصود ومصانع لانتاج السلع  
المدينة، كمصانع الغزل والنسيج ومصانع السكر ومصانع لصناعة التيلة للصباغة، وأنشأ ترسانة  
الاسكندرية ومصانع للحبال وشرع السفن ومصانع للكتان والحرير والتي بلغ عددها تقريبا ٢٩  
مصنعا، وقد عمل فى هذه المصانع ٣٠ ألف عامل باجر من مجموع السكان البالغ ٢٣٠٠٠٠  
ومن بين هذه المصانع وجدت مصانع كبيرة استخدمت أكثر من ألف عامل مثل مصانع القلعة  
فراليليق للاتئمان أو كيف يجوز حجر الحرية التى هي سلاح العقل عن أمة دون (١).

والذى يهمننا فى حركة التصنيع التى أقامها محمد على وجود ظاهرتين مهمتين:

الأولى : أن قوة عمل مأجور قد وجدت.

الثانية : ان طريقة تشغيل هؤلاء العمال لم تكن تتم وفقا لأسس وقواعد التنظيم الحرفى للانتاج.  
وصحيح أن محمد على أقام مصانعه فى الأساس لكي تخدم طموحه العسكرى فى التوسع  
ولكن هذا لا يعنى إلغاء الدور الذى كان يمكن أن تلعبه هذه المصانع فى خدمة التطور  
البورجوازى فى مصر لو تركت تنمو نموها الطبيعى.. إذ أن هذه الحركة الصناعية أجهضت عقب  
معاهدة لندن ١٨٤٠ وانهيار آمال محمد على العسكرية والتوسعية.

ولقد أتاحت هذه المعاهدة فرصة واسعة لتدفق النفوذ الأجنبى إلى مصر وخاصة الانجليزى

(١) عبد المنعم الغزالى - تاريخ الحركة النقابية المصرية - الطبعة الأولى - الشركة المصرية للطباعة - القاهرة

١٩٦٨ - ص ٢

(٢) د. محمد أنيس - محاضرات فى تاريخ الشرق الأوسط الحديث - الجزء الأول - مكتبة دار العالم العربى -

القاهرة ص ١٣٦.

والفرنسى.. وقد وافق ذلك تدفق رؤوس الأموال الأوروبية على مصر فى شكل شركات رأسمالية كبرى فى مقدمتها شركة قناة السويس أو فى شكل قروض (٢).

وعلى الرغم من المأساة الوطنية التى ارتبطت بهذه القروض والتى تجسدت أخيرا فى الاحتلال العسكرى للبلاد.. إلا أن جانبا من هذه القروض قد استخدم فى الإنفاق الانتاجى، ويقدره الخبراء بنحو ٣١ مليون جنيه - فى مشاريع الري والكبارى ومصانع السكر وميناء الاسكندرية وأرصفت ميناء السويس، ومشروع مياه الشرب بالاسكندرية وخطوط السكك الحديدية والمنارات. ولا شك أن هذه المشاريع قد سمحت بخلق نوع من الاستخدام التعاقدى، لعدد من العمال الوطنيين الذين تم اختيارهم بالضرورة من بين صفوف الفلاحين المعدمين والصناع الحرفيين فى مرحلة الاضمحلال الطائفى (١).

ودخلت الاستثمارات الأجنبية مجال الصناعة أيضا، وإن كان ذلك قد تم بقدر محدود إذا قورن بالاستثمارات الموجهة إلى مجال الاقراض العقارى، ومجال المرافق.. ولكن لا بد من الاعتراف بأن هذا القدر من النشاط كان المستول الرئيسى عن خلق بعض الصناعات الكبيرة التى تتناول كميات وفيرة من الخامات، وتباشر فى مصانع كبيرة تدار بالقوة الآلية مع استخدام عدد عظيم من العمال (٢)، مثل صناعة الغزل والنسيج ومصانع السكر وصناعة السجاد وصناعة الزيوت وصناعة الأسمت والطوب وصناعة الكحول.. ولقد كانت هذه الصناعات مضطرة إلى استخدام أعداد كبيرة من العمال الأجانب وخاصة الفقراء الأوربيين ولكن الغالبية العظمى منها لم تلبث أن جذبت إلى خدمتها جانبا من جماهير المعدمين والصناع والحرفيين الوطنيين فشكل هؤلاء بالضرورة الطلائع المبكرة للأجراء، الذين يعملون على أساس التعاقد الحر بالمعنى العلمى لهذا المصطلح نظرا للانفصال الذى تم بين العمل ورأس المال داخل هذه المشروعات (٢).

ولم تكن البورجوازية المصرية تضم داخلها كبار ملاك الأراضى وكبار التجار ورجال الصناعة فقط، ذلك أن مناصب الدولة أيضا كانت ميدانا من ميادين ظهور البورجوازية المصرية فإن قطاعا كبيرا من البورجوازية المصرية كان يتمثل فى موظفى الدولة.. بل إن أصحاب " الجفالك والابعاديات " كانوا قد منحوا هذه الأرض كموظفين فى دولة محمد على (٤).

وإلى هذا القطاع من البورجوازية المصرية ينتمى أكثر مثقفى هذه الفترة وهم الذين ظهروا نتيجة لمشروعات محمد على العلمية والعسكرية التى تخدم طموحه إلى التوسع. وقد برزوا من

(١) أمين عز الدين - تاريخ الطبقة العاملة المصرية - دار الكاتب العربى - القاهرة ص ٣٨ - ٣٩.

(٢) المصدر نفسه ص ٤٢.

(٣) المصدر نفسه ص ٤٦.

(٤) د. محمد أنيس - ود. السيد رجب حراز - التطور السياسى للمجتمع المصرى الحديث - ص ١٢١ - ١٢٢.

خلال عمليات التعليم المدني والبعثات إلى أوروبا ومن خلال حركة الترجمة وجهود مدرسة الألسن.

وقد عبر هذا القطاع من المثقفين عن مصالح الطبقة البورجوازية في ثقافة ليبرالية تولت التبشير، والدعوة للأفكار الليبرالية في مصر من خلال الصحافة التي كانت تشكل أكثر الأدوات الثقافية المناسبة لمخاطبة العقل المصرى في ذلك الوقت.

إذن فالليبرالية في مصر نمت وتطورت نتيجة مباشرة للتحويلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي حدثت في بنية المجتمع المصرى... ونتيجة للتغير الذى أصاب التركيب الاجتماعى والاقتصادى به.. فالليبرالية في مصر لم تكن سوى انعكاس لكل هذه التحويلات على حركة الفكر المصرى.

\* \* \*



النائب الأول

**الفكر القومي في الصحافة المصرية**





## نشأة الفكرة القومية في مصر

لم تكن الفكرة القومية معروفة في العصور الوسطى - إذ كان مفهوم الأمة مرتبطاً بقضية الولاء السياسي، فلم يكن الألماني مثلاً - أو الإنجليزي أو الفرنسي ينظر إلى نفسه باعتباره مواطناً ينتمى إلى قومية متميزة، وإنما باعتباره من رعايا هذا الملك أو ذلك الامبراطور.. وبالتالي فقد كان الإنجليزي والفرنسي مثلاً إذا انبسط عليهما حكم ملك واحد أصبحا وكأنهما ينتميان إلى أمة واحدة.. ومع امتداد النفوذ السياسي كانت تمتد، الرقعة التي يحكمها الملك أو الامبراطور.. ولم يكن هناك فرق بين الأمة والدولة.. كذلك فإن عضوية مثل هذه الأمة ليست بالضرورة عضوية اختيارية... إذ غالباً ما تكون القوة العسكرية القاهرة هي العامل الحاسم في ذلك<sup>(١)</sup>.

وفي نهاية القرن الثامن عشر ظهر مفهوم جديد للأمة يرجعها إلى التكوين التاريخي المشترك المنبثق من وحدة اللغة والأرض والحياة الاقتصادية<sup>(٢)</sup>. ومن مزاج نفسى واحد يعبر عن نفسه في ثقافة قومية خاصة<sup>(٣)</sup>. ولقد ساعد على انتشار هذا المفهوم كل من الثورة الفرنسية وحروب نابليون، فلأول مرة يتكون في فرنسا جيش شعبي يدافع عن حقوق الشعب الفرنسي. ولأول مرة يحارب شعب بأكمله بعد أن كانت الجيوش حتى ذلك الوقت منظمات محترفة. ولأول مرة يخلق علم قومي ونشيد قومي<sup>(٤)</sup>، ثم امتد ذلك المفهوم بعد ذلك إلى ألمانيا وإيطاليا وأسبانيا وروسيا<sup>(٥)</sup> واقترب ظهور الحركات القومية بانتصار الرأسمالية الحاسم على الاقطاع<sup>(٦)</sup> ذلك ان تطور الانتاج السلعي يتطلب استيلاء البورجوازية على السوق الداخلية وتوحيد الأراضي التي يتكلم سكانها لغة واحدة في دولة واحدة.. فالسعى إلى إقامة سوق قومية تستجيب على الوجه الأكمل لمطالبات الرأسمالية.. أمر ملازم لكل حركة قومية.. وتدفع إلى ذلك أعماق العوامل الاقتصادية.. ومن هنا فإن ما يميز المرحلة الرأسمالية هو قيام الدولة القومية في أوروبا الغربية كلها.. بل في العالم المتمددين كله<sup>(٧)</sup> في ذلك الوقت.

ولقد مرت الحركة القومية بعدة مراحل.. ففي بدايتها كانت حركة بورجوازية.. ثم تحولت بعد ذلك إلى حركة جماهيرية، فكل شعب شعر بالقومية حين رأى أنها تعطيه حق تقرير مصيره السياسي ليكون مستقلاً عن القوميات الأخرى، وتميزاً عنها ومساوياً لها<sup>(٨)</sup>.

(١) عبد الفتاح حسنين العدوى - الديمقراطية وفكرة الدولة (الألف كتاب - القاهرة ١٩٦٤) ص ٢٣٠ - ٢٣١.

(2) International Encyclopedia of The Social Science - P. P. 7.

(٣) بيلينامو رجنسكايا - مسألة الأمة - ترجمة رفعت السعيد - مكتب يوليو للترجمة والنشر والتوزيع - القاهرة ١٩٦٦ - ص ٢٩ - ٣٠.

(٤) د. عبد الله عبد الدايم - القومية والانسانية - منشورات دار الآداب - بيروت الطبعة الثانية ١٩٥٩ ص ٢٤ - ٢٥.

(5) International Encyclopedia of The Social Science PP. 7- 14.

(٦) رثيف خوري - معالم الوعي القومي - منشورات دار المكشوف - بيروت ١٩٤١ ص ٨٨.

(٧) لينين - المختارات المجلد ١ الجزء ٢ - دار التقدم - موسكو ١٩٦٦ - ص ١٩٢ - ١٩٦.

(8) International Encyclopedia of The Social Science PP. 63- 69.

ولقد كانت مقومات الأمة موجودة فى المجتمع المصرى الاقطاعى من لغة وتاريخ مشترك وغير ذلك إلا أن الاقطاع كان يحول دون نمو هذه المقومات وانصهارها وبلورتها<sup>(١)</sup>... فمصر لم تفقد مقومات الأمة فى يوم من الأيام.. وقد ظلت هذه المقومات قائمة فى ظل غزو الفرس وتحت حكم الرومان والعرب والأتراك والمماليك.. ولا بد أن نفرق فى التاريخ المصرى بين مرحلتين إحداهما السابقة على دخول الاسلام والأخرى لاحقة لدخوله... ففى المرحلة الأولى كانت القومية المصرية ظاهرة بوضوح أما فى المرحلة الثانية فقد انطوت هذه القومية فى الدين الجديد وفى مثله وأفكاره.. والإسلام يجعل دار الإسلام واحدة مهما تتباعد بين أطرافها المسافات وتختلف التقاليد والعادات.. وأصبحت مصر ترى أن خضوعها لحاكم من المسلمين شىء طبيعى بغض النظر عما إذا كان هذا الحاكم من أهل البلاد أو أجنيا عنها.. وإن الاشتراك فى الدين كاف بذاته لكى يقضى على كل نزعة أخرى ويجعل انضمام بلد مسلم إلى مجموعة البلاد الاسلامية شيئاً يقضى به الدين ويتفق مع أحكام الشريعة<sup>(٢)</sup>. وعندما دخلت مصر فى حكم الدولة العثمانية.. شعر المصريون بولاء عميق للخليفة العثمانى ولم يكونوا فى ذلك يتصرفون عن ضعف فى شعورهم القومى، وإنما لأنهم رأوا أن قوميتهم قد انصهرت فى قومية أكبر.. ومع ذلك ظلت مصر محتفظة بوحدها الجنسية واللغوية مطلقة.. فأقليتها الدينية تعد محدودة.. وكل من الأغلبية والأقلية على حدة لا يعرف التشنج أو التشيزم الطائفى. والكل يؤلف وحدة وطنية على درجة نادرة من التماسك.. ولذلك فإن الاستقرار السياسى فى مصر حتى فى ظل الاقطاع سمة واضحة<sup>(٣)</sup>. إن مقومات الأمة موجودة فى مصر اذن، ولكن الوعى بها لم يكن موجوداً..

وقد أتاح انهيار النظام الاقطاعى الفرصة لهذه المقومات لكى تنصهر وتعمل على تكوين شكل الأمة خصوصاً أن انهيار الاقطاع يرتبط عادة بتقدم وسائل المواصلات.. وفى نهاية الأمر تحول سكان مصر من مجموعة من الطوائف إلى أمة قوميتها المتكاملة ظاهرة مرتبطة أشد الارتباط بانهار الاقطاع<sup>(٤)</sup>.

لذلك لابد من الربط بين بداية التطور الرأسمالى فى مصر فى نهاية القرن الثامن عشر وبين أول محاولة لفصل مصر عن الدولة العثمانية وإعلان الاستقلال على يد على بك الكبير.

ولم تكن حركة على بك الكبير هى المظهر الوحيد لبداية التفكير فى الاستقلال القومى فى مصر.. فقد سبق حركته وعاصر سنواتها الأولى حركة الاستقلال التى قام بها زعيم عربان الصعيد شيخ العرب هماد بن يوسف الهوارى وأصبحت سلطته مطلقة فيما بين جرجا وأسوان<sup>(٥)</sup>. فى الفترة ما بين ١٧٦٥ - ١٧٦٩ حيث قضى عليه على بك الكبير واستردت حكومة المماليك المركزية بالقاهرة سلطتها على الصعيد.

(١) د. محمد أنيس - محاضرات فى تاريخ الشرق الأوسط الحديث ص ١٨٣.

(٢) محمد زكى عبد القادر - محنة الدستور - الجزء الأول - كتاب روز اليوسف - القاهرة ١٩٥٥ ص ٧، ٨، ٩.

(٣) د. جمال حمدان - شخصية مصر - دراسة فى عبقرية المكان - كتاب الهلال - ١٩٦٧ - القاهرة ص ٢٣٧.

(٤) د. محمد أنيس ود. السيد رجب حراز - التطور السياسى للمجتمع المصرى الحديث - ص ٤٨.

(٥) محمد رفعت رمضان - على بك الكبير ص ٤٨، ٤٩.

ولقد ساهمت الحملة الفرنسية في ظهور كيان الدولة في مصر.. وبعث القومية المصرية عندما أقامت حكومة مركزية قوية حلت محل الحكومات المملوكية الضعيفة. ولقد طرح بونايرت في بيانه الأول<sup>(١)</sup> إلى المصريين المبادئ الأساسية للفكر القومي فهو يخاطب المصريين باعتبارهم أمة متميزة ذات كيان خاص ثم يتبع ذلك بتمجيد المصريين مستشهدا بحضارتهم القديمة مرجعا انهيارها إلى مساوئ الحكم المملوكي «وسابقا كان في الأراضى المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما أظهر ذلك كله إلا الظلم والطمع من المماليك» ثم هولا يكتفى بأن يخرج المماليك من الأمة المصرية بل يتعمد تحقيرهم مميذا المصريين عليهم «هذه الزمرة من المماليك المجبولين من بلاد الابازة والجراكسة يفسدون فى الاقليم الحسن الأحسن الذى لا يوجد فى كرة الأرض كلها».

ثم يعد البيان المصريين بأن يسلمهم حكم بلادهم بعد أن يظهرها من المماليك "من الآن فصاعدا لا ييأس أحد من أهالى مصر عن اكتساب المراتب العالية فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيديرون الأمور وبذلك يصلح حال الأمة كلها».

إن هجوم بيان بونايرت على المماليك يمكن تفسيره أيضا على ضوء ما حدث قبل سنوات قليلة من الحملة.. أثناء الثورة الفرنسية نفسها.. ذلك أن زعماء الثورة الفرنسية حينما دعوا الشعوب إلى أن تمارس حقها فى حكم نفسها أثار ذلك التفكير فى الأقلية التى تستغل تلك الشعوب وعن تتكون. وانتهى هذا التفكير إلى فحص جنسية هذه الأقلية وما إذا كانت تنتهى إلى نفس الشعب الذى تحكمه أم أنها أجنبية عنه.. وهذا السؤال يثير بطبيعته التساؤل فى من هو الأجنبى وما هى الأمة؟<sup>(٢)</sup>.

وكان بونايرت ببياناته.. وسلوكه وخططه لحكم مصر.. يدفع المصريين لكى يفكروا فى وضعية المماليك واكتشاف الاختلافات الجوهرية بينهم وبين الأقلية التركية والمملوكية التى تتحكم فيهم.

والواقع أن بونايرت فى هذا المنشور الأول قد استثار الروح القومية المصرية ولم يسبق لفتاح قبل ذلك العصر أن يشيد بمكانة مصر وعظمتها ويوجه خطابه إلى أصحاب الحل والعقد فى البلاد<sup>(٣)</sup>.. وكانت هذه هى أول إشارة لبعث القومية المصرية وهو البعث الذى تبلور بعد ذلك فى فكرة الأمة المصرية التى يشير إليها البيان وفى دعوة مصر للمصريين فيما بعد<sup>(٤)</sup>.

(١) عبد الرحمن الجبرتي - عجائب الآثار فى التراجم والأخبار - الجزء الثالث - طبعة مصر - ١٢٣٦ هـ ص ٥٠٤.

(٢) د. صلاح العقاد - دراسة مقارنة للحركات القومية فى المانيا وإيطاليا والولايات المتحدة وتركيا (معهد البحوث والدراسات العربية - القاهرة - ١٩٦٧) ص ٢٣.

(٣) د. عبد العزيز الشناوى - عمر مكرم ص ٩٣.

(٤) عبد الرحمن الرافعي - تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر - (الجزء الأول - الطبعة الرابعة - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٥٥) ص ٨٨.

وبعد خروج الفرنسيين من مصر عام ١٨٠١ وحتى تولية محمد على عام ١٨٠٥ لم تزد العلاقة بين مصر والدولة العثمانية عن مجرد ولاء اسمى فقط وحسبنا أن نذكر أنه تعاقب على حكم مصر خلال هذه الفترة خمسة ولاة عثمانيين قتل منهم اثنان وأُخرج الثلاثة الباقون من البلاد اخراجا غير كريم<sup>(١)</sup>.

وبمجرد أن استقر المقام لمحمد على في مصر - بدأ يفكر جديا في الاستقلال عن الدولة العثمانية، واستغل الحرب اليونانية والانتصارات التي حققها ابنه ابراهيم باشا لإبراز شخصية مصر الدولية ثم أحرز بالفعل مركزا دوليا عندما جعل الدول الأوربية تفاوضه رأسا دون وساطة تركيا.. فلا غرو أن قويت في نفس محمد على بعد تلك الحرب فكرة اعلان الاستقلال<sup>(٢)</sup>.

وقد اعتزم محمد على عام ١٨٣٤ عقب الحرب السورية الأولى إعلان الاستقلال ليقطع آخر سبب يربطه بتركيا إذ صارع وكلاء الدول بما صمم عليه فرفضت الدول طلبه وحذرته من العاقبة. ثم جدد عزمه على إعلان الاستقلال مرة أخرى (مايو عام ١٨٣٨) واستدعى وكلاء الدول في مصر وأعلنهم بعزمه هذا، ولكن الدول اعترضت على ما عزم عليه محمد على وحذرته من جديد - عواقب عمله<sup>(٣)</sup>.

ورغم أن معاهدة لندن (١٨٤٠) قد حرمت مصر ثمرة انتصاراتها إلا أنها جعلت لمصر شخصية دولية، رفعت مركزها من مجرد ولاية كغيرها من ولايات السلطنة العثمانية إلى ولاية ذات وضع خاص مقيد بقيود السيادة التركية، فالمعاهدة تعترف بأن لمصر مركزا دوليا مستقلا عن تركيا اذ جعلت حكومتها وراثية في أسرة محمد على ومعلوم أن ولاية العهد وخاصة في ذلك العصر كانت هي مظهر السيادة والاستقلال.

ولم يرد في المعاهدة من القيود العملية التي تحد من ذلك الاستقلال سوى دفع جزية سنوية للباب العالي وسريان معاهدات تركيا في مصر واعتبار قواتها الحربية جزءا من قوات السلطنة العثمانية.. فهذه القيود هي مظاهر السيادة العثمانية التي فرضتها الدول على مصر في معاهدة لندن<sup>(٤)</sup>.



(١) لويس عوض - تاريخ الفكر المصري الحديث - الجزء الأول - ص ١٣٣.

(٢) عبد الرحمن الرافعي - عصر محمد على - الطبعة الثالثة - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٥١ - ص ٢٤٢.

(٣) المصدر نفسه ص ٣١١.

(٤) المصدر نفسه ص ٣٦٢.



يعتبر رفاة رافع الطهطاوى هو أول مفكر مصرى فى العصر الحديث نعر لديه على البدايات الجينية لفكرة الوطنية المصرية وإذا تتبعنا ما كتبه قبل أن يعمل بالصحافة، نراه يتعرض لفكرة الوطنية المصرية فى كتابه الأول "تخليص الابريز فى تلخيص باريز (١٨٣٤).." فإذا اعتبرنا الوطنية هى حب الوطن والشعور بارتباط عاطفى نحوه<sup>(١)</sup> فإن رفاعه يكتب وهو فى باريس بيتا من الشعر يقول فيه:

لئن طلقت باريسا ثلاث . . . فما هذا لغير وصال مصر (٢)

وهو يتحدث عن مصر باعتبارها أفضل البلاد (أما فى بلاد افريقية فإنها تشتمل على أعظم البلاد.. فكيف لا ومصر التى هى من أعظم البلاد وأعمرها وهى أيضا عش الأولياء والصلحاء والعلماء)<sup>(٣)</sup>.

ولقد ظهر فى تلخيص الإبريز بداية اهتمام رفاعه بالتاريخ المصرى القديم قبل أن يتعمق هذا المجال فيما بعد.. فهو يتحدث عن الأهرامات ويذكر بالفخر ما قاله الإفرنج عنها ثم يتحدث عن «البرانى .. وهى المشهورة عند العامة بالمسلات ولغرايتها نقل منها الإفرنج اثنتين إلى بلادهم: إحداهما نقلت إلى روما فى الزمن القديم والأخرى نقلت إلى باريس فى هذا العهد» ثم يكشف عن حرصه على ثروات وطنه الأثرية من الضياع ونهب الأجانب لها. وأقول حيث إن مصر أخذت الآن فى أسباب التمدن فهى أولى وأحق بما تركه لها سلفها من أنواع الزينة والصناعة، وسلبه منها شيئاً بعد شيء يعد عند أرباب العقول من اختلاس حلى الغير للتحلى به فهو أشبه بالغضب وإثبات هذا لا يحتاج إلى برهان لأنه واضح البيان<sup>(٤)</sup>.

ما هو الوطن ؟:

رغم أن رفاعه الطهطاوى لم يحاول أن يقدم لنا تعريفاً لمفهوم الوطن فى تلخيص الإبريز إلا أننا نجد بعد ذلك بأكثر من أربعين عاماً (١٨٧٤) يتصدى لهذه العملية.. فى صحيفة "روضة المدارس المصرية" .. ويحاول أن يقدم تعريفاً للوطن وللوطنية.. فهو يرى أن الوطن هو عش الإنسان الذى فيه درج ومنه خرج وجمع أسرته ومقطع سرتة وهو البلد الذى نشأته وتربته، وغداؤه هواؤه، ورباه فسيحه، وحلت عنه التمايم، فيه قال ابو عمر بن العلاء.. مما يدل على حرية الرجل وكرم غريزته حنينه إلى أوطانه وتشوقه إلى متقدم إخوانه.. وبكاؤه على ما مضى من

(١) ساطع الحصرى - آراء وأحاديث فى الوطنية والقومية (مطبعة الرسالة - القاهرة ١٩٤٤) ص ٨، ٧ وأثر الجندى - القومية العربية والوحدة الكبرى - الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة - ١٩٦٢ ص ٧٠.

(٢) رفاعه رافع الطهطاوى - تخليص الابريز فى تلخيص باريز - طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومى - القاهرة - ١٩٥٨ ص ١٠٥.

(٣) نفس المصدر ص ٧٦.

(٤) نفس المصدر ص ٣٠٢.

## الفصل الأول

# الوطنية المصرية في الصحافة المصرية

زمانه والكريم يحن إلى أحبابه كما يحن الأسد إلى غابه ويشتاق اللبيب إلى وطنه فلا يؤثر الحر.. على بلده بلدا ولا يصير عنه أبدا»<sup>(١)</sup>.

ومقومات الوطن عند الطهطاوى هي أن (أبناء الوطن دائما متحدون فى اللسان.. وفى الدخول تحت استرعاء ملك واحد، والانقياد إلى شريعة واحدة وسياسة واحدة)<sup>(٢)</sup>.

وإذا كنا نتفق مع الطهطاوى فى جعله اللغة (متحدون فى اللسان) أول عامل من عوامل بناء الوطن.. إلا أن جعله الولاء السياسى (الدخول تحت استرعاء ملك واحد) والولاء القانونى (الانقياد إلى شريعة واحدة) من شروط قيام الوطن... فإنه يردد بذلك نفس المفهوم الذى كان يسود الفكر السياسى فى العصور الوسطى حين كانت فكرة الوطن مرتبطة بمسألة الولاء السياسى حيث يتغير ولاء الفرد بتغير السلطان السياسى.. ثم هو أيضا يردد الفكرة التى سيطرت أيضا على الفكر السياسى فى العصور الوسطى حيث كان القانون أو الشريعة بمفهوم الطهطاوى عاملا رئيسا فى تكوين الوطن اذ مع امتداد النفوذ السياسى تمتد الرقعة التى يحكمها القانون الواحد.

وخلاصة هذه النظرة إلى الوطن أنه لا يوجد فرق كبير بينه وبين الدولة لأنه حيث يمتد سلطان الهيئة الواحدة الحاكمة تمتد رقعة الوطن<sup>(٣)</sup>.

وربط الطهطاوى بين حق المواطنة وبين كفالة الحقوق والواجبات السياسية وأعطى هذا المفهوم بعدا لبراليا واضحا فهو يرى: «أن ابن الوطن المتأصل به ينسب إليه تارة إلى اسمه فيقال مصرى مثلا أو إلى الأهل فيقال أهلى أو إلى الوطن فيقال وطنى.. ومعنى ذلك أنه يتمتع بحقوق بلده وأعظم هذه الحقوق هو الحرية التامة فى الطبيعة التأسيسية.. ولا يتصف الوطن بوصف الحرية إلا إذا كان منقادا لقانون الوطن ومعينا على إجراءاته.. فانقياده لأصول بلده يستلزم ضمنا ضمان وطنه له بالتمتع بالحقوق المدنية والتمييز بالمزايا البلدية. فبهذا المعنى هو وطنى وبلدى فصفة الوطنية لا تستدعى فقط أن يطلب الإنسان حقوقه من الوطن بل يجب عليه أيضا أن يؤدى الحقوق التى للوطن عليه فإذا لم يعرف أحد من أبناء الوطن بحقوق وطنه ضاعت حقوقه المدنية التى يستحقها من وطنه»<sup>(٤)</sup>.

فالعلاقة بين الوطن والمواطن عند الطهطاوى علاقة شبه تعاقدية.. فالمواطن لا يؤدى حقوق الوطن عليه إذا حصل على حقوقه من الوطن وأولها حريته.

وارتباط المواطنة بحرية المواطن عند الطهطاوى من (أعظم المزايا عند الأمم المتمدنية)<sup>(٥)</sup> وهذه المزية هى التى تفرق بين الأمم المتخلفة والأمم المتمدنية فقد كان أغلب تلك الأمم محرومين من تلك المزية يوم أن كانت أزمان فيها أوامر ولأه الأمور جارية على هوى أنفسهم يفعلون ما يشاءون وقد كان الأهالى إذ ذاك لا مدخل لهم فى معارضة حكاهم ولا محاماة لهم يمكنهم أن يخبروا ملوكهم بما يرونه غير موافق أو يكتبون شيئا فيما يخص السياسات والتدابير

(١) روضة المدارس المصرية العدد ٢١ السنة الخامسة ١٨٧٤.

(٢) نفس المصدر.

(٣) عبدالفتاح حسنين العدوى.. الديمقراطية وفكرة الدولة ص ٢٣٠ - ٢٣١

(٤) روضة المدارس - العدد ٢٢ السنة الخامسة سنة ١٨٧٤

(٥) روضة المدارس المصرية - العدد ٢٢ - السنة الخامسة سنة ١٨٧٤.



ولا يبدون آراءهم فى شئ فكانوا كالأجانب فى أمور الحكومة» ثم يضيف إلى ذلك (والآن تغيرت هذه الأفكار وزالت عن أبناء الوطن هذه الأخطار، فالآن ساع للوطنى الحقيقى أن يملأ قلبه بحب وطنه لأنه صار عضوا من أعضائه)<sup>(١)</sup>

فالطهطاوى إذن ينفى عن المواطن غير المتمتع بحريته حق المواطنة وفى الوقت نفسه لا يعترف بالوطن إلا إذا كان مواطنوه أحراراً. وهو هنا متأثر بروسو الذى اعتبر المواطنة Citizenship مجموعة من الحقوق والواجبات الطبيعية بدونها لا يقوم المجتمع السياسى المنظم<sup>(٢)</sup> فمفهوم المواطنة عند روسو يقوم على دعامتين رئيسيتين: المشاركة الإيجابية من جانب الفرد فى عملية الحكم - والمساواة الكاملة بين أبناء المجتمع الواحد كلهم - ولقد أكد روسو أهمية هذا المبدأ إلى حد أنه ذهب إلى أنه بمجرد أن ينصرف الناس عن الاهتمام الإيجابى بشئون الدولة أو إذا حيل بينهم وبين هذه المشاركة الإيجابية.. يكون الوقت قد حان لاعتبار الدولة فى حكم المفقودة<sup>(٣)</sup>

وبعد الطهطاوى نجد محاولات متعددة لتعريف الوطن والوطنية تراوحت بين التصور الرومانسى إلى التعريف العلمى.. ومنها محاولة مبكرة (لأمين شميل) فى الأهرام وفيها ربط الفكرة الوطنية بالمصالح المشتركة لأفراد الوطن فالوطنية عنده (تولد فى الأحضان الأبوية وتنمو بالمصالح الخصوصية وتكمل بالتعاون.. فإذا بلغ حب الوطن مداه تهرق دونه الدماء وتبذل لأجله اللوات).<sup>(٤)</sup>

ثم تتبع أمين شميل النشأة التاريخية لفكرة الوطنية ومكانها فى رحلة التطور الإنسانى. ويرى (أن هناك أربع دوائر يرتبط بها الإنسان: الأولى دائرة الأسرة، والثانية دائرة الوطن، والثالثة دائرة الملة. أى العقيدة الدينية أو السياسية، والرابعة دائرة الإنسانية كلها).

أما سليم النقاش فهو يقدم فى صحيفة العصر الجديد تعريفاً آخر للوطن يجعل العنصر الأساسى فيه أحد ثلاثة: الدين أو القانون.. أو العقيدة السياسية أو الثلاثة معا فهو يرى (أن الوطن بقعة من الأرض تسكنها أمة من الناس جرت على قاعدة دين - أو مستحكم عادة قيدت بأمر حاكم.. أو مشورة حكيم.. فهو سلسلة اتصلت حلقاتها بأحكام سبكها)<sup>(٥)</sup> ويضيف أن الوطنية لا توجد إلا فى الوطن المستقل الذى لا تتحكم فيه دولة أخرى.. فالوطنية (لا تقبل الدخيل ولا يلائمها ما غاير معدنها فإذا اتصل بها أجنبى عنها قطعها إن كان قوى الجاذبية وأبان جاذبيتها إن كان ضعيف القوة).<sup>(٦)</sup>

ولا يتجاهل سليم النقاش أثر المصلحة المشتركة والتاريخ المشترك والثقافة المشتركة المتمثلة فى وحدة العادات والتقاليد فى تكوين الشعور الوطنى.. فهو يرى أن الوطنى هو الذى (يحرص

(١) المصدر نفسه.

(٢) د. عبد الكريم أحمد - القومية، المذاهب السياسية، الهيئة العامة للتأليف والنشر - القاهرة سنة ١٩٧٠ - ص ١٢٧

(٣) المصدر نفسه - ص ١٢٨

(٤) صحيفة الأهرام - ٢٢ ديسمبر ١٨٧٧ مقال بعنوان (الإنسان فى دنياه ومعاده - وحقيقة الوطن).

(٥) صحيفة العصر الجديد - ٤ فبراير ١٨٨٠ مقال باسم الوطنية.

(٦) المصدر نفسه.

على مصلحة بلاده) وهو من (ولد فيها وتربى بين أهليها وشب على عوائلها وشاب على مآلوفاتها فصار جزءاً من كل.. يألم لما يألون منه ويرضى بما يرضونه)، وهو يعتقد أن (الرابطه الوطنية تتغلب على ما عداها من الروابط وخاصة الرابطه الطبقيه) فالعظيم والحقير والصغير والكبير والرئيس والمرءوس وطنى يسعى فى خدمة بلاده صلحت بذلك بلاد غيره أو فسدت فليس من همه إلا ما يحفظ لوطنه ناموسه ويخلد ذكر دولته ويؤيد سطوة حكومته.

ولا يفوت سليم النقاش فى نهاية مقالته أن يؤكد على أن «ممالك الشرق قد حرمت من هذه المزيه (يقصد الشعور الوطنى) فمالت مع الأهواء حيث مالت وصارت مع الأغراض كيفما صارت تقلد هذا اليوم وتخلعه غدا، وتأتى بالأجنبى جاهلا لغة بلادها فضلا عن عوائلها وتلقى إليه تقاليد أمورها طائعة مختارة وترفع الدخيل إلى مقام يظأ فيه الرؤوس بالأقدام وتجعل الوطنى ذنبا أبتسر لا يدفع الذباب إن فشى ولا يستر العورة إن تعرت.. فاختلست إدارتها وتحرك ساكتها واضطربت أحوالها وضعت قوتها).

وفى هذه الجملة الأخيرة نلاحظ أن سليم النقاش يطرح فكرتين على درجة كبيرة من الأهمية فهو أولا، ينكر على الممالك الشرقية وجود الفكرة الوطنية ويؤيد قوله بما هو حادث من سيطرة الأجانب على مقاليد الأمور فى الممالك الشرقية وهو بالتأكيد يشير فى ذلك على مصر وخاصة أن على رأسها أسرة حاكمة غير مصرية، ولعلها أول مرة تظهر دعوة لأن يكون حكام مصر من المصريين. هذه الدعوة التى ظهرت بوضوح بعد ذلك بقليل أى أثناء الثورة العربية.. والذى يجعلنا نتأكد من أنه يشير إلى الأسرة الحاكمة فى مصر قوله (وتأتى بالأجنبى جاهلا لغة بلادها فضلا عن عوائلها وتلقى إليه مقاليد أمورها طائعة مختارة) والمعروف أن أسرة محمد على أجنبية عن مصر.

ثم هو ثانيا: يؤكد أن اختلال شئون الإدارة فى الممالك الشرقية واضطراب أحوالها وضعف قوتها يرجع إلى فقدان الشعور الوطنى.. وعلى ذلك فهناك ارتباط جوهري بين الشعور الوطنى.. وتقدم الممالك الشرقية، وأن وجود الشعور الوطنى شرط لتقدم الممالك الشرقية.

والوطن فى رأى ميخائيل أفندى عبد السيد هو (مسكن الإنسان الذى نشأ فيه وتغذى من نباته واستنشق من هوائه وشرب من مائه وتمتع بمروجه ورياضه ودوحه وصباحته.. فإن حب الوطن من الإيمان) وهو يربط بين الولاء للوطن.. وقيام المواطن بواجبات الوطن عليه (إن حب الوطن يستلزم إعزازه ورفاهية أهله وتأدية ما يجب نحوه من الحقوق وإلا رمى صاحبه باللؤم والعقوق)<sup>(١)</sup>

ويتفق ميخائيل عبد السيد مع سليم النقاش فى أن تأخر الممالك الشرقية يعود إلى فقدانها الشعور الوطنى فهو يقول (إن السبب الذى أخر الممالك الشرقية ورفع الممالك الغربية هو حب الغربين لوطنهم ومقت الشرقيين له).<sup>(٢)</sup>

(١) صحيفة الوطن - ٢٥ أغسطس ١٨٨١

(٢) المصدر نفسه.

ويقدم حسن الشمسى فى صحيفة المقيّد تعريفا للوطن يستبعد فيه الدين من مقومات الوطن فهو يقول «كان الأقدمون يعتبرون الرابطة الحقيقية بين الشعوب إنما هى الوحدة فى الدين، ولهذا كانوا منقسمين أحزابا وطوائف على قدر تنوعهم فى المشرب وتباينهم فى الاعتقاد ولم تكن الجامعة الوطنية أو الوحدة الجنسية تقوى على رفع هذا الإنقسام ومحو الآثار الوخيمة التى تنشأ عن التعصب الدينى<sup>(١)</sup>. وهو يدعو أبناء هذا الجيل.. أن لا يسلكوا ذات المنهج وهو يعتبر «أن من العار أن نجعل الاختلاف فى المشرب والتباين فى العقيدة علة لعداوة مواطنينا» ثم يخصص نداء لطبقة المثقفين فعلى النبهاء الذين تنورت أفكارهم وعلموها ما أصاب الأمة من الضعف وما لحقهم من الشر بسبب تعصبهم أن يدعوا الناس إلى ترك التناؤ الذى لا خير فيه، ثم ينهى مقاله مطالبا (بأن يتحد المسلم والمسيحى فى جانب مصلحة وطنهما ولا يكون ذلك إلا بحسم مادة الإحن والعداوة فيما بينهما ولا يكون التعصب للدين الذى هو كامن فى النفوس مثيرا للغضب الوطنى لأنه، موجب للدمار.<sup>(٢)</sup>

وكان يمكن أن تعتبر مفهوم حسن الشمسى للوطن من أنضج المفاهيم وأكثرها علمانية وتقدمية بالقياس إلى الظروف التى ظهر فيها لولا أنه ادعى بعد ذلك أن هناك وطنية شرقية تجمع كل شعوب المشرق مهما اختلفت معتقداتهم الدينية (فنحن الشرقيون وإن اختلفت مشاربنا أبناء وطن واحد ولن نقوى على حفظه مادامت مذاهبنا مفرقة لوحدتنا) وهو لا يتوجه بدعوته للوحدة إلى أبناء مصر وحدهم وإنما إلى أبناء الشرق كلهم «فيا أبناء الشرق كلكم عندى سواء وإن اختلف بعضكم معى اعتقادا.. فتعالوا نتحالف على حفظ ما بقى من أوطاننا ونجد فى إحياء موارد الثروة والعمار لبلادنا.<sup>(٣)</sup>

وللشيخ محمد عبده فى الوقائع المصرية أكثر من محاولة لتقديم تعريف لمعنى الوطن والوطنية وفى سلسلة من المقالات التى كتبها تحت عنوان (الحالة السياسية) وباسم مستعار هو (فصول لأديب فاضل) ولكنه بعد ذلك كشف عن اسمه، تعرض أكثر من مرة لمعنى الوطن والوطنية. فهو يعتقد أن (الوطن فى اللغة محل الإنسان مطلقا.. فهو السكن بمعنى أن نقول استوطن القوم هذه الأرض وتوطنوها أى اتخذوها مسكنا)<sup>(٤)</sup>. فالأرض المشتركة هى أساس رابطة الوطن عند الشيخ محمد عبده.. ثم هو يركز على جانب آخر يتفق فيه مع رفاة الطهطاوى وهو ربط حق المواطنة بكفالة الحقوق والواجبات السياسية فالوطن (عند أهل السياسة مكانك الذى تنتسب إليه ويحفظ حقك فيه ويعلم حقه عليك وتأمين فيه على نفسك وآلك ومالك) ثم هو يتفق مع الطهطاوى أيضا فى أنه لا وطن بلا حرية فيقول ومن أقوالهم فيه (يقصد الوطن) لا وطن إلا مع الحرية وقال لا بروير الحكيم الفرنساوى لا وطن فى حالة الاستبداد ولكن هناك مصالح خصوصية ومفاخر ذاتية ومناصب رسمية.. وكان حد الوطن عند قدماء الرومان

(١) صحيفة المقيّد - ٢٤ أكتوبر ١٨٨١ - مقال بعنوان الوحدة بالأمة

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) صحيفة الوقائع المصرية - ٢٨ نوفمبر ١٨٨١ مقال بعنوان «الحياة السياسية».

المكان الذى فيه للمرء حقوق وواجبات سياسية وهو الحد الرومانى لا ينتقص من قولهم لا وطن إلا مع الحرية بل هما سريان فإن الحرية إنما هى حق القيام بالواجب المعلوم فإن لم توجد فلا وطن لعدم الحقوق والواجبات السياسية.. وإن وجدت فلا بد معها من الواجب والحق وهما شعار الأوطان التى تفتدى بالأموال والأبدان وتقدم على الأهل والخلان ويبلغ حبها فى النفوس الذكية مقام الوجد والهيمنان.»

ويحاول الشيخ محمد عبده أن يقدم تعريفا جامعاً مانعاً للوطن فقال: وجملته القول إن فى الوطن من موجبات الحب والرضى والغيرة ثلاثة تشبه أن تكون حدوداً: الأول أنه السكن الذى فيه الغذاء والرقاد والأهل والولد.. والثانى: أنه مكان الحقوق والواجبات التى هى مدار الحياة السياسية.. وهما حسيان ظاهران.. والثالث: أنه موضع النسبة التى يعلو بها الإنسان ويعز أو يسفل ويذل وهو معنى محض»<sup>(١)</sup>

ثم يطبق الشيخ محمد عبده هذا التعريف النظرى على الواقع المصرى فيؤكد أن مقومات الوطن متوفرة فى مصر «فإذا تقرر ذلك مما قلناه وجب على المصرى حب الوطن من كل هذه الوجوه، فهو سكنه الذى يأكل فيه هنيئاً ويشرب فيه مريئاً ويبقى مع الأهل أمينا وهو مقامه الذى ينسب إليه ولا يجد فى النسبة عارا ولا يخاف تعييراً.. وهو الآن موضع حقوقه وواجباته التى حصلت له بما أوضحناه من دخوله دور الحياة السياسية»<sup>(٢)</sup>.

ويرد إبراهيم الهلباوى فى جريدة مصر نفس المفهوم الذى سبق أن طرحه الشيخ محمد عبده فى الوقائع المصرية والذى سبقهما إليه رفاة الطهطاوى فى روضة المدارس وهو ربط حق المواطنة بكفالة الحقوق والواجبات السياسية ولكن الهلباوى زاد عليه بأن طالب بضرورة وجود القانون الذى يحدد هذه الحقوق والواجبات.. ثم اشترط ضرورة أن يحقق هذا القانون منفعة خاصة لكل فرد.. ومن خلال تحقيق منفعة الأفراد سوف تتحقق المنفعة العامة.. وهو بذلك يطرح أحد المفاهيم الرئيسية للفكر الليبرالى ونقصه به فكرة المنفعة فهو يقول بأنه «لابد ليكون الناس أمة واحدة فى خدمة الصالح العام أن تحفظ مصالح الأفراد وتكون بحيث يصل لكل واحد نفعه الخصوصى من خدمة المنفعة العامة لأنه إذا كان كذلك جد كل واحد فى خدمة العموم عن طيب خاطر بدون تكلف لينال حصته من ذلك، ولا يتأتى هذا إلا بأن تأسس الشعوب والأمم بقانون يمنحها المساواة فى الحقوق والواجبات لكى تتضارع مصالحها وتتبادل فى منافعها»<sup>(٣)</sup> ويضيف أن «الأمة من الناس التى تجمعها سلطة واحدة وتضمها الجامعة الوطنية والوحدة الجنسية يجب على ولاية الأمر فيها أن يوحدوا لها الشرائع الأصولية ويساؤوا أفرادها فى الحقوق والواجبات النوعية. فالحق يقال أن الأمة الواحدة لا تكون لها مصلحة عمومية تشمل جميع أفرادها أو على الأقل السواد الأعظم منها ما لم تكن محكومة بقانون يكلف كل واحد بتأدية ما عليه من الواجبات وفى نظير ذلك يحفظ له ماله من الحقوق وكل أمة نالت هذه النعمة هى ينبوع العمار

(١) المصدر نفسه

(٢) المصدر نفسه.

(٣) صحيفة مصر - ١٥ مارس سنة ١٨٨٢ - مقال بعنوان مساواة فى الحقوق تحمى المصلحة العامة.

والسعادة والتي كانت إحداها مشفوعة بدفع ما عليها من الواجبات كـ رغبتها في أخذ مالها من الحقوق».

وهناك نلاحظ تأثر الهلباوى الواضح بالمفكر الإنجليزي: يرمى بنشام (١٧٤٨ - ١٨٣٢) والذي قال بأن المبدأ الذى يتحكم فى الإنسان وأعماله، هو تجنبه للألم ويحثه عن السعادة.<sup>(١)</sup> وهذا هو ما أطلق عليه مبدأ المنفعة.. وهو يعنى أن حركة الإنسان لا بد وأن تستهدف تحقيق أكبر قدر من السعادة وأقل قدر من الألم.. لذلك فإن هدف المشرع يجب أن يكون تحقيق أكبر قدر من السعادة للأفراد.. فالمنفعة العامة لكل الناس هى المبدأ الذى يجب أن يحكم صلاحية أى تشريع.<sup>(٢)</sup>

ولكن لكي يحقق التشريع أكبر قدر من السعادة للجميع لا بد أولاً أن يحمى حصول كل فرد على أقصى منفعة ممكنة - بشرط ألا يمثل ضغطاً على السلوك الإنسانى - فباسم الحرية يرفض بنشام أن يكون القانون أداة لجبر الناس على فعل أشياء ما كانوا يفعلونها طواعية.<sup>(٣)</sup> ولذلك يصير من العبث التحدث عن مصالح المجتمع ككل بدون فهم ما هو صالح كل فرد.. فالشئ يمكن اعتباره يحقق مصالح المجتمع أو لا يحققه.. بمدى ما يحقق من سعادة ومصالح الأفراد.<sup>(٤)</sup>

**المصرى والأجنبى:**

وكان من الضروري أن يؤدى اهتمام الصحف بالوطن والوطنية إلى أن يبدأ التفكير فى من هو المصرى؟ وأن يدفع هذا النقاش إلى فحص جنسية بعض الأقليات وما إذا كانت تنتمى إلى الشعب المصرى أم هى أجنبية عنه خاصة وأن هذه الفترة شهدت عملية هجرة مكثفة إلى مصر سواء من أوروبا وخاصة فرنسا والمجترات، بالإضافة إلى أعداد كبيرة من الطليان واليونانيين.. أو من رعايا الدولة العثمانية وخاصة السوريين واللبنانيين، وكان يعقوب صنوع صاحب (النظارات المصرية) دائم التركيز على مصريته فى أكثر مقالاته الحوارية وكان يفتخر دائماً بأنه «مصرى ابن مصرى..» وده لى أعظم افتخار لأن نكران الأصل عندى أقبح عار».<sup>(٥)</sup>

وهو يصر على أن يكتب فى صدر صحيفة أبو نظارة قوله (لسان حال الأمة المصرية الحرة). ويحرص على أن يوقع مقالاته باسم (الشيخ جيمس سانسوا أبو نظارة زرقاء المصرى) وكان يؤكد دائماً أن هدفه: «أن تكون مصر للمصريين»<sup>(٦)</sup> وهو يعطى مفهومه للمصرى بعداً وطنياً تقديمياً عندما يرفض أن يجعل الدين فاصلاً بين مصرى وآخر.. فالمصرى مصرى لا فرق «إن كان من اليهود أو المسلمين أو النصارى».

(١) د. بطرس بطرس غالى ود. محمود خيرى عيسى - المدخل فى علم السياسة ص ٣٠٣

(2) W. T. Jones: Master of Political Thought. Volume Two. p. 509

(3) George H. Sabine: A History of Political Theory. U. S., 1961. p. 690.

(4) Chester C. Maxey: Political philosophies. The Macmillan Company. New York, 1948. p.p. 460 - 452.

(٥) صحيفة أبو نظارة زرقا أول يوليو ١٨٧٩

(٦) صحيفة أبو نظارة ٢٦ مارس ١٨٨٢

ونشرت جريدة الأسكندرية حواراً هاماً أجريته بين مصري وأفريقي جاء فيه على لسان المصري «إن المتوطن والنزيل من الأجانب يجدر بنا أن نعتبره وطنياً إذا حاز صفات الوطنيين من كافة الوجوه حتى يكون قلبه حيث يكون جسمه فليس بوطنى إلا إذا كان نقياً من سائر العلاقة (يقصد حماية دولة أجنبية) والنزيل لا يعتبر بوطنى ولا مصرى وليس هو إلا كصياد يقصد حيث يدعهم القنص وفوز الغنائم فينصب فخه ويمدد حباله فإن سقط فيها شئ اكتسبه غيمة وعاد من حيث أتى»<sup>(١)</sup>.

إن سليم حموى فى هذا المقال يفرق بين نوعين من الأجانب:-

**الأول:** المتوطن وهو الذى جاء مصر وعاش فيها وجعلها وطناً له ولكنه يشترط عليه ليحوز صفة الوطنية أن يكون حراً من أى ارتباط أجنبى وخاصة الدخول فى حماية أو فى رعاية دولة أجنبية وهو الأمر الذى كان منتشرًا فى ذلك الوقت حينما كان يلجأ البعض إلى الدخول فى حماية دولة أجنبية حتى يضمن الاستفادة من الإمتيازات التى يتمتع بها رعايا هذه الدولة الأجنبية فى مصر وقد انتشر هذا التقليد بصفة خاصة بين الصحفيين الشوام وعلى رأسهم صاحباً الأهرام والوقت.

**والثانى:** النزيل وهو الأجنبى الذى جاء للعمل أو للتجارة أو للكسب فقط عن أى طريق، ولا يكاد ينال غرضه حتى يعود من حيث أتى وهكذا لا يمكن أن يكون مصرياً بحال من الأحوال.

وإذا كان التيار الرئيسى فى الصحافة المصرية كان يرى فيما يتعلق بقضية الوطنى والأجنبى لأن المصريين هم فقط الذين ولدوا على الأرض المصرية أباً عن جد.. فإن هذا لا ينفى وجود تيارات فكرية أخرى مخالفة ويمكن تصنيفها فى تيارين رئيسيين:-

**الأول:** يرى أن الإنتماء لمصر ليس حكراً على أبناء مصر المولودين فيها أباً عن جد.. وإنما يشاركهم فى حق المواطنة جميع رعايا الدولة العثمانية وقد قاد هذا التيار الصحفيون الشوام. فقد نشرت جريدة التجارة نص اللائحة الجديدة لانتخاب أعضاء مجلس شورى النواب وجاء فى أحد بنود هذه اللائحة أن «لا يقبل نائباً من لم يكن من رعايا الحكومة المصرية ومن لم يكن حائزاً لكافة الحقوق المدنية والسياسية»<sup>(٢)</sup>.. وعلقت الجريدة على هذا النص قائلة «قوله من رعايا الحكومة المصرية يشمل لا محالة نزلاء هذه الديار من الشرقيين العثمانيين لأن المتبادر منه إلى الفهم إنما هو التابعة السياسية وهى حاصلة فيهم حصولها فى المصريين»<sup>(٣)</sup>.

وكتب سليم حموى فى صحيفة الاسكندرية «أما العثمانيون فهم منا وعلينا إن لم نقل أقرب مودة إلينا خصوصاً من بيننا وبينه نسبة الجوار وتوافق اللغة ووحدة الإنتماء إلى الدولة العثمانية، لأن من شذ منهم بالإنتماء إلى غيرنا فهو بمثابة الغربى»<sup>(٤)</sup>.

(١) صحيفة الاسكندرية - ١٨ مارس ١٨٨٢ مقال بعنوان (مصر)

(٢) صحيفة التجارة - ١٠ يونيو ١٨٧٩

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه السابق.

فالكاتب يدخل العثمانيين عامة والعرب خاصة (من بيننا وبينه نسبة الجوار وتوافق اللغة) ولكنه يستثنى منهم من يدخل في حماية دولة أجنبية فلا يعطيه هذا الحق، ولقد كانت هناك حساسية خاصة من جانب الصحافة لقضية الدخول في حماية دولة أجنبية.. وظهرت خطورة هذه القضية عندما حصل شاهين باشا وزير خارجية الخديوى إسماعيل ومدير أملاكه في مصر وجاسوسه إليها بعد عزله على الجنسية الإيطالية مما أتاح له فرصة الحماية الأجنبية التي توفر له حرية الحركة ضد الخديو توفيق، والعمل على عودة الخديو إسماعيل. وقد علقت جريدة الوقت على ذلك متسائلة (ماذا يحدث لو اتبعت جميع الدول طريق إيطاليا)؟ لصار جميع الوزراء وقواد العسكرية من تبعة أجنبية وليس من المستحيل أن يأتى مصر يوما ما حليم باشا الذى لا يزال طامعا فى الخديوية المصرية أو الأميران حسن وحسين أو إسماعيل باشا نفسه تحت حماية دولة أجنبية فينصبوا سر المكاييد ويرحلوا عند اشتداد الخطب وإذا سكنت الذوبعة عادوا لاستئناف العمل غير مباليين بالحكومة المحلية ولا بكل من فى مصر من أهل الشرف والكرم.. وبودنا أن تكون حادثة شاهين باشا هذه مثالا لأوروبا تعرف منها غلطها بإجحاف حقوقها فى الشرق لعضد مصالح خاصة بواسطة تداخل مشئوم، يؤدى إلى العبث بالنظام والسلطة.. وإن لفى القضاء على مصر بالفوضى الحكمية يضعف سلطة الخديو على رعاياه بعد أن لعبت بها الفوضى المالية.. لأكبر ضرر وعطل»<sup>(١)</sup>

أما التيار الثانى: فقد قاده عدد من الصحفيين الأجانب الذين ولدوا فى مصر أو جاءوها صغارا وتربوا فيها واعتبروا أنفسهم مصريين.. وهؤلاء اعتقدوا أن من حق أى أوروبى ولد فى مصر أو جاءها صغيرا أن يحوز له لقب المصرى أو الوطنى.. وله ما للمصرى من حقوق.. وقد قاد هذا الاتجاه موسى كاستلى صاحب الكوكب المصرى الذى كتب فى افتتاحية العدد الأول من جريدته يقول (إننى وإن كنت طليانى المحتند فعلى لهذا الوطن حقوق جمه وبينى وبينه نسب أو فيه حقه.. نشأت منذ عنفوان شبابى مبارزا ذوى الألباب مجدداً فى طلب العلم ساعيا فى اكتساب المجد»<sup>(٢)</sup> لذلك كان من الطبيعى أن تكون الفكرة الرئيسية التى يدور حولها تفكير موسى كاستلى هى دعوته إلى وحدة عناصر الأمة: «فأى أمة أرادت أن تنال السعادة والراحة والرفاهية فلا يمكنها الوصول إلى هذه الغاية الشريفة حتى يكون أفرادها كبدن واحد تدبره نفس واحدة إذا أصيب أعضاؤه بألم أو أحس بلذة أحست جميع الأعضاء»<sup>(٣)</sup>

(١) صحيفة الوقت - ٩ يوليو ١٨٨٠

(٢) صحيفة الكوكب المصرى - ١٥ مايو ١٨٧٩

(٣) المصدر نفسه.

وكان لا بد أن تنتهي عملية الفرز بين الوطني والأجنبي بشن هجوم على السيطرة الأجنبية في مصر، وعلى تغلغل نفوذ الأجانب في مجالات الاقتصاد والتجارة.. ومن خلال هذا الهجوم والمعارك الفكرية التي دارت حول هذه القضية تأكدت الفكرة الوطنية المصرية.

والجدير بالإنباه إن أكثر المقالات التي كتبت عن تزايد نفوذ الأجانب في مصر.. كانت بأقلام شامية.. ولعل تفسير ذلك أن الكتاب الشاميين كانوا يعتبرون أنفسهم والمصريين سواء لاشتراكهم في الرابطة العثمانية..

وقد بدأ أديب اسحق الحملة ضد نفوذ الأجانب بمقال نشره في جريدة مصر تحدث فيه عن الإفرنج في مصر وكيف أنهم يتمتعون بحقوق لا يتمتع بها وجوه المصريين وفي رأيه أن هذا الوضع من شأنه «أن يولد فيهم - يقصد المصريين - الحسد والكسل ويشرب قلوبهم التهيب والخوف»<sup>(١)</sup>.

ورغم أن أديب اسحق يبادر فيؤكد اعترافه بفضل الأوروبيين على مصر ولكنه يرى أنهم لم يأتوا في الأصل إلى مصر ليفيدونا.. ولكنهم جاءوا مصر لا لخدمتها ولكن لخدمة مصالحهم.. وإن هذا لا يعطيهم الحق في التمتع بمزايا لا يتمتع بها المصريون أنفسهم»<sup>(٢)</sup>.

وقد نقل أديب اسحق هجومه على الأجانب إلى جريدة التجارة فكتب سلسلة من المقالات بدأها بمقال (الوطنيون والأجانب) كشف فيها عن تغلغل وسيطرة الأجانب، وخاصة اليونانيين على الزراعة والتجارة والصناعة في مصر فقال «فلم يبق والحالة هذه من باب رزق غير ضيق لأهل هذه الديار ولا سيما أوساط الناس إلا الخدمة الميرية»<sup>(٣)</sup>. وحتى هذا المجال من العمل يؤكد أديب اسحق أن النفوذ الأجنبي تسلل إليه أو هو في الطريق إليه، فكتب يقول: «وتم رأينا في بعض جرائدهم أن المسيودي بليار ناظر الأشغال الخارجية جلب معه جماعة كبيرة من أبناء جلدته يستخدمهم للحكومة، وبلغنا أن في مصر كثيرا من الإنجليز ينتظرون قدوم المسيو ولسون ناظر المالية ليلتمسوا منه خدمة فأيقنا بحلول المصائب وتجسم البلاد واشتداد الأزمة»<sup>(٤)</sup>.

وفي المقال التالي رد أديب اسحق على بعض من فسروا مقاله السابق على أنه ينكر تقدم الأوروبيين على المصريين فقال «إن شكوانا من تقدم الأجانب علينا هي عين الاعتراف بمزيتهم وسبقهم في مجال المعارف والفنون المدنية والسياسية وكيف لا نعترف بهذا، وقد أصبحنا لهم خولا وعبدانا»<sup>(٥)</sup>. وأضاف مستدركا: «ونحن لا نلومهم على التقدم ولكن نبين حقيقة الحال قياما بواجبات الجرائد ليراهنا من كانت خافية عنه فيعلم أن بقاء الوطنيين على هذه الحال أي وقوفهم الذي هو عين التأخر بالنظر إلى تقدم الأجانب يوجب إذلالهم واضمحلالهم ويضيق سبل رزقهم»<sup>(٦)</sup>.

(١) صحيفة مصر - نوفمبر ١٨٧٨.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) صحيفة التجارة - ١٨ نوفمبر ١٨٧٨ مقال الوطنيين والأجانب

(٤) المصدر نفسه

(٥) التجارة ٢٥ نوفمبر ١٨٧٨ - مقال بعنوان فضل الأجانب

(٦) المصدر نفسه.



وقد ذكر الكاتب أنه سوف يعود إلى مناقشة أسباب تأخرنا واحدا واحدا ووسائل حسمها وما ينبغي لنا إجراؤه لاجتلاب المطلوب واجتتاب الموهوب ونبسط جميع ذلك في فصول متوالية»<sup>(١)</sup> ولكنه لم يفعل ، ولم ينفذ ما وعد به..

وعاد أديب اسحق إلى مناقشة موضوع نفوذ الأجانب مرة أخرى فكتب تحت نفس العنوان الأول (الوطنيون والأجانب) مقالا يأسف فيه على سوء حال الوطنى فى بلاده، ثم قدم تحليلا وافيا لكيفية تسلل الأجانب إلى الحياة المصرية فقال: «ما أعجب ما نجد تحت سماء الشرق.. أن الأجنبي يعد نفسه أميراً.. والمستعير مالكا.. والدخيل أصيلا والضيف ضائفا وهذه حال الأجانب بالنظر إلينا.. ضاقت عليهم سبل العيش فى بلادهم فأتونا يطلبون رزقا ويحاولون نشر سلطة سياسية فأكرمنا وفادتهم عملا بما تعودنا عليه من إكرام الضيف، فعدوا ذلك واجبا ثم أفرطوا فى الطمع فنازعونا الأرض المجبولة بدم آبائنا حتى إذا رسخت أقدامهم وارتفع مكانهم كبرت نفوسهم عن مساواتنا وأصبحوا لا يرون لنا فى منافع أرضنا حقا».<sup>(٢)</sup>

ثم يجرى مقارنة بين المصرى والأجنبى ويخرج من المقارنة بتفوق المصرى فى الأهلية للعمل فيقول «ولا شك أن من سلم عقله من مرض الغرض يعلم أن الوطنى إذا تعلم فنا برع فيه وسبق فى حلبة طالبيه فهو من هذه الحيشية راجح على الأجنبى فضلا عن كونه أعرف منه بأحوال بلاده وصاحب البيت أدرى بالذى فيه».<sup>(٣)</sup>

ويحاول أديب اسحق إثارة مشاعر المصريين ضد الأجانب.. إذ يتهم الأوروبيين بأنهم يحتقرون المصريين ويتعالون عليهم .. فهم لا يتحدثون عن المصريين إلا باعتبارهم «أربو بربر.. أى عربى بربرى .. خشن متوحش».<sup>(٤)</sup>

ثم هو ينذر المصريين من سوء المصير «فأما التجار فلا يتاجرون وأما الصناع فما يصنعون وأما الكتاب فمصيرهم الوقوف بالباب وساء ذلك موقفا ومصيرا».<sup>(٥)</sup>

وقد أثارت مقالات أديب اسحق فى مصر والتجارة عن تزايد نفوذ الأجانب أصحاب الأهرام والوقت فتصدوا للرد عليه فى عدد من المقالات<sup>(٦)</sup> حاولوا فيها أن يشككوا فى قدرة المصريين على الخدمة وعدم مجاراتهم للأجانب فى العمل.

وقد رد أديب اسحق فى التجارة على صاحب الوقت متندرا ساخرا: «إن رمية الوطنيين بالجهل والخيانة وقوله إن ليس فيهم من يصلح للخدمة أو يستحق النعمة أو يجدر بالترقية لا يؤخذ منه معنى الاحتقار أو الامتهان وإنما يراد به تهذيب أخلاقهم وإصلاح أحوالهم».<sup>(٧)</sup>

(١) المصدر نفسه

(٢) التجارة - ١٠ يناير ١٨٧٩ مقال بعنوان «الوطنيون والأجانب»

(٣) المصدر نفسه

(٤) التجارة - ٢٥ يونيو ١٨٧٩ مقال بعنوان «الحال المآل»

(٥) المصدر نفسه

(٦) الأعداد التى نشرت فيها هذه المقالات مفقودة.. ولقد اعتمدنا على معرفة بعض ما تضمنته من خلال رد أديب اسحق عليها.

(٧) التجارة - ١٢ أغسطس ١٨٧٩

ثم هاجم صاحب الوقت لإلتجائه إلى الأجانب يطلب حمايتهم «فهى من الأدلة القائمة على بغض صاحب الوقت للوطن وحكومته وتربصه بهما ريب المتون وعزمه على النكاية منهما ما استطاع تعصبا عليهما وانحرافا عنهما إذ لو صح ما يدعيه لنفسه من الوطنية لما التمس الحماية الأجنبية للخروج عن ولاء حكومة ربه فى نعمتها ومخالفة جماعة يدعى الإخلاص فى محبتها»<sup>(١)</sup>

أما عبدالله النديم فقد ناقش قضية المصريين والأوروبيين من زاوية أخرى.. فقد اهتم بالكشف عن الدعايات الكاذبة التى يروجها الأوروبيون عن المصريين وحرص على أن يؤكد على نقطتين هامتين خلال مقال كتبه فى الطائف:<sup>(٢)</sup>

### الأولى:

أن أوروبا لا تعرف حقيقة الشعب المصرى لأن الذين يكتبون عن مصر فى صحفها لا يستمدون معلوماتهم من مصادرها الحقيقية وإنما من جلسات المقاهى أو من الخدم الذين يعاشرونهم لمدة يوم أو يومين يزورون فيها مصر»<sup>(٣)</sup>

### الثانية:

أن المصريين معروفون بالتسامح ويشهد على ذلك الأوروبيون الذين يعاشرونهم (لما هو ثابت عندهم ومشاهد من حسن معاشرة المصريين وعدم تعرض واحد منهم لأذى فى دينه أو ماله أو نفسه»<sup>(٤)</sup>

والملاحظ أن النديم لا يهاجم الأجانب بقدر ما يدافع عن سلوك المصريين نحوهم، وكان يدفعه إلى ذلك.. محاولته الدفاع عن الثورة العرابية.. ضد ادعاءات بعض الصحف الأوروبية.. التى حاولت أن توقع بين الثورة والدول الأجنبية عن طريق اتهام الثورة بالتعصب الدينى واضطهاد الأجانب فى مصر.

ونحن نغفل إلى تفسير الهجوم المستمر من الصحف المصرية على تزايد النفوذ الأجنبى فى التجارة والصناعة والزراعة.. بخوف البورجوازية المصرية فى ذلك الوقت على مصالحها الاقتصادية التى باتت مهددة بالنفوذ الأجنبى وطموحها إلى الإنفراد بالعمل فى السوق المصرية والتخلص من المنافسة القوية الممثلة فى الأجانب.

كذلك فإن الهجوم على كثرة تعيين الأجانب فى دواوين الحكومة يعكس أيضا قلق البورجوازية المصرية العاملة فى جهاز الدولة وخوفها من المنافسة الأجنبية.. وذلك أن الجهاز الإدارى للدولة كان مجالا من المجالات الهامة التى تكونت فيها البورجوازية المصرية، وإن قطاعا كبيرا من البورجوازية المصرية كان يتمثل فى موظفى الدولة بل أن أصحاب الجفالك والأبعاديات كانوا قد منحوا هذه الأراضي كموظفين فى دولة محمد على.<sup>(٥)</sup>

(١) التجارة - ١٣ أغسطس ١٨٧٩

(٢) صحيفة الطائف - لم نستطع أن نستدل على رقم العدد ولا تاريخ صدوره لأن نصف العدد العلوى كله مفقود.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) د. محمد أنيس ود. السد رجب حراز - التطور السياسى للمجتمع المصرى الحديث ص ١٢٠ - ١٢٢

## إيقاظ الشعور الوطنى:

ولقد لعبت الصحافة المصرية دوراً كبيراً فى إيقاظ الشعور الوطنى.. وتوصلت إلى تحقيق هذا الهدف بطرق متعددة . فتارة تربط بين درجة تقدم المجتمع وبين درجة الوعي الوطنى به، وتؤكد أن السبيل إلى التقدم الحضارى هو بالتضحية فى سبيل رفعة الوطن.. وتارة أخرى تجربى مقارنات بين ما وصل إليه الوعي الوطنى فى دول أوروبا وأمريكا.. وما وصل إليه فى مصر.. وتجعل من هذه المقارنات أداة لحث المصريين إلى مزيد من الاهتمام بالوطن.. والحرص على أداء حقوقه عليهم. فأديب اسحق يؤكد فى معرض الحديث عن دور الصحف فى إيقاظ الشعور الوطنى «إن جسم الاجتماع فى القطر المصرى قد أخذ فى الحركة والنمو متغذياً بآراء الصحف الحرة القائمة بأمر الوطن الثابتة على ولائه فى السراء والضراء»<sup>(١)</sup> ثم يخصص الحديث عن دور جريدة التجارة فى هذه العملية فيقول أن هدفها هو «أن تبين الحقوق الوطنية مدافعة عنها.. وتظهر الواجبات مستحقة على القيام بها، سائرة فى الخالين تحت لواء الوطن».<sup>(٢)</sup>

ولقد وصل إيمان كتاب هذه الفترة بدور الصحافة فى إيقاظ الشعور الوطنى إلى درجة أنهم كانوا كثيراً ما يبدأون مقالاتهم.. مهما كان الموضوع الذى تتعرض له.. بأن يؤكدوا أن هذا هو بعض حق الوطن عليهم.. ويظهر ذلك بشكل واضح فى أكثر مقالات صحيفة روضة المدارس المصرية.. وعلى سبيل المثال فقد كتب على باشا مبارك فى مقدمة مقالاته التى جمعها بعد ذلك فى كتاب سماه «حقائق الأخبار فى أوصاف البحار».. يقول: «وحيث إن معرفة الحقائق موقوفة على التطلع من العلوم والفنون المتكفلة بتوضيح ما تنشر به الصدور وتبتهج برؤيته العيون وأنه على كل شغوف بحب وطنه العزيز المؤلف أن يكشف الغطاء لأبناء جنسه عن حقيقة ما عثر عليه فى يومه وأمس.. رأيت عند اطلاعى على مؤلف جليل فى البحار فوائد لا تدخل لكثرتها تحت انحصار فأردت نشرها بين العام والخاص حتى لا يكون عن الانتفاع بها مناص».<sup>(٣)</sup>

وطالب على بك فهمى «بأن يتشبث كل مواطن بما يعود عليه أو على أهله ووطنه بالنفع».<sup>(٤)</sup>

وحدد نوعين من المنافع يمكن أن يؤديهما المواطن بنفسه ولوطنه الأول «النفع الذى يرجع إلى الجسم ويسمى هذا النفع بالإمداد الجسمانى».<sup>(٥)</sup> ونفع يرجع إلى «العقل ويسمى بالإمداد الروحانى»<sup>(٦)</sup> ويتحقق للمواطن الإمداد الجسمانى بأن «يتدارك لنفسه أو لأهل وطنه ما يقوم ببقاء الحياة ويسعى فى الأسباب التى يتيسر له بها الحصول على ذلك وهذا أدنى درجات الإمداد الجسمانى المذكور وأعلى درجاته أن يستعمل الوسائط التى تكون بها الرفاهية فى نمو الملبس

(١) التجارة - ٨ أبريل ١٨٧٩ مقال بعنوان الأحوال الحاضرة.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) روضة المدارس - العدد الأول - السنة الأولى ١٨٧٠ مقال بعنوان «حقائق الأخبار فى أوصاف البحار».

(٤) روضة الأخبار ٢٨ مارس ١٨٧٥ مقال بعنوان الحقوق الوطنية.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) المصدر نفسه.

والمأكل والمشرب والمسكن كاختراع المخترعات الشائعة إن كان محترفاً وتقديماً فن الزراعة إن كان زارعاً والسعى والحركة واتساع الأخذ والعطاء إن كان تاجراً وغير ذلك من الوسائل التي ينال بها الثروة الكافية الموصلة إلى الحالة المرغوبة والثمرة»<sup>(١)</sup> وأما الإمداد الروحاني «فأقل درجاته معرفة القراءة والكتابة والمبادئ التي لا تيسر للإنسان إلا بهما تطبيق العلم على العمل لأنها معلومات ابتدائية ومقدمات جزئية غير كافية لتكميل نوع الإنسانية وأقصى درجاته تعلم العلوم العالمية سياسية أو شرعية عقلية أو ثقافية لا سيما الرياضيات والالهييات والطبيعات التي غايتها أن يعرف الإنسان قدر نفسه معرفة حقيقية بين سائر المخلوقات وأن يمدهم بثمره ما وهبه له الحق سبحانه وتعالى من هبات المعلومات وحتى يكون عالماً عاملاً»<sup>(٢)</sup>

ثم ينتهي من ذلك إلى القول بأنه إذا توفر للمواطن «كل من هذين الإمدادين وتحصل على الغائتين منهما أو كان سبباً في إيصال ذلك إلى أهل بيته أو عشيرته أو أهل وطنه كان ذلك الإنسان.. هو الإنسان الكامل الذي هو الدواء الشافي لجسم النوع الإنساني»<sup>(٣)</sup>

ثم لا ينسى أن يؤكد أن «على هذين الإمدادين تأسست قواعد الممالك المتقدمة والحكومات المتمكنة ونال أهلها الدرجة المرغوبة منها»<sup>(٤)</sup>

ويستخدم الشيخ محمد عبده أسلوب المقارنة ليثير في المصريين الشعور الوطني والغيرة الوطنية فيتخذ من خبر نشرته إحدى الجرائد في ذلك الوقت عن أن رجلاً من جزيرة سافر<sup>(٥)</sup> «وهب جميع أمواله لخيرات بلاده العامة وخص جزءاً وافراً منها للمدارس في تلك الجزيرة وبعضاً للاستباليات والمستشفيات يداوى فيها الفقراء والأيتام»<sup>(٦)</sup> ثم يعلق الشيخ محمد عبده على الحادث قائلاً: لقد أعلی هذا المحسن ذكر بلاده؛ حقيرة القدر وضيفة الاسم وأودع لها مقاماً عالياً في النفوس ومنزلة رفيعة في القلوب»<sup>(٧)</sup>. ثم استغل الشيخ محمد عبده هذا الحدث لكي يستنفر في المصريين الغيرة الوطنية فقال «إن بلادنا هذه المصرية مع دخول التمدن فيها من زمن بعيد العهد وانتشار أنوار المعارف في نفوس نبلائها من مدة غير يسيرة وشدة احتياجها إلى الإعانة والمساعدة لم يصبها حظ من مثل هذا المبدأ الفكري الذي يترتب عليه صدور مثل ذلك الإحساس الثابت ومد يد المساعدة بمثل تلك الصدقة الدائمة»<sup>(٨)</sup> ثم ربط بين مصير الوطن.. ومستقبل أبنائه فقال إن «الإنسان لا ينال الشرف الإنساني والسعادة الحقيقية والثروة الدائمة والتعليم الثابت إلا إذا صلح حال وطنه فتقدمت أبنائه وتحملت نفوسهم بالمعارف وصفات الكمال فأخذ كل منهم حقه وأدى الواجب عليه وخدم العموم بنشاط وجد وسعى في مصالح الجميع بصدق وأمانة»<sup>(٩)</sup>

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) جزيرة من جزر آسيا دخلت تحت حكم تركيا عام ١٨٢٢ وفيها عدد كبير من الأروام وكان عدد سكانها يصل إلى ثمانين ألف نسمة.

(٦) الوقائع المصرية - ٦ مارس ١٨٨١ مقال بعنوان: «الوطنية».

(٧) المصدر نفسه.

(٨) المصدر نفسه.

(٩) المصدر نفسه.

وكان الشيخ محمد عبده يؤكد دائماً على أن الوطنية الحقبة ليست فى تردد الكلمات المحفوظة الخالية من المعنى وإنما هى فى الإخلاص للوطن والعمل الجاد من أجله «إنما الوطنية أن تخلص المحبة للوطن إخلاصاً ينبعث عنه السعى بكامل الجهد فى التماس ما يعود عليه بالتقدم والنجاح وليس الأثر إلا ما أفاد فائدة حقيقية توجب اعتدالاً فى التصورات أو حسناً من الأخلاق والعبادات أو صحة فى الأبدان أو عزة للوطن أو ارتفاعاً لمقامه فذلك ما يدعو العقل والعقلاء وطنة وما يعدونه أثراً لا الألفاظ المحفوظة ذات المعانى المبتذلة»<sup>(١)</sup>

واعتبر سليم حموى حب الوطن .. غريزة من غرائز النفس البشرية فهو يرى أن «حب الوطن ملكة فى النفس غريزية»<sup>(٢)</sup> وأن الإنسان «لا يستطيع أن يعيش وحده وليس له غنى عن أبناء جنسه، فلولا خدمتهم له فيما أوجده لوسائل راحته من بيت يؤويه وشراب ينعشه وكساء يستره.. وحكماء ونبلأ تدفع الأسباب المضرة بصحته وغير ذلك بما لا يحيطه الحد أو يحصيه العدد.. دلالة واضحة على أنه لولا أبناء وطنه لكان حيواناً جاهلاً يتألم من حر الشمس وبرد الليل»<sup>(٣)</sup>

أما عبدالله النديم فهو يلجأ إلى نشر الوعى الوطنى عن طريق التركيز على فكرتين أساسيتين:-

**الأولى:** أن محبة الوطن تتطلب التضحية «فمحبة الوطن تحرك قلب الإنسان وتهيج مادة غريزية تدفعه إلى الغيرة على الوطن فيفاديه بكل قواه وما عنده مادياً أو إدارياً أو أدبياً ومتى كانت هذه المحبة قوية ومساوية لسمو الموضوع المحبوب نما عنها النجاح والفلاح والثروة وقوة البلاد».

**الثانية:** أن محبة الوطن تؤدى إلى اتحاد أفرادها وتصل بهم إلى القوة والشهرة «فكل أمة اتحدت لها محبة الوطن واجتمعت قلوبها عليها واعتصمت بعروة الاتحاد فى السراء والضراء وأسست أعمالها على قواعد التعاون ودعائم الارتباط ونبت التهاون فلاشك أنها تكمل شهرة وتحرز قوة واقتداراً يفى بجلب الخير العام وترك ما يورث الآلام فينمو نفوذها»<sup>(٤)</sup>

وبعد نشوب القتال بين الجيش المصرى والجيش الإنجليزى لجأ النديم إلى حث المصريين على قتال الإنجليز والدفاع عن بلادهم عن طريق إثارة الشعور الوطنى فكتب عدة مقالات فى الطائف أقرب إلى الخطب منها إلى المقالات الصحفية، وفيها يدعو الشعب إلى النضال فى سبيل استقلال

(١) الوقائع المصرية ٢١ مارس ١٨٨١

(٢) صحيفة اسكندرية - ٢٨ مايو ١٨٨١ مقال بعنوان حب الوطن من الإيمان.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) الطائف سنة ١٨٨٢ رقم العدد مفقود- مقال بعنوان الوطن ، ويلاحظ أن هذا المقال كتب قبيل الاحتلال الانجليزى لمصر.

الوطن «يا بنى مصر.. هذه أيام نضال.. هذه أيام الذود عن الحياض.. هذه أيام الذب عن الأعراس.. هذه أيام يمتطى فيها بنو مصر صهوات الحماسة وغوارب الشجاعة لمحاربة عدو مصر»<sup>(١)</sup>

## الوحدة الوطنية:

كانت الدعوة إلى الوحدة بين عناصر الأمة واحدة من الأفكار الهامة التي شاعت في كتابات هذه الفترة وأخذت شكل الدعوة إلى المساواة بين أبناء الأديان الثلاثة. وأن الرابطة الوطنية لا تفرق بين المسلم والمسيحي واليهودي.. وكان يعقوب صنو أول من عبر عن هذه الفكرة عندما أكد أن الطريق للوحدة الوطنية هو مكافحة الأباطيل التي تمزق بين المسلمين والمسيحيين بإظهار سماحة القرآن وكلمة الإنجيل، وهكذا يتسنى للملازمة بين قلوب الفريقين<sup>(٢)</sup>

ويفصل سليم النقاش فصلا تاما بين الرابطة الوطنية والرابطة الدينية ويقول إن الاختلاف في العقيدة الدينية لا يبرر الاختلاف في الرابطة الوطنية، ويناشد المصريين أن لا «يجعلوا اختلاف العقائد سبيلا إلى اختلاف القلوب ولا تضعفوا حملة الوطنية ولا تشوهوا طلعة الحرية، فالإيمان دعوى لكل ذى دين لنفسه والكفر دعواه على مخالف دينه كائنا من يكون ولا صحة في هذه القضية لشهود أو عقل أو آثار فلكل مذهب أنصار وفي كل هيئة فضلاء ولكل قوم آثار مأثورة فيما يدعون»<sup>(٣)</sup>

أما الشيخ محمد عبده- فهو ينقل القضية إلى خطوة أبعد.. فيرى «أن الوحدة الوطنية.. لا يجب أن تكون فوق الخلافات الدينية فحسب، وإنما هي أيضا فوق الخلافات السياسية "فإن كان الفرنسي جمهوريا أو ملكيا أو امبراطوريا فهو فرنسي على كل حال.. وقبل كل شأن.. وإن كان الألماني محافظا أو إباحيا أو اجتماعيا فهو الماني من وراء ذلك ومن قبل ذلك وهكذا الإنجليز والإيطالي والنمسوي وسائر أهل المدنية والحياة السياسية»<sup>(٤)</sup> فالجدير بأهل الحياة السياسية من أي الناس كانوا أن يجعلوا الوطن وحدتهم لا متنازع الخلاف بين ذوية».

ويرى الشيخ محمد عبده أن الوحدة الوطنية وحدة لا تقبل الخلاف وهي السبب في تأخر الأمم أو تقدمها "فمهما بلغت الأمة من مبالغ السياسة وكثر عدد أفرادها المتأدبين بالأدب السياسي فلن يكون لها نماء ولا بقاء في الحياة السياسية ما لم تكن ذات وحدة لا تقبل النزاع والخلاف.. يدل على ذلك تقدم الذين اتحدت وجهتهم وتأخر الذين تفرقت كلمتهم من قبلنا وفي هذه الأيام.. ويفرق الشيخ محمد عبده بين أهداف الوطن التي يجب أن يتجمع حولها جميع المواطنين وبين الطرق الموصلة إلى هذه الأهداف.. وهذه يسمح فيها بالاختلاف "فإن قيل مالنا لا نرى تفرق الأمم الأوربية أقساما وأجزاء مانعا من تزايد ثروتهم وتعظيم قوتهم واستفحال

(١) الطائفت ٢٨: يوليو ١٨٨٢

(٢) د. إبراهيم عبده- أبو نظارة- مكتبة الآداب- القاهرة- الطبعة الأولى- ١٩٥٣- ص ١٨

(٣) صحيفة العصر الجديد ١٩ أكتوبر ١٨٨١ مقال بعنوان الوطنية الحق.

(٤) الوقائع المصرية ١٣ نوفمبر ١٨٨١ مقال بعنوان فصول الأدب الفاضل في الحياة السياسية.

أمرهم فى الحياة السياسية.. قلنا إن هؤلاء الأمم لا يختلفون على غايتهم المقصودة بالذات وإنما تتنوع الطرق التى يسلكونها إلى تلك الغاية".

ثم يخاطب المصريين قائلا "يا أبناء الوطن العزيز لئن فرق بينكم اختلاف الآراء وتنوع المشارب وتلون التصورات فقد وجدتم فى الجامعة الوطنية ما تأتلفون به وتجتمعون عليه".  
ثم يخلص من ذلك كله إلى تأكيد حقيقة أن "الوطن هو الوحدة التى تجتمع كلمة الأمة عليها".

ويؤكد عبد الله النديم.. وحدة عناصر الشعب المصرى داخل اطار الوحدة الوطنية فى رده على ادعاءات عدد من الصحف الأوربية التى رمت المصريين بالتعصب الدينى فقال إن "الادعاء على المصريين بالتعصب الدينى خطأ"<sup>(١)</sup>.

وأورد نصا لشيخ الاسلام جاء فيه: "إن الدين الإسلامى يقضى علينا بحفظ المستأمن وصيانة عرضه وروحه من كل العوارض وإن المعتدى على مستأمن كالمعتدى على مسلم" ثم قال النديم إن "هذا أمر معلوم لكل مسلم فهم لا يعتدون على أحد ولا ينتهكون حرمة نزيل فإن الشرع الشريف يحرم ذلك عليهم.. ومن كان هذا كلام شيخ اسلامهم.. وهذه عقائدهم الدينية لا ينسب إليهم تعصب ولا يخشى من الاختلاط بهم ومعاشرتهم.. هذا فضلا عما مر من السنين على المسلمين والنصارى واليهود من غير حدوث أى أمر اقتضته محاوراة أو منافرة دينية مما نراه من الحوادث اليومية.. فلنما هى عبارة عما يحدث فى كل أمة من بعض المشاجرات الحسابية او الذاتية أو الجنونية.. فإنه لا يتصور أن ستة ملايين من النفوس يمضى عليهم يوم من غير مشاغبة مع أن العائلة الصغيرة قد يتشاجر أعضاؤها أكثر من مرة فى اليوم".

### بعث المجد المصرى القديم:

كان الاهتمام ببعث المجد المصرى القديم أحد الأفكار الهامة التى لجأ إليها كتاب هذه الفترة لإيقاظ الشعور الوطنى.. وخاصة أن التنقيب فى آثار مصر والوصول إلى مدلولات الكتابة الهيروغليفية قد كشف عن صفحة باهرة من تاريخها الطويل كذلك فقد شهدت هذه الفترة انشاء مدرسة اللسان المصرى القديم التى انشئت فى عام ١٨٢٠ بهدف تعليم اللغة الهيروغليفية وآدابها<sup>(٢)</sup>. وقد فتحت صحيفة روضة المدارس صفحاتها لبعض طلبة وأساتذة هذه المدرسة لنشر نتائج دراساتهم وأبحاثهم وخاصة مقالات هنرى بروكش ناظر هذه المدرسة.

وكان رفاعة الطهطاوى قد تعمق اهتمامه بالتاريخ المصرى القديم ولقد بدأ هذا الاهتمام - كما سبق وذكرنا - فى كتابه الأول تخليص الإبريز فى تلخيص باريز.. وفى روضة المدارس عاود الطهطاوى اهتمامه بهذه المسألة وحرص على أن يبرز فضل الحضارة المصرية على التقدم

(١) الطائف - رقم العدد وتاريخ صدوره مفقود لأن نصف الصفحة الأعلى كله مفقود.. مقال بعنوان «المصريون والأوروبيون».

(٢) صلاح عيسى - الثورة العرابية - المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت - ١٩٧٢ - ص ٢٢٠.

البشرى وكان يتخذ هذه الفكرة منطلقا لإبراز الجوانب المتحضرة للشعب المصرى فهو يؤكد "أنه لا يشك أحد فى أن مصر وطن شريف إن لم نقل أنها أشرف الأماكن.. فهى أرض الشرف والمجد فى القديم والحديث.. وكم ورد فى فضلها من آيات بينات وآثار وحديث فكأنها صورة الخلد منقوشة فى عرض الأرض بيد الحكمة الإلهية التى جمعت محاسن الدنيا فيها حتى تكاد تكون حصرتها فى أرجائها ونواحيها.. بلدة معشوقة السكنى رحبة المثوى حصباؤها جوهرة.. وترابها مسك أذفر.. يومها غداة وليلها سحر وطعامها هنىء وثرها مرئ واسعة الرقعة طيبة البقعة كأن محاسن الدنيا عليها مفروشة وصورة الجنة فيها منقوشة.. واسطة البلاد ودرتها ووجهتها وغرتها بلد كم خرج منه كبار ملوك السلاطين وحكماء واساطين.. وكم نبت منه عيون علوم والنجلي به من البلاد سحائب غيوم فمن ذا يضاهى مصر فى كمال الافتخار أو يباريها فى الجمال والاعتبار... أمتها أول أمة فى المجد وعلو الهمة"<sup>(١)</sup>.

ويشيد على باشا مبارك بفضل الحضارة المصرية على الحضارة الإنسانية.. التى عاصرتها.. والتى جاءت بعدها.. وحتى اليوم.. فهو يرى.. أن لإنجازات الحضارة المصرية" انتفع بها جميع الناس فى سائر الأقطار وانتشرت بين بنى الدنيا حتى كانت سببا للتقدم والعمار.. وإلى وقتنا هذا لم تكن فوائد العلوم النافعة فى أى قطر من الأقطار القريبة والشاسعة على اختلاف أنواعها فى المعقول وتباين تفاريعها فى المنقول إلا كأغصان من شجرة كان غرس أصلها بمصر فى الأزمان الخالية والقرون البالية وهذا لا ينكره عاقل بل ويعترف به بكل فاضل، إذ ما من أحد إلا ويقر بفضل المصريين"<sup>(٢)</sup>.

وهو يعتقد أن المصريين كانت لهم الأسبقية فى كل ما وصل إليه العقل البشرى فى جميع المجالات.. وأن جميع المؤرخين يعترفون بأنه كان للمصريين "الأسبقية فى ميدان المعارف.. وأولية التقدم عن طريق الفنون واللطائف"<sup>(٣)</sup>.

وفى معرض إشادته بالمصريين القدماء لا ينسى أن يؤكد فى فخر أن كثيرا من المعارف المقتنية فى تلك الأزمنة.. لم يمكن الوصول إليها إلى الآن والحجة على ذلك بينه فإن كثيرا منها مطوى تحت طيات الأرض بيننا وبينه حجاب وطالما حاول الإطلاع عليه بالجهد الجهد ذوو الألباب والبحث فى استخراجهم.. وفى كل وقت تظهر منه إلى حيز الوجود لأرباب المعارف طرائق وحقائق وهذا منذ أن تيسر الوقوف على معرفة قراءة القلم المعروف عند أهله بالقلم المقدس القديم، فهو أعدل شاهد لقدماء المصريين يعلو درجة التمدن والقديم وأنهم فى تلك الأحقاب أحكم من سواهم من الملل وأعظم اتساعا فى مجال التمدن عمن عداهم من الدول"<sup>(٤)</sup>.

(١) روضة المدارس المصرية - العدد ٢١ السنة الخامسة ١٨٧٤.

(٢) روضة المدارس - العدد الأول السنة الأولى ١٨٧٠.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.



ويستعرض أديب اسحق حضارات الفرس واليونان والرومان والعرب والعثمانيين والمصريين والفرعنة.. ويخلص من ذلك إلى أن كل حضارة من هذه الحضارات، نجحت وتقدمت وملكتم ثم ما لبثت أن ضعفت وانتكست ثم انهارت "فكان سبيل الاجتماع الانساني سلم رفيع الدرج يصعده ذو الهمة فاذا انتهى إلى رأسه استهواه الزهو والكبر فهو إلى أسفله ثم استرجع قوته فوقف بين الرغبة في الصعود والرغبة من علو المرتقى" (١).

ثم طبق هذا المنهج في التحليل على تاريخ مصر فقال: "وهذه مصر أزلية المجد بلغت منه غاية لا تدرك وأصابها نعممة لا تملك وعظم بها الملك وتأيدت الخلافة واتسعت الإمارة حتى اذا وليها الموالي وملك أمرها المماليك عبثت بها يد الزمان وضربت عليها الذلة واستقرت بها المسكنة وصار أهلها عبدانا بل أسوأ حالا وأشقى" (٢).

وهنا نلاحظ.. أن هذه أول مرة.. يفسر فيها انهيار الحضارة المصرية - بإبعاد المصريين عن حكم بلادهم.. وتولى المماليك والموالي السلطة فيها.. وهذه الفكرة يمكن اعتبارها دعوة غير مباشرة للمصريين لأن يتولوا حكم بلادهم بأنفسهم.. وهى نفس الفكرة التى لجأ إليها بونايرت من قبل فى بيانه الأول إلى المصريين عندما أرجع انهيارها وضعفها إلى تملك المماليك لزماد السلطة فيها.

واهتم الشيخ محمد عبده بالاكتشافات الأثرية التى تابعت بكثرة فى هذه الفترة ووجدها مناسبة للتأكيد على الجوانب المتحضرة للشعب المصرى فقال "إن فى هذه الآثار لدليل على أن سكان هذه الأقطار السعيدة كانوا على جانب عظيم من التقدم فى الصناعة على اختلاف أنواعها خصوصا صناعة النقش والتلوين" (٣).

وتعرض عبد الله النديم لقصة أيزيس وأوزيريس، وأخيها عطار المسمى هرس وقال إنها آلهة اخترعها أصول الشرائع والفنون والعلوم.. وهذا من زعمهم ألوهية.. (٤).

ثم علق على ذلك كعادته فى صحيفة التنكيت والتبكيت فقال تحت عنوان التبكيت "إن سبب هذه الأساطير أن الوجود كان فارغا من العلوم خاليا من المعارف" (٥).

ويمكن تفسير موقف النديم المعادى لهذه الأسطورة.. بتدينه.. واعتقاده أن إعطاء صفة الألوهية لأيزيس وأوزيريس.. يرجع إلى الفراغ من العلوم والمعارف.. فهو لم يستطع أن يدرك أن ذلك لم يكن يتعارض مع التقدم العلمى والحضارى فى ذلك الوقت.. وأن المصريين القدماء كانوا أول الشعوب التى آمنت بالتوحيد على يد اخناتون.. ولكن مشاعره الدينية أخفت عنه كثيرا من الحقائق.

(١) صحيفة مصر - ٢٥ أكتوبر ١٨٧٨ - مقال بعنوان أحوال مصر.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الوقائع المصرية - ١٧ أغسطس ١٨٨١.

(٤) التنكيت والتبكيت ٦ يوليو ١٨٨١.

(٥) المصدر نفسه.

ولكن النديم يعود ليحكى جانباً من تاريخ مصر ممجدا إياه فهو يحكى أن "أول ملوك مصر -  
ظنا لا حقيقة - منيس المسمى مصرايم وكان حكمه فى أعلى مراتب الأحكام فخرا.. ثم احتل  
مصر الرعاة العرب وبعدها جاء سيزستريس الشهير بالفتوحات وإصلاح القوانين حتى قيل إن  
ملكته امتدت من الهند وتراس وبلاد الروملى"<sup>(١)</sup>.

فالنديم رغم رفضه لوثنية الفراعنة لا يخفى إعجابه بتقدمهم الحضارى والقانونى..  
والإدارى.. وبأسهم الحربى المجسد فى كثرة الفتوحات.

وبعد استعراض كل ما كتب حول الوطنية المصرية فى صحف هذه الفترة يمكن أن نخرج  
بثلاث حقائق:-

الأولى: إن إحياء الشعور الوطنى فى مصر.. ارتبط بالدعوة إلى فكرة الحرية والديموقراطية..  
ويؤكد ذلك أن أكثر مفكرى هذه الفترة كانوا يصرون على الربط بين حق المواطنة وبين  
كفالة الحقوق والواجبات السياسية.

الثانية: أن فكرة الوطنية المصرية اكتسبت منذ بدأت تتردد فى الصحافة المصرية وحتى نهاية فترة  
البحث.. طابعا علمانيا.. فنرى إصرار مفكرى هذه الفترة على التأكيد بأن الوحدة بين  
أبناء الوطن المصرى فوق الخلافات الدينية.. ودعوا للفضل بين الرابطة الوطنية.. والرابطة  
الدينية مؤكدين أن الاختلاف فى العقيدة الدينية لا يبرر الاختلاف فى الرابطة الوطنية.

الثالثة: أن حل رموز الكتابة الهيروغليفية.. كشف عن صفحات باهرة من تاريخ مصر القديم مما  
جعل من فكرة بعث المجد المصرى القديم أحد الأفكار الأساسية التى تضمنتها فكرة  
الوطنية المصرية.. بل إن هذا البعث صار أحد الأدوات الهامة التى استخدمها مفكرو هذه  
الفترة فى خلق الوعى بوجود شخصية مصرية متميزة.

ورغم أن فكرة الوطنية المصرية كانت لها السيادة على الفكر القومى فى صحف هذه الفترة..  
إلا أنه وجدت تيارات فكرية أخرى مثل فكرة العروبة وفكرة القومية الإسلامية وهما اللتان  
سوف نفردهما الفصلين القادمين.

(١) نقس المصدر.

## الفصل الثانى

العروبة فى  
الصحافة المصرية



نستطيع أن نتلمس الجذور الأولى للفكرة العربية في تاريخ مصر الحديث منذ سيطرة محمد على على مقاليد الحكم.. فقد قامت على يديه أول حركة عربية في التاريخ الحديث لإقامة امبراطورية عربية<sup>(١)</sup>، وكانت الحرب الوهابية هي الخطوة الأولى نحو رسم سياسة عربية تقوم على دعامتين: احدهما المصالح المادية، والثانية سمات القومية العربية التي كانت تجمع العرب أجمعين<sup>(٢)</sup>.

وكان فتح السودان خطوة أخرى في سياسة مصر العربية.. وذلك لضمان سلامة مصر وتأييد وحدتها السياسية والاطمئنان على منابع النيل ولإيجاد الروابط الاقتصادية بين مصر والسودان.. وتوسيع نطاق المعاملات التجارية بينهما.. ففتح السودان هو "إذن حرب قومية بحته والغرض منها كان من أسمى أغراض الحروب وأنبهها مقصدا، إذ كانت الغاية منها تأليف وحدة وادى النيل<sup>(٣)</sup>."

وكانت فكرة ضم الشام إلى مصر تراود محمد على منذ عام ١٨١٠، وشغله عنها انهماكه في الحرب الوهابية ثم فتح السودان ثم الحرب اليونانية فلما انتهى من الحرب الأخيرة أخذ يفكر جديا في فتح الشام.. وكانت تدور في ذهن محمد على أحلام حول إنشاء دولة عربية مستقلة في مصر تضم إليها البلاد العربية في أفريقيا وآسيا.. وهو قد استطاع بالفعل أن يستقل بمصر في أفريقيا وأن يفتح السودان وهو أيضا قد نجح في أن يسيطر نفوذه في آسيا على الجزء الأكبر من شبه الجزيرة العربية، وبحملته على الشام أراد أن يستكمل تأسيس الدولة العربية الموجودة، ويؤيد هذه الفكرة بعض التصريحات التي أدلى بها إبراهيم باشا أثناء الحملة السورية، فقد ذكر كارلفين وبارو في كتابهما (حرب مصر ضد الباب العالي في سوريا والأناضول) أنه بينما كان الحصار مضروبا على عكا سئل إبراهيم باشا إلى أي مدى تصل فتوحاته إذا تم له الاستيلاء على عكا فقال ما معناه إلى مدى ما يتكلم الناس وأنفاهم وإياهم باللسان العربي<sup>(٤)</sup>.

ويذكر الراقعي عن البارون ليو أنه قابل إبراهيم باشا بالقرب من طرطوس بالأناضول عام ١٨٣٣ بعد عودته من كوتاهيه.. وجرى بينهما حديث طويل ذكر فيه أن إبراهيم باشا يجاهر علنا بأنه ينوي إحياء القومية العربية وإعطاء العرب حقوقهم وإسناد المناصب إليهم سواء في الإدارة أم في الجيش وأن يجعل منهم شعبا مستقلا ويشركهم في إدارة الشؤون المالية ويعودهم سلطة الحكم كما يحتملون تكاليفه.. وتتجلى فكرته هذه في منشوراته ومخاطباته لجنوده في الحرب الأخيرة بسورية فإنه لا يفتأ يذكرهم بمفاخر الأمة العربية ومجدها التليد ويتصل بهذا المعنى مجاهرته بأن كل البلدان العربية يجب أن تنضم تحت لواء أبيه.. وكان إبراهيم باشا يستخدم اللغة العربية في صلاته مع أهل البلاد ويعد نفسه عربيا، لذلك كان لا ينفك يظعن في الأثر.. وقد لاحظ عليه ذلك أحد جنوده وخاطبه بتلك الحرية التي كان يشجع رجاله عليها

(١) د. حازم نسيه - القومية العربية ص ٥٧.

(٢) محمد عمارة - العروبة - ص ١٦١.

(٣) عبد الرحمن الرافعي - عصر محمد على ص ١٦٩، ١٧٠، ١٧١.

(٤) المصدر نفسه ص ٢٤٦ - ٢٤٧.

وسأله كيف يطعن في الأتراك وهو منهم فأجابه إبراهيم باشا على الفور: أنا لست تركيا فإني جئت مصر صيبا ومنذ ذلك الحين قد مصرتني شمسها وغيرت من دمي وجعلته دما عربيا<sup>(١)</sup>.

فالمؤرخون يجمعون على أن محاولة محمد علي وابنه إبراهيم لبناء دولة عربية كبرى هي أول محاولة في تاريخ البلاد العربية للوحدة الشاملة.. وليس هناك سبيل إلى تجاهل هذه الحقيقة فسياسة إبراهيم بالذات في بلاد الشام (١٨٣٢ - ١٨٤٠) وتصريحاته المتكررة وتقارير القناصل الأجانب إلى حكوماتهم تقطع بأن فكرة الوحدة العربية كانت مختمرة في ذهن إبراهيم باشا<sup>(٢)</sup>.

وقد لوحظ وجود تيارين في سياسة مصر العربية: تيار يرى قيام امبراطورية تركية تحل محل الخلافة في الاستانة.. ويمثله محمد علي وحاشيته التركية.. وتيار يرى قيام امبراطورية عربية يقوده إبراهيم باشا ورجال جيشه والقوى الجديدة التي تربت في المدارس الحديثة والبعثات والجيش الوطنى وجهاز الدولة الجديد<sup>(٣)</sup>. وهى التي كانت ترى أن التوسع المصرى لا بد وأن يقف عند آخر نقطة للمتكلمين بالعربية.

وكان اخفاق مصر في توحيد العالم العربى سببا في حدوث شقاق عقائدى<sup>(٤)</sup>، بين مصر.. والعروبة.. وكان رد الفعل الطبيعى لاتفاقية عام ١٨٤٠ هو انسحاب مصر من الساحة العربية.. وظهرت دعوات تنادى باستقلال مصر عن العرب والعروبة.. بحجة أنها تشكل بذاتها وحدة سياسية متكاملة. وظهرت أفكار تميزت بالنظرة الوطنية المصرية الضيقة بدلا من النظرة القومية العربية، الشاملة، ووجد أيضا من نظر إلى مصر في إطار حوض البحر الأبيض المتوسط، ووجد من نظر إليها في إطار الفرعونية.. ومن نظر إليها باعتبارها تشكل قومية مصرية.. وغير ذلك من الاطارات التي تحصر مصر عند حدودها الطبيعية.. وهذه الدعوات كانت التعبير الفكرى والسياسى عن النمو الذاتى والخاص الذى أخذت تسير فيه مصر مستجيبة لما فرض عليها من عوامل الحصار وظروفه.. حيث توفر للجماعة البشرية التي تعيش في مصر درجة عالية من وحدة الجماعة واللغة والأرض والتكوين النفسى والاقتصادى<sup>(٥)</sup>، مما جعل الكثيرين يتصورون وقتها أن المصريين يكونون أمة واحدة هي الأمة المصرية.

فالسبب اذن فى نشوء ما سمي بالقومية المصرية.. المنفصلة عن الحركة القومية العربية.. أن مصر عاشت حقبة طويلة من الزمن وهى وحدة سياسية منفصلة<sup>(٦)</sup>. ثم كان لوقوع مصر مبكرا فريسة للنفوذ الأوربى الحديث أن تحول كفاح مصر إلى صورة استقلال وطنى استغرقها تماما

(١) المصدر نفسه ص ٢٤٧.

(٢) د. محمد أنيس - دراسات في العالم العربى - اعداد ادارة التدريب بوزارة التربية - مطبعة أحمد مخيمر - القاهرة ١٩٥٨ ص ٣١٨ - ٣١٤.

(٣) محمد عمارة - العروبة - ص ١٥٨، ١٧١.

(٤) د. حازم نسيه - القومية العربية ص ٥٧.

(٥) محمد عمارة - العروبة - ص ٢٦١ - ٢٦٢.

(٦) د. حازم نسيه - القومية العربية ص ١٦٠.

لدرجة أجلت مؤقتاً الهدف العربى النهائى<sup>(١)</sup>.

وقد عادت الفكرة العربية تطرح فى مصر من جديد أثناء الثورة العربية اذ انه بعد مظاهرة الجيش فى سبتمبر ١٨٨١ زاد الهمس عن قيام حركة سرية ترمى إلى انشاء دولة عربية من مصر وسوريا وفى حين كانت بعض العناصر الثائرة فى الأزهر تتجه الى انشاء خلافة عربية أى دولة ذات طابع دينى، كانت العناصر الثورية الأخرى تطالب بجمهورية أو دولة عربية فى اطار الانفصال النهائى عن الخلافة سواء كانت عثمانية أو غير عثمانية<sup>(٢)</sup>.

وبعث المستشرق الأوروبى دوفيريه إلى مستر برودلى المحامى البريطانى الذى تولى الدفاع عن عرابى بحديث ومعلومات عن عرابى تضمنت اتهام عرابى بأنه صاحب صلة وثيقة بالحركة السنوسية فى ليبيا.. وهى الحركة المعادية للخلافة العثمانية والأوربيين والتى كانت تتميز بالطابع العربى المشرب بفكر اسلامى لا يتنافى مع العروبة<sup>(٣)</sup>.

كذلك فقد كتب الخديو توفيق إلى السلطان فى نوفمبر ١٨٨١ يقول له ان مصر فى حالة ثورة، وان هناك اقتراحاً لإنشاء امبراطورية عربية<sup>(٤)</sup>.

إن كل هذه الدلائل تشير إلى أن الثورة العربية لم تكن تخلو من اتجاهات عربية رغم نفى عرابى - فى خطابه إلى جورجى زيدان - مثل هذه الاتجاهات "ولم يخطر ببالي أصلاً الاقتداء بالفاتحين والمستغلين كما ذكرتم ولا بتأليف دولة عربية كما أرجف المرجفون. لأنى أرى ذلك ضياعاً للإسلام عن بكرة أبيه وخروجاً عن طاعة الله ورسوله<sup>(٥)</sup>".

رغم سيادة الفكرة الوطنية المصرية على الفكر المصرى طوال فترة هذا البحث إلا أن الصحف المصرية لم تكن تخلو من كثير من الكتابات التى تعرضت لفكرة العروبة.. أو تلك التى تكشف عن وعى كاتبها بعروبة مصر.

ويلاحظ أن أكثر هذه الكتابات صدر من جانب الصحفيين السوريين واللبنانيين الذين هاجروا من سوريا ولبنان بفعل الارهاب التركى واشتغلوا بالصحافة، واتخذوا من مصر وطناً لهم<sup>(٦)</sup>.

ويرتبط بذلك الدور المتميز الذى لعبه المسيحيون فى نشر فكرة العروبة وهى أمر طبيعى فى ذلك الوقت لأن الحركة القومية هى القطب المناوئ للحركة الاسلامية التى تستبعد العناصر غير الاسلامية.. كذلك فقد كان من نتيجة اهمال العثمانيين لتعليم اللغة العربية، بل ومطاردتها أن اللغة العربية وآدابها لم تجد سوى ملجأ واحد هو الإرساليات التبشيرية المسيحية فى بلاد الشام

(١) د. جمال حمدان - شخصية مصر ص ٢٤٥-٢٤٦.

(٢) صلاح عيسى - الثورة العربية - ص ٢٢٨.

(٣) محمد عمارة - العروبة فى العصر الحديث - ص ٢٥٧.

(٤) المصدر نفسه - ص ٢٧٦.

(٥) الهلال ج٢ م ١٠ ص ٣٣-١٩٠١.

(٦) بولس قرالى - السوريون فى مصر - الجزء الأول - المطبعة السورية بمصر - ١٩٢٨ - ص ٢.

بالذات، وهكذا أُتيح للمسيحيين فرصة الاطلاع والتنقيب في تاريخ العرب وآدابهم ولغتهم... وإليهم يرجع الفضل في تلك الفكرة التي شاعت عن أن للعرب حضارة قبل الاسلام ثم ازدهرت على يد الاسلام وأن - المسيحيين لعبوا دورا خلاقا في بناء الحضارة العربية مثل المسلمين وأنه لا يمكن أن يكون الطابع العام للحضارة العربية دينيا<sup>(١)</sup>.

لذلك لم يكن غريبا أن يكون أول مقال تقع عليه أعيننا.. ونلمح فيه فكرة العروبة.. كتبه أرشميدز الكرسى الانطاكي غبرئيل جبارة مأمور بطيركي.. فهو يتحدث باسم "سكان أرض الميعاد التي تشرفت في التوراه والانجيل والقرآن" ثم هو يطالب بأن تكون لغتنا العربية هي الأولية في سائر مراكز دولتنا العلية، وبأن يكون فضلنا وعقلاؤنا بأعلى الوظائف الشرعية والعسكرية<sup>(٢)</sup>. ولكنه يستدرك قائلا ان العرب لا يطمحون في الانفصال الكلي عن الدولة العثمانية "فهم ليسو من أمة سلاقية أو يونانية لكي تطمح أفكارهم بطلب الاستقلالية".

إن خطورة هذا المقال في ذلك الوقت تأتي من كونه يميز العرب عن سائر شعوب الدولة العثمانية، ويطالب بمركز ممتاز في هذه الدولة.. ثم هو ثانيا يريد أن يسلب من الدولة العثمانية طابعها الديني لصالح العثمانية عندما يؤكد: "ان المأخوذ الآن عند سائر الدول أساسا للتمدن ودستورا للعمل هو أن لا تقوية إلا بالتسوية ولا نجاح إلا بالاصلاح ولا سلام وعدل إلا بأن القول يسبقه الفعل.. ولا تمدن ولا اصلاح عوائد إلا بحرية الأديان والأفكار والجرائد مستندا على أن الخالق سبحانه وتعالى خلق الانسان حرا ومنحه تمام الارادة ووضع له ناموسا بقدره تصرفاته"<sup>(٣)</sup>.

ولجأ أديب اسحق إلى الدعوة للفكرة العربية عن طريق الطعن في الوطنية المصرية "لو بحثوا عن الأصول لما رأوا في أى البلاد الشرقية فئة من السكان تصح لها دعوى الوطنية الأصيلة"<sup>(٤)</sup>. ثم اتخذ مصر نموذجاً يؤكد به فكرته فقال: ولنضرب المثل بالقطر المصري فنقول ان ليس في مصر من لا يخاف التكذيب إذا ادعى أنه من بقية البطالسة وعلى فرض أن يدعى ذلك فإنه يثبت لنفسه الأصل اليوناني لا المصري وأن هذا القطر الذى ملكه الرعاة العرب (قد يقصد الهكسوس) واليونان والفرس والحبشة والمسلمون العرب ثم الترك والافرنج، وتوالت عليه غارات القبائل المتنوعة والشعوب المختلفة لا يستطيع الانتماء إلى فريق منهم دون الآخر لما وقع منه من اختلاط الأنساب وامتزاج الأصول وتعذر التفريق بين الدخيل والأهلى.

ويرفض أديب اسحق الفكرة التى سادت في ذلك الوقت وهى حصر الحق في الانتساب إلى مصر للفلاحين وحدهم، فإنه من شأن ذلك - وهنا يلجأ إلى تحريض السلطة - اخراج الحكام والأمراء من دائرة المصريين فيقول:

(١) د. محمد أنيس الدولة العثمانية والشرق العربي - ص ٢٦٤.

(٢) صحيفة الأهرام - ٩ ديسمبر ١٨٧٦.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) التجارة - ٢٧ سبتمبر ١٨٧٩ مقال بعنوان الشرقيين في الشرق.



"ولا يليق بذى الدراية والذكاء أن يحصر الوطنية المصرية فى أهل الفلاحة وأن يلتبس لهم ملكانهم فان أقل ما فى ذلك من الوهم أنه يخرج ثلاثة أرباع سكان القطر، ان لم تقل خمسة أسداسهم أو ستة أعشارهم من الوطنية وفى جملة هؤلاء أمير القطر وآله ومن انتمى إليهم من الأمراء والمقررين والوزراء والرؤساء والكثير من العلماء وقادة الجند بأسرهم والتجار والصناع وسائر دعائم الهيئة الاجتماعية بل تحسب من يزعم لوطنه مثل هذه الحالة الموجبة للاختلال والاضمحلال أقل وطنية من جميع هؤلاء".

والفكرة البديلة التى يرى أديب اسحق أن تحل محل الوطنية المصرية الضيقة هى "صلات الجامعة اللغوية - فلا وجود لأمة إلا بهذه الجامعة" وهو هنا يقدم الرابطة العربية، بديلاً للوطنية المصرية.. ثم ينتهى إلى الدعوة إلى "الحرص على جامعة الكلمة ومن ادعى غير ذلك فليرفع نسبه إلى ما قبل دولة الترك والعرب والفرس والحبشة واليونان والرعاة إن كان من الصادقين"<sup>(١)</sup>.

ونشبت معركة بين صحيفة التجارة وصحيفة الوطن.. بدأتها الوطن بأن نشرت تحقيقاً صحفياً عن الخلل الذى أصاب إدارة الجمرك المصرية وأرجعت هذا الخلل إلى سوء تصرف موظفيه السوريين. ثم رأتها مناسبة للطعن فى كفاءة السوريين. وعارضت فى كثرة تعيينهم بإدارات الحكومة المصرية.

وردت التجارة على الوطن بسلسلة مقالات متتالية كتبها أديب اسحق والذى يهمنها فى هذه المعركة أنها تكشف عن إحدى المعارك الهامة بين الفكر القومى العربى والفكر الاقليمى فى مصر - وكان بودنا أن نطلع على مقالات الوطن ولكن لسوء الحظ فإن الأعداد التى نشرت فيها هذه المقالات مفقودة.

لقد بدأ أديب اسحق رده على الوطن بأن اتهم محرره<sup>(٢)</sup> فى وطنيته عندما أدان السوريين لصالح المأمورين الانجليز.. وهو فى ذلك لا يعمل لمصر وإنما للأجانب.. ثم أكمل ذلك باتهامه بأن دافعه للحملة على السوريين هو تعصبه الدينى بدليل ثنائه على غوردن باشا وغيره من مأمورى الانجليز لمجرد كونهم من البروتستانت.. ثم هاجم أديب اسحق محرر الوطن لأنه "تجاسر على الفصل بين السوريين وبين الأمة المصرية مع اتحادهم فى اللغة والمشرى"<sup>(٣)</sup>. ثم قال: "ألم يعلم أن اخراجهم من الوطنية يعنى بقاء مصر لقبطها وحسبان المسلمين فيها على الاطلاق أجنبيين - فإنهم جميعاً نزلوا هذا القطر من عهد الفتح ومن بعده"<sup>(٤)</sup>. ثم كرر أديب حجته القديمة والتى سبق أن أوردها فى مقال سابق بأن ذلك يعنى "عد البيت الكريم وسائر الأمراء والوزراء والرؤساء والتجار وجل العلماء من الأجنبيين الدخلاء. فإن كان ذلك مقصده فلبس ما قدمت يداه"<sup>(٥)</sup>.

(١) المصدر نفسه.

(٢) هو ميخائيل أفندى عبد السيد صاحب ومحرر الوطن.

(٣) التجارة - ٢٧ أكتوبر ١٨٧٩ مقال بعنوان جريدة الوطن.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه.

وفى مقال آخر اتهم أديب اسحق صحيفة الوطن بأنها تريد أن تفصم "صلات الوحدة وعلائق الألفة بين الشام ومصر"<sup>(١)</sup> وأن هدف حملتها على السوريين هو "تفريق الكلمة العربية"<sup>(٢)</sup> و"تفريق جميع الأمة العربية"<sup>(٣)</sup> ثم يؤكد وحدة السوريين والمصريين مدلا على أن الحكومة المصرية "تفرض عليهم ما على المصريين.. يؤدون الضرائب ويعطون الرسوم وينهضون بالأوامر خاضعين. وغير ذلك مما لا ينفذ فى الأجنى"<sup>(٤)</sup>.

وأنكر أديب اسحق فكرة وجود مصرى نقى ورفض اعتبار وحدة الجنس كعامل من عوامل الوحدة القومية فقال "إن الفتوح المتوالية والغارات المتواترة قد ذهبت بقايا مصرايم.. إن حملة اللغة قد نابت عن رابط الأصل السقيم"<sup>(٥)</sup>. وانتهى من ذلك بالقول بتخطئه كل من يرى "أجنبية من لم يتصل بنسب شيمى أو باجتوس ومن لم يعتقد جده الأول يعمون (يقصد آمون) وبوتو (يقصد خوفو) وأثورود نيف وأوزيريس"<sup>(٦)</sup>.

وتكررت نفس المعركة بين الصحف الوطنية والصحف السورية أثناء الثورة العربية وكان سببها الظاهرى هو نفس السبب القديم وهو كثرة تعيين الشاميين فى وظائف الحكومة المصرية.. ولكن السبب الحقيق الذى كان يخفى وراء هذه الحملة هو الموقف المعتدل الذى أخذته الصحف الشامية من الثورة العربية ولقد كان موقفا غريبا بالفعل.. فقد يعجب الباحث كيف أن واحدا من أكثر الكتاب ثورية وتقدمية فى ذلك الوقت وهو أديب اسحق - يتحول إلى الدعوة إلى الاعتدال فى طلب الحرية.. بعد أن كان أكثر دعائها تطرفا فى الفترة التى سبقت الثورة العربية مما أبغض فيه رياض باشا.. فأغلق له جريدته التجارة ومصر.

ولقد كان من نتيجة موقف أديب اسحق المعتدل هذا.. أن سخط عليه رجال الثورة العربية.. ولم يجعلوا من جريدته مصر لسان حال الثورة كما كان متوقعا.. واستعاضوا عنها يومئذ بصحف أخرى مثل جريدة المفيد وجريدة الطائف<sup>(٧)</sup>.

وقد كان من نتيجة حملة الصحف الوطنية على الصحف السورية أن اضطر كثير من السوريين إلى الهجرة من مصر وقطع أديب اسحق (وكان موظفا فى الحكومة المصرية ويعمل كاتباً لأسرار مجلس النواب).. كل صلة له بجريدة مصر ولم يبق من الصحف السورية يومئذ غير صحيفة المحروسة لصاحبها سليم النقاش اذ بقيت موالية للحكومة حتى عطلها عرابى ثلاثة أشهر<sup>(٨)</sup>.

(١) التجارة - ٢٨ أكتوبر ١٨٧٩ - مقال بعنوان (السوريون وجريدة الوطن).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) المصدر نفسه.

(٧) د. عبد اللطيف حمزه. أدب المقالة الصحفية فى مصر - الجزء الثانى دار الفكر - القاهرة ص ١٨.

(٨) المصدر نفسه ص ٢٠.

وتلخص المفيد موقف الجرائد الوطنية من قضية الصحف الشامية عندما كتبت تقول: "كل من جريدة الأحوال والمحروسة ومصر أتاناً أصحابها وجيوبهم أفرغ من فؤادهم من الوطنية التي ادعوا ترويجا لمقاصدهم فأنشأوا بين أيدينا جرائدهم ودعوا باسم الوطنية والخدمة الانسانية، والحال في سكون فلما ارتبكت الحال قطعوا السنة جرائدهم ورجعوا بلادهم بجر الحقائق فنعم الأحاب لازمونا في الهناء وفارقونا في الشقاء"<sup>(١)</sup>.

وقد تصدت المحروسة للرد على حملة الجرائد الوطنية وناقشت قضية تعيين السوريين في وظائف الحكومة المصرية.. وتعرضت لمسألة الوطنى والمستوطن فقالت "إن السورى مرتبط بالمصرى بجامعة الجنسية العربية الكريمة فلا يصح أن يعتبر بين المصريين غربيا ولا نزيلا لأنه يشترك معهم فى المصلحة العمومية ولا يجمل بأهل مصر أن يباعدا السوريين مع أنهم لا ينزلونهم إلا منزلة الاخوان بل منزلة الذات فلا يميزون ضيفهم المصرى عن أنفسهم"<sup>(٢)</sup>.

أما فيما يتعلق باشتغال غير المصريين فى مصالح الحكومة فعلقت عليها قائلة "وكثيرا ما بينا فى المحروسة أن المصالح الميرية يجب أن تكون خلوا من أهل الفساد وطنين كانوا أو أجنب لأن المصلحة العمومية أفضل من المصلحة الخصوصية على أن استخدام الوطنى أفضل من استخدام سواه لعدة وجوه أولها: أنه أحق من الغريب بالانتفاع فى خيرات بلاده، والثانى: أن الحكومة تنتفع منه بأكثر مما تنتفع من غيره فى الأمور الوطنية فهو الذى يحفر الترع ويحمل السلاح ويرمم الجسور ولا يخرج من البلاد إلا بتذكرة مخصصة من حكومته"<sup>(٣)</sup>. ولكنه إضافة إلى ذلك أنه لابد من معرفة أن العرب جميعا وحدة متماسكة" وان اختلفوا فى الوطنية النسبية.. غير أن المصرى مثلا أحق من الشامى والحجازى بخدمة حكومته.. والحجازى أجدر بالتمتع بشمرات بلاده من الشامى الذى يعد فى الحجاز ضيفا، وإن كان بين إخوانه فى الوطنية واللغة معززا مكرما"<sup>(٤)</sup>.

ونعتقد أن هذا المقال - وخاصة الفقرة الأخيرة منه تقدم مفهوما صحيحا للعلاقة ما بين الوطنية والقومية - فالوطنية المصرية أو السورية أو الحجازية هى جزء من كل .. هى القومية العربية أو الرابطة العربية كما كانوا يطلقون عليها فى ذلك الوقت.. وأنه لابد من الاعتراف بالحقوق الوطنية للأفراد.. وإن هذا لا يتعارض مع الانتماء القومى الأكبر.

والعروبة عند عبد الله النديم فكرة تتردد كثيرا فى كتاباته.. وهى عنده لا تتناقض ولا تتعارض مع مصريته التى كان يعتز بها كثيرا.. وكما كان يفخر ويشيد بالتاريخ المصرى القديم (الفرعونى) نراه يفخر ويشيد - بنفس الدرجة - بالتاريخ العربى وبفضل العرب على الحضارة الانسانية فكتب على لسان أوربى مهتما بأحوال العرب يقول "إن للعرب فضلا على سائر المسكونة بما فتحوه من باب الرحلة والسياحة، أيام كانت أمة لا تتجاوز حدودها ولا تعرف غير

(١) صحيفة المفيد - ٢٢ يونيو ١٨٨٢.

(٢) صحيفة المحروسة ١١ أبريل ١٨٨٢ - مقال بعنوان (فصل الخطاب).

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

أهلها ومن العجائب أنهم بثوا التمدن فى الوجود أيام تملكهم على الأقطار.. وودت أنى أنسب إليها وينسلخ عنى عنوان أورباوى" (١).

وكذلك قوله على لسان أحد النبهاء: "أظنك مغرماً بأشعار العرب لتقف على أحوالهم ووقائهم الشهيرة والأمانة التى امتازوا بها والعزة التى بها يعرفون، والكرم الذى به يمدحون والوفاء الذى به يمتازون والحكمة التى بها يولدون والبلاغة المقصورة عليهم" (٢).

ونلاحظ أن النديم لم يكن يميز بين مصر والعروبة.. فهو دائم الخلط بينهما وكثيراً ما يتحدث عنهما باعتبارهما شيئاً واحداً وذلك يرجع لكونه يعتبر اللغة أساس الرابطة الوطنية والقومية "فاللغة هى وطنك إن لم تعرف ما الوطن.. فالوطن إنما يعمر ويسمى وطناً برجال يتعانون على إحيائه وإظهاره فى الوجود محلاً للسكنى وداراً للإقامة ومن فقد المواطن فقد الوطن" (٣).

والنديم يعتقد بأن "من سلم فى لغته سلم فى وطنه ونفسه" (٤). وإن إضاعة اللغة تسليم للذات" (٥) وأن "استقلال الأمة موقف على حفظ لغتها" (٦) وإن "اللغة هى عنوان الأمة" (٧).

والنديم يقترح لإحياء اللغة العربية ضرورة "أحداث درس فى جميع المدارس يلحق فيه الطفل لغته العربية الشريفة بطريقة تهيئية ولا يصعب الأخذ بها ولا تمل النفس من ملازمتها مع اجتماع الأمة على تكثير المدارس والجمعيات وصرف ثلث وقت الطفل فى تعلم الوطنية وتهذيب الأخلاق" (٨).

وقد أثارت مقالات النديم حول أهمية اللغة فى عملية الإحياء القومى عدة مناقشات فى صحف ذلك الوقت واشترك فيها عدد من الكتاب.. واختلف الاجتهاد فبينما اتهم سليم النقاش النديم بالتعصب (٩) نجد أن الشيخ محمد عبده يقف معه ويندد بأسلوب الكتابة الركيك فى دواوين الحكومة وفى مراسلات الناس ويطالب بالاهتمام باللغة العربية فى المدارس وفى دواوين الحكومة (١٠).

وساهم أمين افندى شميل فى المناقشة فكتب مقالاً فى التنكيث والتبكيث ربط فيه بين إحياء اللغة العربية والعزة والدعوة للحرية.. وهو يؤكد أن تقدم المجتمع مرهون بإحياء لغته.. وأن

(١) التنكيث والتبكيث - العدد الأول - مقال "لا تصدقنى ولو حلفت لك" ٦ يونيو ١٨٨١.

(٢) المصدر نفسه - مقال «غفلة التقليد».

(٣) التنكيث والتبكيث ١٩ يونيو ١٨٨١ مقال بعنوان "إضافة اللغة تسليم للذات".

(٤) المصدر نفسه.

(٥) التنكيث والتبكيث ١١ سبتمبر ١٨٨١.

(٦) المصدر نفسه.

(٧) المصدر نفسه.

(٨) التنكيث والتبكيث ١٩/٦/١٨٨١.

(٩) صحيفة العصر الجديد - الأعداد ٨٣، ٧٩.

(١٠) الوقائع المصرية العدد ١٠٣٧ مقال بعنوان مشكلات الكتابة (التاريخ مفقود).

إحياء هذه اللغة رهن بمدى الحرية المتوفرة في المجتمع.. ثم انتهى من ذلك إلى أن "في ضعف كل أمة فقدان لغتها مهما كانت تامة الألفاظ واسعة المعاني والمباني"<sup>(١)</sup>.

ولعبد الله النديم مقال هام رد فيه على مقال كتبه الموسيو (شارم غبريال) في جريدة الديبا الباريسية وفيه يكشف النديم - إذا اعتبرناه لسان حال الثورة العربية - عن موقف العربيين من فكرة إنشاء الدولة العربية المستقلة عن تركيا "تلك الفكرة التي شاعت عن العربيين والتي استغلت للتوقيع بين العربيين وبين الباب العالي.. فيورد النديم آراء شارم غبريال ويرد عليها.. ومما قاله شارم غبريال "إن هؤلاء النافرين - يقصد العربيين - الذين يزعمون أنهم وطنيون يرون أن أرضاً كبيرة كمصر لا تحكم بتركي ولا غيره وأنهم يفضلون القتل على دخول عسكري غريب في أرضهم أو يتدخل من رجال الحكومة التركية في أعمالهم.. ويوجد في الشرق عدد كثير يحلمون بإحياء دولة عربية وأول ظهور ذلك في الشام وكان مدحت باشا هو المساعد لهم ولهذا طلبت فرنسا إخراجهم من الشام خوفاً من تأسيس تلك الدولة فإنه إذا زالت سلطة الترك من الشام ولم تحمل بعدها دولة أورباوية خربت تلك البلاد وهلك"<sup>(٢)</sup>.

ورد النديم على هذه الأقوال فكتب يقول: "دولتنا العملية الشأن واثقة بخضوع رجالها وانقياد أهلها ورضاهم بسلطتها رضاً لا تزعمه مفترياتك ونحن معاشر العرب بايعنا ملوكنا مبايعة شرعية نعد رفضها كفراناً وإخلالها خسراناً ولنا ذمة يحلف بها الصادق حين يقول وذمة العرب ومن كان هذا اعتقاده كان بعيداً عن التلون في أعماله"<sup>(٣)</sup>.

ونلاحظ على رد النديم أمرين:

الأول: أنه يؤكد على رابطة العروبة.. فهو يركز أكثر من مرة على هذه الرابطة فمرة يقول "نحن معاشر العرب" ومرة أخرى يقول "وذمة العرب".. فإذا ما عرفنا أنه يتحدث عن مصر أدركنا مدى مزجه بين العروبة.. والمصرية.. فهما عنده شيء واحد.

الثاني: أنه يصر على تأكيد ولاء مصر والعرب للخلافة العثمانية.. فهو لا يجد تناقضاً بين وجود العروبة وبين الولاء للدولة العثمانية، ويكفي للتدليل على ذلك أنه يرى أن الولاء للدولة العثمانية ليس مفروضاً على العرب وإنما هو قائم باختيارهم الحر ونلاحظ قوله "ونحن معاشر العرب بايعنا ملوكنا مبايعة شرعية" والنظرة السريعة قد ترى أن وراء موقف النديم محاولة لإحباط خطة الصحافة الأوربية للموقعة بين العربيين والسلطان.

ومع أن ذلك حقيقى.. إلا أنه ليس كل الحقيقة.. ذلك أن موقف النديم في تأييد الدولة العثمانية موقف مبدئى بمعنى أنه كان يؤمن بالدولة العلية وظل على إيمانه بها حتى سقوط الثورة العربية وبعد التحاقه بجمال الدين الأفغانى في الاستانة، وعملهما معا من أجل الجامعة

(١) التنكيت والتبكيث - ١٠ يوليو ١٨٨١ مقال بعنوان - كلمة غيور على لغته.

(٢) التنكيت والتبكيث ٢٣ أكتوبر ١٨٨١ - مقال "الدنيا والعرب".

(٣) المصدر نفسه.

الاسلامية التى كانت فى إحدى جوانبها تستهدف تدعيم الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية باعتبارها الدولة المؤهلة للوقوف أمام تسلسل الاستعمار الأوربي إلى الشعوب الإسلامية.

ولقد سيطر هذا الاتجاه المؤيد للدولة العثمانية على الحركة الوطنية المصرية حتى سقوط الخلافة فى تركيا فى نهاية الحرب العالمية الأولى.. وكانت سيطرة هذا الاتجاه وراء الانشقاق العقائدى الذى فصل ما بين مصر وشعوب المشرق العربى.. ففى الوقت الذى كانت تستعين فيه مصر بدولة الخلافة لإخراج الإنجليز.. كانت شعوب المشرق - حيث كانت الظروف مواتية لانبثاق حركة قومية عربية تستعين بالإنجليز و ببعض دول أوروبا لكى تتخلص من الحكم العثمانى.

أما فى مصر.. فلم يتمثل الرد المقابل لسقوط دولة الخلافة.. فى ولاء لأمة عربية.. بل فى ولاء للوطنية المصرية.. بمعناها الضيق.. المتفصل عن العروبة.

\* \* \*

## الفصل الثالث

القومية الإسلامية  
في الصحافة المصرية





إن أى محاولة تستهدف التعرف بشكل كامل على اتجاهات الفكر القومى فى مصر لابد وأن تتعرض لقضية العلاقة بين مصر وتركيا.. ليس فقط لأن تبعية مصر لتركيا كانت انتقاصا من الاستقلال وتذويبا للشخصية القومية.. وإنما لارتباط هذه القضية بفكرة لعبت دورا كبيرا فى الفكر القومى المصرى وخاصة فى السنوات الأخيرة من فترة البحث.. ولسنوات طويلة بعدها.. ونقصد بها فكرة الجامعة الاسلامية.

وإذا كانت معاهدة لندن ١٨٤٠ هى التى جعلت لمصر شخصية دولية مستقلة ورفعت مركزها من ولاية لا تختلف عن سائر ولايات السلطنة العثمانية.. إلى دولة مستقلة استقلالاً مقيدا بقيود السيادة التركية.. إلا أن فرمانات التى أصدرتها تركيا تنقيذاً للمعاهدة، قد تجاوزت فى بعض المواطن القيود الواردة بها.. ويبدو أن السلطان العثمانى استغل فرصة تكاتف الدول الأوروبية على مصر... فغالى فى فرمانات التى أصدرها لمحمد على، وغلبها بالقيود.. وخاصة فى فرمان الأول الصادر فى ١٣ فبراير ١٨٤١.

ولكن محمد على اعترض لدى الدول على تلك القيود وقد تدخلت الدول الأوروبية لدى السلطان واضطرته لتعديل هذه القيود فى لائحة ٩ أبريل سنة ١٨٤١ كما فى فرمان أول يونية ١٨٤١<sup>(١)</sup>.. وقد ظلت هذه هى طبيعة العلاقة بين مصر وتركيا.. الباب العالى يريد أن يزيد من القيود على مصر.. ومصر تريد مزيدا من الاستقلال عن الباب العالى.

ولقد حاول الباب العالى مرة أخرى أن يعيد مصر إلى باشوية عادية من الباشويات العثمانية وحرمانها من الوضع الذى خولته لها معاهدة لندن والفرمانات التى صدرت مقرة للمعاهدة.. فطالب عباس الأول بتطبيق التنظيمات الخيرية<sup>(٢)</sup> فى مصر، باعتبارها ولاية عثمانية، ولكن عباس عارض فى ذلك.. وكانت المجترة تؤيده ففشل التدخل العثمانى فى مصر عن طريق التنظيمات<sup>(٣)</sup>.

أما سعيد باشا فقد كان طموحا يسعى إلى تحقيق استقلال مصر عن تركيا فأبدى

(١) عبد الرحمن الرافعى - عصر محمد على ص ٣٦١، ٣٦٨.

(٢) تشمل هذه التنظيمات مرسومين سلطانيين أساسيين صدر الأول عام ١٨٣٩ وعرف باسم منشور الكلخانة.. والثانى فى عام ١٨٥٦ وعرف باسم التنظيمات الخيرية.. فى المرسوم الأول تنازل السلطان عن جزء من سلطاته لمجلس الأحكام القضائية الذى أصبح من حقه سن القوانين على أن يصدق عليها السلطان.. وقضى المنشور الثانى أن لا يعاقب أحد دون محاكمة علنية وأن يعامل المسلمون وغير المسلمين معاملة متساوية أمام القانون.. كما نص على ضرورة وضع تشريع لإبطال المتاجرة فى الوظائف واعترف المنشور بالتجديد الجارى للخدمة العسكرية.. أما منشور التنظيمات الخيرية فقد أقر كافة المبادئ التى وردت فى الخط الهمايونى السابق. واهتم بصفة خاصة بمبدأ المساواة القانونية المدنية لكافة رعايا السلطان وحقهم فى خدمة الدولة.

ويعتقد أن هذه التنظيمات قصد بها إقناع الدول الأوروبية بأن ثمة إصلاحا يجرى فى الدولة العثمانية، لعل هذا يؤدى إلى إقناع هذه الدول بصلاحية الدولة العثمانية للبقاء.. وبعدم تدخلهم فى شئون الدولة.

(٣) د. محمد أنيس - الدولة العثمانية والشرق العربى ص ٢٢٣.

تسامحا مع الأجانب.. والأقليات الدينية.. اذا كان تفوق المسلمين ركيزة للسلطان فى مباشرة نفوذه فى مصر<sup>(١)</sup>.

وقد استطاع الخديو اسماعيل أن يحرر مصر من أكثر القيود التى فرضتها فرمانات العثمانية بل وبعض القيود التى نصت عليها معاهدة لندن، عن طريق استخدامه وساطة الدول الكبرى، وبالأموال التى أنفق منها بسخاء على رجال الدولة العثمانية فكانت فرمانات التى أصدرها السلطان بتوسيع حدود اختصاصات الخديوية والتى انتهت بالفرمان الشامل الصادر فى ٩ يونيو ١٨٧٣<sup>(٢)</sup>.

وقد جاء الفرمان الأخير مصادقا على كل فرمانات والخطوط الشريفة الممنوحة لمحمد على وحلفائه ومدخلا عليها تحسينات وتوسعات جمّة وشاملا ما كان منها متعلقا بالوراثة وبشكل الوصاية فيما لو كان الخديو قاصرا.. ومنح اسماعيل بموجبه من جديد حق سن القوانين واللوائح الداخلية على أنواعها مهما تكن مراميها وحق عقد اتفاقيات جمركية ومعاهدات تجارية وحق اقتراض أى قروض يشاؤها فى مصلحة البلاد وحقه فى زيادة الجيش أو ضغطه كما يشاء وحق بناء السفن الحربية ما عدا المدرع منها وبالاختصار لقد أعطى هذا الفرمان لاسماعيل حق تنظيم الادارة المدنية والعسكرية والمالية فى البلاد طبقا لما توجبه مقتضيات الأهالى.. أى أنه توج مسعى اسماعيل إلى نيل الاستقلال الذاتى تنويجا نهائيا وجعل قيد ارتباطه بتركيا كأنه غير موجود.. فهو ومعاهدة لندن ١٨٤٠ قد أرسيا الأساس الذى استند إليه استقلال مصر قبل الاحتلال البريطانى فى عام ١٨٨٢.

ورغم هذا فإن الفرمان لم يعط مصر شخصية قانونية منفصلة عن شخصية الامبراطورية العثمانية اذ لم يفكر السلطان فى التنازل للخديو عن حقوقه فى السيادة على مصر بل سمح له بالتمتع بما لا يزيد على قسط منها.. وتبدو قيمة هذا الفرمان فيما لو قارناه بفرمان ١٩٦٧ فلم يدر فيه ما ينص على أن القوانين الأساسية السائدة فى مقاطعات الامبراطورية الأخرى تطبق فى مصر.. كما لم ترد فيه فقرة التنظيمات العمومية التى نص عليها خط شريف.. وسمح الفرمان الجديد بعقد اتفاقيات تجارية مع الدول الأجنبية دون تعد على معاهدات الباب العالى والدول الأوربية وهى التى تنطبق على مصر ينتهى أجلها فى عام ١٨٧٦ فقد كانت الدول الأوربية فى حل من أن تتباحث مباشرة مع الحكومة المصرية فى شروط تجديدها<sup>(٣)</sup>.

وبعد عزل اسماعيل وتولية توفيق رأى الباب العالى - أن الفرصة سانحة لاستعادة سيادته على مصر، والغاء الامتيازات التى منحت لاسماعيل بمقتضى فرمانات ١٨٦٦، ١٨٧٣، ٦٧، وأن تعود مصر إلى مجرد باشوية من باشويات الدولة العثمانية.

(١) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى - علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديو اسماعيل - دار المعارف - القاهرة - ١٩٦٧ - ص ١٣.

(٢) د. محمد أنيس - الدولة العثمانية والشرق العربى - ص ٢٢٣.

(٣) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى - علاقات مصر بتركيا - ص ١٧٩ - ١٨١.

ولكن إنجلترا وفرنسا وقفتنا في وجه السلطان وأرغمته على إصدار فرمان في ٧ أغسطس ١٨٧٩ مؤكدا لتوفيق التصرف التام في شئون بلاده المالية، ولكن السلطان حرص على توثيق الصلة بين مصر والدولة العثمانية فمنع الخديو من أن يعقد اتفاقات تخل بالمعاهدات السياسية لمرة مع الحكومة العثمانية، كذلك أكد أن الامتيازات المعطاة للخديو - هي في الأصل منحة من الدولة صاحبة السيادة وحرص على أن تكون أعلام القوات العسكرية ورتب الضباط هي نفس الأعلام والرتب العثمانية<sup>(١)</sup>.

وقد أثار تأجيل الباب العالي إصدار فرمان تثبيت توفيق، ومحاولته استرداد بعض الحقوق التي منحتها فرمانات لمصر - نقاشا واسعا في الصحف المصرية ورأت فيه أكثرها محاولة للنيل من استقلال مصر.. وباب انفتح لمزيد من التدخل الأوربي في مصر.. فكتب سليم النقاش في التجارة مقالا عن قصة عزل اسماعيل تحدث فيه عن تدخل القناصل وأذاع تفاصيل الحوار الذي دار بين اسماعيل وبين القنصل الفرنسي الذي طلب منه التنازل لولي عهده توفيق فقال سليم النقاش.. "طلب المسيو تريكو (قنصل فرنسا) جوابا نهائيا فأجابه الجناب السامي: إنني تابع للباب العالي.. لا أصدر إلا عن رأيه، ولا أقوم إلا بأمره.. فقال أحد القناصل الحاضرين: لم نعهدك من قبل ذلك الاستقلال برأيك حاكما بأمرك متصرفا بإرادتك، فما الذي أوجب هذا الانقلاب؟

فأجابه: إنني تابع للباب العالي فيما أقول وما أفعل منذ رفعت إلى هذا المقام.. بل منذ انيط عني حجاب الخفاء فظهرت في عالم الوجود فقال القنصل: إنا لا نعرف إلا جلالتك، فأجبنا بما نرى؟ فقال: إن جوابي هو ما تقدم ليس إلا<sup>(١)</sup>، وهنا نلاحظ أن اسماعيل الذي كان يحرص دائما على الاستعانة بالدول الأوربية لمواجهة الباب العالي في دعم استقلاله.. غير موقفه، وبدأ يستعين بالباب العالي لمواجهة الدول الأوربية التي تريد عزله.. وهو في هذه العملية - يعود ليعترف بحق الباب العالي المطلق في مصر ويظهر ذلك في قوله: "إنني تابع للباب العالي فيما أقول وما أفعل منذ رفعت إلى هذا المقام، بل منذ أنيط عني حجاب الخفاء فظهرت في عالم الوجود".. وكان هذا التبدل في موقفه غريبا لدرجة أن قناصل الدول أبدوا عجبهم منه.. فالواضح هنا أن الخديو اسماعيل كان يتمتع باستقلال حقيقى عن تركيا بدليل اعتراف القناصل الأجانب بذلك.. أما محاولته الادعاء بالولاء للباب العالي.. فقد كانت مجرد مناورة سياسية منه للضغط على الدول.. وليست سياسة ثابتة له.

وكان طبيعيا أن يستغل الباب العالي هذه الفرصة فيؤيد اسماعيل من ناحية.. ويثبت نفوذه في مصر من ناحية أخرى.. يثبت ذلك قول سليم النقاش.. بعد أن سرد الحوار الذي دار بين اسماعيل وقناصل الدول: "ثم ورد إليه - يقصد اسماعيل - بعد ذلك تلغراف من الباب العالي مفاده "إذا كان التنازل بإرادتكم واختياركم كان لنا أن نرفض أو نقبل.. وإن طلبت الدول ذلك فعليها ان تخابرننا"<sup>(٣)</sup>.

(١) د. سامى عزيز - الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي - دار الكاتب العربى - القاهرة ١٩٦٨ - ص ٣٣ - ٣٤.

(٣) المصدر نفسه.

(٢) التجارة - ٢٤ يونيو ١٨٧٩ مقال بعنوان: أحوالنا.

وعلق سليم النقاش على هذه البرقية قائلا:

"فاطمأت الخواطر وأنيطت الآمال بالباب العالي اعتقادا أنه يعلم أن انقياده للدول في هذا الأمر الخطير يوهم أنه متخل لها عن رئاسته وسيادته على هذا القطر بل يوجب انكسار قلوب العثمانيين جميعا اذ يرون أن دولتهم قد خذلتهم في حين الحاجة إليها حال كونهم لم يألوا جهدا في مساعدتها.. بل افتدوها بالأموال والرجال"<sup>(١)</sup>.

وعقب عزل اسماعيل كتب أديب اسحق في جريدة مصر.. معلقا على هذا الحديث واستخلص منه نتيجتين هامتين: "الأولى تدخل الدول الأجنبية في أمورنا الادارية، والثاني جنوح الباب العالي إلى استرجاع بعض حقوقنا الاستقلالية"<sup>(٢)</sup>.

وندد الكاتب بمحاولة الباب العالي ادخال بعض التعديلات في نصوص فرمان ١٨٧٣ لوضع قيود على استقلال مصر.. وأبرز أهم النصوص التي يريد الباب العالي الانتقاص منها مترجما اياها عن جريدة "ريفورم" وطالب الشعب المصري بضرورة التمسك بهذه النصوص وهي "ان تنتقل الخديوية من مبتدئ كرسىها إلى كبير أبنائه ومن هذا الى بكر أبنائه أيضا بعده، وهلم جرا.. فاذا لم يرزق من ولى الخديوية ولدا ذكرا كانت الولاية من بعده لأكبر إخوته أو لأكبر أبناء أخيه الأكبر ولا تكون هذه الوراثة في أبناء البنات"<sup>(٣)</sup>.

وذكر أديب اسحق أربعة بنود أخرى يريد الباب العالي تغييرها وهي "الرخصة المطلقة في وضع القوانين والنظمات الداخلية على حسب الحاجة وال لزوم"<sup>(٤)</sup> و"الرخصة التامة في عقد المشاركات وتجديد المقاولات مع مأمورى الدول الأجنبية في أمور الجمارك والتجارة وسائر المعاملات التجارية مع الأجانب في أمور المملكة الداخلية وغيرها على شرط أن لا يكون ذلك موصلا للإخلال بمعاهدات الدولة السياسية"<sup>(٥)</sup>.

و "حق خديو مصر في التصرف المطلق في الأمور المالية.. والرخصة في عقد القروض من الخارج بغير استئذان عندما يجد لذلك لزوما على شرط أن يكون القرض باسم الحكومة المصرية"<sup>(٦)</sup>، و"الاذن المطلق في تكثير أو تقليل عدد العساكر المصرية الشاهانية على حسب اللزوم بغير تقييد ولا تحديد"<sup>(٧)</sup>.

وعندما تأخر صدور فرمان العثمانى المثبت لتولية الخديو توفيق كتب سليم عنحورى في مرآة الشرق يقول: "إن هذا التأخير سوف يفتح الباب لمزيد من التدخل الأجنبى فى شئون مصر..

(١) المصدر نفسه.

(٢) مصر - ٤ يوليو ١٨٧٩ - مقال بعنوان - أحوالنا.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) المصدر نفسه.

(٧) المصدر نفسه.

فكل دولة تسعى إلى الدولة العثمانية تلك التي تريد الفرمان كما هو.. والثانية تريد انقاصه وتهدد كل منهما مصر وتريد منها أن تدفع ثمن ذلك<sup>(١)</sup>.

ثم اضاف: "انظر كيف كان ذلك باعنا للأجانب على التدخل المخوف حتى أصبحوا يأمرؤن وينهون وتارة يوعزون إلى الجناح السلطاني أن عجل باصدار الفرمان وأخرى يشترطون أن يكون على الوجه الفلاني ومرة يقولون إن لم يكن كذلك يحصل ما يحصل، وغير ذلك مما يعهد لهم سبيلا آخر لزيادة التدخل<sup>(٢)</sup>" ويخاطب الكاتب الباب العالي مطالبا اياه العمل على اغلاق كل الأبواب أمام احتمالات التدخل الأجنبي في مصر، وأنا معاشر المصريين عموما والحزب الوطني خصوصا نرجو من دولتنا العلية أن تلاحظنا بعين عنايتها وأن تشرب عن معاملتنا بما يفتح لتدخل الأجانب بابا ويمهد لمزاحمتهم بنا سبيلا فإن ذلك لا يؤول إلا بالضعف والوبال<sup>(٣)</sup>.

ولا يفوت الكاتب أن ينهى مقاله بالتأكيد على حفظ المصريين واخلاصهم للرابطة التي تصلهم بالباب العالي.. وانها رابطة دائمة لا تحدها الامتيازات كثرت أو قلت.. "فإن ارتباط مصر بالباب العالي ارتباط حقيقي لا شائبة فيه فلا تحله أو تخله الامتيازات كثرت أو قلت<sup>(٤)</sup>".

وأثناء الثورة العربية حاول الباب العالي أن يستفيد من الخلاف الذي نشب بين العرايين والخديو توفيق ليعيد سلطته إلى مصر<sup>(٥)</sup>، فأرسل بعثتين، الأولى برئاسة على نظامي في ٦ أكتوبر ١٨٨١ والثانية برئاسة درويش باشا في ٧ يونيو ١٨٨٢ وقد وجدت إلى جانب ذلك اتصالات سرية بين العرايين والسلطان.. وجرت عدة مراسلات بين عرابي والسلطان عن طريق أحمد باشا راتب والشيخ محمد ظافر حاول فيها العرايون الحصول على تأييد السلطان.. بينما رأى فيها السلطان فرصة للنيل من الخديو توفيق.. وتثبيت أقدامه في مصر.

ولذلك لوحظ على الصحف الوطنية التي كانت تصدر خلال الثورة العربية وخاصة تلك التي تتحدث بلسان العرايين.. اهتمامها بالتصدي لكل ما فيه إساءة إلى العلاقة بين مصر وتركيا.. فكتب محمد عبده في الوقائع سلسلة مقالات يرد فيها على بعض الجرائد الأوربية التي تصدر في مصر.. وفي الخارج والتي حاولت أن توقع بين مصر والباب العالي. وصورت مجيء البعثة العثمانية الأولى (بعثة على نظامي) على أنها محاولة للنيل من امتيازات مصر الاستقلالية.. فقال محمد عبده: "إن الدولة العلية لها علينا حق السيادة والولاية ولنا منها ما خولتنا من الامتيازات التي منحتنا اياها بمقتضى فرمانات السلطانية العلية وليس من قصد دولتنا العلية الشأن أن تمس شيئا من هذه الامتيازات في زمن من الأزمان.. وغاية ما تطلبه منا الوقوف عند الأحكام والحدود التي عينتها لنا، وكلنا عندها واقفون في جميع الأوقات ولم نزل حتى اليوم<sup>(٦)</sup>".

(١) صحيفة مرآة الشرق - ٢٣ يوليو ١٨٧٩.

(٢) المصدر نفسه. (٣) المصدر نفسه. (٤) المصدر نفسه.

(٥) محمود الخفيف - أحمد عرابي الزعيم المقترى عليه - كتاب الهلال - القاهرة - الجزء الأول - يونيو ١٩٧١

ص ٢٨١.

(٦) الوقائع - ٢٦ أكتوبر ١٨٨١ مقال بعنوان أوهام الجرائد.

وكتب ادريس اسحق مقالا تعرض فيه للعلاقة بين مصر والباب العالي، وأكد حرص مصر على هذه العلاقة.. وفي نفس الوقت أكد حرص المصريين على استمرار استقلالهم ومميزاتهم التي حصلوا عليها بالفرمانات ثم ضرب المثل بتونس وقال إن ضعف الصلة بينها وبين الباب العالي "كان من ذرائع الظالمين طمع فيها واستيلائهم بعد ذلك عليها"<sup>(١)</sup>.

وفي رد النديم على الكاتب الفرنسي شارم غبريال تعرض لقضية العلاقة بين مصر وتركيا وتصدى لمحاولة شارم غبريال الوقية بين العربيين والسلطان فقال «إن مصر لها امتياز يخولها حقوقا لا يغالبها عليها مغالب فما هي سلطة مولانا السلطان التي يريد إعادتها وبتقرب لها الفرص .... بعد علمك أن لك السيادة علينا ونحن نعترف بجلالته وخلافته الاسلامية العامة ونخطب باسمه الشريف ونتعامل بكنيته المقرونة باسمه وندفع الخراج عن رضاء وطيب نفس. ودولتنا العلية الشأن واثقة بخضوع جالها وانقياد أهلها ورضاهم بسلطتها رضاء لا تزعره مقترياتك»<sup>(٢)</sup>.

### الجامعة الاسلامية:

لقد تميز عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ - ١٩٠٩).. باستخدامه فكرة الجامعة الاسلامية كأداة تحقق له التقاف الشعوب الاسلامية حول الخلافة العثمانية.. وتعيد تأكيد سيطرته على الولايات العربية.. ثم باعتبارها أيضا بديلا يواجه به التيار الديموقراطي والدستوري الذي أخذ يفتح أبواب الدولة العثمانية بعنف.. وهي بذلك ترضى نزعات السلطان عبد الحميد الاستبدادية ثم هي ثالثا وسيلة للضغط على الدول الأوروبية عن طريق تهديد السلطان بإثارة الشعوب الاسلامية والعربية الواقعة تحت احتلال هذه الدول وخاصة الشعب العربي في المغرب.. والمسلمون في الهند.. والتتر في روسيا القيصرية<sup>(٣)</sup>.

ولم تكن الدولة العثمانية حالة فريدة من نوعها.. فالدول متعددة الجنسيات هي إحدى مخلفات العصور الوسطى، واستمرت حتى أوائل العصر الحديث. وهي دول تكونت بسبب رابطة الدين او انتشار نفوذ أسرة من الأسر الملكية مثل امبراطورية الهابسبورج التي كونت امبراطورية النمسا والمجر وعاصمتها فيينا.. وقد انهارت مثل الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى نتيجة انتصار المبدأ القومي<sup>(٤)</sup>.

ولكن فكرة الجامعة الاسلامية لم تقف عند الحد الذي أراده لها السلطان عبد الحميد - فقد أعطاه جمال الدين الأفغاني محتوى تحريرا ومضمونا معاديا للاستعمار<sup>(٥)</sup>.

(١) مصر - ٣١ ديسمبر - مقال بعنوان "الباب العالي مصر"

(٢) التكتيك والتبكيث - ٢٣ أكتوبر ١٨٨١ مقال بعنوان الدنيا والعرب.

(٣) د. محمد أنيس - الدولة العثمانية - والشرق العربي ص ٢٣٨.

(٤) د. صلاح العقاد - دراسة مقارنة للحركات القومية ص ١١٣.

(٥) محمد عمارة - الأعمال الكاملة للأفغاني - دار الكاتب العربي - القاهرة - ١٩٦٨ ص ٣٤.

فهو يربط بين تقوية دعائم الخلافة وتدعيم الدولة العثمانية .. وبين محاربة الاستعمار الأوربي الذي يستهدف القضاء على الاسلام<sup>(١)</sup> والسيطرة على الشعوب الإسلامية.. حيث يرى أن الدولة العثمانية هي وحدها المهية لقيادة هذا الصراع لحماية الاسلام والمسلمين.

لقد كان الأفغانى يرى أن الاستعمار الأوربي ليس سوى حركة دينية مسيحية موجهة ضد الإسلام والمسلمين ولم ينتبه إلى العوامل الموضوعية والبواعث الجذرية لظهور الاستعمار.<sup>(٢)</sup> وقد أوقعه هذا الخطأ فى خطأ أكبر وهو أن تشجيعه لتدعيم الولاء للدولة العثمانية كان يعنى اصطدامه بالحركات القومية.. التى كانت وحدها فى ذلك الوقت المهية للتصدى للغزو الاستعماري الأوربي.

وكان من شأن دعوة الجامعة الاسلامية أن عطلت غو الوعى القومى العربى لصالح القومية الإسلامية.. فقد كان الأفغانى يخلط فى المرحلة الأولى من دعوته بين الجامعة الاسلامية كتضامن مشروع للشعوب الاسلامية ضد الاستعمار الأوربي وكوسيلة لإعادة الشرق إلى سيرته الأولى من الرقى<sup>(٣)</sup>، وبين الخصائص القومية.. فقد تصور الأفغانى أن هناك قومية إسلامية تجمع المسلمين مهما اختلفت أوطانهم ذلك «إن الأصول الدينية الحققة تنشئ للأمم قوة الاتحاد واتلاف الشمل وتبعثها على اقتناء الفضائل وتوسيع دائرة المعارف وتنتهى بها إلى أقصى غاية فى المدنية»<sup>(٤)</sup> وأن لا جنسية للمسلمين إلا فى دينهم<sup>(٥)</sup> و «علمنا وعلم العقلاء أجمعين أن المسلمين لا يعرفون لهم جنسية إلا فى دينهم واعتقادهم»<sup>(٦)</sup>.

وقوله، «واعتصموا بحبال الرابطة الدينية التى هى أحكم رابطة اجتمع فيها التركى بالعربى والفارسى بالهندي والمصرى بالمغربى وقامت لهم مقام الرابطة النسبية»<sup>(٧)</sup>

ثم يؤكد الأفغانى وجهة نظره مستخدماً التاريخ الإسلامى فيقول: «هذا ما أرشدنا إليه سير المسلمين من يوم نشأ دينهم إلى الآن لا يقيدون برابطة الشعوب وعصبيات الأجناس وإنما ينظرون إلى جامعة الدين لهذا نرى المغربى لا ينفر من سلطة التركى والفارسى يقبل سيادة العربى والهندي يذعن لرياسة الأفغانى، لا اشمئزاز عند أحد منهم ولا انقباض وأن المسلم فى تبدل حكوماته لا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من أشكالها وانتقالها ما دام صاحب الحكم حافظاً بشأن الشريعة ذاهباً مذهبها»<sup>(٨)</sup>.

(١) د. أحمد سويلم العربى - المجتمع العربى وتطورات الاجتماعية والسياسية - مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة ١٩٦٥ - ١٩٦٦ ص ٢٠٧.

(٢) د. محمد أنيس - الدولة العثمانية والشرق العربى ص ٢٤٠

(٣) لوثرروب مستودارد - حاضرم العالم الإسلامى ترجمة عجاج نوبهض تعليق الأمير شكيب أرسلان - مكتبة ومطبعة عيسى البابلى الحلبي القاهرة ١٣٠٢ هـ المجلد الثانى ص ٢٩١

(٤) محمد عمارة الأعمال الكاملة للأفغانى ص ١٩٨

(٥) المصدر نفسه ص ٤٣

(٦) المصدر نفسه ص ٤٣

(٧) المصدر نفسه ص ٤٣

(٨) المصدر نفسه ص ٤٣

فالأفغانى كان يرى أنه لن تقوم للشرق قائمة إلا إذا كان الإصلاح يعتمد على أساس دينى، وهذا الإصلاح الدينى لن يؤتى ثمرته إلا إذا صحبه شعور بالعزة القومية<sup>(١)</sup>، القائمة على أساس الدين.

ومن الغريب أننا لم نعثر للأفغانى طوال المدة التى قضاها فى مصر - رغم طولها وكثرة الصحف التى كان له الفضل فى إنشائها- على مقال واحد تحدث فيه عن فكرة الجامعة الإسلامية.. وحتى محاضراته التى كان يلقيها على مريديه والتى كان ينقل بعضها فى الصحف- لم نسمع له رأياً فى قضية الجامعة الإسلامية ونحن نرى أن ذلك يرجع إلى سببين:-

الأول: أن الأفغانى عاش فى مصر فى تلك الفترة من عهد إسماعيل باشا التى اشتد فيها شعور العداء لتركيا فلم يكن من الطبيعى أن ينشط لنشر دعوة الجامعة الإسلامية التى تخدم الخليفة العثمانى.. فقد كان ذلك من شأنه أن يؤلب عليه إسماعيل باشا وربما لم يكن ليتركه يعيش فى مصر.

الثانى: أن الفترة التى مكث فيها الأفغانى بمصر.. عاصرت بداية ظهور النظام النيابى.. لذلك انحصر جهد الأفغانى فى الدعوة إلى الحكومة الشورية.. وتأييد النظم النيابية.. ومهاجمة الحكم الإستبدادى فى الشرق.. وكانت مصر مهياة حينئذ - لتقبل مثل هذه الأفكار فاستغل السيد وتلاميذه هذه الأرض المحروثة وجعلوا ييذرون أفكارهم فيها.<sup>(٢)</sup>

كذلك لم نعثر على أية كتابات صريحة عن فكرة الجامعة الإسلامية عند تلاميذ الأفغانى ومريديه الذين انتشروا فى الصحافة المصرية فى ذلك الوقت.

وهذا يؤكد ما نريد أن نذهب إليه وهو أن فكرة الجامعة الإسلامية لم تتضح فى فكر الأفغانى ولا فى حركته السياسية إلا بعد طرده من مصر عقب تولية توفيق كرسى الخديوية وانقلابه على أصدقائه القدامى.. وخيائته لأفكاره التى استمدتها من الأفغانى.. أيام كان لا يزال ولياً للعهد فى عهد إسماعيل.

ورغم ذلك يمكن أن نضع أيدينا على الاثارصات المبكرة لفكرة الجامعة فى بعض المقالات المتفرقة أثناء فترة البحث.

فعندما نشرت التجارة اللائحة الجديدة لإنتخابات مجلس شورى النواب علقت على البند الثانى من اللائحة الذى كان ينص على «أن لا يقبل نائباً من لم يكن من رعايا الحكومة المصرية ومن لم يكن حائزاً لكافة الحقوق المدنية والسياسية»<sup>(٣)</sup> فعلمت التجارة قائلة «قوله من رعايا

(١) د. محمود قاسم- جمال الدين الأفغانى- حياته وفلسفته- سلسلة الدراسات الفلسفية والأخلاقية - مكتبة الأنجلو - القاهرة ص ٢٥ - ٢٦

(٢) محمد باشا المخزومى- خاطرات جمال الدين الأفغانى الحسينى- المطبعة العلمية- بيروت ١٩٣١ ص ٤٦ - ٤٧

(٣) التجارة - العدد ١٨ - ١٠ يونيو ١٨٧٩



الحكومة المصرية يشمل لا محالة نزلاء هذه الديار من الشرقيين العثمانيين لأن المتبادر منه إلى الفهم إنما هي التبعية السياسية وهي حاصلة فيهم حصولها في المصريين جميعاً»<sup>(١)</sup>

وهنا نلاحظ أن الجريدة لا تعترف بوجود جنسية مصرية .. وإنما جنسية عثمانية تضم كل رعايا الدولة العثمانية ثم تخطو التجارة خطوة أخرى عندما تضيف إلى وجود الجنسية العثمانية .. وجود ما يمكن وصفه بالقومية الإسلامية .. فهي تهاجم «الذين يقطعون صلات الجامعة الدينية مع وجوب المحافظة عليها كأن لم يعلموا أن لا أمة إلا بإحدى الجامعتين .. اللغوية .. والدينية .. وأنهم لو بحثوا عن الأصول لما رأوا في البلاد الشرقية فئة من السكان تضم لها الدعوى الوطنية الأصلية»<sup>(٢)</sup>

ونشرت الأهرام مقالا تعرضت فيه لأسباب القلاقل وحركات الانفصال داخل الدولة العثمانية وأرجعت ذلك إلى ثلاثة عوامل:-

الأول: أن الأمبراطورية العثمانية تضم شعوبا متنافرة لها تاريخها المستقل ولغتها المستقلة «إن الدولة العلية قام مجموعها بتأليف عناصر متعددة تختلف بين سبط وحشى ولكل منها عصبية واصطلاح خاص وعادة راسخة القدم، ولغة عامة واحدة الأصل والمذهب»<sup>(٣)</sup>

والثاني: أن الباب العالي أخطأ في سياسته تجاه هذه الشعوب فهو «لم يطرد المنهج القويم .. فهو بها أضعاف حقوقه ولم تكتسب هذه العناصر حقوقا أما الأولى فلأنه أيد التقسيم الأدبي فلما ساعدت الفرص بعض هذه العناصر وبعض الدول نزعت إلى المجاهرة وشق عصا الطاعة ورامت الاستقلال، فأضاع بهذه الوسيلة حقوقه .. وأما الثانية فلأن هذه العناصر لم تحصل على معدات التقدم بتسهيل سبل الأعمال ووفرة الثروة بالامتزاج والإختلاط بل لزمها الضعف والخنمول حتى إذا ما دعاها الغير إلى التخلص شطت فأعاضت من جهة حقوق ماضيها ولا تدرى ما سيكون عليه مستقبلها»<sup>(٤)</sup>

والثالث: أن ضعف الدولة العلية وزيادة الإنشقاق داخل شعوب الإمبراطورية أتاح الفرصة لأوروبا «أن تمد يد التداخل فيها، وتعبث باستقلالها»<sup>(٥)</sup>

ثم ينتهي المقال بأنه «ليس أمام الشرق والحالة هذه إلا طريقة واحدة هي تعاضد هذه العناصر وتكاتفها وامتزاجها مع بعضها البعض بارتباط الحكومة الدستورية الشورية فتكون كلها أمة واحدة تقضى وتأمّر وتنتهى وتسعى إلى محجة شريفة هي تعزيز الوطنية وحفظ حقوقها ونبد الإختلافات الناشئة عن التشيع أو الغرض وإزالة ما هنالك من الأحقاد الكامنة في الصدور»<sup>(٦)</sup>

(١) المصدر نفسه

(٢) المصدر نفسه

(٣) الأهرام- ١٨ نوفمبر ١٨٨٠ - مقال بعنوان (العناصر المشرفية)

(٤) المصدر نفسه

(٥) المصدر نفسه

(٦) المصدر نفسه

ويلاحظ على هذا المقال أنه يحتوى على جميع المتناقضات التي عرفت بها فكرة الجامعة الإسلامية.. فهو تارة يعترف بالاختلافات القومية داخل الدولة العثمانية ويرجع إليها سبب الإنشقاق الذى حدث داخل الدولة العثمانية.

وتارة أخرى يطالب هذه القوميات (العناصر بمفهومه) بالتعاضد والتكاتف والامتزاج بحيث يكونوا جميعاً (أمة واحدة).. وهو بذلك يتناقض مع فكرته الأولى.. وتارة ثالثة يطالب بتعزيز الوطنية وحفظ حقوقها.. وهو بذلك يتناقض مع الفكرة الأولى.. والثانية..

وكتب حسن الشمسى مقالاً يعارض فيه فكرة الوحدة الإسلامية .. والوحدة العثمانية.. فأخرج الدين من العناصر المكونة للوحدة الوطنية أو القومية فهو يقول «إن الأقدمين كانوا يعتبرون الرابطة الحقيقية بين الشعوب إنما هي الوحدة فى الدين ولهذا كانوا منقسمين أحزاباً وطوائف على قدر تنوعهم فى المشرب وتباينهم فى الاعتقاد ولم تكن الجامعة الوطنية أو الوحدة الجنسية تقوى على رفع هذا الإنقسام ومحو الآثار الوخيمة التى تنشأ عن التعصب الدينى.. ولكننا أبناء هذا الجيل بعار علينا أن نسلك ذات المنهج ونجعل الاختلاف فى المشرب والتباين فى العقيدة علة لعداوة مو اطيننا»<sup>(١)</sup>

ويلاحظ أن دعوة الجامعة الإسلامية لم تلاق نجاحاً فى مصر الا بعد الإحتلال البريطانى عام ١٨٨٢.. ذلك أن الإحتلال قد وجه نضال الشعب المصرى ضد الاستعمار الأوروبى وليس ضد السيادة العثمانية الإسمية.. وكان من الطبيعى أن يتطلع المصريون إلى تأييد دولة إسلامية كبرى كالدولة العثمانية.. وأن يجدوا فى دعوة الجامعة الإسلامية عامل دعم لهم فى نضالهم ضد الإحتلال البريطانى.

ولكن بمرور الوقت أخذت تنشأ الحركات الزمنية مقابل الحركات الدينية متأثرة بالمفاهيم الليبرالية ومقتنة بالصبغة الوطنية.. بحيث جاء رد الفعل المقابل لدعوة الجامعة الإسلامية بعد سقوط الخلافة فى تركيا.. رداً وطنياً مصرياً.. وليس رداً قومياً عربياً.

\* \* \*

(١) المفيد- ٢٤ أكتوبر ١٨٨١ مقال بعنوان (الوحدة بالأمة)

الكتاب الثاني

الفكر الديمقراطي  
في الصحافة المصرية



## نشأة الفكر الديموقراطى فى مصر

يبدأ تاريخ مصر الديموقراطى فى العصر الحديث بثورة عام ١٧٩٥ حين أجبر الشعب المصرى بقيادة الطبقة البورجوازية الناشئة بجناحيها، المشايخ والتجار.. كل من إبراهيم بك ومراد بك زعيما المماليك واللدان كانا يتقاسمان السلطة فى مصر - على توقيع «حجة»<sup>(١)</sup> يتعهدان فيها بإبطال الوسائل التعسفية مع الجماهير فى جمع الضرائب .. وهى الحجة التى يميل بعض المهتمين بالتاريخ المصرى الحديث إلى تشبيهها بالماجناكارنا<sup>(٢)</sup>.

ولم تمض ثلاث سنوات على هذه الثورة حتى حدث أول لقاء بين العقل المصرى والعقل الأوروبى خلال حملة بوناپرت على مصر.. وعن طريق الإحتكاك المباشر تعرف العقل المصرى على الفكر الديموقراطى الأوروبى من خلال مصادره الأساسية أى من العقل الفرنسى نفسه المشيع بأفكار روسو ومنتسكيو وفولتير، والغنى بحصيلة تجارب الثورة الفرنسية وبالحماس الذى كان ما يزال تثيره شعاراتها عن الحرية والإخاء والمساواة.

ولكن ما وصل إليه العقل المصرى من أصول الفكر الديموقراطى الأوروبى لم يقتصر فقط على بيانات بوناپرت وأحاديثه إلى الشعب المصرى ومشايخ وتجار وأعيان البلاد.

ذلك أن الجانِب التطبيقى لأفكار الثورة الفرنسية لعب الدور الأول فى تشكيل المفهوم الديموقراطى عند المصريين. فالحملة الفرنسية لم تطرح فى مصر مناقشة فلسفية حول الحق الطبيعى والحق الإلهي.. ولم تقف لتناقش طبيعة السلطة فى المجتمع.. ولكنها بنت مؤسسات ديموقراطية ونظمت دولة على أساس فكرة السلطات الثلاث وحاولت أن تبنى دولة علمانية، وهذا هو ما رآه العقل المصرى منها: مجموعة من المؤسسات الاقتصادية والسياسية وبعض أشكال العلاقات الاجتماعية<sup>(٣)</sup> فقد جاء بوناپرت إلى مصر.. وهو يعد نفسه لمقام طويل مصمما فى نفس الوقت على أن يخلق مجتمعا تسوده شعارات الثورة الفرنسية.<sup>(٤)</sup>

ولقد طرح بوناپرت فى بيانه الأول إلى المصريين المبادئ الأساسية للفكرة الديموقراطية داعياً إلى الحرية والمساواة.. مجسداً بذلك فكرة الحق الطبيعى كما نادى بها فولتير وفلاسفة عصر

(١) الجبرتي - عجائب الآثار فى التراجم والأخبار - الجزء الثانى ص ٢٥٨ - ٢٥٩

(٢) الماجناكارنا Magna Charta أو الميثاق الأعظم وهى تلك الوثيقة التى أجبر فيها بارونات إنجلترا ملكهم جون على احترام الحقوق الإقطاعية بالنسبة لجميع الطبقات التى حسيها يكون لكل فرد من الحقوق ما لأفراد طبقته الاجتماعية وعليه من الواجبات ما عليهم. وأهم نصوص هذا الميثاق المادة ٣٩ التى نصت على أنه لا يجوز القبض على أى رجل حر أو سجنه أو نفيه أو مصادرة أملاكه أو إعدامه إلا بمقتضى حكم يصدره أئلداده وطبقا لقوانين البلاد.. وكانت هذه هى المرة الأولى التى ينص فيها على قاعدة عدم جواز القبض على الأشخاص أو سجنهم إلا طبقاً للقانون.

(٣) صلاح عيسى - محنة العقل المصرى - مقال بجريدة المساء القاهرة الخميس ٧ أكتوبر ١٩٦٥.

(٤) ح. كرسثوفرو هيرولد - بوناپرت فى مصر، ترجمة فؤاد أندراوس - دار الكاتب العربى - القاهرة ١٩٦٧ ص ١٩٠

التنوير. فالبيان موجه من (طرف الفرنساوية.. المبنى على أساس الحرية والتسوية)<sup>(١)</sup> وجميع الناس عنده «متساوون عند الله وأن الشيء الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط» وهو ينطلق من ذلك إلى الطعن فى حق الممالك فى التمتع بأى ميزات تفضلهم عن الشعب المصرى. فيقول «وبين الممالك والعقل والفضائل تضارب فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شئ حسن فيها، من الجوارى الحسان، والخيال الفنان والمساكن المفرحة».

ثم يهاجم البيان الإقطاعى المملوكى المبنى على نظرية الحق الإلهى وينسف نظام الإلتزام واحتكار الممالك للأرض المصرية «فإن كانت الأرض المصرية التزاماً للممالك فليزونا الحجة التى كتبها الله لهم..». وأخيراً بعد البيان المصرين بأن يسلمهم حكم بلادهم بعد أن يطهرها من الممالك من الآن فصاعداً لا ييأس أحد من أهالى مصر من الدخول فى المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية فالعلماء والفضلاء والعقلاء فيهم سيدىرون الأمور.. وبذلك يصلح حال الأمة كلها «وصحيح أن بيان بونايرت الأول إلى المصرين كان يتضمن أجزاء كثيرة تنطوى تحت تعريف- الدعاية - بمفهومها المعاصر، ولكن ذلك لا ينفى أن الأجزاء التى طرح فيها بونايرت فرضيات الفكر الديموقراطى كان جاداً فى محاولته تطبيقها.. فلعل بونايرت رأى وهو ابن عصر التنوير الفرنسى أن الإسلام دين أقرب إلى العقل.. وقد حافظ حتى آخر أيامه على اهتمام حقيقى بالإسلام.. أضاف إلى ذلك أنه بمهاجمته الممالك وبإظهار احترامه لرجال العلم كان يرسم فعلاً السياسة التى كان ينوى اتباعها وهى نقل السلطة المحلية من الأمراء الممالك إلى العلماء وهم زعماء مصر الشعبين فى ذلك الوقت وهم بالإضافة إلى كبار التجار الطبقة الحاكمة الوحيدة التى يمكن استبدالها بالممالك.. إلا أنه كان من المستبعد حتى لو استمرت إقامة بونايرت فى مصر مدة أطول أن يتجح فى الحكم بالمشاركة مع العلماء والتجار لأنهم كانوا يعتقدون أن أى نفع يمكن طلبه لمصر لا يوازى كونه غير مسلم يحكم بلداً مسلماً بدون إرادة السلطان.<sup>(٢)</sup>

كما كان من المستبعد أيضاً أن تنطلى دعوته هذه على أحد من المصرين. فالجبرتنى نفسه يبدأ روايته للاحتلال الفرنسى قائلاً: إن هذا كان بدء «انعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وحصول التدمير وعموم الخراب».<sup>(٣)</sup>

ورغم ذلك فإنه لا يمكن إنكار أن الحملة الفرنسية قد تمكنت بالفعل من نقل أداة الحكم من يد الممالك والأتراك إلى المصرين عن طريق الديوان المخصوص (مجلس الوزراء) ووضعت النواة الأولى للديمقراطية عن طريق الديوان العام.

وبذلك عرفت البورجوازية المصرية خلال الحملة الفرنسية معنى السلطة.. وتمرس بالحكم وأدركت فوائد الحرية وحلمت بعد مغادرة الفرنسيين لمصر.. بعهد من الرخاء والاستقرار يفتح

(١) الجبرتنى - عجائب الآثار - الجزء الثالث - ص ٤ ، ٥

(2) Albert Hourani- Arabic Thought in the Liberal Age. Oxford University Press, London, 1970, p.p. 50 - 51

(٣) الجبرتنى - عجائب الآثار - الجزء الثالث - ص ٢

أمامها أبواب العمل والنمو.. ولقد كان نضالها من أجل تحقيق هذا الحلم.. هو السمة التي ميزت فترة ما بعد الحملة حتى تولى محمد على الحكم.

ولقد خاض الشعب المصري بقيادة البورجوازية معركتين يمكن اعتبارهما من أبرز الجولات المهمة في الصراع بين البورجوازية المصرية والإقطاع حقت خلالهما البورجوازية المصرية نصراً كبيراً، الأولى: ثورة مايو ١٨٠٥ ضد الوالى العثمانى خورشيد والتي انتهت بتولية محمد على، والثانية: معركة تثبيت محمد على.

ولقد بدأت ثورة مايو ١٨٠٥ عندما استقر رأى التجار وأرباب الحرف على إغلاق حوانيتهم كمظهر من مظاهر الاحتجاج على مظالم الوالى خورشيد وفرضه الضرائب الجرافة وفى اليوم التالى ذهب أفواج منهم إلى الجامع الأزهر تعتصم به وتشكو الأمر لمشايخه.

وتضامن المشايخ مع الشعب الثائر وأعلنوا أن أحداً لن يدفع الضريبة التى قررها الوالى، وأنهم لن يعترفوا بسلطته كوال على مصر ما لم يخضع للشروط التى يرون أنها كفيلة بإعادة الأمن والاستقرار إلى البلاد وإنهاء الجرائم التى يرتكبها الجنود فى حق الشعب ووضع حد لمظالم الباشا<sup>(١)</sup> واتفقوا على كتابة عرضحال بالمطلوبات.. ففعلوا ذلك .. وذكروا فيه تعدى طوائف العسكر والإيذاء منهم للناس وإخراجهم من مساكنهم.. والمظالم والغرور والقبض للمال الميرى المعجل وحق طرق المباشرين ومصادرة الناس بالدعاوى الكاذبة وغير ذلك.»<sup>(٢)</sup>

إن أهمية هذه العريضة التى تضمنت شروط المشايخ والتى يمكن أن نجد فيها بعض أوجه الشبه بوثيقة إعلان الحقوق<sup>(٣)</sup> التى أقرها البرلمان الإنجليزى عام ١٦٨٩ عقب الثورة التى قامت عام ١٦٨٨ وأسفرت عن إنهاء حكم أسرة ستوارت فى إنجلترا.<sup>(٤)</sup>

وتعتبر هذه الوثيقة من القواعد التى قامت عليها حرية الشعب الإنجليزى وأعلن فيها أن حق الملك فى العرش مستمد من إرادة الشعب الممثل فى البرلمان وأن البرلمان له حق نقل التاج وفقاً لمصلحة البلاد وأنه لا يجوز للملك أن يفرض الضرائب بدون موافقة البرلمان.

إن الوثيقة أو (العرضحال) التى تحمل توقيع المشايخ وقدموها لخورشيد باشا فرفضها.. ثم قدموها بعد ذلك لمحمد على فقبلها.. تشبه إعلان الحقوق فى أنها قد أنهت حكم خورشيد

(١) فوزى جرجس - دراسات فى تاريخ مصر السياسى منذ العصر المملوكى ص ١٠١ - ١٠٣

(٢) الجبرتى - عجائب الآثار - الجزء الثالث - ص ٣٢٩

(٣) إعلان الحقوق: عندما خلا عرش إنجلترا بالتجاء جيمس الثانى إلى فرنسا عام ١٦٨٩ وقرر البرلمان عرض التاج على وليم أورنج وزوجته ماري أراد أن يفيد من تلك الفرصة لينظم علاقة الملك بالشعب بشكل نهائى. فوضع لهذا الغرض وثيقة إعلان الحقوق... وهى تتضمن ستة مبادئ هى: عقد البرلمان بين الفينة والفينة وحرية الانتخابات البرلمانية وحرية الرأى لأعضاء البرلمان والحصانة البرلمانية وضرورة اقرار البرلمان لجواز جباية أية ضريبة وضرورة موافقة البرلمان لكى يجوز للملك حشد جيش فى أيام السلم أو استبقائه وليس للملك أن يوقف القوانين أو يعفى أحداً من الخضوع لها.. ولقد قبل وليم وزوجته الوثيقة وتم تنصيبهما وهكذا أصبحت سلطة الملك خاضعة لسلطان القانون.

(٤) د. محمد طه بدوى ود. محمد طلعت الغنيمى - النظم السياسية والاجتماعية - دار المعارف - الطبعة الأولى -

القاهرة ١٩٥٨ ص ١٠٤

باشا.. وكان آخر وال عثماني يحكم مصر وفقا للنظام الذي أرسى قواعده السلطان سليم عقب الغزو العثماني لمصر عام ١٥١٧.

وأنت الوثيقة بمحمد على واليا على مصر.. والذي استطاع أن ينشئ حكما وراثيا فيها يتوارثه بنوه وحفدته.. كما أنها تتضمن نصا يمنع فرض أى ضريبة دون موافقة الشعب ممثلاً في زعمائه المشايخ والأعيان والتجار.

وهذا النص صورة للمبدأ الدستوري المعروف No Taxation Without representation أى لا ضريبة بدون تمثيل.

والفارق بين هاتين الوثيقتين محصور في مجال التطبيق العملي.. فملوك المجلترة احتراموا وثيقة إعلان الحقوق والتزموا بها منهجاً ومسلماً في تصرفاتهم بينما رفضها خورشيد ثم قبلها محمد على، ولكنه لم يعمل بها أكثر من ستين ثم عبث بها<sup>(١)</sup>.. أضف إلى ذلك أنه قد وجدت في المجلترة طبقة قوية استطاعت أن تحمي وثيقة إعلان الحقوق بينما كانت الطبقة البورجوازية المصرية مازالت أضعف من أن تحمي العرضحال.. تماماً كما فشلت في أن تحمي حجة ١٧٩٥.

أما المعركة الثانية التي خاضتها البورجوازية المصرية بعد ثورة ١٨٠٥، فكانت معركة تثبيت محمد على.. فعندما حاولت الدولة العثمانية إقالاته اجتمع العلماء وكتبوا محضراً في شكل التماس بالإعتراض على عزل محمد على والإحتجاج على تولية موسى باشا ورجوع السلطة إلى المماليك.

ورغم أن البيان أظهر الولاء والإخلاص للسيادة السلطانية إلا أنه تضمن أيضاً أن الشعب والعلماء لا يجيزون تغيير الوالي ولا يرضون بعودة المماليك إلى الحكم ولا يقبلون كفالتهم وأنهم متمسكون بولاية محمد على.. وفي هذا استهانة بالفرمانات الشاهانية.. مالا يغرب عن البال<sup>(٢)</sup>.. يؤكد ذلك أن العلماء كتبوا رسالة أخرى إلى قبطان باشا في شهر جمادى الثانية ١٢٢١ هـ (أغسطس ١٨٠٦) يذكرون فيها صراحة أنهم لا يرضون بغير محمد على بديلاً<sup>(٣)</sup>

إن مناصرة البورجوازية المصرية لمحمد على هي تأييد للسياسة التي رسموها من قبل وتثبيت للسلطة التي كسبوها في تسير شئون الحكومة وهذه السلطة نفسها لم يتجاهلها الباب العالي لأنه جعل رجوع المماليك إلى الحكم معلقاً على كفالة العلماء لهم، ولقد استمسك العلماء بهذا الشرط فصرحوا في عريضتهم إلى الباب العالي أنهم لا يقبلون هذه الكفالة ولا يرضون بها.

ومعنى ذلك أنهم لا يريدون رجوع المماليك إلى الحكم ولا يبتغون سوى محمد على، وبذلك تم التغاضي عن قرار عزل محمد على بل وتثبيت ولايته على مصر وورد مرسوم إلى محمد

(١) عبدالعزيز الشناوى - عمر مكرم - ص ١٠٩ - ١١٠

(٢) عبدالرحمن الرافعى - عصر محمد على ص ٣١ - ٣٢

(٣) المصدر نفسه ص ٣٣



على ينص على «إبقائه واستمراره على ولاية مصر حيث إن الخاصة والعامة راضية بأحكامه وعدله وبشهادة العلماء وأشرف الناس»<sup>(١)</sup>.

فمرسوم التثبيت مبنى إذن على أن محمد على مؤيد من الشعب مرضى عنه من زعمائه موثوق في عدله ومن ذلك يتبين أن البورجوازية المصرية كانت وراء تثبيت محمد على كما كانت وراء تعيينه والياً على مصر من البداية.

ولقد كان من الممكن أن تفسح هذه الانتصارات الديموقراطية الطريق واسعاً أمام البورجوازية المصرية الناشئة لتلعب دورها التاريخي في تحويل المجتمع المصرى من الإقطاع إلى الرأسمالية. وتواجه التسلل الأوروبي الاستعماري الذي اتسم به القرن التاسع عشر لولا أن محمد على شاء أن يقيم دولة لا تقوم على الاقتصاد الحر بمعاونة الطبقة البورجوازية.. ولكن بالانفراد بالحكم سياسياً وإنشاء دولة احتكارية، الأمر الذي أدى إلى اصطدامه بالطبقة البورجوازية المصرية الوليدة والاطاحة بها.<sup>(٢)</sup>

غير أن خطوات محمد على بعد ذلك لم تكن منبثقة من عقيدة ما. فقد أقام كل مشروعاته مستهدفاً شيئاً واحداً هو تدعيم مركزه الخاص تجاه السلطان.. وتجاه الدول الأوروبية كذلك فقد كان - وهو الذي كان أمياً لم يتعلم القراءة إلا في الأربعين من عمره - أقل استجابة من حكام زمانه للأفكار السياسية المنطلقة من أوروبا في ذلك الوقت.<sup>(٣)</sup>

لقد كان محمد على يحكم حسب النمط التقليدي. فلم يصدر أى بيان في الحقوق.. ولم يقيم بأى محاولة لاصلاح مؤسسات البلد السياسية باستثناء دعوته لمجلس استشارى واسع فى عام ١٨٢٩ وكان يتخذ القرارات شخصياً بعد مناقشة وجيزة مع مستشاريه اما العلماء فلم يكونوا فى عداد مستشاريه الاقربين.

لقد ساعدوه وهم لسان حال الشعب وزعماءه على الوصول إلى الحكم غير أن الدرس القائل بأن على الحاكم تحطيم أولئك الذين رفعوه إلى الحكم كان من الدروس التى تعلمها بدون قراءة ماكيافيللى.. فجاء الغاؤه لنظام الإلتزام وتدخله فى شئون الأوقاف بقصد منه أم بلا قصد ضربة معول فى أساسات مركز هؤلاء العلماء السياسى.. وقد أقام مكانهم ومكان المالك فئة حاكمة جديدة تضم جنوداً من الأتراك والأكراد والألبانيين والشراكسة.. كما تضم أيضاً عدداً من الأوربيين وغيرهم من الملمين بسياسة أوروبا وشئونها المالية.. كذلك لم يشجع الإهتمام الشعبى بالسياسة.. فقد قال له أحد الطلبة يوماً أنه درس علوم الإدارة المدنية فى باريس فأجابه بحدّة: أنا الحاكم فاذهب إلى القاهرة وترجم المؤلفات العسكرية.<sup>(٤)</sup>

(١) المصدر نفسه ص ٣٩

(٢) د. محمد أنيس. المجتمع المصرى من الإقطاع إلى الرأسمالية- من محاضرات المعهد العالى للدراسات الإشتراكية- ص ٨

(3) Albert Hourani- Arabic Thought in the Liberal Age p.p. 51 - 52

(4) Ibid. , p. 52

وعندما وقعت سلسلة الإضطرابات الشعبية مثل ما حدث فى القاهرة فى مارس ١٨٢٢ وفى منفوط فى مارس ١٨٣٨ وفى أسبوط فى فبراير ومارس ١٨٣٩، قضى عليها محمد على بعنف وسهولة وساعده فى ذلك أنه لم تكن هناك أية زعامة شعبية<sup>(١)</sup>.

ولكن محمد على اضطر رغم ذلك إلى الاستعانة بالعناصر المصرية العلمية بشئون البلاد وتقاليدها.. ففى نوفمبر سنة ١٨٢٤ كون مجلساً من الأغوات والأفندية مأمورى الأقاليم وكان عددهم ٢٤ مأموراً.. وقد وضع لائحته الأساسية فى يناير عام ١٨٢٥ وكانت اختصاصاته مناقشة ما يراه أو يقترحه محمد على خاصاً بسياسته الداخلية وقد كان ذلك المجلس المعروف (بالمجلس العالى) ينعقد يومياً فلما أثبت منفعته للوالى أمر بتوسيع اختصاصاته ودفعه نحو التطور بإدخال العناصر المصرية فيه عن طريق زيادة عدد أعضائه فأصدر أمره فى السنة التالية إلى المديرين بإحضار شيخين من ذوى الحمية ممن يفهمون الكلام، ويتقنون العمل من شيوخ أخطاط كل قسم وارسالهم إلى القاهرة للتذاكر معهم فى مصالح الأقاليم فانضم هؤلاء المشايخ إلى المجلس العالى وكان عددهم ٤٨ شيخاً<sup>(٢)</sup>.. وبذلك صار الديوان العالى يتألف من نظار الدواوين ورؤساء المصالح واثنين من العلماء يختارهما شيخ الجامع الأزهر واثنين من التجار يختارهما كبير تجار العاصمة. واثنين من ذوى المعرفة بالحسابات واثنين من الأعيان عن كل مديرية من مديريات القطر المصرى يتتبعهما الأهالى<sup>(٣)</sup>.

لذلك لا يمكن القول بأن المجلس العالى - رغم انتخاب بعض أعضائه - كان فى صورة من صور النظم النيابية بأية حال، فالمجلس لم يكن سلطة أو هيئة أعلى من محمد على ولا حتى مساوية له.. فهو صاحب المجلس أى خالقه وأعضاء المجلس كانوا أول الأمر رؤساء المصالح والدوائر الحكومية.. فهم موظفون تابعون لولى الأمر ومصدر النعم<sup>(٤)</sup>.

كذلك فقد كانت قرارات المجلس العالى إستشارية بحيث إن رأى الأخير هو لصاحب الدولة ولى النعم<sup>(٥)</sup>.

ولقد دفع لنجاح المجلس العالى محمد على إلى مزيد من الاستعانة بالمصريين فى الحكم فأصدر قراره بإنشاء مجلس المشورة فى عام ١٨٢٩ وهو يمكن أن يعد نواة لنظام شورى، وكان يتألف من كبار موظفى الحكومة والعلماء والأعيان برئاسة إبراهيم باشا، وهذا المجلس يشبه فى عدد أعضائه وتمثيلهم لمختلف الطبقات أن يكون جمعية عمومية مؤلفة من ١٥٦ عضواً منهم ٣٣ عضواً من كبار الموظفين والعلماء و ٢٤ من مأمورى الأقاليم و ٩٩ من كبار أعيان القطر المصرى

(١) د. محمد فؤاد شكرى - مصر فى مطلع القرن التاسع عشر - الجزء الثالث مطبعة جامعة القاهرة - القاهرة ١٩٥٨ ص ١٣٢٥

(٢) د. عبدالعزيز الرفاعى - فجر الحياة النيابية فى مصر الحديثة . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر - القاهرة ١٩٦٤ - ص ٤ - ٥

(٣) عبدالرحمن الرفاعى - عصر محمد على - ص ٦٠٧

(٤) فتحى رضوان - وثيقة دستورية من عصر محمد على - مجلة الهلال - أول سبتمبر سنة ١٩٦٩ .

(٥) د. ولیم سلیمان - محمد على حاكماً - مجلة الطبيعة أكتوبر ١٩٦٩

جاءوا عن طريق الانتخاب. (١)

ورغم أنه لم يكن لمجلس الشورى سوى سلطة استشارية فإن بعض المؤرخين المصريين يحلو لهم أن يطلقوا عليه أول هيئة نيابية شورية في عصر محمد على (٢) ولكن النظرة المتفحصية لتشكيل المجلس سوف تكشف أنه قد جاء في تشكيله طائفيًا قبل أن يكون نيابيًا بالمعنى المفهوم (٣) ويمكن تفسير اهتمام محمد على بإنشاء مثل هذا المجلس أنه كان يسير في عمله كحاكم على مبدئين: أولاً: أن كل مسألة لا بد وأن تبحث في مجلس ويؤخذ بشأنها الرأي فيه.. وثانياً: إن المرجع الأخير يكون له.. فهو يجمع السلطة المطلقة لإعطاء أى رأى. (٤)

وفي عام ١٨٣٧ تراجع محمد على تراجعاً صريحاً عن النظام شبه التمثيلي الذى استمر منذ عام ١٨٢٩ .. عندما أصدر القانون الأساسى للدولة (السياساتمية) مشتملاً على نظام الحكومة موزعاً أعمالها على دواوين خاصة.. فألغى مجلس المشورة وأنشأ بدلاً منه مجلسين: المجلس الخصوصى لسن القوانين ثم المجلس العمومى لبحث ما تحيله عليه الحكومة من الشئون (٥)

وكان هذا دليلاً على أن محمد على لم يتجه ذهنه قط إلى إنشاء نظام دستورى أو شبه دستورى بالمعنى المفهوم منه، بل إن مقدمة قانون السياساتمية توجه ضربة شديدة إلى مبدأ اشتراك الشعب والموظفين فى تصريف شئون الحكم.. فهى تشير إلى ضرورة أن تكون قوانين كل دولة موافقة لطبيعة أهلها وأخلاقهم ودرجة تربيتهم ويوجه القانون بعد ذلك النقد لطريقة تصريف الشئون المصلحية على يد الهيئات والجماعات وكيف أن هذه المجالس امتد عملها فشمل ما لا يجب فيه مباحثة ولا مشاورة من معتاد الشئون.. وهو ما عرقل الأعمال النافعة بقيود التأخير وأغلال التعويق.. ثم يوضح القانون كيف أن العمل عن طريق المجالس أدى أيضاً إلى عدم إمكان حصر المسئولية لأن كل واحد من عبيد الجناح الخديوى الموظفين كان يتراخى باتكائه على المجالس فى إنجاز عمله بل من تحت عبء التبعية بدعوى أنه عرض كل شئ على المجلس وأنه كان يتلقى القرار الصادر حتى صدق به وعمل بمقتضاه.

ولهذه الأسباب جميعها عدل محمد على عن النظام شبه التمثيلي وأقام بدلاً منه نظاماً إدارياً بحتاً. (٦)

ونحن نعتقد أن مجلس المشورة كان يمكن أن يتحول بالفعل إلى نواة لنظام نيابى حقيقى فى مصر.. لو ساعدته الظروف واستمر حتى توقيع اتفاقية ١٨٤٠ إذ كان يمكن أن يزداد المجلس قوة كلما ازداد محمد على ضعفاً.. ثم كان يمكنه - أى المجلس - أن يلعب دوراً مهماً فى عملية التصدى للنفوذ الأجنبى الذى أخذ يتسلل إلى مصر.. كما حدث بعد ذلك عندما تصدى مجلس شورى النواب للنفوذ الأجنبى فى نهاية حكم اسماعيل وأثناء حكم توفيق - خلال أحداث الثورة العرابية.

(١) عبدالرحمن الرفاعى - عصر محمد على - ص ٦٠٨ (٢) المصدر نفسه ص ٦٠٩

(٣) د. عبدالعزيز الرفاعى - فجر الحياة النيابية فى مصر الحديثة ص ٥

(٤) د. وليم سليمان - محمد على حاكماً - مجلة الطبيعة - أكتوبر ١٩٦٩

(٥) د. عبدالعزيز الرفاعى - فجر الحياة النيابية فى مصر الحديثة - ص ٦

(٦) د. وليم سليمان - محمد على حاكماً - الطبيعة - أكتوبر ١٩٦٩ .



## الفصل الرابع

**الصحافة المصرية بين  
الدعوة للحكم المطلق ..  
والدعوة للحكم المقيد**



لقد ولد الفكر الديمقراطي من خلال نقد الحكم الاستبدادي.. وقد أخذ هذا النقد في البداية شكل الهجوم على الحكومات الاستبدادية وأنظمة الحكم المطلق ثم انتقل إلى الدعوة الصريحة للحكومات المقيدة أو الحكومات النيابية.

ولقد كان رفاة الطهطاوى أول من طرح في الفكر المصري الحديث.. وفي الصحافة المصرية فكرة أن العلاقة بين الحاكم والمحكوم رهن بنظام الحكم السائد. فقد كان الذين في زمن الحجاج إذا أصبحوا يتساءلون من قتل البارحة؟ ومن صلب؟ ومن جلد؟ ومن قطع؟ وكان الوليد صاحب ضياع ومصانع فكان الناس في زمنه يتساءلون عن الدنيا والمصانع والصنائع وشق الأنهار وغرس الأشجار، لما ولى ابن عبد الملك وكان صاحب طعام ونكاح، فكان الناس يتساءلون ويتحدثون بالأطعمة اللذيذة والثياب الرفيعة ويتغالون في المناكح والسراري.

ولما ولى عمر بن عبد العزيز كان الناس يتساءلون: كم تحفظ من القرآن؟ ومتي تختتم؟ وكم وردك كل ليلة؟ وكم تصوم من أشهر، وما أشبه ذلك.. والآن يتساءلون عن أحوال الدول داخلية أو خارجية من جهة إدارتها وسياستها وما فيها من التولية والعزل ونحو ذلك، وهذا ما يسمى بالبوليتيقيا، والمتكلم في شأن ذلك يقال له بوليتيقي. فما كان بين الدول والملل يقال له بوليتيقيا خارجية، وما كان في دولة واحدة مما يتعلق بنظامها وتديرها يقال له بوليتيقيا داخلية<sup>(١)</sup>

ولأول مرة أيضاً في الصحافة المصرية يتصدى كاتب للتفرقة بين أنواع الحكومات فيقول أن «الحكومة مقسمة أربعة أقسام ديمقراطية وارشترطية وموناخية ومختلطة أى مرتبة. فإن كان الحكم صادراً من غير واسطة عن الأمة المحكومة، فالحكومة ديمقراطية.. يعنى جمهورية أهلية وإذا كان الحكم صادراً من عدة حكام فى الأمة مستخرجين من أكابرها وصدورها فالحكومة ارشترطية أى صادرة عن أشرف البلاد وكبرائها وهى أيضاً نوع من الجمهورية.. وإذا كان الحكم فى يد واحد فقط فالحكومة موناخية أى واحدة الحاكم: ملوكية كانت أو سلطانية وحكم الملك أو السلطان إما أن يكون مقيداً أو مطلق التصرف.

فالمقيد هو أن يكون الملك لا يحكم إلا بقوانين المملكة التى فرض عليها القرار ولا يخذلها بنفسه ولا يخرج منها إلى إرادته... وأما مطلق التصرف فهو الفاعل المختار الذى تكون إرادته فوق قوانين المملكة.. يعنى يرخص له أن يهتك حرمة القوانين من غير معارض، فإذا انضم بعض هذه الأحكام إلى بعض كانت الحكومة مختلطة مركبة.. وأغلب ممالك أوروبا مقيدة التWرف وفيها من هو مطلق التصرف يعنى مستقل بترتيب القوانين بنفسه مع من يختاره للمشورة من أعيان دولته.<sup>(٢)</sup>

وهنا نلاحظ أن الطهطاوى فى تفرقته بين انواع الحكومات لا يأخذ موقف الحياد وإنما يميل الى الحكومة المقيدة بدليل أنه عندما يتحدث عن الحاكم المطلق يختار من الألفاظ ما يكشف عن رفضه له فهو يقول "وأما مطلق التصرف فهو الفاعل المختار الذى تكون إرادته فوق قوانين المملكة يعنى يرخص له أن يهتك حرية القوانين من غير معارض". فالطهطاوى اذن يرى أن القوانين لها جرمه.. وأن الحاكم الذى يجعل إرادته فوق أرادة القوانين.. بمثابة من يهتك الحرمة.

(١) الوقائع المصرية - المجلد ٦٢٣ - فى غرة ربيع آخر سنة ١٢٥٨ هـ (١٨٤٢م) مقال بعنوان تمهيد.

(٢) المصدر نفسه

كذلك فإن تأييد الطهطاوى للحكومة المقيدة يكشفه قوله «وأغلب ممالك أوروبا مقيدة التصرف» .. وكأنه يريد أن يوحى إلى القارئ بما يعنى أنه لو كانت الحكومة المقيدة ضارة لما انتشرت فى أغلب ممالك أوروبا وهى وسيلة معروفة للإقناع بطريقة غير مباشرة. ويتصدى الطهطاوى للرد على بعض مفكرى أوروبا وبالذات على منتسكيو القائل باستبداد ملوك الإسلام وأمرائه وحكامه فيقول:

«والأفرنج يعدون الحكومات الإسلامية من قبيل المطلقات التصرف.. والحال أنها مقيدة أكثر من قوانينهم فإن الحاكم السياسى لا يخرج أصلاً عن الأحكام الشرعية التى هى أساس للقوانين السياسية ولأتباع الشريعة المحمدية وتشعب ما يتفرغ عن أصولها من الفروع ظن من لا معرفة له أن ما يفعله حكام الإسلام لا وجه له فى الشرع وقل أن يقدم ملك إسلامى على ما يخالف صراحة كتاب الله وسنة رسوله»<sup>(١)</sup>

إن الطهطاوى يتحدث هنا عن حكام الإسلام والحكومات الإسلامية.. وليس عن الذين يحكمون بلاداً إسلامية والفرق بين المعنيين هو الذى يكشف لنا جوهر فكرة الطهطاوى عن الحكومة الإسلامية.. فهو يرى أن الحكومة الإسلامية هى التى تلتزم بالشريعة ولا تخرج عنها.. وهذا الإلتزام بالشريعة هو فى حد ذاته قيد على تصرفات الحاكم.. فالشريعة عند الطهطاوى هي القانون عند الأوروبيين. فالحكومة فى أوروبا تصير مقيدة عندما تلتزم بأحكام القانون.. كذلك فالحكومة الإسلامية تصير مقيدة عندما تلتزم بالشريعة.

ولذلك يجب ألا ندفع عندما نرى الطهطاوى يدافع عن نظام الحكم فى الحكومات الإسلامية وتتصور أنه كان يدافع عن تلك الحكومات المطلقة أو المستبدة التى كانت سائدة فى عهده سواء فى مصر أو فى تركيا.. أو فى غيرها من الممالك الإسلامية الأخرى.. ذلك أنه كان يتحدث عن الحكومة الإسلامية.. بشكل مطلق وقد يقصد بها فترة حكم الخلفاء الراشدين أو فترة حكم عمر بن عبدالعزيز فى العصر الأموى.. أو غيرها من الحكومات الإسلامية عبر التاريخ الإسلامى الطويل.. المهم أن الحكومة الإسلامية التى كان يقصد الحديث عنها هى تلك التى تلتزم بالشريعة.. والمعروف أن أغلب الحكومات فى الممالك الإسلامية فى عهده وإن لم تكن كلها.. لم تلتزم بالشريعة أو بغيرها من القوانين إلا مصلحة الفرد الحاكم.

ولذلك فكل هذه الحكومات لم تكن هى المقصودة بدفاعه عن الحكومات الإسلامية.. بل إن التحليل الدقيق لمعنى الكلمات يكشف فيها هجوماً على تلك الحكومات التى لم تعد تلتزم بالشريعة.

وكان أديب إسحق يرى أن أسوأ ما فى القرن التاسع عشر هو «تهافت الولاة على الاستبداد متظاهرين بمظاهر الحرية»<sup>(٢)</sup> وكأنه يقصد بذلك الخديو اسماعيل بذاته. ويتساءل أديب إسحق: «أليس من الوهم بل من الجهل المخجل أن يقال فى عصر الاجتماعيين والديمقراطيين أن نسبة الأمة إلى الحكومة.. نسبة الأرجل إلى الرأس؟!»<sup>(٣)</sup>

(١) المصدر نفسه

(٢) مصر - ١٣ يوليو ١٨٧٧ مقال (القرن التاسع عشر)

(٣) مصر - ١٣ نوفمبر ١٨٧٨ - مقال (مجلس النواب)



وسبب تأخر الشرق في رأى أديب اسحق هو الاستبداد بينما الحرية هي السبب في تقدم الغرب.. فهو يقول أن تدهور الشرق مرجعه «ما استقر فيها من الجهل وما استتب من الظلم والاستبداد»<sup>(١)</sup> ويعلل تقدم الغرب «بما استقر وتقرر فيه من العدل وما قر من أسباب الإصلاح» ثم دعم رأيه قائلًا: «أليس من المقرر المعلوم أن التمدن هو عبارة عن إقامة أمر الحرية الذاتية والتعاونية وصيانة التقدم المعنوي في الهيئة الاجتماعية أو ليست الحرية عبارة عن اجراء أحكام العدل في جميع الأعمال الإنسانية».

ويحمل أديب اسحق ملوك الشرق وزر ما يعانیه الشرق في ذلك الوقت من تدهور وانحلال «إن استبداد ملوك الشرق واستئثارهم بالمنافع هو العلة الحقيقية في سقوط دولهم واختلال مواردها وتلاشى أحوالها»<sup>(٢)</sup> وعلاج ذلك في رأيه هو «الإصلاح المستمر المبني على قانون يحفظ نظامه وترعى أحكامه ليستقيم به أمر العدل الموجب للنجاح وتحسم أسباب الظلم المؤذن بخراب العمران ولا يحصل ذلك إلا بالحرية الذاتية والمساواة التي ترفع العدوان عن الناس فلا يتقبضون عن - العسى في الاكتساب والمصالح فإنه لا عز للملك إلا بالرجال ولا قوام للرجال إلا بالمال ولا سبيل إلى المال إلا بالعمارة ولا تحصل العمارة إلا بالعدل وما العدل إلا الحرية والمساواة ولعلنا نلمح في الفقرة الأخيرة تأثر أديب اسحق الواضح برقعة الطهطاوى فهو هنا يستعير تقريباً نفس ألفاظ الطهطاوى «لا سلطان إلا برجال ولا رجال إلا بمال ولا مال إلا بعمارة ولا عمارة إلا بعدل»<sup>(٣)</sup>

وبعد تولى الخديو توفيق وتنكره لكل ما وعد به من اشراك الشعب في الحكم.. ثم نفيه لجمال الدين الأفغانى وصل أديب اسحق إلى الدرجة التي جعلته يرى أنه ليس هناك وسيلة للقضاء على الاستبداد سوى الثورة «فإما أن يبدد الشرق بأنوار الحرية ظلمات الظلم ويقطع بسيوف العزم علائق الاستبداد ويهدم بأيدي العلم سجون الاستعباد فيعود إلى شأنه السابق ومجده السابق. وإما أن يستمر على حاله راضياً بوجود يشبه العدم»<sup>(٤)</sup>

فالشئ الوحيد الذى ينقذ الشرق من محتته في رأى أديب اسحق هو: «ضرب الإستبداد في أركان سطوته فلا يبقى له في الزمن من ذاكر» وكان هذا آخر مقال يكتبه أديب اسحق في صحيفة مصر الأولى فقد أغلقت الجريدة بعد ثلاثة أعداد.. وكأن أديب اسحق قصد بمقاله الأخير أن ينقل مسئولية النضال ضد الإستبداد من الكتاب والمفكرين إلى جماهير الشعب المصرى نفسها.

وحاول جمال الدين الأفغانى هدم أساس الحكومة المطلقة الإستبدادية عن طريق هدم نظرية الحق الإلهى للمولك فهو يرى أن «الملوك فضلاً عما رسخ في نفوسهم من أن رتبهم الملوكية (إنما هي رتبة سماوية ساقطتها إليهم يد العناية الإلهية بسبب طيب عنصرهم وطهارة طبيعتهم يعتقدون أن لا قوام للرعية بدون وجودهم وأن لا غنى لها عنهم إذ هم يحفظون أموالهم ويعقنون

(١) مصر - ٣٠ مايو ١٨٧٩ مقال (لي وطن آليت أن لا أبيعته وأن لا أرى غيرة له الدهر مالكا)

(٢) مصر - ٣١ يولييه ١٨٧٩ مقال بعنوان (آثار الاستبداد في الدول الشرقية عموماً والدولة العثمانية خصوصاً).

(٣) رفاعة الطهطاوى - تخلص الأبريز في تلخيص باريز - ص ١٤٠

(٤) مصر - ٢٤ أكتوبر ١٨٧٩ مقال (مستقبل الشرق)

دماءهما ويوفون لكل ذى حق حقه وينتقصون للمظلوم من الظالم ويحرسون الثغور لدفع ضرر المهاجمين فيرون أن لهم بذلك حق التصرف فى أموال الرعية ودمائها وأنه يجب عليهم طاعتهم والخضوع لسلطوتهم وسلطتهم وامثال أوامرهم واجتناب نواهيهم.. ويرمون الرعية بالتقصير فيما يجب عليها.(١)

ثم يتولى الأفغانى تنفيذ هذه الحجج التى تعتمد عليها نظرية الحق الإلهى التى يعتمد عليها أنصار الحكومات المطلقة فيقول:

«والرعايا يخاطبونهم قائلين: لا مزية لكم علينا كما زعتم ولستم أطيب عنصراً ولا أظهر طينة بل نراكم أناساً استولى عليكم حب الرئاسة وأسرتكم الشهوة (واستعبدكم) الهوى فاستمالك إلى سلب راحة رعاياكم حرصاً على التغلب وطمعاً فى توسيع دائرة السلطة وكسب الإفتخار.. أفلا تعلمون أن الحارس والمرابط إنما هو منا والحافظ والحاقن والمنظم إنما هو القانون والشرعية الحققة وما أنتم إلا منوطين بحفظها والعمل فى الناس بها فإن قمتم بذلك على وجه الإستقامة كان لكم علينا ما يقوم أودكم، فكيف ساغ لكم أن تلعبوا بأموالنا وتعبشوا بدمائنا وتلقوا بنا فى هاوة الشقاوة ثم تبتغوا طاعتنا وامثالنا.

والاستبداد فى مفهوم الأفغانى هو «أن تكون أمة من الأمم مقيدة بسلسلة رأى واحد من الناس لا تتحرك إلا بأمره ولا تفعل إلا لرضاه فإذا كانت الأمة على هذه الصورة لزمها لا محالة أن يصرف كل منها ما أودع فيه من العقل والذكاء لمرضاة شخص واحد فيكون الكل فانيماً فى واحد ومن المعلوم أن الرجل الواحد لو انفرد فى العقل والذكاء والهمة وعلو النفس لا يستطيع جلب السعادة لنفسه فضلاً عن جلبها لأمة كبيرة»(٢)

والأفغانى يرى أن «طول مكث الشرقيين تحت نير الإستبداد والمتسبدين»(٣) نتج عنه ثلاث مصائب:

الأولى: «أوشك الرعايا أن لا يعرفوا أنفسهم وما انطوت عليه من القوى المقدسة والقدرة الكاملة والسلطة المطلقة على عالم الطبيعة والعقل الفعال الذى تخضع لديه البسائط والمركبات ويطيع أمره النافذ جميع المواليد من الحيوان والنبات.

والثانية: «امتداد زمن توغلهم فى الخرافات التى تزيل البصيرة وتستوجب المحو التام والذهول المستغرق بل تستدعى النزول إلى الرتبة الحيوانية.»

والثالثة: «مداومتهم من أحقاب متتالية على معارضة العلوم الحقيقية التى تكشف عن حقيقة الإنسان وتعلمه بواجباته وما يلزمه فى معاشه وتبين له الأسباب الموجبة للخلل فى الهيئة الاجتماعية وتمنه من دفعها».

(١) مصر - ١٥ نوفمبر ١٨٧٨ محاضرة بعنوان (العله الحقيقية لسعادة الإنسان) للسيد جمال الدين الأفغانى.

(٢) مصر - ٢٤ مايو ١٨٩٧ محاضرة بعنوان «حكم الشرق» للسيد جمال الدين الأفغانى .

(٣) مصر - ١٤ فبراير ١٨٧٩ محاضرة بعنوان (الحكومة الاستبدادية)

والحكومة الإستبدادية تنقسم - فى رأى الأفغانى - إلى ثلاثة أقسام:-

القسم الأول: الحكومة القاسية.. وهى «التي يكون أركانها مع اتسامهم بسمه الإمارة والوزارة والإدارة والجباية شبيهة بقطاع الطرق .. فهى تنصب ضياع رعاياها وعقاراتهم وتستولى على مساكنهم ويساتينهم، وتتزعج بالضرب والحبس والكى وغيره من أنواع العذاب ما بأيديهم من ثمرات اكتسابهم.. ولا يخشون اضمحلالهم وإبادتهم بالكلية ومحق حياتهم بالمرّة بل ربما يستبشرون بذلك كأنما هم أعداؤهم ولا يستشعرون بأنهم قوام السلطنة وأساسها ومن أفراد هذا القسم.. الحكومة الجنكيزية والتميمورية وغيرها من حكومات التتر والبرابرة كما تشهد بذلك التواريخ».

والقسم الثانى.. الحكومة الظالمة: «وأولياء هذه الحكومة تماثل الإخفاء المترفين الذين يستعبدون أناسا خلقوا أحراراً ظلمًا واعتداء وهؤلاء الظلماء لا يفترون عن السعى فى سلب ما بأيدي رعاياهم جبراً وغصباً ولا يدعون لهم ما اكتسبوه بكديهم وعرق جبينهم سوى ما تقوم به حياتهم ومن أقسام هذه الحكومة أغلب حكومات الشرقيين فى الأزمان العارضة والأوقات الحاضرة وكذلك أكثر حكومات الغربيين فى الدهور الماضية وفيها أيضاً الحكومة الإنجليزية الآن فى البلاد الهندية.

والقسم الثالث: الحكومة الرحيمة وهذه تنقسم إلى قسمين.. القسم الأول: منها يضم الحكومة الجاهلة «ودعائم هذه الحكومة تحاكى الأب الرحيم الجاهل فكما أنه يحث أبناءه شفقة منه على اقتناء الأموال واكتساب الثروة بدون أن يبين طرقها ويمهد لهم سبيلها كذلك هؤلاء الدعائم الرحماء الجاهلاء يطلبون من رعاياهم السعى فى المكاسب والصنائع والتمسك بالتجارة والفلاحة (الزراعة) والتثبث من العلوم والمعارف.. ولكن بلا تفنن ناموس عادل حافظ للحقوق معين للمحدود فاصل للقضايا قاطع لما يطرأ من النوازل لجميع ما يحتاج إليه الإنسان فى اجتماعاته المدنية.. ومن أفراد هذه الحكومة سلطنة بعض السلاطين المجبولين على الشفقة».

أما القسم الثانى من الحكومة الرحيمة فهو الحكومة العالمة وهى بدورها - فى رأى الأفغانى - تنقسم قسمين: الأول.. الحكومة الغرة: وهؤلاء يعمرن بيوت العلم ويشيدون دور المعارف وينشئون المعامل ويوظبون على تشريع سياسة مدنية تثبيتاً للحقوق واستتباباً للراحة ولكنهم يفتقرون إلى العلة الموجدة، لا يوظبون على أعمالهم ويتركونها نسياً منسياً فيتطرق إليها الخلل ويعتريها الفساد ويسرى إليها الانحلال لما جبل عليه الإنسان من الحرص والشره والميل إلى الجور والإعتداء المستلزم لمخالفة القانون. ويشبه أن تكون حكومة المأمون وبعض سلاجقة إيران من أفراد هذا القسم».

والقسم الثانى من الحكومة العالمة هى الحكومة المتنطة: «وأساطينها الحكماء.. فنجد هؤلاء الحكماء الأساطين يعلمون أن قوام المملكة وحياة الرعايا بالزراعة والصناعة والتجارة ويعرفون أن كمال هذه الأمور واتقانها لا يكون إلا بأمرين العلوم الحقيقية النافعة والفنون المفيدة ويفقهون إلى أن حفظ أساس المدنية وصون نظام المعاملات وفصل المنازعات لا يكون إلا بالمحاكم الشرعية

والسياسية المؤسسة على دعائم العدل والإنصاف وإنها لا تتحقق إلا بقانون حق لا يغادر صغيرة ولا كبيرة محفوظاً بأمناء يقظين محروساً بعدول نشطين محفوفاً بعلماء فقهين.. معززاً بقضاة قاسطين مؤيداً بحكام أعضاء وأعوان برره.. وانتخبوا رجالاً يقظين عارفين بأحوال الدول وقواها متبصرين بشئون الممالك وأسباب سعادتها وشقائها عالين بفنون التجارة والزراعة والصناعة ولوازمها».

وهذا الشكل الأخير من أقسام الحكومة الإستبدادية والذي يصفها الأفغاني «بالحكومة العالة الإستبدادية هي الحكومة التي يصطفيها للأمم الشرقية ويرى أنها هي وحدها الصالحة له الملائمة لظروفه فهو يخاطب أمراء الشرق داعياً إياهم إلى الأخذ بهذا الشكل من الحكم فيقول: «فهاك أيها الإنسان الشرقي صاحب الأمر.. وإنها.. حكومة رحيمة حكيمة وعليك بها. والقيام بشأنها وحفظ واجباتها».

فالأفغاني إذن يريد حكومة عالة استبدادية رحيمة.. يسيرها الحكماء وينظمها ويحمي حقوق الناس فيها القانون.. ولعله هنا متأثر بجمهورية أفلاطون حيث يأخذ عنه دعوته لأن يكون الحكام فلاسفة وحكماء لأنهم تلقوا العلم والفضائل واتسعت آفاقهم فلا يفعلون إلا ما هو خير وعدل.<sup>(١)</sup>

ووقع الأفغاني في نفس التناقض الذي وقع فيه ما كيافيللي من قبل والذي أيد الأمير القوى المطلق وفي نفس الوقت أشاد بفضل النظام الديمقراطي والجمهوري<sup>(٢)</sup>.. كذلك كان الأفغاني، فهو في الوقت الذي يدعو فيه إلى حكومة استبدادية.. وإن كانت رحيمة وعالة- نراه يشيد بالنظام الجمهوري.. ففي نفس المقال الذي كتبه عن الحكومة الإستبدادية بلغ إعجابه بالجمهورية إلى المدى الذي «يمنع القلم من أن يجرى بذكر الحكومة الجمهورية وبيان حقيقتها ومزاياها وسيدة ذويها الفائزين بها وأن المسوسين بها أعلى شأنًا وأرفع مكانة من سائر أفراد الإنسان بل هم الذين يليق بهم أن يدخلوا تحت هذا الاسم دون من عداهم فإن الإنسان الحقيقي هو الذي لا يحكم عليه سوى القانون الحق المؤسس على دعائم العدل الذي قد سن لنفسه يحدد به حركاته وسكناته. ومعاملاته مع غيره على وجه يصعد به إلى السعادة الحقيقية».<sup>(٣)</sup>

ومن الملاحظ أن هذا التناقض الذي تميزت به أفكار الأفغاني.. اتسمت به سياسته العملية أيضاً.. فهو في مصر كان يعارض حكم اسماعيل المطلق ويقود الدعوة إلى الحكومة النيابية.. بينما نراه في الأستانة يؤيد السلطان عبدالحميد رغم ما عرف من استبداده ومقتته للفكرة الديمقراطية.

ويرى سليم النقاش أن الإستبداد هو سر تدهور شعوب الشرق. (فمن آفات الشرق العظمى وطماته الكبرى استبداد ملوكه وتحامل قويه على صعلوكه).<sup>(٤)</sup>

(١) د. مصطفى الحشاش- النظريات والمذاهب السياسية ص ٧١

(٢) نفس المصدر ص ١٤٥

(٣) مصر- ١٤ فبراير ١٨٧٩ محاضرة بعنوان (الحكومة الإستبدادية) لجمال الدين الأفغاني.

(٤) العصر الجديد- ١١ مارس ١٨٨٠ مقال بعنوان (الاستبداد في الشرق).

ثم تساءل: «كيف أن ثمانمائة مليون وطنوا الشرق منذ الأزل وهم لا ينتشقون نسيم الحرية ولا يتذوقون طعم الراحة والإنسانية منذ خلق السلف حتى الخلف فكأنما اقتصر الخالق منا وحدنا على ذنب آدمنا بعد أن وهبه الحرية فأفرط فيها فقيده وقيدنا إلى الأبد».

وهناك ثلاثة أنواع من الحكومات فى رأى ميخائيل عبد السيد، .. الأول الحكومة التى يكون حاكمها ملكا مطلق التصرف والثانى: الحكومة التى يكون حاكمها مقيدا بقوانين المملكة والثالث: الحكومة الجمهورية وهو أن يكون الحكم بيد أشخاص تنتخبهم الأهالى»<sup>(١)</sup>

والنوع الأول من الحكومات الحكومة المطلقة المستبدة وهى فى رأى ميخائيل عبد السيد «منحطة إلى حضيض الذل والهوان والضعف والخسران وما ذلك إلا لكون الأمر والنهى يكون بيد شخص فلا يوجد قانون يلزمه ولا عنان يضمه.. بل كل ما قاده انجذب إليه فهو ولا يخفى أن الردى يتبع الهوى».

ثم يعلن تأييده للنوع الثانى من الحكومات أى الحكومات المقيدة.. فميزتها «أنه لا يمكن للملك إتباع هواه والخروج على الشرع. وعلى ذلك تجرى عليه الأحكام كالأهالى على السواء بالتمام فلا يمكنه تسخير أحد ومواشيه واغتصاب عقاراته وزراعته أو تعطيل تجارته فإن الشرع يساوى بين الفقير والأمير والصغير والكبير.. ولهذا النوع خصائص حميدة وطرق سديدة منها أن أعمال الحكومة وتصرفاتها تكون بالرأى والمشورة.

ويتبين لنا من هذا المقال ميل ميخائيل عبد السيد إلى الملكية المقيدة ورفضه للحكومة الجمهورية.

ولعل هذا هو الذى يفسر لنا موقفه المتحفظ بعد ذلك من الثورة العربية بل وموقفه العدائى منها فى بعض الأوقات خاصة وأنه أشيع أثناء الثورة أن هناك انجهاً لإقامة الجمهورية فى مصر.. فهو يعلق على مظاهرة الجيش فى سبتمبر ١٨٨١ قائلاً:

«ويخشى أن ما بنته هذه الأسرة - يقصد أسرة محمد على - فى مائة سنة تهدمه فى يوم واحد وتتقهقر إلى حضيض الذل بعد العز وتقول الناس علينا أنه لا ينفع فى المصريين إلا من كان رأيه الفتك والهلك والإحتيال والإغتيال وأنهم تعودوا على ذلك منذ ألوف السنين.»<sup>(٢)</sup>

ثم يكشف عن موقف يناقض موقفه القديم فى الحكومة المقيدة.. إذ صار يرى أن على الرعايا «طاعة أولياء أمورهم ومراعاة مكانتهم لا أن يخسروا ذمتهم ونيتهم حرمتهم ويزيلوا حشمتهم ويضيعوا حق نعمتهم» وهو بذلك يدافع عن سلطة الخديو المطلقة.. فهو يطالب الرعايا بطاعة أولى الأمر بينما لا يلزم ولى الأمر بشئ.. فأين هذا من دعوته القديمة بأن تجرى على الحاكم «الأحكام كالأهالى»<sup>(٣)</sup> ففى فترة لا تتجاوز الثلاث سنوات تغير موقف ميخائيل عبد السيد من

(١) الوطن - ٧ سبتمبر ١٨٧٨

(٢) الوطن ١٧ سبتمبر ١٨٨١

(٣) الوطن - ٧ سبتمبر ١٨٧٨

مناصرة الحكومة المقيدة إلى مناصرة الحكومة المطلقة .. وسوف نراه بعد فشل الثورة العرابية يتحول إلى داعية إلى الإحتلال الإنجليزي بعد أن كان يحاربه من قبل (١)

وكتبت صحيفة مرآة الشرق (٢) تقول أن انحطاط الشرق سببه «فساد أخلاق الأمراء وولاة الأمور وجهلهم بواجباتهم وسوء تدبيرهم واستبدادهم فى رأى واستئثارهم بالمجد.. لا يعرفون شرعاً ولا يرضونه قانوناً ولا يسمعون رأياً ولا يقبلون نصحاً» (٣)

وعلاج هذا الحال فى رأى الصحيفة هو «قمع أولئك المستبدين وكف نفوذهم وقلم أظفار تعديهم وتقييد سلطتهم ومقاومة سطوتهم وإيقافهم عند الحدود وإلزامهم بالشرائع والقوانين ولا يمكن ذلك إلا بأن تصير الحكومة شورية حقيقية لا تشوبها شائبة التقييد ، يقوم بأمرها من يقدرها حق قدرها من ذوى الحكمة والتدبير».

والصحيفة ترى أن نهضة الغرب قامت بعد أن ثار أهلها «وتخلصوا من سلطة أولئك المستبدين الظالمين.. فنالوا ما أرادوا بما وضعوا من القوانين والأحكام الشورية وما أطلقوا من الحرية فوصلوا إلى ما وصلوا إليه من الترقى فى مقامات التقدم وأصبحوا يتقبلون على بساط الراحة والرعاية» (٤)

وتقرر الصحيفة أن نهضة مصر مرتبطة بقيام «حكومة شورية مؤسسة على قواعد الحرية المطلقة».

ولكن الصحيفة تحذر المصريين من أنصار الإستبداد الذين مازالوا ينتظرون الفرصة للإنقضاض على كل المكاسب الدستورية التى حصلوا عليها فى نهاية حكم اسماعيل فتقول : «فالذين احفظناهم علينا وأخرجنا صدورهم بما صنعنا لا يزالون بالمرصاد يترقبون فرصة يتهزونها فينا».

ثم تطالب الصحيفة أنصار الشورى فى مصر بمزيد من الجهد فى استئصال بقايا الإستبداد لكى يقطعوا جذوره «فلترفعوا ثقل المظالم عن كواهل أبناء البلاد من الفلاحين وذوى المهنة حتى يجمعوا القلوب على الولاء للشورى».

ولقد حفلت قصص ومحاورات ومقالات يعقوب صنوع بالهجوم المر القاصى على الحكومة المطلقة وخاصة استبداد الخديو إسماعيل فلم يخل عدد من أعداد مجلة أبو نظارة وأشقائها

(١) فتحي الرملى - البركان النائر - جمال الدين الأفغانى - الطبعة الأولى - دار الثقافة العامة - القاهرة ص ٥٣  
(٢) كان من المؤلف فى ذلك الوقت أن يكتب افتتاحية أى صحيفة وأكثر موادها محرر الجريدة المسئول ولكن فى هذه الصحيفة حدث تعدد فى الأسماء لم نجد فى صحيفة أخرى بحيث لم نستطع أن نقطع برأى حازم فى من هو كاتب مقالاتها وخاصة أنها كانت بدون توقيع.. فالصحيفة تقول أن صاحب امتيازها هو سليم عنجورى - بينما مدير التحرير هو (اسكندر نحاس) ثم ذكرت أيضا فى الترويسة أن محرر الصحيفة هو إبراهيم اللقانى.. بينما كانت الصحيفة توقع فى نهايتها باسم (أمين ناصف).

(٣) مرآة الشرق - أول مايو ١٨٧٩ - مقال بعنوان (المال).

(٤) مرآة الشرق - ٢١ مايو ١٨٧٩

بالسخرية والهجوم على حكم شيخ الحارة الظالم<sup>(١)</sup>، وهو يقصد بشيخ الحارة الخديو إسماعيل نفسه.

وكان يعقوب صنوع دائم المقارنة بين نظام الحكم الديموقراطى السائد في أوروبا وبالذات في فرنسا والمجترات وبين الحكم الإستبدادى في مصر وينبه المصريين إلى حقوقهم ويحذرهم من التهاون في التمسك بها.<sup>(٢)</sup>

وفى حوار بين أبى نظارة وأبى خليل يقول يعقوب على لسان أبى خليل «يا بختكم يا فرنساوية ياما أتمم مبسوطين بعدالة وإنصاف جمهوريتكم مش زى حالنا إحنا يا مساكين اللى الإنصاف والعدالة والحرية شافونا وهربوا».<sup>(٣)</sup>

وكتب يعقوب صنوع مجموعة من المقالات فى شكل رسائل «بقلم الفاضل الأديب واللودعى النجيب حضرة الشيخ يوسف أفندى الشفعاوى المحترم» وفيها «بيان لظلم شيخ الحارة»، وقد استند يعقوب إلى نصوص من القرآن الكريم والحديث الشريف التى تمحض المسلمين على مقاومة السلطان الظالم وفيها دعى يعقوب صنوع إلى الحكم النيابى<sup>(٤)</sup>

ويلخص يعقوب صنوع مطلبه ومقصده «بإطلاق الحرية ورفع رق العبودية وقمع الظلم والحيانة حتى يزول الظلم وتدخل محله العدالة والإنصاف».<sup>(٥)</sup>

ويعتقد أمين شمبل أن الإستبداد نشأ تاريخياً عندما «استحالت الحرية الطبيعية المطلقة التى نشأ عليها الإنسان الأول إلى غير نفسها وتولد عنها الإستبداد والعبودية لأنه لما تعددت أفراد الإنسان وأراد أن يستعمل حريته المطلقة قام له معارض من نفسه فإن عين ما يروقه الواحد يطلبه الآخر فتنشأ عن ذلك بل لا يزال ينشأ عنه صدام دائم بين الأفراد وأدى ويؤدى إلى نزع الحرية عن الواحد وإخضاعها للآخر بمساعدة القوة فكان ذلك استبداداً فى الغالب وعبودية فى المغلوب».<sup>(٦)</sup>

أما حصول الإنسان على حريته من جديد فهى عند أمين سميل رهن بمدى استخدامه لقوة عقله وجسمه لكى «يعدل القوة المطلقة فيستنقذ من مخالبتها نواميس قانونية تحدد بين أفراد تلك الحرية بحيث يكون لكل فرد من أفرادها أن يستعملها فيما لا يضر بغيره وهذه الحرية هي التى دعاها الشارع حرية مدنية أو اجتماعية أو شرعية... وقد استعاضها الإنسان من حريته الطبيعية الفاقدة باختلاف المطامع الإنسانية والمنافع البشرية وتختلف أحوالها باختلاف تلك الشرائع فهى معدومة فى الإستبداد إذ لا حرية حيث لا شريعة لأن الأحكام الإستبدادية من إقليم الحرية المطلقة فلا تسكن إلا مع العبودية لذلك كلما تحسنت شرائع قوم.. اتسعت حريتهم المدنية».

(١) أبى نظارة - ١٧ أغسطس ١٨٧٨

(٢) عبد الحميد غنيم - صنوع - رائد المسرح المصرى - الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٦٦ ص ٤٢

(٣) أبى نظارة - ١٥ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٧٨

(٤) أبى نظارة ٣ أغسطس ١٨٧٨

(٥) أبى نظارة ٢١ نوفمبر ١٨٧٨

(٦) التجارة ٢٢ أغسطس ١٨٧٩ مقال بعنوان (الحرية)

ويرى بشارة تقلا أنه (قد دار مدار حكومات العالم أجمع على محورين: دستوري ومطلق.. وكانت علاقتهما على هذا النحو.. أي أن الدستور يشتق من الإستبدادى مطلقاً كاشتقاق العدم من الوجود»<sup>(١)</sup>).

ويشارة تقلا يعتقد أنه «كلما تمكنت الحرية من قوم كلما ازدادوا تفننا بأحكامها.. إذ لا يرتضون بحالة يعرفون أن بإمكانهم مع إطلاق السراح.. الحصول على أحسن منها».

ثم يتولى الرد على دعاوى بعض الدول الأجنبية التي تنكر على شعوب الشرق حق التمتع بالحرية والدستور بحجة عدم ملاءمتهم لها فيقول: «فعلى من يتوهم أن البلاد لا تأهل للدستور أن يعدل ويتروى ليدرك خطأه.. وأن لنا ما ليس لشعوب أوروبا من السهولة فإنهم هم الذين أيدوا الحرية وأوجدوها بإراقة الدماء أما نحن فنقوى على الوصول إليها بحسن المعاملة دون ثورة ولا شقاق».

أما سليم تقلا فهو يرى أن الأساس الذي يجب أن تقوم عليه الأمم الحرة هو (العدل الذي لم تتسم أمة إلا به ولم تعتز مملكة إلا بتعزيز جانبه لأنه يمنع عن المرء مطلق ما يحول دون إقدامه من الموانع الباعثة على الخمول والتأخير فيندفع طالباً لذلك الجوهر وشاخصاً إلى المقام الذي تعده له غيرته وتمكنه منه جده وإقدامه فيعمل في الأرض مصلحاً»<sup>(٢)</sup>).

وهو يرى أيضاً أن «العدل لا يصحب الظلم ولا يغادر الحرية ولا يرافقه الخوف ولا يلزمه عدم التسوية»..

وسليم تقلا يعتقد أن الحكومة المبنية على الحرية والتسوية تدفع الإنسان «إلى النظر في الأحسن وأن يهتم بما يكسبه اللذة العقلية وما يجمع له في دنياه الثروة والإفتخار فتتربض أخلاقه بالأدب حتي يذوق لذة المصلحة العامة فيقدم باذلاً منتهى العناية من أجل الوسائل المبيحة للنجاح والتقدم، ولا يلبث أن يرى من يشاكلة في ذلك حتى تستقيم الحال عنده وبين أبناء جلدته فتتحسن محبة الذات للفريق الآخر لئلا يكون دون سواه ومن هذا تتولد الغيرة وهي محمودة إذا حسنت غايتها».

وبهذا المقال يطرح سليم تقلا مبدأ هاماً هو أن الحكومة الحرة هي التي تتيح حرية العمل لأفرادها.. تلك الحرية التي تتولد عنها المنافسة أو الغيرة كما يسميها.. وهذه عنده هي أداة التقدم سواء بالنسبة للفرد أو المجتمع.

كان أول مقال نشر عليه للشيخ محمد عبده عن نظام الحكم.. دفاعاً حاراً عن الحكومة المستبدة.. وقد كانت مناسبة المقال صدور الحكم على السيد حسن موسى العقاد.. أحد كبار تجار القاهرة يستين في ليمان الاسكندرية<sup>(٣)</sup>، وكان السبب في هذا العقاب كما يقول الشيخ محمد عبده. أنه قد ماج خيال الهوس في رأس السيد حسن موسى العقاد من مدة أشهر فأقدم بدون أن

(١) الأهرام ٢٥ نوفمبر ١٨٨٠

(٢) الوقت - ٢٨ ديسمبر ١٨٨٠ مقال بعنوان (الجراند)

(٣) لقد زيدت مدة الحبس إلى خمس سنوات بعد الإستئناف ثم رؤى نفيه إلى فيزوغلى.. وقد عاد إلى القاهرة أثناء الثورة العربية.



يعرف من هو وما هي الحكومة على أن قدم للجنة التصفية تقريراً يطلب فيه أن لا تلغى امتيازات المقابلة عملاً بالقانون ١٢٨٨»<sup>(١)</sup>

ومن ضمن التهم التي يأخذها محمد عبده على حسن موسى العقاد «الذي ذكره من كون الحكومة مستبدة.. وهذا ليس أمراً خفياً ولا قطيعاً فإن حقيقة الإستبداد أن تكون الأحكام بدون استشارة نواب وهذا محقق».

ثم يضيف محمد عبده: «فهو يزعم في هذا أن اجراءات الحكومة الحاضرة أدخل في باب الإستبداد من الحكومة السابقة.. وهذا صريح في سوء مقصده، ما يكفي لإثبات أعظم جناية عليه وهي تشويش الأفكار وإيجاد الإضطرابات في الحكومة».

فمحمد عبده هنا يعترف بأن الحكومة المصرية حكومة مستبدة وهذا في رأيه لا عيب فيه، وأن ما يأخذ على حسن موسى العقاد ليس قوله أن الحكومة الحالية مستبدة وإنما لأنه قال إنها أكثر استبداداً من الحكومة السابقة أي حكومة الخديو إسماعيل.

ومحمد عبده يرى أن «الوجود الإنساني في هذه الحياة ثلاثة أدوار متتالية يأخذ بعضها بأطراف بعض.. الأول دور الفطرة وهو الوجود الطبيعي والثاني دور الاجتماع وهو الحالة المدنية والثالث دور السياسة».<sup>(٢)</sup>

ورغم أنه يعتقد أن مصر قد وصلت إلى الدور الثالث وهو دور السياسة إلا أنه يرى أنها مازالت في البداية. ولكننا لا نزال في دور الطفولة من هذه الحياة فلا بد لنا من رب حكيم يأخذ بيدنا فيما نعانيه فلا نسقط ونحن في أول الدرجات ومن دليل راشد يهدينا الصواب فلا نضل ونحن في أول الطريق ولكن يشترط في المربي أو الدليل أن يكون ممن اجتمعت الكلمة عليهم وحصلت الثقة بهم».

ويمكن فهم رأى الشيخ محمد عبده إذا وضعنا في اعتبارنا تأثيره الواضح بأفكار أستاذه جمال الدين الأفغانى الذى كان يؤمن - كما سبق وبيننا - بالحكومة المتسبدة وإن كانت عالمة ورحيمة. وفي نفس الوقت كان محمد عبده صديقاً لرياض باشا رئيس وزراء مصر في الفترة التي سبقت الثورة العربية مباشرة والذي كان يؤمن بالحكم المطلق<sup>(٣)</sup>، ويرى أن الإستبداد والنظام من اللين والفوضى وكان محمد عبده يرى فيه نموذجاً للمستبد العادل وهو النموذج الذي يصلح في رأيه لحكم مصر، ومحمد عبده كان يرى أنه لن ينهض بالشرق إلا - مستبد عادل<sup>(٤)</sup>

(١) الوقائع المصرية ٢٧ نوفمبر ١٨٨٠ مقال بعنوان (غاية الغر)

(٢) الوقائع المصرية - ٩ نوفمبر ١٨٨١

(٣) محمد رشيد رضا- تاريخ الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده- الجزء الأول - مطبعة المنار - ١٩٣٠ ص ١٨٣ - ١٨٨

(٤) د. عثمان أمين- رائد الفكر المصرى- الإمام محمد عبده- الطبعة الثانية- مكتبة الانجلو- القاهرة ١٩٦٥ ص ٢٢١

وكان الشيخ محمد عبده يرى أن نظام الحكم الذي يصلح لبلد ما قد لا يصلح لبلد آخر وإن معيار الحكم بصلاحيته أى نظام سياسى فى مجتمع معين هو مدى ملاءمته لدرجة تطورهذا المجتمع فى مدارج المدنية، ولكى يؤكد رأيه أجرى مقارنة بين نظام الحكم فى الولايات المتحدة الأمريكية ونظام الحكم فى أفغانستان فقال:

«إننا نستحسن حالة الحكومة الجمهورية فى أمريكا واعتدال أحكامها والحرية التامة فى الانتخابات العمومية فى رؤساء جمهورياتها وأعضاء نوابها ومجالسها وما شاكل ذلك ونعرف مقدار السعادة التي نالها الأهالى فى تلك الحالة ونعلم أن هذه السعادة إنما أتت لهم من كون أفراد الأمة هم الحاكمون فى مصالحهم بأنفسهم لأنهم أرباب الانتخاب وإنما رؤساء الجمهوريات وأعضاء المجالس نواب عنهم فى حفظ تلك المصالح والحقوق التي رأوها لأنفسهم وتتشوق النفوس الحرة أن تكون على مثل هذه الحالة الجميلة»<sup>(١)</sup>.

ثم يقارن هذا الوضع بحال أفغانستان فيقول: «ولكننا لا نستحسن أن تكون تلك الحال بعينها لأفغانستان مثلاً حال كونها على ما تعهده من الخشونة فإنه لو فوض أمر المصالح إلى رأى الأهالى لرأيت كل شخص وحده له مصلحة خاصة لا يرى سواها فلا يمكن الإتفاق على نظام عام ولو طلب منهم أن ينتخبوا مائة نائب مثلاً لرأيت كل شخص ينتخب صاحباً له أو نسيباً أو قريباً وربما ينتخبون آلاف مؤلفة ثم لا ينتهى الانتخاب إلى المرغوب أصلاً لوقوف كل واحد عند انتخابه الأول ولو وكل إليهم انتخاب رئيس للحكومة لانتخبت كل قبيلة رئيساً منها ثم يقع المرح - بين الرؤساء».

ثم ينتهى محمد عبده من هذه المقارنة إلى نتيجة يلخصها فى قوله «وهكذا حال الأمم التي تعودت على أن تكون زمامها بيد ملك أو أمير أو وزير جدير أعمالها. يدير أعما لها بدون أن يكون لها دخل فى رؤية مصالحها فإذا أردنا إبلاغ الأفغان مثلاً إلى درجة أمريكا فلا بد من قرون تبث فيها العلوم وتهذب العقول وتذلل الشهوات الخصوصية وتوسع الأفكار الكلية حتى ينشأ فى البلاد ما يسمى بالرأى العمومى فعند ذلك يحسن لها ما يحسن لأمريكا».

ومن خلال هذه المقارنات ندرك أن أفكار الشيخ محمد عبده السياسية قد تميزت بالإعتدال والدعوة للتدرج والإصلاح بدلاً عن الثورة أو الطفرة.. وكانت وسيلته المفضلة للتطور والتقدم هي التربية والتعليم وخلق رأى عام واحد عن طريق نشر ما كان يسميه بالأدب السياسى.

وبعد مظاهرة الجيش فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ أصابت أفكار الشيخ محمد عبده تغييرات جوهرية وانتقل فجأة من تأييد الحكومة المستبدة إلى مناصرة الحكومة المقيدة فهو يكتب مقالا يتصدى فيه للرد على بعض الكتاب الذين يدعون للإستبداد ويرد على اتهامهم لأنصار الشورى بأنهم مجرد مقلدين لأوربا ويفند قول بعضهم أن الشريعة الإسلامية تؤيد استبداد الحاكم.. ويسجل فى بداية مقاله أنه سوف يعتمد فى رده عليهم بأقوال الأئمة الأعلام من علماء المسلمين.. فبدأ بتعريف الإستبداد فقال «إن الإستبداد يقام على معنيين أحدهما تصرف الواحد

(١) الوقائع المصرية - ٤ أبريل ١٨٨١ مقال (خطأ العقلاء)

فى الكل على وجه الإطلاق فى الإرادة إن شاء وافق الشرع والقانون وإن شاء خالفهما فىكون إتباع النظام مفوض يرد إليه وحده إن أراد قام به وإن لم يرد لا يؤاخذ عليه وهو الإستبداد المطلق.. وثانيهما استقلال الحاكم فى تنفيذ القانون المرسوم والشرع المسنون بعد التحقق من موافقتها على قدر الإمكان وهذا بالحقيقة لا يسمى إستبداداً إلا على ضرب من التساهل وإنما يسمى فى عرف السياسيين توحيد السلطة المنفذة»<sup>(١)</sup>.

ويرى محمد عبده أن من تتبع الشريعة الغراء سوف يكتشف «أن الإستبداد المطلق ممنوع منابذ لحكمة الله فى تشريع الشرائع ومعانيد كل المعاندة لتصريح الآيات الشريفة والأحاديث الصحيحة الأمرة بإتباع الكتاب العزيز والأخذ بالسنة الراشدة».

أما النوع الثانى الذى يطلق عليه محمد عبده إستبداداً (على ضرب من التساهل) أو ما يسميه (توحيد السلطة المنفذة) فهو (غير ممنوع فى الشرع ولا فى العقل بل هما على وجوبه.. ثم إن هذا لا يسمى فى العرف إستبداداً لأن صاحبه يكون مقيداً بالمرسوم محصوراً فى دائرة المشروع بحيث لا يجوز له الخروج عنها ولا تجاوز حدها).

فالشىخ محمد عبده ينتقل إذن من الإيمان بالحكومة المستبدة الرحيمة إلى الحكومة المقيدة بقيود الشريعة أو بالقانون فالشريعة فى رأى محمد عبده «توجب تقييد الحاكم بالسنة القانون» ولكن محمد عبده يتعد خطوة أخرى عن مفهومه القديم للحكومة الإستبدادية ويقترب أكثر من الحكومة المقيدة.. عندما يقول بأن الشريعة لا تقييد الحاكم فى حد ذاتها وإنما عن طريق من يسهرون على تطبيقها من علماء «إن نصوص الشريعة لا تقييد الحاكم بنفسها فإنها ليست إلا عبارة عن معانى أحكام مرسومة فى أذهان أرباب الشريعة وعلمائها أو مدلولاً عليها بنقوش مرفوعة فى الكتب ولا يكفي فى تقييد الحاكم بها مجرد علمه بأصولها.. بل لا بد فى ذلك من وجود أناس يتحققون بمعانيها ويظهرون بمظاهرها فيقومونه عند انحرافه عنها ويحضونه على ملازمته ويحثونه فى السير على طريقها.. فلم يجعل الله الشريعة فى يدى شخص واحد يتصرف فيها كما يشاء بل فرض على العامة أن تستخلص منها قوماً عارفين لجلب كل ما يؤيد جانب الحق وتبعيد كل ما من شأنه أن يحدث خللاً فى نظامه أو انحرافاً عن أوضاعه العادلة والملوك والسلطين داخلون تحت من يجب على تلك الطائفة ارشادهم».

وهنا نلمح فى كلام محمد عبده محاولته الإشارة إلى ضرورة وجود هيئة أو مجلس يتولى الرقابة على الحاكم للتأكد من مدى التزامهم بتطبيق الشريعة.. ولم يبين محمد عبده طبيعة هذه الهيئة أو ذلك المجلس ولكننا نستطيع أن نستخلص أنه يريد بها مجالس النواب فهو يقرر أنه «فرض على العامة أن تستخلص منها قوماً عارفين» أى تنتخب منها نواباً يمثلونها.. وهو لكى يؤكد عدم تعارض مثل هذه الهيئات أو المجالس النيابية مع الإسلام نراه يقول «ومعلوم أن الشرع لم يجئ ببيان كيفية مخصصة لمناصحة الحكام ولا طريقة معروفة للشورى عليهم كما لم يمنع كيفية من كيفياتها الموجبة لبلوغ المراد منها. فالشورى واجب شرعى وكيفية إجرائها غير محصورة

(١) الوقائع المصرية- ١٢ ديسمبر ١٨٨١ مقال (فى الشورى والاستبداد)

فى طريق معين فاختيار الطريق المعين باق على الأصل من الإباحة والجواز كما هو القاعدة فى كل ما لم يرد نص ينفيه أو يثبتة».

ولكى تضع يدنا على مدى التغير الذى طرأ على أفكار الشيخ محمد عبده لتذكر مقالته (خطأ العقلاء) الذى قارن فيها بين الأفغان والأمريكان وانتهى فيها إلى أن بلاداً مثل الأفغان ومنها مصر تحتاج إلى وقت طويل لتستوجب حكم الشورى وقيام مجالس النواب.. ثم نقارن هذا بما كتبه بعد ذلك عن الشورى بحيث يتراجع عن أفكاره الأولى ويقول: «إنه قد ثبت أنه لا مانع لوجود الشورى فى بلادنا من جهة أهاليها بل إن حالتهم الآن تقضى بلزوم وجودها حيث أنهم صاروا جميعاً على ما قدمناه من الانتقال من حال إلى حال، هذا من جهة الأهالى المصريين، أما من جهة الهيئة الحاكمة فكذلك لا مانع للشورى ولا محذور فى وجودها وذلك لأن الجناح الخديو المعظم مبال بطبعه إليها من بدء نشأته الكريمة وقد شب أيده الله على حبها وتعزيز شأنها وارتفاع منارها وكذلك لا يرتاب أحد فى أن هيئة حكومتنا الحاضرة خصوصاً دولة شريف باشا رئيس النظار لها ميل كلى إلى وجود الشورى فى هذه البلاد كذلك بقية الوزراء الكرام»<sup>(١)</sup>.. فأين هذا من دفاعه الحار عن استبداد حكومة رياض باشا.. واعترافه الصريح فى تعليقه على صدور الحكم على حسن موسى العقاد بأن حكومة توفيق استبدادية وليس هذا عما يعيبها فى شئ.. بل إن محمد عبده يصل إلى القول بأن مصر لا تقل فى صلاحيتها لحكم الشورى من أى بلد دخلته الشورى بالفعل فيقول «وإن بلادنا المصرية بلا ريب لا فرق بينها وبين بلاد أخرى تحققت فيها الشورى ونالت منافعها وعادت عليها فوائدها من حيث القبول للمصلحة والاستعداد للخير والقدرة على التفرقة بين الملاءمات والمنافرات ومن كل هذا أن الشورى ممكنة الوجود فى بلادنا بل لا بد منها فيها وأنها نافعة فى أقطارنا المصرية كغيرها من سائر الممالك والبلدان.

ولقد استمر تطور الشيخ محمد عبده الفكرى حتى وصل إلى الدرجة التى وصل فيها إلى الدعوة لما أسماه.. الحكومة القانونية.. وهى تلك الحكومة التى يكون فيها نواب عن الأمة يساعدون الحكومة فى إجراءاتها وتنظيم شئون المحكومين بها على وجه عادل حسبما يوافق المصلحة وعادات البلاد.. وأن تكون بها قوانين ونظامات تكون الحد الفاصل بين الحق والباطل والصحيح والفساد فإن ترك الأمة بدون هذا القانون ما يوقع أفرادها فى الحيرة ويأخذ على أيديها فى كل عمل أرادت الإقدام عليه»<sup>(٢)</sup>

وهناك أكثر من تحليل لهذا التغير الذى أصاب أفكار الشيخ محمد عبده.. منها سقوط نموذج المستبد العادل الممثل فى حكومة رياض باشا ومجئ وزارة شريف باشا نصير الدستور.. ومنها تسليم الخديو توفيق بإعطاء الأمة مجلس نيابى ومنها أيضاً وكما يقول محمد عبده نفسه «أن

(١) الوقائع المصرية - ١٣ ديسمبر ١٨٨١ مقال (فى الشورى)

(٢) الوقائع المصرية - ١٥ فبراير ١٨٨٢

السبعة أشهر التي كانت بين مسألة قصر النيل ومظاهرة سبتمبر كانت مفعمة بالنشاط السياسي الذي شمل جميع الطبقات فقد صار عرابي محبوباً عند الأمة واتصل بالحزب الوطني وعرف سلطان باشا وسليمان أباظة وحسن الشريعي وعرفني أنا أيضاً..» كذلك فإن المظهر الذي ظهرت به جماهير الشعب المصري في تأييد الثورة العربية، وما أكدته من إيمانها بالحكومة النيابية والدستور قد أثار إعجاب الشيخ محمد عبده وغير فكرته في الشعب المصري الذي كان يظن أنه شعب جاهل لا تلائمه الحكومة الشورية.. ولكن هناك جانب آخر من الشيخ محمد عبده يفسر تغير آرائه بعد نجاح العراقيين وهي ظاهرة تتسم بها تصرفات محمد عبده طوال حياته.. فهو دائماً يقف حيث توجد السلطة.. أو حيث يرى ما يحقق مصالحه.. فهو مع الأفغان في مصر عندما كان الأفغان يلقى ترحيب النظام الحاكم.. وعن طريقه تعرف محمد عبده بأعيان مصر وحكامها ومثقفها.. وبعد نفى الأفغان بأشهر قليلة تحول محمد عبده إلى رياض باشا نفس الرجل الذي نفى الأفغان من مصر.. وظل محمد عبده علي ولائه لرياض باشا بعد حادثة قصر النيل واستمر على هذا الولاء وكان في ذلك الوقت شديد العداء للعراقيين حتى مظاهرة سبتمبر ١٨٨١ وسقوط وزارة رياض (١).. وبعدها بدأ يتحول محمد عبده إلى صف العراقيين بعد أن صارت السلطة الفعلية في مصر بأيديهم وبعد سقوط الثورة ومجيء الاحتلال وبعد ما عاد من نفيه.. تحول إلى تأييد اللورد كرومر المعتمد البريطاني بمصر.. والحاكم الفعلي للبلاد..

إن قيمة الثورة العربية في رأى عبدالله النديم أنها «قلعت غرس الإستبداد» (٢) ولقد قامت هذه الثورة لأن الأحرار من بنى مصر رأوا أهلهم «في إذلال واستعباد ولا يتمتع في البلاد إلا الغرباء فحركتهم الغيرة الوطنية والحمية العربية إلى حفظ البلاد وتحريرها والمطالبة بحقوق الأمة».

ولقد كان رأى النديم في رياض باشا أنه «المستبد علينا السارى بنا في غير طريق الوطنية».

ونظام الحكم الذي يميل إليه النديم ويعتقد أنه يحقق مصالح الشعب هو ذلك الحكم الذي يتمتع (بمجلس الشورى لتنظر الأمة في شئونها وتعرف حقوقها كباقي الأمم المتمدنية في العالم).

ومن أعمق الدراسات التي تعرضت لقضية الفرق بين الحكومة المطلقة والحكومة المقيدة سلسلة المقالات التي كتبها سعيد أفندى البستاني تحت عنوان الحاكم والمحكوم في صحيفة مصر التي عاد أديب اسحق لإصدارها من جديد أثناء الثورة العربية.. فسعيد البستاني يرى «أن الإنسان من دون سائر الكائنات لا بد له من هيئة حاكمة تقيم له الحدود فلا يتعداها وتفرض عليه الواجبات

(١) عباس محمود العقاد - محمد عبده - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة القاهرة ص ١٤٦ - ١٤٧

وطاهر الطناحي - مذكرات محمد عبده - دار الهلال - القاهرة ص ١٣ - ١٤

(٢) التنكيث والتبكيث - ١٩ أكتوبر ١٨٨١

فلا ينسأها وتعين له الحقوق فيحرص عليها وذلك استبقاء لنوعه واستكمالاً لأسباب معيشتة» (١).

ولكن هذا لن يتم إلا بوجود «نسبة بين الحاكم والمحكوم تختلف باختلاف الزمان والمكان والطباع والعادات والأخلاق والأديان».

وعلى ضوء هذه النسبة يرى البستاني أن الحكومات نوعان «الإستبدادية والشورية».. وتحتهما صنوف كثيرة أما أن تختلف عنها من وجه إجراء الزحكام وأما أن يكون الأمر بعكس ذلك».

وبما أنه لا بد من وجود نسبة بين الحاكم والمحكوم فلا بد - في رأى سعيد البستاني - بأنه يوجد نوع من التلاؤم بين نوع الحكومة القائمة وبين طبيعة هذا المجتمع وظروفه..

«فالحكومة الإستبدادية لا يناسبها من الأمم إلا الأمة التي ضعف فيها جانب القوة المعنوية - أريد العلم والتربية - إلى حد أنها لا تقوم بالواجب عليها إلا بالإكراه والتهديد ولا تلزم الحدود إلا بالعقاب والوعيد ولا تحرص على اليسير من حقوقها إلا حرص القانع بما لديه من أسباب المعاش لا الطامح فيما وراء ذلك من بسطة العيش ونوال المراتب السامية في مقام الوجود المعنوي .. بل لا يناسبها من الأمم إلا الأمة التي استحكمت منها صفة الإنقياد الأعمى وتسلمت فيها التقاليد».

أما الحكومة الشورية فهي لا تصلح في رأى سعيد البستاني إلا في الأمم التي قوى فيها جانب القوة المعنوية أى العلم والتربية.

ويرى موسى كاستلى أن كلمة استبداد معناها «انقياد النفس الشريرة إلى سلطان الغي والإثمار بأوامر الشهوات البهيمية والموصوف بهذه الصفة الذميمة لا يألو جهداً في الحصول على مآربه الذاتية» (٢).

أما الحكومة الشورية فهي في رأى كاستلى تعنى «سيادة سلطة التكاليف الشرعية والإجراءات المرعية فذو الحرية إنسان واع بصائب التبصير حرمت الحقوق المدنية غير مبال بالطبع إلى شيطان الجهالة يعامل بالحسنى كل من خالطه من أبناء النوع».

وكان حسن حسني محرر جريدة الزمان هو الكاتب المصرى الوحيد الذي وقف يعارض الاتجاه العام الذى ساد الصحافة المصرية في فترة الثورة العربية عندما كتب يدافع عن الحكومة المطلقة ويدعى أنها من ضمن شروط الإسلام فهو يرى أن «الحاكم هو القابض على قوة تنفيذ القانون: القائم بشئون المصالح العمومية والخصوصية وهو فرد من أفراد الهيئة الاجتماعية التي خولته من تلقاء نفسها سلطة عامة عليها أو بحق ثابت مشروع وله حقوق الطاعة والإنقياد» (٣).

ثم يقسم أنواع الحكومات إلى ثلاثة . حسب طبيعة كل أمة مدعيًا أن الحكومة المطلقة من

(١) مصر - ٣ ديسمبر ١٨٨١ مقال بعنوان (الحاكم والمحكوم)

(٢) الكوكب المصرى - ١٨ نوفمبر ١٨٨١ مقال بعنوان (الاستبداد)

(٣) الزمان - ٦ مارس ١٨٨١ مقال بعنوان (الحاكم وروح الحكومة).

طبيعة الإسلام فيقول : «إن الناس اختلفوا منذ القرون الأولى فى تسليم أمر الأمة إلى حاكم واحد وغيره فانقسمت هيئة الحكومات إلى ثلاثة.. مطلقة ومشروطة وجمهورية واختصت الأولى بالأمة الإسلامية وإن شاركها فيها غيرها.. وتلك بحسب ما تقرر من شروطها أوفق بالمصالح بل شرط من شروط الإسلام الذى نحن به مسلمون».

ويمكن فهم موقف حسن حسنى وموقف صحيفة الزمان إذا عرفنا أن هذه الجريدة أنشئت فى الأصل للدفاع عن الخديو توفيق ونظام حكمه المطلق وللوقوف فى مواجهة الصحف الوطنية التى كانت تؤيد العربيين وتطالب بالحكومة المقيدة وبال دستور وبمجلس النواب.

والخلاصة أن موقف الصحافة المصرية فى هذه الفترة من قضية الحكم المطلق والحكم المقيد تنازعت ثلاثة اتجاهات رئيسية:-

**الاتجاه الأول:** وهو الاتجاه السائد الذى يؤيد الحكومة المقيدة ويعارض الحكومة المطلقة.. وقد عبر عن هذا الاتجاه كل من رفاعة الطهطاوى وأديب اسحق وميخائيل عبدالسيد (فى الفترة التى سبقت الثورة العراقية) وسليم النقاش وسليم عنحورى ويعقوب صنوع وأمين شميل وبشارة تقلا وسليم تقلا وعبدالله النديم وسعيد البستانى وموسى كاستلى والشيخ محمد عبده (بعد نجاح الثورة العراقية).

**الاتجاه الثانى:** وهو الذى يدعو إلى حكم المستبد العادل وقد تولى أمر هذه الدعوة جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده (قبل الثورة العراقية).

**الاتجاه الثالث:** وهو الذى يؤيد الحكم المطلق.. وقد عبر عنه حسن حسنى وميخائيل عبدالسيد (أثناء الثورة العراقية).







## الفصل الخامس

الصحافة المصرية  
والحياة النيابية



لقد تأسس مجلس شورى النواب المصرى فى نوفمبر سنة ١٨٦٦ كنتيجة مباشرة للتناقض بين مصالح الخديوية والرأسمالية الأوروبية، وكان دافع اسماعيل إليه هو رغبته فى الالتجاء إلى البورجوازية المصرية ممثلة فى كبار ملاك الأراضى الزراعية والتجار، لكى يدعمونه فى مواجهته للأزمة المالية.

ولقد كان فى إمكان الخديو أن يشكل المجلس بالتعيين، فقد كان كغيره من الحكام الشرقيين يومئذ يعتبر مصر كما اعتبرها جده من قبل مزرعة له مركز الشعب فيها مركز العبد أو الخادم.<sup>(١)</sup>

ولكن إسماعيل رأى أن يجعل المجلس بالانتخاب لسببين:-

الأول: كسب طبقة الملاك الزراعيين وكبار التجار إلى جانبه.

الثانى: لكى يحقق لنفسه دعاية واسعة فى أوروبا، تدعم موقفه من البيوت المالية هناك .. ولذلك نجد اللائحة الأساسية التى رسمت طريقة تشكيل المجلس، تقصر حق الترشيح لسينابة على طبقة أصحاب الأرض من العمد الأثرياء وقد جاءت نتيجة الانتخابات لتحقيق ما سبق وأن رسمه الخديو، فكان أغلب النواب من طبقة العمد والمشايخ وأعيان الريف وكبار رجالات المدن والتجار.

وكما ارتبطت نشأة المجلس بنشأة المسألة المالية.. فقد ارتبط تطور المجلس أيضاً بتطور هذه المسألة، فعندما طالب المجلس فى دورة يناير ١٨٧٩ بأن تعرض عليه الميزانية استصدرت الحكومة التى كان يرأسها توفيق فى ذلك الوقت وتضم وزيرين أجنيين مرسوما بحل المجلس، وذهب رياض باشا وزير الداخلية فى ذلك الوقت لإبلاغ المجلس بقرار الحل.. ورفض الأعضاء قرار الانقضاء، واجتمع الأعيان والعلماء والتجار والموظفون، وأصدروا فى ٢ أبريل ١٨٧٩ المحضر الوطنى يطلبون فيه من إسماعيل منح مجلس شورى النواب الحرية التامة وجميع الحقوق فى كافة الأمور المالية والداخلية، كما هو جار فى بلاد أوروبا وتعديل طريقة الانتخاب، لتماثل ما يحدث فى أوروبا، وإقرار مبدأ مسئولية الوزراء أمام المجلس.<sup>(٢)</sup>

وأوعز الخديو إسماعيل إلى ابنه توفيق بالاستقالة وتشكلت وزارة شريف باشا من العناصر الموالية للدستور فى ٧ أبريل سنة ١٨٧٩، ولقد سعت وزارة شريف إلى إصدار لائحة المجلس الأساسية، تمكينا له من إصدار هاتين اللائحتين.. وبذلك اعترفت الحكومة بمبدأ سيادة الأمة.. وهكذا بدأت ثورة الأفكار فى مصر- والتطلع إلى الحرية والنظم الدستورية وتأصلت فى نفوس الطبقة المثقفة من الأمة.<sup>(٣)</sup> لذلك كانت الفترة الأخيرة من حكم الخديو إسماعيل من فترات

(١) د. محمد حسين هيكل - شخصيات مصرية وغربية - كتاب روز اليوسف - القاهرة - ١٩٥٥ ص ٣١

(٢) محمد خليل صبحى - تاريخ الحياة النيابية فى مصر - الجزء الخامس - مطبعة دار الكتب - القاهرة ١٩٣٩ - ص ٩٩ - ١٠٦

(٣) عبد الرحمن الرافعى - الثورة العربية والاحتلال الإنجليزى - مكتبة النهضة - القاهرة ١٩٤٩ - ص ١٩

الانتقال من الحكم الاستبدادى المطلق إلى الحكومات الشرعية التى تحمل فى طياتها خطراً شديداً. فأذهان الناس لم تستقر بعد، لكثرة ما يدور من مناقشات حول ضرورة التغيير الحقيقى، وإن حالة الرضا والطاعة التى ورثها المصريون عن أجدادهم سوف تتخلخل ونهتز.

وكان طبعياً أن يقف النفوذ الأجنبى ضد التطور الدستورى فى مصر، فما كاد مجلس شورى النواب يقر اللائحة الأساسية ولائحة الانتخاب، ويرفعها إلى الخديو توفيق ليصدق عليها، حتى ضغطت أوربا على الباب العالى، فخلع إسماعيل وولى محله ابنه توفيق فى ٢٥ يونيو ١٨٧٩، وعندما رفع شريف باشا اللائحتين إلى الخديو توفيق للتصديق عليهما.. امتنع عن التصديق عليهما بتحريض من إنجلترا وفرنسا اللتان عاونته على الإطاحة بكل المكاسب الدستورية التى تحققت للشعب المصرى.. وحمد توفيق لهما تدخلهما.. فأصبح خاضعاً لهما تمام الخضوع، وكان بطبيعته ضعيفاً، تعوزه قوة الإرادة.. فما كان من شريف إلا أن قدم استقالته من الوزارة.

ثم أعقب ذلك نفى جمال الدين الأفغانى وتولى توفيق رئاسة الوزارة بنفسه لاغياً مجلس النظار، وأعاد الرقابة الشائنة فى ٦ ديسمبر ١٨٧٩، ثم ترك رئاسة الوزارة لرياض باشا فى ٢١ ديسمبر ١٨٧٩، الذى قرر إلغاء قانون المقابلة، ثم حاول خنق كل روح للمعارضة فامتدت يده إلى الصحف بالإغلاق والتفكيك.

ثم كانت الثورة العرابية التى بدأت بمظاهرة قصر النيل، وظهور عرابى الذى نصب نفسه مدافعاً عن مطالب الجيش، وتم له بسرعة ضم معظم القوة العسكرية فى مصر تحت يده (١)، وبعد مظاهرة عابدين فى ٩ سبتمبر ١٨٨١، حدث ما يشبه الانقلاب السياسى فى مصر إذ عهد إلى شريف باشا بتأليف وزارة دستورية، ودعى مجلس شورى النواب للانعقاد فى ٢٦ ديسمبر ١٨٨١، وكان قد تم انتخاب هذا المجلس بنفس الطريقة القديمة، لذلك جاء إليه نفس أبناء الطبقة التى اعتادت ممارسة النشاط النيابى من قبل، وهم كبار الملاك والأعيان فى الريف، وأثرياء التجار فى المدن.

وعندما كان النظام الجديد يستعد لإعلان اللائحة الأساسية التى تضمنت الأسس الدستورية للحياة النيابية الجديدة فى مصر.. قدم قنصلا إنجلترا وفرنسا فى ٨ يناير ١٨٨٢ مذكرة مشتركة إلى الخديو، يعلنان وقوفهما بجانبه، وتأييد سلطته المطلقة.. وكان هذا يعنى تحريض الخديو ضد الحياة النيابية الجديدة، وفى نفس الوقت نشب خلاف بين الحكومة ومجلس شورى النواب حول حق المجلس فى مناقشة الميزانية.. وكان هذا الخلاف بالإضافة إلى المذكرة المشتركة سبباً فى استقالة وزارة شريف، وتولية محمود سامى البارودى.. وكان من أبرز ما عنت به الوزارة الجديدة هو إعلان الدستور الذى تقر فيه مبدأ سيادة الأمة وحق المجلس فى نظر الميزانية.

وكان عمر هذا الدستور قصيراً؛ إذ ما لبثت الحرب أن نشبت بين العرابيين وإنجلترا، وضاعت جميع المكاسب الدستورية باحتلال بريطانيا لمصر.

(١) أحمد شفيق باشا- مذكراتى فى نصف قرن- الجزء الأول- مطبعة مصر ١٩٣٤ - ص ١١٣ - ١١٥

ولقد اتخذ اهتمام الصحافة المصرية بالحياة النيابية شكلين رئيسيين:

**الأول:** الاكتفاء بنشر أخبار مجلس شوري النواب ومناقشاته، وجانب من محاضر جلساته الرسمية.. وكان يتولى هذه المهمة صحيفة الوقائع المصرية، وهي الجريدة الرسمية للحكومة المصرية في ذلك الوقت، وصحيفة وادي النيل، التي أوصى الخديو إسماعيل إلى عبدالله أفندي أبو السعود بإصدارها، لكي تهتم بنشر أخبار مجلس شوري النواب.<sup>(١)</sup>

**الثاني:** لم تكتف فيه الصحف بنشر أخبار المجلس وقراراته.. وإنما امتد عملها إلى التعليق على نشاط المجلس ومناقشة قراراته، ثم الانطلاق من ذلك إلى التعرض لجوانب الحياة النيابية، وإثارة القضايا التي تتعلق بها.

وقد استتبع ذلك دخول الصحف في العديد من المعارك الفكرية ضد السلطة الاستبدادية الممثلة في الخديوية، ووقوف الصحف ضد المحاولات المتكررة، لتجديد نشاط مجلس شوري النواب في أضيق المجالات، كما كان يحدث أثناء حكم الخديو إسماعيل، أو محاولات إلغائه كلية كما حاول ذلك الخديو توفيق في بداية حكمه.

وكان السؤال الأول الذي شغل أذهان الكتاب والمفكرين المصريين الذين تعرضوا للكتابة عن الحياة النيابية هو: لماذا مجلس النواب؟

وأهمية السؤال ترجع إلى أنه طرح في وقت كان فيه الحكم المطلق للخديوية مازال قائماً وفي عنقوانه، وكانت الممارسة الديمقراطية الفعلية للشعب المصري شبه معدومة لأن مجلس شوري النواب كان وقتها صورة أكثر منه واقعا فعليا في الحياة المصرية.

ولعل هذا يجعلنا ننظر باهتمام شديد إلى الدعوى التي نادى بها أديب اسحق لتحقيق المشاركة الشعبية في الحكم عن طريق نوابه، وهو في أثناء ذلك يجيب على السؤال المطروح: لماذا مجلس النواب؟

يقول أديب اسحق: «كما كان الانفراد في الرأي موجبا للزيع في أكثر الأحوال، والعجز عن النهوض بكثير من الأمور اتخذ المروؤوس في الهيئة الاجتماعية أعواناً ومشيرين يخلصون له النصحه ويقسمون أود آرائه، غير قاعدين بذلك إلا تمكين السطوة وتعظيم أمر الاستبداد، فلما تنبّهت الأمم من رقدها، وعلمت أن علة الارتباط في الاجتماع إنما هي تبادل الحقوق والواجبات بين الرئيس والمروؤوس لمن دلت الرئاسة أن يجعل في مجلسه من تختارهم للنياية عنها، فكانت الحكومة الشورية، وأنشئت مجالس الوكلاء أو النواب والمبعوثين المعروفة الآن عند الأوروبيين باسم بارلمنتو».<sup>(٢)</sup>

(١) فيليب دي طرزي - تاريخ الصحافة العربية - الجزء الأول - بيروت ١٩١٣ ص ٦٩

(٢) مصر - ٢٣ نوفمبر ١٨٧٨ مقال (مجلس النواب)

ويرى أديب اسحق أنه لما كانت قوة الأمير «قائمة بالأحكام، وهذه منحصرة في القوانين التي هي عبارة عن إدارة الأمة، لزم من ذلك أن لا يكون للأمير حكم إلا بموافقة الأمة بجمليتها»<sup>(١)</sup>

والشكل الذي يرى أديب أنه الملائم لمشاركة الأمة في الحكم هو «أن تجتمع مرة في العام أو الخمسة، لتختار من نهائها أيهم أشد حرصاً على مصلحتها ورغبة في منفعتها - فكان النواب وعقدت مجالسهم فصارت من لوازم الحكومات المقيدة القانونية».

كذلك فإن أديب اسحق يرى أن انتقال مصر من الاستبداد إلى الشورى «قد أوجب وجود هذا المجلس فينا.. فإن كان حرياً بما أنيط به، له حقوقه وإن لم يكن جديراً بذلك فلينفذ ليشكل غيره فإنه لا بد للحكومة الشورى من مجلس نواب».

ولقد انفرد أديب اسحق من بين كتاب الصحف بالمطالبة بتشكيل مجلس للشيخوخ؛ ليكون بمثابة الصلة بين مجلس شوري النواب والحكومة.. وهو يعتقد أن مجلس الشيخوخ ركن أساسي في أى حكم نيابي يقول «مجلس الشيخوخ المسمى بلسان الأجانب (ستاتو) من لوازم كمال الشورى لسبيين: إحداهما أن الاختيار الذي هو منشأ العلم والمعرفة يكون على الغالب في نهاء الشيخوخ وأوفر منه في نهاء الفتان.. والآخر أن الشيخوخة تضعف الحدة وتذهب بالطيش وتدعو إلى التأنى والتبسر والنصر في العواقب»<sup>(٢)</sup>

وأديب يعتبر أن مجلس الشيخوخ هو «واسطة الصلة بين النواب والحكومة، أو بمنزلة المراقب عليهما جميعاً.. يرفع إليه مجلس النواب ما يقرره من القوانين والأحكام، فيثبت منها ما يشاء وينبذ ما يشاء، فإن وقع خلاف اجتماعاً في ندوة واحدة، وكان الحكم لمن تجتمع له أكثرية الآراء».

وكرر أديب اسحق دعوته لإنشاء مجلس للشيخوخ، ولكنه قرنه هذه المرة بضرورة وجود المسؤولية الوزارية، ولكن ليس بمعنى أن تكون الوزارة مسئولة أمام الخديو كما كان من قبل، وإنما أن تكون مسئولة أمام مجلس النواب والشيخوخ، فقد بعث أديب برسالة مفتوحة على صفحات صحيفة مصر إلى الخديو، وقعها باسم رمزي هو (مصر الفتاة) وقال في الرسالة:

«لو تشرفت مشورتى بالقبول: لرفعت صوتى الضعيف إلى المسامع الخديوية وقلت: مولاي.. قد ورد في أمركم السامى إلى دولتو رئيس النظر، ما يشعر برغبة جلالكم في أن يكون الوزراء مسئولين.. ولنعمت الرغبة، ولكن ما هي هذه المسئولية، ومن هو السائل، وما هي القوانين المبينة لوظائف الوزارة، والمظهرة لعلاقتهم المعينة لتكاليفهم، المحددة لواجباتهم، المعرفة لحقوقهم؟ .. وعند أى حد تقف سطوتهم؟ وفي أى الأحوال يكونون مذبذبين، فإنه حيث لا توجد تلك القوانين فلا وجود للواجبات ولا الحقوق، وبالإضافة لا وجود للمسئولية، فلا بد والحالة هذه .. أن يكون مجلس الشيخوخ والنواب هو السائل، وأن تضع حكومتنا قانوناً لهذه المسائل، فليفضل بالأول وليتكريم بالثاني، حقق الله فيه آمال أمته وأفاض عليه سوايغ بره ونوايغ نعمته»<sup>(٣)</sup>

(١) مصر - ١٤ فبراير ١٨٧٩ مقال (الوزراء والنواب).

(٢) مصر - ١٤ أغسطس ١٨٧٩ مقال (الشورى ومجلس الشيخوخ)

(٣) التجارة - ٢٤ يوليو ١٧٨٤ - رسالة إلى الخديو بعنوان (خواطر)

ويرفض أديب اسحق فكرة وكالة النواب عن الأمة، فهو يرى «أن اسم الوكلاء أو النواب غير مصادف محله، فإن ما يكلفون به منوط بالإرادة العمومية، والإرادة لا تقبل الوكالة فهي هي أو هي غيرها، وليس بين الطرفين وسط، فهم والحالة هذه رسل الأمة، فأحسن ما يطلق عليهم من الأسماء ما دعتهم به الدولة العثمانية أي جماعة المبعوثين.. وقد علم أن وكالة هؤلاء الرسل عن الأمة حديثة عهد لم تكن قبل إنتقال حكومة الإنجليز من الاستبداد إلى الشورى، ولم تعرف فى جمهوريات اليونان والرومان بل كان منتخبو الأمة فيهما بمنزلة المأمورين، يراقبون أعمال الحكومة ليسطروها فى المحافل العمومية، ملتصين بذلك رأى قومهم فيما ينبغى لهم لإجراؤه علماً بأن الوكالة عنهم فى الأمور القضائية لا تصح لصدور قضايها عن مطلق الإرادة العمومية، وإنما تصح النيابة عنهم فى القوة الإجرائية لتعلقها بإنفاذ ما وضعوا من القوانين» (١).

وهنا نلاحظ تأثر أديب إسحق الواضح بأفكار جان جاك روسو عن الإرادة العامة وفكرته فى التمثيل النيابى، وهما فكرتان منبثقتان عن نظرية فى العقد الاجتماعى - فجوهر نظرية روسو يتركز على فكرة أن الإنسان قبل وجوده فى دولة كان يعيش فى حالة فطرية، الجميع فيها متساوون، وتخضع تصرفاتهم للمشاعر الفطرية، وليس للعقل، وتحركها المصالح الذاتية، وعندما ظهر المجتمع السياسى كان نتيجة عقد تنازل بموجبه كل فرد عن حقوقه الطبيعية للمجتمع بأسره باعتباره كيانا واحداً، وهذا التنازل أوجد شخصية سياسية مستقلة تنفصل عن إرادة الأفراد المكونين لها. وهذه الشخصية السياسية هى الدولة عن المجتمعات الأخرى.. ولكل فرد نصيب من هذه السيادة يساوى نصيب الآخر.. وهكذا الجزء الذى يخصه من السيادة لا يمكن انتزاعه ولا يمكن التنازل عنه.. وبموجب هذا الحق يكتسب الفرد جميع الحقوق التى كان قد تنازل عنها للمجموع، وتتولى الدولة حماية هذه الحقوق (٢). والأفراد حينما اتفقوا على التنازل للمجموع عن حقوقهم فى السيادة، كان معنى ذلك أن تشترك إرادة الفرد مع إرادة الأفراد الآخرين لتكوين ما يسمى بالإرادة العامة.

ولأن الإرادة العامة عند روسو هى نفسها السيادة.. فهو يعتبر بالتالى أن كل عمل من أعمال السيادة، إنما هو عمل من أعمال الإرادة العامة؛ فمثل هذا العمل ليس قانوناً يفرضه الأعلى على الأدنى، وإنما هو قانون من المجموع للمجموع..

ولذلك فهو عمل عادل؛ لأنه يعتمد على التعاقد الاجتماعى وقائم على المساواة لأنه يطبق على الكل، ومفيد للجميع وهدفه تحقيق الخير العام. (٣)

وروسو يؤكد بذلك أن العقد الاجتماعى هو حق مقدس، وقاعدة لكل الحقوق الأخرى.. ولكن المشكلة كانت فى رأيه فى كيفية إيجاد القواعد التى تحمى وتدافع عن الإرادة العامة للأفراد بحيث يظل حراً، حتى وهو يتحد مع الأفراد الآخرين. (٤)

(١) مصر - ٢٣ نوفمبر ١٨٧٨ مقال (مجلس النواب)

(٢) د. بطرس بطرس غالى ود. محمود خيرى عيسى - المدخل فى علم السياسة ص ٢٨٥ - ٢٨٧

(3) W. T. Jones: Masters of Political Thought. Volume Two, pp. 280 - 281

(4) George, H. Sabine: A History of Political Theory.

Library of Congress. U. S. 1961, pp. 587 - 588

وتركيز رؤسّو على الإرادة العامة، هو محاولة منه لتجسيد مفهوم الحرية في المؤسسات السياسية.<sup>(١)</sup>

وهنا تأتي فكرة رؤسّو عن التمثيل النيابي.. إذ لما كانت سيادة الأمة من الحقوق التي لا يمكن التنازل عنها، فإن صاحب هذه لا يستطيع إذن أن ينيب عنه وكلاء أو نواب لأن هؤلاء قد يعتبرون أنفسهم وكلاء عن إرادة الأمة ويحلون إرادتهم محل إرادتها.. وهذا يتناقض مع مبدأ رؤسّو في أن الإرادة العامة لا يمكن التنازل عنها وإن حق السيادة من الحقوق التي لا يمكن التنازل عنه أو التصرف فيه، لذلك ذهب رؤسّو إلى أن نواب الأمة هم مجرد تابعين للشعب أو وسطاء بينه وبين الهيئة العامة التي اصطلاحوا على تكوينها بمقتضى العقد.. وليس لهم من وظيفة إلا العمل وفق مشيئة الناخبين وتنفيذ رغباتهم، وليس لهم الحق في أن يرموا شيئاً بصفة نهائية؛ لأن كل قانون لا يصدق عليه من الشعب يكون باطلاً، ولا يصح تسميته قانوناً.. فروسّو كان يؤيد النظام الديموقراطي المباشر، وهو النظام الذي كان سائداً في المجتمعات الديموقراطية القديمة، وفي سويسرا مسقط رأسه، وهو نظام لا يمكن تحقيقه بصورة عملية صحيحة في البلاد كبيرة العدد<sup>(٢)</sup>

ولم يكن رؤسّو وحده يؤمن بهذه الفكرة، لقد جاء بعده «جيرمي بنتام» (١٧٤٨ - ١٨٣٢) يدعو لنفس الفكرة في المجتسرا.. إذ كان يرى أن البرلمان يجب أن يكون مندوباً عن الشعب لا ممثلاً له.<sup>(٣)</sup>

ولكى يحقق بنتام فكرته اقترح عدة تعديلات مهمة في الدستور الإنجليزي، منها تعميم حق الانتخاب حتى يضمن تمثيل الأغلبية في البرلمان، وحتى يكون لكل مواطن بالغ من الأولاد أن يدلي بصوته بحيث يمثل البرلمان الرأي العام تمثيلاً صحيحاً.. ومنها إعادة الانتخاب سنوياً حتى يكون النواب على اتصال دائم بالشعب وحتى لا يفسدوا إذا طالت مدة نيابتهم.

ولكن ما ذهب إليه أديب اسحق متأثراً فيه برؤسّو وبنتام لم يكن يتفق مع كثير من نظريات التمثيل النيابي، والتي كانت تسود الفكر السياسي في أوروبا في ذلك الوقت والتي من خصائصها أن تفوض الأمة باعتبارها صاحبة السيادة إلى نوابها لوقت محدود حق التصرف بحرية، بحيث لا يكون للناخبين حق عزلهم متى شاءوا، وتعتبر إرادتهم هي إرادة الأمة مجتمعة وليسوا مجرد وسطاء.<sup>(٤)</sup>

فقد كان جون ستيورات مل يرى مثلاً أن الهدف النهائي المرغوب فيه لأي مجتمع هو إدخال الجميع للإشتراك في سيادة الدولة.. ولكن نظراً لأن جميع الناس في مجتمع يتجاوز بلدة صغيرة

(1) Annie Marion Osborn- Rousseau. And Burke- Oxford University Press. London, 1940, p. 157

(٢) د. مصطفى الخشاب- النظريات والمذاهب السياسية- الطبعة الثانية- مطبعة لجنة البيان العربي ١٩٥٨ القاهرة ص ١٧٩

(٣) د. حسين فوزي النجار- الفكر السياسي الحديث ص ٦٠

(٤) د. مصطفى الخشاب- المذاهب والنظريات السياسية ص ١٧٦



واحدة لا يستطيعون المساهمة شخصياً<sup>(١)</sup>، لذلك وجب أن تكون الهيئة النيابية وكيلا عن الشعب<sup>(٢)</sup>

وعندما تعرض أديب إسحق للتطبيق الديمقراطي في الدولة العثمانية في مصر.. كان رأيه أن «مجلس المبعوثين العثمانيين كان أول المجالس النيابية في الأرض الشرقية، ووضع نظامه صاحب القانون الأساسي<sup>(٣)</sup>، فأفرط في مراعاة أحوال الدولة حتى جعله معدوماً بصورة موجودة، فلم يثبت إلا كما تثبت الريشة في مهب الريح<sup>(٤)</sup>»

أما مجلس شورى النواب المصري فهو في رأى أديب إسحق «لم يكن مستحقاً للإسم الذى أطلق عليه وما كان الا كالألة يديرها صاحبها كيفما شاء بل كان خطبائه كالفونوغراف ينطقون بما يملئ عليهم».

ولعل هذا كان أصدق تصوير لحال مجلس النواب المصري الذى خلقه الخديو ليملى عليه أوامره، وليستخدمه فى تحقيق أغراضه ورغباته المالية.

ولكن أديب يستطرد مستدركاً فيذكر أن هناك نية صادقة من الخديو لإصلاح شأن مجلس النواب بأن «ينفخ فيه من روح الحرية ما يوليه الحياة» ولكنه يرى أن دون ذلك الهدف صعوبتان: الأولى رهبة النواب، والثانية خلل الانتخاب.. فأما الأول «فمنها ما إذا مالاً النائب النظر على أمر لا يراه ملائماً لمصلحة قومية رهبة منهم أو رغبة فيهم.. كذلك لزم أن تكون العامة مطلقة الحرية فى الانتخاب تختار من مواطنيها أيهم أعظم على المهمات إقداماً وهى ثانية الصعوبتين.. وذلك لما نعهد به بعامتنا من تغير أفكارها بالرهبة وتعودها الإنقياد لمن تتوهم فيه الوجهة أو النباهة.

وحسبنا أن القرية بمنزلة الآلة بيد الشيخ، وشيوخ القرى كالألة بيد العمدة، وعمدة النواحي مستعبدون للمأمورين، وهؤلاء أتباع المديرين وهى سلسلة استبداد لم يتخللها منذ وجدت شئ من الحرية ولا ينتقص فى ساعة ما أبرم فى أعوامه».

ولا ينسى أديب إسحق أن يؤكد أن نفس الصعوبات التى تواجه الديمقراطية فى بلدنا هى نفس الصعوبات التى واجهت البلاد العريقة فى الديمقراطية، عندما بدأت تأخذ بها «أن أهل فرنسا والمجلىترا وغيرهما من الممالك الشورية لم يبلغوا ما هم عليه من الحرية وحصول الحقوق دفعة، بل لا يزال منهم من ينقاد للرئيس والوجه جرياً على حكم العادة السابقة، فما الظن لمن لم تدخل الحرية أرضهم منذ أن أثبتت إنساناً.. لا جرم أنهم لا يدركونها إلا بعد العناء والجهد وأن يكون نوابهم كبعض من تعرف منهم لا يخافون فى الحق أحداً، بل قد رسموا على صحائف قلوبهم «بئس رأى إن كان للرغبة عبداً وبئس القول إن كان للحقيقة ضداً».

(١) جون ستيورات مل - الحكومات النيابية - ترجمة اميل الخورى - دار القطة العربية للتأليف والترجمة

والنشر - دمشق ص ٨٢ - ٨٣

(٢) المصدر السابق ص ٨٤٧

(٣) هو السلطان.

(٤) مصر - ٢٣ نوفمبر ١٨٧٨ - مقال (مجلس النواب)

وبذلك كان أديب إسحق صاحب الفضل الكبير في نقل الآراء النظرية والأفكار التي تمخضت عنها الثورة الفرنسية وتقديم خلاصة منها للقارئ المصري<sup>(١)</sup>

وكانت لأديب إسحق تعليقات هامة على كثير من الأحداث التي شهدتها الحياة النيابية في مصر، تشكل في مجملها جزءاً هاماً من الفكر الديموقراطي في مصر.

فقد كتب أديب مثلاً مقالاً وصف فيه ذهاب رياض باشا وزير الداخلية في ذلك الوقت إلى مجلس شورى النواب يحمل مرسوماً بحله.. وأشاد أديب بموقف النواب الذين رفضوا قرار الحل قبل أن يبلغ المجلس مدته فقال: «إن النواب امتنعوا عن فض المجلس وقام فيهم خطيبهم ميرابو مصر عبدالسلام بك المويلحي فقال كيف نفرض المجلس وبأى قول نجيب من يسألنا من موكلينا: ماذا فعلتم.. وأى أمر أبرمتم، وأى نقمة أبعدتم وأى نعمة قربتم، ثم وجه الكلام إلى رفقاءه النواب وسألهم قائلاً: ألستم ترون في ذلك عين الرأى، قالوا بلى فكان تأييد النواب لقوله كتأييد نواب فرنسا لقول ميرابو الشهير على عهد لويس السادس عشر»<sup>(٢)</sup>.

وعلق أديب إسحق على الحادث قائلاً: «وقد أثبت النواب المصريون أنهم لم يعدوا الحجة ولم يجهلوا الحقوق النيابية».

ثم قال:

«إن الوطن ينظر إليهم بعين الواقف بين اليأس والرجاء يسألهم النظر بالتدقيق والبحث بالتحقيق في لائحة الانتخاب الجديد ليكون موافقاً للأحكام الشورية منطبقاً على القوانين الأوروبية لا تقيده يد الإستبداد».

وعندما استقالت وزارة شريف باشا عقب رفض الخديو توفيق التصديق على اللائحة الأساسية ولائحة الانتخاب تحت ضغط القناصل الأجانب، كتب أديب إسحق يعلن أن صحيفته لم ولن تتبع شخصاً معيناً.. وإنما في الأصل تخدم مبدأ عاماً وهو «صيانة الحقوق الوطنية وتأييد الحكومة الشورية مرعياً بها جانب العهود المالية والحدود السياسية»<sup>(٣)</sup>.

وقال أديب: إن استعفاء الوزارة لن يذهب بهذا المبدأ «فإن الرجال تذهب انقلاباً أو موتاً.. والمبادئ ثابتة لا تحول وباقية لا تزول».

ورآها أديب إسحق مناسبة ليعيد فيها تأكيد سياسة صحيفة مصر من جديد فقال:

(١) عونى إسحق - الدرر (منتخبات أديب إسحق) المطبعة الأدبية بيروت ١٩٠٩ ص ٢٩٤ - ٢٩٩  
ود. عبداللطيف حمزه - أدب المقالة الصحفية - الجزء الأول - دار الفكر العربى ص ١٩٥٠ ص ٥٦ - ٥٧

(٢) مصر - ٩ مايو سنة ١٨٧٩ مقال (مجلس النواب)  
(٣) مصر - ٢٠ أغسطس ١٨٧٩ مقال (بعنوان : الشورى)

«إننا لا نريد بالحكومة الشورية ما يراه الراؤون ويسمعه السامعون عن الحكومات الجمهورية أو الشبيهة بها فى البلاد البالغة من الحرية ناصيتها، والمالكة من المعارف ناحيتها.. وإنما نريد بذلك أن يكون لنا مجلس نواب يؤلف من نبهاء البلاد العارفين بكنه أحوالها العالمين بمنازل أمورها، الواقفين على حقيقة حاجاتها، ينظرون فى أمورها الداخلية غير متعرضين للعهد المالية فنحفظ بذلك حقوق الأجانب، ولا تكون الحقوق الوطنية عرضة لوهم الواحد أو غرض العالم».

والملاحظ أن أديب إسحق تراجع عن رأيه السابق فى حق مجلس شورى النواب فى مناقشة جميع الأمور ومن بينها الشئون المالية وما يتعلق بالدين الأجنبى.. لذلك نراه يركز على هذه النظرية، يحاول أن يوضح رأيه الجديد فيها فيقول: «أما قولنا إن النواب لا يتعرضون للأمور المالية، فليس المراد به أن لا يكون لهم حق النظر فى النفقات الإدارية وأساليب التحصيل وتعديل الرسوم والمغارم.. وإنما نريد أن لا يتعرضوا للمالية بما يمنع الحكومة من القيام بعهدها ووفاء ديونها.. وفقاً لما وافقت عليه الدول العظام».

ونحن لا نفهم كيف يمكن منع مجلس شورى النواب من مناقشة المشكلة المالية ومسألة الديون، خاصة وأن تأثيرها قد شمل الحياة المصرية كلها إلى سنوات طويلة بعد ذلك.. ثم إنه إذا منع المجلس من مناقشة المسألة المالية فماذابقى له بعد ذلك؟!

ونحن نعتقد أن هذا التغيير الذى أصاب موقف أديب إسحق كان بفعل الضغوط السياسية العنيفة التى كانت تعاني منها الصحف الوطنية وكتابها، واستخدمت الحكومة سلاح التعطيل والمصادرة والالغاء لكبت أصوات المعارضة.. حيث كان السلاح الأخير.. وهو الالغاء، المصير الذى لم تستطع أن تهرب منه صحيفة مصر نفسها. فأغلقت وغادر صاحبها أديب إسحق البلاد إلى باريس، حيث أصدر فى المنفى صحيفته مصر القاهرة.. يناضل من خلالها حكم توفيق ووزيره رياض الإستبدادى.

وعندما نشب الخلاف بين حكومة شريف باشا ومجلس النواب فى يناير ١٨٨٢ حول اللائحة وحق المجلس فى تقرير الميزانية كتب أديب إسحق يقول: «ليس بين النواب والحكومة الحاضرة من خلاف أصولى ناشئ من تباين المشارب، وإنما هو اختلاف فى رأى على حقيقة بعض الأمور.. فالحكومة مختارة بأراء وجهاء الأمة الذين منهم أعضاء مجلس النواب، فلا بد أن يكون لهؤلاء الأعضاء ثقة أكيدة كاملة برجال تلك الحكومة الكرام، وهى التى رضيت بمجلس النواب مبدأ وعقيدة مباشرة غير مكرهة عليه فلا بد وأن تكون مسلمة بوجوب وجوده موقنة منه بالمقدرة على القيام بواجبات النيابة فى كل ما يصل إليه الإمكان إلا أن يكون من وراء ظاهر الأمر قوة خارجية مانعة من الإنفاق»<sup>(١)</sup>.

ثم تساءل أديب إسحق عن مدى حق المجلس فى تقرير الميزانية فقال:

«هل يجب لمجلس النواب المصرى ما وجب لسائر المجالس النيابية فى البلاد الدستورية، فإن كان ذلك فهل ينبغي اعطاؤه ذلك الحق آجلاً أم يلزم ارجاؤه إلى حين؟ فإن صبح الأول وأقبلت

(١) مصر - ٢٢ يناير ١٨٨٢ مقال (أحوالنا)

عليه حكومة الجناح المعظم فهل يرضاه المتبوع الكريم (يقصد السلطان) وهل تقبله الدولتان (يقصد إنجلترا وفرنسا) المتدخلتان في مصر فعلاً؟»

ولم يحاول أديب إسحق أن يجيب على هذه التساؤلات وإن كان إتجاه حديثه يبين عن وقوفه في صف وزارة شريف أكثر مما يقف في مجلس شورى النواب.

ولكن سرعان ما تغير موقف أديب إسحق من مسألة مدى حق مجلس شورى النواب في مناقشة المسألة المالية، ولكن ارتبط ذلك التغيير باستقالة وزارة شريف باشا في ٢ فبراير سنة ١٨٨٢ وتولى محمود سامي البارودي مسئولية الوزارة، فكتب أديب إسحق يرد على مقالة .. اسل التاييز إتهم فيها مجلس النواب المصري بالتهور لمطالبته بحق مناقشة بنود الميزانية فقال أديب: «فإن لم يكن لمجلس النواب حق النظر والبحث والتعديل في قانون الميزانية أى في الموارد والمصارف فأى شأن يكون وأية منفعة تؤمل منه؟.. ألا يعلم كاتب التاييز أن مجلس المديرية بل مجلس القسم في فرنسا وغيرها من ممالك الغرب ينظر في ميزانية المديرية وميزانية القسم أم يعلم ذلك ولكنه لا يرى مجلس نواب مصر من السودان إلى مصب النيل جديراً بما يحق لمجالس الأقسام على ضفاف التاييز والسين»<sup>(١)</sup>.

وينفرد جمال الدين الأفغانى بأنه أول من دعا إلى تكوين حزب وطنى يتولى حماية الحكومة الشورية ويدعمها. فالحياة النيابية فى رأيه لا تضمن لها البقاء بدون حزب وطنى يحميها فالحياة النيابية. «كسائر الأجسام الطبيعية والاجتماعية فلا بد لها من استمداد الغذاء الجديد وإلا فإنها تؤول كغيرها من الأجسام بما يطرأ عليها من التحليل ولهذا أدعوكم أيها السادة أن تقيموا حزباً وطنياً يصون لوطنكم حقوقه ويحفظ عليه بهاءه»<sup>(٢)</sup>.

ولعل هذا هو الذى يفسر اهتمام الأفغانى فى حياته العملية فى مصر بالدخول فى الماسونية، وتجرده عليها وإنشاؤه لحزب ماسونى مستقل ضم إليه أشهر رجالات مصر فى ذلك الوقت.

كذلك فقد كان الأفغانى يرى أنه قبل إنشاء مجلس النواب لا بد أولاً من إعداد الشعب لإستقبال الحياة النيابية فهو يقول: «هبوا أن مجلساً نيابياً أنشئ فستجدون حزب الشمال لا أثر له وسيفر الأعضاء كلهم إلى حزب اليمين- وسيكونون كلهم آلة صماء.. وسيرى كل عضو أن الدفاع عن الوطن ومناقشة الحاكم للحساب قلة أدب وسوء تدبير وقلة حكمة وتهور.. لا.. لأن عقول والنفوس هى المقدمة والحكومة الصالحة هى النتيجة»<sup>(٣)</sup>.

(١) مصر- ٢٤ فبراير ١٨٨٢ مقال بعنوان (آراء أجنبييه)

(ويلاحظ أن أديب إسحق عاد إلى مصر ثانية بعد قضاء فترة فى باريس وأعاد إصدار جريدته فى حجم صغير تحت اسم «مصر» ومحررها المسئول أخوه عونى إسحق)

(٢) مصر ٢٤ مايو ١٨٧٩ - مقال حكم الشرق

(٣) أحمد أمين- زعماء الإصلاح فى العصر الحديث- لجنة التأليف والنشر القاهرة ١٩٤٨ - ص ٥٨

ويرى ميخائيل عبد السيد أن هناك مبررين لوجود مجلس نواب فى مصر

الأول: «أن مجلس النواب هو من حقوق الأهالى المهمة لا يستغنى عنه فلاح ولا تاجر»<sup>(١)</sup>.

والثانى : «أنه لما لم تكن كل حكومة سالكة فى سنن العدل وناهجه مناهج الصواب والعقل بل بعضها شط فى جمع الضرائب وبعضها محق منصف صائب انتخبت الأهالى نوابا ينوبون عنهم فى تعيين الضرائب وفى أوجه صرفها وإذا كان صرفها فى المنافع العمومية أو فى مصالح خصوصية.. فمجلس شورى النواب هو الذى له وحده حق فى النظر فى المصاريف وفى تعيين الأموال والضرائب لكى يكون للأهالى إطلاع على الأبواب التى تصرف فيها أموالهم فيقدمون ما يفرض عليهم طوعا لا كرهاً»

وكان رأى ميخائيل عبد السيد فى تجربة مجلس شورى النواب أنها كانت «اسما بدون مسمى».. بل نقول أن وجوده كان من ضمن النوائب التى قدرها المولى سبحانه وتعالى على الفلاح وغيره من الأهالى»<sup>(٢)</sup> ويعلل ذلك بأن المجلس كان «هو وسيلة الحكومة إلى فرض الضرائب الجديدة على البلاد» ثم يقدم ميخائيل عبد السيد صورة لما كان يحدث من قبل فى مجالس شورى النواب «إن العمدة أعضاء مجلس شورى النواب كانوا يأتون من بلادهم ويختمون على لوائح لا يعرفون ما فيها بل ولم يعرفوا ما عزى إليهم من الأقوال فكان المقصود من إتيانهم من بلادهم هو لأجل حمل أخطائهم ولا يمكن تشبيههم إلا بآلة».

وكان ميخائيل عبد السيد دائم النقد لمجلس شورى النواب.. فقد تعرض مرة للفساد الذى أصاب مرفق السكة الحديد وسيطرة الأجانب عليه وفصلهم للموظفين الوطنيين فكتب موجهاً اللوم إلى مجلس شورى النواب لعدم تصديه لمثل هذه المشاكل فقال:

«وكانن بودنا أن مجلس شورى النواب الذى انعقد وضربت له المدائح أن يكون عن الوطن خير مدافع فإن الحضرة الخديوية بينت فى مقالاتها السنوية أنه ينظر فى الأشغال الداخلية والمسائل المالية ومن المسائل الداخلية هذه المسألة التى نحن بصددنا (مشكلة موظفى السكة الحديد) فإنه كان أملنا أن يريح المستخدمين من الظلم الحاصل لهم بسن قانون يجرى عليه الصغير والكبير غير أن مجلس النواب الذى صار له الآن أكثر من عشرين يوماً لم تعرض له مسألة مهمة مالية أو داخلية»<sup>(٣)</sup>.

وأضاف أن هناك إحساساً بالضيق يشمل أكثر النواب بسبب عدم تمكينهم من عمل شئ «فإن لكل منهم أشغالا مهمة وحضورهم من بلادهم وضياح أوقاتهم سدى لم يعهد له مثل لا فى الماضى ولا فى الحال».

(١) الوطن ١١ يناير سنة ١٨٧٩

(٢) الوطن - ٢٨ ديسمبر ١٨٧٨

(٣) الوطن - ٢٥ يناير ١٨٧٩

ثم تساءل: «وإذا فرضنا أنهم لا يفيدون ولا يعيدون فكيف تكون الحكومة تقييدية بدون هذا المجلس وكيف يكون وزراؤها مسئولون عن تصرفاتهم وتدابيراتهم بدون نظر هؤلاء النواب».

ولم يكن ميخائيل عبد السيد يكتفى بالتعليق على مناقشات المجلس أو نقد بعض تصرفات أعضائه - وإنما كان يتقدم أيضاً بعدة اقتراحات يدعو مجلس شورى النواب بتبنيها.. فهو يطلب مرة «أن لا يحرموا مكاتب الجرائد من الحضور في مجلس شورى النواب لينظروا فيما يبيده الأعضاء من الأفكار والآراء فيتفتح الأهالي بذلك ويكون لهم إطلاع على مساعي نوابهم كما هي العادة الجارية في أصغر مملكة من ممالك أوروبا».<sup>(١)</sup>

ومرة أخرى يدعو مجلس شورى النواب إلى سن قانون واحد يسرى على الوطنيين والأجانب في نفس الوقت: «بأن تجرى على الأوربيين الأحكام الجارية على الوطنيين».<sup>(٢)</sup>

كذلك فقد طالب المجلس بالعمل على وقف تعيين الموظفين الأوربيين في دواوين الحكومة وخفض مرتباتهم المرتفعة وضرب لذلك مثلاً «بأن نوبار باشا رئيس الوزراء أصر على أن يأخذ مرتباً قدره ثلاثة آلاف جنيه سنوياً فقط أسوة بباقي النظار بينما المستر رفرس ولسن والمسيو دي بليانر (الوزيران الأجانب) يأخذ كل منهما ستة آلاف جنيه سنوياً».

وطالب الكاتب مجلس النواب أيضاً بضرورة «تنقيص فوائد الديون الأجنبية وجعل مقدار الفائدة قدر الفوائد التي تؤخذ في بلاد أوروبا أي ثلاثة أو أربعة في المائة».

وطالب أيضاً بضرورة النظر «في المصالح والدواوين التي نضرب إيرادها وأصلحها ووظف فيها من الوطنيين فإنه أنفع من غيره».

وطالب ميخائيل عبد السيد مجلس شورى النواب أن تحصل ضرائب من الأوربيين كالأهالي. «فإنه قد بلغنا أن الحكومة لم تحصل من الأوربيين أصحاب الأطنان أموال المقابلة وغيرها مما هو معين على الفلاح مع أنهم متمتعون بالأمن والطمأنينة والحرية وآمنين على أموالهم وعيالهم أكثر من الأهالي».

وفي الوقت نفسه طالب الكاتب المجلس بأن يعمل على تخفيف عبء الضرائب على الأهالي فقد بلغ إلى علمه أن «أهالي الوجه القبلي أرسلت لوزراء الحكومة عرض حالات عديدة متظلمين من الضرائب والمقابلة وعدم نوالهم لإمتيازها، بل حضر كثير من عمد الوجه القبلي لهذه الغاية والواجب أن مجلس النواب ينتهز هذه الفرصة ويريح الأهالي من هذه القصة».

وعندما بدأ التفكير في إعادة مجلس شورى النواب عقب حركة الجيش في فبراير ١٨٨١ كتب ميخائيل عبد السيد يناقش هذا الإحتمال وي طرح مجموعة من الأفكار حول الحياة النيابية فهو أولاً: يرفض أن يكون المجلس الحديد صورة من المجالس السابقة.. «فإذا كان مقصوداً جعله على حالته السابقة كان عدمه خير من وجوده ففي الزمن السابق كان كناية عن آلة الظلم فكان

(١) الوطن ٢٨ ديسمبر ١٨٧٨

(٢) الوطن ١١ يناير ١٨٧٩

مؤلفا من العمر والمشايخ الذين جلهم من أعظم أنواع الأئمة وإخوان الظلم فكم من مرة اختطفوا أموال الفلاحين وكم من مرة نهبوا أطيانهم وسخروهم وغير ذلك، فإذا قلت أن الله هداهم الآن فتسابوا وأنا بوا قلت من شب على شئ شاب عليه.. والدليل على ذلك أنهم لم يرضوا على الحكومة الحالية لسماعها شكوى الفلاحين عليهم والنظر فى دعواهم.. ولعمري أنه إذا كان مجلس النواب بهذه الصفة كان أحق بأن يسمى مجلس نواب ونواب»<sup>(١)</sup>.

وهو ثانياً يرى أن العضو الذى يجب أن ينال حق تمثيل الوطن فى مجلس شورى النواب لابد وأن تتوفر فيه مجموعة من الصفات لا تتوفر فى غيره من المواطنين فهو يجب أن يكون «فهيمًا حكيمًا حازمًا صارمًا لا تضيق به الأمور وغير متماد فى الزلّة مع مراعاته للمصلحة العمومية مع إطلاعه على السياسة وأبوابها ومعرفته بالرياضة والتاريخ والقوانين».

وهو ثالثاً: يطالب الحكومة بأن تسن قانوناً جديداً للإنتخاب لا يسمح بأمثال النواب القدامى بالوصول إلى المجلس، وبحيث تتوفر فى الأعضاء الصفات التى سبق وأن عددها: «فيقول قيل إنه ينذر من توفرت فيه هذه الشروط قلنا الواجب على الحكومة قبل كل شئ أن لا تأتى بالجهلة والظلمة وتحكمهم على العباد بسبب غناهم أو ثروتهم - لذلك وجب على الحكومة أن تسن قانوناً مناسباً للإنتخاب بحيث لا ينتخب إلا أفاضل الرجال المطلعين على الأمر، فإذا فعلت ذلك صار مجلس النواب مع تمادى الزمان مثل مجالس أوروبا».

إن ميخائيل عبد السيد يطرح فى هذا المقال مخاوف المثقفين المصريين من أبناء الطبقة الوسطى من سيطرة الأعيان وأثرياء الريف على مجلس شورى النواب. يفسر ذلك هجومه القاسى على الأعيان واتهامه إياهم بالجهل والظلم واستغلال الفلاحين وكذلك فإن دعوته إلى ضرورة «إطلاع النواب على السياسة وأبوابها ومعرفتهم بالرياضة والتاريخ والقانون». يعنى فى التطبيق العملى حرمان أكثر الأعيان من عضوية مجلس شورى النواب.. وسيطرة المثقفين على أغلبية مقاعد المجلس.. لأنهم وحدهم الذين تتوفر لديهم معرفة السياسة والرياضة والتاريخ والقانون..

وكانت الحياة النيابية فى مصر مادة خصبة للسخرية عند يعقوب صنوع ووسيلة للنيل من إسماعيل باشا وحكمه أولاً ثم توفيق باشا واستبداده بعد ذلك. فهو يكتب مرة بلسان إحدى الشخصيات التى كان يخترعها فى محاوراته وهو الشيخ يوسف الشفعاوى فى معرض ذكر شئ مما قلده إسماعيل دول أوروبا فيقول عن مجلس شورى النواب: «إنه لما صار انتخاب أعضائه بمعرفة المديرين لا الأهالى وحضروا إلى مراكز المديريات صار يجتمع كل مدير بجماعته سرّاً ونصحهم بأن لا يعترضوا لأمر الحكومة ولا للحضرة الخديوية ولا يعترضوا عليها شئ مما تفعله وإن حصل أحد منهم أدنى اعتراض يعاقب بأشد العقاب ويسجن أو ينفى ولا تقبل فيه شفاعاة أحد»<sup>(٢)</sup>.

(١) الوطن - ١٢ مارس سنة ١٨٨١

(٢) أبو نظارة زرقا - ١٣ يناير ١٨٧٨

وكان يعقوب صنوع هو مخترع تلك الصورة المضحكة لأول اجتماع لأعضاء مجلس شورى النواب.. والتي جرى التندر بها حتى اليوم حتى ظنّها بعض المؤرخين حقيقة تاريخية.. فهو يقص علينا ما حدث فى أول اجتماع للمجلس فيقول راسماً صورة مليئة بالسخرية من أعضاء المجلس: «ثم إنه صار ارسالهم إلى مصر وبعده اجتمعوا فى المجلس الذى صار احضارهم لأجله وكان الموكل بتدريبهم راغب باشا فأراد أن يرتبهم كمجالس أوروبا من جعلهم صفين.. صف اليمين وهو الذى يجيب من الحكومة ويذب عن حقوقها.. وصف الشمال وهو الذى يعترض على الحكومة ويسألها عن حقوق الرعية وكان الأعضاء جالسين فى المجلس من غير ترتيب فلما علموا الكيفية أسرعوا فى القيام من أماكنهم وتزاحموا على الجلوس فى اليمين حتى أضروا ببعضهم بعضاً».

ثم يستمر فى سخريته من المجلس فيؤكد أن «النواب قد داوموا على الحضور فى أيام فتحه غير أنهم لا يتكلمون من عند أنفسهم بحرف واحد يضر أو ينفع. ولكن إذا أراد الخديو نسبة أمر إلى مجلس النواب أو أحد خواصه بأن يحفظه للأعضاء حتى يتكلموا به من غير زيادة ولا نقصان ويجرى الأمر بموجبه حتى يقال أن مصر لها مجلس نواب من الأهالى وهم مالكون حريتهم يعترضون على الحكومة ويسألونها عن حقوق الرعية».

ولقد وصل الأمر بـيعقوب صنوع أن ألف عددا من المناقشات الحوارية التى تأخذ شكل التمثيلات، جعل أبطالها من أعضاء مجلس شورى النواب وأعطاهم أسماء رمزية تتضمن السخرية منهم. فأطلق على أحدهم: الشيخ عبدالعال أبو جوموس عمدة ناحية بيت العجل.. والشيخ محمد بلاص عمدة كوم الشقافة والشيخ عمر أبو عيش نائب كفر الجعانيين، وفلتس أفندى هلس عمدة تل جريس. وسعادة محاور باشا رشدى رئيس المجلس ومنافق بك. وهى باش كاتب.. ثم أجرى بينهم محاوره تمثيلية مليئة بالسخرية اللاذعة بالمجلس وأعضائه مظهراً إياهم كمجرد خدم للحكومة وعبيد للخديو.

ونحن نعتقد أن يعقوب صنوع تجنى على أعضاء مجلس شورى النواب كثيراً، ولم يكن عادلاً ولا منصفاً فى حديثه عنهم.. وأنه لم يكن يفرق بين عدائه لحكم الخديو اسماعيل المطلق وبين مجلس شورى النواب وأعضائه باعتبارهم نواة لحياة الديمقراطية فى مصر.

والمتتبع لنشاط مجلس شورى النواب يمكنه أن يدرك بسهولة أنه لم يكن فى جميع الحالات راضحاً لرغبات الخديو، لقد بدأت المعارضة للحكومة داخل المجلس منذ فترة مبكرة من حياة المجلس.

ففى دورة يناير عام ١٨٩٦ مثلاً جرت مناقشات هامة حول ضريبة المواشى.. ووجه المجلس اللوم إلى الحكومة على طريقة تحصيلها.. وأثير نقاش آخر فى نفس الدورة حول الميزانية وأعلن بعض أعضاء المجلس أن الميزانية تعرض عليهم بصورة مبهمة، وأرقام خطأ وطلبوا عرض



الميزانية مفصلة قلما قلما على المجلس ووافق وزير المالية على ذلك،<sup>(١)</sup> وفي دورة انعقاد المجلس الثانية عام ١٨٧٠ أثار النواب موضوع ضريبة الفرد، وطالب أحد الأعضاء (يوسف العقبى عن تجار القاهرة) بإلغائها وتشكلت لجنة من بعض أعضاء المجلس قررت بالفعل إلغائها ولما رفع الأمر للخديو وافق على الإلغاء وكان هذا نصراً للمجلس.

وأمثال هذه الحوادث كثيرة وتدل على أن المجلس ينبض في كثير من الأحوال بروح المعارضة ضد الحكومة مما يجعلنا نرى أنه لم يكن يستحق تلك السخرية القاسية التي كان يوجهها إليه يعقوب صنوع.

إن اهتمام سليم النقاش بالحياة النيابية تؤكد متابعتها المستمرة لكل الأحداث النيابية الهامة التي شهدتها الفترة التي تبدأ بالأحداث العرابية، فعندما تم انتخاب أعضاء مجلس شورى النواب من مدينة القاهرة في نوفمبر ١٨٨١ كتب يشيد بوعي الشعب المصري الذي عرف كيف يختار ممثليه فقال: «إن ذلك يدل بالجملة على أنه قد حصل في أذهاننا صورة حقيقية عن ماهية الواجب علينا في كليات الأمور الوطنية.. وإن زمن تسليم الخاتم وتوقيع الأمضاء بلا بحث ولا علم ولا ميل إلى الإستكانة قد ذهب غير مأسوف عليه ملتفاً بأسمال الحيف واطمار الاستبداد على راحلة الجهل والعبودية»<sup>(٢)</sup>

ولكن سليم النقاش لا ينسى أن يذكر النواب بأمرين هامين: الأول: أنهم سيكلفون بتعديل قانون الانتخاب ووضع قانون جديد وعليهم أن يراعوا فيه أن يكون «أدنى إلى حرية الرأي ومصلحة الوطن وأبعد من قيد الخاطر وحس اللسان مع مراعاة أحوال الزمان وعادات الأمة ومواثيق الحكومة وعادات الأمة ومبلغ الوطنيين من العلم الإداري والأدب السياسي حتى لا يحصل مخالفاً للزمان فيغلب ولا مغايراً للعادات المتأصلة فيرد ولا منابذاً للمواثيق المبرمة فينقضى - بل يكون بقدر اللزوم وحسب الإمكان.. وبحيث يمكن التدرج منه إلى المراتب الكمالية من المقامات السياسية فإنه لا فائدة في أمر تقدمه العجلة قدما ويرده الزلل أقداماً.. بل الفائدة كل الفائدة في الحكمة والثبات ووضع الأمور مواضعها ورد الأفعال إلى جانب الإمكان وذلك شأن الحكماء في كل زمان ومكان».

والأمر الثاني: أن النواب لا بد وأن يعلموا «أنهم سيكونون في هذا المجلس عنواناً لحالة مصر خصوصاً والشرق عموماً ونموذجاً من آثار الحرية في هذا القطر ومثالاً للهيئة النيابية الحققة فيه.. فهم من هذه الوجوه موضع آمال المصريين وأمانى سائر الشرقيين.. فلقصور منهم - لا قدر الله - لا يكون مقصوداً على كدر وقتى أو ضرر زائل أو خجل يلم بهم من دون سائر الناس بل الكدر والضرر والخجل وما يليه يلحق بهم لزوماً وبوطنهم اتباعاً وبسائر الأمم الشرقية».

(١) د. عبدالعزيز رفاعي - فجر الحياة النيابية في مصر الحديثة ص ٥٤ - ٥٧

(٢) العصر الحديث - ١٦ نوفمبر ١٨٨١ مقال (مجلس شورى النواب)

واهتم سليم النقاش بالخلاف الذى نشب بين مجلس شورى النواب وحكومة شريف باشا أثناء احتدام أحداث الثورة العربية وكتب عنه واصفاً إياه بأنه شئ طبيعي لا يجب أن يخيف أحداً وهو ناشئ عن كون الحياة النيابية جديدة على مصر.. فهو يرى أن «أمر الخلاف بين وزارتنا ونوابنا هو ما يحصل له عندنا ناشئة عن كون ذلك عندنا يعد نزعة جديدة لأننا لم نألف مثل ذلك فى مصر قبل الآن وهى خطوة كبيرة فى مجال الحرية والتقدم»<sup>(١)</sup>

وعندما اعترضت إنجلترا وفرنسا على حق شورى النواب فى مناقشة الميزانية كتب «سليم حموى» يؤيد المجلس ضد التدخل الأجنبى قائلاً: «فلت شعري أى مجلس نواب عند غيرنا لا يكون له حق النظر فى شئون مالىته فكأنهما يريدان أن يكون مجلسنا الحائز رجالاً قد انفردوا بالمعارف وعرفوا الواجبات والحقوق غير مستكمل حقوق باقى المجالس الشورية»<sup>(٢)</sup>

ولقد جعل عبدالله النديم من صحيفة الطائف .. التى عاصرت أعدادها الأولى فترة إجراء انتخابات مجلس شورى النواب - ميداناً لحملة دعائية لأنصار الحركة الوطنية من المرشحين.. وجعلها أيضاً وسيلة اعلام تعرف الجمهور بأصول وقواعد الحياة النيابية والدستورية، وترشداهم إلى انتخاب الأكفاء من المواطنين.. فإذا ما تم انتخاب المجلس وقفت إلى جانبه تسانده وهو يواجه الأزمات التى هبت عليه.. فالنديم كان يؤمن بأن الحكم الدستورى أساس كل اصلاح سياسى واجتماعى.<sup>(٣)</sup>

ولقد رأى مجلس شورى النواب تقديرًا للطائف أن يتخذها - كما اتخذها عرابى من قبل لسان حال الثورة<sup>(٤)</sup> - لسانه الرسمى المعبر عن افكار أعضائه والمختصة بشر مناقشاتهم- فكتب محمد باشا سلطان رئيس المجلس فى ٥ مارس ١٨٨٢ إلى ناظر الداخلية بذلك وكتبت إدارة المطبوعات منشوراً لجميع الصحف وطلبت من الإدارات الحكومية الإشتراك فى الجريدة حتى تكون على بينة من أمور البلاد.. واكتب النواب بمبالغ كبيرة للجريدة حتى تؤدى رسالتها وأصبحت الطائف جريدة الثورة العربية ولسان مجلس شورى النواب.<sup>(٥)</sup>

ومن أهم المقالات التى نشرتها الطائف مقالاً كتبه النديم أورد فيه خبراً وصله من أحد أعضاء مجلس شورى النواب فحواه (أن أحد مديرى الوجه القبلى قد عاد إلى الإستبداد بالأهلين وطالب النديم بسرعة التحقيق فى الأمر وعلاجه على الفور فقال: «بلغنا من أحد النواب أن بعض مديرى قبلى عاد للإستبداد واستعمال الفلقة والكرياج فضرب بعضا من المسلمين وبعضا من الأقباط ضرباً مبرحاً بلا ذنب سوى تشفيه لغايات ذاتية.. فترجو هيئة الحكومة أن تتحرى هذا

(١) المحروسة ٢٥ يناير ١٨٨٧

(٢) اسكندرية- ١٠ مارس ١٨٨٢ مقال (نبذة سياسية)

(٣) د. علي الحديدي- عبدالله النديم- المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر- القاهرة ص ١٦٥

(٤) محمد عبدالوهاب صقر وفوزى سعيد شاهين- عبدالله النديم- الألف كتاب- المطبعة النموذجية -

القاهرة ص ٨٩

(٥) د. علي الحديدي - عبدالله النديم- ص ١٨١

الأمر خشية انتقاد أوروبا علينا واعتقادها عدم رجوع حكمانا عن الغايات الذاتية»<sup>(١)</sup> والذي يمكن أن نستخلصه من هذا المقال أن العلاقة بين النواب ومديرى المديريات أى ممثلى الحكومة لم تكن حسدة بدليل أن عضو مجلس شورى النواب لم يستطع التدخل مباشرة لدى المدير المستبد حتى يحمى مواطنيه من جورهم وظلمهم، كذلك فالمقال يؤكد الدور الهام الذى كانت تلعبه الصحافة فى ذلك الوقت كسلطة رقابة على الحكومة.. ومعاونة لمجلس شورى النواب بدليل أن عضو المجلس لجأ إلى الصحافة بدلاً من أن يلجأ إلى المجلس النيابى والوزراء.

ويشارك الشيخ محمد عبده مع عبدالله النديم فى ندرة ما نلجده له من كتابات عن الحياة النيابية رغم كثرة ما كتب فى شتى القضايا والموضوعات.

ولكن إذا كان للنديم عذر فى أن عمر التنكيت والتبكي كان قصيراً وأن الطائفت ظهرت أكثر أعدادها أثناء الحرب بين العربيين والإنجليز فلم يكن الوقت يسمح بالحديث عن الحياة النيابية بالإضافة إلى كثرة ما فقد من أعدادها. فقد كانت الفرصة متاحة أمام الشيخ محمد عبده للكتابة فى هذا الميدان الخصب وهو الحياة النيابية.. فلماذا أحجم؟

نحن نعتقد أن وراء ذلك الموقف سببين: الأول: أن الشيخ محمد عبده لم يكن كما أكدنا فى فصل سابق يميل إلى الحكم النيابى ويعتقد أن مصر لم تتطور بالدرجة التى تجعلها تستحق الحكومة النيابية.. وهو بالتالى لم يكن يرى معنى لوجود مجلس شورى النواب.

والثانى: أن التطور الذى أصاب فكر محمد عبده أثناء الثورة العربية لم يكن تغيراً حقيقياً ولا أصيلاً.. لذلك كان اهتمامه بالحياة النيابية فاتراً.. وكثيراً ما كشفت نفسه عن حقيقة دخيلتها المعادية للحكم النيابى.. وكادت تجر عليه المتاعب.. ولعله أثر بعد ذلك السلامه.. فلم يكلف نفسه مشقة التعرض لقضية الحياة النيابية حتى لا تفضحه نفسه مرة أخرى. فقد حدث يوماً أن حضر الشيخ محمد عبده احتفالاً أقامته جمعية المقاصد بمناسبة التصديق على لائحة النواب وتحدث خلاله محمد عبده عن الحياة النيابية وتعرض لمجلس شورى النواب وكان مما قاله أنه لا قيمة لمجلس شورى النواب بدون نشر التعليم بين الشعب وأنه لابد أولاً من «تعليم التعليم ونشر المعارف والعلوم التى تؤهل إلى ترك المرتبة- مرتبة الصلاحية والاستعداد للمشاركة فى تدبير أمور الأمة وتوجيهها»<sup>(٢)</sup>

وقد أثارت هذه الكلمة كثيراً من اللبس عند أعضاء مجلس شورى النواب وعددها بعضهم هجوماً على المجلس وأعضائه ومن أجل ذلك عقد احتفال فى منزل أحد النواب دعى إليه محمد

(١) الطائف - التاريخ مجهول لأن نصف الصفحة العلوى كان مفقوداً.

(٢) الوقائع المصرية - ١٥ فبراير ١٨٨٢

عبدہ «وأبان عن قصده من تلك الخطبة التي ألقاها في جمعية المقاصد الخيرية.. واستدل على حسن اخلاصه فيما توهم من خطابه السابق ببراہین من نفس المقال، فساق مضمونه وبين معناه مستدلاً علي عدم صحة ذلك الوهم بما اعترف به السامعون ووقع لدى جميعهم موقع الاستحسان»<sup>(١)</sup>

وهذا دليل على أنه كانت توجد كثير من التحفظات والحساسيات التي تجعل محمد عبدہ يؤثر الابتعاد عن التعرض لقضايا الحياة النيابة وما يتعلق بمجلس شوری النواب لعدم تحمسه للمجلس من ناحية، وحتى لا تؤول أحاديثه إلى غير معناها من ناحية أخرى.

\* \* \*

---

(١) الوقائع المصرية - ٢١ فبراير ١٨٨٢ مقال (مقابلة الشكر بالشكر).

## الفصل السادس

### أول يوتوبيا مصرية



من أبرز الآثار الفكرية التي وقعت عليها أيدنا خلال بحثنا وتنقينا بين صفحات الصحف المصرية في فترة البحث.. ذلك الأثر الفكرى الهام الذى كتبه أديب اسحق فى صحيفة مصر تحت عنوان «العصر الجديد» وهو ليس مقالا كبقية المقالات التى تعودت الصحيفة أن تنشرها سواء بقلم أدبي اسحق أو لغيره من الكتاب وإنما هو عمل فكرى يحمل جميع مواصفات اليوتوبيا..<sup>(١)</sup>

فالكاتب يتخيل.. حكيما.. أقلقه أمر الاستبداد والفساد والعسف فرقد حزينا يائسا ثم اذا به يستقيظ فجأة على صوت جلبة عظيمة فرأى «ألوفا من الناس ينادون بأصوات مرتفعة: واعجبا، إنا أمة عظيمة ولا قوة لنا وأرضنا مخصصة ولانجد القوات نشتغل ولا لنجنى ثمرة الاجتهاد، ونؤدى الضرائب الباهظة فلاتعد كافية، ونحن فى سلم خارجى وحرب داخلية فمن هو ذاك العدو الخفى الذى يسلب أموالنا ويفسد أحوالنا.. ثم رقى أحدهم مرتفعا فى ذلك المحفل وقام فيهم خطيبا فقال: ارفعوا فى هذا المقام لواء وادعوا إليه الذين يخدمون الهيئة الاجتماعية بالأشغال النافعة يظهر لكم العدو الخفى.. فانتشر ذلك اللواء ودار من حوله أهل الاشتغال فانقسم الجميع قسمين، وكان السواد الأعظم فى جانب اللواء إلا أن عليهم علائم التعب والعناء والفقر والشقاء وعلى أولئك- الذين فى غير جانب اللواء- أمارات العز والسعة والهناء.. ولما تقابل الفريقان قالت الكثرة- الفقيرة- للفئة القليلة- الغنية، مبالكم انفصلتم عنا وأنتم منا فقالوا نحن لم نوجد لتشتغل ولكن لنعتنى بأموركم، فتادت العامة: رويدكم أنتعب وتنعمون ونغرس ونحجون.. تجمعون منا الثروة وتسمون ذلك عناية فما لكم لاتتألفون أمة منفردة لنرى كيف يكون قوامكم فقال النبلاء: ألا تذكرون أيادى أبائنا العظام ومالهم فى بلادكم من الآثار الجسام أولا تعترفون بالسطوة الشرعية إذ إن ما يرومه الملك تأمر به الشريعة فأجابوا يأيها المميزون الموالسون إن الملوك لاتروم الإسلامة الجمهور والشريعة لاتأمر إلا بالمساواة فاستشاط المميزون من الجند غيظا وقالوا: لقد فنتت العامة فلا بد من ارجاعها إلى الطاعة عنوة أيها الجند قاتلوهم حتى يطعبيوا فصاحت الجند إنا أيضا من الأمة فأين العدو وحينئذ نادى الفئة القليلة: لقد خاب الأمل فقالت العامة: لقد تم الرجاء وحصل النجاح وانتهينا من رقدة الغفلة فلا تروم الفتنة ولكننا نلتبس الحرية وما الحرية إلا العدل.. ثم قام خطيب الجماعة فقال: يا قوم لا يحسن الانتفاء بالنجاة من الظالمين بل يجب علينا منع وجود غيرهم فإننا بنو الإنسان قد أرتنا التجارب أن كلامنا يميل الى السلطة ويجنح إلى الأثر فلا بد لنا من وضع الحدود لأفعالنا وحقوقنا وتلك مهمة تستغرق وقت الإنسان بجملته فلا نستطيع النهوض بها مع اشتغالنا بغيرها فانتخبوا جماعة منكم ينقطعون إليها ويقتصرون من الشغل عليها وفوضوا إليهم أن يضعوا لنا حكومة منكم ينقطعون إليها ويقتصرون من الشغل عليها وفوضوا إليهم أن يضعوا لنا حكومة ويسنوا قانونا واجعلوهم وكلاء ارادتنا ونواب مصالحنا.

(١) كلمة يوتوبيا Utopia مشتقة من كلمتين يونانيتين معناهما لا يوجد فى أى مكان.

فاستصوبت الأمة ذلك وانتقت من نهائها جماعة غير قليلة ثم قالت لهم: لقد كنا إلى الآن في جمعية تألفت على حكم الاتفاق فلم تعين بها الحدود ولم تعرف الحقوق حتى ساء حالنا وعظم اختلالنا وقد نمحونا من تالك الحال رغبة في الانتظام وانتخبناكم لتضعوا لنا احكاما فاندبروا في الامر لتعلموا كيف ينبغي أن تكون مواضعه وشروطه وماهى الغاية من الاجتماع الإنسانى وماهى حقوق كل اعضائه وواجباته وبعبارة ثابتة ضعوا لنا قانونا عادلا وأنشئوا فينا حكومة جديدة..

«فوقف أولئك الوكلاء صفوفًا على شكل نصف دائرة ورأوا ان لابد لهم من رئيس يرعى أحكامهم ويضبط زمامهم فاختراروا لأنفسهم زعيمًا فكان هو الرئيس أو الوالى أو الأمير أو الملك.. ولما تم انتظامهم على هذه الصورة قالت الأمة أيها الرؤساء لاتنسوا ان القوة التى خولناكم إنما هى قوتنا وأنه ينبغي لكم أن تكونوا أول التابعين لما تضعون من القوانين.. وللحال أخذ أولئك الرؤساء فى القيام بما انتدبتهم الأمة اليه وبعد البحث والتدقيق ظهر لهم مبدأ الحق الكلى فقام زعيمهم فى الجماعة وقال إنى أتلو عليكم أصل كل عدل وكل حق طبعى: إن العناية قد منحت لجميع الناس أعضاء ومشاعر متساوية وجعلت لهم حاجات متماثلة فصرحت بذلك أنها تمتع لهم جميعا حقوقا متوازية يتصرفون بها فيما يملكون وإن الناس علي اختلاف أحوالهم سواء فى حكم الطبيعة. وكذلك جعلت لكل الناس وسائل كافية لتحصيل حاجاتهم الطبيعية فصار من المقرر البديهي أنها أوجدتهم مستقلين بعضهم من بعض وأبدعتهم أحرارا لايتعين على أحد منهم الخضوع للآخر بل كل منهم يملك وجوده الذاتى ملكا مطلقا.. فتبين من ذلك أن المساواة والحرية من لوازم الوجود الإنسانى ونواميس الحكمة الإلهية.. ولما كان كل من الناس مالكا لوجوده الشخصى لزم من ذلك أن تكون الحرية من شروط الملازمة التى لاينقضها ميثاق ولايحلها عهد وكذلك لما كان الإنسان مساويا لغيره من بني نوعه وجب أن يكون مأياخذة مساويا لما يعطيه وبذلك يتبين أن الحرية مشتملة على العدل الموجب للمساواة.

«وبناء عليه فالمساواة والحرية هما الدعامتان الطبيعيتان لكل اجتماع إنسانى.. فهما لذلك المبدأ الضرورى الأصلى لكل قانون ولكل حكومة نظامية».

«ثم قال الخطيب الرئيسى إن هذا التغيير يوجب الرجوع إلى الحالة الطبيعية فهل ترضون بذلك؟.. فتقدم افراد الأمة أفواجا وطرحوا بين أيدي الرؤساء آثار امتيازاتهم وثروتهم المغتصبة قائلين: بينوا لنا قوانين المساواة والحرية فإننا لانروم أن نملك شيئا إلا بحكم العدل ولانطلب إلا أن يكون قانوننا وشعارنا المساواة والعدل والحرية».(١)

والى هنا انتهت أحلام- الحكيم- وعلق عليها أديب اسحق قائلا:

«ذلك هو بيان العصر الجديد مستمد من فيض.. الحكمة الغريبة.. بسطناه تفاؤلا بالخير وليكون نموذجا لنا فيما نعالجه الآن من اصلاح القوانين وتنظيم الأحوال وإقامة الأمور بعناية أميرنا

(١) مصر - ١٨ يوليو ١٨٧٩ (العصر الجديد).



الذي اتفقت الألسنة على إرائه واجتمعت القلوب على ولائه وصحبه الوزراء الكرام القائمون فينا بأمر العدل الرافعون لشأن الفضل».

إن هذا الأثر الفكرى الذى كتبه أديب اسحق ينتمى - فى رأينا - إلى تيار الفكر اليوتوبى Utopia او الطوباوى منذ «جمهورية أفلاطون» و«مدينة الله» - للقديس أوغسطين و«آراء أهل المدينة الفاضلة» للفارابى و«نظام جمهورية جزيرة بوتوبيا الجديدة» لتوماس مور و«مدينة الشمس» لتوماس كامبانلا و«اطلانطس الجديدة» لفرانسيس بيكون» (١).

وكان الفكر اليوتوبى يعبر عن رغبة كتابه فى ايجاد مجتمع أمثل يسوده العدل والمساواة والحرية وتختفى منه كافة أشكال ومظاهر الظلم والتحكم والفقر.. تلك الآفات التى كانت تعاني منها المجتمعات التى كانوا يعيشون فيها وتدور معظم هذه اليوتوبيات حول أفكار اشتراكية وشيوعية تحقق أكبر قسط من العدالة الاجتماعية وترمى الى استقرار نظم الحكم وقيام حكومات صالحة محل الحكومات الدكتاتورية المستبدة (٢).

ورغم أن أديب اسحق لم يكن اشتراكيا اوشيوغيا.. وإنما هو مفكر ليبرالى فإن هذا لم يمنعه من أن يستلهم التراث اليوتوبى الأوروبى فى محاولته الجديدة لخلق أول يوتوبيا مصرية الفكر المصرى الحديث - عرفت حتى الآن - وهو يعترف بذلك فيقول «ذلك هو بيان العصر الجديد مستمد من فيض الحكمة الغربية».

فهو متأثر اذن فى هذه التجربة الفكرية الجديدة بما سبق وقرأه من الفكر الفكر اليوتوبى فى الفكر الأوروبى.

ولعل هذا هو الذى جعل أديب اسحق (الليبرالى) لا يكتفى فقط بأن يأخذ من التراث اليوتوبى الشكل فقط.. أى مجرد فكرة الحلم بمدينة فاضلة وإنما امتد تأثره أكثر من ذلك فأخذ منها بعض الأفكار الاشتراكية.. فهو يفرق بين «الذين يخدمون الهيئة الاجتماعية بالاشغال النافعة» وبين الذين لا يخدمون الهيئة الاجتماعية أو على حد قوله (العدو الخفى) ولقد جعل فى الجانب الأول الذين «عليهم علامات التعب والعناء والفقر والشقاء» وجعل فى الجانب الثانى الذين تبدو عليهم «أمارات العز والسعة والهناء» فهو هنا يجعل المجتمع طبقتين.. طبقة الفقراء وهم الأكثرية المستغلة، وطبقة الأغنياء وهم الأقلية المستغلة..

ثم هو يدعو إلى ثورة الفقراء على الأغنياء للقضاء على استغلال الأغنياء للفقراء ويجعل جماهير الفقراء تهتف بعد أن حققت انتصارها «ما الحرية إلا العدل».

(١) د. حامد ربيع - كامبانيا ومدينة الشمس - مجلة الهلال - القاهرة - فبراير سنة ١٩٧٣.

(٢) د. مصطفى الخشاب - النظريات والمذاهب السياسية ص ١٥٤ وكارل لايبكر - المدينة الفاضلة عند فلاسفة القرن الثامن عشر ترجمة محمد شفيق غربال - مكتبة الانجلو القاهرة - الطبعة الثانية - ١٩٥٨ - ص ٢٣٥، ٨٦.

ولكن يوتوبيا أديب اسحق تطرح فى الأساس كل فرضيات الفكر الليبرالى فهو يأخذ عن مونتسكيو قوله إنه مامن فرد يتمتع بسلطة إلا ويميل إلى التعسف فى استعمالها لذلك لابد من قانون يحد من هذه السلطة<sup>(١)</sup> فيقول أديب اسحق «إننا بنو الإنسان قد أرتنا التجارب أن كلامنا يميل الى السلطة ويجنح الى الاثره فلا بدلنا من وضع الحدود لأعمالنا وحقوقنا..»

وهو يأخذ عن روسو فكرة العقد الاجتماعى عندما يقول: «لقد كنا إلى الآن جمعية تألفت على حكم الاتفاق».. ثم فى تأكيده على سيادة الشعب وانها فوق سيادة القانون وفوق سيادة الحكومة: «قالت الأمة يأيها الرؤساء لاتنسوا أن القوة التى خولناكم انما هى قوتنا وأنه ينبغى لكم أن تكونوا أول التابعين لما تصنعون من القوانين».

وهو يأخذ عن روسو أيضا قوله إن الفرد لا يمكن أن يتنازل عن حريته مطلقا<sup>(٢)</sup>، فيقول: لزم من ذلك أن تكون الحرية من شروطه الملازمة التى لا ينقصها ميثاق ولا يحلها عهد» ثم يأخذ عنه ايضا دعوته بوجوب «الرجوع إلى الحالة الطبيعية» التى نشأ عليها الإنسان.

ولقد استنطق أديب اسحق زعيم الجماعة فى طرح ما يشبه الدستور الأساس للمجتمع الفاضل الذى يريده أديب «اتلو عليكم أصل كل عدل وكل حق طبيعى» وفى هذا الدستور استطاع أديب اسحق أن يعيد صياغة الفكر الليبرالى فى كلمات قليلة فبدأ من أن «العناية قد منحت لجميع الناس أعضاء ومشاعر متساوية.. فصرحت بذلك أنها تمنح حقوقا متوازية وأن الناس على اختلاف أحوالهم سواء فى حكم الطبيعة» كذلك جعلت لكل من الناس وسائل كافية لتحصيل حاجاته الطبيعية فصار من المقرر البديهي ان لا يتعين على احد منهم الخضوع للآخر بل كل منهم ملك وجوده الذاتى ملكا مطابقا».

ثم ينتهى من كل ذلك إلى النتيجة الهامة: «فتبين من ذلك أن المساواة والحرية من لوازم الوجود -إنسانى».

«فالمساواة والحرية هما الدعامتان الطبيعيتان لكل اجتماع إنسانى فهما لذلك المبدأ الضرورى -صلى لكل القانون ولكل حكومة نظامية». إن قيمة يوتوبيا أديب اسحق يمكن ادراكها عندما سترجع الأوضاع السائدة أثناء كتابة هذه الدراسة وطبيعة الحكم المطلق الاستبدادى الذى كان مارسه الخديو إسماعيل فى مصر وفى ظل هذه الظروف يكتب أديب اسحق حلمه بالمدينة التى شور فيها الفقراء على الاغنياء والمحكومين على الحكام ثم ينتخبون جماعة منهم ليضعون لهم قانونا يبين حقوق كل فرد وواجباته وينشثوا حكومة جديدة ينتخبون لها من بينهم رئيسا يرعى احكامهم. وليس مهما أن يكون اسمه الرئيس أو الوالى أو الأمير أو الملك.. فالمهم أن يكون خاضعا للجماهير التى انتخبته.

(١) مونتسكيو- روح الشرائع- ترجمة عادل زعير- الجزء الأول- دار المعارف- القاهرة ١٩٥٣ ص ١٨.

(٢) د. بطرس بطرس غالى ود. محمود خيرى عيسى- المدخل فى علم السياسة ص ٢٨٥-٢٨٧

W.T.Jones- Masters of Political Thought-Volume Two- PP.280-281.

وبذلك تظهر أصالة تفكير أديب اسحق فى قدرته على المزج الخلاق بين مأخذه من الأفكار الاشتراكية الطوباوية وبين ثقافته الليبرالية بحيث أنتج لنا فى النهاية عملا فكريا له ملامحه الخاصة فهو يحاول أن يقدم حولا جذرية لكل المشاكل التى يعانى منها المجتمع المصرى فى ذلك الوقت فالشعب المصرى لم يكن وقتها يعانى من استبداد الخديوية فقط، وإنما كان يعانى أيضا من الفقر وسيطرة الأجانب على ثروات البلاد وعبء الضرائب أى أن الشعب المصرى كان يعانى من الاستغلال الذى كانت تمارسه الخديوية والنفوذ الأجنبى.. ولقد أدرك أديب اسحق أن الفقر وسيادة الاجانب وزيادة الضرائب وتراكم الديون الأجنبية هو نتيجة منطقية للاستبداد والحكم المطلق وكان يرى أن القضاء على الحكم المطلق يعنى فى الوقت نفسه حل جميع المشاكل التى يعانى منها المجتمع المصرى.

ولذلك فإنه يتقدم بهذه اليوتوبيا «لتكون نموذجا لنا فيما نعالجه الآن من اصلاح القوانين وتنظيم الأحوال وإقامة الأمور».

\*\*\*



# الكتاب الثالث

الصحافة المصرية  
وقضايا الحريات



## الفصل السابع

**الصحافة المصرية  
ومفهوم الحرية**





تصدى رفاة الطهطاوى لتقديم تعريف للحرية، فى كتابه تخلص الإبريز فقال: «عين ما يطلق عليه عندنا العدل والإنصاف وذلك لأن معنى الحكم بالحرية هو إقامة التساوى فى الأحكام والقوانين بحيث لا يجوز الحاكم على إنسان.. بل القوانين هى المحكمة والمعتبرة»<sup>(١)</sup>

وفى روضة المدارس عاد رفاة الطهطاوى ليقدم تعريفا أكثر شمولاً لمعنى الحرية.. فهى تنقسم عنده إلى خمسة أقسام: حرية طبيعية وحرية سلوكية وحرية دينية وحرية مدنية وحرية سياسية.. فالحرية الطبيعية هى: «التي خلقت مع الإنسان وانطبع عليها فلا طاقة لقوته البشرية على دفعها بدون أن يبدو دافعها ظالماً كالأكل والشرب والمشى مما يشترك فيه جموع الأفراد ولا يستغنون عنه، مما لا ضرر فيه على الإنسان نفسه ولا على إخوانه»<sup>(٢)</sup>

والحرية السلوكية وهى «حسن السلوك ومكارم الأخلاق، وهى الوصف اللازم لكل فرد من أفراد الجمعية المستنتج من حكم الفعل بما تقتضيه ذمة الإنسان وتطمئن إليه نفسه فى سلوكه فى نفسه وحسن أخلاقه فى معاملة غيره».

والحرية الدينية هى «حرية العقيدة والرأى والمذهب بشرط أن لا تخرج عن أصل الدين كآراء الأشاعرة والماتريدية فى العقائد وآراء أرباب المذاهب المجتهدين فى الفروع فإن الإنسان يؤمن على أن يتبع مذهبا من هذه المذاهب يتمسك به فى العبادة.. ومثل ذلك حرية المذاهب السياسية وآراء أرباب الإدارات الملكية فى إجراء أصولهم وقوانينهم وأحكامهم على مقتضى شرائع بلادهم فإن ملوك الممالك ووزراءهم مرخصون فى طريق الإجراءات السياسية بأوجه مختلفة ترجع إلى مرجع واحد وهو حسن السياسة والعدل».

والحرية المدنية هى «حقوق العباد والأهالى الموجودين فى مدينة.. بعضهم على بعض فكأن الهيئة الاجتماعية المؤلفة من أهالى المملكة تضامنت وتواطأت على أداء حقوق بعضهم لبعض، وإن كل فرد من أفرادهم ضمن للباقي أن يساعدهم على فعلهم كل شئ لا يخالف شريعة البلاد - وأن لا يعارضوه وأن ينكروا جميعا على من يعارضه فى إجراء حريته بشرط أن لا يتعدى حدود الأحكام».

والحرية السياسية أو الدولية هى: «تأمين الدولة لكل فرد من أهلها على أملاكه الشرعية المرعية وإجراء حريته الطبيعية بدون أن تتعدى عليه فى شئ منها فهذا يباح لكل فرد أن يتصرف فيما يملكه جميع التصرفات الشرعية فكأن الحكومة بهذا ضمنت للإنسان أن يسعد فيها مادام مجتنباً الضرر لإخوانه».

ويرى الطهطاوى أنه بهذه المعانى يصير هدف الحرية هو «إسعاد أهالى الممالك» وأن تحقيق هذا الهدف رهن بأن تكون الحرية «مبنية على قوانين حسنة عادلة كانت واسطة عظمى فى راحة الأهالى إسعادهم فى بلادهم وكانت سببا فى حبهم لأوطانهم».

(١) رفاة الطهطاوى - تخلص الإبريز ص ١٤٨.

(٢) روضة المدارس المصرية - العدد ٧٣ السنة الخامسة ١٨٧٤.

إن الطهطاوى يحاول أن يقدم بذلك التعريف تعريفا شاملا جامعا للحرية ومن هنا تأثر بأكثر من مفكر أوربي فهو يأخذ عن روسو فكرة أن «الهيئة الاجتماعية المؤلفة من أهالى المملكة تضامنت وتواطأت على أداء حقوقهم بعضهم لبعض وإن كل فرد من أفرادهم ضمن للباقي أن يساعدهم.. وألا يعارضوه وأن ينكروا جميعا من يعارضه فى إجراء حريته.

وهو يأخذ عن مونتسكيو تأكيد على أن الحرية لا بد وأن تكون مبنية على قوانين حسنة عادلة عندما يقول بأن كل فرد له الحق فى ممارسة حريته بشرط «ألا يتعدى حدود الأحكام».

وتأثر الطهطاوى بهجيرمي بنشام نلحظه فى جعله هدف الحرية هو «إسعاد أهالى الممالك» وعندما يطالب بأن تكون هذه الحرية قائمة على قوانين هى واسطة فى «راحة الأهالى وإسعادهم فى بلادهم».. فقد كان بنشام يدعو لأن يكون هدف القانون تحقيق أكبر قدر من السعادة للناس فالمنفعة العامة للناس هى المبدأ الذى يجب أن يحكم على مدى صلاحية أى قانون<sup>(١)</sup>، وكان يرى أنه لكى يحقق القانون أو التشريع أكبر قدر من السعادة للجميع لا بد وأن يحمى حصول كل فرد على أقصى منفعة ممكنة.<sup>(٢)</sup>

ويرى الشيخ.. سعد زغلول<sup>(٣)</sup> أن الحرية هى «رفع نير العبودية وفك ربة الذل عن أعناق من أبصارهم شاحصة نحو سماء العدل متظرين بزوغ شمس الفلاح ومتقربين شروق أنوار النجاح.. ومعرفة الأمة حقوقها وسعى الكل فيما يوجب سعادة الكل.. بلا مبالاة ومداراة».<sup>(٤)</sup> —

وربط سعد زغلول بين الحرية وبين وجود «قانون عدل ناقد يتساوى فيه الحقير والعظيم والكبير والصغير والغنى والفقير» ويحلل سعد زغلول تاريخ التطور السياسى للإنسان.. ويخرج منه بنتيجة مؤداها أن الحرية هى «العلة الحقيقية لكمال نوع الإنسان والسبب القريب للراحة والاطمئنان».

وتنقسم الحرية- فى رأى أمين شميل - إلى قسمين: الأول هو الحرية المطلقة الطبيعية.. والثانى هو الحرية المدنية.. وهو يرى الحرية الطبيعية هى «التي ألبس بها الخالق العالم وجعل من الإنسان رب أعماله وقاضيه أوجانيا فوائدها ومنافعها.. وخلق ذلك الشارع الأزل مخلوقات أخرى مكلفة لحرية لها ومرتبطة بقوانين ونواميس لاتعدها قصد بها خير الكون أجمع وجعل ذلك نصب عين مخلوقه الحر.. دستوراً له فى أعماله يره من الحكمة مايجلب له الخير إذ يرى فى دوام ذلك دوام نظام سعيد لايتخلله كد ولايشويه خلل.. فإذا استعمل الإنسان هذه الحرية كما يجب استعمالها مستعيداً من نظام تلك الجوامد مافيه صلاحه الشخصى عاش سعيداً وإلأفلا، وهذا بالنظر إلى الإنسان.. مفرداً إزاء المخلوقات الصامتة أما باعتباره متعدداً فهذه الحرية الطبيعية

(1) W.T.Jones: Masters of Political Thought, Volume Two- P.369.

(2) George, H. Sabine: A History of Political Theory, P.690.

(٣) سعد زغلول باشا فيما بعد.. وكان وقت كتابته لهذا المقال «حضرة العالم الفاضل البيانى الشيخ سعد زغلول الأزهرى أحد المشتركين فى جرائدنا».

(٤) مصر - ٧ فبراير ١٨٧٩ مقال علة الحرية ومعناها.

المطلقة قد استحوالت إلى غير نفس وتولد عنها الاستبداد والعبودية لأنه لما تعددت أفراد الإنسان وأراد أن يستعمل حريته المطلقة قام له معارض من نفسه فإن عين ما يرومه الواحد يطلبه الآخر فتشأ عن ذلك بل لا يزال يتشأ عنه صدام دائم بين الأفراد أدى ويؤدي إلى نزاع الحرية من الواحد وإخضاعها لآخر بمساعدة القوة فكان ذلك استبدادا في الغالب وعبودية في المغلوب»<sup>(١)</sup>

أما القسم الثاني وهو الحرية المدنية فأمين شميل يرى أنها عبارة عن «روابط تحدد للإنسان حدودا معلومة في حياته الاجتماعية وذلك أنه لما ترتب على وجود الإنسان متعددا استحوالت حريته الأصلية إلى عنصرين رديئين كما تقدم أراد بقوة عقله وجسمه أن يعدل القوة المطلقة فيستغذ من مخالبيها نوااميس قانونية تحدد بين أفرادها تلك الحرية بحيث يكون لكل فرد من أفرادها أن يستعملها فيما لا يضر بغيره.. وهذه الحرية هي التي دعاها الشارع حرية مدنية أو اجتماعية أو شرعية وقد استعدها الإنسان من حريته الطبيعية الفاقدة باختلاف المنافع الإنسانية والمنافع البشرية وتختلف أحوالها باختلاف تلك الشرائع فهي معدومة في الاستبداد إذ لا حرية حيث لا شرعية لأن الأحكام الاستبدادية من إقليم الحرية المغلقة فلا تمكن إلا مع العبودية».

والإنسان خلق- في رأى أمين شميل- وله حق الحرية الطبيعية إلا أنه «لما كان عضوا من أعضاء الجمهور الإنساني وجب عليه بشروط الأطماع أن يتنازل عن جزء من تلك الحرية ويسلك المسلك الذي تراه تلك الجمعية ملائما لانتظامها وهذا مايسمونه بالحرية المدنية.. بمعنى أنه يجب على من عاش مع الناس أن يوجد ببعض حقوق حريته الطبيعية لحفظ الحرية المدنية، وهذا النوع من الطاعة الشرعية يعتبر أولى من الحرية الطبيعية المطلقة إذ لا يمكن لذى البصيرة والتأمل أن يرضى بأن يكون مطلق القوة والتصرف فيما يعمل مع علمه بأن كلا من أفراد الإنسان يريد ذلك وأنه لو أطلقت هذه الحرية لكل طالب لما استطاع أحد من الناس أن يحفظ لنفسه شيئا من الحاجات الكمالية والملاذ الدنياوية»<sup>(٢)</sup>

إن تأثر أمين شميل بفكرة العقد الاجتماعي<sup>(٣)</sup> شديدة الوضوح وخاصة كما جاءت عند جون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) الذي كان يرى أن الطبيعة البشرية في حالة الفطرة الأولى كان يسودها السلام والمساعدات المتبادلة لأن قانون الطبيعة نفسه يمد الأفراد بما يساعدهم على ذلك.. ولكن هذا المجتمع لم يكن يتعرض إلا لخطر واحد هو عدم وجود الأنظمة التي يمكنها تنفيذ القانون الطبيعي<sup>(٤)</sup>، مما حمل الأفراد على الاتفاق فيما بينهم لإقامة سلطة مشتركة تضمن حقوق كل منهم.. وحين يجتمع الناس على هذه الصورة يتشأ الكيان السياسي الواحد الذي يدين لحكم

(١) التجارة- ٢٢ اغسطس ١٨٧٩ مقال (الحرية).

(٢) التجارة- ١٩ يونيو ١٨٧٩ مقال (النظام الشوري).

(٣) تقوم فكرة العقد الاجتماعي على وجود عقد ينظم الالتزامات بين الحاكم والمحكوم.. وترى بأن الدولة جاءت بعقد أو اتفاق قد يكون بين الله والشعب للمحافظة على العقيدة الحققة- وقد تكون بين الأفراد وبعضهم لتكوين المجتمع. وقد تكون بين الحاكم والمحكومين لتفسير سلطة الحاكم وتحديدها.

(٤) د. بطرس بطرس غالي ود. محمود خيرى عيسى- المدخل فى علم السياسة ص ٢٦٣.

الأغلبية وتقوم سلطة تحكم وفق القوانين الثابتة المستقرة التي يعرفها الشعب والتي لا تتضمن سوى تحقيق أمنه وسلامته وخيره العام ولكن حين يتجاوز الحكم حدود القانون يفشل في تأمين الحقوق الطبيعية للأفراد حيثئذ تحق الثورة عليه فالشعب هو الفيصل الأخير في أية سلطة مدنية أو سياسية<sup>(١)</sup> وبذلك جعل لوك حرية الإنسان: حرية في الفكر وفي السلوك ولا بد وأن تنبع من إرادته<sup>(٢)</sup>. ثم ربط ظهور الحكومات برضاء الشعب<sup>(٣)</sup>.. وهو بالتالي لم يكن يعترف بحق أي حكومة لم تأت برضاء الأفراد وإرادتهم.

والحرية في رأى سليم عتقورى هي «الوسيلة العظمى للنجاح والفلاح والأساس الأقوى لعرض الإصلاح وأنه من المحال أن تنال أمة من الأمم قوة أو ثروة أو عزة حتى يتنازل أبنائها تمام الحرية»<sup>(٤)</sup>.

ويفرق الكاتب بين نوعين من الحرية: الحرية الحقيقية والحرية الكاذبة، ففي النوع الأخير من الحرية «ضاعت القوانين والشرائع واستحكمت سلطة الهوى وقويت شوكة الاستبدادية».

أما الحرية الحقيقية فهي تعنى «أن تكون حرية البلاد مصونة بقانون عادل يبيح لها أن تبدى أفكارها فيما يعود على الأمة بالخير والفلاح مع حفظ حقوقها الواجبة والمجاهدة في سبيل استقلالها وترقية أهلها».

أما يعقوب صنوع فهو يقدم تعريفا للحرية يقول فيه: «ومرادى بالحرية أن يكون الإنسان حرا في أفكاره وفي أفعاله وجميع شئونه»<sup>(٥)</sup>.

ويركز يعقوب صنوع على حرية الإنسان في اختيار العمل الذى يريده فيقول: «وأما الحرية في الأعمال فهي أن يختار الإنسان لنفسه من الأعمال ما تعود عليه فوائدها ويجنى ثمراتها»..

ويتفرد عبدالله النديم بأنه أول مفكر مصرى يكتشف - فى ذلك الوقت - الجانب الاجتماعى لمفهوم الحرية وهو بذلك يتخطى المفهوم الليبرالى لقضية الحرية ليعطيها بعدا اشتراكيا مبكرا.. فهو يقول:

«لو نظرنا إلى إنسان الوجود الحالى فى سائر بقاع المسكونة لرأيناها بعيدا عن الحرية سواء فى هذا تابع الحكومة الجمهورية أو الشورية أو الاستبدادية فإن الوجود مضبوط بممالك مقيدة بقوانين وضعت بأغراض ذاتية وأفكار مقصورة على فرد أو بعض أفراد.. وإن قيل أن الممالك تعرض القانون على مجالسها قبل تقريره.. قلنا إن المجالس مقصورة على أرباب الثروة أو أهل الكلام وليست الأمة كذلك.. وهذا يثبت أن الإنسان فى أسر القوانين وتحت تصرفها»<sup>(٦)</sup>.

(١) د. حسن فوزى التجار - الفكر السياسى الحديث ص ٣٩-٤٠.

(٢) W.T.Jones: Masters of Political Thought-Volume Two, P.369.

(٣) Ibid.,p.184.

(٤) مرآة الشرق - ٩ يوليو ١٨٧٩.

(٥) ابو نظاره - ٢١ نوفمبر ١٨٧٨.

(٦) التنكيت والتبكيث - ٣ يوليو ١٨٨١.

ومن ذلك يستخلص النديم استحالة وجود مدلول للحرية المطلقة مادام الإنسان مختلطاً بمن له غرض ذاتي كما يحكم باستحالة تجرد الإنسان صاحب الغرض الذاتي فإنه من نوعه.. النوع قاض بحدوثه كلما تجدد النسل في الوجود».

ولذلك فالنديم يعتقد أنه لا توجد سوى الحرية المجازية وهي عنده تعني «وقوف الإنسان عند حده ومعرفته حقاً لنفسه يطالب به وواجباً لغيره يؤديه. وهذه الحرية لا ينالها إلا أمة تهذب وترت على محاسن الأخلاق وعرفت معنى الإنسانية وحق المدنية وقدر الوطنية.. والأمم على اختلافها وكثرة تعددها لم يتم لواحدة منها الفراغ من تهذيب كل الأفراد فهي تسعى عن طريق التقدم بتعميم التعليم وتنوير الأفكار لتحظى بالتساوي المطلق الذي لا يتيسر وجوده إلا بعد علم كل فرد بالقانون وهذا لا يضمنه إلا القرن الخمسون إن سلمت الأفكار وعمت المعارف وبطلت الحروب».

ويرى الشيخ محمد عبده أن الحرية تنقسم إلى «حرية رأي وحرية قول وحرية انتخاب»<sup>(١)</sup>.. لكن هذه الحريات في رأى محمد عبده لها حد لو تخطته انقلبت إلى عكس معناها» ولهذا الحقوق الثلاثة حد لو تعدته لكنت - الحرية فيه شراً من القيد وأشنع من العبودية فحد حرية الرأي أن يكون مبني على القياس موافقاً للحكمة مطابقاً للصواب وحد حرية القول أن يراد به الخير ولا ينشر عن غير علم يقين.. وحد حرية الانتخاب أن يراد به مصلحة الوطن العزيز ليس إلا».

وكان الشيخ محمد عبده دائم الهجوم على الفهم الخاطيء للحرية في مصر فهو يقول: «واني بما وسعه علمي أقول مع كمال التأسف أن البعض من أبناء شعبنا المصري أصلح الله حالهم قد استعملوا لفظة الحرية في غير ما وضعت له وذلك لعدم وجود القابلية لفهم المعاني بالنسبة لاستمرارهم على الفطرة الأصلية بدون انتقالهم في درج المعارف فتطرق الخلل إلى أعمالهم ونسجوا في بحار المخالفات فقطعوا السابلة واستضعفت القوى من دونه ولم يبالوا بسلب أعراضهم ولا بمتابعة أغراضهم مع وجود القوانين الحقة التي ترجع إليها هذه الأمة في معاملتها العمومية والخصوصية وهيئتها النفسانية زاعمين أن الحرية تكون هكذا.. ولقد ساءنى ما أراه من افراط البعض في تعاطي الحشيشة والمسكرات وارتكاب المنكر وترك الفرائض الواجب عليه أداؤها زاعماً أن هذا هو الحرية»<sup>(٢)</sup>.

وكان محمد عبده يهاجم دعاة الحرية الشخصية ويرى أنها ضارة مالم تدعم بالتربية وإلا سقط الناس في الخمر والقمار وهتك الحرمات وجأهروا بالإلحاد بل نراه يفضل (الكبسة) على الحرية الشخصية من غير تربية.. والكبسة عادة كانت جارية وهي أن يهجم رجال الضبط على بعض الأماكن المشبوهة ليلاً ليقبضوا على من يظن فيهم الاجتماع لخم أو فجور»<sup>(٣)</sup>.

(١) الوقائع المصرية - ١٠ نوفمبر ١٨٨١ مقال (الحياة السياسية).

(٢) الوقائع المصرية - أول أبريل ١٨٨٢ - مقال (التملن والحرية).

(٣) أحمد أمين - زعماء الإصلاح ص ٣٥ - ٣٦.

إن الشيخ محمد عبده يرى أن الفهم الخاطئ للحرية سببه أن المجتمع المصرى لم يكن مستعداً لتقبل هذه الحرية «فهذه الحرية النبذاء التى رمانا بها عقلاؤنا لم تدع لها أثراً يحمد وإن كان الأورباويون يحرصون عليها فإن استعداد بلادنا لم يكن ملائماً لمثل هذا الإطلاق الذى هو فى الحقيقة عين الرق والاستعباد فإن الجاهل الذى لم يتعود على تصريف إرادته وإعمال اختياره إذا أطلق له العمل وقع فى أشد من الرق وأضر من العبودية» (١)

ولكن الشيخ محمد عبده يعود فيتراجع عن هذا رأى بعد نجاح الثورة العربية - ولأسباب شرحتها - فيهاجم الذين يدعون لحرمان الشعب المصرى من الحرية بحجة أنها لاتلائمه فيقول: «ولكن أبت الحوادث إلا أن تثبت لنا وجوداً وطنياً ورأياً عمومياً ولو كره المبتلون على أن منهم فئة لايزالون يؤلمون أسماعنا بما يكررون من سفاسف القول عن مثل إننا لما تعودنا احتمال الظلم والحيث وألفنا الدخمة والرق فلن يستقل لنا رأى ولن نهتدى سبيل الحرية كأننا هم لايعلمون أن أهل الغرب أجمعين تعودوا مثل ذلك الحيف إعصاراً وكانوا فى قديم الأيام على ضروب من الرق وانخفاض الجناح وإن العالم بأسره كان فريقين أحراراً - يظلمون وعبيداً يطيعون أو لم يكن فى بلاد الفرنسيين من قبل هذا العهد فى صفوف الرقيق من يشتغلون فى الأرض لغيرهم ويباعون كما تباع العجماوات أو لم يقل كاتبهم فولتير فى وسط المائة السابقة لايزال فى بلادنا ستون ألفاً أو سبعون ألفاً عبيد للرهبان.. فما بال هذه العادة لم تمنع الفرنسيين من الوصول إلى ما أدركوه من رفعة المقام.. وإن لم يروا أمثال نيارس وجريفى وغامبتا فى أبناء الذين كانوا من قبل عبيداً أرقاء» (٢)

\*\*\*

(١) الوقائع المصرية - ١٢ أبريل ١٨٨١ مقال (كلام فى خطأ العقلاء).  
(٢) الوقائع المصرية - ٢٨ نوفمبر ١٨٨١ مقال (تابع فصول الحياة السياسية).

## الفصل الثامن

**الصحافة المصرية  
وحرية الفكر والتعبير**





كانت الدعوة إلى حرية الفكر وما يرتبط به من حرية الصحافة والكتابة.. والنشر.. وحرية القول والخطابة وحرية الاجتماع.. واحدة من أكبر المعارك التي خاضتها الصحافة المصرية في فترة البحث - خاصة إذا وضعنا في اعتبارنا عمليات التعطيل والمصادرة والإلغاء التي تعرضت لها الصحف الوطنية<sup>(١)</sup>.. مثلما حدث لصحيفتي نزهة الأفكار وأبو نظارة في عهد إسماعيل.. ثم ما حدث لصحيفة مصر.. والتجارة.. ومصر الفتاة في بداية عصر توفيق.. أضف إلى ذلك إجراءات التنكيل والمطاردة التي تعرض لها بعض الكتاب والصحفيين مثل يعقوب صنوع وأديب إسحق حيث اضطر كل منهما أن يغادر مصر إلى أوروبا ليصدر فيها صحفه.

وكان هذا الهجوم من جانب السلطة الاستبدادية على الصحف وحققها في التعبير.. أحد الدوافع الهامة التي جعلت الصحف ترى في حرية الفكر - وخاصة حرية الصحافة - حماية لها من السلطة الاستبدادية.. أي بمثابة عملية دفاع عن النفس..

وقد بدأ اهتمام رفاة الطهطاوى بحرية الفكر وخاصة حرية الصحافة.. في كتابه الأول تخليص الإبريز.. وفي تعليقه على المادة الثامنة من الدستور الفرنسي التي تنص على أن «لا يمنع إنسان في فرنسا أن يظهر رأيه وأن يكتبه ويطبعه بشرط ألا يضر ما في القانون فإذا تضرأزيل<sup>(٢)</sup>» وفي تعليقه على هذه المادة قال الطهطاوى: «أنها تقوى كل إنسان على أن يظهر رأيه وعلمه وسائر ما يخطر بباله مما لا يضر غيره فيعلم الإنسان سائر ما في نفس صاحبه خصوصا الورقات اليومية المسماة بالبحورنالات، والكازيطات الأولى جمع جرنال والثانية جمع كازيطة.. فإن الإنسان يعرف منها سائر الأخبار المتجددة سواء أكانت داخلية أو خارجية أى داخل المملكة أو خارجها وإن كان قد وجد فيها من الكذب ما لا يحصى إلا أنها قد تتضمن أخبارا تشوق نفس إنسان إلى العلم بها على أنها ربما تضمنت مسائل علمية جديدة التحقيق أو تنبيهات مفيدة. أو نصائح نافعة سواء كانت صادرة من الجليل أو الحقير لأنه قد يخطر ببال الحقير ما لا يخطر ببال العظيم كما قال بعضهم.. لا تحقر الرأي الجليل يأتيك به الرجل الحقير فإن الدرة لا يستهان بها لهوان خواصها.. ومن فوائدها أن الإنسان إذا فعل فعلا عظيما أو رديئا وكان من الأمور المهمة كتبه أهل البحورنال ليكون معلوما للخاص والعام لترغيب صاحب العمل الطيب ورفع صاحب الفعلة الخبيثة..

(١) عبد الرحمن الرافعي - أحمد عرابي - دار الشعب - القاهرة ١٩٨٦ ص ٢٢ وعبد الرحمن الرافعي - عصر إسماعيل - الجزء الأول - طبعة ثانية - ص ٢٤٩ - ٢٥٠.  
وقسطنطين الحلبي - تاريخ تكوين الصحف المصرية - مطبعة التقدم - الاسكندرية ١٩٢٨ - ص ١١٠.  
(٢) رفاعه الطهطاوى - تخليص الإبريز ص ١٤٢.

وكذلك إذا كان الإنسان مظلوما من إنسان فكتب مظلمته فى هذه الورقات فيطلع عليها الخاص والعام فيعرف قصة المظلوم والظالم من غير عدول عما وقع فيها ولا تبديل وتصل إلى محل الحكم ويحكم فيها بحسب القوانين المقررة فيكون مثل هذا الأمر عبرة لمن اعتبر». (١)

ويدعو رفاة فى روضة المدارس إلى حرية الفكر ولكنه يسميها حرية الرأى ويقول إن البلد الحر هو الذى يحق للفرد فيه «ألا يكتم رأيه فى شىء بشرط ألا يفعل مايقوله أو يكتبه بقوانين بلده». (٢)

ونلاحظ أن مايطالب به الطهطاوى فى روضة المدارس هو بنفس نص الكلمات التى نصت عليها المادة الثامنة من الدستور الفرنسى الذى سبق وأن ترجمه فى تخلص الإبريز منذ أكثر من أربعين عاما».

وفى رسالة بعث بها أمين شميل إلى الأهرام يهنئ فيها صاحبه بنجاح الصحيفة، أشار الى حرية الصحافة فقال: «إن الجرائد لا تكون آلة لتمدن قوم ونجاحهم مالم يكن لها حرية القول». ويرى أمين شميل أن الحرية ثلاث: «حرية الفكر وحرية الفعل وحرية القول». (٣)

وهذه الحرية هى منحة من الخالق عزوجل لمخلوقه تحت سنن معلومة عليها وعلى العقل موقوف لنجاح العالم كله.. فلاعلم ولااختراع ولاتمدن، ولاصناعة ولاحرقة ولاأمر من الأمور يمكن جعله نافعا بدونها.. فالعقل يكتشف وهى توزع ولانفع لما يكتشفه الواحد بدون توزيع الثانى والعجورنالات هى واسطة الواسطة هنا».

ويرفض أمين شميل دعوى البعض أنه لايجب أن تمنح كل الأمم حرية الفكر بحجة «أن الأمم كالأفراد وأنه كما يمك على الإنسان وهو طفل الأشياء القابلة للعطب والكسر كذلك يجب أن يمك عن الأمم غير المتمدنة الحرية عن مداولة الأمور المهمة كى لا تفسد ويتولد عنها الضرر».

ويرد أمين شميل على هذه الدعوى بالتأكيد على نقطتين هامتين الأولى «عدم إمكان الحكم العادل على أفراد الأمم من حيثة لياقتهم وعدم لياقتهم للحرية وعدم الوقت ونحوه الذى فيه تصير هذه الأمة أو تلك لائقة لذلك».

والثانية «عدم إمكان أمة من الأمم أن تتقدم فى التمدن والنجاح المادى والأدبى بدون حرية تمنع عنها وسيلة التمدن التى هى الحرية بعذر عدم لياقتها لها فالطفل مادام طفلا بالحقيقة وأمسك عنه الشىء الممكن كسره فالعمل جيد وليس كذلك إذا كان يحفظ محجورا كل حياته وعلى أنه طفل لايلق للاتئمان أو كيف يجوز حجب الحرية التى هى سلاح العقل عن أمة دون أخرى.. فتصبح تلك الممنوعة عرضة لمجاوزات وتعديات الأخرى ونجاحها عليها.. فإنه يلزم التساوى لكى يظهر ما للواحدة من الفضل على الأخرى وأيهما الأخرى بأن يقضى لها بشرف السباق فى ميدان

(١) المصدر نفسه ص ١٤٢.

(٢) روضة المدارس - العدد ٢٣ السنة الخامسة ١٨٧٤.

(٣) الأهرام - ١٦ سبتمبر ١٨٧٦.

التقدم والتمدن وليس بمنصف ذلك الأب الذي يجعل تمييزا بين أولاده بمنعه عن الواحد مايجيزه للثاني بدون برهان».

كذلك يتصدى أمين شميل للهجوم على تلك الدعوى التي توردها بعض الصحف الأوروبية بأن أمم الشرق غير مستعدة لتقبل ممارسة حرية الفكر والقول والكتابة لأنه «كما تستحيل الأطعمة الجيدة في المعدة الضعيفة إلى فساد، وكذلك تستحيل الأمور النافعة في تصرف الجاهل على ضرر ولذا كان المنع أولى من التحرى فمعرفة من يليق ومتى يليق لمثل ذلك».

ويرد أمين شميل على هذه الدعوى قائلا:

«إننى لأسلم أولا بأن معدة أهل الشرق هي أضعف من معدة الشعوب الغربية وعلى فرض كونها أضعف فإذا كانت الأطعمة الجيدة تستحيل فيها إلى فساد فلاشك أن الرديئة تستحيل فيها إلى سم قاتل وإذا كان لابد من الغذاء فالأولى التغذية بما لا يفسد ولا ينتقل على أن البرهان الفعلى والعقلى والتاريخى هو أن كل فن وصلاح وتمدن دينى ومدنى إنما منبعه من الشرق وأن الغرب محتكر لاغير وأنه أخذ الآن برده علينا ماحرزه منا بثمن لاطاقة لنا على دفعه، ويكفى لنا دليلا أن الأمم الكبرى والممالك العظمى والمالثة ثلث أرباع الكرة إنما أخذت قوتها الأدبية والسياسية القائم عليها مدار غموها ونجاحها من شريعتى المشرعين العظميين المولودين فى أفقر العالم أى فلسطين والحجاز ولايجب أن يكون الشرق غيورا على خزائنه الأدبية والمادية، فلا يرغب التمتع بها ولا نشرها وتوزيعها على العالم خلافا لمقاصد العناية الأزلية».

وأخيرا يتشهى أمين شميل إلى الدعوة لأن «يفكر ويكتب ويتكلم الإنسان مايشاء بحيث لا يحدث بغيره ضررا بينا فيجنى للناس منافع عظيمة ويجارى نفس الأحكام الإلهية لأن الله خلق الإنسان حرا مستولا وعلى الشرع أن يقبله كذلك».

وهاجم أديب إسحق قانون المطبوعات<sup>(١)</sup> مطالبا بحرية الصحف فقال:

(١) لقد صدر أول تشريع للمطبوعات فى مصر أثناء الحملة الفرنسية فى ١٤ يناير ١٧٩٩ .. أصدره الجنرال بونايرت ثم تلاه الجنرال عبدالله مينوافي أمره الصادر فى ٢٦ نوفمبر ١٨٠٠ بشأن جريدة التنبيه .. ثم أصدر محمد على أمرا فى ١٣ يولييه ١٨٢٣ يحرم طبع أى كتاب فى مطبعة بولاق إلا بإذن من الباشا .. وعندما تولى سعيد باشا الحكم أصدر تشريعا نص أولهما على فرض الرقابة الواقية على المطبوعات وعدم جواز نشر الصحف دون الحصول على رخصة من ديوان الداخلية ونص ثانيهما على منع صحف الأجانب فى مصر من نشر أى نقد لأعمال الحكومة .. وعندما صدر قانون المطبوعات العثمانى فى يناير ١٨٦٠ فى الأستانة تأثرت به مصر .. كذلك عندما صدر فى ١١ ديسمبر ١٨٧٠ القانون الهمايونى الذى اعترف بحرية المطبوعات فى الدولة العثمانية وسائر ولاياتها .. وكان قد تأسس فى أكتوبر ١٨٦٦ قلم للصحافة والمطبوعات فى مصر ألحق بنظامه الخارجية وكانت مهمة هذا القلم مراقبة الصحف العربية والإفريقية.

وفى ١٣ ديسمبر ١٨٧٨ تقرر أن تكون الصحف والمطبوعات تابعة لنظارة الداخلية.

وقد ظل هذا الوضع ساريا حتى صدر قانون المطبوعات فى ٢٦ نوفمبر عام ١٨٨١ .

«إن قانون المطبوعات الحالى يشبه أن يكون جلادا واقفا على رؤوس الجرائد بسيف الإلغاء أو التعطيل ولا ريب أن هذا الحكم فى مقابلة الهفوة الطفيفة بالعقاب العظيم لا يبرأ من القسوة بل يحمل على استئصال الشر بوسيلة تقطع موارد الخير»<sup>(١)</sup>.

واتخذ أديب إسحق من مهاجمة قانون المطبوعات وسيلة للدفاع عن حرية الصحافة فقال مظهرا فوائد هذه الحرية: «إن تقييد الحكومة للجرائد بضربها أكثر مما تضر حريتها المتجاوزة للحد إذ تحتجب الحقيقة وتمتنع المفاوضة فتقوى حجة الكذب وتنتشر النميمة بظاهر يشبه الصدق فلا تستطيع مدافعتها أو مقاومتها».

وقال أديب إسحق «إن الحكومة لا تتركه بيان أعمالها ولا تخاف النظر فيها إلا إذا كانت فى غاية الضعف أو السوء».

ويطالب أديب إسحق الحكومة «أن تمنح بعض الحرية للجرائد لتؤيد بذلك ما وعدت به من إقامة أمور الحرية ولا ريب أن الجرائد الحرة تعينها على بلوغ هذا القصد إذ تنهض بإرشاد العامة إلى طريق الصواب فى الحكم ومعرفة حقائق الأمور.. ولا مرأ أن حرية النشر والمفاوضة هى التى تحدد للوطن خطوطه وتعين له الواجبات».

ومن أبرز القضايا التى تعرض لها ميخائيل عبد السيد مطالبته بحق مندوبى الجرائد فى حضور جلسات مجلس شورى النواب.. وحق الجرائد فى نشر ما يدور فى هذه الجلسات وحق التعليق عليها.. فيقول: «لا تحرموا مكاتب الجرائد من الحضور فى مجلس شورى النواب لينظروا فيما يبدىه الأعضاء من الأفكار والآراء فتنتفع الأهالى بذلك ليكون لهم اطلاع على مساعى نوابهم هى العادة الجارية فى أحقر مملكة من ممالك أوروبا»<sup>(٢)</sup>.

وعندما صدر قرار بتعطيل الوطن خمسة عشر يوما تساءل ميخائيل عبد السيد «إننا لم نعلم سببا لهذا القرار سوى ذكر فصل عن لزوم تنقيص قائدة الديون ومن المعلوم أن هذا الفصل كان منقولاً عن التاييز التى هى أشهر جرائد إنجلترا بل أشهر جرائد أوروبا وهو مفيد لأهل بلدنا ليكون لهم اطلاع على ماتبيده الجرائد من الآراء عنهم وعن بلدهم»<sup>(٣)</sup>.

وأضاف :

«وأما إذا كان التعطيل بسبب ذكر حقوق أعضاء مجلس النواب فهذا ليس بشئ بالنسبة لما يحدث فى غالب دول أوروبا».

ثم استغل ميخائيل عبد السيد حادث تعطيل الوطن.. كفرصة للدعوة إلى طلب مزيد من الحرية للصحافة وبرر ذلك قائلا:

(١) التجارة- ١١ نوفمبر ١٨٧٨ مقال (حرية الجرائد).

(٢) الوطن ٢٨ ديسمبر ١٨٧٨.

(٣) الوطن ١٣ فبراير ١٨٧٩.

«لقد سئل أحد كبار وزراء أوروبا عن سن قانون لمنع حرية المطبوعات وذلك لمنع الضرر ورفع تشويش الأذهان فقال: «إن الواقي الوحيد لمنع الضرر والخطر هو حرية المطبوعات»، ولعمري لقد أصاب هذا التحرير في هذا المقال فحرية الجرائد هي بمنزلة بلسم للعليل وماء لدواء العليل فإذا نكصنا الآن في هذا العصر الذى تم فيه العدل فى البلاد التى كانت مشهورة سابقا بالاستبداد كان ذلك بمنزلة منع الدواء عن العليل».

ويرى يعقوب صنوع أن «ماfish أكثر حر من فكر الإنسان لأن ماحدش بيعحكم عليه».(١)  
وصنوع يعتبر أن حرية الفكر هي إحدى منح الله للإنسان.. لا يحق لأحد أن يضع عليها أي قيد: «واعلموا أن الله تبارك وتعالى قد وهب للإنسان عقلا وأعداه للنظر إلى الجهات المتعددة والسير في الطرق المختلفة لاختار من بينها ما فيه سعادته ويترك ما فيه شقاءه.. فلا يتم للإنسان سعادة إلا أن يكون لعقله تمام الإطلاع في انتقاء ما هو الخير له وهذا هو المسمى بحرية الأفكار.. فإن سطا قاهر على العقل وصدّه عن الجولان وحجبه عن سعة الإطلاع بواسطة الإرهاب وقصره عن النظر في موضع خاص يكون قد فوت على الإنسان النصيب الأوفر من السعادة».(٢)  
وحرمان الإنسان من حريته الفكرية يحول- فى رأى يعقوب صنوع- بينه وبين «العلوم العالية والصنائع الدقيقة والنظامات المحكمة».

ثم لا ينسى أن يؤكد أن هذه الحريات «مفقودة فى بلادنا»  
وعندما صدر القانون الجديد للمطبوعات فى ٢٦ نوفمبر ١٨٨١ (٣) هاجمه يعقوب صنوع

(١) أبو نظاره - ٧ اغسطس ١٨٧٨.

(٢) أبو نظاره - ٢١ نوفمبر ١٨٧٨.

(٣) يعتبر قانون المطبوعات الصادر فى ٢٦ نوفمبر ١٨٨١ هو أول تشريع للصحافة فى مصر يرتب شأنها ويحدد واجباتها ويعلن حقوقها وقد صدر القانون فى ٢٣ مادة نص فيها على وجوب طلب الترخيص قبل إصدار أية صحيفة كما فرض دفع تأمين قدره مائة جنيه لكل صحيفة وأعطى الحكومة حق تعطيل أو مصادرة أو قفل الصحيفة بأمر من ناظر الداخلية بعد إنذار. و بقرار من مجلس النظار بدون إنذار وذلك حفظا للنظام العام والآداب العامة والدين.. كذلك نص القانون على أن لوزير الداخلية أن يمنع دخول أية صحيفة أجنبية إلى البلاد. ولاشك فى أن هذا القانون قيد حرية النشر فى مصر لأنه أعطى للسلطات الإدارية حق تعطيل الصحف بدعوى المحافظة على النظام العام أو الدين أو الآداب- وهى أسباب يمكن لكل حاكم أن يتذرع بها إن أراد القضاء على صحيفة تعارض سياسته.

(د. خليل صباغات- الصحافة رسالة واستعداد وفن علم- دار المعارف- القاهرة- الطبعة الأولى ١٩٥٩ ص ٢٣٢-٢٣٣)

ومن الغريب أن يرتبط صدور هذا القانون القاسى بمعهد شريف باشا ولكن تحليل سير الحوادث يدل على أن شريف باشا كان يخشى ازدياد قوة الجيش وكان يرى أن الصحافة هي التى تلعب الدور الأكبر فى تدعيم الصلة بين الجيش وبين الشعب؟؟.. فأصدر شريف قانون المطبوعات لأجل كتم ألسنة الجرائد الحرة ولقطع الصلة بين الشعب والجيش.

ولقد توقعت الصحف أن تعتمد الحكومة إلى إلغاء هذا القانون وتشكل لجنة تنظر فى وضع قانون جديد بعد أن تشكلت وزارة البارودى خاصة بعد أن وصف عرابى القانون نفسه بأنه قصد به القضاء على الحرية (أحمد =

بعنف رانهم الذين وضعوه بأنهم «جعلوا من مقتضاه التجسس على الجرائد الحرة وعاملوها كالمطابع السرية.. فصاروا يتوجسون منها الشر».(١)

وقد اتخذ سليم النقاش موقفا مغايرا لموقف يعقوب صنوع من قانون المطبوعات الصادر في نوفمبر سنة ١٨٨١ فقد كتب يعلن رضاه على القانون الجديد وكانت حجة في ذلك أنه أفضل من سابقه من ناحية ثم هو قانون مؤقت يمكن إصلاح مافيه من ثغرات في المستقبل من ناحية ثانية.. فهو يقول:

«وإننا نرضى بهذا القانون إلى حين.. فهو خير من الحالة الأولى حيث كان من حق وزير الداخلية أن يغلق الجريدة بينما نصن القانون الجديد على ضرورة إنذارها مرتين قبل الغلق.. ثم لايتأتى القرار الأخير إلا من مجلس النظار ثم إن من حق صاحب الجريدة أن يرفع شكواه إلى المحاكم في حالة غلق أو مصادرة جريدته وهذا لم يكن في الماضي وقد كان قاصرا على الجرائد الأجنبية».(٢)

وتعرض سليم النقاش إلى مااستحدثه القانون الجديد من دفع ضمان مالى لإصدار الجريدة فقال «إنه شيء معترف به حتى في فرنسا نفسها وكذلك الغرامة على الصحف».

ثم أضاف الكاتب «لقد ساوانا القانون بالأجانب وهذا خير».

ثم يؤكد سليم النقاش أنه رغم أن القانون الجديد ليس كل ماكننا نتمنى إلا أنه لايد أن نضع في ذهننا حالة البلاد ومستوى وعيها السياسى وأن القانون إذا نظر إليه باعتباره درجة سوف تتبعها درجات إلى نيل مزيد من الحرية لا بد أن يحوز رضا الجميع: «لو نظرنا إليه من حيث مدلوله لوجدناه من غير شك في غير محله ولكن علينا أن ننظر إليه من حيث أحوال البلاد وتدرجها السياسى».

وكان الشيخ محمد عبده من الذين دعوا إلى إطلاق حرية الفكر.. وكان يرى أن المجتمع الحر لايمكن أن يقوم إلا «بإطلاق حرية الأفكار والأقوال والأعمال حتى لا يخاف الإنسان ملامة ولا عقابا في الاشتغال بالعلوم التي تقف بالعقل وتوسع دائرة الفهم».(٣)

---

= عرابى-مذكرات أحمد عرابى المخطوطة ص٤٠٦). ولكن الذى حدث هو عكس ماتوقعه الجميع فقد وجدت حكومة البارودى نفسها مسلحة بسلاح لم تعتمد هى إلى إبداعه بل وجدته طوع أمرها ورأت أن تستخدمه لصالحها ولذلك كثرت الأوامر والإنذارات وقرارات التعديل لضرورة تحرى الدقة والتزام الكتابة فيما لا يخلدش. والابتعاد عن تناول أحداث مصر. فصدرت ثمانية إنذارات لخمس صحف مختلفة في الفترة من ٨ مارس الى ١٤ مايو ١٨٨٢. د. سامى عزيز- الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي- دار الكاتب العربى- القاهرة ١٩٨٦ ص٥٢-٥٤.

(١) أبو نظارة- ٢٦ فبراير ١٨٨٢.

(٢) العصر الجديد- ٧ ديسمبر ١٨٨١-يقال (قانون المطبوعات).

(٣) الوقائع المصرية- ١٥ فبراير ١٨٨٢.

وطالب الشيخ محمد عبده بضرورة أن ينص قانون البلاد على «إطلاق حرية الفكر والمطابع والأفكار والأعمال والأقوال على شرط أن يكون هذا الإطلاق تحت قانون عدل . . الحدود وبين الواجبات على تفصيل يرفع الإبهام وتبين يزيل الالتباس».

أما عبدالله النديم فكان يرى أن «الكلام الحر ما كان غير منبذ بمشرب، أو عاده . . مقتصر على شرح الحقيقة بلا حشو ولا تنميق»<sup>(١)</sup> والإنسان الحر في رأى النديم هو «من ملك أمره ولم يتعد أفكاره بغرض».

ويلاحظ أن قضية حرية الصحافة قد استأثرت باهتمام الصحافة المصرية في فترة البحث أكثر مما استأثرت به أى قضية أخرى من قضايا حرية الفكر والتعبير . . ويرجع ذلك إلى ماسبق وأكدناه من أن الصحف كانت في ذلك الوقت هدفا دائما للتنكيل من جانب السلطة الاستبدادية.

كذلك فإن التركيز على حرية الصحافة يفسره كون الصحف كادت أن تكون الأداة الوحيدة للتعبير عن الرأى فى مصر . . فى ذلك الوقت.

\* \* \*

---

(١) التنكيث والتبكيث - ٣ يوليو ١٨٨١ مقال (حر الكلام - كلام الحر).





## الفصل التاسع

# الصحافة المصرية وسيادة القانون



لقد لعبت فكرة سيادة القانون دورا كبيرا فى الفكر المصرى الحديث ولم تكن تخلو صحيفة مصرية فى فترة البحث من دعوة إلى ضرورة وجود قانون عادل تتحقق به المساواة الكاملة لجميع المواطنين.. وكان كتاب هذه الفترة يرون فى وجود القانون ضمانة لحماية الحريات العامة والحقوق الفردية للمواطن خاصة وأن المجتمع المصرى لم يكن يعرف حتى بداية فترة البحث سوى سيادة الخليفة العثمانى أو الوالى أو الخديوى.. حيث كان القانون يختلط بالدين.. وبحيث صار يعبر عن الإرادة الإلهية.. وكانت الدولة نفسها تستمد وجودها من إرادة الله.

ولم يكن هذا شيئا استحدثته الدولة العثمانية.. وإنما عرف طوال التاريخ الاسلامى بعد نهاية عصر الخلفاء الراشدين إذ لجأ الملوك والسلاطين إلى نظرية الحق الإلهى لتبرير حكمهم المطلق. (١)

ولقد لجأ المفكرون المصريون إلى سيادة القانون لى يواجهوا بها سيادة الخديوية المطلقة وحتى يصبح الجميع سواء أمام القوانين فلا يعفى أحد مهما بلغت درجته من الخضوع لها وبذلك تكون سلطة القانون فوق سلطة الحكومة.. ولعل هذا يفسر لنا اهتمام المفكرين المصريين بالمجالس النيابية.. فهى التى تتولى عمل القوانين وماعلى الحكومة إلا التنفيذ.. وكان هذا منطلقا إلى الدعوة للفصل بين السلطات الثلاث التشريعية والتنفيذية والقضائية.. لذلك استلهم منه المفكرون المصريون أكثر أفكارهم حول سيادة القانون والفصل بين السلطات.

ولعل فى التشابه بين ظروف المجتمع المصرى فى فترة البحث.. وظروف المجتمع الفرنسى فى عصر مونتسكيو ما شجع المفكرين المصريين على محاولة تطبيق أفكار مونتسكيو فى بلادهم فمن المعروف أن أفكار مونتسكيو كانت متأثرة بما كان يعاينه المجتمع الفرنسى من استبداد المملوك لذلك نراه يحاول إيجاد الرسائل التى تكفل إعادة الحريات بأن جعل كل سلطات الدولة ممثلة فى القوانين أسوة بالمجترأ الذى كان قد تأثر بنظام الحكم فيها إبان إقامته بها لذلك نراه يقول بأن كل حكومة لابد أن تتوفر لها ثلاث سلطات تشريعية وتنفيذية وقضائية.. ثم يؤكد السلطة التنفيذية والتشريعية عندما يكونان فى يد شخص واحد أو مجموعة أشخاص لن توجد حرية (٢). لذا فهو يطالب بفصل السلطات الثلاث ويعتبر أن هذا هو أساس الحرية فهو يرى أن التجارب الأتية تؤكد أن الإنسان ذا السلطان يميل إلى إساءة استعمال سلطانه هذا حتى يقف عند حد.. فلا تقف السلطات عند السلطان وعن توازن السلطات الثلاث تنشأ حرية الأمة. (٣)

(١) د. محمد طه بدوى ود. محمد طلعت الغنيمى - النظم السياسية والاجتماعية - دار المعارف - الطبعة الأولى - القاهرة - ١٩٨٥ - ص ١٨٨.

ولقد قال المنصور فى خطبة له بمكة (أيها الناس إنما أنا سلطان الله فى أرضه أسوسكم بتوفيقه وتأييده وحارسه على ماله.. أعمل فيه بمشيئته وإرادته وأعطيته بإذنه فقد جعلنى الله عليه قفلا أن شاء أن يفتحنى فتحنى لإعطائكم وقسم أرزاقكم وإن شاء يقفلنى عليها قفلنى).

(2) W.T.Jones: Masters of Political Thought, Volume Two, pp.244-245.

(٣) مونتسكيو - روح الشرائع - ترجمة عادل زعير - الجزء الأول - دار المعارف - القاهرة - ١٩٥٣ - ص ١٨.

ويقول مونتسكيو أنه في حالة ما إذا اجتمعت السلطة التشريعية والتنفيذية في شخص واحد أو في هيئة حاكمة واحدة لن تكون هناك حرية ذلك لأنه يخشى أن يضع الملك نفسه قوانين جائره لينفذها تنفيذا جائرا. وكذلك لا تكون الحرية إذا لم تفصل سلطة القضاء عن السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية.<sup>(١)</sup>

وبهذه الأفكار وضع مونتسكيو الأساس القانوني للليبرالية.. وعنه أخذ المفكرون المصريون أكثر ماسوف نقرأه في الصفحات التالية.

إن إعجاب رفاة الطهطاوى بقانونية مونتسكيو تبدأ مع زيارته لباريس في مقببل شبابه وقراءته مع مسيو شواليه «جزأين من كتاب يسمى روح الشرائع مؤلفه شهير بين فرنساوية يقال له مونتسكيو وهو أشبه بميزان بين المذاهب الشرعية والسياسية ومبنى على التحسين والتقبيح العقليين ويلقب عندهم بابن خلدون الافرنجى كما أن ابن خلدون يقال له عندهم أيضا مونتسكيو الشرق.. أى مونتسكيو الإسلام».<sup>(٢)</sup>

وإذا تتبعنا مجموع الهوامش والتعليقات والملاحظات التى أبداه الطهطاوى فى كتابه الأول تخليص الإبريز خلال حديثه عن ثورة ١٨٣٠ فى فرنسا<sup>(٣)</sup> أو أثناء شرحه وتعليقه على مواد الدستور الفرنسى<sup>(٤)</sup> دستور ١٨١٨ والنصوص والمواد المعدلة له التى أدخلتها عليه ثورة ١٨٣٠ لإصلاحه سوف نلاحظ تأثره الواضح بأفكار مونتسكيو صاحب روح القوانين عكس مايرى البعض.<sup>(٥)</sup>

معيارا سوى القانون.. خلو الأولى منه.. وخضوع الثانية له فالحكومة المقيدة فى رأى

(١) نفس المصدر ص ٢٢٨-٢٢٩.

(٢) رفاة الطهطاوى - تخليص الإبريز ص ٢٤٤.

(٣) نفس المصدر ص ٢٥٤-٢٧٥.

(٤) نفس المصدر ص ١٣٨-١٥٤.

(٥) يقول الدكتور لويس عوض «تاريخ الفكر المصرى الحديث - الجزء الثانى - ص ١٦٣-١٧٨» إن من يقارن بين تخليص الإبريز الذى كتبه الطهطاوى فى بداية حياته وبين كتاب مناهج الألباب الذى كتبه رفاة فى أواخر أيام حياته سوف يلاحظ نكوص الطهطاوى من الليبرالية المطلقة التى تميزت بها ثورة ثوار فرنسا وأوروبا عامة نحو عام ١٨٣٠ ومن الإيمان العميق بالأشكال الديمقراطية الكلاسيكية ومن تقديس الشعب والإرادة الشعبية إلى لون من الاعتدال السياسى يكتفى بنظام الملكية المقيدة شكلا للحكم ولا يرى أن الجمهورية كنظام سياسى تضمن بالضرورة أية ضمانات الحرية.. أى النكوص من جمهورية جان جاك روسو الديمقراطية الثورية إلى الملكية المقيدة عند مونتسكيو وعند فلاسفة عصر التنوير فى القرن الثامن عشر.. أى أن رفاة الطهطاوى تراجع من ديمقراطية روسو واليعاقبة إلى قانونية مونتسكيو - بل لقد نقل سلطة السيادة من الشعب ومن رئيس الدولة إلى طرف ثالث معنوى هو القانون وجعل منه سيدا على الشعب والملك جميعا.. وهو موقف لا يفهم للديموقراطية معنى إلا فى ظل سيادة القانون ويعتبر كل إرادة عامة لا يعبر عنها بالقانون نوعا من البيروقراطية أو حكم الرعاع لانوعا من الديمقراطية أو حكم الشعب».

ولكننا نختلف مع الدكتور لويس عوض ونرى أنه بمقارنة ماكتبه الطهطاوى فى تخليص الإبريز بما كتبه بعد ذلك فى مناهج الألباب أو الوقائع المصرية وروضة المدارس نجد متأثرا بمونتسكيو منذ البداية أى منذ تخليص الإبريز.

الطهطاوى «لايحكم ملكها إلا بقوانين المملكة التى انحط عليها القرار ولايخذلها بنفسه ولايخرج منها إلى إرادته، والمطلق التصرف فهو الفاعل المختار الذي تكون إرادته فوق قوانين المملكة».(١)

ورغم إعجاب الطهطاوى بأفكار مونتسكيو إلا أنه يرفض قول مونتسكيو باستبداد ملوك الإسلام وأمرائه وحكامه.(٢)

فلم يجد الطهطاوى من الحجج التى يرد بها تهمة الاستبداد عن ملوك الإسلام سوى منطق مونتسكيو القانونى نفسه فقال إن التزام ملوك الإسلام بالشريعة التى هى أساس القوانين السياسية فقال: «إن الحاكم السياسى فى الإسلام لا يخرج أصلاً عن أحكام الشريعة التى هى أساس للقوانين السياسية ولا تنساع الشريعة المحمدية وتشعب مايتفرع عن أصولها من الفروع ظن مالا معرفة له أن مايفعله حكام الاسلام لاوجه له فى الشرع، وقل أن يقدم ملك إسلامى على ما يخالف صراحة كتاب الله وسنة رسوله».(٣)

والطهطاوى هو أول من دعا إلى المساواة أمام القانون.. فهو يطالب «بالتسوية بين أهالى الجمعية»(٤) ويجعل من المساواة أمام القانون «صفة طبيعية فى الإنسان تجعله فى جميع الحقوق البلدية كإخوانه».

وهو يدعم مطالبته بالمساواة أمام القانون بأن يؤكد أن هذه المساواة هى من الحقوق الطبيعية للإنسان فكل منهم ذو عينين ويدين وأذنين وحاسة شم وذوق ولمس وكل منهم يحتاج إلى المعاش، فبهذا كانوا جميعاً فى مادة الحياة الدنيا على حد سواء ، ولهم حق واحد فى استعمال المواد التى تصون حياتهم فهم مستوون فى ذلك لارجحان لبعضهم على بعض فى ميدان المعيشة». ثم يضيف: «ومع أن الله تعالى فضل بعضهم على بعض فى الرزق فقد جعلهم فى الأحكام متساوين لافرق بين الشريف والحقير والرئيس والمرؤوس».

أما أديب إسحق فكان على النقيض من الطهطاوى متأثراً بجان چاك روسو خاصة فى تفرقة بين السيادة السياسية والسيادة القانونية.. فالسيادة السياسية تنجلي فى أن الحكومة القائمة على

(١) الوقائع المصرية- العدد ٦٢٣ غرة ربيع آخر سنة ١٢٥٨ هـ (١٨٤٢م)

(٢) قال مونتسكيو فى كتابه روح القوانين أن الحكومة المعتدلة أكثر ملاءمة للنصرانية والحكومة المستبدة أكثر ملاءمة للإسلام وأن الإسلام الذى لا يتكلم بغير السيف يؤثر فى الناس بروح الهدم التى أقامته وأن تناقل النفس ينشأ عن جبرية الإسلام التى تؤدى إلى البقاء فى سكون «مونتسكيو- روح الشرائع- ترجمة عادل زعيتر- الجزء الثانى- دار المعارف- القاهرة ١٩٥٤ ص ١٧٨-١٨١».

(٣) الوقائع المصرية- العدد ٦٢٣- غرة ربيع آخر سنة (١٢٥٨ هـ) (١٨٤٢م)

(٤) روضة المدارس المصرية - العدد ٢٣- السنة الخامسة، سنة ١٨٧٤.

القانون إنما تأتى إلى الحكم بناء على رغبة الشعب كما تظهرها الانتخابات الحرة بينما السيادة القانونية هى السلطة الممنوحة لهذه الحكومة، والتي تستطيع بمقتضاها تسيير دفة الحكم وتنظيم شئون الحياة وبذلك تكون السيادة هى الأصل وهى الأساس لأنها تتخطى سلطة الحكومة أى السيادة القانونية لتصل الى مصدر هذه السلطة وهو الشعب أو مجموع الناخبين ومعنى ذلك أنه فى الدولة الديمقراطية تكون السيادة السياسية الممثلة فى الحقوق السياسية لمجموع الشعب رقيباً على السيادة القانونية أى سلطة الحكومة بحيث تستطيع أن تحد من غلوها أو تزيلها تماماً. فالشعب هو الذى يأتى بالحكومة أو يعزلها بحسب ما إذا كانت تسمى أو تحسن استخدام السيادة القانونية. (١)

إن أديب إسحق يرى أنه «لما كانت قوة الأمير قائمة بالأحكام وهذه منحصرة فى القوانين التى هى عبارة عن إرادة الأمة لزم من ذلك ألا يكون للدولة قوة ولا يصح للأمير حكم إلا بموافقة الأمة بجمليتها.. فهى تجتمع فى العام أو الخمسة لتختار من نبهائها أيهم أشد حرصاً على مصلحتها ورغبة فى منفعتها فكان النواب وعقدت مجالسهم فصارت من لوازم الحكومات المقيدة القانونية». (٢)

وفى مجموعة من الخطابات المنشورة التى وجهها أديب إسحق إلى الخديو اسماعيل بتوقيع.. مصر الفتاة.. طالب فيها بسرعة إصدار قانون يحدد حقوق المواطنين وواجباتهم وكان ذلك بمناسبة اعلان الخديو أنه سوف يأخذ بمبدأ مسؤولية الوزراء وكان رأي أديب أنه لا معنى لوجود وزراء مسئولين دون أن يكون هناك من يسألهم لذلك طالب أديب بمجلس للشيوخ ومجلس للنواب يسأل أمامهما الوزراء - ولكى يتم ذلك لابد من وجود قانون يحدد وظيفة كل هيئة وحدود مسئوليتها فقال موجه الخطاب إلى الخديو اسماعيل:

«مولاي قد ورد أمركم السامى إلى دولة رئيس النظار مايشعر برغبة جلالتك فى أن يكون الوزراء مسئولين ولنعمت الرغبة ولكن ماهى هذه المسئولية ومن هو السائل وماهى القوانين المبينة لوظائف الوزراء المطهرة لعلاقاتهم المعينة لتكاليفهم المحددة لواجباتهم المعرفة لحقوقهم وعند أى حد تقف سطوتهم وفى أى الأحوال يكونون مذنبين، فإنه حيث لا توجد تلك القوانين فلا وجود للواجبات ولا الحقوق.. وبالإضافة لوجود للمسئولية والحالة هذه.. أن يكون مجلس الشيوخ والنواب هو السائل، وأن تضع حكومتنا قانوناً لهذه المسائل». (٣)

وفى خطاب آخر إلى الخديو طالب أديب إسحق بقانون عام للموظفين والعاملين فى الدولة يحدد حقوقهم ويبين واجباتهم: «مولانا.. إن مسئولية الوزراء تستلزم بحكم الضرورة مسئولية الذين دونهم فإن الأمر الصادر من الوزير لا يصل مكانه المعين حتى يمر بألف يد فإن كانت واحدة

(١) عبدالفتاح حسنين العدوى - الديمقراطية - وفكرة الدولة ص ٢٤.

(٢) جريدة مصر - ١٤ فبراير ١٨٧٩.

(٣) التجارة ٢٤ يوليو ١٨٧٩.

من هذه الأيدي شلاء أوسيته القصص أمكن لها تعطيل حرية إجرامية بجملتها وبناء عليه مسئولية الوزير تقتضى مسئولية وكيله وهذه تستلزم مسئولية رئيس القلم وهكذا من أول مسؤول إلى آخر مأمور فليتنفصل مولاى بقانون يحدد حقوق الموظفين جميعاً ريعين واجباتهم تكاليفهم لنعرف ماهية المسئولية ويحصل الانتظام فى الهيئة الإدارية: (١)

وكتب أديب إسحق مقالاً يحكى فيه للقراء حادثة وقعت فى الإسكندرية وملخصها أن رجلاً أزميراً من الحاصلين على حماية أمريكا قتل بالرصاص أحد وجهاء الإسكندرية وهو سكندربك دهان وفى عز النهار وعلى رصيف الوكالة المعروفة بسان ماركوا، ثم سار القتل محترفاً صفوف الناس ويده الرفولفير حتى وصل إلى قنصلية أمريكا وهى على مقربة من محل الواقعة.

وعلق أديب إسحق على الحادث قائلاً:

«الناس سواء بحكم الشريعة، هذه آية القوانين المدنية والأحكام الدينية لا يقوم العدل إلا بها لا يستقيم الأمر إلا معها ولا يحصل النجاح إلا منها ولا عيب فيها إلا أنها تخرجنا عن الحدود الإنسانية بحكم القياس الظاهر فى قولنا كل الناس سواء والشرقى غير مساو فى بلاده للغربى، - لشرقى ليس من الناس».

ثم أضاف: «إن هذا الامتياز هو السبب الأول فى سعى الشرقيين فى أى البلاد كانوا فى تماس الحماية الأجنبية يصرفون إلى ذلك اجتهدهم ويبدلون فيه الأموال بل ربما سافر أحدهم إلى البلاد الأوربية وأقام بها أعواماً غير قاصد لإلتصيص الحماية ليعود إلى قومه ممثلاً عنهم مفتخراً عليهم بما لو تأمله حق التأمل لوجده خزيًا وعاراً فترتفع عنه الواجبات المقررة على الشرقيين ويمتنع انتفاع الحكومة منه كما نرى ذلك رأى العين».

ثم يقول: «إن أحدهم قتل منا وجيهاً عزيز المكانة قوى الجانب على قارعة الطريق فى مجتمع التجار وآلة القتل بيديه حتى وصل دار قنصليته فلاذ بها فكان فيها أعز من بيض الأتون».

ثم خرج أديب إسحق من ذلك مقترحاً «وضع دستور شورى يشتمل على الأحكام الملائمة لأحوال سكان البلاد على اختلاف أجيالهم ومذاهبهم الموافقة لأخلاقهم، وعلائقهم السياسية ومواقعهم الجغرافية وبعبارة أخرى أن يكون فى البلاد قانون واحد للوطنى والأجنى تنفذ فيها أحكامه على حد سواء».

وأمين شميل هو أول من نادى بفصل السلطات.. التشريعية عن السلطات التنفيذية وهو فى ذلك متأثر بمونتسكيو.. فشميل يرى أن الشارع إما أن يكون فى يده القوة الإجرائية وإما أن يكون مستمداً ذلك ممن هو أعلى منه.. ففى البلدان المستبدة الحاكم تكون الشارعية الكبرى أى حق الاشتراع والإجراء بيد شخص واحد أو أشخاص معينة وحيثما اجتمعت هاتان القوتان فلا وجود للحرية إذ يقدر الشارع أن يشرع القوانين الظالمة على حسب هواه بتفذه بقوة سطوته ولكن إذا

(١) التجارة ٢٨ يوليو ١٨٧٩.

انفصلت الأولى عن الثانية فإن القوة الشارعية لا تترك حينئذ للقوة الإجرائية ما يكون موجبا لنفس استقلالها واطاعة حرية من شرعت لهم» (١).

ويرى ميخائيل عبد السيد أن الحكومة الحرة هي تلك التي تلتزم بسيادة القانون.. وأن وجود القانون الذي يتساوى أمامه الجميع هو الذي يفرق بين الحكومة المستبدة والحكومة المقيدة.. فالملك في الحكومة المقيدة هو الذي «لا يمكنه اتباع هواه والخروج على الشرع ومقتضاه وعلى ذلك تجرى عليه الأحكام كالأهالي على السواء وبالتام فلا يمكنه تسخير أحد ومواسيه واغتصاب عقاراته وزراعته، أو تعطيل تجارته.. فإن الشرع يساوى بين الفقير والأمير.. والصغير والكبير» (٢).

ويطالب سليم عتجورى بقانون يبين حقوق الأفراد.. وواجباتهم معتبرا القانون أساسا لبناء المجتمعات ولازدهار الحضارات الإنسانية.. فيقول: «لا يخفى أن كل هيئة مؤلفة من أعضاء مختلفة لابد لها من حافظ؟ حافظ لها باتفاق الحكماء وإجماع العقلاء ومن كل أمة أو ملة أو مذهب أو مشرب إلا القانون المبين للحقوق المحدد لأعمال كل فرد من أفراد الجمعية على شرط أن يقوم في تلك الجمعية قائمون بحفظه وإيقاف كل واحد عند حده».

ويرى أن «أى أمة حافظت على قانونها أيا كان فقد حفظت هيئتها من الزوال ونظامها من الاختلال، ونالت العزة والسطوة والثروة والقوة» (٣).

وعندما رد عبدالله النديم على الذين اتهموه بأنه يعتمد إثارة الجند بمقالاته وخطبه وأنه يوقع بين الحزب العسكري والحزب الوطنى.. لجأ إلى تذكيرهم بالفترة السابقة على ثورة الجيش وكيف كانوا يزجون فى السجون بكل من يعارض الحكومة.. وأعلن أنه فى خطبه ومقالاته إنما يستهدف توعية الجند بالمؤامرات التى تحاك لهم.. ثم أكد إصراره على الاستمرار فى مهمته دون خوف فقد مات زمن تحرير التذاكر السرية لإبعاد زيد ونفى عمرو.. وجاء زمن القوانين والأحكام الحقة» (٤).

ويعرف الشيخ محمد عبده القانون بأنه:

«القاموس الحق الذى ترجع إليه الأمة فى معاملاتها العمومية وأحوالها الخصوصية وهيئاتها النفسية.. أعم من أن يكون متعلقا بروابط الممالك وعلائقها أو منوطاً بالسياسة الداخلية كإدارة المدينة التدابير المنزلية أو باحثاً عن الأخلاق الفاضلة وما ينبغى أن يتحلى به الإنسان منها وما يجب أن يبتعد عنه من أضدادها سواء كان فى أمة واحدة أو أمم متعددة» (٥).

(١) التجارة ٢ مايو ١٨٧٩ مقال بعنوان (النظام الشورى).

(٢) الوطن - ٧ سبتمبر ١٨٧٨.

(٣) مرآة الشرق - ١٤ يوليو ١٨٧٩.

(٤) التنكيث والتبكيث - ١٩ أكتوبر ١٨٨١ - مقال بعنوان (تقريع الأغبياء)

(٥) الوقائع المصرية ٧ فبراير ١٨٨١ مقال (القوة والقانون)



وهو يرى أن الفرق بين الحكم على أساس القانون والحكم على أساس القوة أن الأخير يتم «دون مراعاة طرق عادلة أو أحكام مؤسسة على أصول المساواة واستعمال الشفقة والرحمة بل بحسب ما تقتضيه القوة التي سفكت الدماء وذلت الشعوب وانتهكت حرمان الأمم وسجنت حرية الإنسان في مطمورة الرق والاستعباد».

ويؤكد الشيخ محمد عبده أن من يتبع تاريخ الإنسان بإمعان فسوف يظهر له «أن القوة هي التي أخرجت قوة الإنسان السلمية وبددتها وحدثت به من القبائح ما أحدثت ولولا أن القانون كسر سورتها وذلل صعوبتها لما أشرق نور الحق على صفحات الوجود ولا تمتنع الإنسان في الأزمان الأخيرة بلذة الراحة والسعادة، بالحق للقانون لاللقوة».

وعن العلاقة بين السياسة والقانون قال الشيخ محمد عبده إن أرباب السياسة اضطروا «أن يتوسلوا لمقاصدهم بوضع نظامات للأعمال سموها قوانين وجعلوا لها بالقوة والترغيب اعتبارا في القلوب لئلا يخالفها الناس، فلا يبقى للسياسة وجود وتذهب أعمالها أدراج الرياح.. فممنزلة القوانين من السياسة منزلة الروح للجسد لا قوام لها إلا بها»<sup>(١)</sup>.

وطالب محمد عبده السياسيين بأن يكونوا «أول من يحافظ على حرمة القوانين ظاهرا وباطنا يكونوا أول من يجنى ثمرات أتباعهم بأيديهم وأن ينهروا كل من يس بالقوانين».

وينطلق محمد عبده من ذلك إلى الدعوة إلى المساواة المطلقة أمام القانون وهو يؤكد دعوته تلك عن طريق العودة إلى التراث العربي والإسلامي فيأني بأمثلة تؤيد دعوته.. فيقول: «يحكي عن بعض الخلفاء الراشدين أنه كان يأبى أن يتميز عن خصمه في مقام المخاصمة بشيء يسقط حرمة القانون القاضي بالمساواة في الحكم».

ثم يقول محمد عبده: «وما أشبه من يجراً على مخالفة القانون ممن يوكل إليهم أمرها بمن .. من شجرة ليستظل الناس في ظلها فإذا كبرت وغت بادر إلى قطعها ودعا الناس للاستغلال نخلها».

ويرى الشيخ محمد عبده أن أعظم القوانين وأكثرها فائدة للناس هي تلك الصادرة عن رغبة لأمة نفسها: «إن أفضل القوانين وأعظمها فائدة هو القانون الصادر عن رأى الأمة العام.. أعنى مرسس على مبادئ الشورى»<sup>(٢)</sup>.

ويأخذ محمد عبده عن مونتسكيو فكرة أن القوانين التي يضعها الأفراد إنما تفرضها عليهم طبيعة الأشياء أى مجموعة الظروف التي تفسر تباين هذه القوانين من بلد لبلد كطبيعة البلد وموقعها الجغرافى ومساحتها ونوع التربة ونوع حياة السكان وديانتهم وميولهم وتجاربهم وأخلاقهم<sup>(٣)</sup>، وكما يقول مونتسكيو نفسه:

(١) الوقائع المصرية ٣٠ أبريل ١٨٨٢ مقال (القانون والسياسة)

(٢) الوقائع المصرية ٢٥ ديسمبر ١٨٨١ مقال (الشورى والقانون)

(٣) د. محمد طه بدوى ود. محمد طلعت الغنيمى - النظم السياسية والاجتماعية ص ٢١٢.

«يجب أن تكون القوانين خاصة بطبيعة البلد خاصة بالإقليم البارد، أو الحار أو المعتدل وبطبيعة الأرض وموقعها واتساعها.. وبجنس حياة الأمم، أو الزراع أو الصائدين.. أو الرعاة.. ويجب أن تناسب درجة الحرية التي يمكن أن يبيحها النظام ودين الأهلين وعواطفهم وغناهم وعددهم وتجارتههم وطبائعهم ومناهجهم»<sup>(١)</sup>.

هذه الفكرة التي قال بها مونتسكيو تبناها محمد عبده حيث يقول:

«ولما كانت القوانين مناط ضبط الأعمال لتكون متبعة لجلائل الفوائد وهى ثمرة الأعمال النظرية وخلاصة الأبحاث الفكرية صارت قوانين كل أمة على سنة درجتها فى العرفان واختلفت القوانين باختلاف الأمم فى الجهالة والعلم»<sup>(٢)</sup>.

ويضيف محمد عبده شارحا وجهة نظره: «فلا يجوز وضع قانون طائفة من الناس لطائفة أخرى تبانيها فى درجة العرفان وتزيد عليها فيه لأنه لا يلائم حالة أفكارها ولا ينطبق على عوائدها ولا أخلاقها وإلا اختل نظامها والتبس عليها سبيل الرشاد، وانسد دونها طريق الفهم وحسب الصحيح فاسدا والصواب خطأ».

وعندما تم انتخاب أعضاء مجلس شورى النواب أثناء الثورة العربية طالب الشيخ محمد عبده أعضاء المجلس بأن «لا يجاروا غير بلادهم فى سن القوانين وعليهم أن يجعلوا أوضاع بلادهم وأحوال الأهالى الحاضرة نصب أعينهم حتى يتهاى لهم حينئذ أن يرسموا ما لا بد منه من الأحكام الملائمة»<sup>(٣)</sup>.

والخلاصة أن أكثر كتاب هذه الفترة أدركوا أن أى مكسب ديمقراطى ليس له قيمة ولا يمكن الحفاظ عليه إلا إذا وجد القانون الذى يصونه ويحميه.. ولقد وجد اقتناع عام بين هؤلاء الكتاب أن ضمان الحريات العامة وحقوق الأفراد رهن بوجود القانون الذى يحدد واجبات الحاكم والمحكومين.

\* \* \*

(١) مونتسكيو- روح الشرائع- ترجمة عادل زعير- الجزء الأول ص ١٩.

(٢) الوقائع المصرية- ١٩ يونيه ١٨٨١ مقال بعنوان (اختلاف القوانين باختلاف أحوال الأمم)

(٣) الوقائع المصرية- ٢٥ ديسمبر ١٨٨١ مقال (الشورى والقانون)

## الفصل العاشر

**الصحافة المصرية  
والحرية الاقتصادية**



لاقت الحرية الاقتصادية<sup>(١)</sup> باعتبارها الجانب الاقتصادي للبيرالية اهتماما ملحوظا من الصحافة المصرية خاصة وأن فترة البحث شهدت انتقال المجتمع المصري من الإقطاع إلى

(١) جاءت الليبرالية بمذهب جديد في الاقتصاد بنادي بالحرية الاقتصادية وهو الذي أطلق عليه «المذهب الحر» أو المذهب التقليدي. وتتلخص الفكرة الأساسية في هذا المذهب في وجود قوانين طبيعية تحكم العلاقات الاقتصادية وتضمن الوصول إذا ما تركت تؤدي دورها في حرية إلى أحسن وأفضل النتائج للأفراد ومن ثم يتعين على السلطة العامة أن تمتنع عن كل تدخل في الحياة الاقتصادية حتى لا تعرقل عمل هذه القوانين (د. أحمد جامع - الرأسمالية الناشئة - دار المعارف القاهرة ١٩٦٨ ص ١١٧) وقد ساهم في إرساء أسس هذا المذهب مجموعة كبيرة من المفكرين الاقتصاديين ابتداء من أنطونيو سيرا (١٥٨٠ - ١٦٥٠) الذي كان أول من صاغ الحجج النظرية لبيان - الفوائد التي تعود على الشعب من التجارة في كتابه (بحث موجز في الأسباب التي تؤدي إلى توفير الذهب والفضة في الممالك التي لا معادن بها) حيث أكد أن الصناعة أفضل من الزراعة.. ثم جاء توماس من (١٥٧١ - ١٦٤١) الذي يرجع إلى مؤلفه ثروة إنجلترا عن طريق التجارة الخارجية فضل تكوين النظرية التجارية حيث أكد أن المال لا يعتبر ثروة إلا إذا استخدم كأداة للتبادل. ثم جاء بعده «كولبير» الفرنسي الذي قال بأن سياسة الدولة لابد وأن تكون في خدمة التاجر الفردي الذي يسعى إلى أن يزيد ثمن مبيعاته عن ثمن مشترياته.

وهناك «فرانسوا كيني» (١٦٩٤ - ١٧٧٨) الذي كان يعتقد بضرورة أن يكون الأفراد أحراراً في العمل طبقاً لما تمليه عليهم مصالحهم الذاتية.. وأن يسمح لهم بمزاولة المهن التي يختارونها والانتقال حينما يشاءون وبحقهم في اقتناء الثروات والصرف في ممتلكاتهم كما يحلو لهم وليس للدولة أن تعرقل نشاطهم.. وهذا هو القانون الطبيعي لحقوق

الأفراد وهو يعبر بذلك عن مدرسة الطبيعيين الذين لخصوا فلسفتهم في شعار «دعه يعمل.. دعه يمر.. فالعالم يسير من تلقاء ذاته (جورج سول - المذاهب الاقتصادية الكبرى - ترجمة الدكتور راشد البراوي ص ٥٨) ولكن آدم سميث (١٧٢٣ - ١٧٩٠) هو المؤسس الحقيقي للمذهب الحرية الاقتصادية. ويعتبر مؤلفه «ثروة الأمم» هو المرجع الأساسي لهذا المذهب وفيه أقام نظاما يقوم على الحرية الطبيعية حيث يترك الإنسان حراً في سعيه وراء مصالحه وبطرقه الخاصة وحيث يترك الصناعة ورأس المال للمنافسة الحرة وعلى يد آدم سميث تحول شعار دعه يعمل دعه يمر إلى حقيقة مؤثرة وبصفة خاصة في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية

Joseph Duner: Dictionary of Political Science. Philosophical Library. New York, 1964, P. 313

ويقول سميث إن المصدر الوحيد للثروة هو الإنتاج الناجم عن العمل والموارد وهو في هذا يخالف المبدأ الجوهري الذي قامت عليه سياسة التجارين من حيث اعتبار ثروة الأمة مستمدة من زيادة الصادرات على الواردات.. إن الثروة تزيد طبقاً للمهارة والكفاية اللتين يتسني بهما استخدام العمل وحسب نسبة الأفراد الذين يشترون في هذه العملية وتتوقف رفاهية الرجل العادي الاقتصادية على العلاقة بين العمل الكلي وحجم السكان. أو كما يقال الآن الدخل الحقيقي بالنسبة للفرد، ويعتقد سميث أن الوسيلة الأساسية لزيادة الإنتاج تنحصر في تقسيم العمل واستخدام الآلات الميكانيكية

Bert, F. Hoseeitz: Theories of Economic Growth; The Free Press, U.S., 1960, P. 66.

إن آدم سميث يرى أن كل إنسان أكثر فهما من أي إنسان آخر أو أي منظمة أخرى لحاجاته ورغباته ومنافعه.. فإذا ترك الإنسان حراً في بحثه عن رخائته ومنفعته فسوف يحقق في المدى الطويل الصالح العام تلقائياً. فالقانون الطبيعي أفضل من القيود الحكومية وهو يشكل مانعاً ضد سوء استخدام الحرية فعلى مر التاريخ الإنساني كان الصالح الذاتي هو الذي يحرك التطور وجميع النتائج الهامة التي حققها التطور الاقتصادي للبشرية بفضل سعي كل إنسان لتحقيق أقصى منفعة له

John, W. Macoconnell: The Basic Teachings of Great Economists. The New Home Library. New York, 1943, PP, 118 - 119.

الرأسمالية عن طريق إلغاء نظام الالتزام ونشوء الملكية الفردية في الزراعة<sup>(١)</sup>  
ولقد شهدت هذه الفترة أيضا بداية غزو الرأسمالية الآوربية لمصر ومحاولتها ربط الاقتصاد  
المصرى بالنظام الرأسمالي الاستعماري العالمي.

ولقد ساعد هذا الغزو - رغم سيئاته - على خلق بعض الصناعات الكبيرة من ناحية<sup>(٢)</sup> ..  
وعلى نشوء الاستغلال الرأسمالي للأرض من ناحية ثانية<sup>(٣)</sup>.

هذا التطور الخاص الذي انفردت به النشأة الرأسمالية في مصر هو الذي فرض على الفكر  
المصري في تلك الفترة أن يتخذ طريقا مختلفا نوعا ما عن الطريق الذي بدأت به الدعوة  
الرأسمالية<sup>(٤)</sup> في أوروبا ففي الوقت الذي كانت فيه الصحافة المصرية تدعو لحرية النشاط  
الاقتصادي. كانت تطالب أيضا بوضع قيود على حرية النشاط الأجنبي الاقتصادي في مصر.

وبينما كانت الصحافة المصرية تدعو إلى الفكرة الرأسمالية بما تتضمنه من حرية اقتصادية  
وتشجيع للملكية الفردية والاهتمام بالتصنيع وبالنشاط التجاري والدعوة لإنشاء بنك وطني  
وشركات مساهمة مصرية.. كانت تهاجم في نفس الوقت الغزو الرأسمالي الآوربي للسوق  
المصرية.

وكان هذا تعبيرا عن إحساس الرأسمالية المصرية بخطر الرأسمالية الآوربية وتهديدها  
لمصالحها الاقتصادية وإمكانية نموها في المستقبل. ولعل هذا هو الذي يفسر إهتمام الصحافة  
المصرية في ذلك الوقت بالدعوة للتصنيع والمناداة بإنشاء بنك وطني وشركات مساهمة مصرية..  
فالدعوة للتصنيع كان هدفها الأول وقف تدفق السلع الآوربية على السوق المصرية. والدعوة  
لإنشاء بنك وطني وشركات مساهمة وطنية كان الغرض منها إنقاذ الفلاح المصرى والملاك  
الزراعيين من المرابين الأجانب من ناحية ولإمكان الدخول في مشروعات استثمارية لمنافسة  
المشاريع الآوربية التي بدأت تنتشر في مصر من ناحية ثانية.

فالفكر الليبرالى الاقتصادي في مصر نشأ إذن من خلال الهجوم المستمر على غزو الرأسمالية  
الآوربية للمجتمع المصرى.

(١) د. محمد أنيس - المجتمع المصري من الإقطاع إلى الرأسمالية - من محاضرات المعهد العالي للدراسات  
الاشتراكية ص ١٢

(٢) أمين عز الدين - تاريخ الطبقة العاملة المصرية منذ نشأتها حتى ١٩١٩ دار الكاتب العربى - القاهرة ص ٣٨ -  
٣٩

(٣) ابراهيم عامر - الأرض والفلاح - المسألة الزراعية في مصر - مطبعة الدار المصرية للطباعة والنشر والتوزيع -  
القاهرة ١٩٥٨ - ص ٩٣

(٤) الرأسمالية : تعنى أن تكون وسائل الإنتاج في المجتمع كالأرض والصناعات ملكا للأفراد ويكون الإنتاج فيه  
لمصلحة هؤلاء الملاك الأفراد. وتعتمد الرأسمالية على الملكية الفردية. وعلى السوق الحرة وعلى الإنتاج من أجل  
الربح.

وقد بدأت الرأسمالية التجارية تعتمد على التبادل وبيع السلع ثم تطورت إلى صناعية بظهور الطاقة واختراع  
الآلة، ثم ظهرت الشركات لتحل محل أغلب الأفراد، وقد مهد ذلك لظهور الاحتكارات والتروستات.

ويعتبر رفاعة رافع الطهطاوى هو أول من طالب بالاهتمام بالصناعة والتجارة وكان يرى فيهما وسيلة التقدم الحقيقية للأمم وقد كتب فى الوقائع المصرية مقالا هاما عن التجارة تحدث فيه عن أهميتها ومقدار ما تساهم به فى حياة المجتمعات القديمة والحديثة وأهم ما طرحه الطهطاوى فى هذا المقال هو إبرازه لأهمية فتح الأسواق الداخلية والخارجية أمام التجارة<sup>(١)</sup>.

وأهمية هذه الدعوة إلى فتح الأسواق الداخلية والخارجية أمام التجارة يمكن أن ندركه عندما نتذكر قرب عهد هذا المقال باختكار محمد على للتجارة الداخلية والخارجية بمصر.. والمقال يأتى فى وقت بدأ فيه هذا النظام الاحتكارى ينهار بعد هزيمة محمد على أمام الدول الأوروبية وتوقيع على معاهده ١٨٤٠.

ويجب ألا ننسى أن فتح الأسواق الداخلية أمام التجارة كان أحد المعارك الفاصلة التى خاضتها البورجوازية فى أوروبا ضد الإقطاع. إذ وقف الانقسام الأساسى فى ظل النظام الإقطاعى عقبة كبيرة فى وجه تطور الإنتاج التجارى إذ كان الإقطاعيون يفرضون وفق هواهم ضرائب جمركية على السلع خالقين بذلك العقبات المعطلة للتجارة<sup>(٢)</sup> فكانوا يجبرون التجار على سلوك طرق معينة لكى يحصلوا منهم على رسم مرور وأعطوا أنفسهم حق الجنوح بمعنى أنه اذا جنحت سفينة نهريه لأحد التجار استولى النبيل المتاخمة أرضه للنهر على بضائعها دون مقابل.. كذلك لجأ الإقطاع إلى نظام القصاص الجماعى. وهو الحجز على بضائع أى تاجر ينتمى إلى جماعة وقع من أحد أبنائها اعتداء وسلب الإقطاع النقود.. وأجبر التجار على استخدامها واستفاد من الفرق بين القيمة الفعلية للعملة المعدنية والقيمة الاسمية التى تحملها<sup>(٣)</sup>. لذلك فقد تطلبت حاجات التجارة وضرورات التطور الاقتصادى القضاء على الانقسام الإقطاعى لإقامة علاقات اقتصادية أكثر مرونة وتحررا بين الأقاليم المختلفة داخل البلد الواحد بحيث يمكن تكوين سوق وطنى<sup>(٤)</sup>.. لذلك كان من الطبيعى أن يقوم صراع بين التجار والإقطاع دام عدة قرون من أجل إزالة العقبات التى تقف أمام حركة التجارة داخل المجتمع الواحد ومن أجل إقامة سوق وطنى واحد.. فدعوة الطهطاوى إذن لفتح الأسواق الداخلية أمام التجارة هى محاولة منه لخلق سوق وطنى حر فى مصر.

والطهطاوى هو أول مفكر مصرى فى العصر الحديث دعا إلى الحرية الاقتصادية فهو يرى أن " أعظم حرية فى المملكة المتعدنة هى حرية الفلاحة والتجارة والصناعة فالترخيص فيها من أصول الإدارة الملكية فقد ثبت بالأدلة والبراهين أن هذه الحرية من أعظم المنافع العمومية، وأن

(١) الوقائع المصرية - العدد ٦٢٣ - غرة ربيع آخر سنة (١٢٥٨هـ)، (١٨٤٢م) مقال بعنوان تجارة.

(٢) أحمد محمد غنيم - تطور الملكية الفردية ص ٨٥.

(٣) د. ثروت أنيس الأسيوطى - الصراع الطبقي وقانون التجار ص ٣٢.

(٤) نفس المصدر ص ٣٣.

النفوس مائلة إليها من القرون السالفة التي تقدم فيها التمدن إلى هذا العصر، وإن أصعب ما على العاقل الذي يفهم منافع هذه الفنون أن يرى تضيق دائرتها" (١).

وفى الأهرام كتب حنين خورى "مقالا فى" الثروة وجمع المال وحصره فى أيد قليلة"، تحدث فيه عن انتشار ظاهرة تراكم رأس المال، وهى التى كان يسميها "وجود أغنياء ذوى ثروة عظيمة" (٢)، وهو يرى أن هذه الظاهرة كانت موجودة منذ الأزل ولكنها لم تكن أبداً بمثل ما هى عليه الآن ففى "كل يوم تزداد هذه الثروة وكل مدة من السنين المعلومة تتضاعف حتى بلغ البعض منهم فى أيامنا هذه من الثروة ما لم يبلغ إليه أحد فى الأزمنة السالفة".

وفى تحليله لسبب هذه الظاهرة يربط حنين خورى بين تراكم رأس المال وبين انتشار الحرية وظهور الحكومات المقيدة.. واحترامها لحقوق الأفراد وأموالهم.. "وسبب ذلك أمر بسيط هو اختلاف المذاهب الحكمية الحاضرة عن المذاهب الحكمية القديمة فإنه فى الأيام السالفة كانت الحكومة مطلقة جبرية وكان لكل أمة ملك أو سلطان فى يده الحل والربط يسوس الناس بحسب أهوائه وغاياته ويحكم عليهم بما تقتضيه أنواع شهواته فلا يأمن الغنى على غناه بل ولا على حياته.. هذا فضلا عن كثرة التعديلات وكثرة الحروب وعدم وجود التسهيلات الموجودة الآن لنمو الرأسمال وبكثرة كتقريب المجالات وتعميم الصلات بواسطة البحار والبرق وغير ذلك من وسائل الاستحفاظ والاستئناس".

وللسيد جمال الدين الأفغانى دراسة هامة عن الصناعة نشرتها له صحيفة مصر بصياغة للشيخ محمد عبده، حاول فيها أن يبين أن الصناعة قد وجدت لحاجة الإنسان الماسة إليها، وأن الله قد منح الإنسان العقل لتمييزه عن الحيوانات لكى يخترع به الصنائع تعويضا له عما سلبته إياه الطبيعة من الإمكانيات التى منحتها لغيره من الحيوانات ذلك "أن الإنسان من أنواع الحيوانات الأرضية - لا كما يزعم أرباب الأوهام كالصين وقدماء الفرس من أنهم أبناء السماء - وكان أول حياته بدائيا يعيش فى العراء بدون كسوة أو دثار.. وكان ضعيفا عاجزا جاهلا حافيا عاريا وجميع لوازم حياته خارجة عنه لا تحصيل إلا بالتحصيل وليس تحصيلها إلا بعد الكد والعناء.. ولكن الله وهبه قوة عاقلة كلية التصرف وוכל تربية هذه القوة إلى تعليم مدرسة الوجود الكلى فكان لكل نبات وحيوان بل لكل موجود شهود حق الأستاذية وسابق الفضل على نوع الانسان فاسترشد بأعمالها وتدرج فى ذلك شيئا فشيئا تارة يخطأ وتارة يصيب.. وظل الإنسان ينغلق فى سيره ويقطع عقبات المصاعب ويخترق حجب الجهالات متقادا فى جميع ذلك لقائد الحاجة والضرورة يأتمر بأمره ويتبع سيره يتدرج به إلى الكمال فيقعهه مقعد رئاسة الكون وسلطته الوجود بما يرشده إليه من التفنن فى الفنون واختراع الصنائع" (٣).

(١) روضة المدارس المصرية - العدد ٢٣ السنة الخامسة ١٨٧٤.

(٢) الأهرام - ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٧٦.

(٣) مصر - ٥ يونيو ١٨٧٩ مقال للسيد جمال الدين الأفغانى بعنوان: (الصناعة).



وبين الأفغانى أن الإنسان "فى جميع مراتبه لم يكن ليقيم ظهره بين الموجودات إلا بدعائم الصنائع التى هدته إلى اختراعها تلك القوة العاقلة الكلية لتكون له عوضا عما سلبه من اللوازم الضرورية والحاجات الكمالية التى منحت لغيره من الحيوانات بأصل الحلقة".

كذلك فقد كان الأفغانى يرى أن "الصناعة قوة فاعلة راسخة فى موضوع مع فكر صحيح نحو عرض محدود بالذات".

وأكد الأفغانى "أن نوع الانسان لا يحفظ بقاءه فى عالم الوجود إلا بحفظ أشخاص على التعاقب ويتحقق حفظ الأشخاص والأفراد بالاجتماع والالتئام لما لكل فرد من كثرة الحاجات التى يضيق سعيه عن أن يأتى عليها فى الأزمنة المتطاولة مع اضطرابه إلى جميعها فى آن الواحد كما نراه فى مواد الأغذية التى لا تحصل إلا بزراعته وحصاد ودرس ثم طحن وعجن وخبز وطبخ وهلم جرا، وجميعها تتوقف أيضا على صناعات كثيرة من حدادة ونجارة ونحوهما فيكون المجموع الإنسانى كبدن ذى أعضاء يعمل كل عضو منه للبدن لتكون عاقبته لنفسه".

وأخيرا ينتهى الأفغانى إلى القول بأنه "لا قوام للإنسان إلا بالصنعة فمن أخل بوظائفها أو رامها بالنقد فقد عمد إلى هدم بنيان الإنسانية فعليها أن تطرده من أبوابها وتمحو اسمه من كتابها".

وأمين شميل هو صاحب أول دعوة إلى إنشاء بنك مصرى وطنى وكان اقتراحه يتضمن "إنشاء بنك وطنى رأسماله ١٤ مليون جنيه توزع أسهما متنوعة يأخذ منها الغنى والوسط والملاك والفلاح كل على حسب اقتداره غير مكره على ذلك" (١).

واقترح أمين شميل أن تكون إدارة هذا البنك "وطنية مؤيدة بقوانين مقدسة لا ينقضها أميرولا مأمور شأن البنوك العظيمة فى أقسام العالم المتمدن".

وأكد أمين شميل أنه فى حالة نجاح هذا المشروع "فإنه يكون للديار المصرية بنك وطنى يعدل بنك إنجلترا برأسماله ويزيد به عن بنك فرنسا ستة ملايين".

وقد لخص أمين شميل فوائد هذا البنك فى خمس نقاط "توطئ الدين.. أى جعله دينا وطنيا موثوقا".

"حصول الحكومة والبنك على كوبونات عشرة ملايين من غير مقابلة".

"انتظام تجارة البلاد وزراعتها على وجه تقوى به عناصر حياتها الاجتماعية".

"استهلاك مقدار وافر من ديون الحكومة كل عام".

"زيادة ربح البلاد من زيادة قيمة أسهم البنك يوما بعد يوم حيث يصل رأس المال بعد عشرين سنة إلى ١٥٠ مليوناً من الجنيهات".

(١) التجارة - ١٧ أبريل ١٨٧٩ مقال (البنك الوطنى).

ثم عاود أمين شميل الحديث عن مشروع البنك الوطنى فى عدد آخر من التجارة حيث ذكر أنه تقدم بالمشروع إلى الخديو إسماعيل ورغم القول الحسن الذى صادفه المشروع عند الخديو إلا أن أمين شميل يكشف عن قلقه فى إمكانية تنفيذ المشروع خاصة وأن هناك مشروع آخر مقدم للخديو بإنشاء بنك أهلى برأس مال أقل فقال: "ولا أدرى على ما يستقر الاختيار.. أعلى هذا المشروع بعينه، أم على مشروع آخر سمعت به وهو إنشاء بنك خصوصى له بعض الهيئة الأهلية برأسمال من مليونين إلى أربعة لا أعلم أصوله ولا روابطه ولكن أرجو من عدالة ولى الأمر أن يمتحنوا الاثنين ويختاروا أدناهما إلى مصلحة البلاد"<sup>(١)</sup>.

ولقد كان مشروع البنك الوطنى المصرى أحد المعارك الهامة التى خاضتها البورجوازية المصرية فى مواجهة تسلل الرأسمالية الأجنبية إلى البلاد ففى أبريل ١٨٧٩ عقد اجتماع عام ضم التجار والأعيان فى منزل راغب باشا رئيس مجلس الشورى الأسبق حيث نذعت بهم غيرتهم إلى تقرير أمر يحاولون به تخليص الوطن من أسر الدين فى ظرف ثمانية وعشرين عاما وهو أنهم يفتحون بنكا وطنيا يكون رأسماله أربعة عشر مليوناً من الجنيهات تجمع من سائر أفراد الأمة فى نفس الوقت كان فريق آخر على رأسه محمد سلطان باشا وعمر لطفى باشا وغيرهما من كبار الملاك يعقدون عدة اجتماعات لدراسة هذه الفكرة من جميع زواياها وأصدروا منشورا تاريخيا بعنوان "إنماء المال" يشرحون فيه فكرتهم ويدافعون عنها<sup>(٢)</sup>.

ثم توارت فكرة البنك الوطنى بعد عزل إسماعيل وتولية توفيق.. ثم عادت تطرح من جديد أثناء الثورة العربية فكتب حسن الشمس فى المفيد يطالب بإنشاء بنك وطنى لإنقاذ الفلاح من السماسرة والبنوك الأجنبية فقال: "ومن أكبر المصائب على هذا المسكين (الفلاح) أنه لا يتوصل إلى البنك إلا بالسمسار الذى يتحكم فيه تحكم السيد فى مملوكه ويتنقم منه ما شاء ويكتب عليه ما أراد من الأمور، فهو يأخذ من البنك المائة ويحسب عليه فائدتها خمسين أو أكثر.. وكثير منه ملازم أبواب البنوك فى هذه الأيام ليستلف على هذا النسق وهذا مما يوجب التفات النظر إليهم وملاقة أمرهم قبل أن تصبح أرضهم التى هى منبع معاشهم ملكا فى يد أرباب البنوك وإن صار بعضها كذلك"<sup>(٣)</sup>.

ثم يطالب حسن الشمس بإنشاء بنك وطنى مصرى بشرط أن تكون أمواله وإدارته مصرية صرفه: «والذى نراه من أحسن الطرق لحسم هذا الداء باستعمال الدواء هو أن أهل الثروة من الوطنيين يفتحون بنكا وطنيا يتساهمون فيه وتسلم إدارته ليد أناس من الوطنيين.

(١) التجارة - ٢٦ أبريل ١٨٧٩ مقال بعنوان (البنك الأهلى)

(٢) عبد العظيم رمضان - قيادة الثورة العربية وفكرة السلطة - مجلة الطليعة - القاهرة - سبتمبر ١٩٧١.

(٣) المفيد - ٢٣ يناير ١٨٨٢ مقال بعنوان (الفلاح).

وشارك أديب إسحق في الدعوة لإنشاء بنك وطني وكان هدفه من ذلك هو أيضاً إنقاذ الفلاح المصري من استغلال المرابين والسماسرة الأجانب فهو يقول: «إن الغرض المقصود منه (يقصد البنك) انتشال الفلاح من مخالب المرابي لرفع الدين عن عاتقه إلى غير ذلك من الحسنات»<sup>(١)</sup>.

ثم ربط أديب إسحق بين إنشاء البنك الوطني وتحقيق استقلال البلاد فقال: «إن هذا الاستقلال لا يتم ما لم يكونوا (يقصد أبناء الوطن) هم المتولون لمصالحهم المادية ولا يتيسر لهم ذلك ما لم يؤلفوا جمعيات زراعية وصناعية وشركات مالية وتجارية تعيد قوى البلاد إليها يتولون جميع مصالحها وتكون قادرة على مسابقة الشركات الأجنبية كلما احتاجت إليها البلاد في عمل خطير من مثل إنشاء سكة أو فتح ترعة أو تصليح مرفأ أو بيع أرض واسعة وما أشبه ذلك من الأعمال الكبيرة التي أمست كأنها وقف على الأجانب وأسهل ما يبدأ به من هذه الحسنات وأينها طالعا شركة مالية تجارية وطنية تسلف الفلاح ما يحتاج لزراعة أرضه ثم تتولى نقل حاصلاته وبيعها في أسواق الاسكندرية وأوروبا فتحرز جميع الأرباح والعمولات والسمرات والأجور التي يتقاضاها الأجانب الآن».

«ودعا أديب إسحق إلى الاهتمام بالصناعة فقال: «ثم إنه من المحقق أن بلادا غنية مثل البلاد المصرية متنوعة المحاصيل مضطرة إلى تحسين صناعاتها لتهيء بنفسها قسما من حاجاتها الصناعية التي أوجدت لها العناية موادها الأولية».

ويرى أديب إسحق أن البنك الوطني يستطيع أن يلعب دورا كبيرا في تصنيع مصر «فالبنك الوطني يتكفل بعضد أصحاب الصنائع الموجودة ويسعى ويساعد في إنشاء صنائع جديدة فإنه يسلف أصحاب المعامل النقود اللازمة ويتكفل بشراء لوازمهم واستحضار ما يلزمهم من الآلات والمواد من أحدث الاختراعات وأتمها مجتهدا في تقليل كلفتها أو بمددهم بقيمتها ثم إنه يتولى تصريف مصنوعاتهم في الأسواق ويسلفهم أثمانها لتوسيع أعمالهم ويكون في تصريف الجملة عونا وهدي للصناعة الوطنية كما هو المفروض على بنك وطني».

وقد أفسح سليم النقاش صفحات «المحرسة» للدفاع عن مشروع البنك الوطني، وكتب مناديا بالإسراع في إنشاء هذا البنك باعتباره ضمانا لاستقلال البلاد، إذ كان من رأيه أن البلد التي تفقد استقلالها الاقتصادي لا يمكن أن يكون لها استقلال سياسي، فالاستقلال لا يتم ما لم يكن أهل البلاد هم المتولون لمصالحهم الزراعية والصناعية والتجارية والمالية.

كذلك فقد كان أديب إسحق دائم الدعوة لإنشاء شركات زراعية وصناعية وتجارية ومالية لكي تكون قادرة على منافسة الشركات الأجنبية في تغطية احتياجات البلاد.

ويرى ميخائيل عبد السيد أن الصناعة هي أساس تقدم المجتمعات الحديثة فهي وسيلة تزداد بها ثروة البلاد وتصير الأهالي من أغنى الناس وأوفرهم نشاطا وهمة واحتراما للأمور، وكذلك

(١) مصر - ١٥ مارس ١٨٨٢.

كما نرى فى بلاد الانجليز فبتجارنتها وإتقان صناعتها زاد يسارها وكثر نضارها وأصبحوا أغنى الدنيا مع أن أغلب أراضي بلادهم لا تصلح للزراعة ولا الفلاحة<sup>(١)</sup>.

وهاجم الكاتب تكالب الوطنيين على الوظائف الحكومية وبين كيف أنها فضلا عن كونها غير مريحة فهى ليست مضمونة أيضا وضرب مثلا بازدياد عدد المرفودين من الموظفين فقال: «وعسى أن يعتبر الكتاب المرفودين بل والمستخدمون أيضا ويعلمون أولادهم صنعة من الصنائع». وطالب ميخائيل عبد السيد الحكومة المصرية بأن تشجع الأفراد على فتح المصانع وقال إنه «يمكن للحكومة أن تكثر الصنائع بين قومها بطرق مختلفة منها فتح مدارس للصنائع بشرط أن تكون مستوفية ومحكمة النظام ومنها تشجيع الأهالى على الصناعة بأن تراعيهم وتقدمهم على غيرهم لا أن تقدم غيرهم من الأجانب عليهم.. ومنها عدم قبول شبانها فى الخدمة المبرية ما لم تظهر نفحاتهم فى أحد الفنون».

وطالب ميخائيل عبد السيد أيضا بإنشاء شركات وطنية باعتبارها من أعظم الوسائل التى أوصلت ممالك أوروبا إلى العز والثروة<sup>(٢)</sup>.

وردد فكرة أن الدولة لا يجب ولا يمكن أن تقوم وحدها بكل شئ ولا بد أن يساهم الأفراد فى تطوير البلد عن طريق الجمعيات الاقتصادية والشركات فقال: «ولا شك أنه لا يتيسر لأية حكومة أن تقوم بجميع احتياجات قومها مهما عم عدلها واشتهر فضلها».

وهو يرى أن مساهمة الأفراد فى النشاط الاقتصادي وإنشاء المشروعات هو السبب الذى أوصل أوروبا إلى القوة والتمدن التام فانه بتضايف أهلها عقدوا الجمعيات العملية وشيدوا المدارس الفنية والرياضية والإدارية والصناعية أما شركاتهم فهى كثيرة جدا، فوابورات البحر بل ووابورات البر أيضا فى يد الشركات وكذا توجد أيضا شركات التلغراف والمعامل والمنسوجات والتجارة والزراعة وبالاختصار أنه لا توجد فى يد حكومتهم سوى البوسطة والكمرك وبعض المدارس الحربية والصناعية فإن حركة بلادهم فى يد قومهم.

ويرى عبدالله النديم أن أساس تقدم المجتمع هو الصناعة فلا دولة إلا بالرجال ولا رجال إلا بالمال ولا مال إلا بتقدم الصناعة<sup>(٣)</sup>.

وأرجع النديم الفقر الذى يعانى به أهل الشرق عموما وأهل مصر خاصة إلى موت الصناعة فيها ثم أرجع موت الصناعة إلى «تمحاسد أهلها وتباغضهم للذين أورثهم الفقر وفقد الأمن والثقة فيهم».

(١) الوطن - ٢٧ مارس ١٨٨٠.

(٢) الوطن - ١٢ أكتوبر ١٨٨٠.

(٣) التنكيث والتبكيث ١٩ يونيو ١٨٨١ مقال بعنوان (جواب على سؤال ورد على التنكيث).

وضرب النديم مثلاً يؤكد به رأيه فقال إنه فى حالة إجراء مناقصة فى مشروع بناء مثلاً فإذا تقدم له عدد من المصريين صار صراعهم حول تخفيض القيمة... من قال ٥٠٠ جاء بعده من قال مائتين ثم أضف إلى ذلك ضرورة رشوة المشرف على البناء حتى يرضى بما يقدم له وأما إذا تقدم له الأجانب فإنهم يزيدون على بعضهم فإذا قال أحدهم ٢٠٠ جنيه قال الثانى: ده مجنون هذا لن يكلف أقل من ٣٥٠ جنيهها والنتيجة أن الثانى يعمل من الباطن مع الأول ويستفيد الاثنان.

وطرح النديم فكرتين هامتين: الأولى: الدعوة لإنشاء شركات مساهمة وطنية وكان يسميها (صناديق الاقتصاد وإدارة الأعمال) والفكرة الثانية: دعوته لتكوين نوع من الجمعيات التعاونية الإنتاجية بين طوائف الصناع وكما يقول النديم: «عقد جمعية لكل طائفة تحت رئاسة عقلائها وأن يكون لهم صندوق تدور به الأعمال وعندما توزع الأرباح يحجز مجلس الرؤساء من كل صانع جزءاً يضيفه لسهامه»

فإذا تمت هذه المبادئ وعقدت جمعيات الطوائف وفتحت صناديق الاقتصاد واختصتهم الحكومة بأشغالها وأعمالها لما تراه فيهم من الثقة والنشاط وظهرت الصنائع فى حالة الوجود وبحالة لا يتصورها عقل».

وطالب النديم باجتماع الأعيان فى كل مدينة وعقد جمعية صناعية يكون صندوقها فى صمانتهم وينشر ذلك فى الجرائد والطرائق وأن يثبت النسيء فى المجمع والمقاهى والبيرو أماكن الملاهى ترشد الأميين وتنصح الفقراء وتحثهم على معرفة صناديق الاقتصاد وإيداعها المبلغ الجزئى الذى لا يعز عليهم صرفه فى إتلاف عقولهم<sup>(١)</sup>. ثم أضاف النديم:

فإذا تمت المبادئ وأردنا الأخذ فى العمل جمعنا من علماء الهندسة والصناعة الذين تربوا فى المدارس من نثق بأفكارهم ونعتقد أمانتهم وكلفناهم النظر فى المحل اللازم إلى العمل والصنف الذى نصنعه أولاً وأرسلنا بعضهم إلى أوروبا لاستحضار الآلات اللازمة والأدوات.

وشرح النديم طريقة عمل صناديق الاقتصاد فقال: «هى أن يجتمع عدد من الشبان ويفتحو صندوق اقتصاد يكون من شأنه أن يقبل السهام ليستغل بها فى الصناعة الحاضرة بشرط أن يتعهد كل من المساهمين على أنه لا يشتري شيئاً من مثل المشغول فى سهامه من الأجنبى أبداً ثم تبتدىء جمعية السهام بتشغيل أصناف البتطلون والسترة والقميص الأفرنكى والجزمة وغير ذلك من الضروريات بحيث لا تستعمل فيه إلا أهل البلاد فيكون ما لهم قد ربح كسب السهام وإحياء الصناعة وفتح بيوت الصناع وزيادة ثروة البلاد وتأييد الحكومة<sup>(٢)</sup>.

وأضاف النديم أنه يمكن تعليم المصريين الصناعة بإرسال من يلزم من التلاميذ لتعلم ما لا نعرفه من بلاد الإفرنج على نفقة جمعية السهام بشرط أن تكون السهام جميعاً للوطنيين ولا يدخل فيها أجنبى إلا مستأجراً لصناعة يعلمها.

(١) التنكيث والتبكيث - ٢٦ يونيو ١٨٨١ مقال (مجلس أنس).

(٢) التنكيث والتبكيث - ١٨ سبتمبر ١٨٨١ مقال بعنوان (درس تهذيبى بين التلميذ والنديم).

وكتب قيصر زينه - فى الأهرام يطالب بالاهتمام بالصناعة مؤكدا أن تخلف الشرق سببه تخلف الصناعة فهو يقول إن «أهم موانع التقدم فى الشرق هو تأخر الصناعة»<sup>(١)</sup>.

ثم قال الكاتب إن الصناعة هى مفتاح التقدم فى الشرق وأداته لوقف استغلال الغرب الأوربي له وقال إن أوربا تستولى على منتجات الشرق وتحولها إلى سلع تعيد بيعها من جديد إلى الشرق بأعلى الأسعار «وبينما وقفنا نرى عن بعد ونسمع عن قرب ولنا أصابع تغزل وأبد تحيك أن هناك فى الغرب معامل على بعد آلاف الأميال منا تسير إليها منسوجاتنا فتحبكها لنا أقمشة ثم تصدرها لنا وتستنزف بالأسعار الغالية ما اكتسبناه من أتعابنا السنوية وكدنا اليومى».

ثم هاجم الكاتب إجحام الشباب المصري عن الإقبال على الصناعة بحيث صار من موانع التقدم فى بلدنا هو أنفة فتياتنا من الدخول فى الصناعة بعد ممارستهم العلوم فإنهم يخرجون من المدارس أفواجا إلى طلب الرزق فيزدحمون على أبواب المكاتب كأن الصناعة شىء دون مقامهم».

ونخلص من العرض السابق بحقيقة هامة وهى أن الجانب الاقتصادى من الليبرالية قد لاقى اهتماما كبيرا من الصحافة المصرية فى فترة البحث وأن الدعوة إلى حرية النشاط الاقتصادى سارت جنبا إلى جنب مع الدعوة إلى الحياة النيابية وسيادة القانون وحرية الفكر والتعبير.

ومع ذلك فلا بد من الانتباه إلى أنه قد وجدت إلى جانب الكتابات التى تدعو إلى الملكية الفردية والاهتمام بالتصنيع وإنشاء بنك وطنى وشركات مساهمة مصرية كتابات أخرى تدعو إلى نوع من الأفكار التعاونية أو الاشتراكية (بتجاوز كبير) فدعوة عبدالله النديم إلى ما كان يطلق عليه (صناديق الاقتصاد وإدارة الأعمال) ومطالبته بتكوين (جمعية لكل طائفة تحت رئاسة عقلائها وأن يكون لهم صندوق تدور به الأعمال وعندما توزع الأرباح يحجز مجلس الرؤساء من كل صانع جزءا يضيفه إلى سهامه) أليست نوعا من التنظيم التعاونى أو الاشتراكى فى الإنتاج...؟!.

\* \* \*

---

(١) الأهرام - ١٧ يونيو سنة ١٨٨٠

## الفصل الحادى عشر

الصحافة المصرية  
وحرية المرأة





يمكن تأريخ بداية حركة تحرير المرأة في مصر بعام دخول الحملة الفرنسية حيث انهيار فجأة السور الذي أقامه الترك حول مصر وحال دون اتصالها بالحضارة الغربية قرابة ثلاثة قرون فكان مجيء الحملة وإقامتها لمجتمع فرنسي داخل مصر.. بقيمه وتقاليده وبطبيعته وضع المرأة فيه ثم بسلوكه المتحلل من الوقار الفكتوري الجامد أن نتج عن ذلك حدوث ما يشبه التمرد الجماعي<sup>(١)</sup> للنساء المصريات على حياة الخريم المتوارثة عن العصر العنساني ولعل هذه النقلة الفجائية في حياة المرأة المصرية هي التي جعلت أول مساهمة فكرية حول قضية حرية المرأة في مصر مساهمة عدائية فالجبرتي لا يخفى سخطه وإدائته لما أصاب المرأة المصرية خلال سنوات الحملة.. فهي في نظره سنوات «تبرج النساء وخروج غاليتهن عن الحشمة والحياء»<sup>(٢)</sup>.

وعلى عكس الجبرتي كان موقف رفاة الطهطاوي فهو أول من نادى بحرية المرأة وضرورة مساواتها بالرجل وهو أيضا أول من دعا إلى تعليمها وإلى اشتغالها.. ولا بد أن يدفعنا هذا إلى تصحيح خطأ شائع في تاريخنا الحديث وهو القول بأن قاسم أمين كان أول من دعا إلى حرية المرأة في مصر.

لقد كان قاسم أمين أحد دعاة حرية المرأة ولكنه لم يكن رائد هذه الدعوة.. إذ أن رائدها الحقيقي هو رفاة الطهطاوي.. ولقد شاركه الاهتمام بهذه الدعوة أكثر الكتاب المصريين خلال فترة البحث.. فقد كان اهتمامهم بقضية حرية المرأة جزءا من اهتمامهم الأكبر بالدعوة إلى الحرية والمساواة والحياة الديمقراطية.

والظاهرة الملفتة للنظر في صحافة هذه الفترة أنها جميعا وبلا استثناء كانت تقف مع حرية المرأة.. ولم نعر خلال الدراسة على مقال واحد في أية صحيفة ضد حرية المرأة.. ولم يكن ذلك راجعا بالطبع إلى أن الحياة الاجتماعية في مصر قد تطورت إلى الدرجة التي باتت فيها تسلم بإعطاء المرأة حريتها كاملة، وإنما يرجع الأمر - كما سبق وبيننا - إلى أن قضية حرية المرأة كان ينظر إليها في إطار الدعوة إلى الحرية بشكل عام.

(١) د. لويس عوض تاريخ الفكر المصري الحديث - الجزء الثاني ص ٣٦. ومن المؤكد أنه جرت أثناء الحملة الفرنسية على مصر حوادث تؤكد وقوع ما يمكن أن نسميه التمرد الجماعي للنساء ففي مدينة رشيد مثلا قامت النساء بمظاهرة يطالبن فيها حاكم المدينة وكان الجنرال عبد الله مينو وقتها بأن يتدخل حتى يسمح لهن رجالهن بالتردد على الحمامات العامة وأن تخصص بعض هذه الحمامات للنساء.. كذلك فإن الجبرتي في تاريخه يذكر لنا أن كثيرات من النساء قد اختلطن بالفرنسيين وخاصة بعد ثورة القاهرة الثانية حيث أخذ الفرنسيون ما استحسوه من نساء وبنات بولاق وأحياء القاهرة الأخرى مأسورات عندهم أليسوهن زى نسائهم وأجبروهن على طريقتهم فخلع أكثرهن نقاب الحياء بالكلية.

كذلك فهناك كثير من الأدلة التي تؤكد أن هذا التمرد لم يكن مقصورا على النساء الساقطات أو الفواحش بلغة الجبرتي وإنما ضم نساء من جميع الطبقات يؤكد ذلك حادثة زينب البكرية التي أعدمتم بعد خروج الفرنسيين.. وكذلك هوى زوجة إسماعيل الكاشف وكانتا قد تبرجتا مع الفرنسيين وهما من عليا القوم في ذلك الوقت.

(٢) الجبرتي - عجائب الآثار - الجزء الثالث - ص ١٦١.

كما أنه يجب ألا يغيب عن أذهاننا أن الاحتكاك المستمر بين المصريين والأوربيين في هذه الفترة قد لفت أنظار المصريين إلى مدى الحرية التي تتمتع بها المرأة الأوروبية وفائدة ذلك للمجتمع.

وفي هذا المجال فقد لعبت تجربة السان سيمونيين في مصر دورا هاما في قضية حرية المرأة وخاصة أن للمرأة في المذهب الاجتماعي لمدرسة السان سيمونيين مكانة مرموقة وأهمية بارزة فهم يعتقدون أن المرأة يجب أن ينظر إليها كنظير متكافئ مع الرجل في تكوينه العقلي والخلقي بل إن سان سيمون نفسه كان يرى أنه يجب أن تسند إليها الوظائف العامة في الدولة وأن لا يقصر السان سيمونيين إلى «بارو» وهو أحد أتباعه الذين سافروا إلى مصر قال له فيها «احتراما للنساء.. عليك أن تدل على إيماننا فلسلم عليهن كلهن.. وحى بنات الشرق باسمى وبصوت جهورى»<sup>(١)</sup>.

ولقد جاء السان سيمونيين إلى مصر ومن بين أهدافهم تغيير نظرة الشرق المحافظة إلى المرأة بإتاحة فرص التعليم والثقافة للفتاة وإقامة دعائم التربية الاجتماعية التي تعمل على توافر العدالة والمساواة إلى أبعد حد<sup>(٢)</sup>.

ولقد لحق بالسان سيمونيين في مصر فريقا من النساء من أتباعهم أمثال سيسل وكلوريند روجيه - التي كانت مهمتها استقبال النساء من أتباع سان سيمون اللاتي حضرن إلى مصر من ليون.. ففي أواخر عام ١٨٣٤ جاءت إلى مصر إرسالية من النساء بصحبة «سوزان فولكان» التي سجلت فيما بعد ذكرياتها في مصر تحت عنوان «يوميات سيدة سان سيمونية في مصر»<sup>(٣)</sup>.

وقد أنشأ السان سيمونيين في مصر أول مدرسة للبنات في الجزيرة وقد أنشئت على الرغم من معارضة محمد علي في أول الأمر ثم قبوله لفكرتها تحت إلهام أنفانتان وسوزان فولكان<sup>(٤)</sup>.

وكذلك فقد كان للبعثات العلمية إلى أوروبا وما نتج عنها من احتكاك مباشر بين المصريين والمجتمع الأوربي نفسه أثر كبير في تغير نظرة بعض المصريين إلى المرأة وتجربة رفاعة الطهطاوى الشيخ الأزهرى المعمم في باريس أكبر دليل يؤكد هذا الرأي.. فقد كان من أبرز الأشياء التي استوقفت نظر الطهطاوى الحرية التي تتمتع بها المرأة الفرنسية ووضعها الممتاز في المجتمع الفرنسى بالنسبة إلى ما ألفه الطهطاوى في مصر.

وكان أول ما لفت نظر الطهطاوى هو سفور المرأة الفرنسية.. وهو نفس ما سبق ولاحظه الجبرتي في نساء الفرنسيين أما الجبرتي فقد رأى في سفور النساء واختلاطهن بمجتمع الرجال

(١) د. محمد طلعت عيسى - أتباع سان سيمون - فلسفتهم الاجتماعية وتطبيقاتها في مصر ص ١٦٢ - ١٦٣.

(٢) المصدر نفسه ص ١١١.

(٣) المصدر نفسه ص ١٠٣ - ١٠٤.

(٤) المصدر نفسه ص ١٠٤.

أيام الحملة الفرنسية ومشاركتهم في الحياة العامة مظهرا من مظاهر الانحطاط الخلقى الذي يستوجب التنديد.

وأما الطهطاوى فقد أتاح له ظروفه أن يقيم عدة سنوات في المجتمع الفرنسى ودرسه عن كثب ولذا جاءت أحكامه عليه مختلفة كل الاختلاف عن أحكام الجيرنى<sup>(١)</sup>. فالطهطاوى لا يرى في اختلاط المرأة الفرنسية بالرجل ولا في سفورها دليلا على سوء خلقها أو قلة فضيلتها بل يرى:

«أن وقوع اللخبطة بالنسبة لعفة النساء لا يأتي من كشفهن أو سترهن بل منشأ ذلك التربية الجيدة أو الخسيسة والتعود على محبة واحد دون غيره وعدم التشريك في المحبة والالتزام بين الزوجين»<sup>(٢)</sup>.

والطهطاوى دائم التركيز على احترام المجتمع الفرنسى للمرأة وكأنه يدفع بذلك المصريين إلى تغيير نظرتهم إلى المرأة فالأنثى دائما في المجالس معظمة أكثر من الرجل ثم إن الإنسان إذا دخل بيت صاحبه فإنه يجب عليه أن يحى صاحبة البيت قبل صاحبه ولو كبر مقامه ما أمكن فلهجته بعد زوجته أو نساء البيت<sup>(٣)</sup>.

ثم إن الرجال عندهم عيب للنساء وتحت أمرهن سواء كن جميلات أم لا.. قال بعضهم: إن النساء عند الهمل معدات للذبح وعند بلاد الشرق كأمتعة البيوت وعند الإفرنج كالصغار المدلعين<sup>(٤)</sup>.

ومما قيل إن باريس هى جنة النساء وأعراف الرجال وجحيم الخيل وذلك أن النساء بها تمتعت بمالهن أو بجمالهن.. وأما الرجال فإنهم بين هؤلاء وهؤلاء عبيد النساء فإن الإنسان يحرم نفسه وينزه عشيقته<sup>(٥)</sup>.

. والطهطاوى يؤكد على مساواة المرأة للرجل فى كل شىء فهن كالرجال فى جميع الأمور فالنساء يسافرن وحدهن أو مع رجل يتفق معهن على السفر وينفقن عليه مدة سفره معهن. كذلك فإن من مظاهر تساوى النساء بالرجال كونهن متولعات بحب المعارف والوقوف على أسرار الكائنات والبحث عنها<sup>(٦)</sup>. فإن «النساء مؤلفات عظيمة ومنهن مترجمات من لغة إلى أخرى مع حسن العبارات وسبكها وجودتها ومنهن من يتمثل بإنشائها ومراسلاتها المستغربة ومن هنا يظهر أن قول بعض أرباب الأمثال: جمال المرء عقله وجمال المرأة لسانها لا يليق بتلك البلاد فإنه يسأل فيها عن عقل المرأة وقريحتها وفهمها وعن معرفتها»<sup>(٧)</sup>.

(١) د. لويس عوض - تاريخ الفكر المصرى الحديث - الجزء الثانى ص ١١٢.

(٢) رفاعة الطهطاوى - تخلص الإبريز ص ٣٠٥.

(٣) المصدر نفسه ص ١٦٨

(٤) المصدر نفسه ص ١٢٢.

(٥) المصدر نفسه ص ١٢٦

(٦) المصدر نفسه ص ١٥٩.

(٧) المصدر نفسه ص ١٣٥.

لقد كان رفاة الطهطاوى فى كتاب تخليص الإبريز معجبا بالحرية التى حصلت عليها المرأة الفرنسية ورغم أن هذا الإعجاب كان يحمل فى باطنه رفضا للقيود التى تكبل حرية المرأة المصرية إلا أنه يصل إلى الدرجة التى يطالب فيها صراحة بحرية المرأة فى مصر.. فهو لم يطالب بسفورها أو مساواتها بالرجل. لذلك فإن المساهمة الحقيقية للطهطاوى فى قضية حرية المرأة تبدأ فى صحيفة روضة المدارس المصرية.. وللأسف بعد وفاته إذا قام على فهمى ابن رفاة الطهطاوى والذى كان يشارك أباه فى مسئولية روضة المدارس ثم انفرد بها بعد وفاته - بنشر عمليّن هامين لرفاة الطهطاوى كان قد انتهى منهما قبل وفاته ولم يتسع الوقت أمامه لنشرهما؛ العمل الأول سلسلة مقالات نشرت بعنوان (نبذة فيما يتعلق بالكلام على النساء من تعريبات قلائد المفاسر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر) والعمل الثانى (المارشد الأمين للبنات والبنين) وقد نشر العملان فى صحيفة روضة المدارس .. على حلقات متتابعة.

فى الدراسة الأولى طاف رفاة الطهطاوى بثقافته الموسوعية بين قارات العالم آسيا وأفريقيا والأمريكتين وبين كيف تعامل النساء فى كل بلد من بلاد هذه القارات وانتهى من هذا العرض بحقيقتين أساسيتين: الأولى: أنه كلما كثر احترام النساء عند قوم كثر أدبهم وطرقتهم فعدم توفية النساء حقوقهن من عدم الحجر عليهن حجرا كليا فيما ينبغى لهن الحرية فيه دليل على الطبيعة البربرية<sup>(١)</sup>.

والثانية : أن شدة انطلاق النساء من الحجر وضعفه يصدر بعضهما عن طبيعة الإقليم وما يتولد فيه من القوة الصادرة عن الغيرة.

ومن أهم الأفكار التى تضمنتها هذه الدراسة رفض الطهطاوى لمبدأ تعدد الزوجات واعتباره مظهرا من مظاهر انحطاط الحضارة فى المجتمع.. ويؤكد رأيه بأن يعدد المجتمعات والشعوب التى تؤمن أو تسمح بهذا التعدد فلا نجد فيها سوى المجتمعات والشعوب المتخلفة ثم تعدد النساء قد يوجد فى غير بلاد الإسلام وبلاد آسيا كما عند البجوانا فى كفرة ببلاد أفريقية فالرجل هناك يتزوج بواحدة ثم يبنيان خصما ويقتنيان غنما فإذا أسر بنى الرجل خصما ثانيا وتزوج بثانية واقتنى عندها غنما أيضا فإذا أسر بنى خصما ثالثا وتزوج بثالثة واقتنى عندها غنما وفى الرابعة كذلك.

وكما فى جزائر كوريل عند أهل أبينوس من أن الحكام عندهم يكونون كبارا فى السن ولكل منهم بلاد تحت حكمه فيتزوج فى كل قرية امرأة».

وكما عند الاورقان همل الأمريكية الجنوبية أن الرجل يتزوج عدة زوجات وكل واحدة من هؤلاء لها كانون فتحضر كل منهن كل يوم على سفرة زوجها صحن طبيخ فإذا الليل أتى اختار من ينام عندها منهن.

(١) روضة المدارس - العدد العاشر - السنة الرابعة ١٨٧٣ مقال بعنوان نبذة فيما يتعلق بالكلام على النساء من تعريبات قلائد المفاسر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر.

وفى الوقت الذى يرفض فيه الطهطاوى تعدد الزوجات نراه يدافع عن حق الطلاق ويعنبره أحد المميزات التى «فاق بها دين الإسلام غيره من الأديان وهو قول الزوج لزوجته أنت طالق إلى آخره أو الحقى بأهلك... الخ»<sup>(١)</sup>.

وكان موقف الطهطاوى من الطلاق نهاية حديث طويل كتبه عن خيانة الزوجات لأزواجه ومدى اختلاف رد الفعل من مجتمع إلى آخر ففى حين نرى بعض الشعوب والأديان تَحُل قتل المرأة فى هذه الحالة.. نجد الإسلام يكتفى بأن يطلق الرجل زوجته بدلا من قتلها.

ورغم ذلك فالطهطاوى لا يؤمن بالطلاق على إطلاقه.. وإنما هو يرى وجوب تقييده لكى يؤدى الغرض منه.. ويأتى ببعض الأمثلة لبعض الشعوب التى تتيد الطلاق فيقول: «وأما غير الإسلام من أهل الكتاب أو غيرهم مما للنساء عندهم قدرة كالرجال.. فهناك بلاد لا يقع فيها الطلاق إلا بدواعى قوية وبحضور الأقارب أو القاضى».

ويندد الطهطاوى بالذين يسيئون معاملة النساء.. ويدعو إلى ضرورة احترام المرأة ومعاملتها كالرجل سواء بسواء فهو يرى أن المساواة بين المرأة والرجل من أصل الطبيعة التى لم تفرق بين رجل وامرأة.. فيقول «إن مما لا يرضى به الطبيعة الإنسانية تحقير النساء ومعاملتهم بما لا يرضى به خالق البرية كما عند الخلق المتوحشين من بلاد آسيا وأفريقية وأمريكا الذين يعاملون المرأة التى هى إحدى الضعيفين بما هو فوق طاقتها من تكليفها بما يلزم من الأشغال الشاقة كأن يخصونها فى سائر الأيام بنصب الخيام وصنع سائر حوائج البيت من عمل الطعام وتعهيد البهائم والزراعة وتقليع الحطب وتربية الأولاد مع جميع ذلك.. وأما الرجال فإنهم يرتاحون أو يسرون فى البرارى ومع هذه الأشغال قد لا يتمتع النساء بالخلاص من قيود العزلة ولا يتمكن من الأكل مع رجالهن بل ربما يتقيدون لخدمة السفرة كأنهن جوار لا زوجات»<sup>(٢)</sup>.

ويقدم الطهطاوى صورة لحفلات الزفاف عند أحد شعوب أمريكا الجنوبية مينا مقدار النعاسة التى تعيشها المرأة فى مثل هذه الشعوب فيقول:

وعند أهل أمريكا بقرب نهر الأورينون بعد أن تظهر شعائر العرس تجتمع النساء اللاتى ذفن طعم الولادة وتعهدن البيوت وتغنين للعروس مخاطبات لها بقولهن مامعناه «وابتاه ها أنت داخله فى مراتب النساء فستذوقين طعم الشقا وتبتلين بظالم قليل الإنصاف لا يعدل فى الفراش بل قد ينام مع سواك فى فراشك.. ويحظى باللذات فى معاشه وأما أنت فتحرمين من ذلك وزيادة على ما هنالك تحملين على ظهرك اصطناع حوائج البيت وأما المتاع ولو كنت مثقلة بالحمل أو الرضاع وتعرضين فى الليل والنهار لحرارة الشمس وأتات الأمطار وتحضرين لزوجك السفرة وقد لا يفضل لك شىء من الطعام بالمرّة».

(١) روضة المدارس - السنة الرابعة ١٨٧٣ - (الكلام عن النساء).

(٢) روضة المدارس - العدد العاشر - السنة الرابعة ١٨٧٣ مقال: (فيما يتعلق بالكلام عن النساء).

وفى الوجه المقابل يقدم الطهطاوى صورة لكيفية احترام المرأة فى الدول المتحضرة مؤكداً بذلك رأيه الذى ما فتى يردده : «كلما تقدمت البلاد فى الظرافة والأدب والتمدن حسن فيها معاملة الرجال للنساء»<sup>(١)</sup>.

كذلك كان الطهطاوى يرى أن القدر المتاح من الحرية للمرأة يختلف باختلاف قوانين كل مجتمع وعاداته: «ويختلف الترخيص للنساء باختلاف أحكام البلاد وعوائدها.. فمن آداب الإفرنج أن المرأة تكشف وجهها دائماً وعن رأسها وتشمر ذراعيها متى أرادت وعن رقبتها إلى نحو ثلث ظهرها فى وقت الحر وتختلى بمن تحب وتتماشى مع الأجنبية فى الليل والنهار وتأكل وتشرب مع الرجال ويقبلها الأجانب يوم العيد مثلاً بحضرة زوجها وتمس فى بعض بدننها وتدخل القهاوى مع الغريب.. وهذه عند الإفرنج من أقصى درجات الظرافة والأدب وعلة ذلك إزالة الأحزان برؤية النساء والتمتع بحسنهن إلى آخره».

ثم قال الطهطاوى إنه حتى فى أوروبا تختلف مدى الحريات التى تتمتع بها النساء حسب درجة تقدم كل دولة فيها.. ففى بلاد الروس مثلاً: «لما تملك بطرس الأكبر منح النساء أموراً كانت غير ممكنة لهن وأباحهن مرتبة عالية وقدرة وقيمة بين الرجال حتى أنه يصح توليهن السلطنة فى هذه البلاد».

وفى بلاد الإنجليز يقول الطهطاوى إن «النساء يأكلن على السفرة مع الرجال إلى تمام السفرة فإذا احضرت المسكرات تركز الرجال يسكرون ويتكلمون وحدهم.. ويقال إن تأريخ هذه العادة كان من زمن العادة التى كانت واقعة فى هذه البلاد من أجل الرجال كانوا يسكرون عقب الطعام فيفعلون أموراً غير لائقة بمن حضر من النساء.. فكان هذا مما يقدم فى عرض الحرائر خصوصاً من أكابر النساء فوق هذا الترتيب وصار إلى الآن.

والنساء فى فرنسا «لهن قيمة عظيمة فيحترمن غاية الاحترام كأن يجلسن حيث يقف الرجال ويتذلل لهن فى العشق ويظهر الميل لهن والنظر اليهن.. وأما هن فيلاطفن الناس فى الخطاب ويرشدن رجالهن إلى ما يروونه من الصواب فأقوالهن مسموعة وأفعالهن على الرؤوس ولاحظ لمجلس لا امرأة فيه ولا عيد ولا موسم إلا وفيه من النساء ما يكافؤه وإذا كانت النساء بمحل فهن أوليات الناس يفعلن ما يليق بمزاجهن مما يألّفنه وإذا تكلمن فى حادثة وحكمن فيها بحكم تصدق الرجال على رأيهن».

غير أن النساء فى بلاد فرنسا ككثير من البلاد لا يتولين المملكة قيل لعل ذلك لأن لهن السلطنة على قلوب الرجال فإذا تولين المناصب لعبن بالرجال كما يحبين وأما فى بلاد الإنجليز والروس فلهن حق فى منصب المملكة».

ومع ذلك ففى البلاد التى لا تتولى فيها النساء المملكة تكون النساء لهن يداً وحكماً أعظم من حكم من يتولين خصوصاً إذا كان الزوج الذى هو ملك وله محبة عظيمة فى زوجته فإنه ينقاد إلى أمرها ومرادها وكذلك إذا كانت امرأة معشوقة للملك ولم تكن زوجته فإنه يكون تحت طوعها

(١) روضة المدارس - العدد ١١ السنة الرابعة ١٨٧٣ مقال (الكلام عن النساء).

سيما إذا كان ضعيف الرأي. فالنساء غير الملكات يكن كالمملكات بل أعظم كيف والعشق يجعل العاشق خادما لمعشوقه.

وهنا نجد للطهطاوى حديثا هاما عن العشق والحب حيث لا يرى فيهما عيبا أو جريمة وإنما وسيلة لتهديب الخلق وترقيق الطباع.. يقول الطهطاوى: «إن المحب لمن يحب مطيع.. وقد عرفوا العشق بأنه المسارعة إلى سائر ما فيه رضا المحبوب وهو بالطبيعة السليمة يمتد جهة النساء ومن المعلوم أن بالعشق ترق الطباع وتحسن المنادمة عند الاجتماع.. وبالجمللة فلا خير فيمن لا يحب ويعشق»<sup>(١)</sup>.

ويقارن الطهطاوى بين المرأة المسلمة والمرأة الآورية.. فيرى أن من محاسن الإسلام أن الله سبحانه وتعالى قد أودع في قلب الرجل الغيرة على نسائه حتى جعل سبحانه وتعالى سائر بدن الحرة عورة بالنسبة للأجنبي فلا يحل لها كشفها عليه، لا يحل له نظرها أيضاً فلذلك كانت نساء الإسلام مصونات في بيوتهن سيدات على غيرهن.

فالتطهطاوى ينظر إلى عدم اختلاط المرأة المسلمة بالأجانب (أى الرجال من خارج أسرتها) ليس باعتباره قيذا على حرية المرأة وإنما باعتباره تكريما لها وصيانتها وعاملا يميزها عن غيرها من النساء.

ورغم ذلك فإن الطهطاوى يعترف في نفس الوقت بتميز المرأة الآورية على المرأة المسلمة أو المصرية فيقول: «وتمتاز نساء الإفرنج عن نساء غيرهن بمعرفة الكتابة.. وهذا يشير إلى مدى اهتمام الطهطاوى بتعليم الفتاة واعتباره مظهرا من مظاهر تقدم المجتمعات والطريق الطبيعي إلى حصول المرأة على حياتها وحقوقها فبالعليم كان للنساء «السلطنة العليا على قلوب الرجال بحسن التربية والتعليم»<sup>(٢)</sup>.

ويطالب الطهطاوى بأن: «تتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك فإن هذا مما يزيدهن أدبا وعقلا فيجعلهن بالمعارف أهلا ويصلحن به لمشاركة الرجال في الكلام والرأى فيعظمهن في قلوبهم ويعظم مقامهن لزوال ما فيهن من سخافة العقل والطيش مما ينتج من معاشرة المرأة الجاهلة مثلا»<sup>(٣)</sup>.

وهو يلجأ لإقناع قرائه بفائدة تعليم النساء إلى ذكر بعض ما كان يحدث في صدر الإسلام وفي عهد الرسول بما يؤكد به دعوة الإسلام لتعليم النساء فيحكى أنه «قد روى في كتب الأحاديث روايات عن النساء كثيرة وقد كان زمان رسول الله ﷺ من يعلم القراءة والكتابة من النساء للنساء كالشفاء أم سليمان فقد ورد أن رسول الله ﷺ قال لها علمي حفصة رقية النملة كما علمتها الكتاب أى الخط والهجاء».

(١) روضة المدارس العدد ١١ السنة الرابعة - ١٨٧٣ - «الكلام عن النساء».

(٢) روضة المدارس العدد ١٧ السنة الخامسة ١٨٧٤ مقال (فى تشريك البنات مع الصبيان فى التعليم والعرفات).

(٣) روضة المدارس - العدد ٢٠ السنة الخامسة ١٨٧٤.

ولم يكتف الطهطاوى بالدعوة إلى تعليم البنات وإنما دعا أيضاً إلى اختلاط البنات مع الأولاد فى التعليم فقال فى «طلب وتشريك البنات مع الصبيان فى التعليم والعرفان» ينبغى صرف الهمّة فى تعليم البنات والصبيان معاً لحسن معايشة الأزواج.

وكان الطهطاوى هو أيضاً أول من نادى بحق المرأة فى العمل، وأن للمرأة أن تعمل فى أى مجال يتناسب مع قدرتها. وهو أيضاً أول من رأى فى عمل المرأة صيانة لها من الانحراف وتقريباً منها إلى الفضيلة يقول الطهطاوى: «للمرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال والأعمال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها فكل ما يطيقه النساء من عمل يباشرنه بأنفسهن وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة فإن فراغ أيديهن من العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل وقلوبهن بالأهواء وافتعال الأقاويل فالعمل يصون المرأة مما لا يلىق ويقربها من الفضيلة وإذا كانت البطالة مذمومة فى حق الرجال فهى مذمة عظيمة فى حق النساء فإن المرأة التى لا عمل لها تقضى الزمن خائضة فى حديث جيرانها فيما يأكلون ويشربون ويلبسون ويفرشون وفيما عندهم وعندنا وهكذا».

ومن الآثار الفكرية الهامة التى تتعلق بتعليم المرأة خطبة نشرتها صحيفة روضة المدارس المصرية لمصطفى رياض باشا ناظر المعارف فى ذلك الوقت. ألقاها بمناسبة امتحان مدرسة البنات لطائفة الروم الأرثوذكس.. وكان أهم ما فى الخطبة قول ناظر المعارف إن تعلم البنات ضرورة لتقدم المجتمع. ونحن نرى أن تعليم طائفة النساء وتربيتهن مما لا ينكر لزومه وفائدته ومزيد نفعه للجمعية البشرية فإن الطفل من حين ولادته إلى أن يصل إلى السن المعلوم من أيام عمره إنما يكون فى تربيته فى حجر أمه ينطبع فى نفسه ويرسخ فى طبيعته كل ما يراه أو يسمعه من حسن أو قبيح فينشأ بالضرورة على حسب ما هي عليه ويسرى من طباعها ما يسرى إليه سواء كانت من أهل الأدب والكمال وحسن التربية أم كانت بخلاف ذلك ومهما اكتسبه منها وأخذها عنها فى أيام طفولته ومبادئ شبيبته من محامد الخلق أو مذام الخصال فإنه يفسر تحويله عنه وإزالته منه إذا نشأ وشب عليه لذلك فلا شك عند أهل الرأى وذوى الفكر فى أن تربية النساء وتعلمهن ما يلزم من العلوم والمعارف يعين على نجاح التربية وتقدم الأعمال الإنسانية وترقى الأفكار المدنية<sup>(١)</sup>.

ويؤكد رياض باشا فى خطبته أن الشباب زائل والجمال زائل أما علم المرأة فهو الباقي: «ويمكننى أن أقول إن ما يكون فى النساء من رونق الشباب وبهجة الجمال عرضة للزوال بخلاف ما يكتسبه من المعرفة والكمال فهو دائم فى جميع الأحوال فضلاً عن كونه سارياً فى الأطفال.

وكان عبدالله النديم من المنادين بتعليم البنات وكان يرى أن تهذيب البنات من الواجبات وهو يعتبر المرأة الجاهلة من أسباب خراب البيوت وفساد الأخلاق وضياع حقوق النساء.. ثم أكد رأيه بأن قص على القراء مجموعة من الخطابات تكشف المصائب التى يجربها جهل المرأة وعدم

(١) روضة المدارس - العدد الثانى السنة الخامسة ١٨٧٤ (خطبة لرياض باشا فى مدرسة البنات لطائفة الروم الأرثوذكس).



تعليمها.. منها قصة التاجر الذي كسدت تجارته وضاع واستدان بسبب تفاخر زوجته فى إعداد جهاز ابتنيهما<sup>(١)</sup>. ومنها قصة الخياط الذي لم يعد يقبل عليه أحد بسبب إقبال الناس على الملابس الإفرنجية وأدبارهم عن الملابس الوطنية.. ولم تقدر زوجته الجاهلة ظروفه وإنما ظلت تطارده بطلباتها التي تفوق طاقته.. ولما ينست منه طلبت الطلاق فطلقتها وهو نادم ولكنها اشتكت فى المحكمة التسرعية وفرضت عليه نفقة ومؤخر صداق.. بينما هو لا يجد ما يكتفى يومه<sup>(٢)</sup>. ومنها قصة الفتاة التي توفى أبوها وتركها مع أمها وجعل من أحد أصدقائه الوكيل المتصرف فى مالهما.. فكان رجلا لثيما أضاع مالها حتى مرضت أمها وماتت فجعلها خادمة عنده فلم تطق حالتها وخرجت إلى الشارع تتسول لقمة العيش.

وقال النديم فى تعقيبته على هذه القصص الثلاث: «إنه لو توفر التعليم والتهذيب ما ضيعت الزوجة الأولى أموال زوجها فى التفاخر.. وما طلقت الزوجة الثانية.. وحملت زوجها مالا يطيق ولو كانت الفتاة بطة القصة الأخيرة متعلمة لما استطاع وكيلها أن يخدعها فى الحساب ولا مكنها أن تدير مصالحها وأموالها بنفسها.. ثم انتهى النديم من ذلك كله قائلا إن كل هذه المصائب نتيجة لعدم تهذيب البنات وإهمالهن بلا تعليم وتأديب سوى ما ألفنه من الخرافات وتمسكهن بقييح العادات.

ولذلك اعتبر النديم تعليم البنات شرطا لتقدم الوطن فقال: «وغير خاف أن تهذيب بناتنا الصغار عليه مدار التقدم والعمران وانتشار المعارف وإحياء الأوطان فإنهن متى نشأن فى التهذيب وتربى على المعارف والتأديب وآل أمرهن لأن يكن أمهات بنات وينفن فإنهن يجتهدن فى تهذيب أولادهن بكل ما يمكنهن ليصدق عليهن اسم الإنسانية وترفعون إلى درجات الكمال<sup>(٣)</sup>.

واستغل النديم قوة الشعور الدينى عند المصريين فربط بين تعليم النساء ومعرفتهن بأصول الدين وبالتالي محافظتهن عليه فقال: «ثم إن النساء إذا تهدين وتعلمن قواعد الدين ربما حافظن عليه أكثر منا فإن المرأة لو علمت بإدراك وتعقل أن الجلوس فوق المقابر لا يجوز شرعا ما تجمعت جموع النساء يوم الخميس من كل أسبوع.. وفى الأعياد وفى المواسم فوق المقابر بجهة عامر السواري أو بأي قرافة واتخذن من تلك الأيام مهرجانا يتزين ويتبرجن فيه وهن جالسات حيث يمر من بينهن الشبان الجهلاء ويتسامرون معهن ويداعبونهن إلى غير ذلك مما هو مشاهد بالعيان. كذلك لو علمن أن الولولة والسندب خلف الميت لا يجوزان شرعا لما حصل منهن ذلك وذخرجن خلف الميت صارخات مهتكات صابغات وجوههن وأيديهن بالنيلة أو الطين بل كر يتثلن لأمر الدين ولا تصدر منهن كل هذه المخالفات.

(١) التنكيك والتبكيك ٢٤ يوليو ١٨٨١ (سلسلة مقالات بعنوان «تهذيب البنات من الواجبات».

(٢) التنكيك والتبكيك - ٣١ يوليو ١٨٨١ مقال (تهذيب البنات).

(٣) التنكيك والتبكيك - ٧ أغسطس ١٨٨١ تابع مقالات (تهذيب البنات).

ثم تعرض النديم لبعض أنماط السلوك الاجتماعي الخاطيء الذى تمارسه بعض النساء المصريات بسبب الجهل وعدم التعليم: «وبالجملة فإننى أرى نساءنا جميعا غير مهذبات ولهذا يجلبن على أزواجهن النكبات فأى امرأة مهذبة عاقلة مؤدبة يرضيها أنها تتركب على عربة كارو عليها نحو الخمسين من النساء فوق بعضهن البعض كأنهن ظرود كهنة أو زكاتب تبن أو أفراد فسيخ فسيرهن جملة عربات بهذه الصفة مارة من أعظم شوارع البلد والخلائق يتفرجون عليهن ونحن معشر الوطنيين من ضمن هؤلاء المتفرجين ربما كانت إحداهن من تبعة آحدنا ولا يشعر فأى عاقلة مهذبة ترضى لنفسها بهذه الحطة والخسة وإن كنا نحن معاصر الرجال راضين بها.

وكان الشيخ محمد عبده دائم التنديد بسوء معاملة الرجل المصري لنسائه سواء كانت زوجته أو أمه.. أو أخته أو قريباته وخاصة فى الريف المصري فمن أمعن النظر فى معاملة رجال الأرياف لنسائهم علم ما تقاسيه هؤلاء النساء من سوء المعاشرة التى لا تحببها شريعة ولا ترضاهما الإنسانية<sup>(١)</sup>.

وكشف الشيخ محمد عبده عن صنوف العذاب التى تعاني منها المرأة المصرية فى الريف المصرى: «ومع ما هن فيه من نكد الحظ وشقاوة البدن فلا تزال أزواجهن تسومهن الإهانة والظلم وإن تهاون فى بعض الأعمال الطفيفة أوجعهن الرجال ضربا مبرحا يهشم العظم ويسيل الدم ويكسر الرأس».

ثم بين الشيخ محمد عبده أن سوء معاملة المرأة لا يتفق وشريعة الإسلام التى تحث على حسن معاشرة النساء: «ولا شك أن هذا العمل وما شابهه مما هو كثير الوقوع فى الأرياف مضاد للشرع الشريف ومخالف لما أمرت به الشريعة الصحيحة المشحونة بالحث على مراعاة حقوق النساء ومعاشرتهم بالمعروف ومكارم الأخلاق.

ثم ضرب الشيخ محمد عبده على وتر حساس بالنسبة للرجل.. إذ ربط بين سوء معاملته المرأة وإصابة الرجل بالفقر فقال: «إن توفر ثروته وموقفه على تدبير المرأة فى الإدارة المنزلية فإذا لم تستعمل فى صرفها الحكمة والاقتصاد وتصرفها فى موارد الضرورات أدركته الفاقة ولازمه الفقر ولا يتسنى لها حسن القيام بمهام ذلك إلا إذا اشتدت رغبتها فى الزوج وكان لها قوة الأمل فيه وهذا إنما يكون إذا عاملها الزوج بالحسن».

كذلك ربط محمد عبده بين حسن معاملة المرأة وبين تقدم المجتمع.. إذ أن إساءة معاملة المرأة مضرة بالبدن والآداب والتقدم فى ثروة الرجال فعسى أن يقلعوا عن هذه العادة الشنعاء ولا يعاملوا النساء بغير ما أحل لهم فإذا تم ذلك توقعنا نموا عظيما وتقدما محسوسا فى هيئتنا الاجتماعية<sup>(٢)</sup>.

ومن القضايا الهامة التى تعرض لها الشيخ محمد عبده قضية تعدد الزوجات وكان له فيها رأى أثر بعد ذلك تأثيراً كبيراً على تطور حركة تحرير المرأة فى مصر.. فقد كان الشيخ محمد

(١) الوقائع المصرية - أول ديسمبر ١٨٨٠ مقال بعنوان (النساء فى الريف).

(٢) الوقائع المصرية - أول ديسمبر ١٨٨٠.

عنده يرى أن «الشرعية أتاحت للرجل الاقتران بأربع من النسوة أن علم من نفسه القدرة على العدل بينهن فلا يجوز الاقتران بغير واحدة»<sup>(١)</sup>.

ثم قال محمد عبده : إن الوقائع تؤكد أن الرجل مهما بلغ غناه لا يمكن أن يعدل بين نسائه.. لذلك فعليه ألا يقتن بأكثر من زوجة واحدة.

ويعتبر سليم النقاش أول من تصدى بالهجوم على ظاهرة الزيادة المطردة في عدد السكان وأرجع ذلك إلى تفشى ظاهرة تعدد الزوجات.. وحمل الظاهرتين مسئولية إفقار الشعب المصري، وتخلقه فهو يقول إن «بلادنا الشرقية في المقام الأول من فساد النظام الاجتماعى بدليل كونها في المقام الأخير من النماء الإنسانى مع إقبال ساكنيها على التوليد إلى أن يفرغ الوطاب ويتعذر ما في الجراب ومع جواز الاستكثار من النساء في الكثير منها وعند الكثير من أهلها.. إن إفراط الشرقيين في هذين الأمرين هو السبب في سوء أحوالهم ومناقص أرزاقهم»<sup>(٢)</sup>.

ثم عدد سليم النقاش الأضرار التي تعود على الإنسان بسبب تعدد الزوجات والإفراط في الإنجاب فقال: «فكم رأينا من معسر لا يصيب من الرزق مايفى بحاجاته الذاتية وفي كنه النساء مثنى وثلاث ورباع مع جيش من الولد يغالبون الجوع بما يأتيهم به عن المساء من أسود الخبز ويقاومون برد الشتاء بما يلقون من الرقع البالية متقلبين على نار الفاقة وشوك الاحتياج إلى أن عندهم الأمراض بالموت يأخذ النساء والأطفال إلا من أنقذته القوة البدنية ليعيش فيجنى على غيره ما جنى عليه أبوه».

وكان سليم النقاش دائم الاهتمام بعرض أحوال النساء في شعوب العالم المتعددة فهو تارة يكتب مقالا عن الطلاق في الصين يقول فيه إن الرجل هناك لا يستطيع أن يطلق زوجته إلا بموافقتها<sup>(٣)</sup>.. وتارة أخرى يكتب عن النساء في أمريكا ومطالبتهن بحقوقهن السياسية فيقول إن «أرباب المجالس في ويسكونس - إحدى الولايات المتحدة في أمريكا الشمالية- قرروا بإجماع الآراء أن يعطوا للنساء المتزوجات حق الانتخاب لأي الوظائف والمناصب. وهذه الولاية هي الأولى بعد ولاية يوا في أمريكا الشمالية في إعطاء النساء حقوقهن سواء كن منتخبات أو معرضات للانتخاب.. وقد ذكر في جريدة ترلندمون أن سبع ولايات منها ولاية نيويورك قررت للنساء تلك الحقوق ولكن جعلتها مقصورة على انتخاب المدارس العمومية ومديريها لا تتجاوز إلى سواها من الوظائف.. قالوا في جريدة وومنسى جورنال- جريدة أمريكية مخصصة للدفاع عن حقوق النساء - إن هذا لهو الهلال السعيد»<sup>(٤)</sup>.

ولقد علق سليم النقاش على هذه الأنباء وكأنه يستقرىء المستقبل.. فأكد أن النزعة إلى إعطاء المرأة حقوقها السياسية سوف تكون مرعية في الأقطار المذكورة حتى عند من يعدونها الآن بدعة حرية بالإغفال عنها ولسوف نرى من فوائدها ما يجبر الحكومات إلى توسيع دائرتها بحيث تستولى النساء على حقوقهن وتساوى الرجال فلا فرق بين الفريقين إلا ما سلب الرجل من حقوق المرأة بالقوة والعنف.

(١) الوقائع المصرية - ٨ مارس ١٨٨١ مقال بعنوان (حكم الشرية في تعدد الزوجات).

(٢) العصر الجديد - ٢٩ أبريل ١٨٨٠ مقال (الموت والفاقة).

(٣) العصر الجديد - ٧ مايو ١٨٨٠ مقال (الطلاق في الصين).

(٤) العصر الجديد - ١٣ مايو ١٨٨٠ - مقال (النساء في أمريكا).

ثم يتساءل سليم النقاش فى أسى بعد أن يقارن بين أحوال المرأة فى الشرق وبين ما تكسبه المرأة الأمريكية من حقوق كل يوم.. وإذا نظرنا إلى الشرق بعد هذه الرواية قلنا.. أين نحن من أمريكا..

وفى مقال آخر يتحدث سليم النقاش عن النساء وحقوق الانتخاب فى كرواتيا فيورد خبرا مؤداه أنه «تقرر عند أهل كرواتيا وهم نحو مليون نفس أن النساء قد خصتهن الطبيعة بمزايا وصفات يعز وجودها عند الرجال وأنهن شريكات الرجال بالمعنى الحقيقى الباعث إلى الوجود الإنسانى، فعدوا من الواجب مشاركة النساء للرجال بما تقوم به المدنية ويستقيم أمر التمدن وتشيد مباني التهذيب ولاسيما أن على النساء تربية الأطفال وتهذيب أعضاء العائلة وتنقيف عقول الأولاد ليرضعوا ألبان المعارف منذ نعومة الأظفار<sup>(١)</sup>.

وقد علق سليم النقاش على ذلك مؤكدا مساواة المرأة للرجل ومعلوم أن النساء والرجال من جهة الجبلية سواء لا فرق بين الفريقين فظاهر التركيب بل ذهب الكرواتيون إلى أن الرجال والنساء من ناحية الحقوق المدنية سواء وهو مذهب بعض أهل أمريكا فأقاموا المرأة بمنزلة الرجل وخولوها الحق فى انتخاب أعضاء المجلس والحكام حتى صار لهن فى الانتخاب أصوات وآراء كالرجال وقد دعا أهل كرواتيا النساء إلى مشاركة الرجال فى انتخاب أعضاء المجالس البلدية فى جميع الولاية فظهر من القوائم الواردة إلى افرام وهو مركز كرواتيا أن عدد المنتخبين ٣٢٠٠ نفس منهم ٨٠٥ نساء.

وكعادته فى نهاية كل مقال يتحدث فيه عن أحوال النساء فى الدول المتقدمة، تساءل سليم النقاش:

«فلتسمع نساؤنا .. بل فليسمع رجالنا..»

ولسليم النقاش دراسة هامة كتبها عن مقام المرأة عند المصريين القدماء أراد بها أن يؤكد أن المصريين القدماء هم أول الشعوب التى كانت تحترم المرأة وتساويها بالرجل.. وأهمية هذا الرأى أنه كان يقفل الطريق أمام القوى المحافظة فى المجتمع المصرى والتى كانت تقف أمام حركة تحرير المرأة بحجة أن مساواة الرجل بالمرأة مجرد بدعة.. وتقليد للأوروبيين: يقول سليم النقاش: «يقول الإفرنج إن المرأة لم تنل فى زمانها من حقوقها ما تناله فى بعض ممالكهم اليوم.. على أن نساء المصريين، بلغن فى زمانهن مبلغا لم يبلغنه حتى الآن بل لن يبلغنه ما زال الرجل رجلا، فإنهن لم يقتصرن على نوال حقوقهن كلها بل سدن على الرجال وابتززن أكثر حقوقهن بل كلها كما يستفاد من صكوك التعهد التى كان يتعهدها الزوج لزوجته<sup>(٢)</sup>.

وعدد سليم النقاش الحقوق التى منحها المصريون القدماء للمرأة ومنها:

«إن الرجل يقبل المرأة زوجة له.. وأن يمهرها مهر الزواج.. وأنه يتعهد لها بمبلغ معين ينقدها إياه كل سنة لتشتري ثيابها ويتعهدها بأن يدفع لها غرامة إذا تزوج عليها ضرة ولا يتصرف فى شىء

(١) العصر الجديد - ١٥ يونيو ١٨٨١ مقال (النساء وحقوق الانتخاب فى كرواتيا)

(٢) المحروسة - ١٤ مارس ١٨٨٧ مقال (مقام المرأة عند المصريين القدماء).

إلا بإذنها.. وكان ينسب الزوج إلى زوجته فيقال فلان زوج فلانة ويتسبب أولادها إليها.. وكانت المرأة تباع وتشتري وتاجر وتداين كالرجل.. وذلك كله تحقيقاً لقول اليوناني ديودوروس إن المصري كان لا يقترن بامرأة حتى يتعهد بأن يكون لها عبداً.. وكان الرجل يحبك ويغزل كالمرأة. وبعد ثلاثة أعداد من نشر مقال سليم النقاش حول مقام المرأة عند المصريين القدماء نشرت صحيفة المحروسة تعليقا على المقال - لنسيم أفندى نوفل.. أيد فيه رأى سليم النقاش بأن قدماء المصريين هم أول من أعطوا المرأة حريتها ووصلوا إلى أعلى مراتب التقدم التي تدعيها أوروبا الآن ودلل على ذلك بمجموعة من الحقائق التاريخية منها مثلاً: «إن ولائم الأفراح كان لها مراقص خصوصية وكان بها للنساء ثوب مخصوص وليس على التمدن بمستغرب أن يرينا سيدة الغرب في مراقصها بارزة بمثل هذا الثوب وكان الرقص بينهم كرقص الإفرنج في هذا العصر أى بمخاصرة الرجل خصرها رق وانتحل ولولا قدرة الله لانفصل أو لوحدهن كرقص نساء الشرق أو مع بعضهن كرقص عرب البادية.. ولا يجوز للرجل أن يرقص لوحده أو مع جنسه»<sup>(١)</sup>.

ومنها أيضاً «إن ميادين السباق كانت تشارك فيها المرأة والرجل وترافقه أيضاً عندما يقصد صيد الطير والسماك في القوارب النيلية».

ومنها أيضاً أن «الملوك والأمراء سمحوا لنسائهم بأن يبرزن إلى المعابد سافرات الوجوه». وبالإضافة إلى كل ذلك كان لهن من القوانين والشرائع المنظمة التي لا يسمع الغرب تجاهل معرفة إدارتها مع ما كان لهن من الحرية المطلقة.. ثم أباحوا لها حقوق الهيئة الاجتماعية وأن يكون لها التقدم فيها تقدماً أدبياً..

ولخصرة الأديب البارع.. نعمان أفندى قساطلى مقام هام نشرته له صحيفة المحروسة عن حقوق النساء حاول فيه الكاتب أن يطرح جميع التساؤلات التي كانت مثارة داخل المجتمع المصرى حول موضوع حرية المرأة.. وأن يقدم إجابات محددة عليها.. وقد بدأ الكاتب مقاله مؤكداً مساواة المرأة بالرجل واعتباره «جنس الإناث أحد ركنى العالم الإنسانى وبأن ما له من المنزلة فى وجوب وجد أن الجنس الناطق وعلم الكل بالعيان أهميته.. وبما أن هذا الجنس النشط كان له حق المساواة أيضاً فى موجبات الحياة الأدبية والمادية ليتم ببناء الكون»<sup>(٢)</sup>.

وعلى ضوء هذه الحقيقة وهى مساواة المرأة للرجل يستخلص الكاتب ثلاث نتائج هامة وهى: **أولاً:** بما أن هذا الجنس - أي الجنس اللطيف - مساو للجنس النشط عدداً فالعدل يقضى بمساواته فى الحقوق.

**ثانياً:** بما أن الجنس اللطيف قد نال ما ناله الجنس النشط - أي الرجال - من الحقوق العقلية وحصل على الامتيازات التامة التى تبعد الإنسان عن الحيوانات العجم وتجعله أهلاً للتقدم فى جهودات الإنسانية كمعادلة وجب له حق الانتظام الحر فى نظام الهيئة الاجتماعية المشخصة للعالم الإنسانى.

(١) المحروسة - ٣ أبريل ١٨٨٢ مقال بعنوان (تزييل لمقام المرأة عند المصريين القدماء).

(٢) المحروسة - أول أبريل ١٨٨٢ - مقال (النساء وحقوقهن).

**ثالثاً:** بما أن الأنثى هي وحدها الممتازة فى خاصية التوليد وهي الموكول إليها أمر تربية الأولاد منذ الصغر لتجعلهم أعضاء عاملين فى العالم توجب لها حق الاشتراك فى أعمال الهيئة الاجتماعية لتعرف كيف تضع أعمال التربية فى قوالب حسنة لتهيئ للنظام البشرى أعضاء حاصلين على الكمالات نافعين فى الوجود.. فالتساء يحق لهن أن يدخلن المدارس وأن يشتركن فى الأعمال الأدبية العمومية وأن يشتغلن فى التجارة والبيع والشراء وأن وأن الخ.... إلا أنه لا يحق لهن أن يدخلن الجندية وما أشبهها.. ذلك لأنه فضلاً عن كونه يضر بأجسامهن النحيفة.. يؤخر قيامهن فى وظائفهن الخاصة فيلحق تأخير فى غاية النمو والبنيان البشرى».

وأورد الكاتب سؤالاً جاءه من إحدى الفاضلات من سيدات الجنس اللطيف تقول فيه «هل للمرأة الشرقية الحق فيما تطالب به المرأة فى الغرب فى أوروبا وأمريكا؟

وأجاب الكاتب على السؤال قائلاً: إن ما نعلمه مما يطالب به نساء غربى الكرة هو حقوق الانتخاب أولاً وثانياً حقوق النيابة والقضاء.. فعندنا أن هذه المطالب حق بها.. ذلك لأن حق اشتراك النساء فى أحكام البلاد العمومية يقضى عليهن بالدخول فى أسباب الذود عن الوطن والدفاع عنه وهذا لا يكون إلا بواسطة التجند العسكرى.. وتبين عدم لياقة السيدات لهذه الخدمة، لما يترتب عليها من المضار وإذا خولنا الحقوق التى يطلبنها فلا يكون ثباتهن بها بدون اشتراكهن فى الأعمال المادية أيضاً وعليه يكون ما يطلبنه غير جائز ولا لزوم له».

ثم أضاف: «وأما إذا كان عند النساء الأميركيات احتجاجات عادلة ولم تخطر لنا ببال فعلينا أن ننتظرها».

أما ما يحق لنساء الشرق المطالبة به هو حق الكرامة الواجبة للجنس اللطيف وأن يطلبن الدخول فى المدارس والتقدم فى الأدبيات والسماح لهن بالأشغال القانونية التى تنفعهن وتنفع العالم إلى غير ذلك من الحقوق العادلة التى أعطاها لهن الله تعالى سبحانه.

ورغم أن الكاتب لم يوضح العلاقة بين شرط اشتراك النساء فى الجندية وبين ممارستهن لحقوقهن السياسية وعجزه عن أن يرى إمكانية أداء النساء أدواراً فى الحروب قد تساوى دور الرجال فيها.. ورغم ذلك فالكاتب يعتبر بمقياس عصره كاتباً تقديمياً يدافع عن حرية المرأة ويكفى أنه كان يدعو إلى حق المرأة فى التعليم وفى العمل.

وبذلك يتأكد لنا صحة ما سبق وذكرناه فى بداية هذا الفصل من أن قاسم أمين ليس هو رائد حركة تحرير المرأة فى مصر فقد سبقه بسنوات طويلة عدد كبير من المفكرين والكتاب والصحفيين الذين دعوا إلى حرية المرأة المصرية.. بل وطرحوا أفكاراً لم يجرأ قاسم أمين على طرحها مثل حق المرأة فى العمل.. والدعوة إلى اختلاط الصبيان مع البنات فى التعليم.. وتحديد الطلاق.. ومهاجمة تعدد الزوجات.. وغير ذلك من الأفكار التى لم تخل منها أى من الصحف الصادرة فى الفترة الأولى من البحث.

\* \* \*

**الجزء الثانى**  
**الفكر الليبرالى فى الصحافة المصرية**  
**(١٨٨٢ - ١٩٢٤)**





الباب الرابع  
التدعيم

الفكر القومي في  
الصحافة المصرية



## الفصل الثانى عشر

**القومية .. والوطنية ..  
ومفهومهما فى  
الصحافة المصرية**



## مفهوم القومية والوطنية فى الصحافة المصرية

يلاحظ على المحاولات المتعددة من جانب الصحافة المصرية فى تلك الفترة لتعريف القومية والوطنية.. وتعريف الأمة والوطن.. أن أكثرها تراوح ما بين التصور الرومانسى وبين التعريف العلمى.. وبعضها جمع بين التصورين معا فى تعريف واحد.

ومن المحاولات المبكرة لتعريف القومية فى تلك الفترة- ولعلها أول تلك المحاولات المحاولة التى قام بها الشيخ على يوسف فى صحيفة (الآداب) حين كتب سلسلة مقالات متتالية تحت عنوان (الكلام على العصبية) وفيها يرفض اعتبار الدين من مقومات القومية ويهاجم من سبقه من الكتاب الذين كانوا: يعتبرون أن الرابطة الحقيقية بين الشعوب هى الوحدة فى الدين فقط.. يضربونها بينهم وبين مخالفيهم حدا فاصلا كأنما هم عالم آخر سواهم ولهذا كانوا ينقسمون أحزابا كما ينقسمون اعتقادا.. كل حزب بما لديهم فرحون لا يعتبرون للوطن جامعة أخرى ولا للجنسية رابطة مختلفة فيذهب بهم ذلك التعصب إلى استباحة كل دم الآخر وما له وعرضه فتولد الفتن وتعاظم المشاكل ويزهقون أنفسهم فدية لتلك الدعوة والدين الحق برىء منها<sup>(١)</sup>.

وهو يرى : «أن كل طائفة من الناس استقطعت حيزاً من أرجاء الكرة الأرضية وقضى عليها حكم تغيراته بالتشابه فى الخلقة والعوائد وعملت فيها قوانين الوراثة المتعاقبة وتبادلت فى المرافق وكافة المنافع وتآلفت طباعا وتشاكلت أخلاقا وشارك بعضها بعضا فى ثوب الحوادث بالأخطار وشملتها الطبيعة بمؤثرات متفقة أو متقاربة وارتبطت بجامعة اللغة والقانون العام.. فهى أمة طالبتها الذمة بولاء الوحدة ولا حياة لها إلا بسلطان شامل مصدره رجل قائم على الكل مقام الأب للعائلة روحه منبثة فى مظاهر متعددة هم رجال إرادته ومنفذوا حكمه ومرجع رأيه لا يقوم إلا بهم ولا يقول إلا عليهم وهم موضع ثقته ومحل رجائه فى تحقيق كمال الهيئة ووجودها.. فالأمة والحكومة إذ ذاك متلازمتان فى الوجود ولا توجد إحداهما بدون الأخرى<sup>(٢)</sup>.

ويلاحظ أن الشيخ على يوسف - قد اقترب كثيرا فى ذلك المقال الذى نشره فى صحيفة المؤيد - من المفهوم العلمى المعاصر للقومية.. فبعد أن استبعد الدين من مقومات القومية.. فى مقاله الأول «بالآداب».. نجده يستوعب - فى مقاله «بالمؤيد» - المقومات الأساسية للقومية.. والأمة مثل مقوم الأرض المشتركة وانظر قوله : «إن الأمة طائفة من الناس استقطعت حيزا من أرجاء الكرة الأرضية» ثم استوعب بعد ذلك وحدة التاريخ: «وشارك بعضها بعضا فى ثوب الحوادث» ووحدة اللغة. «وارتبطت بجامعة اللغة».. ثم مقوم التكوين النفسى المشترك الذى يجد له تعبيرا فى الثقافة المشتركة فهو يقول: «وقضى عليها حكم تغيراته بالتشابه فى العوائد وتآلفت طباعا وتشاكلت أخلاقا... ثم هو يستوعب فى تعريفه أخيرا مقوم الحياة الاقتصادية المشتركة: «وتبادلت فى المرافق وكافة المنافع».

(١) الآداب - ٣١ مارس ١٨٨٧ - مقال بعنوان (الكلام على العصبية)

(٢) المؤيد - ١٢ ديسمبر ١٨٨٩ - مقال بعنوان (الأمة والحكومة).

ولكن الشيخ على يوسف يتعد عن المفهوم العلمى المعاصر للقومية عندما يضيف إلى مقومات القومية والأمة.. مفهوم وحدة الجنس أو على حد قوله: «التشابه فى الحلقة» ومقوم: ضرورة وجود الحكومة أو الدولة: «فالأمة والحكومة متلازمان فى الوجود ولا توجد إحداهما بدون الأخرى» وقد كان الشيخ على يوسف يردد بذلك القول الأخير نفس المفهوم الذى كان سائدا فى الفكر السياسى للعصور الوسطى وحتى القرن الثامن عشر. حيث كانوا يخلطون بين الدولة وبين الأمة فالقومية أو الوطنية حينئذ لم تكن تعنى غير الارتباط بالملك أو المملكة وكثيرا ما كانت البلدان تنتقل من حكم إلى حكم ومن مملكة إلى مملكة من جراء زواج الملوك ومصاهرة الأمراء والبيوتات المالكة فإذا انتقلت مقاطعة من مملكة إلى أخرى وجب على أهلها أن يتعلقوا بمملكتهم الجديدة وبتعبير آخر كان يترتب عليهم حينئذ أن يكسبوا وطنية جديدة مختلفة عن وطنيتهم السابقة<sup>(١)</sup>.

وخطورة الربط بين الدولة والقومية أنه يحصر وجود القومية أو الوطنية فى الشعوب التى تملك دولة خاصة بها مستقلة عن غيرها.. مما يستبعد جميع الأمم المستعمرة والمحرومة من حكومة أو دولة مستقلة.. من عداد الأمم<sup>(٢)</sup>.

وفى صحيفة «الأستاذ» تصدى عبدالله النديم لتعريف الوطنية فقال: «يزعم كثير من الناس أن الحياة الوطنية هى الجمهرة.. أى تجمع الأمة فى مكان متكثرين متضامين.. وليس كذلك فإن وفرة العدد والتجمع لا يعنى شيئا من الفراغ من العلوم والصنائع الموصولين إلى توسيع دائرة العمران وحفظ الوطن من العاديات بما ينشأ عن العلوم من احتكاك الأفكار وتبادلها.. وحفظ الوحدة الوطنية فى الأجناس القاطنة فيما يسمى وطنا.. وذلك بتوحيد القضاء والمعاملة ويمكن الطوائف من إجراء عاداتهم فى مجامعهم ومعابدهم وأعيادهم.. كل بما هو حق فى معتقده جميل فى عادته بلا حبر ولا تضيق وإطلاق حرية الإنشاء والمطبوعات إلى حد لا يبلغ تشويش الأفكار، ولا المطاعن الدينية ولا الأهاجى الشخصية وفتح باب الاستيطان والمرور لمجاور ومعاهد وبعيد غير محارب وتبادل السياسة وتلقى المعارف بين الأمة ومعاهدها توسيعا لنطاق الآداب والفنون وتعميم الأمن فى أنحاء الوطن<sup>(٣)</sup>.

ويخلص النديم من ذلك قائلاً: «وبهذا نعلم أن الحياة الوطنية لا تتحقق إلا بانتشار المعارف والصنائع فى الأمة».

والملاحظ أن النديم يربط بين (الفكرة القومية) أو (الحقيقية القومية) وبين (النظرية القومية) أو (محتوى ومضمون) هذه الحقيقة القومية.. ولعل هذا هو الربط الذى قال به بعد ذلك ميشيل عفلق عندما فرق بين الحقيقة القومية والنظرية القومية<sup>(٤)</sup>. ولكن الخلاف بينهما: ان النديم

(١) ساطع الحصرى - الوطنية والقومية - ص ١١ - ١٢.

(٢) ستالين - اللينينية والمسألة القومية - ص ٣٦ - ٣٧ وستالين - أسس اللينينية - ص ١٠.

(٣) الأستاذ - ٣٠ أغسطس ١٨٩٢ - مقال بعنوان (الحياة الوطنية).

(٤) ميشيل عفلق - فى سبيل البعث - ص ٢١١.

يقول بأنه لا وجود للحقيقة الوطنية بدون المحتوى الوطنى بينما علق يرى أن الفكرة القومية أو الحقيقة القومية بديهية خالدة.. وقدر محبب أما النظرية القومية فهى التعبير المتطور عن هذه الفكرة الخالدة حسب تطور الزمان وظروف المكان<sup>(١)</sup>.

ويرى تادرس المنقبادى أن هناك أربعة مقومات للوطنية والوطن:

الأول: الحياة المشتركة على أرض مشتركة إذ أن: الوطن هو منبت شعبة المرء ومسقط رأسه.. والأرض التى دب فيها منذ نعومة أظفاره وتعود على شرب مائها واستنشاق هوائه وذاق حلاوة السراء ومرارة الضراء فهو بهذا الاعتبار ميال بالطبع إليها ومدفوع بعوامل الغيرة إلى الأخذ بناصرها وشد أزرها وبذل النفس والنفس فى سبيل نفعها وخيرها.. وكلما نمت هذه الحاسة الشريفة فى قلوب أبناء الوطن كان تقدمهم وارتقاؤهم إلى معارج النجاح ومدارج الفلاح حثيثا ومحسوسا<sup>(٢)</sup>.

مقال: «وبناء على هذا يكون زيد مثلاً فى علاقته الشخصية أشد وصلة ورابطة بعائلته منه بعصبته. وبعصبته منه بأهل وطنه وهكذا. وقد يكون فى ميوله وعواطفه الخصوصية أشد وصلة ورابطة بأهل مذهبه منه بأهل دينه وبأهل دينه منه بسواهم.. وهكذا فى سائر الجامعات حتى ترى ريذا شقيق عمر والمخالف له فى المبادئ الوطنية منفصلاً فى موضوعها عنه ومتحيزاً إلى بكر عدو أبيه وجده الناصر والمحارب له فيها» وترى زيدا المحارب لبكر فى المبدأ الوطنى مخالفاً له فى الجامعة الصناعية يتوازى بأفرادها عليه ولكى يشقيه. وترى الفرنساوى عدو الألمانى فى المسائل الوطنية صديقا له ونصيرا بل أخا فى طريقتهما الفكرية أو الصناعية أو المذهبية وغير ذلك ثم بنهى من ذلك إلى القول بأن: «اختلاف الجامعات بأنواعها المجموعة تحت الجامعة الواحدة المعبر عنها بالإنسانية يتم به كمال وجمال الجامعة الإنسانية إذا وضع كل منها فى موضعه وحدوده وزمانه ويكون به شقاؤها وبلاؤها إذا جاوزت كل جامعة حدها وموضعها وزمانها.

ثم تصدى الكاتب لتعريف الوطن متخذاً نفس منهج عبدالله النديم فى التفرقة بين (الحقيقة الوطنية) و (مضمون هذه الحقيقة) التى سماها أخنوخ افندى فانوس (بالسياسة الوطنية) فهو يقول: «يراد بالوطن البلاد المحدودة التى تجمع قوما يطلق عليهم اسمها العام والمراد بالسياسة الوطنية قيادة الوطن على غط يرفع من شأن قومه داخليا وخارجيا.

ثم قال: «والقوم - جاءت منها قومية - هو الشعب على أنواعه ونحله المتألف منهم أهل الوطن والمكونة منهم الجامعة الوطنية فهل يصح بعد هذا التحديد أن يكون لغير الجامعة الوطنية شأن فى تولى السياسة الوطنية للبلاد.

(١) نفس المصدر - ص ٢١١.

(٢) مصدر ٢٢ نوفمبر سنة ١٨٩٥ مقال بعنوان (بماذا تقوم الوطنية).

ثم ينفي الكاتب أية علاقة بين الدين والوطنية فيقول: «ولما كان الدين مرجعه إلى يقين صاحبه كان للناس اختياريا حتى فى أشد البلدان استبدادا ونتج عن ذلك أن صار البلد وإن شئت فقل الوطن للواحد جامعا لجامعات دينية متخالفة متضادة لا ترجع فى نوعها إلى جامعة واحدة قبل لا يمكن جمعها تحت جامعة واحدة تتحد فيها.. ولذا لا يصح أن تتولى تلك الجامعات الدينية سياسة الوطن ولذا لا يصح أن تنفرد بسياسة الوطن إحدى تلك الجامعات الدينية تغلبا إلا اذا صح جهاد الجامعات الدينية المختلفة ضد بعضها فى الوطن الواحد لنيل تلك الغلبة والانفراد بالسياسة الوطنية وهذا لا يجيزه لوطنه إلا من خلا من الإدراك وأراد بوطنه حربا داخليا».

ثم يفرق أخنوخ أفندى فانوس - بين طبيعة الخلافات الدينية.. والخلافات السياسية.. داخل الوطن.. فعلى حين يرى أن الخلافات السياسية ظاهرة صحية وضرورية لنمو الحياة الوطنية.. لمجده يرفض الخلافات الدينية حيث يرى أن الخلافات من شأنها أن تدمر الحياة الوطنية فهو يقول: «ورب قائل يقول كيف يتولى فريق من الأحزاب السياسية دون الآخر سياسة بلاده فى البلاد الدستورية تغلبا بلا حرب داخلية ولاخوف منها..؟ أولا لأن الأحزاب السياسية ترجع فى نوعها إلى جامعة واحدة وهى الجامعة الوطنية فهى كثيرة فى مبادئها واحدة وهى تعمل باسم جامعته العامة التى تجمع جميع الأحزاب على اختلاف أسمائها والحال فى الجامعات الدينية غير ذلك بما بينا.. وثانيا أن الأحزاب السياسية ليست إلا هيئات اشتهرت بمبدأ عام صار عنوان اسمها فهى فى الحقيقة ليست ذات شخصية معينة وإنما كل منها عبارة عن مبدأ سياسى عام له زعماء يحملون لواءه ويعلنون للشعب آراءه ونياته السياسية فى كل مسألة بما لها من المؤثرات الأدبية فيموج الشعب فيها حتى تخلب إحداها عقول الأغلبية فيه فتضمها إليها وتتغلب بها على سواها فترقى بها منصة الأحكام وحينئذ تقف لها المغلوبة بالمرصاد وتخطئ أعمالها وتسفه آراءها حتى إذا حولت أميال الأغلبية عنها إليها خارت قوى الزعامة الحاكمة فتستقيل أو تعقبها المتغلبة.. فلا خوف من جهاد الأحزاب السياسية فى بلاد يتولى أحكامها لأن جهادها من طبيعة حاله أدبى محض وثماره لاتدرك إلا بالقوة الأدبية بل يحق لنا أن نقول إن سلامة الأمة من جموح الحكام ووجوههم قائمة على الاختلاف بين أجزائها السياسية وليس الأمر كذلك فى الجامعات الدينية فإن لكل منها ذاتية معنوية معنية بمقاعد مخصوصة قائمة بفريق مخصوص من الناس فإن تولت إحداها أمر سياسة الأمة الآن بالغلبة بقوتها الذاتية استأثرت بها وحولتها إلى منافعها الذاتية فيحول اليأس بالجامعات الدينية الأخرى ويلجأ حينئذ إلى القوة المادية إن استطاعت إليها سبيلا وإلا فإلى العراقل والدسائس والاستنصار بخصوم الأمة وغير ذلك من أسباب الدمار»

وفى الوقت الذى كان فيه الإجماع شبه منعقد بين أكثر الكتاب والصحفيين المصريين على نفى أى علاقة بين الدين والقومية.. نجد أن مصطفى كامل كان على العكس منهم جميعا يصير على الربط بين الاثنين ربطا عضويا لا يكون فيه وجود لإحدهما دون وجود الأخرى فهو يكتب



فى صحيفه اللواء أن: «لكل أمة حية واجبان عظيمان: واجب نحو دينها وعقيدها وواجب نحو وطنها وأرض آبائها.. وكلما ارتفعت فى مدار العرفان والكمال وتقدمت فى سبيل العمران - اشتد اجلالها لدينها ووطنها وعظم تعلقها بعقيدها وبلادها.. وبالعكس كلما نزلت الأمة من عالى مجدها إلى حضيض مقامها وانحطت عن غيرها قل اجلالها للوطن والوطنية وضعف تمسكها بالعقيدة والدين»<sup>(١)</sup>

وأضاف: «وإذا كان الغربيون وهم أساتذتنا الذين تشبهنا بهم فى أمور عديدة يجلون الدين ويعتبرونه أساسا للوطنية والمدنية والعمران فلماذا لانكون مثلهم ولماذا لانتمسك بديننا فى السر والجهر وهو دين الفضائل والمكارم والهدى وإذا كان الغربيون يعتقدون أن الدين أساس السياسة.. فيكيف يكون منا مايدعى أن الدين شىء والسياسة شىء آخر.. وإذا كانت القاعدة الفلسفية التى لارب فيها هى أن التمسك بالدين والوطن سبب ارتقاء الأمم وعدم التمسك بها علة على انحطاطها فلماذا لانتمسك بهما التمسك الشديد المتين وقد ابتدأنا نعمل لارتقاء بلادنا وإعلاء شأن أمتنا ثم إن التمسك بالدين يدعو للتمسك بالوطن وحسبنا دليلا أن حب الوطن من الإيمان».

وفى اللواء أيضا كتب «عن الوطنية حيث قال إنها «الفيرية» المناقضة «للأنانية» ثم هى إذا سادت فى أمة: «رقتها وأعلت قيمتها» والوطنية تتطلب فى رأيه: "تضحية ما للنفس حبا فى ما للغير من أبناء الوطن"<sup>(٢)</sup>.. ثم هو يرى: «أن الأمة الفرد مكررا».<sup>(٣)</sup>

وفى (المقتطف) يكتب "سامى جديد بنى المحامى" عدة مقالات مسلسلة بعنوان (حقوق الأمم) بدأها بايراد تعريف للقومية يقول فيها إنها: "مجموع دائم مستقل من الناس يملكون أرضا لاحق لغيرهم بها ويكونون متحدين تحت سلطة واحدة لغرض واحد هو المحافظة على هويتهم والتمتع بحقوقهم"<sup>(٤)</sup>.

ولكنه يضع تحفظا حول قوله (تحت سلسلة واحدة) فهو يرى أنه: "قد تكون الأمة مقسومة إلى حكومات مختلفة متعددة كبولونيا مثلا فإنها أمة واحدة مقسومة بين روسيا والمانيا كما أنه قد تكون الحكومة مؤلفة من أمم مختلفة كمملكة النمسا والمجر والسلطنة العثمانية.. فلا يصح خلط الاثنين معا».

ونشرت صحيفة «الدستور» سلسلة مقالات بعنوان «حب الوطن» بحث فى مميزات الوطن.. وهى بتوقيع رمزى (المصرى الصالح)<sup>(٥)</sup> وفيها يقول الكاتب إن أبرز ما يميز به الوطن

(١) اللواء - ١٦ يناير ١٩٠٠ مقال بعنوان (رابطة الدين ورابطة الوطن)

(٢) اللواء - ٧ أغسطس ١٩٠٦ مقال بعنوان (قوة الوطنية)

(٣) العلم - ١٦ سبتمبر ١٩١٢ مقال بعنوان (حياة الأمم رجاؤها وموتها فى بأسها)

(٤) المقتطف - أول سبتمبر ١٩٠٦ مقال بعنوان (حقوق الأمم)

(٥) الدستور - ٧ أبريل ١٩٠٨ مقال بعنوان (حب الوطن) - بحث فى مميزات الوطن

هو: «الاهتمام بالشئون العامة وحب القوم .. والكرامة الذاتية أو الأنفة من الاهتزام والعدل والشجاعه والتضامن».. وفى رأيه انه لا بد ان : "تجتمع كل هذه الصفات فى الرجل لكى يصح تسميته وطنيا".

وفى صحيفة «الدستور» أيضا تصدى «محمد فريد وجدى» لتعريف الأمة حيث قال إن: "الأمة طائفة من الناس اجتمعوا فى صعيد من الأرض واتحدوا أو توحدت بينهم الحاجة للمعيشة بحالة تضامن مستمر" .. وهو يرى أن: "هذه الأمة لاتخلو من نظام حكومى.. وكل هذه الأشياء لاتوجد بالصدفة العمياء ولكن توجد الأمة فهى صاحبة السلطة المطلقة فى أحوالها شعرت بذلك أم لم تشعر (١)"

ويلاحظ أن فريد وجدى يتفق مع مصطفى كامل فى إدخال الدين كأحد العناصر الأساسية المكونة للأمة والقومية.. ولكنه يضيف إلى ذلك عنصرا جديدا وهو وجود الدولة أو مايسميه (السلطة الشرعية) و (النظام الحكومى) وهذان العنصران: الدين.. والدولة.. يستعدان بمفهوم فريد وجدى عن المفهوم العلمى الصحيح الذى يستبعد الدين والدولة من مقومات الأمة أو القومية.

ويقدم «أمين الراعى» فى صحيفة "الشعب" تعريفا رومانسيا للوطنية إذ يرى : "أن الوطنية تقوم لدى جميع الأمم على مبدأ التضحية بالنفس.. ويأبى الإقدام إلا أن يكون له شهداء يستعذبون كأس المنية فى سبيله (٢)".

أما أحمد لطفى السيد فإنه يقدم تعريفه الخاص للقومية من خلال مقال نشره "بالجريدة" وقد بدأ لطفى السيد مقاله بعرض للمفاهيم المتعددة للوطن والوطنية.. ومنها: "تعريف الاشتراكيين الذين يقولون بأن الأرض كلها وطن واحد لهذا النوع الواحد (٣) . ومنها تعريف علماء الأديان بأن: "الوطن كل البلاد التى يملكها ملوك دائنون بدينهم" .. ومنها تعريف الحكماء بان: "الوطن ماكان لهم فيه شوكة من البلاد" .. ثم هناك من علماء الاجتماع من يرون: "الأوطان بحسب الشعوب فيرون لكل شعب وطنا يعتبرونهن أحق به وأهله وكادت السياسة تخضع لهذا الاصطلاح".

أما لطفى السيد نفسه.. فهو يعرف الوطن بأنه: "مركز المصلحة العامة لجماعة متضامنين يشعرون بحاجاتهم إلى التعاون فى دفع الضار وجلب النافع وربما صح أن نقول بدل قولنا "مركز المصلحة" أنه "آلة المصلحة" ومتى تعطلت الوظيفة فى هذا المذكور أو هذه الآلة فقد ها الاسم وبطل التشبب بذكراه" .. ولعلنا لانبالغ إذا قلنا إن لطفى السيد بهذا التعريف يقترب كثيرا من نظرية لينين وستالين فى القومية.. فهو يركز على وحدة المصالح الاقتصادية.. كما لو كانت هى

(١) الدستور- ١٩٠٨ مايو ١٩٠٨ مقال بعنوان (سلطة الامة فى يدها)

(٢) الشعب- أول مارس ١٩١٤ - مقال بعنوان (ضحايا الوطنية والاقدام.. سلام على تلك النفوس الكبيرة)

(٣) الجريدة- ١٠ مارس ١٩٠٧ مقال بعنوان (الوطنية فى مصر)

العامل الرئيسى فى وجود الوطنية فلفطى السيد ىرى أن: "مسقط الرأس ليس لأحد بوطن إذا صار بلقعا وخوى.. أو استحوذ عليه العدو وبغى.. ولم يعد للمرء فيه أهل ولا ملك ولحق بما هو خير منه ومثال ذلك البرارى التى هاجر منها أسلاف آل عثمان فإنها لم تعد لهم وطنا بعد أن ظهر فيها العدو ولحقوا بغيرها.. فكذلك الأرض كلها ليست لأحد بوطن إذا اعتدى فيها على الحدود وجنى جناية عظيمة لم يعد له معها من ولى ولا نصير يأخذ بيده من يد الشرائع فقد لا يبقى له من الأرض كلها إلا خشبة لا يلبث عليها دقيقة أو ثانية حتى يقضى عليه بخروج الروح أو يبقى له ذراع فى ذراع فى حجرة من حجرات السجن يقضى فيها بقية أيامه".

ويستبعد لطفى السيد الدين من مقومات الوطنية فيقول: "وكذلك دار الإسلام ليست لمسلم بوطن.. فوحدة الاعتقاد الدينى ليست كافية لإقامة وحدة التضامن الوطنى وخاصة إذا أضيعت فيها الحقوق وعطلت الحدود وأميئت المعرفات وأحييت المنكرات".

ثم ينتهى لطفى السيد إلى أن: "الوطن فيه معنى زائد على عين التراب المعتل والجو المظل وهو كما عرفنا مركز المصلحة العامة أو آلة من آلات المصلحة العامة للمتضامنين المتعاونين فى دفع الضرر وجلب النافع على حسب مايدو لهم"

والآلة لابد لها من مدير وتختلف النتائج باختلاف من يدير هذه الآلة فمن أصلحوا كان لهم وطن ونالوا من السعادة لذه المجد والعزة والاتصال ومن أفسدوا لم يكن لهم وطن ونالوا من الشقاء ألم الخسة والهوان والانفصال.. والأرض لله يورثها من يشاء من عباده الصالحين"

ويفرق لطفى السيد بين (الوطنية) وبين (الوطنى).. فهو يرى أن: "الوطن فى عرف كل أمة هو التابع لحكومتها الداخلى فى جنسيتها القانونية.. ويقابله الأجنبى" ثم هو يضيف إلى ذلك قوله أنه: "قد يطلق لفظ الوطنى على القائم بالأعمال التى تنفع الوطن وترفع من شأنه..".

ويؤكد "محمد بك وحيد" فى صحيفة "الأحرار" على ضرورة التفرقة بين الرابطة الوطنية والرابطة الدينية.. اذ يرى: "أن الدين شىء والوطن شىء آخر وأن الوطن الواحد يجمع أبناء مختلفى العقائد الدينية" وهو يعتقد أن: "دين الفرد عقيدة شخصية ودين الأمة الوطنية(٢)".

ويقدم لنا "نيفولا حداد" تعريفا للقومية والأمة أورده خلال عدد من المقالات التى نشرها بالهلال تحت عنوان (تطور الأمم) ويلاحظ على هذا التعريف أنه يتطابق تماما مع تعريف لينين وستالين للقومية والأمة وهو الذى يجعل من وحدة المصالح الاقتصادية العامل الرئيسى فى تكوين الأمم والقوميات فهو يقول: "وإذا بحثنا عن سر تجمع الناس فى أمة وتربطهم فى جامعة وجدت جاذبا واحدا يجذبهم بعضهم إلى بعض وقد أجمع معظم الباحثين الاجتماعيين على تسمية هذا

(١) الجريدة- ١١ مارس ١٩٠٧ مقال بعنوان (ماهو الوطن؟).

(٢) الأحرار- ٩ أغسطس ١٩٠٨ مقال بعنوان (دين الفرد.. ودين الأمة)

(٣) الهلال- أول نوفمبر ١٩١٤ مقال بعنوان (تطور الأمم)

الجانب بالمصلحة المشتركة.. ومعنى المصلحة المشتركة يشمل كل ما اعتقد أفراد الجماعة أنه نافع لها من أحد الوجوه فتدخل في ذلك مبنغيات الإنسان الاقتصادية والسياسية(٣).

وينفرد الدكتور طه حسين عن غيره من الكتاب برفضه اعتبار اللغة بالإضافة إلى الدين من مقومات القومية.. فهو يكتب في صحيفة السياسة قائلا: "ومن المحقق أن تطور الحياة الإنسانية قد قضى منذ عهد بعيد بأن وحدة الدين ووحدة اللغة لاتصلحان للوحدة السياسية ولاقوما لتكوين الدولة(٤). وهو يرى أن القومية تقوم: "على المنافع الاقتصادية والوحدات الجغرافية .. وعلى ألوان أخرى من المنافع تختلف قوة وضعفا باختلاف الأقاليم والشعوب وحظ هذه الأقاليم والشعوب من قوة الشخصية والقدرة على الثبات والمقاومة".

ويلاحظ أن طه حسين يتفق في جانب من هذا التعريف مع أستاذه أحمد لطفي السيد وخاصة في تأكيده على دور المنافع والمصالح الاقتصادية في تكوين الأمم والقوميات... وإن كان يختلف معه في النظر إلى قيمة عامل الوحدة الجغرافية أو ما يطلق عليه بالأرض المشتركة فعلى حين يرى طه حسين أن القومية تقوم على المنافع الاقتصادية والوحدات الجغرافية) نرى لطفي السيد يقول بأن "الأرض ليست لأحد بوطن".

ويكتب أمير الشعراء (أحمد شوقي) مقالا افتتاحيا لصحيفة الأخبار يقول فيه: "إن الوطن هو موضع الميلاد ومجمع أوتار الفؤاد ومضجع الآباء والأجداد".. وفي رأيه أن الوطن لا يكتمل وجوده إلا حين: "يبنى العلم فيه سد العماراة ويجمع له بين دولاب الصناعة وسوق التجارة"(٣) ومن الاستعراض السابق يمكن أن نخرج بمجموعة من الحقائق حول مفهوم القومية والوطنية في الصحافة المصرية في فترة البحث يمكن تلخيصها في الحقائق الخمس التالية:

أولاً: إنه نادرا ما كانت تستخدم كلمة "قومية" ذلك أن الكلمة التي كانت سائده هي "وطنية" ولكنها غالبا ما كانت تعطى نفس معنى "القومية".

ثانياً: وعى غالبية كتاب هذه الفترة- باستثناء عدد من كتاب الحزب الوطنى وخاصة مصطفى كامل ومحمد فريد وجدى- بضرورة استبعاد الدين من مقومات تكوين الأمم والقوميات وكان الدافع الى ذلك محاولة نفي تهمة التعصب الدينى عن المصريين.. وهى التهمة التى حاول عدد من كتاب وسياسى أوربا إلصاقها بالمصريين منذ أحداث الثورة العربية وطوال فترة البحث.. وكذلك لتجنب استغلال سلطات الاحتلال البريطانية لبعض الحساسيات التى حكمت العلاقات بين المسلمين والأقباط فى بعض فترات البحث.. وتحويلها إلى صراع طائفى يهدد وحدة الوطنية المصرية.. كما حدث عقب مقتل بطرس باشا غالى وما تلاه من عقد مؤتمر قبطى فى أسبوط والرد عليه بمؤتمر مصرى «إسلامى» فى مصر الجديدة.

(١) السياسة- ٣١ ديسمبر ١٩٢٣ مقال بعنوان (رأى فى مسألة القوميات)

(٢) الجريدة- ١١ مارس ١٩٠٧ مقال بعنوان (ماهو الوطن؟)

(٢) الأخبار- ٣ يناير ١٩٢٤ مقال بعنوان (الوطن)

ثالثاً: وجود آثار من مفاهيم العصور الوسطى للقومية فى كتابات كثير من المفكرين والكتاب والصحفيين.. وبالذات فى خلطهم بين مفهوم الأمة.. والدولة ويظهر ذلك فى إصرار بعض الكتاب على اعتبار الدولة أو الحكومة عنصراً أساسياً من عناصر ومكونات الوجود القومى.

رابعاً: وجود بعض تأثيرات للمفهوم الماركسى للقومية.. على بعض الكتاب... وإن كانوا قلة ضئيلة- ويكشف عن ذلك اهتمام البعض بعامل المصالح الاقتصادية المشتركة والنظر إليه باعتباره العامل الرئيسى فى تكوين القومية.

خامساً: ولم يخل الأمر من وجود عدد من المفاهيم الرومانسية للقومية ونجدها بالذات عند بعض كتاب الحزب الوطنى كأمين الرافعى وأحمد حلمى وفى الكتابات الأدبية لعدد من الشعراء والأدباء مثل أمير الشعراء أحمد شوقى.. وهى غالباً ما تنحصر فى الدعوة لبذل كل جهد والتضحية بالنفس والمال من أجل ترقية الوطن وتقدمه.

\* \* \*



## الفصل الثالث عشر

**الوطنية المصرية ..  
في الصحافة المصرية**





إذا بحثنا أصول الوطنية المصرية بالمعنى المصطلح عليه حالياً وجدناها شيئاً جديداً لم تعرفه مصر إلا في العصر الحديث وبالذات بعد مجيء الحملة الفرنسية واستقلال محمد على وأسرته بالحكم<sup>(١)</sup>.. حيث وجدت في مصر لأول مرة حياة وطنية بعد أن مضت عليها قرون طويلة في ضعف وانحطاط<sup>(٢)</sup>.

ورغم ذلك فإن مقومات الوطنية من لغة وتاريخ مشترك وغير ذلك.. كانت قائمة في مصر منذ زمن طويل.. لعله منذ توحيد الوجهين القبلى والبحرى على يد الفرعون مينا<sup>(٣)</sup>.

فمصر لم تفقد مقومات الوطنية يوماً ما وقد ظلت هذه المقومات قائمة في ظل غزو الفرس وتحت حكم الرومان والعرب والأتراك والمماليك<sup>(٤)</sup>.. ومصر لم تفن في غزاتها بل إن غزاتها هم الذين يفنون في مصر.. فهم يذوبون في بوتقة الوطنية المصرية<sup>(٥)</sup>.. والعناصر الأجنبية التي تواردت على مصر لم تترك أثراً محسوساً في مجموعة السكان.. فقد اندمج في الشعب المصرى: الاغريق والرومان والعرب وغيرهم ممن أتوا بعدهم وتلاشت أوصافهم فيها<sup>(٦)</sup> وأصبحوا من أبنائها واتخذوا تقاليدها وسننها لهم تقاليد وسننا<sup>(٧)</sup>.

فمصر إذن هي موطن أقدم وطنية في التاريخ في العادات والتقاليد والعقائد والأزياء ولون الطعام وأسلوب الحياة.. وقد بقي حالهم هكذا في كل عصر وفي ظل كل دين وكل نظام حكم.. يتغير الحاكم ويتغير الزمن ويتغير الفكر وتبقى مصر ويبقى المصريون<sup>(٨)</sup>. فمظاهر الحياة في مصر تدل على وحدة تاريخية وتواصل في الحياة الوطنية ففي المصريين ميل إلى المحافظة على التراث تقترب كثيراً من الصورة القديمة ولم تتغير طرق المعيشة لدى الشعب في البقايا اللغوية وفي الاحتفاظ بكثير من العادات العائلية والاجتماعية خصوصاً في القرى وبعض الأوصاف الخلقية كتدين المصريين العميق وعنادهم وتصلبهم وهي أوصاف ذكرها المؤرخون والرحالة منذ زمن بعيد ولا تزال سائدة في مصر بعد ستة آلاف سنة<sup>(٩)</sup>.

(١) د. عبد اللطيف حمزه - الحركة الفكرية في مصر في العهدين الأيوبي والمملوكي الأول - الطبعة الأولى - دار الفكر العربى - القاهرة - ص ٣

(٢) مريت بطرس غالى - سياسة الغد - مطبعة الرسالة - القاهرة - ١٩٣٨ - ص ١٤٢.

(٣) فتحي رضوان - أخى المواطن - دار المعارف - القاهرة - ١٩٥٥ - ص ٧

(٤) محمد زكى عبد القادر - محنة الدستور - الجزء الأول - كتاب روز اليوسف - القاهرة - ١٩٥٥ - ص ٧

(٥) د. حسين فوزى - سنباد مصرى (جولات في رحاب التاريخ) - دار المعارف - القاهرة - ١٩٦١ - ص ١٤٥.

(٦) مريت بطرس غالى - سياسة الغد ص ١٥٠ - ١٥١.

(٧) د. طه حسين - مستقبل الثقافة في مصر - مطبعة المعارف - القاهرة ١٩٣٨ - ص ١٦ - ١٧.

(٨) فتحي رضوان - أخى المواطن - ص ١٠

(٩) مريت بطرس غالى - سياسة الغد - ص ١٥٠ - ١٥١.

وليس أدل على ذلك من أن الفلاح المصرى هو نفسه فلاح الألاب النسين وهو بذلك يعطى نموذجاً لوحدة المصرى عبر تاريخه ووحدة الحياة على ضفاف النيل<sup>(١)</sup>

ومن المؤكد أنه وإن غير المصريون لغتهم مرة وعقيدتهم الدينية مرتين فلا يختلف المصرى الحالى فى شىء عن اجداده القرييين والأبعدين فى قليل أو كثير<sup>(٢)</sup> كذلك حافظت مصر على شخصيتها المتميزة بفضل قدرتها العجيبة على استيعاب الثقافات الأجنبية وتمثيلها<sup>(٣)</sup>.

وهناك عنصران هاما تعاونوا على توفير هذه الميزات لمصر وهما الصحراء والنيل.. أما الصحراء فقد قامت على حدود مصر من الشرق والغرب كالحارسين الساهرين اللذين حميا مصر من الدوبان فى غيرها فبقيت لها داخل هذين الحدين خصائصها الجنسية والقومية.

أما النيل فقد كان أساس الحضارة فى مصر وأساس الحضارة الزراعية بالذات وهى حضارة أخص خصائصها وأظهر توابعها الاستقرار والثبات والالتصاق بالأرض فضلا عن أن ارتباط كل المصريين من البحر إلى الشلالات بهذا المنبع الأصيل للحياة قد أعان على إقامة حكومة مركزية وأعان وجود الحكومة المركزية على توحيد ظروف الحياة فى مختلف أنحاء الدولة<sup>(٤)</sup>.

والمعروف أن مجتمع النهر.. أى مجتمع الزراعة يختلف عن مجتمع البداوة.. أى الرعى اختلافاً بينا.. فبينما تلزم البيئة النهرية سكانها بالتجمع والاستقرار والتعاون بما يعنيه ذلك من ادراك لمعنى الوطن والأمة والدولة.. تدفع بيئة البداوة الراعى للانتقال من مكان إلى آخر سعياً وراء الكلاً بما يعنيه ذلك من التفرق والتشتت وانصراف ولاء الفرد للقبيلة أو الأسرة وحدها.. أى ينتفى معنى الوطن والأمة والدولة عن عقلية البدو<sup>(٥)</sup>.

ولابد أن نفرق فى التاريخ المصرى بين مرحلتين إحداهما السابقة على دخول الإسلام والأخرى اللاحقة لدخوله فى المرحلة الأولى كانت الوطنية المصرية ظاهرة بوضوح أما فى المرحلة الثانية فقد انطوت هذه الوطنية فى الدين الجديد وفى مثله وأفكاره والإسلام يجعل دار الإسلام واحدة مهما تباعدت بين أطرافها المسافات وتختلف التقاليد والعادات وأصبحت مصر ترى أن خضوعها لحاكم من المسلمين شىء طبيعى بغض النظر عما إذا كان هذا الحاكم من أهل البلاد أو أجنبياً عنها وإن الاشتراك فى الدين كاف بذاته لكى يغض عن كل نزعة أخرى ويجعل انضمام بلد مسلم إلى مجموعة البلاد الإسلامية شيئاً يقضى به الدين ويتفق مع أحكام الشريعة<sup>(٦)</sup> لذلك عندما دخلت مصر فى حكم الدولة العثمانية شعر المصريون بولاء عميق للخليفة العثمانى ومع

(١) د. حسين فوزى - سندباد مصرى - ص ١٤٠

(٢) فؤاد محمد شبل - دور مصر فى تكوين الحضارة - الهيئة العامة للتأليف والطباعة والنشر - القاهرة - ١٩٧١ - ص ٣٢/٣١.

(٣) المصدر السابق - ص ٦.

(٤) فتحي رضوان - أخى المواطن - ص ١٠-١١

(٥) فؤاد محمد شبل - دور مصر فى تكوين الحضارة - ص ١٠٧

(٦) محمد زكى عبد القادر - محنة الدستور - ص ٧-٩

ذلك فقد ظلت مصر محتفظة بوحدتها الجنسية واللغوية مطلقة. فأقليتها الدينية تعد محدودة وكل من الأغلبية والأقلية على حدة لاتعرف التشعب أو التشرذم الطائفي .. والكل يؤلف وحدة وطنية على درجة نادرة من التماسك ولذلك فإن الاستقرار السياسى فى مصر حتى فى ظل الإقطاع سمة واضحة (١). ولقد ظلت مقومات الوطنية قائمة فى المجتمع المصرى إلا أن الإقطاع كان يحول دون نمو هذه المقومات وانصهارها وبلورتها (٢).

فمقومات الوطنية ظلت قائمة فى مصر إلا أن الوعى بها هو الذى لم يكن موجودا ولقد أتاح انهيار النظام الإقطاعى الفرصة لهذه المقومات لكى تنصهر وتعمل على إبراز الوطنية خصوصا أن انهيار الإقطاع يرتبط عادة بإنهاء الانقسام السياسى وإقامة سوق وطنية موحدة.. وتتقدم وسائل المواصلات.

ونحن نرى أن مصر كانت تشكل حتى الفتح العربى.. "قومية مستقلة" ومتميزة عن غيرها من الشعوب والقوميات بل لعلها أول قومية تكونت فى التاريخ. ولكن هذه القومية انصهرت بعد الفتح العربى فى قومية أكبر هى "القومية العربية" وصحيح أن الرابطة الإسلامية كانت تغطى على هذه الحقيقة طوال عدة قرون ماضية إلا أنه بانفصال الدين عن الدولة فى تركيا مع مطلع القرن العشرين تكشفت حقيقة الرابطة القومية التى تربط بين الشعوب العربية فلم تعد مصر تشكل قومية متميزة كما كانت قبل الفتح العربى وإنما صارت مجرد "وطنية" تنتمى إلى قومية أشمل وأعم هى القومية العربية تماما كالوطنية العراقية أو الوطنية الجزائرية أو الوطنية السورية.

(١) د. جمال حمدان- شخصية مصر= دراسة فى عبقرية المكان - كتاب الهلال- القاهرة- ١٩٦٧- ص ٢٣٧

(٢) د. محمد أنيس- محاضرات فى تاريخ الشرق الاوسط الحديث- دار العالم العربى- القاهرة- ص ١٨٣.

## الصحافة المصرية .. ومفهوم الوطنية المصرية

ويلاحظ عند البدء فى رصد البدايات الجنينية لفكرة الوطنية المصرية فى الصحافة المصرية عقب الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢.. أن الفكرة بدأت غامضة غير محددة.. ثم أخذت تتطور وتكامل حتى أخذت شكل الاتجاه أو التيار السياسى الرئيسى فى الحياة الفكرية والسياسية فى مصر.

فالشيوخ على يوسف يبدأ افتتاحية العدد الأول من صحيفة "المؤيد" معلنا أن الغرض من إصدار الصحيفة هو: "خدمة الأوطان لصالح شأن بنى الوطن"<sup>(١)</sup>

وهو يؤكد أن: "المؤيد جريدة وطنية" .. وحين يتولى عباس حلمى الثانى أريكة الخديوية المصرية يكتب مهنتا الخديو الجديد ويستخدم لأول مرة تعبير "الأمة المصرية"<sup>(٢)</sup> ورغم اعتراف الشيخ على يوسف بوجود "أمة مصرية" إلا أنه كان يرى أنه لاحق لها فى أن تكون أمة مستقلة فى حياتها السياسية عن الدولة العثمانية.. ويؤكد على تبعية مصر للباب العالى فى رأيه: "إن الأمة المصرية ليست مستقلة فى حياتها السياسية وإنما هى تابعة لكرسى الخلافة العثمانية فمن هذه الجهة يكون السير فى تدبير منافعها بما تسعه تلك الامتيازات المقررة فقط هذا فضلا عن الرابطة الدينية العظمى التى تربط مصر بالملكة العثمانية" وهو يهاجم من يفكرون فى إنهاء هذه التبعية ويرى أن تبعية مصر خير لها من الاستقلال: "ومن الغريب أن أغلب الأمم تحسب الاطلاق فى حياتها السياسية أشرف من التبعية مهما كان نوعها ولكن الأمة المصرية صارت فى ظروف تجعلها تعتبر أعظم فخر لها المحافظة على تلك الرابطة السياسية اذ بهذه الرابطة تستعين على بقاء المميزات الممنوحة وحسن التصرف بهذه التبعية يستوجب أيضا حسن الثقة بالتنوع".

وفى نفس المقال يكشف الكاتب عن الهدف من دعوته لتمسك مصر بالتبعية لتركيا وهو إخراج الانجليز وإخراجهم من مصر: "لقد كان من حوادث الثورة العربية ما أوجب تداخل.. الانجليز واحتلالهم البلاد بحجة تأييد سمو الخديو السابق فى إمارته ويقتضى فى شرع العدالة أن انتقل الأمر لسمو الخديو الحالى تنفيذا للفرمانات الشاهانية بمحض إرادة الخليفة الأعظم يكون آخر زمن تؤدى مصر فيه تلك الإفادة على ذلك المعروف الذى انقضى نحيبه".

وكان غالبية الصحف المصرية فى السنوات الأولى للاحتلال منقسمة إلى معسكرين: معسكر يدعو لاحتلالها ويطالب باستمرار احتلالها لمصر وكان على رأس هذا المعسكر صحيفة "المقطم" ..

(١) المؤيد- أول ديسمبر سنة ١٨٨٩

(٢) المؤيد- أول فبراير سنة ١٨٩٢ مقال بعنوان (مصر بين يدي أميرها الجديد).

ومعسكر ثان يدعو لفرنسا وبطالبا بإخراج الانجليز من البلاد.. ومالبث أن ظهر اتجاه جديد يدعو لمصر وحدها.. لا لانجلترا ولا لفرنسا فحين كتب (سليم تقلا) فى الأهرام يقول: "أما فرنسا التى نهضت نهضة الأسد من عربنه فهيات بمساعى رجالها فكانت الأمة بأسرها جيشا وطنيا جارا قامت تطالب بحقوق الضعيف المصرى وتسأل احترام مصلحة الدولة العلية وتذكر انجلترا بمجد أبناء فرنسا وتأييدها على شاطئ النيل المبارك" (١)

حين كتب سليم تقلا ما تقدم رد عليه "ميخائيل عبد السيد" فى الوطن وهاجم انحياز الكتاب إلى وطن غير مصر فقال: "لا بد أن لا يكون الكتاب متكلزين ولا متفرنسين بل الواجب عليهم أن يكونوا مصريين حقيقيين لا يخونوا وطنهم ولا بلادهم ولا ملكهم" (٢).

وفى افتتاحية العدد الأول من صحيفة "مصر" يعلن "تادرس المنقبادى" إن هدف الجريدة: "خدمة الأمة المصرية وتقوية رباط الجامعة الوطنية" (٣) ووعد الكاتب قراءه بأن الصحيفة لن تهتم: "بشؤون غيرنا قبل الاهتمام بشئون أمتنا وأن لاتتدخل فى الكلام على أحوال سوانا قبل استيفاء الكلام على ما يتعلق بإصلاح داخلينا وحفظ مصلحتنا".. وقال إن الجريدة: "هى الأولى التى يجب أن تظهر بمبدأ مصرى جديد" (٤) ثم شرح هذا المبدأ فقال عنه: "إذا كنا ضعفاء فمن العار والجهل أن نقدم من قوتنا الضعيفة شيئا لتقوية القوى الذى هو فى غنى تام عن ضعفنا اللهم إلا إذا كانت نواياه استنصاب بقية ما بقى فينا من الامتيازات فنصبح صفر الألف كما تصبح بلادنا بمثابة مستعمرة أورباوية جديدة يتهاوت عليها كل غريب ويقصدها كل أجنبى".

وفى صحيفة مصر أيضا يتساءل توفيق عزوز: هل فى مصر وطنية؟

وأجاب: «هناك بعض المؤلفين والكتاب الأوربيين يزعمون أن ليس فى هذه البلاد عنصر وطنى محض وإن كل العناصر التى يتألف منها جسم الأمة المصرية إن هى إلا عناصر أجنبية دخلت إلى هذه البلاد من عهد ليس ببعيد فانتحلت لنفسها هذا اللقب وسميت بهذا الاسم زورا وبهتانا» (٥).

ثم تصدى لنقد هذه الفكرة: «ألا يعلمون أن من بين ظهرانينا مليوناً من البشر هم سلالة أولئك المصريين الأقدمين الذين سادوا وشادوا ووصلوا إلى ما وصلوا وتحصلوا على ما تحصلوا

(١) الأهرام - ١٤ مارس سنة ١٨٩٢ مقال بعنوان (أهمية مصر)

(٢) الوطن - ١٧ مارس سنة ١٨٩٢.

(٣) مصر - ٢٢ نوفمبر سنة ١٨٩٥ - مقال بعنوان (فاتحة الجريدة).

(٤) مصر - ٢٢ نوفمبر سنة ١٨٩٥ - مقال بعنوان (سياسة جريدتنا).

(٥) مصر - ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٩٥ - مقال بعنوان (بماذا تقوم الوطنية).

فكيف يتغافلون عن هذه الأمة بأسرها وينكرون وجودها وهى حية ترزق لم تمسها يد الانقراض ولم تعبت بها عوامل الهدم».

ثم يتعرض الكاتب لأوضاع ما يسميه "بالأمة الإسلامية" فى مصر فيقول: «ويحتمل أنهم يقصدون تلك الأمة الإسلامية التى دخلت هذه الديار فى عهد عمرو بن العاص فاستوطنتها وامتزجت بأبنائها الأصليين امتزاج الماء بالروح أو الأجساد بالأرواح" وهو يتصدى لنقد هذه الفكرة أيضا: «فإن كان هذا فكرهم فليكشفوا أنفسهم مثونة التعب والنصب وليعلموا أن هذا الشعب قد اكتسب حق الوطنية ببقائه فى هذه البلاد المصرية تلك المدة المديدة واختلاطه بالمصريين فى التعامل والنسب وهذا ولاشك كاف لتحويله حق الوطنية إن لم نقل حق المصرية أيضا».

وقد لعبت كتابات مصطفى كامل فى «اللواء» دورا كبيرا فى بناء فكرة الوطنية المصرية.. وهو عكس ما يشاع فى بعض الكتابات التاريخية التى تحاول أن تصور مصطفى كامل كمجرد داعية إلى الجامعة العثمانية والراغب فى إحلال الاحتلال التركى محل الاحتلال الإنجليزي (١).

والواقع أن موقف مصطفى كامل.. كان موقفا معقدا أو على الأصح مركبا مما أتاح إمكانية ظهور مثل هذه التأويلات والتخريجات بالإضافة إلى أن الخلافات الحزبية لعبت دورا هاما فى شيوع مثل هذه الادعاءات.

ولقد تولى مصطفى كامل بنفسه الرد على هذه الادعاءات فى العدد السابع من اللواء نراه ينشر رسالة بعث بها إليه «أحد فضلاء الناشئة القبطية» يقول له فيها: «يدهشنى أن أراك وأنت أشد أبناء مصر حبا لمصر مناديا بالجامعة الإسلامية معرضا المسلمين على الاتحاد والاتفاق وغير مهتم أبدا بإخوانك الأقباط الذين هم إخوانك فى الوطنية وأقرب إليك من مسلمى جواى وبخارى والهند.. فإذا كنت أنت الذى طفت أوروبا وعرفت معنى الحياة والوطنية ونلت من مزايا الوجود ما نلت تجحف بالجامعة الجنسية ولا تملأ جريدتك الغراء وخطبك الرائقة إلا بالإسلام والمسلمين فماذا يا ترى تكون إحساسات عامة المسلمين نحننا؟ إننى استلفت نظرك الصائب إلى هذا الأمر الجدير بالالتفات وأترك لك الرأى والسلام» (٢).

وقد رد مصطفى كامل على الرسالة شارحا رأيه فى الربط بين الوطنية المصرية والجامعة الإسلامية مؤكدا أنه لا يوجد تناقض بين الدعوتين وقال: «إننا لا نبخس الجامعة الجنسية حقها ولا نأبى الاتحاد الأكيد مع إخواننا الأقباط فإننا نادينا بأعلى صوت أن المسلمين والأقباط فى مصر

(١) محمد زكى عبدالقادر = محنة الدستور - ص ٢٠ - ٢٢، ود. عبد العظيم رمضان - تطور الحركة الوطنية فى مصر - ص ٣٤ - ٣٥، وتوفيق الحكيم - مجلة الطليعة - أول إبريل سنة ١٩٧٥ مقال بعنوان (حوار بين اليسار المصرى وتوفيق الحكيم).

(٢) اللواء - ٩ يناير سنة ١٩٠٠ مقال بعنوان (المنبر العام).

أمة واحدة بل عائلة واحدة وقلنا إن الدم الذى يجرى فى عروق أغلب مسلمى مصر هو بنفسه الدم الذى يجرى فى عروق الأقباط وأن أول واجب نحو الوطن هو الاتحاد التام ببد أنائه».

ثم فسر مصطفى كامل سر اهتمامه بشئون الإسلام فقال: «أما اهتمامنا بشئون الإسلام والمسلمين فإننا بصفتنا مسلمين أصحاب عقيدة قوية يجب علينا وجوبا لازما أن نهتم بأمور ديننا اهتماما فائقا وأن نجتهد فى إصلاح شئوننا وتقويم المعنى من أحوالنا فضلا عن أننا نجد تعصب أوروبا ضد الإسلام والمسلمين قويا ونرى بالعيان البراهين الجمة على أننا وسائر بلاد المسلمين سواء فى الاضطهاد وأن جريمتنا الكبرى عند أوروبا كوننا مسلمين».

ثم شرح خطته السياسية موضحا مذهبه فى الجمع بين الدعوتين الوطنية والإسلامية: «فخطتنا الثابتة التى لم تتغير ولن تتغير هى المناداة بالاتحاد بين كافة المصريين بالاتفاق مع النزلاء على ما فيه خير الوطن العزيز والعمل على اتباع ديننا الكريم وإصلاح شئون المسلمين».

ثم عاود مصطفى كامل شرح موقفه فى مقال بعنوان (رابطة الدين ورابطة الوطن) حيث قال: «إننا فى مصر أمة مشتركة جزء منا هو الأقباط وجزء عظيم هو المسلمين وعلينا واجبان عظيمان: واجب دينى وواجب وطنى فالواجب الدينى يحتم على الأقباط أن يحافظوا على عقيدتهم أشد المحافظة ويدافعوا عنها أقوى دفاع ولا ملامة عليهم إذا انعطفوا نحو إخوانهم فى الدين والعقيدة.. والواجب الدينى يحتم على المسلمين أن يرجعوا إلى مبادئ الإسلام الصحيحة ويعملوا بأوامر الدين الحنيف الكريم ويجتنبوا نواهيه ويتحدوا فيما بينهم اتحادا متينا أكيدا حتى يرتفع شأنهم وتسمو بين الأمم مكانتهم ولا ملامة عليهم إذا انعطفوا بكل جوارحهم نحو إخوانهم المسلمين فى سائر أقطار المعمورة لأن الإسلام جعل المسلمين إخوة بالرغم عن اختلاف النحل والبلاد.. وإذا أضفنا إلى الرابطة الدينية اتحاد المصالح السياسية واضطهاد أوروبا لنا بصفة واحدة وشكل واحد ولعلة واحدة ظهر لنا ضرورة اجتماع كلمة المسلمين وعرف الناس جميعا لماذا نادى بالاتحاد الإسلامى.. ألا ترى أن الذين يطعنون على الإسلام يتهمونه بأنه دين التأخر والانحطاط وأن جميع أنائه متأخرون منحطون؟ أليست هذه التهمة وحدها داعية لاستنهاض همم المسلمين فى كل أنحاء الأرض ودعوتهم للاتحاد والاتفاق وترقية شئونهم وإعلاء قدر الدين الكريم»<sup>(١)</sup>.

وهذا التضامن بين المسلمين من ناحية وبين الأقباط من ناحية ثانية. لا يشكل فى رأى مصطفى كامل أى تناقض مع الواجب الوطنى لكلا الاثنى: «أما واجبنا الوطنى فهو العمل بالاتحاد تام بين المسلمين والأقباط وغيرهم ممن صارت مصر وطننا لهم لخدمة هذه الديار العزيزة والسعى

(١) اللواء - ١٦ يناير سنة ١٩٠٠ مقال بعنوان (رابطة الدين ورابطة الوطن).

وراء استقلالها وحريتها» ثم يؤكد أنه: «ليس في خدمة الإسلام أو الدعوة لاتحاد المسلمين شيء من التعصب الدينى أو المخالفة للمبادئ الوطنية الحقيقية.. بل إن التمسك بالدين يدعو للتمسك بالوطن وحسبنا دليلاً أن «حب الوطن من الإيمان».

ثم يزداد موقف مصطفى كامل من قضية الوطنية المصرية وضوحاً بمقالته التى نشرها فى صحيفة (الطان) الباريسية الصادرة فى يوم ٨ ديسمبر ١٩٠٦ والتى أعادت صحيفة اللواء نشرها كاملة بعد ترجمتها إلى العربية وفيها يكشف مصطفى كامل عن حقيقة موقفه المتعاطف مع تركيا وعلاقة هذا الموقف بالوطنية المصرية فيقول: «إن انعطافنا نحو تركيا وميلنا ورغبتنا الشديدة فى أن نراها متقدمة قوية آمنة على مستقبلها لا تنفد أبداً أننا نسينا وطننا بل إن محبتنا لمصر تتقدم على كل شيء.. إن اهتمامك بمصالح أخيك أو قريبك لا يدل أبداً على أنك حجت مصالحك.. إننا نريد أن تكون مصر للمصريين وقد أعلنت ذلك بصوت عال منذ اثني عشر عاماً وأقول يستحيل على أى إنسان أن يثبت عكس ذلك بسطر واحد أو جملة واحدة أو كلمة واحدة»<sup>(١)</sup>.

وهكذا يتأكد لنا أن النزعة العثمانية الإسلامية عند مصطفى كامل كانت تسيير جنباً إلى جنب فى كل خطة من خطته مع النزعة المصرية.. بل أقرب إلى الحق أن يقال إن مصطفى كامل كان يقدم النزعة الوطنية المصرية على النزعة العثمانية الإسلامية أو بعبارة أخرى كانت سبباً من أسباب قوة الأولى<sup>(٢)</sup>.

لذلك لم يكن غريباً أن يكون من بين الأسلحة التى حارب بها الاحتلال البريطانى مصطفى كامل ودعوته الغربية التى رسخت فى أذهان البعض وهى أن مصطفى كامل لم يكن يريد الاستقلال لذاته وإنما كان يريد لها الاستقلال فقط عن المجترة لا لتتحرر وتنطلق إرادتها وتتساوى بغيرها من الأمم والدول التى استقلت بل لتكون تابعة لتركيا فتنبسط عليها حماية الخليفة التركى وتصبح أبالاة من أبالايتة<sup>(٣)</sup>. ولكن الولاء لتركيا من وجهة نظر مصطفى كامل - كما يظهر فى مقالاته - لم يكن إقراراً بتبعية مصر لتركيا ولا نزولاً عن استقلالها لسلطان بنى عثمان ولا تفريطاً فى حق من حقوق مصر بل كان مسaire للظروف الدولية التى تحيط بمركز مصر الدولى ومركز الاحتلال البريطانى فى مصر<sup>(٤)</sup>. فقد كان مركز المجترة فى مصر غاية فى الضعف والوهن لأن مصر كانت من الناحية الشرعية واقعة تحت السيادة العثمانية<sup>(٥)</sup>. وقد علمت المجترة

(١) اللواء - ١٣ سبتمبر ١٩٠٦ مقال بعنوان (وطنية وجامعة إسلامية ومصر للمصريين).

(٢) د. عبد اللطيف حمزة = أدب المقالة الصحفية فى مصر - (لطفى السيد) ص ١٣.

(٣) فتحى رضوان - أخى المواطن = ص ١١٢.

(٤) فتحى رضوان - مصطفى كامل - دار المعارف - القاهرة ١٩٧٥ - ص ٢٣٨.

(٥) د. عبد العظيم رمضان - تطور الحركة الوطنية فى مصر - ص ٥٥.



أن احتلالها لمصر كان سبباً للعداوة بينها وبين الدولة العلية وأن المملكة العثمانية لا تقبل مطلقاً السماح لـ إنجلترا على بقائها في مصر<sup>(١)</sup>.. وكان مصطفى كامل يتخذ هذه السيادة الاسمية التركية على مصر.. أداة للضغط على إنجلترا ومطالبتها بالجلء عن البلاد..

وكان حرصه على حسن العلاقة مع تركيا مظاهرة ضد الاحتلال البريطاني تعلن لبريطانيا ولدول العالم الخارجية وبالذات في أوروبا أن مصر ترفض اعتبار هذا الاحتلال إجراء نهائياً ثم إن ولاء مصطفى كامل لتركيا في جانب منه يكشف عن شعور بالامتنان من جانبها لأن تركيا لم تسلم مصر لبريطانيا ولم تتنازل عن حقوقها في مصر مما أخر طويلاً في إلحاق مصر بالإمبراطورية البريطانية<sup>(٢)</sup>. ومما يؤكد وجهة نظر مصطفى كامل هو أن مصر لم تضم إلى الأملاك البريطانية إلا بعد قيام الحرب العالمية الأولى وانضمام تركيا إلى جانب ألمانيا ضد إنجلترا فأعلنت الأخيرة الحماية على مصر في ١٨ ديسمبر عام ١٩١٤<sup>(٣)</sup>. وتحولت مصر رسمياً إلى مستعمرة إنجليزية.

وفي صحيفة «الجريدة» يقدم لطفى السيد نظرية متكاملة في الوطنية المصرية.. ولكن هذه النظرية لم تتكامل عند لطفى السيد مرة واحدة.. وإنما أخذت تتشكل يوماً بعد يوم حتى صار له شكل المذهب المتناسق.. وترجع جذور هذه النظرية عند لطفى السيد إلى ما قبل إصدار الجريدة وبالتحديد منذ وجدت مسألة العقبة وما جرى في حادثة طابا بين مصر وتركيا.. وكان الأتراك يدعون أنها لهم والإنجليز يقولون إنها ملك لمصر.. وكانت الجرائد الوطنية تنتصر للأتراك في هذه المسألة كما كان شأنها في مسألة فاشودة فإن المصريين كان ضلعهم مع الفرنسيين ضد الإنجليز الذين كانوا يطالبون بفاشودة باسم مصر.. وكان رأي لطفى السيد أن مثل هذا الموقف لا يمكن تفسيره إلا بأن البلاد ثقل عليها الاحتلال فأصبحت تبغضه وتبغض معه كل ما يأتي به ولو كان خيراً لمصر<sup>(٤)</sup>. وكان من رأيه أيضاً أن موقف الصحف الوطنية وبالذات اللواء والمؤيد اللتين وقفتا مع تركيا.. عمل لا يتفق والمنطق واستنكر كيف يتحمسا لما يراى به اقتطاع جزء من أرض الوطن وأن يتنكرا لما يراى به المحافظة على أقاليمها<sup>(٥)</sup>. وكان ذلك أحد الدوافع التي جعلت لطفى السيد وجماعة «الجريدة» تنزل إلى ميدان الصحافة<sup>(٦)</sup>.

(١) مصطفى كامل - المسألة الشرقية - الجزء الأول - مطبعة اللواء - القاهرة - الطبعة الثانية - ١٩٠٩ - ص ٢٥ - ٢٨.

(٢) فتحى رضوان - مصطفى كامل - ص ٢٤٥ - ٢٤٦.

(٣) د. عبد العظيم رمضان - تطور الحركة الوطنية في مصر - ص ٥٦.

(٤) أحمد لطفى السيد - حياتى - كتاب الهلال - القاهرة - ص ٤٣ - ٤٤.

(٥) د. محمد حسين هيكل - مذكرات في السياسة المصرية - الجزء الأول - مطبعة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٥١ ص ٢٦.

(٦) د. حسين فوزى النجاشي - الجريدة تاريخ وفن - رسالة دكتوراه - غير منشورة - ص ١٤/٧.

وأول ما نلاحظه على كتابات لطفي السيد حول الوطنية المصرية.. أنه كان ينظر إلى مصر باعتبارها أمة متميزة لها قوميتها المستقلة مثل غيرها من الأمم.. فعندما تتساءل (المقطم) في معرض نقدها لخطة «الجريدة» عن معنى كلمة الأمة المصرية التي تشدد بها الجريدة؟<sup>(١)</sup> يرد عليها لطفي السيد قائلا: «قرأنا في عدد الأمس من المقطم سؤالا (للجريدة) عن مدلول لفظ الأمة في عرفنا فتجيب بأن مدلول هذا اللفظ في عرفنا هو مجموع الشعب المصري»<sup>(٢)</sup>.

أما الشعب المصري فهو يتكون في نظر لطفي السيد من: «مجموع الأفراد القاطنين في مصر متى كانوا خاضعين لقوانينها الأهلية كاسبين جنسيتها بصرف النظر عن الفروق التي توجد عادة بين أفراد الأمة الواحدة كالاختلاف في الدين أو في أصل الوطن أو الجنسية» ويحاول لطفي السيد أن يقدم تعريفا لمفهوم القومية المصرية فقال: «إن أول معنى للقومية المصرية هو تحديد الوطنية المصرية والاحتفاظ بها والغيرة عليها غير التركية على وطنه والانجليزى على قوميته»<sup>(٣)</sup>. ولقد رفض لطفي السيد أى قول بانتفاء قومي لمصر أبعد من حدود الوطن المصري فهو يؤكد: «إننا نحن المصريين نحب بلادنا ولا نقبل مطلقا أن تنتسب إلى وطن غير مصر مهما كانت أصولنا حجازية أو بربرية أو تركية أو شركسية أو سورية أو رومية ومصر بلد طيب ولد التمدن مرتين وله من الثروة الطبيعية والشرف القديم ما يكفل له الرقي»<sup>(٤)</sup>.

وهاجم لطفي السيد دعاة الجامعة الإسلامية فهو يعتقد أن القول: بأن أرض الإسلام وطن لكل المسلمين.. هي قاعدة استعمارية ينفع التحدث بها كل أمة مستعمرة تطمح في توسيع أملاكها ونشر نفوذها كل يوم فيما حولها من البلاد.. تلك قاعدة تتمشى بغاية السهولة مع العنصر القوى الذي يفتح البلاد باسم الدين ويجب أن يكون أفرادها كاسبين جميع الحقوق الوطنية في أى قطر من الأقطار المفتوحة ليصل بذلك إلى توحيد العناصر المختلفة في البلاد حتى لا تنقض أمة من الأمم المفتوحة عهدها ولا تنبرم بالسلطة العليا ولا تتطلع إلى الاستقلال بسيادتها على نفسها»<sup>(٥)</sup>.

ثم أكد لطفي السيد أن التطور السياسى لم يعد يقبل بوجود فكرة الجامعة الإسلامية.. وأن الحل البديل لها هو الدول القومية المستقلة: «أما الآن وقد أصبحت أقطار الشرق غرضا لاستعمار الغرب وانقطع أمل هذه الأمم الشرقية في الاستعمار ووقفت أطماعه عند حد المدافعة لا المهاجمة والاحتفاظ بسلامة كل أمة في بلادها من أن تمحى جنسيتها ويفنى وجودها فإن أكبر مطمح لكل أمة شرقية هو الاستقلال.. أما الآن والحال كذلك فقد أصبحت هذه القاعدة لا حق لها في البقاء لأنها لا تتمشى مع الحال الراهنة للأمم الإسلامية وأطماعها فلم يبق إلا أن يحل

(١) المقطم - ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٠٧.

(٢) الجريدة - ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٠٧ - مقال بعنوان (الأمة المصرية).

(٣) الجريدة - ٢ سبتمبر سنة ١٩١٢ مقال بعنوان (غرض الأمة هو الاستقلال).

(٤) الجريدة - ٩ يناير سنة ١٩١٣.

(٥) الجريدة - ١٦ يناير سنة ١٩١٣.

محل هذه القاعدة المذهب الوحيد المتفق مع أطماع كل أمة شرقية لها وطن محدود وذلك المذهب هو مذهب الوطنية».

ويرد لطفي السيد على حجة مصطفى كامل والحزب الوطنى فى الدعوة للارتباط بالدولة العثمانية والاستفادة من الوضع القانونى لتركيا فى مصر لإحراج الانجليز وإخراجهم من مصر.. ويطالب بدلا من ذلك بالاعتماد على النفس لنيل الاستقلال فيقول: «يجب ألا نقع مرة ثانية فى حبال ذلك الوهم القديم الذى كان يراود أمتنا الوقت بعد الوقت إذ كان يزين لنا مرة أن فرنسا ستحرر بلادنا ومرة أن الدولة العلية ستقوى وبحقنا عليها تسفك دماء أبطالها لتخرج الانجليز من بلادنا ثم هى بعد ذلك تتركنا لأنفسنا فى بلادنا أحراراً تنصرف فيها بما نشاء ولا بد لنا من عزة تربأ بنا عن أن نطلب من غيرنا أن يأتى ليحرر نفوسنا من الرق وقلوبنا من عبادة القوى.. إن الاعتماد على الموازنة الدولية والمعاهدات الدولية والتصريحات البرلمانية صار من (المودة) القديمة فلا ينفع مصر شيئا كثيرا إنما الذى ينفعها هو ألا تقف لحظة واحدة عن العمل لذاتها وعن إثبات شخصيتها وقوميتها وميلها إلى الاستقلال».

وقد بحث لطفي السيد فى العناصر التى تتكون منها الأمة المصرية فأكد أن «المجموعة المصرية تتألف من المصريين الأصليين ومن عناصر أخرى جديدة من الأجانب حلوا مصر على سبيل الفرار وجعلوها موضع سعيهم فصارت بعد قليل محل ثروتهم وموطن حياتهم فى الحال والاستقبال فأصبحوا بذلك مصريين يرون من الواجب عليهم أن لا يكونوا أقل غيرة على مصر من بنيتها الأصليين»<sup>(١)</sup>.

ويعلن الكاتب ضيقه لأن هؤلاء المصريين ذوى الأصول الأجنبية «لا يزالون يظنون أن المصريين يعتبرونهم أجانب عنهم ويكادون يتحللون بهذا الوطن من كثير من الواجبات الوطنية التى يجب على المصريين احتمالها لسعادة بلادهم».

ولقد بنى لطفي السيد نظريته فى القومية المصرية على أساس المنفعة وهو لذلك يطالب بإدخال هؤلاء الأجانب المتوطنين بمصر فى الجامعة المصرية لما سوف تستفيده مصر من جهودهم وخبرتهم وثروتهم.. فهو يقول: «نحن نبني عملا لبلادنا على قاعدة المنفعة من غير أن يكون لمختلف المعتقدات والأجناس أثر كبير أو قليل فى السياسة المصرية العامة وأن كل مصرى اعتاد أن يرى المستقبل بعينه يود من صميم فؤاده لو أصبح كل من على أرض مصر من العثمانيين وغير العثمانيين والأجانب أرباب الامتيازات مصريين متساوين فى الحقوق والواجبات يعملون لسعادة هذا الوطن أو لسعادتهم أجمعين».

ثم يطالب لطفي السيد بإدخال هؤلاء الأجانب فى الحياة السياسية والاقتصادية المصرية باعتبار أن الذين جاءوا إلى مصر واستوطنوها غير سكانها الأصليين «قد برهنوا على صدق اخلاصهم ووطنيته».

(١) الجريدة - ٥ أكتوبر ١٩٠٩ مقال بعنوان الجامعة المصرية .

وقد يكون السبب وراء دعوة لطفى السيد إلى اعتبار العناصر الأجنبية جزءاً من (الوطنية المصرية) أن نسبة كبيرة من الأرستقراطية المصرية فى ذلك الوقت لم تكن من أصول مصرية فأكثرها ترجع أصوله إلى الأتراك أو الألبان أو الشركس أو الشوام. أو بعض الأجناس الأوروبية وهذه الأرستقراطية فى التحليل النهائى جزء من طبقة كبار ملاك الأراضي الذين كانوا أصحاب (الجريدة) ومنهم تشكل حزب الأمة.. الذى كان من مصلحته توسيع قاعدة أنصاره بضم الأرستقراطية الأجنبية فى مصر من كبار ملاك الأراضي إلى صفوفه.

ويلجأ.. محمود بك حسيب.. فى صحيفة «ضياء الشرق» إلى وقائع التاريخ ليؤكد أصالة الأمة المصرية.. حيث يرى أن الأمة المصرية تتكون من عنصرين: قدماء المصريين.. والعرب وأنه باندماج العنصرين تكونت الأمة المصرية.. فهو يقول: «إن الأمة المصرية فى تكوينها الحالى ينتهى بها النسب إلى عنصرين من أقوى العناصر وأعظمها إلى قدماء المصريين وإلى العرب.. فأما الأولون فلا نزاع فى أنهم كانوا آباء المدنية ونبابع العلوم أما الآخرون فلا شك أنهم كانوا أهل المكارم والآداب.. فمن أولئك المصريين القدماء ومدنيتهم وعلومهم وفلسفتهم وشجاعتهم ونبلمهم وأدبهم وكرمهم ومكارمهم وعلمهم يتكون ذلك الدم المصرى الشريف»<sup>(١)</sup>.

ويطرح محمد بك وحيد فى صحيفة «الأحرار» فهما علمانيا للوطنية المصرية حين يفصل بين الوطنية والدين فهو يرى: «أن الدين شىء والوطن شىء آخر وإن الوطن الواحد يجمع أبناء مختلفى العقائد الدينية فالوطن المصرى تجمع أفراد أمة هى الأمة المصرية الذين يعتنقون أدياناً مختلفة فمنهم المسلمون ومنهم المسيحيون (الأقباط) ومنهم الإسرائيليون فهم الكل إزاء الوطن أمة واحدة يقال لها الأمة المصرية»<sup>(٢)</sup>.

وقد بدأ «عبدالقادر حمزة» افتتاحية العدد الأول من صحيفة «الأهالى» معلناً أن هدف الصحيفة هو: «تقوية الجامعة المصرية والمناداة بالاتحاد التام بين العناصر المكونة للوحدة القومية وتحارب عوامل التباغض والتفريق وتشجع بث ملكة التضامن والعدل وحب الوطن الذى هو أساس الواجبات الأدبية»<sup>(٣)</sup>.

وقد رد عبدالقادر حمزة أيضاً على دعوة اللورد كرومر بدولية الجنسية المصرية ومن خلال هذا الرد وضع يده على خصائص الوطنية المصرية فقال: «عرف اللورد كرومر برأى خاص به فى الوطنية صرح به فى سنة ١٩٠٦ حين اقترح تعديل الامتيازات.. ثم قام اليوم وقد وضعت الامتيازات على نطاق البحث.. يعيد هذا الرأى فى مجلة القرن التاسع عشر ويشير على الحكومتين الانجليزية والمصرية العمل به لأنه فى اعتقاده الوسيلة لتكوين (جامعة مصرية) معقولة

(١) ضياء الشرق - ٢ مايو سنة ١٩٠٨ مقال بعنوان (خطاب إلى أمتى المحبوبة).

(٢) الأحرار - ١٩ أغسطس سنة ١٩٠٨ مقال بعنوان «دين الفرد عقيدة شخصية ودين الأمة الوطنية»

(٣) الأهالى - ١٩ أكتوبر سنة ١٩١٠.

ويتلخص هذا الرأي في ألا تكون الوطنية المصرية خاصة بالمصريين بل شاملة لكل سكان مصر سواء كانوا مصريين أو أجانب. وعلى ذلك لا يكون المصرى هو وحده الذى تصله بمصر رفاة أجداده وتذكارات تاريخية ترجع به آلاف السنين بل هو كل من هبط مصر وكانت له فيها مصلحة من المصالح أيا كان جنسه وأيا كان وطنه الأصلي الذى لا يخفى قلبه إلا لذكره»<sup>(١)</sup>.

ثم بدأ عبدالقادر حمزة يرد على فكرة اللورد كرومر فقال: ان هذه الفكرة تتناقض مع تطور الحضارة وانتماء كل شعب إلى أمة متميزة عن غيرها من الأمم: «وطنية غريبة هذه الوطنية الشائعة بين كل الأجناس ونحن نعلم أن هم كل قوم خرجوا من طور الفطرة وبدأوا يعالجون طور الحضارة أن يتألفوا تحت راية وطن واحد تجمعهم رفات آبائهم وأجدادهم وتتوحد فيهم مشاعرهم وميولهم وتذكاراتهم التاريخية ومصالحهم الأدبية والمادية ليصفوا أنفسهم بعد ذلك بأنهم أمة قائمة بنفسها ممتازة عن غيرها ووطنيتها خاصان بها لا شائعان ولا مباحان لكل من أراد». ثم تساءل الكاتب كيف تكون أول أمة في التاريخ ثم يأتي اليوم من يقول لنا تنازلوا عن قوميتكم: «ونحن أقدم الأمم كلها تكونا وأسبقها على الإطلاق إلى الحضارة والعلم والمدنية يقال لنا في القرن العشرين تعالوا فتنازلوا عن الصلة الطبيعية التى تصلكم بوطنكم وانسوا أكثر من عشرة آلاف عام لكم في تاريخ الأمم ثم كونوا كالذين خرجوا اليوم فقط من حال الهمجية فتصالحوا على وطنية جديدة اقبلوا فيها كل نازل بينكم وكل هابط فى المستقبل عليكم ولو لم تكن له صلة بكم وبيلاذكم أكثر من مصلحة وقتية يقضيها ثم يرحل عنكم فهل رأى الناس وطنية مشاعة جامعة لغرائب المتناقضات مثل هذه الوطنية؟ أروا فى أمم الأرض كلها أمة واحدة رضيت أن تتنازل عن مميزاتها هذا التنازل المغيب؟ وأن تهين جنسيتها إلى حد أن تقدمها لكل هابط عليها ولو لم يهبط إلا لساعته.. ثم لو لم يتنازل عن شيء من الروابط التى تربطه بجنسيته الأصلية؟ أيبصر القارئ من هنا كيف تكون.. وفيها اليونانى والإيطالى والفرنسى والألماني والإنجليزى والأمريكى واليابانى والصينى. كلهم يعتبرون تحت سمائها مصريين يتمتعون بما يتمتع به أهلها من حقوق الوطنية حتى إذا وضع الواحد منهم قدما فى البحر ليخرج منها عاد إلى جنسيته الأصلية ونسى مصر وجنسيتها المستعارة».

ثم أعلن الكاتب أن مثل هذه الوطنية مستحيلة لأن الأمة التى ثبتت على تقلبات الأيام وحافظت على مميزاتها كلها بعد هذه الألوف من الأعوام التى عرفت فى أثنائها الأعجام واليونان والرومان والعرب والترك والممالك بحيث لو تخرج من يد إلى يد.. هذه الأمة التى عاشت أشرف أنواع الحكم الأجنبي وقاست ظلمه وتحكمه قرونا وقرونا ثم استطاعت بعد كل ذلك أن تخرج ووجودها سليم وقوميتها محفوظة ومميزاتها هى هى منذ تكونت على ضفاف النيل.. هذه الأمة الحية لا يمكن أن تموت الآن فجأة وأن تدع قوميتها تضمحل وتفتنى».

(١) الأهالى - ١٠ يوليو سنة ١٩١٣ مقال بعنوان (مصر للمصريين لا شائعة بين العالمين).

ثم قال الكاتب إن مصر سوف تبقى للمصريين: «إن لنا غاية كبرى نسعى إليها دائما وهى أن تكون مصر للمصريين لا شائعة بين العالمين ولكن هذه الغاية كما يقول اللورد كرومر بعيدة ولكنها شريفة وهى وحدها الدليل على أن فى الأمة قلبا ينبض بالحياة».

ثم طالب بوضع ضمانات للحفاظ على الجنسية المصرية من أن تكون شائعة لكل من طلبها كما يحدث فى جميع الأمم المتمدينة: «إن الأمم المتمدينة كلها تحيط وطنيتها وجنسياتها بسور منيع ولا تسمح لأحد بأن ينفذ من هذا السور إلا بإذن منها وفى أحوال وشروط خاصة ولوطنيتنا نحن أيضاً سور يحيط بها فمن واجبتنا أن نبقيها محفوظة فى داخله لأننا إذا تركنا هذا السور يتهدم كما يريد اللورد كرومر لم تبق لنا قومية «ولم يعد يرجى لنا مستقبل»<sup>(١)</sup>.

وفى «كوكب الشرق» يؤكد «أحمد حافظ عوض» أن شعار الجريدة هو العمل المتواصل لتحقيق الأمنية الوطنية العظمى وهو الاستقلال الوطنى للبلاد استقلالا تاما صحيحا حتى تصير لها وطنية كاملة<sup>(٢)</sup>.

ويطالب الكاتب جميع المصريين العمل لكى تصير مصر: «دولة قوية ولها منزلة سامية بين الأمم كما كانت مصر فى التاريخ القديم» ويعلن أن سياسة الجريدة سوف تكون بعيدة: «كل البعد عن مذهب القائلين بالوطنية الإسلامية ذلك المذهب البالى الذى يدعو إليه بعض الزعماء فى الأزمان الماضية على قاعدة أن الإسلام لا وطن له وأن بلاد المسلمين كلها وطن واحد ودولة واحدة وأمة واحدة. ويقول إن نظرية الجامعة الإسلامية سقطت لأنها لا تتفق مع حركة التاريخ ولا مع الطبيعة البشرية: «فقد أثبتت الحوادث وبرهن التاريخ على أن هذه النظرية لا تتفق مع الطبيعة البشرية فنحن نرى أن لكل أمة من الأمم الإسلامية فى شرق مصر وفى سوريا الكبيرة والجزيرة والعراق وإيران والأفغان والهند والصين وفى غربها وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش وطنا خاصا وسياسة خاصة وظروفا خاصة كما أن لنا فى مصر كذلك».

ثم يحدد الكاتب سياسة الجريدة - ولنضع فى الاعتبار أنها كانت صحيفة وفدية - فقال: «فسياستنا التى ستدعو إليها وتشدد الرحال لخدمتها فى هذا السبيل هى أن تكون لكل أمة من الأمم العربية الإسلامية سياسة قومية خاصة أساسها الجنسية المتحدة لا فارق فيها بين مسلم ومسيحى وإسرائيلى وعليها فى ذلك أن توجه جهودها فى سبيل تحقيق استقلالها السياسى والاقتصادى ولها مع ذلك سياسة عامة شرقية تربط بها بروابط الصفاء والإخاء والولاء مع الأمم الشرقية والإسلامية وأن تكون لها ببعضها صلات أدبية وعلمية قائمة على مبدأ النهضة العربية ورفى آدابها ومعارفها».

أما الدكتور طه حسين فهو يهاجم فى (السياسة) فكرة الجامعة الإسلامية حيث يرى «إن الدين لم يعد يصلح أساسا للوحدة السياسية فالمسلمون أنفسهم منذ عهد بعيد عولوا عن اتخاذ الوحدة

(١) الأهالى - ١٠ يوليو سنة ١٩١٣ مقال بعنوان «مصر للمصريين لا شائعة بين العالمين».

(٢) كوكب الشرق - ٢١ سبتمبر سنة ١٩٢٤ مقال بعنوان (على بركة الله)

الدينية أساسا للملك وقواما للدولة ولم يأت القرن الرابع الهجرى حين قام العالم الإسلامى مقام الدولة الإسلامية وحتى ظهرت القوميات وانتشرت فى البلاد الإسلامية كلها دول كثيرة يقوم بعضها على المنافع الاقتصادية والوحدات الجغرافية ويقوم بعضها الآخر على ألوان أخرى من المنافع تختلف قوة وضعف باختلاف الأقاليم والشعوب وحظ هذه الأقاليم والشعوب من قوة الشخصية والقدرة على الثبات والمقاومة»<sup>(١)</sup>.

والدكتور طه حسين يرى أن مصر كانت من أسبق الدول الإسلامية إلى استرجاع شخصيتها القومية القديمة التى لم ننسها فى يوم من الأيام فالتاريخ يحدثنا بأنها قاومت الفرس أشد المقاومة وبأنها لم تطمن إلى المقدونيين حتى فنوا فيها وأصبحوا من أبنائها والتاريخ يحدثنا كذلك بأنها خضعت لسلطان الامبراطورية الرومانية الغربية والشرقية على كره مستمر ومقاومة متصلة فاضطر القياصرة إلى أخذها بالعنف وإخضاعها للحكم العرفى.. والتاريخ يحدثنا كذلك أن السلطان العربى بعد الفتح لم يبرأ من السخط والمقاومة والثورة وبأنها لم تهدأ ولم تطمن إلا حين أخذت تسترد شخصيتها المستقلة فى ظل ابن طولون وفى ظل الدول المختلفة التى قامت بعده.

\* \* \*

ولعل موقف الصحافة المصرية من فكرة الوطنية المصرية.. يتضح بجلاء أكبر إذا تتبعنا موقف هذه الصحف من أربع قضايا رئيسية تشكل فى مجموعها مجمل أيدلوجية الوطنية المصرية وهى قضايا: مصر للمصريين.. وإيقاظ الشعور الوطنى.. والوحدة الوطنية.. وبعث المجد المصرى القديم. وهو ما سوف تكشف عنه الصفحات التالية.

\* \* \*

---

(١) السياسة - ٣١ ديسمبر سنة ١٩٢٣ مقال بعنوان (رأى فى مسألة القوميات).

## مصر للمصريين

لقد شهدت الفترة التي أعقبت الاحتلال عملية هجرة مكثفة إلى مصر من جانب أعداد غفيرة من الأجانب خاصة الفرنسيين واليطاليين واليونانيين وأعداد أخرى من رعايا الدولة العثمانية كالسوريين واللبنانيين.. بالإضافة إلى أعداد كانت تزداد عاما بعد عام من شباب الإنجليز الذين جاءوا لتولى الوظائف في الحكومة المصرية وعلى سبيل المثال فقد زاد عدد الموظفين البريطانيين من ١٠٠ موظف في أوائل سني الاحتلال إلى ١٦٠٠ موظف في عام ١٩١٩ كما قل نصيب المصريين في الوظائف الكبيرة من ٨, ٢٧٪ عام ١٩٠٥ إلى ١, ٢٣٪ عام ١٩٢٠ أى أقل من الربع في الوقت الذي زاد فيه عدد الموظفين البريطانيين في هذه الوظائف من ٢٤, ٢٪ إلى ٥٩, ٣٪ فيما بين عامي ١٩٠٥ و ١٩٢٠ (١).

ولقد شكل ذلك كله خطرا على أوضاع المصريين الذين وجدوا أن فرص العمل تضيق أمام وجوههم في وطنهم.. بينما تتسع أمام غيرهم من الأجانب لذلك كان من الطبيعي أن تتفق آراء غالبية المصريين على معارضة هذا الاتجاه ولقد أخذت هذه المعارضة شكل الدعوة إلى فكرة (مصر للمصريين) باعتبار أن المصريين أحق من غيرهم بخيرات بلادهم، وبالتدريج صارت فكرة (مصر للمصريين) جزءا جوهريا من دعوة (الوطنية المصرية).

ولقد بدأت تتردد فكرة (مصر للمصريين) في الصحافة المصرية منذ وقت مبكر أى منذ السنوات الأولى للاحتلال البريطاني (٢). ففي ٢٥ أغسطس ١٨٨٣ ولم يكن قد مضى عام واحد على الاحتلال البريطاني - كتب ميخائيل عبد السيد يهاجم الصحف البريطانية التي «قادت» الأغراض لخدمة فريق يذهب إلى الاستيلاء على مصر.. فإن هذا الفريق لما رأى من المصريين الإذعان والانقياد وطمع في الاستيلاء على البلاد فحرروا الكتابات التي لا تخلو من مقومات الانحراف ومن نتائج الاعتساف كقولهم مثال بما أن «الهيضة» (٣) فشلت وظهر إهمال الأطباء وجب استلام زمام الإدارة والأحكام مع أنه لا توجد مناسبة بين هذه المقومات وبين هذه النتيجة العميقة ولم يسمعو قول المستر «غلادستون» أن «الهيضة» هي من الصعوبات الاستثنائية بل إنها من الأمور التي يصعب على أعظم دولة أورباوية قهرها، وقد رأينا في تاريخ الهيضة أن الأطباء الأورباويين كانوا يهربون منها» (٤).

ثم كشف ميخائيل عبد السيد عن خطة أخرى استخدمت فيها الصحف الإنجليزية للتمهيد للاستيلاء على مصر فذكر أنهم كما أملوا أن تكون الهيضة واسطة في نوال غاياتهم كذلك

(١) شهدى عطية الشافعى - تطور الحركة الوطنية المصرية (١٨٨٢ - ١٩٥٦) الدار المصرية للكتب - القاهرة ١٩٥٧ ص ١١.

(٢) لقد ظهرت الارهاصات الأولى لفكرة (مصر للمصريين) قبل الاحتلال وبالذات أثناء الثورة العربية وفي كتابات عبدالله النديم وحسن الشمسى والشيخ محمد عبده.

(٣) الهيضة : هي الكوليرا.

(٤) الوطن - ٢٥ أغسطس سنة ١٨٨٣.



أملوا أن يكون «فيضان النيل واسطة في إرسال المهندسين الإنجليز إلى مصر فأخذوا يحذرون حكومتهم من عقبي التأخير عن إرسال المهندسين وقالوا بما أننا لم نأت لقهـر عرابي إلا بعد أن تمكن من البلاد وعبث في الفساد فلا بد أن ننزل المهندسين قبل أن يفيض النيل».

ثم قال الكاتب إن الصحف الإنجليزية تشتري على الشعب المصري حيث تقول «إنه لا يوجد في مصر ٢٤ شخصا يليقون لمشيخة القرى وقولهم أنه لو مضى على مصر ٢٠٠ سنة لما صح أن نجعل سياستنا في مصر شبيهة بسياسة اللورد (ريون) في الهند فإن هذا الرجل يميل إلى إعطاء الهنود حظاً من الحرية والتوظيف في وظائف بلادهم وقالوا إن المصريين أقل درجة من الهنود فإنه يوجد في الهند أناس متنورون بخلاف مصر وقال بعضهم لو كان المستر «ريون» في مصر لغير مذهبه».

وطالب ميخائيل عبد السيد مواطنيه المصريين بالانتباه إلى هذه الخطة التي تهدف إلى سلب وظائف بلادهم منهم ودعا كبار المصريين إلى الرد على افتراءات الصحف الإنجليزية حيث قال: «وأملنا أن يلتفت المصريون إلى هذه الخطة وهذا الخطر الداهم على حقوقهم في تولي وظائف بلادهم ولنا رجاء أن يلتفت كبارنا (ولاسيما حضرة النبيه الكامل الشيخ إبراهيم باشا أحد أكابر الاسكندرية فإنهم خصوه بالذكر في بعض الأمور) إلى مثل هذه التنديدات ويردون عليها في جرائد المجلـة مثل الدالـي نيوز فإنه يميل إلى المصريين بعض الميل».

ونشرت صحيفة «الزمان» مقالاً بعنوان (شكاية أبناء الوطن) ويتوقع (المحزونون الوطنيون) وقد جاء فيه: «كنا سمعنا من عهد قريب أن لا يستخدم في دوائر الحكومة المصرية أحد من الأجانب فسرنا ذلك ولكن لم نجد له تأثيراً ولا أدنى فعل من أننا أحق بما لنا كما أوضحنا مراراً فإن مساكن الدار أدري بما فيها وأنه أحرص الناس على المحافظة عليها<sup>(١)</sup>. وأكدت الصحيفة على وجود الخبرات والكفاءات المصرية الكافية لسد حاجات البلاد دون الاعتماد على الأجانب.. وكانت بذلك ترد على الحجج التي كانت سلطات الاحتلال تبرر بها تشغيل الأجانب: «إن في مصر أناساً ذوي معارف ودراية بكافة أمور الخدمات السياسية والإدارية وغيرها يقومون بجميع خدمات الممالك العثمانية فما بالها يظهر حكامها الاحتياج لخدمة الغير فيها ويا عجباً من أولياء أمورنا في إغفالهم واجباتنا».

وهاجم الشيخ على يوسف الحكومة لتفضيلها الأجانب على الوطنيين في وظائف الحكومة وأشار إلى «وجود تلامذة بالأرياف حائزين شهادات نهائية يخدمون الآن خدمات دينية بطرف أرياب الفلاحة والتجارة بعد أن طرقت أبواب الحكومة بطلب خدمات ولم يقبل لهم رجاء»<sup>(٢)</sup>.

وحمل الشيخ على يوسف الحكومة تبعة هذه الحال وقال إن السبب في ذلك يرجع إلى «تفضيل الحكومة الأجانب على الوطنيين في التوظيف بالحكومة».

(١) الزمان - ٢٣ أكتوبر سنة ١٨٨٣ مقال بعنوان (شكاية أبناء الوطن).

(٢) المؤيد - ٢٢ فبراير سنة ١٨٩٢.

وقد عوقبت «المؤيد» على نشرها هذا المقال فوجه إليها وزير الداخلية مصطفى باشا فهمى انذاراً نشرته الصحيفة فى صدر صفحتها الأولى حيث جاء فيه «إن هذا المقال لا صحة له بل هو مجرد اختراع ولقد بادرتم بنشر هذه الأقاويل الفاسدة التى من شأنها تهيج العامة.. فقد اقتضى تحرير هذا لكم ليكون أول إنذار»<sup>(١)</sup>.

أما «اللواء» فقد أخذت تنبه المصريين إلى ضرورة احترامهم لأنفسهم أمام الأجانب وعدم الخضوع لهم أو الاستسلام لرغباتهم أو التزلف على أعقابهم واستنكرت الصحيفة «ذل نفوس بعض المصريين أمام الأجانب وخلودهم إلى الاستسلام أمام أصغرهم وأحقهرهم اقتداء بالسادة العظماء من أبناء هذه البلاد الذين يحقرون أبناء وطنهم.. ان أبناء وطننا الذين يتسامحون مع الأجانب إلى هذا الحد، إن هذا أمر لا تسمح به الآداب الأوربية فى بلادهم ولا تقبله أخلاق الغربيين بالنسبة لغيرهم من الشعوب فليعتبر المصريون بما يجرى فى بلاد الأوربيين أنفسهم وليعلموا أن الغربى لا يحترم الشرقى إلا إذا احترم الشرقى نفسه وحافظ على عوائده وأخلاقه وآدابه فإنما الاستقلال الشخصى أساس الاستقلال الكلى أو الوطنى»<sup>(٢)</sup>.

واستغل «اللواء» حادث دنشواى للتنديد بكثرة الأجانب فى مصر واستفزازهم للمصريين: «وما حادث دنشواى إلا أحد نتائج هذا الاستفزاز للمصريين»<sup>(٣)</sup>. ثم هاجمت الصحيفة الأجانب وسمتهم (الدخلاء) واتهمتهم بمحاولة السيطرة على جميع الحياة الاقتصادية فى مصر ومنافسة الوطنيين فى أرزاقهم «فزحت هذه العشيرة الشريفة إلى وداى النيل فى الربع الأخير من القرن الماضى فما صادفوا من المصريين إلا صدوراً رحبة وأكفا سخية وأخلاقاً مرضية وتسامحاً فى المعاملة كعادتهم مع كل غريب هبط أرضهم واختار جوارهم.. فلم يجدوا معارضا ولم يصادفوا منازعا فسعوا على أرزاقهم فلما جاء الاحتلال وأنسوا من عميد دولة الاحتلال ميلا إلى التداخل الإدارى فى جسم الحكومة المصرية قلبوا للوطنيين ظهر المجن ومالوا بكليتهم إليه وأخذوا يعرضون عبوديتهم فاستخدمهم فى التجسس على المصريين وإرشاده إلى غوراتهم ومكان الضغف منهم».

واتهمت الصحيفة اللورد كرومر المعتمد البريطانى السابق فى مصر بتشجيع سيطرة الأجانب على الحياة الاقتصادية فى البلاد وقالت: «لقد استمدوا ثقة عميد الاحتلال بهم فصاروا يوهمون الموظفين حتى كبارهم أنهم يستطيعون أن ينالوا عند العميد كل شىء وقد صدقوا ولذلك خافهم الحكام وراعوا جانبهم.. وجعلوا لأنفسهم دور الوسيط بين الأهالى وبين الاحتلال فكانوا يقضون للناس أعمالهم منهم مقابل أجور باهظة يأخذونها من أرباب الأشغال فى كل مصلحة من مصالح الحكومة كبيرها وصغيرها.. وكل ذلك كانوا يأتونه فى مصر بزعامة عميد الاحتلال السابق كرومر وفى ظله وبهذه الذرائع استطاعوا أن يجمعوا ثروات كبيرة».

(١) المؤيد - ٢٢ فبراير سنة ١٨٩٢.

(٢) اللواء - ٥ أبريل سنة ١٩٠١ مقال بعنوان (الداء الأجنبى عند الأفراد).

(٣) اللواء - ٣ يوليو سنة ١٩٠٧ مقال بعنوان (عداء الدخلاء للمصريين).

وفى اللواء أيضاً كتب (أحمد حلمى) يدعو كل مصرى إلى عدم التفریط فى الوظيفة التى بين يديه حتى لا يحتلها من بعده أجنبى: «لما كانت هيئة الحكومة المصرية تخالف كل هيئة حكومية أخرى بما اختلط فى جسمها من العناصر الأخرى وجب على كل مصرى أن لا يفرط فى الوظيفة التى بين يديه وأن يحرص عليها حتى لا يخلفه غيره فيها من عنصر غير مصرى»<sup>(١)</sup>.

ثم طالب الكاتب الأمة المصرية بالاحتجاج ضد سلب المصريين وظائفهم وإسنادها للأجانب: ووجب فوق ذلك أن يدأب كل فرد من أفراد الأمة على الاحتجاج الشديد ضد كل عمل يقصد به سلب الوظائف من الوطنيين وإعطائها لغيرهم بأى حجة كانت ما دام عندهم من العلم ما يستطيعون به إدارة هذه الوظائف فهم أحق بها وأولى من سواهم وأولى من سواهم ولهم الحق فى هذا الاحتجاج لأن القانون الحالى الذى هو العمود الفقرى لقوام جسم الحكومة يشترط الجنسية المصرية فى كل موظف إلا إذا احتاج الحال لعالم لا نظير له فى المصريين أو رجل من أهل الفن الذى لا يحسنه المصريون».

وقال الكاتب إن إستاد الوظائف لغير المصريين: «والذين أكثرهم غير خيرين بهذه الوظائف أضاع على الأمة المصرية نفقات تتعدى ملايين الجنيهات ثم هم لم يقوموا بعمل نافع للبلاد بل أضروا الأمة والحكومة معا.. وفى النهاية يطالب الكاتب: «كل مصرى أن يعلم أن الحرص على وظائف حكومة بلاده فى مقدمة الواجبات الوطنية حتى لا يبقى الوطنيون غرباء فى بلادهم وحكومتهم والغرباء وطنيون فيها.. وتصير مصر لغير المصريين».

وطالب أمين الرفعى فى صحيفة «الشعب» بعدم تعيين أى أجنبى فى أى وظيفة جديدة أو أى مكان يخلو فى وظائف الحكومة فهذه الوظائف من حق الوطنى دون غيره فهو يقول: «يحق لنا كلما خلت وظيفة من الوظائف أن نطالب بإسنادها لوطنى دون غيره لأن الوظائف فى جميع البلدان تعد ملكاً لأبناء الأمة لا للأجانب عنها.. وإذا كانت الأمة هى التى تنقد صاحب الوظيفة مرتبه فيجب أن يذهب هذا المرتب إلى أحد أبنائها»<sup>(٢)</sup>.

وكان أحمد لطفى السيد هو الكاتب المصرى الوحيد الذى لم يهاجم عملية النزوح الأجنبى المستمر إلى مصر.. بل لقد كتب يطالب باعتبار هؤلاء الأجانب مصريين وإعطائهم كل حقوق المصريين فى وطنهم فهو يرى «إن كل مصرى يود لو أصبح كل من على أرض مصر من العثمانيين وغير العثمانيين والأجانب أرباب الامتيازات مصريين متساوين فى الحقوق والواجبات»<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

(١) اللواء - ١٠ يوليو سنة ١٩٠٧ مقال بعنوان (فى الحرص على الوظائف).

(٢) الشعب - ٣٠ أبريل سنة ١٩١٤ مقال بعنوان (الوطنى والإنجليز فى وظائف الحكومة).

(٣) الجريدة - ٥ أكتوبر سنة ١٩٠٩ مقال بعنوان (الجامعة المصرية).

## إيقاظ الشعور الوطنى

هناك شبه إجماع بين أكثر المؤرخين والكتاب الذين تحدثوا عن السنوات التى أعقبت الاحتلال البريطانى لمصر.. أن اخفاق الثورة العربية قد أشاع فى البلاد روح الخضوع وانتشر اليأس فى نفوس المصريين<sup>(١)</sup>.. وإنه بمجىء الاحتلال بدأت فترة من الظلام الكثيف تخيم على البلاد واتفق كثير من الخاصة والعامة على التسليم للقضاء<sup>(٢)</sup>. وركن الناس إلى حياة فقدوا فيها الأمل فى الخلاص من الاحتلال<sup>(٣)</sup>.. وأصبح سبيل النجاح سواء فى المناصب أو الحياة الاجتماعية هو الولاء للاحتلال والزراية بالمبادئ الوطنية وقلة الاخلاص للبلاد.. ودرج الناس على هذه الحالة وألفوها حتى عدوها كأنها حالة عادية وكأن الخروج عليها ضرب من السخف أو الجنون وهكذا يمسح الحكم الأجنبى نفسية الأمة ويفقدها الروح القومية والكرامة.. وينشئ نفوسا ضعيفة مريضة يروضها على التفريط فى حقوق الوطن وتضحية مصالحه فى سبيل التهافت على موائد الغاصب.. وإذا فقد الناس التطلع إلى المثل العليا فقد انصرفوا إلى الصغائر والفساسف وتعلقوا بها واطمأنوا إليها وتنكروا لمعانى الشهامة والبطولة والاستمسك بالحق والواجب فلم يعودوا يأنهون لهذه المبادئ السامية أو يقدرونها حق قدرها.. ونشأت عن كل ذلك حالة نفسية هى أبعد ما تكون عن الوطنية<sup>(٤)</sup>.

ومع ذلك فإن تتبع أعداد الصحف المصرية الصادرة فى السنوات الأولى للاحتلال قد يصل بنا إلى نتيجة مخالفة لتلك التى وصل إليها الكثيرون ممن كتبوا عن هذه الفترة. ويبدو لنا أن هناك خلطا كبيرا وقع فيه أصحاب هذا رأى فلم يتسهبوا إلى أن هناك اختلافا بين الموقف من الاحتلال والموقف من الثورة العربية.. واعتبروا كل من هاجم الثورة هو بالضرورة عميل للاحتلال أو راض عنه، وعلى ذلك فقد فسروا الحملة العنيفة التى شنتها صحف ما بعد الاحتلال على الثورة العربية وقادتها.. بأنه انهيار فى الشعور الوطنى ورضاء بالاحتلال أو استكانة ورضى به ولكن الأمر لم يكن فى الحقيقة على هذه الصورة بالمرة.. فقد تبين لنا من خلال دراستنا لصحف تلك الفترة أن الهجوم على العربيين لم يكن دائماً يعنى العمالة للاحتلال الإنجليزى أو الرضى عنه أو الاستكانة له.. ولتفسير ذلك لابد من أن نرجع قليلاً إلى أيام الثورة العربية كى نستعرض خريطة الصحف التى كانت تصدر أثناءها ومواقفها من الثورة.

(١) عمر الدسوقي - فى الأدب الحديث - الجزء الثانى - لجنة البيان العربى - القاهرة - ١٩٥٠ ص ٧٧.

(٢) د. سامى عزيز - الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزى - دار الكاتب العربى - القاهرة ١٩٦٨ ص ٦٦.

(٣) د. عبداللطيف حمزة - أدب المقالة الصحفية فى مصر - الجزء الخامس . مصطفى كامل - دار الفكر - القاهرة - ص ٥٣.

(٤) عبدالرحمن الرافعى - مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال - مطبعة النهضة الطبعة الثالثة - ١٩٤٨ - القاهرة ص ١٧٥ - ١٧٧.

فالواقع أن الصحف لم تكن تقف كلها في صف العربيين.. فقد اتخذت أكثر الصحف التي كان يصدرها الشاميون موقفا متحفظا من الثورة العربية مثل الأهرام لبشارة وسليم تقلا.. والمحروسة والعصر الجديد لسليم النقاش، ومصر التي كان يصدرها عوني اسحق ويحررها أديب اسحق، مما دفع الصحف المؤيدة للثورة إلى الهجوم على هذه الصحف الشامية واتهامها بالعمل ضد الثورة<sup>(١)</sup>. مما اضطر أصحاب تلك الصحف إلى الهجرة<sup>(٢)</sup>.

كذلك فقد وقفت بعض الصحف الوطنية التي يصدرها مصريون موقفا مشابها للصحف شامية تجاه الثورة العربية بل إن بعضها اتخذ موقفا صريحا في معارضة الثورة مثل صحيفة طنية لميخائيل عبد السيد<sup>(٣)</sup>. وكذلك صحيفة الزمان لحسن حسنى<sup>(٤)</sup>.

١. لقد كان موقف الصحف الشامية من الثورة العربية مثيرا للدهشة بالفعل فقد يعجب الباحث كثيرا كيف أن واحدا من أكثر الكتاب ثورية في ذلك الوقت وهو أديب اسحق يتحول أثناء الثورة إلى داعية للاعتدال في طلب الحرية بعد أن كان من أكثر دعائها تطرفا في الفترة التي سبقت الثورة مما أبغض عليه رياض باشا فأغلق له جريدته «مصر» و«التجارة» في عام ١٨٧٩.

ولقد كان من نتيجة موقف أديب اسحق المعتدل هذا أن سخط عليه العربيون ولم يجعلوا من جريدته «مصر» لسان حال الثورة كما كان متوقعا واستعاضوا عنها يومئذ بصحيفة أخرى مثل جريدة المقيد لحسن الشمسي والطائف لعبد الله النديم.

ولقد نتج عن حملة الصحف العربية على جرائد الشاميين أن اضطر الكثير منهم إلى إغلاق جرائدهم والهجرة من مصر وقطع أديب اسحق.. (وكان موظفا في الحكومة المصرية ويعمل كائما لأسرار مجلس النواب) كل صلة له بجريدة مصر ولم يبق من الصحف السورية يومئذ غير صحيفة المحروسة لسليم النقاش إذ بقيت موالية للعربيين حتى عطلها عرابي ثلاث أشهر.. وتلخص صحيفة (المقيد) موقف الجرائد الوطنية من الصحف الشامية عندما كتبت تقول: «كل من جريدة الأهرام والمحروسة ومصر أنا أصحابها وجيوبهم أفرغ من فؤادهم من الوطنية والخدمة الإنسانية والحال في سكوت فلما ارتبكت الحال قطعوا السنة جرائدهم ورجعوا بلادهم بجر الحقائق فنعم الأصحاب لازمونا في الهناء وفارقونا في الشقاء» (المقيد ٢٢ يونيو سنة ١٨٨٢).

(٢) إبراهيم عبده - تطور الصحافة المصرية - مطبعة الآداب - القاهرة ١٩٥١ ص ١٢١ - ١٢٣.

(٣) فقد علق ميخائيل عبد السيد على مظاهرة الجيش في سبتمبر سنة ١٨٨١ فقال: «ويخشى ان ما يتته هذه الأسرة (يقصد أسرة محمد علي) في مائة سنة تهدمه في يوم واحد وتقهر إلى حضيض الذل بعد العز وتقول للناس علينا أنه لا ينفع في المصريين إلا من كان رأيه الفتك والهتك والاحتياال والاعتياال وأنهم قد تعودوا على ذلك منذ ألوف السنين».. (الوطن - ١٧ سبتمبر سنة ١٨٨١).

(٤) كان حسن حسنى محرر جريدة الزمان هو الكاتب المصري الوحيد الذي وقف يعارض الاتجاه العام الذي ساد الصحافة المصرية في فترة الثورة العربية عندما كتب يدافع عن الحكومة الاستبدادية المطلقة ويرى أنها من ضمن شروط الإسلام فهو يعلن أن «الحاكم هو القابض على قوة تنفيذ القانون القائم بشئون المصالح العمومية والخصوصية وهو فرد من أفراد الهيئة الاجتماعية التي خولته من تلقاء نفسها سلطة عامة عليها أو بحق ثابت مشروع وله حقوق الطاعة والانقياد (الزمان - ٦ مارس سنة ١٨٨١ مقال بعنوان (الحاكم وروح الأمة) ويمكن فهم موقف حسن حسنى إذا عرفنا أنه أنشأ الزمان في الأصل للدفاع عن الخديو توفيق ونظام حكمه المطلق وللوقوف في مواجهة الصحف الوطنية التي كانت تؤيد العرايين وتطالب بالحكومة المقيدة بالدستور للنواب.

لذلك لم يكن غريباً أن تشتد الوطن والزمان وغيرهما من الصحف الوطنية التي كانت تعارض العراقيين في الهجوم على الثورة وزعمائها بعد الاحتلال.. وكان طبعاً أيضاً أن تشاركها في هذا الهجوم الصحف الشامية بعد أن عادت إلى الصدور.

ولم يجد العراقيون - بعد فشل الثورة - من يدافع عنهم ليس فقط لأنهم أبعدوا عن السلطة ودخلوا السجون وإنما لأن الخديو توفيق قام بمعاونة سلطات الاحتلال - بإغلاق صحف العراقيين فأصدر وزير الداخلية (وكان وقتئذ رياض باشا) أمراً في ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٨٢ بإغلاق جريدة السفير.. وكانت الطائف قد توقفت بعد اختفاء عبدالله النديم.. كذلك قبض على حسن الشمسي صاحب جرائد المفيد والسفير والنجاح<sup>(١)</sup>.

ولم يلبث الشمسي بعد خروجه من السجن أن أصبح محامياً واضطر إلى الابتعاد عن العمل الصحفي<sup>(٢)</sup>. وسجن الشيخ محمد عبده.. ثم نفى خارج البلاد وعند السماح بوجوبه اشترط عليه عدم العمل في الصحافة وترك سعد زغلول الصحافة إلى المحاماة بعد أن كان قد برز كأحد المحررين اللامعين في الوقائع المصرية التي كان يرأس تحريرها الشيخ محمد عبده<sup>(٣)</sup>.

كل هذه الحقائق كانت تحتّم قيام حملة عنيفة ضد الثورة العراقية وزعمائها المشتركين فيها أو المتعاطفين معها.. عقب هزيمة الثورة.. ولكن ذلك لم يكن يعني أبداً أن الشعور الوطني في مصر قد انهار لدرجة أن الناس هللت للاحتلال أو رحبت به.. أو حتى رضيت عنه.. والذي يؤكد رأينا هذا أن الهجوم على الاحتلال الإنجليزي بدأ قبل أن يستكمل الانجليز عاماً واحداً على وجودهم في مصر.

وإذا تتبعنا بدقة ما كتبه الصحف المصرية في السنوات الأولى التي أعقبت هزيمة العراقيين والاحتلال سوف نكتشف ما يؤكد صحة الرأي الذي نذهب إليه.

فمميخائيل عبدالسيد - مثلاً - يستقبل في «الوطن» خبر هزيمة العراقيين فيحمد الله الذي استدرك برحمته: «خلق من المصريين» ورد إلى خديونا المعظم حقه واطلع الشمس من مطلعها ووضع الرئاسة في موضعها فقد شرف الخديو المعظم مصرنا ونزع الخوف منا وشد أزرنا فامتلات بتشريفه آفاق السما»<sup>(٣)</sup>.

ثم أخذ يكيل المديح «لرياض باشا» وزير الداخلية الجديد في حكومة الخديو وعدو العراقيين الأول فقال: «من الناس من يسعى في نفع بلاده ووطنه ولا يبالي بتعب فكره وضنى بدنه فمثل هذا الإنسان يكون لحكومته ولملكه بمنزلة السهم الصائب والشهاب الثاقب بل هو من أعظم بركات الدنيا وهذا هو ما رأيته مصر من دولتلو رياض باشا قبل الحوادث الأخيرة».

(١) سليم خليل النقاش - مصر للمصريين - الجزء السادس - مطبعة المحروسة - القاهرة - سنة ١٨٨٤ ص ٦.

(٢) د. سامي عزيز - الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي ص ٦٩.

(٣) المصدر السابق - ص ٦٩ - ٧٠.

(٤) الوطن - ٢٦ سبتمبر سنة ١٨٨٢.

ثم هاجم الكاتب عرابي وزملاءه فقال عنهم: «ومن الجهة الأخرى يوجد أناس أشبه بالطاعون فمطمع أنظارهم موجه إلى غاياتهم الذاتية الخصوصية فلا يباليون بتخريب البلاد بعد عمارها ولا يفكرون في راحة الأهالي ورفاهيتهم التامة.. إذا تحصلوا على اليسار والغنى.. وهذا هو حال عرابي العاصي وفئته الطاغية الباغية الذي بدل من يسر مصر عسرا ورمى تجارتها بالكساد ويخس مآلتها وهدر دماءها وشتت أموالها واضمحل حالها وكل ذلك لغايتة الشيطانية ولغايات الفئة التي اغترت بسرابه».

وعندما خفف الحكم على عرابي من الإعدام إلى النفي اعترض ميخائيل عبد السيد وطالب بإعدام عرابي فقال: «لقد أجمعت شرائع الدنيا وجوب قصاص من خلع دثار الطاعة لولى الأمر وتردى برداء العصيان والغدر بالإعدام فإنه شبيه بالعضو المشلول الواجب قطعه لإصلاح الجسم وعلى هذا المبدأ الصحيح حكم على عرابي بالقتل غير أنه خفف هذا الحكم بالنفي وقد ساء هذا الأمر كل من يرغب في هدوء مصر وتحسن أحوالها»<sup>(١)</sup>.

وفي نفس العدد أشارت الصحيفة إلى استقالة رياض باشا من الوزارة احتجاجا على تخفيف الحكم على عرابي.. وأيدته الصحيفة في موقفه فقالت «غنا وغم كل محب الخير مصر انحراف مزاج دولتلو رياض باشا من أول هذا الأسبوع الماضي وقد قدم استعفاءه للجناح الخديو وذلك فإنه رجل حر الأفكار صائب الأنظار صادق في خدمة بلاده وخدمة ملكه وقومه».

ورغم هذا الهجوم العنيف الذي شنّه ميخائيل عبد السيد ضد العرابيين نراه في ٢٥ أغسطس سنة ١٨٨٣ أي قبل أن يمضى عام واحد على احتلال الإنجليز لمصر.. يهاجم الجرائد الإنجليزية.. ويعلن أنها تخدم أغراض فريق من الإنجليز الذين يريدون الاستيلاء على مصر فقال: «لا يخفى أن بعض الجرائد الإنجليزية قادت أفراس بحبل من مدد وساقها إلى التهويل الطمع والحسد.. فأخذت تقدم في محل المدح وتذم في محل القدح وتقول على الخطأ وترفض الصواب وهذا كله لغايات طريق يذهب إلى الاستيلاء على البلاد»<sup>(٢)</sup>.

واستمر ميخائيل عبد السيد في هجومه على الاحتلال حيث ذكر أنه كان مفروضا على إنجلترا أن تترك مصر بعد حسم الثورة العربية في يد كبار المصريين الذين اشتهروا بالنزاهة والحزم وبمعرفة المصريين وعاداتهم ولغتهم وما ينفعهم وما يضرهم<sup>(٣)</sup>.

ويلاحظ أن هذه هي المرة الأولى التي يطلق فيها ميخائيل عبد السيد لفظ (ثورة) على الحركة العربية بعد أن كان يطلق عليها (تمرد العصاة).

وعندما بدأت تجرى مداولات بين تركيا والجنرال حول المسألة المصرية.. كتب ميخائيل عبد السيد مطالبا الطرفين ألا يعمل كل منهما لصالح بلاده وينسيان مصالح مصر وقال:

(١) الوطن - ٩ ديسمبر سنة ١٨٨٢.

(٢) الوطن - ٢٥ أغسطس سنة ١٨٨٣.

(٣) الوطن - ٢٣ مايو سنة ١٨٨٥.

«أجمعت جرائد لندن على أنه قد حصل خلاف بين الدولة العلية وبين إنجلترا عند المداولة في المسألة المصرية.. وهذا أمر لا مفر منه فإن كل جانب منهما جعل نصب عينيه مصالح بلاده وحكومته وتأييد شوكتها وصولتها في مصر.. ولكن لو جعل كل من الجانبين نصب عينيه مصلحة المصريين المساكن وجعل غايته القصوى تحسين حالهم وإعادة ما كان لهم من الامتيازات والاختصاصات سهل حل المسألة المصرية ويا حبذا لو كانت هذه الغاية هي الغاية المشتركة بين الدولة العلية وبين إنجلترا - لا أن تجعل إنجلترا غايتها تأييد شوكتها ونفوذها وصولجانها في مصر»<sup>(١)</sup>.

وإذا ما انتقلنا إلى صحيفة «الأهرام» فسوف نجدها تنشر صورة كبيرة للجنرال ولسلى قائد الحملة الإنجليزية<sup>(٢)</sup>.. أما قادة الثورة العربية فهم في رأى «بشارة تقلا»، «العاصى عرابى ورفاقه البغاة»<sup>(٣)</sup>.

ولكن مع بداية عام ١٨٨٤ بدأت الأهرام في معارضة الاحتلال وأخذت تتصيد له الأخطاء مما أدى إلى أن يصدر مجلس النظار قرارا بتعطيل الأهرام شهرا في أغسطس سنة ١٨٨٤ لإخلاله بالنظام العمومى<sup>(٤)</sup>.. أي بعد أقل من عامين فقط من الاحتلال.. وقد ظل الأهرام يطلب الإنجليز بتنفيذ وعودهم بالجلء وطالما كشف عن زيف ادعاءات الحكومات الإنجليزية ووعودها بالجلء عن مصر فكتب «سليم تقلا» يقول: «أعلن المحتلون أن ليس لهم إلا غاية واحدة هي توطيد النظام فمتى وصلوا إلى هذه الحجة ارتحلوا فوثقنا وصبرنا حتى تم المرام، فلما طولبوا بالانحياز انتحلوا العلل من خوف ورود الطوارئ في الداخل والخارج فوثقنا وصبرنا حتى انتفى الخوف وطولبوا فتمهلوا بعلل الإصلاح المالى ولما شهدوا هم أنفسهم بتقاريرهم بالحصول عليه وطولبوا.. فانتقلوا إلى علل الإصلاح الإدارى وكان ذلك آخر العهد فى بيان الأعذار ولا وجه للإشكال فى ملاءمة ذلك لإنجلترا التى تريد الحصول على مصر لنفسها.. والسلام على شرف الوعود»<sup>(٥)</sup>.

فإذا ما انتقلنا إلى صحيفة «الزمان» لصاحبها الكسان صورفيان ومحررها حسن حسنى باشا.. سنجدها تجعل مانشت أول أعدادها عقب إعادة إصدارها بعد الاحتلال : «يعيش الخديو حامى الأمة» وفيه مديح كثير للخديو وهجوم عنيف على العربيين وسمتهم: «العصاة أصحاب الهيئة الباغية وتجمهر الفئة الطاغية»<sup>(٦)</sup>. وفى نفس العدد تحدثت عن «سلطان باشا» ووصفته: بالهامام

(١) الوطن - ١٦ يناير سنة ١٨٨٦.

(٢) الأهرام - ٥ أكتوبر سنة ١٨٨٢.

(٣) الأهرام - ٣ أكتوبر سنة ١٨٨٢.

(٤) الوقائع المصرية - ٢١ أغسطس سنة ١٨٨٤.

(٥) الأهرام - ١٢ مارس سنة ١٨٩٢ مقال بعنوان (لمحة - الأمور مرهونة بأوقاتها).

(٦) الزمان - ١٢ فبراير سنة ١٨٨٣ مقال بعنوان (يعيش الخديو - حامى الأمة).



الحكيم ووجهت الخطاب إليه قائلة: «لقد أقمت اليوم في وجدان كل ذى فؤاد يرتوى بماء النيل تمثالا أبديا بما بذلته من الخدمة الصادقة في سلامة الأمة»<sup>(١)</sup>.

ولكن لم يمض أكثر من ثلاثة أشهر على إصدار الصحيفة حتى بدأت تدخل في مناقشات مع سلطات الاحتلال وبدأت تهاجم الاحتلال هجوما غير مباشر عن طريق هجومها على التدخل الأوربي بشكل عام في شئون الشرق وكثيرا ما أخذت الصحيفة تحذر الأمم الشرقية للانتباه للأطماع الأوربية والعمل على مقاومتها.. فتقول الصحيفة مثلاً: «وإذا تأملنا سياسة أوربا رأيناها سياسة مطامع والتهم.. إن أوربا تطمع في الاستيلاء على الشرق بحجة نشر العدل ورفع راية المدنية به.. فكان من ذلك مبدأ الاستيلاء والاستعمار وما نجم عن ذلك من المشاكل وما زال هذا المبدأ أخذاً بين دول أوربا مأخذ القوة والامتداد»<sup>(٢)</sup>.. ثم قالت الصحيفة إن الخطر الأوربي لا بد وأن يدفع الشرقيين للانتباه للخطر: «ومع ذلك فما زال لنا نحن الشرقيين أبواب للفلاح ومع أن أوربا طامعة بنا فهي في نفس الوقت تدفعنا للانتباه وتحثنا على النهوض».. وحذرت الصحيفة الشرقية عموماً والعرب خصوصاً من الخطر الأوربي: «فإننا نناشدكم الله يا دول الشرق عموماً وبيا من يلفظون الضاد خصوصاً أن تنتبهوا من سنة غفلتكم حذراً من أن يسوقكم الجهل إلى الذل والصد في وجه غارة التقدم إلى نهاية الانحطاط دون الحد».

وعلى صفحات جريدة «الزمان» يتكشف لنا أن الشعور الوطني في مصر ظل مشتعلاً.. فلم تنته مقاومة الشعب المصري - كما يتصور البعض بهزيمة العربيين.. أو بمجيء الاحتلال.. وغير صحيح أن الإنجليز دخلوا مصر فوجدوا أمة في شبه ذهول<sup>(٣)</sup>.. وليس صحيحاً أنه قد سرت في نفوس المصريين روح الخضوع واليأس كما يدعى آخرون<sup>(٤)</sup>.

اذ تكتب صحيفة الزمان في ٥ يونيو من عام ١٨٨٣ أى بعد أقل من عشرة شهور على الاحتلال عن: «الاشاعات الصادرة عن القاهرة بإرسال تحذير تهديدية للجناب الخديو ونظاره.. تبين على ما يظهر أنه قد بدأ بإحداث دسائس لتوقع البلاد مرة ثانية في الأمور التي تستغنى عنها»<sup>(٥)</sup>.

وفي ٢٠ يونيو سنة ١٨٨٣ تنشر الزمان -خبر القبض على جمعية وطنية سرية تعمل لمقاومة الإنجليز وعملائه في مصر من أمثال الخديو توفيق ونظاره وأعوانه فتقول: «ذكرنا سابقاً مرة بعد مرة أن بعض الجبهة والطفيليين قد تجاسروا من صغر عقولهم على إرسال بعض التقارير التهديدية للجناب الخديو ونظاره الكرام ولم يكن من نية الحكومة السنية أن تعيرهم نظر الأهمية إلا أنه لما كثرت حركتهم اضطرت همة الهمام مأمور الضبطية سعادة عثمان باشا غالب إلى

(١) الزمان - ١٢ فبراير سنة ١٨٨٣.

(٢) الزمان - ٤ يونيو سنة ١٨٨٣ مقال بعنوان (حوادث الأيام - الشرق والغرب).

(٣) د. إبراهيم عبده - جريدة الأهرام - ص ١٤٢.

(٤) عمر الدسوقي - في الأدب المصري الحديث، الجزء الثاني، ص ٧٧.

(٥) الزمان ٥ يونيو سنة ١٨٨٣ مقال بعنوان (مصر).

البحث عليهم فكشف مخبأتهم وكان مركز هذه الجمعية الخبيثة بيت عبدالرازق بك درويش ومديرها وكاتبها رجل فرنسوى تسمى باسم (محمد سعد) منذ تشرفه بالدين الإسلامى من ثلاثة أو أربعة أشهر ومن أعضائها مصطفى بك صدقى وأخيه حسين بك فهمى ومحمد بك الحبابى وقد قبض على هؤلاء ليلة أمس<sup>(١)</sup>.

ولم تكن هذه الجمعية هى الوحيدة فى مجال المقاومة الوطنية ضد الاحتلال وعملاته فقد ذكرت الصحيفة فى نفس المقال. بعد أن أوردت خبر القبض على الجمعية السابقة - أن أعضاءها بعد أن قبض عليهم: «الحقوا بالذين أوقفوا من مدة وهذا يدل على وجود منظمات وطنية أخرى وعناصر مقاومة ألقى القبض على بعضها قبل اكتشاف هذه الجمعية.

وقد اكتشفت الحكومة أن هذه الجمعية هى المسئولة عن خطابات التهديد التى كانت تصل إلى الخديو ونظاره فتقول الصحيفة: «وعند القبض عليهم وجد فى محل الجمعية مكتوبان كالمكتيب الأولى معنونين إلى المحلات التى كانوا يرسلونها إليهم باسم.... و..... ووجد مع المكتوبين قانون الجمعية تحت الختم».

وأعلنت الصحيفة أن: «عدد المقبوض عليهم الآن بلغ ما بين العشرين والسبعين» وفى العدد التالى مباشرة اعترفت الصحيفة بمدى تأثير هذه الجمعية الوطنية السرية على الرأي العام المصرى فقالت: «أخذت الأفكار العمومية بادية بدء أهمية كبرى لهذه الجمعية وعبرت عنها بعض الألسن بتأويلات لا أصل لها ولا طائل تحتها»<sup>(٢)</sup>.

ثم طمأنت الصحيفة الأهالى فقالت: «هذا وكانت قد تقلقل بعض أفراد الأهالى خشية عاقبة لا تنتظر فنحن نؤمن بالعموم بكل صراحة أنه لا يمكن أن يخشى وقوع الاعتساف بحق أحد فى أيام رئاسة العادل القادر حضره رئيس النظار دولة شريف باشا وما مقصد الحكومة السنية إلا تأديب أرباب المفاسد حفظا لراحة البلاد وطمأنينة العباد».

وبعدها بيومين نشرت الصحيفة أسماء المقبوض عليهم من أعضاء الجمعية السرية وكان من بينهم: «سعد أفندى زغلول»<sup>(٣)</sup>.

وبعد ذلك بثلاثة أيام نشرت الصحيفة نبأ اكتشاف: «الضبطية ٣٧ كيسا من البارود مهربة بنى بولاق ويعتقد أن لذلك علاقة بموضوع الجمعية السرية»<sup>(٤)</sup>.

وقد استمرت «الزمان» فى مناوشة الاحتلال البريطانى - ثم انتقلت إلى المعارضة الصريحة - والاحتجاج على استمراره ولم يكد يمضى عام واحد على الاحتلال حتى طالبت «الزمان» بجلاء الإنجليز وقالت: «لقد مضى على الإنجليز حول فى مصر فاقشعرت الأبدان وارتاعت الأفئدة وبكل يقين تقول أنه لابد من إخراج عساكرهم من وادى النيل»<sup>(٥)</sup>.

(١) الزمان - ٢٠ يونيو سنة ١٨٨٣ مقال بعنوان (محب الوطن، والضبطية).

(٢) الزمان - ٢١ يونيو سنة ١٨٨٣ - مقال بعنوان (الجمعية السرية).

(٣) الزمان - ٢٣ يونيو سنة ١٨٨٣.

ثم أخذت الصحيفة تعدد الأسباب التي تجعل النجلترا ملزمة بالجلءاء عن مصر منها وعود وزرائها بهذا الجلءاء ومنها التزام النجلترا للدول بأن مهمتها مؤقتة ومرهونة بالقضاء على الثورة العراقية.. ومنها أن النجلترا بملكها الشاسع لا تستطيع أن تظمن إلى وجودها بمصر ولا أن تحفظ الأمن فيها بسبب ثورة الأهالى على وجودها.. فتقول الصحيفة: «ولا نحب من بذل النجلترا الملايين فى مصر لتوطيد أركان الراحة.. وإن كانت قد عادت لها فى ماهيات رعتها ودفع المخاطر عن التربة (يقصد قناة السويس).. ونجارتها.. ولكن لو كان ضم مصر إلى النجلترا عبارة عن ضم مدينة واحدة كما يفهم البعض لما حسبت للعواقب الداخلية حسابا عظيما ولكن مصر خديوية متسعة جيدا فيها نحو ١٥ مليونا من الأنفس أكثرهم فى أقطار بعيدة صعبة المسالك محتاجة إلى قوة دائمة لمنع التعديات من الغير والعدوان من الأهالى.. فهذا هو القسم الأول الملجىء لالنجلترا على خروجها من مصر».

ثم تدعو الصحيفة المصريين إلى التضامن والاتحاد حول مطلب الجلءاء: «فيا أيها المصريون هذا زمن الاتحاد ووقت اجتماع الكلمة ويوم نبذ الأغراض والاستمسك بعرى الصداقة والعقيدة الوطنية والمحبة الجنسية.. فغير ذلك لن يخرج الإنجليز».

وبعد عشرة أيام فقط من مطالبة «الزمان» بجلءاء الإنجليز عن مصر.. إذا بها تنشر رسالة مفتوحة إلى الخديو تطلبه بالعمو عن العراقيين المنفيين والمسجونين والمحبوزين فى قراهم فقالت «إن جريدتنا هذه عربية اللسان فإذا كتبنا شيئا فإنما نحن نأخذ بناصر أبناء الوطن والنطق بأفواههم ونشر آرائهم ومآربهم ونقول إننا أتينا بدم العصاة العراقيين والتمسنا لهم العقوبات الزاجرة بما جنت أيديهم ولكننا ما وجدنا ذنبا بلا كفارة وما نخال أنه يعاقب المرء أبد أيامه وعلى ذلك نقول أنه قد حان أوان العفو عنهم وأن للجناب العالى الخديوى الحق المطلق فى العفو عمن يشاء وكلنا طامعون فى رحمته وحلمه وأننا نعلم أن العفو عن أولئك المبعدين لبعده من الحكمة السياسية والفراصة وأنه ليرتب عليه الأثر الحميد فى مستقبل الأيام. فلو حسبنا أن عدد أولئك المحبوز عليهم فى إبعادياتهم ثلثمائة رجل وحسبنا لكل واحد مائة من الصحاب يترجون له الإفراج وأن أصحاب هؤلاء الصحاب يعضدونه اجتمع لنا منهم ألوف مؤلفة تدعوا ببقاء أفنديا وتأييده ونصره»<sup>(١)</sup>.

وتعلن الصحيفة أنه قد بلغها أن الخديو يفكر فى العفو عن العراقيين فعلا ولكنه يؤجله إلى مناسبة ملائمة.. ورغم ذلك فقد استحثته الصحيفة على إصدار القرار فى أسرع وقت: «وقيل لنا أن موالنا الخديو أعزه الله يتوق إلى الصفح عن المذنبين ولكنه يؤخر ذلك إلى حين ونحن نقول أن خير البر عاجله».

فإذا ما علمنا أن هذا المطلب الخير بالعمو عن العراقيين.. يأتى فى وقت لم تنقض فيه سوى عدة أيام على مرور عام واحد على الاحتلال.. وبعد ثلاثة أشهر فقط من اكتشاف الجمعية

(١) الزمان - ١٧ أكتوبر سنة ١٨٨٣ مقال بعنوان (العفو).

السرية.. لأدركنا أن الشعور الوطنى فى مصر ظل قويا ومتاججا رغم وجود الاحتلال ورغم استمرار البطش بالقوى الوطنية.. ولقد بلغت قوة الشعور الوطنى حدا احتاج فيه الحديو إلى العفو عن العربيين أنفسهم كوسيلة لتهدئة هذا الشعور الوطنى الراض للاحتلال.

ولقد ظلت كثير من الصحف الوطنية فى خطتها المناوئة للاحتلال رغم ما كان يصيبها على يد سلطات الاحتلال من مصاعب واضطهاد ورغم أنه كانت تصدر الأوامر للصحف بعدم المساس بالاحتلال<sup>(١)</sup>. وخاصة بعد أن كتبت صحف الوطن ومرآة الشرق والبرهان: «بضعة أسطر نهجت فيها منهج الحدة بالنسبة للدولة البريطانية ومن حيث أن تلك الجرائد تعلم أن مثل هذه الكلمات لا تعتبر شيئا سوى إثارة الخواطر لذا وجب تنبيه الجرائد بلزوم خطة الاعتدال ولتعتبر الجرائد المحلية أن هذا بلاغ عمومى لها فمن تجاوزته عوملت بما تقضى به نظمات المطبوعات فى البلاد»<sup>(٢)</sup>.

وعندما لم تنفذ الصحف الوطنية أوامر الحكومة بالسكوت عن المجترأ واستمرت فى خطتها فى الهجوم على الاحتلال ومطالبته بالجلء.. تعددت لها قرارات التعطيل، والإلغاء ففى ٢٤ أكتوبر سنة ١٨٨٣ صدر قرار بتعطيل الزمان لمدة ٣ شهور وفى ٥ نوفمبر سنة ١٨٨٣ صدر قرار بتعطيل جريدة البرهان نهائيا وفى ١٢ مارس سنة ١٨٨٤ صدر قرار بتعطيل جريدة الوطن نهائيا ثم ظهرت بعد يومين وفى ٩ فبراير صدر قرار بتعطيل جريدة مرآة الشرق لمدة شهر وفى ٢٥ مارس سنة ١٨٨٦ صدر قرار بتعطيل جريدة مرآة الشرق نهائيا وفى ٢٩ أغسطس سنة ١٨٨٦ صدر قرار بتعطيل جريدة الزمان نهائيا وفى ٢ ديسمبر سنة ١٨٨٦ صدر قرار بتعطيل جريدة الوطن لمدة شهر ولم تحو قرارات التعطيل سوى العبارة التقليدية بأن ما ينشر «يشوش الأفكار ويخدش الأذهان»<sup>(٣)</sup>.

ورغم كل هذا الإرهاب الذى واجهته الصحف الوطنية من سلطات الاحتلال فقد ظلت الصحف المصرية تلعب دورها فى إيقاظ الشعور الوطنى عن طريق المعارضة المستمرة لوجود الاحتلال فى مصر... فالمؤيد تنشر خبرا تقول فيه: «إنه صدر قرار عطوفتلى رئيس مجلس النظر أمس بإلغاء جريدة الفلاح إلغاء مؤبدا بسبب ما نشرته فى عددها الأخير من أن الضباط المصريين تواطئوا فى الجيش مع العساكر على ضرب الضباط الإنجليز بالرصاص عند عمل مناورة»<sup>(٤)</sup>.

ولم يكن قد مر على الاحتلال أكثر من عشر سنوات عندما عاد عبدالله النديم إلى إثارة الشعور الوطنى فى مصر ضد الإنجليز.. عندما أخذ يؤكد: «أن أى دولة من دول أوربالم تدخل بلدا شرقيا باسم الإصلاح وبث المدينة وتنادى أول دخولها أنها لاتعرض للدين ولا للعوائد ثم تأخذ فى تغيير الاثنين معا شيئا فشيئا»<sup>(٥)</sup>.

(١) د. سامى عزيز - الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي - ص ٧٧.

(٢) الوقائع المصرية - ١٤ أغسطس سنة ١٨٨٣.

(٣) د. سامى عزيز - الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال البريطانى ص ٨١.

(٤) المؤيد - ٢٨ يونيو سنة ١٨٩١.

(٥) الأستاذ - ١٧ يناير سنة ١٨٩٣ مقال بعنوان (لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا).

ثم أكد فووه بأن ضرب مثلاً بما قامت به إنجلترا في مصر حيث شبهها بـ«بلصوص فقال: وهذه إنجلترا دخلت مصر باستدعاء أهلها وأخذهم بنصرها بـ«بلعة تأييد المركز الخديوى الشريف ثم زيد على تلك العلة علة بث النظام ووضع حكومة ثابتة تشابه حكومات أوروبا.. ومن جهل أعمال إنجلترا في مصر بينها له ليرى أنه حقيق بما يوجه إليها من التكثير.. فقد كان مثلها كمثل لص دخل دار قوم وقال له حملونى ما عندكم من أثاث وحلى وآنية فأخذوا يحملونه ما يريد من غير معارضة فهل إذا دخل عليه البوليس وأهل الدار يحملونه بأيديهم يقول هذا لص كلا بل يقول أنه صاحب الدار وهؤلاء خدمه».

ثم أخذ النديم يعدد أخطاء إنجلترا في مصر.. وتساءل هل أخذت إنجلترا رأي المصريين عندما أنفقت ملايين الجنيهات في المقاولات والأعمال الهندسية من غير أن تسأل عما تفعل فيها فأياكم والسؤال عن مبالغ ستكونون عبيداً مكلفين بسدادها إلي روتشيلد وغيره، وهم الذين أعطوا الالتزامات الوابرة والأرضية ووسعوا نطاق المعاهدات إلى أن ضيقوا عمل كل مصرى.. وهم الذين منعوا المصريين من زراعة الدخان والحشيش لتروج مزارع أوروبا بخراب بيوت هؤلاء الضعفاء.. وهم الذين باعوا مهماتهم وآلاتهم بغير ثمن وربما أعطوا من أخذها شيئاً يستفيد به على نقلها حتى تركوا البلاد محتاجة لمن يحرسها بالعصا والنبوت.. وهم الذين أبعدوا المصريين عن الخدمة وحشروا الغرباء في المصالح حتى أصبح ألوف من المصريين لا يجدون القوات ولا يعرفون لاستخدامهم مرة ثانية سبيلاً.. وهم الذين قللوا لغتهم الوطنية بغرض المكافآت لمن ينبغ في الإنجليزية لنفس لغة القرآن فينسى بها الدين الواقف عقبة أمام أوروبا كما يصرحون بذلك في مجالسهم وأندية شوراها».

وينتهى النديم من سرده للأضرار التي أحدثتها إنجلترا بمصر إلى دعوة المصريين.. صراحة.. للقيام بالاضرابات والمظاهرات للاحتجاج على الاحتلال والمطالبة بحقوقهم المهضومة فهو يقول: «فأى مانع يمنع المصريين من المطالبة بحقوقهم بالتظاهرات الأدبية.. نحن أقل درجة من فعلة الإنجليز والغزاليين الذين تعصبوا لحقوقهم.. وتجمعوا لراحتهم وأذهلوا العالم بأفعالهم التي ما دخلها شغب ولا تغلغلها خلل».

وكان هذا المقال سبباً في إغلاق صحيفة «الأستاذ» ونفى النديم خارج مصر.. ومن العرض السابق يتأكد لنا أن الشعور الوطنى في مصر لم يمت أو يضعف بوقوع الاحتلال.. ولا بهزيمة الثورة العرابية وإنما استمر هذا الشعور الوطنى قائماً.. يزداد يوماً بعد يوم.. يغذيه ما كانت تقوم به سلطات الاحتلال البريطانى من محاولات للتسلل إلى جميع نواحي الحياة في مصر وسلب المصريين ثرواتهم ووظائفهم.. بالإضافة إلى ما يشكله مجرد وجود قوات الاحتلال.. من تحد للشعور الوطنى.

كذلك فإن الاستعراض السابق للصحف المصرية التي صدرت في السنوات الأولى التي أعقبت الاحتلال يؤكد أنه ليس صحيحاً ما يقال بأن مصطفى كامل هو باعث الشعور الوطنى في مصر وموقفه بعد أن ظل في سبات طويل بعد الاحتلال فالشعور الوطنى في مصر كان قائماً

قبل ظهور مصطفى كامل ولم يكن مصطفى كامل نفسه سوى ثمرة لهذا الشعور المتأجج . ويرجع فضل مصطفى كامل بالدرجة الأولى إلى محاولته أن يصل بصوت مصر إلى خارج حدودها.. فى أوروبا وبالذات فى إنجلترا وفرنسا كذلك فإليه يرجع الفضل فى تحويل الشعور الوطنى فى مصر.. من مجرد شعور بالرفض لوجود الاحتلال البريطانى دون أن يرتبط ذلك بعمل منظم لتصفية هذا الوجود الاستعماري.. إلى بلورة هذا الشعور الوطنى الراض للاحتلال فى حركة سياسية منظمة تولت توجيه الشعب المصرى وتوعيته وتعبئته للعمل من أجل الاستقلال ولقد أخذت هذه الحركة السياسية تنمو وتتطور حتى أخذت شكلها النهائى فى تشكيل الأحزاب الوطنية المصرية.

\* \* \*

## الوحدة الوطنية

كانت الدعوة إلى الوحدة الوطنية هي أحد المقومات الأساسية لفكرة الوطنية المصرية.. طوال فترة البحث وصحيح أن التاريخ المصري قد شهد وحده عنصرى الأمة: المسلمين والأقباط عبر مراحل المختلفة منذ مئات السنين.. غير أن تسلل النفوذ الأجنبي الأوربي إلى مصر مع بداية القرن التاسع عشر قد رافقته حملة مكثقة من جانب الصحافة الأوربية لإلصاق تهمة التعصب الدينى بالمصريين. وقد وجدت هذه التهمة قبل الاحتلال إلا أنها اشتدت وعنفت بعده فقد استخدمها الإنجليز كوسيلة للنيل من سمعة مصر والمصريين فى أوربا ولتبرير استمرار احتلالها لمصر بحجة الحفاظ على الأمن وحماية أرواح وممتلكات الأجانب كذلك استخدام الإنجليز تهمة التعصب الدينى كأداة للتفرقة بين عنصرى الأمة ولضرب الوحدة الوطنية القائمة فى مصر.. لشغل الحركة الوطنية فى مصر عن المطالبة بالاستقلال.

لذلك فقد لوحظ حرص الصحف المصرية منذ بداية الاحتلال على نفى تهمة التعصب الدينى ومحاربة هذا التعصب نفسه إن وجد فى بعض الحالات.. ثم التركيز على الدعوة للوحدة الوطنية واتحاد عناصر الأمة المصرية وبالذات المسلمين والأقباط فى جامعة واحدة هى الجامعة الوطنية المصرية.

ويكتب ميخائيل عبد السيد فى «الوطن» معلنا حقيقة ثابتة فى نظره وهى أن «البلاد المريحة من آفة التعصب هى المرتبة إلى ذرى المجد والسعد»<sup>(١)</sup>.

وبالعكس من ذلك فإن البلاد «المتمكن منها هذا الداء هى المنحطة إلى حضيض التأخر والنذالة»<sup>(٢)</sup>.

ثم يفسر هذه الحقيقة شارحا أسبابها: «وسبب ذلك أن الممالك المريحة من هذه الآفة تكون الجدارة الأهلية فيها هى الركن الركين المهم فى التربية والتوظف بخلاف البلاد الممزقة بهذه القرية فتكون فيه المحسوية.. فلا عجب إذا فشا فيه الجهل والظلم والتأخر عن المكارم»<sup>(٣)</sup>.

ولكن موقف صحيفة «الوطن» المؤيد والمدافع عن الوحدة الوطنية تغير كلية بعد وفاة ميخائيل عبد السيد وتولى (لمجدى إبراهيم) مسئولية الصحيفة والذي قادها إلى خط معاكس لخطها القديم وتحول إلى أداة فى يد سلطات الاحتلال البريطانى لتخريب الوحدة الوطنية<sup>(٤)</sup>.

(١) الوطن - ١٤ نوفمبر سنة ١٨٨٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) الوطن - أول يوليو سنة ١٩٠٨ مقال بعنوان (العبرة الكبرى).

وكان طبيعياً أن يتسبب هذا في إثارة الفتنة الطائفية بين المسلمين والأقباط.. فصحيفة الوطن تتحمل مسئولية هذه الفتنة أمام التاريخ<sup>(١)</sup>.

ولكن ما وقع في هذه الفتنة من أحداث أكد لكلا العنصرين المسلمين والأقباط أن الخلاف بينهما لن يكون في صالح أيهما.. وإنما المستفيد الوحيد منه هو الاحتلال الإنجليزي.. لذلك فنحن نسجل لصحيفة الوطن أيضاً -رغم دورها السابق في تخريب الوحدة الوطنية- أنها كانت أول صحيفة قبطية انتهت إلى خطورة نتائج الفتنة الطائفية وبدأت دعوة المصالحة بين عنصرى الأمة.

وابتداء من العدد الصادر من الوطن في ٥ يونيو سنة ١٩١١ بدأت الصحيفة في الحديث صراحة عن ضرورة إنهاء الخلاف الطائفي بين المسلمين والأقباط وطالبت بإصلاح ما بين الصحف القبطية والصحف الإسلامية. ونشرت الوطن عدة رسائل بعث بها إليها مواطنون يحملون الجرائد تبعة قيام الفتنة الطائفية.. ثم نشرت الصحيفة سلسلة من المقالات بقلم (سليم حموى) بعنوان (الاتحاد والوئام بين النصرانية والإسلام) قال فيها الكاتب «إن الدروس الماضية تعلم أبناء الوطن المصرى أن القوة فى الاتحاد وأن الدين لا دخل له فى مثل هذه الخلافات وأن الأمم الراقية فى أحوالها المتقدمة فى حياتها القومية لم يتحقق لها ذلك إلا بتوحيد القلوب على الإخلاص فى الرابطة الوطنية باطنا وظاهراً»<sup>(٢)</sup>.

وفى ٩ يونيو سنة ١٩١١ أعلنت الصحيفة لأول مرة أن الخلاف بين عنصرى الأمة لن يستفيد منه سوى الإنجليز فقالت: «فلا يخدعن القبط بما يلقونه من التشجيع فى لونه ويخدعن المسلمون ما يلقونه من الارتياح عند غورست ورجاله فإن كلا الأمرين يرمى إلى غرض واحد وهو إضعاف المصريين وسحق بعضهم بعضاً سياسياً كما يسحق البوليس من أبنائهم جموع المتظاهرين من أبنائهم أخوة البوليس لمطلب من المطالب الإصلاحية.. ولا تخدعن أحدا وظائف الفراشين ينالها فريق ويحرمها فريق، هذا وبقيننا واعتقادنا أن هذه كانت خدعة احتلالية لا يجب أن تطول وأن الأمة المصرية مستفيدة قريباً بفضل عقلائها ومزيلة كل انقسام وعائده إلى اتحاد أتم وإخاء أكمل»<sup>(٣)</sup>.

(١) فقد بدأت الفتنة الطائفية فى مصر بعدة مقالات نشرتها الوطن «للفريد كامل» عام ١٩٠٨ قال فيها أن القبط فى مصر مظلومون وحقوقهم فى هذا البلد مهضومة ورد عليه الشيخ عبدالعزيز جاديش فى اللواء بعدة مقالات بعنوان «الإسلام غريب فى داره» وبعد مقتل بطرس غالى عام ١٩١٠ زاد الخلاف حدة وفكر الأقباط فى الدعوة إلى مؤتمر عام للأقباط واختاروا له مدينة أسيوط وانعقد هذا المؤتمر وشرح فيه المجتمعون مطالبهم بصراحة تامة وإذ ذاك دعت الجرائد الوطنية وفى مقدمتها (المؤيد) إلى عقد مؤتمر عام للمصريين جميعاً واختاروا له ضاحية مصر الجديدة وأطلقوا عليه (المؤتمر المصرى الأول) وانعقد هذا المؤتمر فى مايو سنة ١٩١١ وكان رياض باشا رئيساً له.

(٢) الوطن - ٥ يونيو سنة ١٩٠٧ مقال بعنوان (الاتحاد والوئام بين النصرانية والإسلام).

(٣) الوطن - ٩ يونيو سنة ١٩١١.



ويمكننا أن نرى في موقف «تادرس شنودة بك المنقبادي» وصحيفته «مصر» وهي ثاني أكبر الصحف القبطية في مصر نفس الموقف الذي سبق ورأيناه بالنسبة لصحيفة (الوطن) فقد بدأ تادرس المنقبادي مدافعا عن الوحدة الوطنية.. حيث كان يرى أن «الوطنية الحققة» لا تتحقق في مصر: «إلا بالتحاد العنصرين المسلم والقبطي»<sup>(١)</sup>. وأن هذا الاتحاد التين لا يجب أن يكون قاصراً فقط على المعاملات المشتركة وعلى المساواة في الأمور الحيوية وعلى الاتفاق الودى القديم بل: «لابد أن يشمل كل الشؤون الخاصة بالوطن والذب عن حقوقه والمدافعة عن حوضه والجهد في سبيل رقيه والمحافظة على أمواله والسعى في جنى خيراته لكلا العنصرين معا أى بدأ بيد أو جنباً بجنب كلاهما متضافر متعاون ليكون غرضهما الوحيد من هذا الاتحاد الرقى وتكون المنفعة الوحيدة من رقيها السعادة والسعادة بنت الجد وأخت المجد».

ولكن سرعان ما تحول موقف صحيفة (مصر) من الوحدة الوطنية.. وصارت تنشر المقالات التى تضر بالوحدة الوطنية<sup>(٢)</sup>.

ثم ازداد موقف مصر عنفا بعد مقتل بطرس غالى أثناء انعقاد المؤتمر القبطى ثم المؤتمر المصرى ولكنها عادت تشارك الوطن فى الدعوة إلى المصالحة الوطنية وباتت ترى «أننا يجب أن ننسى ما فات.. وليكن دستورنا القادم الوحدة والالتئام التام بين المسلمين والأقباط»<sup>(٣)</sup>.

ولقد تنبه «عبدالله النديم» منذ وقت مبكر إلى خطة الاحتلال البريطانى لضرب الوحدة الوطنية فى مصر وزرع بذور الشقاق بين عناصر الوطنية المصرية لذلك نراه يؤكد على مبدأ الوحدة الوطنية فهو يعتقد أن المصريين: «أمة مؤلفة من عرب وترك وجركس وارناؤط وأقباط وسودانيين واسرائيليين وهم بين مسلم ومسيحى ويهودى تضمهم البقعة المباركة الطيبة التربة عاشوا العصور الطويلة مرتبطين ببعضهم محبة ومعاشرة ومساكنة ومعاملة لم يفرق بينهم اختلاف دين ولا تباين جنس ولا تباين لغة»<sup>(٤)</sup>.

ثم يطالب النديم بالمحافظة على وحدة عناصر الأمة وخاصة المسلمين والأقباط وأنهم الإنجليز بصراحة بمحاولة اختلاق الخلاف بين عنصرى الأمة فقال: «قضى المسلمون مع الأقباط ثلاثة عشر قرناً وهم فى اختلاط أهل البيت ومعاملة عشرة واتحاد عائلة.. ما جرى بينهم يوماً واقعة عدوانية مسببة عن اختلاف الدين.. بل بقينا معهم كل هذه المدة نتبادل الوظائف والزيارات وامتلاك الطين والعقار فلم نسع فى شق اجتماعهم وتفريق كلمتهم لتتخذ ذلك ذريعة إلى أمر مطوى فى باطن المستقبل ولهذا لم تجد دولة من الدول العدوانية علة دينية تتدخل بها فى شأن مصر باسم راحة مسيحى والمحافظة على المعابد المقدسة وإعطاء الأقباط حريتهم فى عوائدهم الدينية بل كان

(١) مصر - ٢٣ مارس سنة ١٩٠٦ مقال بعنوان (الوطنية الحققة).

(٢) مصر - ٥ يونيو سنة ١٩٠٦.

(٣) مصر - ١٣ يونيو سنة ١٩١١.

(٤) الأستاذ - ٢٣ مايو سنة ١٨٩٣ - مقال بعنوان (أعداء المصريين).

اتئلاف المسلمين بهم حجاباً بين مصر وبين تلك الدعوة التي تقودها أوربا تغيراً وتضليلاً وفتحاً لباب الحروب بعلل وهمية لا وجود لها في الخارج ولهذا ترى المسلمين متآلمين من شقاق إخوان الوطنية وحل رابطتهم التي مضت عليها القرون الكثيرة وهي أوثق رابطة عقدت عليها القلوب لا الخناجر والكل يهجي ويخمن في الباعث والعافية.. فالمحتل هو العامل والمستفيد من هذا الشقاق.. ولا يد من سد الأذن عن سماع الأصوات الأجنبية التي تحرك النفوس وتظلم القلوب»<sup>(١)</sup>.

ثم طالب النديم بأن يحرص الجميع على الوحدة الوطنية حتى تصير مصر فعلاً للمصريين: «فيا بني مصر ليعد المسلم إلى أخيه المسلم تأليفاً للعصبية الدينية وليرجع الاثنان إلى القبطي والاسرائيلي تأييداً للجامعة الوطنية وليكن المجموع رجلاً واحداً يسعى خلف شيء واحد هو حفظ مصر للمصريين».

ولقد اهتم الشيخ على يوسف في «المؤيد» بالرد على اتهام المصريين بالتعصب الديني من جانب بعض الصحف الأوربية وخاصة الصحف الإنجليزية وضرب مثلاً: بتوبار باشا القبطي الذي وصل إلى رئاسة الوزارة المصرية قبل الاحتلال، وناب عن الخديو في حكم دولة إسلامية وقال: «هذا هو الشعب الذي جلس فيه الوزير نوبار باشا على كرسى الخديوية نائباً عن الحاكم الشرعي للبلاد النائب عن الخديوي الأعظم والحكومة كما تعلمون إسلامية وذلك الوزير مسيحي ولم تسمعوا أن أحداً من المصريين فتح فاه بكلمة بل ربما لم يخطر هذا الخاطر على بال أحد من المسلمين كأنه لم يعد فارق بينهم وبين غيرهم من أبناء دين آخر حتى في الأمور الجوهرية التي للدين فيها حكم قوى وهو من أقوى الحجج على أن المصريين أبعد الشعوب عن التعصب الديني»<sup>(٢)</sup>.

ورغم أن المؤيد دخلت في معركة عنيفة مع الصحف القبطية خلال تفجير أزمة الفتنة الطائفية عام ١٩١٠ و ١٩١١.. إلا أنه من الملاحظ أن الشيخ على يوسف - رغم عنف المعركة وعنّف الاتهامات المتبادلة بين الفريقين.. إلا أنه كان يرفع دائماً.. وفي قلب الخلاف شعار الوحدة الوطنية ويدافع عن هذا الشعار.

وعندما عقد المؤتمر المصري تقدم الشيخ على يوسف إليه بدراسة نشرتها المؤيد وفيها تساءل: «من هم مسلمو مصر؟ ومن هم قبط مصر؟ وقال في إجابته» «ما أكثر من أسلم في مصر من قبط وغير قبط حتى لقد شكوا وإلى مصر في عهد عمر بن عبد العزيز من قلة الجزية لقلة من يدفعها من هؤلاء»<sup>(٣)</sup>.

(١) الأستاذ - ١٧ يناير سنة ١٨٩٣ مقال بعنوان «لو كنتم مثلاً لتعلمتم فعلنا».

(٢) المؤيد - ٢١ فبراير سنة ١٨٩٥ مقال بعنوان (ما لكم لا تنتبهون وماذا باله تبغون»

(٣) المؤيد - ٣٠ أبريل سنة ١٩١١.

ويخلص الشيخ على يوسف من ذلك إلى أن كثيرين من مسلمي مصر يلتقون مع القبط في عنصر واحد وأن «عدداً قليلاً من المسلمين كانوا ينتمون إلى القبائل العربية التي اشتركت في الفتح الإسلامي ثم امتزجت بالشعب المصري ونسيت أصولها العربية».

ثم قال الشيخ على يوسف أن «من خواص مصر التي ميزها الله بها على سائر الأوطان والبلدان تتناسب فيها صور سكانها متى مرت عليهم الأجيال فلا تبقى لهم بعد ذلك إلا الصورة المصرية تحمل الذكاء المصري والأخلاق المصرية الكريمة التي زادها الإسلام جمالاً وتسامحاً».

ثم ينتهي الشيخ على يوسف إلى نتيجة هامة وهي أن عنصري الأمة المصرية قد اتحدا منذ القدم في العادات وسائر المقومات كما اتحدا في اللغة التي تكلموا بها منذ يومئذ وهي اللغة العربية الشريفة.

ولقد كان مصطفى كامل يدرك منذ بداية نشاطه السياسي أن «اتحاد الأمة المصرية» هو السلاح الذي يمكن أن يتحقق عن طريقه استقلال البلاد.. ومما يدل على ذلك أن مصطفى كامل بدأ الدعوة إلى وحدة عنصري الأمة منذ وقت مبكر ففي ٤ يوليو سنة ١٨٩٦ نشر في صحيفة «المؤيد» مقالا بمناسبة الاحتفال بيوم ٤ يوليو عام ١٧٧٦ وهو اليوم الذي أعلنت فيه الولايات المتحدة الأمريكية استقلالها عن إنجلترا.. فطالب المصريين برفع نفس الشعار الذي رفعته الثورة الأمريكية وهو الاتحاد «فأقوى سلاح يسلح به المطالبون بحرية واستقلال بلادهم هو الاتحاد، فهذا السلاح المتين كان سلاح الأمريكيين وغير الأمريكيين من الأمم الحرة ويكون سلاح المصريين إن أرادوا عزاً ورفاهية وحرية واستقلالاً»<sup>(١)</sup>.

ثم استمر مصطفى كامل في دعوته إلى الوحدة الوطنية بعد ذلك على صفحات «اللواء» فقد كان يرى أن أكبر دعائم الوطنية الحقة هي التضامن بين أفراد الأمة الواحدة.. حتى تكون الأمة كعائلة واحدة مرتبطة فيما بينها متحدة الأعضاء متفقة الأهواء.. ولا تنال الأمة المصرية سعادتها المبتغاة ولا يحل المجد المحبوب بديارها إلا إذا اعتقد كل فرد من أفرادها أنه يمثل الأمة بأسرها وأنه متضامن مع بقية الأفراد في الخير والشر»<sup>(٢)</sup>.

والحقيقة أن الاتجاه العام لصحيفة اللواء كان مؤيداً ومدافعاً ومطالباً بالوحدة الوطنية بين عناصر الوطنية المصرية وخاصة بين المسلمين والأقباط وهو عكس ما يشاع عن الحزب الوطني واللواء لسان حاله والمعبّر عن سياسته -الذى كان أكثر القوى الوطنية في مصر - وإدراكاً بأن أحد الخطوط العامة في سياسة الاحتلال البريطاني هو ضرب الوحدة الوطنية وإشعال نار الشقاق بين المسلمين والأقباط وذلك لإضعاف الحركة الوطنية المصرية. وإذا استعرضنا أعداد صحيفة اللواء وبالذات الصادرة خلال الفترة التي تبدأ بعام ١٩٠٨ وهي بداية نشوب الخلاف الطائفي حتى توقف الصحيفة.. وكذلك إذا تتبعنا بقية الصحف التي أصدرها الحزب الوطني كالعالم والشعب

(١) المؤيد - ٤ يوليو سنة ١٨٩٦ مقال بعنوان (يوم ٤ يوليو).

(٢) اللواء - ٢٣ أبريل سنة ١٩٠٠ مقال بعنوان (التضامن الوطني).

أو الصحف التي أصدرها أنصار الحزب الوطنى كضيء الشرق ووادى النيل والدستور والقطر المصرى سوف نجدها جميعا تقف ضد الخلاف الطائفى وتكتب مع الوحدة الوطنية.. وهذا الاتجاه العام يشمل أيضاً الشيخ عبدالعزيز جاويش أحد أقطاب الحزب الوطنى ورئيس تحرير اللواء بعد وفاة مصطفى كامل.. والذي يرى البعض أن كتاباته كانت أحد أسباب إثارة الفتنة الطائفية ولكن الحقيقة التى اتضحت لنا من خلال البحث تشير إلى ما يناقض ذلك فقد كان الشيخ جاويش يعى أكثر من غيره أن الخلاف الطائفى مؤامرة احتلالية لضرب الحركة الوطنية لذلك تراه يكشف عن تلك الحقيقة فيقول: «إننا نقول لعقلاء الأقباط كلمة نرجوهم أن يبتوها فى أذهان بنى دينهم وهى أن الإنجليزى لا يهمه غير نفسه وأمنه ولا يفضل إلا منفعة ومنفعة بلاده فإذا قوى يوماً على بناء هذه الأمة الكريمة استبد بالأمر فيهم واحتكر الوظائف العالية لبنى وطنه فلا يترك لنا غير المراكز المنحطة التى لا يرضى بها إلا صغار النفوس»<sup>(١)</sup>.

وطالما كرر الشيخ جاويش أن المسلمين والأقباط عاشوا منذ الفتح الإسلامى فى سلام وتسامح.. وأن الوظائف لم تكن يوماً سبباً لنزاع بين المسلمين والأقباط.

كما أننا نرجوهم أن يلفتوا معنا أنظار الأقباط عموماً إلى تسامح المسلمين معهم وحسن معاملتهم وأن يذكروهم بالسنين الرغيدة التى قضوها فى ظل الحكومات الإسلامية منذ ترأست على هذه البلاد حتى يومنا هذا وأن يخبروهم بأن المسلمين مع علمهم برجحان عدد الأقباط فى كثير من المصالح لا يغبطونهم على هذه الكثرة.

ثم يطالب الكاتب المصرين: «بالاتفاق والاتحاد أمام العدو المشترك وأن من الحكمة والصواب ترك الصغائر للاهتمام بالكبائر».

ولقد بلغ من حرص الحزب الوطنى على إنهاء الخلاف الطائفى قبل أن يتسع أن كلف «ووصاف» أحد أعضاء اللجنة الإدارية للحزب بالكتابة إلى إخوانه الأقباط فنشر مقالاً فى اللواء تحت عنوان «العنصر الإسلامى والعنصر القبطى» كلمة قبطى منصف فاضل: «وفى هذا المقال، قال: (ووصاف) إن الخلاف بين المسلمين والأقباط دسيسة إنجليزية يراد منها إغيار الصدور لهدم ما بناه الحزب الوطنى من محاربة القائلين بأن فى الوطن أقباطاً ومسلمين ولهدم ما بنته الشبهة القبطية التى مدت يدها ووضعته فى يد إخوانها المسلمين فى جميع المظاهرات الوطنية الأخيرة»<sup>(٢)</sup>.

ثم دعا الكاتب إخوانه الأقباط إلى نبذ الخلاف الطائفى وقال إنه فى حالة وجود مطالب خاصة للأقباط فإن مكان المطالبة بها العمل السياسى وليس العمل الطائفى ودعا الأقباط إلى الاشتراك فى الأحزاب السياسية القائمة والدعوة من خلالها إلى مطالبهم العادلة وفى هذه الحالة فإن إخوانهم المسلمين أعضاء هذه الأحزاب سيقفون معهم يؤيدونهم فى هذه المطالب.. ثم أشار

(١) اللواء - ٤ يونيو سنة ١٩٠٨ مقال بعنوان (المسلمون ومجتمع الإصلاح القبطى).

(٢) اللواء - ٤ يونيو سنة ١٩٠٨ مقال بعنوان (العنصر الإسلامى والعنصر القبطى).

الكاتب إلى موقف الحزب الوطنى وتأيدته لمطالب الأقباط وقضاياهم وأن الحزب ألزم صحيفة اللواء بعدم الرد على الصحف القبطية : «واختم قولى بكلمة أخرى لإخوانى الأقباط فأقول لهم إن الأحزاب السياسية التى تشكلت فى مصر جعلت فى أول مطالبتها الدستور والقاعدة الأساسية للدستور هو العدل المطلق بين أبناء الوطن الواحد فلو انضمتم إلى هذه الأحزاب وعرضتم الأمر بصفحتكم سياسيين وتناقشتم فيه كمبدأ سياسى لوجدتم مساعدة كلية من إخوانكم المسلمين أعضاء هذه الأحزاب وأحسن دليل على ذلك عدل جريدة اللواء وأعضاء الحزب الوطنى فإنهم لم يرضخوا مطلقا بنشر كلمة واحدة من الرسائل العديدة التى وصلت إليهم من بعض الذين أثارت نفوسهم هذه الأعمال من المسلمين الأمر الذى أشكرهم عليه من صميم فؤادى».

ثم يعلن الكاتب باسم اللجنة الإدارية للحزب الوطنى.. إدانة الخلاف الطائفى والتمسك بالوحدة الوطنية فقال: باسمى وباسمكم.. وقد أنابوني عنهم لمخاطبتهم وذلك بعد مناقشة صرحوا لى فيها أن أقول لكم ان كل عنصر من أعضاء الحزب الوطنى جعل من أقدس الواجبات عليه عمل كل ما يستطيع لمحو التفريق بين العنصرين لأن فى ذلك إحياء للوطن وأنه اذا أعطيت الوظائف كلها من ادارية كبرى وصغرى وغير ادارية للأكفاء من الطرفين فهم لا يعارضون فى ذلك ولا يعينهم الأمر مطلقا بل يفرحون له اذ أن فيه خيرا للوطن».

وعندما حاول البعض استغلال حادث مقتل بطرس باشا غالى فى زيادة رقعة الخلاف الطائفى قالت اللواء: «فليرأى المارقون بأنفسهم وبأمتهم فان المأسوف عليه بطرس باشا غالى لا يريد أن يتوجهوا عليه بهذه الأصوات المنكرة لأنه مصرى قبل كل شىء وما كان لجماعة دون أخرى بل كان رجل الجميع الذى أحزن الجميع مصابه فلم يتألم فريق من هذه الأمة إلا والفريق الآخر مشاركته فى شعوره<sup>(١)</sup>»

وخلال انعقاد المؤتمر القبطى.. ثم المؤتمر المصرى بعده.. ظل موقف اللواء مدافعا عن الوحدة الوطنية حيث تكتب الصحيفة افتتاحية العدد الصادر فى ٢٤ أبريل سنة ١٩١١ تقول فيها: «لاريب فى أن الأمة المصرية مؤلفة فى نظر السياسى من عنصر واحد وجنس واحد لا من عنصرين كما توهمت بعض الصحف فاذا ساغ للفقيه أو القسيس أن يقسمها قسمين مسلمين وأقباط فليس للسياسى أن يذهب هذا المذهب تذرعا إلى التفريق ولاسيما فى الوقت الحاضر لأنه بذلك يحارب بلاده ومصالحه الشخصية التى لا استطاع الفصل بينها وبين مصالح البلاد<sup>(٢)</sup>».

فإذا ما انتقلنا إلى الصحف الأخرى التى كان يصدرها الحزب الوطنى أو التى يصدرها أعضاء الحزب أو الموالون والمتعاطفون معه.. فنسجدها جميعا تقف مع الوحدة الوطنية ضد محاولات إثارة الفتنة الطائفية.. «فمحمد الكلزة» «صاحب صحيفة «وادی النيل مثلاً يكتب مطالباً بأن يقتصر الدين على القلب والمعبود.

(١) ٧ مارس سنة ١٩١٠ - مقال بعنوان (المسلمون والقبط).

(٢) اللواء - ٢٤ ابريل سنة ١٩١١.

أما إذا دخل به في غير ذلك.. جاءت الفتنة «للدين موطنان أحدهما في القلب ومن كان في قلبه متسع لدينه نقيا طاهرا من شوائب المدعيات والمفتريات كان في كل دين محترما فاضلا.. وآخر في المعبد فإذا حال الدين في غير هذين المكانين كل فتنة»<sup>(١)</sup>

وطالب «الكلزة» باحترام كل طائفة لدين الأخرى: «فالعقلاء في اختلافهم ديننا كالعائلة في اختلافها رأيا وأن هذا الخلاف لا يجعل تأثيرا ولا يدخل تفريقا مادامت فكرة احترام الآراء سائدة ومادام العقل كبيرا لا يتأثر بما يتأثر به العقل الصغير».

وقال على الجميع أن يدركوا أننا مهما اختلفنا في أدياننا فسوف نظل جميعا مصريين: «ليس في مصر مسلم ولا يهودى ولا نصراني بل الكل مصرى ويجب علينا فهم هذه الحقيقة والبحث فيها لأنه يتوقف عليها نجاة مصر».

وهو يرى أن كلمة (مصرى) تختزل داخلها أى اختلاف في الدين أو الجنسية «يجب إذا سألت واحدا منا عن دينه يقول مصرى.. وإذا سألته عن وطنه يقول مصرى.. وإذا طلب منه خيانة مصر يقول: المصرى لا يخون وطنه ولو ذاق المنون».

ويكتب «أحمد حلمي» صاحب «القطر المصرى» مقالا افتتاحيا عقب تولية بطرس باشا غالى رئاسة الوزراء فيقول «ومعلوم أن الرجل الكبير لا ينظر للأمور من الوجهة الطائفية مهما كان حبه لعشيرته وقومه ويجب أن يكونوا سائدين على غيرهم بل إننا ننظر للأمور من الوجهة العامة متحريرا منقعة الأمة غير مؤثر طائفة على طائفة.. ولهذا نقول بملء الفم أيضا لتبقى وزارة بطرس غالى المصرى الوطنى إذا غض الطرف عن تعصب عشيرته»<sup>(٢)</sup>

ولقد كان الخلاف الطائفي.. امتحانا صعبا «لأحمد لطفى السيد» ولأفكاره عن القومية المصرية التى لا تقوم على الدين بل تقوم على الشعور المشترك بالمصلحة العامة لمجموع السكان في رقعة محدودة من الأرض التى تعرف بالوطن.. كما كان يردد لطفى السيد دائما ولهذا كان اهتمام الجريدة بأمر الفتنة الطائفية فوق اهتمام الصحف الأخرى<sup>(٣)</sup>.

ولعل ذلك كان السبب فى تصدى لطفى السيد للصحف القبطية بنوع من العنف لم يعرف عنه وأنه لم يتخل عن منطق المتزن وأسلوبه بالعنف الرصين فأخذ على الصحف القبطية محاولتها افساد وحدة الأمة ورفض ادعاءات هذه الصحف «مسألة قبطية» وكذلك ماسموه (بالأمة القبطية)<sup>(٤)</sup> فقد كان لطفى السيد يرى «أن مايسمونه بالمسألة القبطية خيالا مبهماً فى أدمغة بعض الصحافيين من الأقباط عز عليهم أن توجد فى العالم مسألة شرقية ومسألة مصرية من غير أن يكون هناك مسألة قبطية».

(١) وادى النيل - ٦ مايو سنة ١٩٠٨ مقال بعنوان (اتحاد الشعوب فى مصر)

(٢) القطر المصرى - ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٠٨ - مقال بعنوان (تسقط وزارة بطرس غالى القبطى الاحتلالى.. ولتبقى وزارة بطرس غالى المصرى الوطنى)

(٣) د. حسين فوزى النجار - الجريدة تاريخ وفن - ص ٢٣٣.

(٤) الجريدة ٨ مارس سنة ١٩١١ مقال بعنوان الحركة القبطية - نظرة عامة)

أما تسمية طائفة الأقباط أو العنصر القبطي بالأمة القبطية.. فليس لهذه التسمية أيضا مدلول في الوجود الخارجي لأن العرف لا يسمح باطلاق لفظ أمة إلا على قوم مستقلين استقلالاً اجتماعياً في وطن محدود».

ثم اشتد لطفى السيد فى حملته.. فانهم الأقباط بالتعصب وبأنهم يودون التحكم فى الأكثرية: «ليس من الشذوذ أن نرى فرداً أو طائفة يطالب الأمة بحقوقه ولكن الشذوذ أن نرى طائفة تطمح فى اضطهاد الأكثرية<sup>(١)</sup>»..

ثم حذر الأقباط من خطر الاستعانة بالانجليز لضرب الوحدة الوطنية، «ومن الضرر البين أن تتخذ الأقلية سواعد من الانجليز لتفكيك الروابط بين عناصر المصريين<sup>(٢)</sup>».

ثم شارك فى الدعوة لمؤتمر مصرى يصلح مافسد بين عنصرى الأمة: «من أجل ذلك كانت الدعوة إلى مؤتمر مصرى يصلح مافسد بين الأقلية وبين الأكثرية.. تدرس فيه المسائل بالانصاف على قاعدة من التسامح فإن التسامح ألزم ما يكون بين الأقباط وبين المسلمين ليعيشوا كما كانوا مصريين».

ولقد لعب لطفى السيد دوراً هاماً فى النجاح المؤتمر المصرى (٢٩ أبريل سنة ١٩١١) الذى تولى رئاسته مصطفى رياض باشا وتولى أحمد لطفى السيد سكرتارية المؤتمر.. وقام أيضاً بتلاوة تقرير اللجنة للمؤتمر الذى كان من عمل لطفى السيد كما يبدو فى أسلوبه وروحه<sup>(٣)</sup>.

ولقد كانت الفكرة السائدة فى التقرير هى تأكيد الوحدة الوطنية وتدعيم الجامعة الوطنية والتوفيق بين العناصر التى تتألف منها الوطنية المصرية التى تصدع بناؤها بعقد المؤتمر القبطى. وقال إن الدين ليس هو الأساس الذى تقوم عليه الأكثرية والأقلية ولكنه المذاهب السياسية.. والأمة كائن سياسى يتألف من عناصر سياسية فأى مذهب من المذاهب السياسية اعتنقه أفراد أكثر عدداً وأثراً كان أكثرية وكان الآخر أقلية وعلى هذا يمكن فهم الأكثرية والأقلية فى كل أمة.. وليس للدين دخل فى ذلك<sup>(٤)</sup>.

وقد وقف عبدالقادر حمزة فى صحيفة «الأهالى» موقفاً معتدلاً من الخلاف الطائفى.. وكان دائم الدعوة إلى الوحدة الوطنية واتحاد عناصر الأمة.. فهو يكتب والأزمة فى قمة اشتعالها يدعو زملاءه الصحفيين والكتاب من الفريقين ألا ينسوا أنهم جميعاً أبناء أمة واحدة وأن ما ينفع فريقاً.. ينفع الفريق الآخر.. وما يضر فريقاً.. يضر الفريق الآخر بالضرورة: «لابد أن نضع نصب أعيننا فى كل مانكتب ونقول أننا أمة واحدة ذات وطن واحد ولغة واحدة وأصل واحد وأن ما ينفع أو يضر فريقاً منا ينفع أو يضر لا محالة الفريق الآخر<sup>(٥)</sup>».

(١) الجريدة - ١١ مارس سنة ١٩١١ مقال بعنوان (الحركة القبطية - منصب الأقلية)

(٢) الجريدة - ٢٣ مارس سنة ١٩١١ مقال بعنوان (شىء جديد)

(٣) د. حسين فوزى النجار - الجريدة تاريخ وفن - ص ٢٣٣.

(٤) الجريدة - ٢٩ أبريل سنة ١٩١١ - ومجموعة أعمال المؤتمر المصرى

(٥) الأهالى - ٤ يناير سنة ١٩١١ مقال بعنوان (نحن وإخواننا الأقباط).

وطالب الفريقين بالعودة إلى الاتحاد والتضامن: «فأولى أن نتضامن وأن نعمل بالرفق حتى نكون يدا واحدة تتلقى الخير كله أو تدفع الضرير كله».

وكان عبدالقادر حمزة هو الصحفي الوحيد «من كتاب الصحف الاسلامية الذين حضروا جلسات المؤتمر القبطي<sup>(١)</sup>». وكان يخرج من المؤتمر ليكتب بما يضيق من شقة الخلاف بين الفريقين فيقول مثلاً «أعجبني من خطباء المؤتمر القبطي أنهم ضربوا في أقوالهم على نعمة (اتحاد المسلمين والأقباط) وأعجبني على الأخص تصفيق السامعين لكل كلمة أو إشارة أريد بها وجوب هذا الاتحاد ولا ريب في أن المسلمين أول المرشحين بهذه النعمة».

وعندما أعلن عن التفكير في عقد مؤتمر اسلامي يرد على المؤتمر القبطي كتب عبدالقادر حمزة يطالب عقلاء الفريقين بالعمل على انتهاء الخلاف: «ماذا بعد مقابلة المؤتمر القبطي بمؤتمر اسلامي؟ وبأى عين ينظر جهلاء الفريقين إلى كل من المؤتمرين؟ وأية نتيجة ينتجها وقوف المؤتمرين وجها لوجه؟ لينظر العقلاء في ذلك قليلا ولينظر الذين يدعون أنهم مصريون وأن لهم وطنًا يغارون عليه ويدفعون عنه السوء<sup>(٢)</sup>».

ويبدو أن مرارة التجربة التي عاشها المصريون مع الفتنة الطائفية عام ١٩١٠ و ١٩١١ كانت درساً بليغاً أدرکوا بعده قيمة الوحدة الوطنية وما يمكن أن يأتي به الخلاف الطائفي من أضرار لكل الأطراف لذلك لم يكن غريباً أن تكون أبرز مميزات ثورة ١٩١٩ هي تلك الدرجة العالية من الوحدة الوطنية التي ربطت بين عنصرى الأمة، المسلمين والأقباط.. ورغم ذلك يمكننا أن نضع أيدينا على ثلاثة عوامل رئيسية يمكن أن تفسر خلو ثورة ١٩١٩ من أى خلاف طائفي.

**أولاً:** نضج الحركة الوطنية.. فقد كان الاستقلال الذى طالب به زعماء ثورة ١٩١٩ استقلالا سياسيا كاملا مستندا إلى الوعي القومي فى أقوى مظاهره وليس إلى الوعي الدينى وكان استقلالا لا صلة له بدولة الخلافة أو تأثير بها أو انفعال معها لذلك كان طبيعيا أن يكون طابع الثورة هو تقوية الكيان الوطنى وإظهار الشعب بمظهر الوحدة السياسية المتكاملة فكان الإخاء بين الهلال والصليب وكان الاتحاد المطلق بين عنصرى الأمة.

**ثانياً:** رغم أن عددا من الأقباط قد شارك فى الحركة الوطنية أيام مصطفى كامل مثل ويصا واصف الذى كان عضوا فى اللجنة الادارية للحزب الوطنى كذلك فقد كان مرقص حنا مقرباً من مصطفى كامل.. إلا أن دعوة مصطفى كامل التى كانت مشوبة بصفة دينية لم تجذب

(٢) الأهالى - ١٤ مارس سنة ١٩١١.

(٣) الأهالى - ٥ مارس ١٩١١ مقال بعنوان (إلى أين تسير).



إليها أكثرية الأقباط<sup>(١)</sup>.. بعكس سعد زغلول الذى اهتم بضم بعض الممثلين للطائفة القبطية إلى الوفد المصرى فى محاولة لتوحيد عنصرى الأمة وخلق الطريق فى وجه الدسائس الانجليزية<sup>(٢)</sup> فضم سينوت بك حنا وجورج خياط بك وواصف غالى باشا<sup>(٣)</sup> وكان كبار الأقباط من زعماء الثورة بل وجد ماهو أبلغ وأعظم فقد كانوا المقربين عند زعيم الثورة فى كثير من الأحيان<sup>(٤)</sup>.

ثالثا: ولقد ساعدت أحداث الثورة فى تأكيد الوحدة الوطنية واتحاد عنصرى الأمة فقد تأخى الجميع بعد أن ألف بينهم الدم المسفوح برصاص الانجليز واتخذوا لهم علما فى وسطه هلال أبدلت نجومه بصلبان وأخذ القساوسة من الأقباط يخطبون على منابر المساجد حتى الجامع الأزهر وأخذ مشايخ المسلمين يخطبون أمام مذابح الكنائس حتى الكنيسة المرقسية الكبرى بل إن السيدات المسيحيات أيضا دخلن المسجد وألقين الخطب كما حدث فى يوم ٢٤ أبريل عندما استقبلت لجنة من السيدات المسلمات المجتمعات بمسجد السيدة زينب وفداً من السيدات القبطيات اللاتى أتين لشكرهن على التهتة بعيد الفصح فقد ألقى الخطب هناك من المسلمات والمسيحيات مما لم يسبق له نظير<sup>(٥)</sup>.

وعندما حاول اللورد إللنبى ضرب الوحدة الوطنية بمحاولة تأليف وزارة برئاسة يوسف وهبه باشا وهو قبطى أظهرت طائفة الأقباط استياء شديدا واجتمع أكثر من أربعة آلاف من كبراء الأقباط فى ٢١ نوفمبر سنة ١٩١٩ وكتبوا احتجاجا شديدا على اشاعة قبول يوسف وهبه رئاسة الوزارة وقالوا ان ذلك يعد مخالفة لما أجمعت عليه الأمة<sup>(٦)</sup>.

وعندما قامت السلطة العسكرية البريطانية فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩١٩ أيضا باعتقال محمود باشا سليمان وابراهيم سعيد باشا وكيل الوفد ورحلتهما إلى بلديتهما عمدا عبدالرحمن فهمى بعد ذلك إلى اختيار قبطى (مرقص حنا) فى مركز الوكيل ليتراأس على لجنة الوفد المركزية مدة إبعاد محمود سليمان باشا وابراهيم سعيد باشا<sup>(٧)</sup>.

وهكذا أحبطت الخطة الانجليزية لايقاع الفتنة بين المسلمين والأقباط.. وغنى عن الذكر أن الفضل الأول فى احباط هذه المحاولة وغيرها من محاولات الوقعة بين عنصرى الأمة.. أن مثل هذه المحاولات والمؤتمرات عجزت عن التفتس فى جو الوحدة الوطنية الطاغى الذى كانت تعمل فيه الحركة الوطنية فى ذلك الوقت.

(١) محمد زكى عبدالقادر - محنة الدستور - ص ٣٧.

(٢) د. عبدالعظيم رمضان - تطور الحركة الوطنية - ص ٩٧ - ٩٨.

(٣) عباس العقاد - سعد زغلول - سيرة ونجدة ص ٢٥٥ - ٢٥٦.

(٤) محمد زكى عبدالقادر - محنة الدستور - ص ٣٧.

(٥) أحمد شفيق - حوليات مصر السياسية - ص ٢٦٧ - ٣٣٩ ود. عبدالعظيم رمضان تطور الحركة الوطنية - ص ١٣٢.

(٦) عبدالرحمن الرافعى - ثورة ١٩١٩ - الجزء الثانى - ص ٨٢.

(٧) د. عبدالعظيم رمضان - تطور الحركة الوطنية - ص ٢٢٨ - ٢٢٩.

ويلاحظ مما سبق أن ثمة تغييرا جذريا قد طرأ على مفهوم الوحدة الوطنية مع ثورة ١٩١٩.. حيث صارت الوحدة الوطنية تعنى اتحاد القوى السياسية العاملة فى الحركة الوطنية من أجل الحصول على الاستقلال.. بمعنى أن النضج الوطنى قد تجاوز مرحلة الدعوة إلى تأكيد وحدة عنصرى الأمة.. بعد أن فشلت مؤامرات الاحتلال فى اذكاء التفرقة بينهما.

ولقد اشتدت الدعوة إلى الوحدة الوطنية بمفهومها السياسى بعد أن بدأ الشقاق داخل الوفد.. وانسحاب بعض القوى السياسية منه.. وتشكيلها لحزب الأحرار الدستوريين.

وكان أبرز دعاة الوحدة الوطنية بهذا المفهوم الجديد. «أمين الرافعى» الذى جند «صحيفة الأخبار» لدعوة الشعب المصرى إلى ما كان يسميه (بالاتحاد المقدس) وكان يرى أن الوطن: «يعتبر من أكبر الجنايات عليه وعلى مستقبله سعى أى شخص فى المساس بالاتحاد المقدس وتشويه جمال الحركة المباركة التى سارت إلى الآن سيرا حسنا أعجب به العالم بأسره»<sup>(١)</sup> وهو يعتقد أن النجاح الذى حققته ثورة ١٩١٩ إنما يرجع الى وحدة الأمة المصرية فقال:

«لقد ضربنا للعالم الأمثلة العديدة على رقى قوميتنا السياسية وأتينا بجنود من الأدلة على أن الوطنية المصرية لانقل عن وطنية أى شعب آخر من الشعوب المتحضرة حتى أصبح اسم مصر لا يذكر إلا بالتعظيم والعطف وبفضل هذه الوطنية تقدمت قضيتنا تقدما باهرا فى زمن قصير.. فالأمة المصرية لا تقبل بعد الآن أن ترجع إلى الوراء خطوة واحدة ولا يمكن أن تتأثر بعوامل التفريق الضارة».

ثم طالب الشعب المصرى بالاتفاف حول الوفد المصرى الذى يعتبر مظهر وحدة الوطنية المصرية: لقد كسبنا باتحادنا فيجب أن نبقى على هذا الاتحاد ويجب أن نظل ملتفين حول الوفد ندعو له بالتوفيق ويجب أن يسرى إلى يقيننا أن لحاج الوفد متوقف على احتفاظنا بهذا الاتحاد».

وعندما اختلف أمين الرافعى مع سعد زغلول فى بداية عام ١٩٢١ حول بعض أسس المفاوضة مع المجلس لم يمنعه ذلك الخلاف من التمسك بالوحدة الوطنية والاتفاف حول الوفد. ولكنه قال إن ذلك لا يعنى أن تمنع أى فرد من الاحتفاظ برأيه المخالف للوفد ولقيادته.. فالخلاف فى رأى لا يمس أبدا وحدة الأمة فى المطالبة بالاستقلال: «إن احتفاظنا برأينا وعدم موافقتنا على مآذبه إليه الوفد أخيرا لا يمنعنا ولا يمكن أن يمنعنا عن ضرورة الدعوة إلى الاتفاف حول الوفد والاحتفاظ بوحدة فى هذا الظرف العصيب»<sup>(٢)</sup>.

وعندما اشتد الخلاف بين سعد باشا زغلول وعدلى باشا يكن أخذت الأهرام قيادات الدعوة إلى نبذ الخلاف والاتحاد بين القوى السياسية فى الأمة وطالبت بالاسراع بالمصالحة بين سعد باشا وعدلى باشا: «يقيننا أن مصدر القوة الوحيد فى هذه البلاد هو الاتحاد»<sup>(٣)</sup>.

(١) الأخبار - ٢٥ يونيو سنة ١٩٣٠ مقال بعنوان - القضية المصرية واتحاد الأمة.

(٢) الأخبار - ١٤ يناير ١٩٢١ - مقال بعنوان (المسألة المصرية بعد عامين).

(٣) الأهرام - ٢١ ديسمبر سنة ١٩٢٣ مقال بعنوان (يقيننا).

وخاطبت سعد باشا قائلة: «ولا ننسى أن نذكر هنا الزعيم الكبير المحبوب سعد باشا الذى كان واسطة الاتحاد فى فاتحة أعماله والذى امتدح هذا الاتحاد فى رسالته إلى الأمة وشد العزائم بتلك الرسائل المؤثرة الشائعة وإذا كانت أرجاء البلاد تتجاوب الآن بصوته فما أعذب ذلك الصوت اليوم نسمعه فى الآذان فيعيد كل شىء إلى قراره ونلك اليد ينسبط منها نور الإخاء فلا نسمع إلا صوتا واحدا هو ألد الأصوات كذلك نتجه بآمالنا إلى وزرائنا الكرام فيعمل الجميع فى ما هو خير البلاد والعباد».

وبعد حادث مقتل سردار الجيش البريطانى واستقالة سعد باشا زغلول من رئاسة الوزارة.. تقدم الأمير عمر طوسون يدعو الأحزاب المصرية إلى الاتحاد وتناسى الخلافات والمنازعات الحزبية لمواجهة آثار الحادث.. وقد قبل كل من الحزب الوطنى.. والأحرار الدستوريين دعوة الأمير عمر طوسون.. بينما رفضها الوفد.. ولم يهتم بالرد عليها إيمانا منه بأن الشعب كله متحد وراء الوفد وقيادة سعد باشا زغلول.

وقاد محمد حسين هيكل حملة قوية على الوفد وعلى سعد باشا زغلول متهما الوفد وقيادته بأنهما يعملان ضد الوحدة الوطنية فقال : ولنا نحن الذين يفترض أن يجيء من ناحيتهم عمل يقيم العراقيل فى سبيل الاتحاد وقد دعونا إليه من قبل المرة بعد المرة - وليس كذلك غيرنا من غير السعديين وإنما هو سعد باشا وطغمته معه الذى رفض الاتحاد وقضى على الخير العام بما أصبح متغلغلا فى روحه وفى جسده من عداوة للاتحاد وميل غريزى إلى الشقاق لأنه يرى فى الاتحاد قضاء على شعوبته ولأنه يرى فى الشقاق وسيلة للهتاف باسمه والتظاهر لحياته.. ويظهر أن الرجل وقد بلغ من السن ما بلغ أضحى يحس أن الهتاف والتظاهر لازمتان من لازمات وجوده»<sup>(١)</sup>.

وهكذا استغلت صحيفة «السياسة» دعوة الاتحاد فى غير هدفها.. وحولتها إلى سلاح تضرع به الوفد وقيادته. وعلى كل فإن هذه الدعوة إلى الاتحاد بين الأحزاب سرعان ما تبخرت بعد أيام قليلة من ظهورها عندما فتح باب الترشيح لانتخاب ثانى مجلس نيابى فى مصر - بعد أن تم حل المجلس النيابى الأول عقب مقتل السردار وبدأت الأحزاب تطعن كل منها فى الأخرى.. جريا وراء الفوز بمقاعد المجلس.. وهى اللعبة التى أخذت تتكرر طوال التجربة النيابية فى مصر حتى عام ١٩٥٢. وسوف نعرض لهذا كله بتفصيل فى الباب التالى الذى خصصناه للحديث عن الفكر الديمقراطى فى الصحافة المصرية.

\* \* \*

(١) السياسة - ١٤ ديسمبر سنة ١٩٢٤ مقال بعنوان (لناسبة دعوة الأمير الجليل إلى الاتحاد).

## بعث المجد المصرى القديم

كان من الطبيعى فى بلد لها ما لمصر من تاريخ عريق فى المدنية والحضارة يرجع إلى أكثر من خمسة آلاف عام أن تكون محاولة بعث هذه المدنية وإحياء تلك الحضارة ركنا أساسيا من أركان الفكرة الوطنية المصرية.

والواقع أن الدعوة لبعث المجد المصرى القديم كانت تستهدف فى تلك الفترة هدفين رئيسين:

**الهدف الأول:** اثبات وحدة التاريخ المصرى بما يؤكد أن البلد الذى كان مهدا لأول حضارة فى التاريخ ليس يبعد عليه أن يعود ليلعب دوره فى الحضارة الانسانية من جديد.

**الهدف الثانى:** أن نشر الوعى بين المصريين بمجدهم القديم وبدورهم القيادى فى خلق الحضارة والتمدن الانسانى ساعد فى نشر الوعى القومى وعمل على ازدياد تماسك عناصر الوطنية المصرية وبالذات بين المسلمين والأقباط وكان من شأنه أيضا أن يدفع المصريين إلى محاولة التشبه بأجدادهم القدامى والعمل على النهضة الشاملة بمصر فى شتى المجالات حتى يصيروا جديرين بأن يكونوا ورثة بناء أول حضارة فى التاريخ.

ولقد ساعد على ذلك أن مصر شهدت فى فترة البحث عملية واسعة للتنقيب فى آثار مصر القديمة، فقد أمكن الوصول قبل الاحتلال بفترة ليست ببعيدة على سر الكتابة الهيروغليفية مما كشف بالتالى عن صفحات باهرة من تاريخ مصر الفرعونى<sup>(١)</sup>. كذلك شهدت السنوات الأولى من هذا القرن الكشف عن كثير من خفايا الآثار المصرية فضلا عن اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون وعلم الاكتشاف الذى أثار ضجة عالمية ولقت الأنظار إلى عراقية الحضارة المصرية القديمة وبالتالي كثر الحديث عن مصر ودورها فى تطور الحضارة الانسانية لذلك لم يكن غريبا أن يكتب «تادرس المنقبادى» فى افتتاحية العدد الأول من صحيفة (مصر) يقول أنه اختار اسم (مصر) ليكون عنوانا لصحيفته لأن مصر هى: البلد الأمين والبقعة المباركة والأرض الطيبة.. بل مهد التمدن ومهبط العلم ودوحة الحكمة والفضائل خطتها يد جدنا الأكبر (مصرام) ابن حام بن نوح من عهد الطوفان وظلت حافظة اسمه حتى الآن وقد شيدت أركان عمارتها ووسعت نطاق نفوذها وصولتها حكمة أولاده المصريين الأقدمين الذين نشروا راية آدابهم ومعارفهم فوق أطراف المسكونة وأكتاف المعمورة قبل أن تقوم أمة أخرى تضارعهم فى القوة والاقتدار وهذه آثارهم مخلدة فى الأرض شاهدة بما كان لهم من شدة القوة وعظيم الاختيار.. أولئك هم أبائنا منهم ولدنا وإلهم نسبنا وهذه هى بلادهم التى نشأنا فى أرجائها وعشنا تحت سمائها وتنسمننا طيب شذاها وتعلقنا بحبها وهواها وما كنا نعرف لنا وطننا سواها بل هى أمنا التى نهواها وربينا فى حماها وجبلنا على محبة تقدمها وارتقاها»<sup>(٢)</sup>.

(١) صلاح عيسى - الثورة العربية - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت سنة ١٩٧٢ - ص ٢٢٠.

(٢) مصر - ٢٢ نوفمبر سنة ١٨٩٥ مقال بعنوان (لم سميت الجريدة مصر).

وكانت الرغبة في احياء المجد المصرى القديم وراء اهتمام الصحف المصرية بترجمة الكتب التى بدأت تظهر فى أوروبا عن تاريخ مصر والحضارة المصرية ومثال ذلك قيام صحيفة «الآداب» بنشر ترجمة لكتاب فرنسى عن تاريخ مصر قام بترجمته (أحمد أفندى حسن) وقد قالت الصحيفة فى تقديمها للكتاب إن هدفها من ترجمته ونشره هو «مباهاة ومفاخرة بمصر والزما للأمم بالاعتراف بفضل المصريين سلفا وخلفا»<sup>(١)</sup>.

واستخدم مصطفى كامل التاريخ المصرى ليثبت به أن مصر.. كانت دائما مقبرة لكل الأمم الطاغية فقال: «لقد كانت مصر فى كل أطوار حياتها مقبرة للأمم الطاغية والدول الباغية الظالمة وأن الممالك العظمى التى انتهت إليها من سالف الزمان القوة والعظمة والسلطان ما أن دخلت مصر واستولت عليها حتى أدرکها الهرم وقبرت على شواطئ النيل.. ولهذا نرى بعض المؤرخين يقول: متى آن لدولة أن تزول دخلت مصر واستبدت فى أهلها.. وهذا مصداق لقول رسولنا الكريم «مصر جنة الله فى أرضه من أرادها بسوء قصمه الله»<sup>(٢)</sup>.

وفى «الجريدة» أعلن «لطفى السيد» أن من حق المصرى أن يفخر بتاريخه القديم: «فمن المحقق أن المصرى تأخذ هزة الارتياح ويلعب به شعور العزة أمام عظمة المصريين القدماء ويكون حظه من شعور الفخر أكثر من ذلك لو أنه عالم بالحوادث المصرية المكتوبة على حيطان المعابد والمحارب وواجهات القبور وقارىء ترجمة تلك النقوش فى أشعار الميسو ماسيرو وماريت وناقيل ومحاضرات كمال بك اذ يعلم أن مصر كانت من العزة والقوة فى ذلك الزمان الغابر على قدر أن الملك يصل اليه سفراء الممالك الأخرى راكعين ساجدين يرغمون أنوفهم بالتراب ويجأرون له بالدعاء يقطع أصواتهم خوف الملك وجلالته»<sup>(٣)</sup>.

ثم استخدم لطفى السيد الكثير مما عرف فى ذلك الوقت من تاريخ المصريين القدماء فى تصحيح بعض المعلومات الخاطئة والشائعة عن المصريين فقال: «وإن المصريين لم يكونوا على ما يصفهم الأجانب - مخلصين إلى السكينة، كارهين السياحة والتنقل، قانعين من الرزق بما تحت متناول اليد.. بل كانوا أمة جد واستعمار تجرى فى استعمارها على أحدث الطرق الأوروبية الآن اذ يخرج المسلمون إلى الأقطار المختلفة فى أفريقيا يجوسون خلالها حاملين الى أهله العطر ذا الرائحة النفاذة والأقمشة الزاهية الألوان وغير ذلك مما يحمله الأوروبيون فى هذا العصر إلى سكان تلك الأقطار الشائعة فى أفريقيا ولم تكن أغراض المصريين من فن السياحة قاصرة على الربح التجارى.. بل كان أولئك السياح يكسبون بلادهم نفس الفوائد التى جلبتها المنجلا من وراء الشركة التجارية الانجليزية فى بلاد الهند قبل فتحها وسياحات سيسيل رود وما كسبته فرنسا من بعثاتها فى الكونغو والسودان اذ كان السياح المصريون يدعون لاستماع أخبار مصر والمصريين

(١) الآداب - ١٠ مارس ١٨٨٧

(٢) اللواء - ٦ يناير سنة ١٩٠٠ بمقال بعنوان (مقبرة الأمم الطاغية) .

(٣) الجريدة - ٨ ديسمبر سنة ٩٠٢ مقال بعنوان (الآثار القديمة).

ودينهم ولغتهم وبيشون عظمة ملكهم وثروة بلادهم حتى يصوروا مصر فى أذهان القبائل بصورتها القوية القاهرة التى لا يعجزها تحقيق شىء مما تريده فإذا رجع أولئك المرسلون إلى مصر ووصفوا تلك البلاد وأفاضوا للحكومة بكل ماوصلوا إليه من المعلومات لتسيير الجنود المصرية على أثر ذلك تفتح البلاد النائية التى صار فتحها بفضل معلومات السياح المصريين أمرا هينا.

والغريب أن لطفى السيد رأى فى كون مصر كانت بلدا استعمارييا سببا للتفاخر رغم ما كانت تعانيه مصر فى ذلك الوقت من سيئات الاستعمار.. ولعل ادراكه لذلك جعله يدافع عن الاستعمار المصرى حيث يرى أن المصريين كانوا أسمح الأمم المغلوبة دينها وعاداتها وشكل حكومتها ويتركونها حرة فى بلادها مقابل الاعتراف بالسيادة المصرية.

ثم يستخدم لطفى السيد كل هذه الحقائق الجديدة التى كشفت عن صفحات مجهولة من التاريخ المصرى القديم فى رفع الروح المعنوية للمصريين ولتأكيد استعدادهم الطبيعى للاستقلال فقال: «ولاشك أن علم المصرى الحاضر بهذه الحقائق المسطورة فى نحو القرن الخامس والثلاثين قبل الميلاد يخرج من نفسه القنوط من ارتقاء مصر ويجعل آراء الذين يظنون بمصر عدم الاستعداد الطبيعى للاستقلال والسيادة بالسخافة بمكان».

وعندما اكتشف اللورد كارادون مقبرة توت عنخ آمون اهتم الدكتور محمد حسين هيكل رئيس تحرير صحيفة السياسة اليومية بهذا الاكتشاف وغيره من الاكتشافات الأثرية وقام برحلة إلى الأقصر وزار مقبرة توت عنخ آمون ووادى الملوك وكتب عدة مقالات يصف فيها هذه الرحلة وانطباعاته بين الآثار المصرية القديمة<sup>(١)</sup>.

وفى صحيفة «السياسة» أيضا طالب الدكتور طه حسين بالاهتمام: «بتعلم الشباب المصرى علم الآثار حتى يساهم الشباب المصرى فى اكتشاف آثار بلاده والمحافظة عليها»<sup>(٢)</sup>.

وبمناسبة اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون كتب أيضا «ابراهيم عبدالقادر المازنى» فى (الأخبار) يشيد بالحضارة المصرية القديمة فقال: «إن ههنا نشأت مدينة عظيمة قبل مولد المسيح عليه السلام بثلاثة آلاف عام وإن منها بقايا تربط الحاضرين بمن عاشوا فى تلك القرون الغابرة أوثق رباط وأمتة»<sup>(٣)</sup>.

ثم قال إن هذه الآثار ترفع قائمة المصرى على غيره: «يقف المرء بين آثار هؤلاء الملوك الأمجاد فيحس كأن قامته طالت واعتدلت ويخامر من العجب والزهو والكبرياء ما يجعله يستخف بأى من الحاضرين من أبناء المدينة الحالية الذين يشمخون بأنوفهم علينا ويشعر كأنما ساغت فى نفسه حياة جديدة وقوة مستمدة من عظمة بلاده فى ذلك العصر الموهل فى القدم وهو احساس طبيعى ومعقول».

(١) السياسة - ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٢٢ مقال بعنوان (آثار وادى الملوك من القاهرة للأقصر و ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٢٢ مقال بعنوان (الفنون والآثار).

(٢) الأخبار - ٢ يناير سنة ١٩٢٣ مقال بعنوان (نحن ومدنية أجدادنا.. هذا ميراثنا وحدنا).

(٣) الأخبار - ٢ يناير سنة ١٩٢٣ مقال بعنوان (نحن ومدنية أجدادنا هذا ميراثنا وحدنا).

وقال المازنى إن هذه الحضارة المصرية العظيمة التى كشفت عنها الآثار المصرية تحمل كل مصرى مسئولية جسيمة للارتفاع إلى مستوى أجداده القدامى، «على الشعب المصرى واجب الشعور بأنه مسئول عن مجد آبائه وسمعتهم وأنه مطالب بأن لا يلوث صفحتهم اذا عجز أن يضيف إليها ويزيد عليها فما ظنك باحساس من الفراعنة أجداده؟ أى فخر يستكثر منه؟ أى فضاء يسع احساسه الذى يريد أن يفيض على العالم والذى يعلو في صدره حتى ليعانى الألم من فرط الحفقان وشدة الوجيب».

وقد اهتم «الأهرام» أيضا باكتشاف مقبرة توت عنخ آمون فنشرت مقالا افتتاحيا أشارت فيه إلى اهتمام العالم كله بالآثار المصرية وكنوزها القديمة التى تنكشف يوما بعد يوم فقالت: «تلك آثارا تدل علينا.. وأنه لتأخذ المصرى فى انغام مبانيهم القريبة كالأعمدة وتيجانها والدرجات المحفورة فى الجبال»<sup>(١)</sup>.

ثم كتب (أنطون ذكرى) مقالا ثانيا عن (الطب فى عهد الفراعنة) أثبت فيه أن مصر: «كانت مهد المدنية القديمة وفخرها منذ آلاف السنين لأن تاريخها فى الارتقاء يستدعى منذ ٥٠٠٠ سنة على أقل تقدير.. ومن مدينتهم استمدت جميع الأمم القديمة واكتسبت العلوم والفنون وأخذ عنهم أهل أوروبا الجنوبية وخصوصا اليونان والرومان الذين بواسطتهم سرت الحضارة إلى أوروبا الغربية.. وقد ثبت من التاريخ أن مصر هى أصل العلوم ومبدأ العرفان فلا بد أن يكون علم الطب مندرجا فى هذه العلوم التى نشأت فى هذه الأمة التى سبقت جميع الأمم فى كل مجد وفضل»<sup>(٢)</sup>.



(١) البلاغ - ٢ أكتوبر سنة ١٩٢٤ - مقال بعنوان (الفن المعمارى فى عهد الفراعنة)

(٢) البلاغ - ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٢٤.

وبعد أن استعرضنا فى بحوث هذا الفصل كل ما كتب حول الوطنية المصرية فى صحف هذه الفترة يمكن أن نخرج بالحقائق التالية:

أولاً: إن فكرة الوطنية المصرية بدأت غامضة غير محددة.. ثم أخذت تتطور وتتكامل حتى أخذت شكل الاتجاه أو التيار الرئيسى فى الحياة الفكرية والسياسية فى مصر.. وقد تم ذلك عندما أخذت الفكرة طابعاً علمانياً وتخلصت من أى ارتباط أو تأثير أو انفعال بدولة الخلافة العثمانية.

ثانياً: إن فكرة الوطنية المصرية كانت تنطلق فى الصحافة المصرية من اعتبار أن الشعب المصرى (أمة) كاملة له (قومية) متميزة.. عن غيرها من القوميات تماماً كالقومية الفرنسية أو الانجليزية.. وكانت الصحف المصرية ترى أن مقومات هذه الأمة وتلك القومية.. قائمة فى مصر منذ آلاف السنين.

وصحيح أن الصحف المصرية لم تكن تستخدم (كلمة قومية) إلا نادراً إذ كانت الكلمة الشائعة هى كلمة الوطنية ولكنها كانت تعنى عندهم (القومية) المتكاملة المتميزة.. لا الوطنية المنتمية إلى قومية أكبر.. حيث كانت فكرة العروبة حتى نهاية فترة البحث مازالت تنمو على استحياء شديد.

ثالثاً: إن فكرة الوطنية المصرية تكونت فى الصحافة المصرية من خلال طرح عدة قضايا وطنية هامة فى مقدمتها قضايا «الوحدة الوطنية» وإيقاظ الشعور الوطنى وبعث المجد المصرى القديم.. ومصر للمصريين.

رابعاً: إنه قد ساعد على نمو فكرة الوطنية المصرية.. تحدى الاحتلال للشعور الوطنى عند الشعب المصرى.. لذلك فإن الدعوة للاستقلال ومحاربة الاحتلال الأجنبى كانت دائماً الخلفية القائمة وراء أية قضية من قضايا الوطنية المصرية.

خامساً: إن سيادة فكرة الوطنية المصرية على الفكر القومى فى مصر فى فترة البحث لا ينفى أبداً وجود أفكار قومية أخرى فى ساحة العمل الصحفى والفكرى والسياسى فى مصر مثل فكرة العروبة.. أو فكرة الجامعة الإسلامية. وهذا ماسوف نتعرض له فى الفصول التالية.

\* \* \*



## الفصل الرابع عشر

العروبة في  
الصحافة المصرية



كان من نتائج إخفاق مصر في توحيد العالم العربي بعد فشل محاولة محمد علي وابنه ابراهيم في بناء دولة عربية كبرى<sup>(١)</sup>.. أن انسحبت مصر من الساحة العربية.

ورغم وجود احتمالات كثيرة بأن الفكرة العربية طرحت أثناء الثورة العربية<sup>(٢)</sup>.

فمن المؤكد أنه بفشل الثورة ووقوع الاحتلال انصرف هم المصريين إلى مقاومة الحكم البريطاني واصبحت هذه الفكرة المسيطرة على تفكيرهم<sup>(٣)</sup> وكان من الطبيعي أن يتطلعون إلى تأييد دولة اسلامية كبرى كالدولة العثمانية وأن يجدوا في دعوة الجامعة الاسلامية عامل دعم لهم في نضالهم ضد الاحتلال<sup>(٤)</sup>.. ويرى بعض المؤرخين أن سيطرة هذا الاتجاه المؤيد للدولة العثمانية على الحركة الوطنية المصرية- حتى سقوط الخلافة في تركيا في نهاية الحرب العالمية الأولى- كان وراء الانشقاق القومي الذي فصل ما بين مصر وشعوب المشرق العربي<sup>(٥)</sup>.. وعزل مصر- لفترة- عن مجرى الحركة القومية العربية<sup>(٦)</sup>..

(١) هناك شبه إجماع بين المؤرخين على أن محاولة علي وابنه ابراهيم لبناء دولة عربية كبرى هي أول محاولة في تاريخ البلاد العربية للوحدة الشاملة.. وليس هناك سبيل إلى تجاهل هذه الحقيقة فسياسة ابراهيم وبالذات في بلاد الشام (١٨٣٢-١٨٤٠) وتصريحاته المتكررة وتقارير القناصل الاجانب إلى حكوماتهم تقطع بأن فكرة الوحدة العربية كانت مختصرة في ذهن ابراهيم باشا (د. محمد أنيس-دراسات في العالم العربي- ص ٣١٤ - ٣١٨ وعبد الرحمن الرافعي- عصر محمد علي- ص ١٦٩ - ١٧٠ - ١٧١) وقد لوحظ وجود تيارين في سياسة مصر العربية- تيار يرى قيام امبراطورية تركية محل الخلافة في الاسانة ويمثله محمد علي وحاشيته التركية- وتيار يرى قيام امبراطورية عربية يقوده ابراهيم باشا ورجال جيشه والقوى الجديدة التي تربت في المدارس الحديثة والبعثات والجيش الوطني وجهاز الدولة الجديدة (محمد عمارة- العروبة ص ١٥٨ - ١٧١) وهي التي كانت تود أن التوسع المصري لا يحد وان يقف عند آخر نقطة للمتكلمين بالعربية. (د. حازم نسيه- القومية العربية- ص ٥٧).

(٢) يقال أنه بعد مظاهرة الجيش في سبتمبر ١٨٨١ زاد الهمس عن قيام حركة سرية ترمي إلى انشاء دولة عربية من مصر وسوريا وفي حين كانت بعض العناصر النائرة في الأزهر تتجه إلى إنشاء خلافة عربية في اطار الانفصال النهائي عن الخلافة سواء كانت عثمانية أو غير عثمانية (صلاح عيسى- الثورة العربية- ص ٢٢٨). وتشير كل الدلائل إلى أن الثورة العربية لم تكن تخلو من اتجاهات عربية رغم نفى عرابي- في خطاب إلى جرجي زيدان- لثل هذه الاتجاهات حيث قال: "ولم يخطر ببال أي أصلا الاقتداء بالفاتحين والمتغلبين كما ذكرتم ولا بتأليف دولة عربية كما أرجف المرجفون.. لأنني أرى ذلك ضياعا للإسلام عن بكرة أبيه وخروجاً عن طاعة الله ورسوله ﷺ

(مجلة الهلال ح-ج ٢م ١٠ ص ٣٣-١٩٠١).

(٣) د. فيليب حتى ود. أدو جرجي ود. جبرائيل جبور- تاريخ العرب الجزء الثالث- دار الكشف- بيروت- ١٩٥١ ص ٨٨٩.

(٤) د. عبد العزيز الدوري- الجذور التاريخية للقومية العربية- دار العلم للملايين- بيروت- الطبعة الأولى- ١٩٦٠ - ص ٨٤-٨٥

(٥) د. حازم نسيه- القومية العربية- ص ٥٧

(٦) د. عبد العزيز الدوري- الجذور التاريخية للقومية العربية- ص ٥٨

ففى الوقت الذى كانت فيه مصر تستعين بدولة الخلافة لإخراج الانجليز، كانت شعوب المشرق العربى - حيث بدا وكأن الظروف مواتية لانبثاق حركة قومية عربية - تكافح فى سبيل تحريرها من السيطرة العثمانية وتتطلع إلى تأييد انجلترا والدولة الأوربية.. فأعداء مصر كانوا حلفاء لحركة القومية فى المشرق.. وأعداء الحركة القومية العربية كانوا حلفاء الحركة الوطنية المصرية(١)...

لذلك كان من الطبيعى أن يكون صوت الفكر القومى العربى فى مصر خافتا ولكن هذا لاينفى ان كثيرا من كتاب هذه الفترة كانوا يدركون ان هناك رابطة ما تربط مصر بالبلاد العربية ولكنهم غالبا ماكانوا يخلطون بين هذه الرابطة.. والرابطة الاسلامية.. أو الرابطة الشرقية.. فعبدالله النديم مثلا كان يرى ان هناك رابطة عضوية تربط مصر بالشام فهو يخاطب بعض الكتاب السوريين فى مصر الذين انحازوا بصحفتهم إلى جانب الاحتلال البريطانى ويقول: "أنا أخوك فلم أنكرتنى. ما الشام ومصر إلا توأمان أبوهما واحد.. يسوء الاثنين ماساء أحدهما.. أبرأب قدره عشرون جنيها يبيع المرء منا أخاه ووطنه.. بل جنسه ودينه(٢).." ولكن عندما يبعث إليه (أحد نابغة السوريين المسلمين بمدينة بئر سرح) برسالة يقول فيها: "بعد الاطلاع على مجلتكم تحققت أنكم لاتزالون على خطتكم الوطنية العربية التى قمتم بنشرها بين كل ناطق بقطع النظر عن اختلاف الأديان والأخلاق حتى تتقدم الوحدة العربية وتقف أمام صدمات الأعداء من جميع الأوجه وأن مجلتكم الغراء لايد أنها ستصبح آجلا أو عاجلا آلة فعالة لبث هذه المبادئ الوطنية العربية بين أفراد الامة العربية التى لاينقصها أمر سوى جمع شتاتها تحت راية هذه الوحدة(٣) عندئذ لمجد النديم يرد على صاحب الرسالة معترضا على الاقتصار على (الوحدة العربية) مطالبا بالدعوة لوحدة أكبر وهى.. الوحدة الشرقية.. فيقول : "لوقال هذا الفاضل إننا ننادى بحفظ الوحدة الشرقية من عرب وعجم وترك وجركس وكرد وأرمن وغيرهم على اختلاف الدين لأصاب الغرض.. فإننا ننادى بها لا بالجامعة العربية وحدها.

وعندما نشرت بعض الصحف الأوربية أخبارا عن وجود سياسة سرية بقيادة الخديو عباس حلمى الثانى تستهدف تكوين دولة عربية أو خلافة عربية تنفصل عن الخلافة العثمانية وتضم كلاً من مصر والشام وولاية الحجاز.. كتب الشيخ على يوسف فى (المؤيد) يهاجم مروجى هذه الأخبار وفى نفس الوقت أكد أنها محض افتراء.. وليست سوى دسائس أوربية للإيقاع بين الخديوى والسلطان فقال: "إن القول بأن مصر والشام وولاية الحجاز بينها صفاء وهدوء ومحبة ناشئة عن اعتقاد أهالى كل من هذه الأقطار بأنهم جميعا أعضاء جامعة واحدة وأهم من خلق محررى الجرائد الاوربية وأن القول بأن هناك من يسعى لحدوث انقلاب عظيم فى شكل الحكومات الحاضرة لم يخطر على بال أحد غير مكاتب الجرائد الأوربية الذين أرسلوا إلى جرائد يقولون "إن الحزب العربى أو الوطنى فى مصر قائم لنشر مبادئ جديدة من مقتضاها حصول

(١) د. محمد أنيس - دراسات فى العالم العربى. ص ٣٣٤  
(٢) الأستاذ - ١٧ يناير سنة ١٨٩٣ - مقال بعنوان (لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا)  
(٣) الأستاذ - ١٣ يونيو سنة ١٨٩٣.

انقلاب مهم وأنهم عازمون على تمديد سلطة الجناح الخديوى المعظم إلى طرابلس ظنا أن هذا الستار الرقيق يحجب النظر عن الدساس التي خلفه<sup>(١)</sup>..

ثم أكد الشيخ على يوسف ولاء الخديوى والشعب المصرى للسلطان:

"إن المصريين جميعا شعارهم الطاعة المطلقة لأمرهم الأفخم وكيل جلاله السلطان المعظم الشرعى ونائب خليفة رسول الله أمير المؤمنين ولا تؤثر عليهم شركا ودسائس المضلين"

إن حماس الشيخ على يوسف للرد على هذه الاتهامات تعكس رغبة الخديوى عباس حلمى الثانى - لما كان معروفا عن العلاقة الوثيقة بين الشيخ والخديو - فى استمرار صفو العلاقات بينه وبين الباب العالى فقد كان الخديو فى ذلك الوقت يجد فى تركيا تأييدا له فى صراعه مع اللورد كرومر عميد الاحتلال البريطانى فى مصر.. ولكن هذا الموقف تغير بعد عزل كرومر.. والذى انتهت بعزلة سياسة الخلاف بين قصر عابدين.. وقصر الدوبارة "وبدأ عهد (الوفاق) بين الخديوى.. والمعتمد البريطانى الجديد (فورست).. فلم يعد عباس حلمى الثانى محتاجا لعون أو تأييد الباب العالى.. وبالتالي لم يعد يوجد ما يحول دون تشجيعه لفكرة الخلافة العربية.. ولعل ذلك كان السبب فى تفكير بعض القوميين العرب فى اقتراح اسم عباس حلمى الثانى عاهلا للدولة العربية الجديدة الموحدة.. بعد أن يتم انسلاخها عن تركيا إلى جانب شريف مكة الحسين بن على كخليفة.. وما يؤكد ذلك أن الخديو كان يشجع الدعاية له فى صحف سورية وأكرم وفادة المهاجرين السوريين إلى مصر حتى صار أوفى الحكام العرب حظا فى عرش سوريا فى حال استقلالها<sup>(٢)</sup>..

وقد انعكس ذلك التطور الجديد فى سياسة الخديو تجاه تركيا.. على موقف الشيخ على يوسف من فكرة العروبة فنجده يكتب عن علاقة مصر بالأقطار العربية. ويؤكد ان "القطر المصرى قبله الشعوب العربية وروح نهضتها المنتظرة فهى ترقبه كما يرقب الملاح ابرة البوصلة التى أمامه ليهتدى بها وينعطف إلى الجهة التى تدل عليه<sup>(٣)</sup>..

وقال الشيخ إن مصر تحتل موقع القيادة بالنسبة للبلاد العربية لأنه: "ليس فى الأقطار قطر أخذ من المدنية الغربية نصيبا وافرا مثل القطر المصرى". وذكر أن "رغبة المصريين فى حفظ استقلالهم وإحياء لغتهم ليس فيه مصلحة لهم وحدهم بل هو أيضا من مصلحة جميع اخوانهم المتكلمين بلغتهم".

ولقد تسبب موقف صحيفة (المؤيد) المدافع عن العرب.. والمعارض للدولة العثمانية غضب الباب العالى فأوعز إلى المحكمة العسكرية التركية باصدار قرار يمنع دخول المؤيد الممالك العثمانية وقد دفع ذلك الشيخ على يوسف إلى إصدار بيان يعلن فيه موقفه من الدولة العثمانية

(١) المؤيد - ١٩ ديسمبر سنة ١٨٩٢ مقال بعنوان (الأمم الشرقية)

(٢) أنيس صايغ - الهاشميون والثورة العربية الكبرى - ص ٤٦ - ٤٨

(٣) المؤيد - ٢ يونيو سنة ١٩٠٧ مقال بعنوان (مصر والأقطار العربية)

وقد قام بنشر هذا البيان فى صدر صحيفة (المؤيد) فى عددین متتالین ثم طبعه فى .. كراس .. مستقل مترجما إلى اللغتين التركية والفرنسية.

وقال فى هذا البيان إن الأتراك يأخذون على (المؤيد) أنه يشتغل بمسألة الخلافة وأنه لسان حال عدد من الزعماء العرب فى محاربة الحكومة التركية الحاضرة وفى الدعوة لإنشاء حكومة عربية مستقلة عن الدولة العثمانية.

وقد رد الشيخ على يوسف على هذه الاتهامات بأن استرجع الأصل التاريخى لهذا الاتهام منذ أيام السلطان عبد الحميد وقال "إنه يقدر ما أحيا السلطان عبد الحميد من شعار الخلافة واهتم بشأنها.. صار يخافها .. والسلاح الذى يحمى صاحبه يقتله أحيانا.. وقد عرف هذا الجانب الضعيف من السلطان المخلوع كثيرون من مرتزقى الجاسوسية فى الأستانة فاتخذوا مسألة الخلافة العربية ربيعهم الذى ينتهون إليه كلما أجذبت بهم فصول السنة الأخرى حتى سمعت السيد جمال الدين الأفغانى قبل وفاته يقول: لو أن مقعدا مفلوجا من العرب يسكن غارا سحيقا فى شنفيط أو السنغال ادعى الخلافة لنفسه لخافه عبد الحميد وطلق الكرى جفنيه "وبدهى أن الجواسيس كانوا يتحفون مصر من أزهار هذا الربيع بنصيب وافر<sup>(١)</sup>..

ثم أخذ الشيخ على يوسف يعدد الأسباب التى ترشح مصر لتزعم دعوة الخلافة العربية لأن مصر هى أكبر مملكة عربية (أو تعد عربية) بين الممالك الإسلامية ولأنها مستقلة استقلالاً إدارياً دون بقية الولايات العربية العثمانية ولأنها مقر الخلافة العثمانية فى العصور السالفة حتى أن السلطان سليم الأول لم يلقب خليفة إلا بعد أن خلعه عليه الخليفة العباسى الذى كان موجوداً فى مصر سنة ٩٢٣ هجرية.. وكان المصريون أول أمة إسلامية بايعته بالخلافة إذ ذاك.

ورغم أن الشيخ على يوسف حاول فى هذا البيان أن ينفى هذه التهم ويؤكد أنه لا يشتغل بمسألة الخلافة العربية إلا أن خطته العملية فى (المؤيد) كانت تؤكد عكس ذلك فقد فتح صفحات الجريدة للكتاب العرب الذين يتنادون بالقومية العربية والخلافة العربية.. وتصدت المؤيد لحملة الهجوم التى بدأت تشنها الصحف التركية فى الأستانة ضد العرب بمناسبة ثورة شعب اليمن على الحماية التركية بها.. فتنشر (المؤيد) مثلاً خبراً عن هجوم عشرين طالباً عربياً بالأستانة على دار جريدة (أقدام) التركية وتخريبها وكان سبب ذلك نشرها فى عددین متتالین هجوماً على العرب على لسان ضابطین تركيين جاء أخيراً من اليمن.. وقد نشرت (المؤيد) بعض ما جاء فى هذه الجريدة التركية عن العرب فقالت: "نقل المحرر التركى عن محدثه فى المقالة الأولى أقوالاً عن الشعب جاء فيها: أنهم فطروا على الاستعداد لكل أمر.. فهم يتقنون صناعة الصباغة وهم عاملون اجراء وسفاكو دماء وبالإجمال هم كل شئء ويكونون كل شئء لأجل الدرهم

(١) المؤيد- ١٤ يوليو سنة ١٩٠٩ مقال بعنوان (بيان فى خطة المؤيد تجاه الدولة العلية العثمانية)

وقال فى المقالة الثانية: إن من الطبائع التى ألفها العرب واتسموا بها أنهم يفدون لأجل الدرهم أرواحهم ويلقون بأنفسهم إلى التهلكة.. بل إنهم يذلون عرضهم فى هذا السبيل<sup>(١)</sup>..

ثم أضافت (المؤيد): "وقد بنى المحرر على هذا المبدأ سياسة جديدة فى إدارة الأمم وهى إغداق الدراهم على هؤلاء الرجال الذين هم كقومهم العرب يذلون عرضهم لأجل الدرهم وبذلك تأمن الدولة - على رأيه - غائلة الثورات".

ثم علقت المؤيد قائلة: "هذا ماقالته جريدة "اقدام" فاستحقت أن توطأ بأقدام العرب وكان للطلبة منهم فى الأستاذة العذر فى أن يهجموا على دارها ويخربوا ماطبعتها".

ونشرت المؤيد مقالة لكاتب عربى اكتفى بالتوقيع بالأحرف الأولى من اسمه (ع.ح) يرد على مقالة نشرتها جريدة العرب بالأستانة فى أحد أعدادها الأخيرة انتقدت خلالها الكتاب العرب الذين "يذكرون قومهم وتنبههم إلى ما هو جار فى هذه الآونة من التى تناقض العدل والمساواة.. وقالت إن أولئك الكتاب يتعصبون لجنسيتهم العربية وأنهم يبدرون فى المملكة بذور الشقاق ويدعون الأمة إلى التفرقة<sup>(٢)</sup>..

وقد رد (ع.ح) على صاحب صحيفة العرب التركية قائلا: "ياحضرة الأستاذ الغيور إن كان يغيظك التعصب للجنسيات حسب دعواك فلماذا لم ترد على زملائك الكتاب الترك حينما يتعصبون للترك بدعوتهم لحصر السلطة فى أيديهم.. ولعمري إنكم لم تنسوا لنا زرع الشقاق والنفاق إلا لأننا ذكرناكم بحقائق التاريخ التى تناسيتموها والتى تغيظكم وتؤلمكم اذ قلنا غير مرة وأثبتنا بالبراهين التاريخية فضل العرب على الدولة والاسلام".

ونشر (المؤيد) أيضا مقالا بقلم (محب الدين الخطيب) يهاجم الصحف التركية التى تهاجم العرب حيث قال: "منيت صحافة اخواننا الترك فى الأستاذة ببعض نفر لا يقيمون للقول وزنا ولا يقدرودن للأعمال أقدارها.. إن لنا فى كل يوم من هؤلاء الاخوة طعنة نجلاء غادرة ووصمة سوداء جائرة<sup>(٣)</sup>..

وتعرض الكاتب لمقال نشرته الصحيفة التركية (كرسى ملل) " التى تتظاهر بالدعوة إلى جامعة اسلامية والتى قالت إننا معشر العرب جميعا سواء كنا فى مصر أو فى وريا أو فى تونس أو فى سائر الأقطار العربية الأخرى مسوقون بأصبع أجنبية للانفصال عن الترك وأننا أسسنا لهذا الغرض جمعيات قومية غرضها إعادة الخلافة إلى العرب.. إن بعضنا قاموا قبل بضع سنوات يؤسسون فكرة (الوطن العربى) بتسجيل كل ذكرى جميلة ومأثرة للخلفاء الأولين وعدوا ذلك أمرا منكرا وحملوه على الدعوة إلى فكرة وطنية عربية".

(١) المؤيد- ١٣ مارس ١٩١٠- مقال بعنوان (الطلبة العرب فى الأستاذة العلية وجريدة اقدام.. تخريبها.. وتعطيلها.

(٢) المؤيد- ٢١ مايو سنة ١٩١٠- مقال بعنوان- العرب وصاحب جريدة العرب)

(٣) المؤيد- ٥ يونيو سنة ١٩١٠ مقال بعنوان (الأصدقاء الجاهلون فى مسألة العرب والترك)

ثم تساءل الكاتب " ترى من هم هؤلاء الذين كانوا أصحاب هذه النهضة العربية؟ نحن نعلم أن الذين كانوا يذكروننا بأخلاق خلفاء العصر الأول للإسلام ويتلون علينا مآثرهم الشريفة يومئذ.. هم المرحوم الشيخ محمد عبده والمرحوم السيد الكواكبي وجميع العقلاء الذين أرادوا بهذه الأمة العربية خيرا.. فهل يضمّر رئيس تحرير (كرسى ملل) التركية النقمة والضغن لناشرى الذكرى الجميلة والمآثرة الشريفة لخلفاء الإسلام من العرب؟ اللهم اذا كان ذلك فنحن براء فى الدنيا وفى الآخرة من حضرته ومن كل الذين يشاركونه فى سخافته".

ونشرت (المؤيد) أيضا مقالا (لرعى مغامر) هاجم فيه الأتراك لاضطهادهم اللغة العربية واعترض على قرار الحكومة التركية بأن يكون التعليم فى المدارس الاعدادية والثانوية العربية باللغة التركية وقال " ان التعليم الابتدائى والثانوى لايمكن أن يكون بغير اللغة العربية فى البلاد العربية.. وإلا فتلك البلاد تبقى فى ظلام وجهل ويعيق بها الحيف والدمار ويبقى العنصر العربى فى تأخر<sup>(١)</sup>" وطالب الكاتب اخوانه العرب بأن يهتموا بانشاء المدارس العربية وأن يرسلوا ناشئهم فى بعثات إلى أوروبا «لذلك أخص إخوانى العرب على الغيرة على لغتهم تشييد المدارس الابتدائية والثانوية بلغة آبائهم وارسال الناشئين منهم إلى مدارس أوروبا.. وإذا لم يقوموا بنهضة علمية عصرية سريعة النتيجة فإن الدائرة تدور عليهم ويندمون".

ثم نشرت (المؤيد) مقالا افتتاحيا بدون إمضاء تعتقد أنه للشيخ على يوسف أوردت فيه كلاما كتبه عبيد الله صاحب جريدة (العرب) فى الأستاذة حاول فيه أن يفرق بين العرب مدعيان ان المسيحيين ليسوا عربا فنقلت المؤيد عنه قوله. « هذا وانى أرى من الفضول مداخلة النصرارى العرب فيما بدور من المباحث بين العرب والترك لأن الترك اذا ذكروا العرب فلا يتصورون غير المسلمين اذا هم لا يعقلون وجود رجل عربى يقول بالوهمية رجل اسرائيلى ولا يقول بنبوة رجل عربى قائل له أنا بشر مثلكم<sup>(٢)</sup>».

وقد ردت المؤيد على الكاتب التركى مؤكدة ان العروية تجمع بين المسلم والمسيحى فقالت: « فىا أيها الكاتب أنت تحاول أن تلقى بذور الشقاق بين قوم التحدث مصالحتهم واتحدث كلمتهم وهم أبعد من أن تنالهم دسائس » ثم أخذت المؤيد تؤكد الوحدة الوطنية بين المسلمين العرب والمسيحيين العرب عبر التاريخ وتكشف عن دور المسيحيين فى الحضارة العربية فقالت: «على أنك لو درست التاريخ علمت أننا وإياهم منذ القديم.. منذ ألف سنة وأكثر شركاء فى جميع المناصب والمباحث حتى فى مباحث الألوهيات نفسها وإن «أبا نصر الفارابى» تلقى هذه العلوم عن (أيمن بشرمت بن يونس) فى بغداد وأن علماء الكلام والتوحيد من المسلمين وثقوا فى الألوهيات بتراجم حنين واسحق وقسطا وعبد المسيح بن ناعية وأبى ذكريا يحيى بن عدى ويوحنا بن جيلان وابن البطريق واعتمدوا على تفاسيرهم لتلك الكتب وحسبك ما جاء فى الحديث الشريف «إن الله ليمنع هذا الدين بنصارى من ربيعة».

(١) المؤيد - ١٢ يونيو سنة ١٩١٠ مقال بعنوان (اللغة العربية واللغة التركية)  
(١) المؤيد - ٢٧ يوليو سنة ١٩١٠ مقال بعنوان (العرب.. مسلمون ومسيحيون).



ثم تساءلت (المؤيد) «كيف يضرب هذا الكاتب النصارى فى بلاد العرب هذه الضربة المؤلة  
فيضيع عليهم أصولهم التى يعتزون بها ويقول لهم إنكم ما دتم غير مسلمين فلستم من العرب  
ولا العرب منكم.. وليس بعد هذا العمل من جهل وحقاقة».

ولعل ذلك المقال يكشف عن جانب هام من جوانب الفكرة القومية العربية.. وهى كونها  
فكرة علمانية.. لاتقوم على أساس الروابط الدينية<sup>(١)</sup>. وعلى كل فإن استعراض صحيفة  
(المؤيد) يؤكد لنا أن سياسة الشيخ على يوسف وأراءه الشخصية كانت تقوم على الوحدة العربية  
ولم يفته فى يوم من الأيام ما كان فى الاتحاد العربى من عظمة<sup>(٢)</sup>.

وكان مصطفى كامل يرفض دعوة العروبة.. ويعادى فكرة الخلافة العربية.. اذ كان يعتقد أن  
دعوة العروبة أو الخلافة العربية مجرد دسيمة بريطانية لاضعاف الدولة العثمانية كبداية لانتهاج  
الولايات العربية فى الدولة.. وكان من رأيه أن معظم الكتاب والمفكرين الذين يدعون للعروبة  
فى مصر ليسوا سوى دخلاء ودسائين وعملاء للاستعمار الأوربى<sup>(٣)</sup>.

ولقد كان موقف مصطفى كامل الراض لفكرة العروبة بشكل عام لفكرة الخلافة العربية  
شكل خاص.. موقفا قديما.. أى قبل أن يصدر «اللواء» فهو يكتب فى المؤلف الذى وضعه عام  
١٨٩٨ باسم (المسألة الشرقية) يقول:

«ولا يظن القراء أن مسألة الخلافة العربية مسألة حديثة بل إن ساسة أوربا فى القرن الثامن  
عشر اشتغلوا بها كثيرا واهتم نابليون نفسه بها اهتماما عظيما.. وإن مشروع جعل الخلافة  
لاسلامية تحت وحماية الانجليز وحمائهم هو مشروع ابتكره الكثيرون من ساستهم منذ عهد  
نعيد وقد كتب كتاب الانجليز هذا الموضوع ومنهم المستر «بلانت» المعروف فى مصر وقد كتب  
كتابا قبل احتلال الانجليز لمصر فى هذا المعنى سماه (مستقبل السلام) وأبان فيه أغراض حكومة  
بلادهم وأمانى الانجليز فى مستقبل الاسلام وقد كتب فى فاتحة كتابه ما نصه:

(١) لابد من الإشارة فى هذا الخصوص إلى الدور الذى لعبه المسيحيون فى نشر فكرة العروبة وهو أمر طبيعى فى  
ذلك الوقت لأن الحركة القومية العربية كانت القطب المعادى للحركة الاسلامية التى تستبعد العناصر عب  
الاسلاميه.. كذلك فقد كان من نتيجة اهمال العثمانيين لتعليم اللغة العربية بل ومطاردتها اللغة العربية وأدبها له  
تجد سوى ملجأ واحد هو الارسلات التبشيرية المسيحية فى بلاد الشام بالذات وهكذا اتيج للمسيحيين فرص  
الاطلاع والتنقيب فى تاريخ العرب وآدابهم ولغتهم.. وإليهم يرجع الفضل فى تلك الفكرة التى شاعت عن ا  
للرب حضارة قبل الاسلام ثم ازدهرت على يد السلام وان- المسيحيين لعبوا دورا خلافا فى بناء الحضار  
الغربية مثل المسلمين وأنه لا يمكن أن يكون الطابع العام للحضارة العربية دينيا (د. محمد أنيس- الدولة العثمان  
والشرق العربى- ص ٢٦٤).

(٢) المصرى - ١٣ مايو سنة ١٩٥١ - مذكرات الخديوى عباس حلمى الثانى.

(٣) أحمد طربين - الوحدة العربية - معهد الدراسات العربية العالية - القاهرة - ١٩٥٧ - ص ١٨٧

«لا تقنطوا فالدر ينثر عقده.. ليعود أحسن فى النظام وأجمل» أى أن هدم السلطة العثمانية لا يضر بالمسلمين بل إن هذا العقد العثماني ينثر ليعود عقدا عربيا أحسن وأجمل.. ولكن مالم يقله مستر «بلنت» هو أن قومه يريدون هذا العقد فى جيد بريطانيا لا فى جيد الاسلام<sup>(١)</sup>

ولأهمية موضوع الخلافة العربية بالنسبة لمصطفى كامل نراه يفتح به العدد الرابع من (اللواء)<sup>(٢)</sup> بمقال يهاجم الداعين إلى الخلافة العربية ويتهمهم بأنهم عملاء للانجليز فقال «إن أعداء الدولة العثمانية يسعون لحل المملكة وتأسيس خلافة عربية تكون العوبة فى أيدى احدى الدول الأجنبية وتسليم زمامها إلى احد المسلمين - الفاقدين الاحساسات الاسلامية.. وإن سماسرة السوء والفساد فى مصر يخدمون أغراض الانجليز ويخدعون الناس بتفهمهم أن فصل الخلافة عن السلطة يفيد الدولة كما استفادت دول اوربا من فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية ولكن الدين الاسلامى لا يصبح فيه مطلقا فصل السلطتين عن بعضهما لأن الفصل بينهما يقتلها معا».

وفى صحيفة (القطر المصرى) هاجم (أحمد حلمى) الشيخ على يوسف واتهمه بأنه يجمع حوله الخارجين على الدولة العثمانية والداعين إلى الخلافة العربية وقال «جاء حزب التأخر إلى مصر وقد التفوا حول صاحب المؤيد أو هو جذبهم إليه وقد علمت أنه استعمل اسم الجناح العالى لتأييد مشروع الخلافة العربية<sup>(٣)</sup>»

وتساءل أحمد حلمى «فمن هم رجال حزب التأخر؟.. الجواب أنهم عزت باشا العابد وأخوه رشيد بك مطران وشفيق باشا المؤيد عضو مجلس المبعوثان عن دمشق وطالب باشا عضو مجلس المبعوثان عن البصرة محمد باشا زهير من أعيان البصرة.. هؤلاء هم أركان التأخر الذين يدعون أنفسهم عثمانيين من أبناء العرب وأخذوا يسعون فى تأليف جمعية عربية (وكلمة جمعية هنا للجمعية وصحتها خلافة) تضم بين جوانحها أبناء سوريا ومصر والعراق والحجاز وعلى ذلك ألفت فى الاستانة جمعية «الاخاء العربى» وفى باريس نودى بالجامعة السورية وأرسلت الكتب إلى سوريا ومصر وأمريكا لهذا الغرض وفى مصر يهمسون بالخلافة العربية». ثم تساءل أحمد حلمى مرة أخرى عن اسم الخليفة الذى يرشحونه لتولى الدولة العربية الجديدة واستعرض الأسماء المرشحة ومنها الخديو عباس حلمى الثانى واستبعده.. وكذلك عزت باشا العابد ثم شريف مكة الحسين بن على وشفيق باشا المؤيد واستبعدهم جميعا.. ثم انتهى إلى الشيخ على يوسف باعتباره المرشح الوحيد الباقى ثم أشبعه سخرية وتفريعا وسماه بخليفة شارع محمد على.. ايماء إلى أن مقر صحيفة (المؤيد) فى شارع محمد على فقال:

(١) مصطفى كامل - المسألة الشرقية - ص ١٧٦

(٢) اللواء - ٤ يناير سنة ١٩٠٠ مقال بعنوان (سلامة الدولة العثمانية).

(٣) القطر المصرى - ٢٠ مارس سنة ١٩٠٩ مقال بعنوان (الجمعية العربية أم خلافة...؟) من هو الخليفة الذى ترشحونه؟

«إن الخديو لا يريد هذه الخلافة العربية لأنه عارف أنه لا بد للخليفة من أن يكون قويا بجيشه وسلاحه وماله ورجاله للدفاع عن الاسلام وكل تلك الشروط لو توفرت لسموه لقاوم بها الاحتلال. وصاحب السيادة حسين باشا بن علي رجل أكبر من أن يجرى وراء هذا السراب.. فاذا قالوا شفيق باشا المؤيد إن كان كذلك فهذا أمر مضحك فاذا لم يعد إلا واحد من اثنين أحدهما عزت باشا العابد الثاني صاحب المؤيد والأول ليس شريفا حتى يطمع في ذلك المنصب».

ثم أضاف أحمد حلمي ساخرا من الشيخ على يوسف «والأحسن أن نقول بأن الأجدد بالخلافة العربية هو سماحة الحسيب النسب الشيخ على يوسف صاحب المؤيد لشرفه الوفائي وحسبه البلففوري وعلمه الأزهرى وفضله الاميرى وقوته الكتابية وماله الذى لا يحصى فاذا كان هذا يرمى اليه حزب التأخر فويل للأحرار الأتراك من هؤلاء الأبطال وعلى الجيش العثماني ان يلقي بنادقه وسلاحه أمام سلطة جلالة الخليفة الجديد فى شارع محمد على ولنخضع لإرادة عامله فى لندرة أو عماله فى البصرة ودمشق وباريس والاستانة»!

وعندما قامت صحيفة (الوطن) بالهجوم على قرار أصدرته الحكومة المصرية بتخصيص ألف جنية لإعادة إحياء وطبع نفائس التراث الفكرى العربى القديم.. رد الشيخ محمد رشيد رضا فى (المنار) ودافع عن قرار الحكومة فقال «لا ريب فى أن العمل الذى شرعت فيه الحكومة المصرية العربية جليل ولا ريب فى أن المال الذى خصصته له فى هذا العام من ميزانيتها قليل فهى تنفق أكثر منه فى اضافة أحد ضيوف الأمير يوما واحدا وتنفق أكثر منه فى مساعدة التمثيل الأفرنجى الذى يرى جمهور الأمة أن إثمه أكبر من نفعه»<sup>(١)</sup> ثم هاجم رشيد رضا محرر الوطن فقال عنه «إن محرر الوطن لم يكتف بتحقيق جميع العرب والقدح فى كل ماكتبوا وصنعوا حتى صرح بدم دينهم فى ضمن ذلك فقال فى سياقه البذىء: وهل أصبح كل مافى مصر آداب العرب وتاريخ العرب وحضارة العرب ودين العرب وخرافات العرب وغلظات العرب.

وعلق رشيد رضا على أقوال محرر الوطن يعنى الكاتب بدين العرب دين الاسلام وهو يريد أن يمحق الاسلام ولغته وآدابها من مصر ويحل محلهم القبطية».

ويؤكد رشيد رضا أن اللغة العربية ليست لغة للمسلمين وحدهم بل لكل العرب مسلمين ومسيحيين ويهود وهو بذلك يرفض خلط اللغة بالدين فيقول «إن اللغة العربية ليست لغة خاصة بالمسلمين وإنما هى مشتركة بينهم وبين غيرهم فى نفس جزيرة العرب لا فى مصر وحدها وقد كانت لغة لليهود وللنصارى فيها قبل ظهور الاسلام وقد صارت بعده اللغة الطبيعية لجميع العراقيين والسوريين والمصريين وسائر القسم الشمالى من أفريقيا وأنه ليس فى استطاعة صاحب جريدة الوطن وصاحب جريدة مصر القبطيين ومن على شاكلتهما من المتعصبين مسحها واستبدال القبطية بها».

(١) المنار - أول نوفمبر سنة ١٩١٠ مقال بعنوان (مشروع إحياء الآداب العربية)

وبعدها بأيام تنشر (المنار) مقالا لباحث قبلى يؤيد فيه رشيد رضا فيما ذهب إليه من فصل اللغة عن الدين فقال هذا الباحث القبلى الذى لم يفصح عن اسمه «ومن الخطأ الفاضح خلط اللغة والأدب بالدين فإن اللغة لا تخص دينا دون الدين» والأمة العربية كان منها مسيحيون واسرائيليون وصائبون وملحدون وقد نبغ فى الشعر والأدب عدد كبير منهم مثل ثابت بن قرة والأخطل وابن ساعده أسقف بخران وهم مسيحيون والسمؤل وابن سهل وهما موسويان وغيرهم ممن لا يدينون بدين الاسلام»<sup>(١)</sup>.

وعندما قامت الثورة العربية فى الحجاز ضد تركيا تحت قيادة الشريف حسين وهو الذى سبق وتردد اسمه كثيرا كأحد المرشحين الرئيسيين للخلافة العربية. وقف الرأى العام المصرى ضد هذه الثورة خاصة عندما رأى أنها تعمل متحالفة مع إنجلترا ضد الدولة العثمانية فاعتقد أكثر المصريين أن الثورة ماهى إلا وليدة مطامع شخصية ونتيجة دسائس الإنجليزية. وتحت هذا التأثير استنكرت مصر الثورة العربية ومقتتها وصارت تكره العرب والعروبة من أجلها<sup>(٢)</sup>.

وإذا استعرضنا غالبية الصحف المصرية الصادرة فى ذلك الوقت سوف نجدها جميعا تهاجم الشريف حسين وتتهمه بخيانة الاسلام والعمل لصالح إنجلترا.

فيكتب أمين الرافعى مثلا فى صحيفة (الأخبار) يهاجم الاتفاقية التى كان ينوى الشريف حسين عقدها مع إنجلترا والتى بمقتضاها - كما يقول أمين الرافعى - تعلن الحماية الإنجليزية على الحرمين والأماكن الاسلامية المقدسة.. فقال «الملك حسين الذى يزعم أنه متخذ العرب وأنه حامى الحرمين الشريفين والذى لقب نفسه بأمر المؤمنين (كذا) يضحى بالحرمين الشريفين فى مقابل الاحتفاظ بالصدقة الإنجليزية إن صح أن لهذه الصداقة معنى غير المعنى المعروف فى قاموس الاستعمار والمستعمرين»<sup>(٣)</sup>.

وهاجم أمين الرافعى تنصيب الشريف حسين نفسه خليفة فقال. «إن هذه الحركة الطائشة من جانب الملك حسين والمؤتمرين بها إليه ستقابل بالفشل التام لأن العالم الاسلامى لا يرضى ولن يرضى بشئ هذا الرجل خليفة للمسلمين بعد أن أثبت أنه صنعة للإنجليز وأنه لا يطمع إلا فى أن يكون موظفا لديهم وخاضعا لحمايتهم. فهل مثل هذا الرجل يصلح للخلافة؟ إنه أبعد الناس عن هذه الصلاحية»<sup>(٤)</sup>.

وفى السانسة كتب الدكتور محمد حسين هيكى مقالا تعرض فيه للقضية العربية بمناسبة الحرب الدائرة فى الحجاز بين الملك حسين وابن سعود. ويلاحظ فى هذا المقال عطف الدكتور

(١) المنار - أول ديسمبر سنة ١٩١٠

(٢) ساطع الحصرى - نشوء الفكرة القديمة - ص ٢٥٦

(٣) الأخبار - ٢٦ يونيو سنة ١٩٢٣ مقال بعنوان (ملك الحجاز يقبل الحماية الإنجليزية).

(٤) الأخبار - ٦ مارس سنة ١٩٢٤ - مقال بعنوان (الملك حسين وتطلعه للخلافة).

هيكل وميله إلى فكرة العروبة عكس ما هو شائع عنه. فهو في هذا المقال يرجع الاضطرابات السائدة في بعض أقطار العالم العربي إلى فكرة الوحدة العربية فيقول «ولعل هذه الحركات التي تمت إلى اليوم وما قد يقوم من الحركات في المستقبل ناجم كله عن اضطراب الفكرة الأساسية السائدة في أقطار العرب الأساسية والتي تعتبر مطمح آمال الكثرة الساحقة من أهلها.. وهى فكرة الوحدة العربية واضطراب هذه الفكرة في الوقت الحاضر ويرجع ذلك إلى أن كل ملك من ملوك العرب وكل أمير من أمرائهم يطمع فى أن يكون على رأس هذه الوحدة»<sup>(١)</sup>. وأرجع الدكتور هيكل اضطراب الفكرة العربية إلى تداخل كل من فرنسا والمجلترا ورغبتهما في استغلال مطمع الوحدة عند الدول العربية لصالحهما. وقال إن هذا التداخل قد جعل الشعوب العربية التي تقع خارج شبه الجزيرة العربية تنظر إلى قضية الوحدة العربية بفتور وتظن أنها دسياسة أوروبية «وحقيقة الحال أن القضية العربية قديمة وقائمة من أيام اعلان الدستور العثماني. وليس في مقدور أحد اليوم أن يتنبأ بمبلغ الرجاء في تحقيق هذه الفكرة ولكن الكثيرين يعتقدون أن أول شرط لتحقيقها أن تتعد كل من هذه الولايات العربية والدول ما استطاعت عن نفوذ الدول الأوروبية وأن تعمل لاستقلالها الصحيح ولسوؤد الحرية حتى يتسنى بعد ذلك ارتباطها جميعا برابطة الوحدة البعيدة عن الأعباء السياسة وحتى تكون الأماكن الاسلامية المقدسة بعيدة عن أن تتأثر بنفوذ أية دولة أوروبية»

ثم رفض الدكتور هيكل أية محاولة لادخال مصر في الخلافات بين الدول العربية وخاصة بعد أن ترددت أنباء عن التفكير في ارسال قوات مصرية تحمي الأماكن المقدسة من نفوذ الوهابيين فقال الدكتور هيكل «على أنا وإن عطفنا كل العطف على استقلال كل أمة عربية ورجونا أن لا يكون لأى دولة ذات مطامع استعمارية ونفوذ مهما تكن صوره في هذه الأمم فإننا سن نأحية أخرى لانرى محلا لتداخل مصر في شئون هذه الممالك والولايات بأية صفة رسمية ولشد ما أدهشنا دعوة الداعين إلى تداخل مصر لحماية الحجاز من اعتداء ابن سعود عليه ولشدة ما عجبنا اذ سمعنا الأمير زيدا (ابن الحسين) يريد مقابلة زغلول باشا في أوروبا ليطلب منه مداخله الحكومة المصرية في الأمر. دهشنا وعجبنا لأنا نرى من الحماسة أن تداخل لصالح دولة عربية ضد دولة عربية أخرى فإنما الذى نرجوه أن تتحقق الحرية لكل مملكة... اذا ما تحقق هذا فيؤمئذ يصبح لأصحاب الفكرة العربية الأمل الواسع أن يروا فكرتهم حقيقة واقعة تحت الشمس». ويلاحظ أن الدكتور هيكل لا يرفض فكرة الوحدة العربية. وإنما يرى أن الظروف الحاضرة في ذلك الوقت غير ملائمة وهو يضع لتحقيق هذه الوحدة في المستقبل شرطا.. وهو استقلال كل بلد عربي.

(١) السياسة - ٦ أكتوبر سنة ١٩٢٤ مقال بعنوان (القضية العربية بمناسبة مشاكل الحجاز)

ولكن الدكتور هيكل يستخدم اصطلاح (الأمم العربية) وكأنه يرى أن هناك أكثر من أمة عربية لا أمة واحدة.. ولعل ذلك يثير التساؤل فى حالة ما إذا كانت هناك أكثر من أمة- فعلى أى أساس تعتبر الوحدة بينهم فى نظر الدكتور هيكل...؟ وهذا ما لم يجب عليه الدكتور هيكل.

أما الطريقة المثلى للوحدة العربية فى رأى صحيفة الأهرام فهى «أن يعقد حلف بين أمراء وملوك البلاد العربية أساسه استقلال كل حكومة ثابتة فى إدارة بلادها مع اتفاق الجميع على صيانة البلاد كلها من كل عدوان أو نفوذ خارجى والتعاون على انقاذ البلاد العربية التى احتلها الأجانب بالطرق الممكنة وأن يكون لهم مجلس حلفى تقرر فيه جميع المسائل العامة المتعلقة بحفظ استقلال البلاد وترقيتها»<sup>(١)</sup> والنظرة المدققة لهذا رأى يمكن أن تجد فيه شبيهاً كبيراً بالأهداف العامة للجامعة الدول العربية التى أقيمت بعد ذلك بوقت طويل.



وبذلك يتضح أن الاحتلال البريطانى كان يمثل العائق الرئيسى أمام فكرة العروبة فى مصر فقد انشغل المصريون بمقاومة الاحتلال البريطانى. وفى نفس الوقت كانوا لا يثقون فى الحركة القومية العربية فى الشرق. حيث بدا للمصريين وكأنها دسياسة إنجليزية وابتعدوا عن طريق العروبة وسيطرة دعوة القومية المصرية<sup>(٢)</sup> على الحياة السياسية فى مصر. بمعناها الأقليمى الضيق- وليس أدل على ذلك من القول المأثور الذى رد به سعد زغلول على عبدالرحمن عزام حين أراد أن يحدثه عن الوحدة العربية فقال له سعد باشا: «إذا جمعت صفراً إلى صفر فماذا تكون النتيجة؟»<sup>(٣)</sup>

وقد ظلت فلسفة «الأصفار» تسيطر على موقف مصر من العروبة حتى حان الوقت الذى استطاعت فيه مصر أن تخفف عن كاهلها عبء السيطرة الأجنبية<sup>(٤)</sup> فكشف بصراحة عن انتمائها القومى العربى بعد قيام ثورة يوليو.

(١) الأهرام - ١٩ أغسطس سنة ١٩٢٤ مقال بعنوان (الوحدة العربية).

(٢) د. فيليب متى وآخرون- تاريخ العرب- الجزء الثالث- ص ٨٨٩

(٣) ساطع الحصرى- العروبة أولاً- دار العلم للملايين- الطبعة الرابعة ١٩٦١ بيروت صفحة ٦٠ .

(٤) الدكتور عبد العزيز الدورى- الجذور التاريخية للقومية العربية - ص ٨٤ - ٨٥ .

## الفصل الخامس عشر

**القومية الإسلامية ..  
في الصحافة المصرية**





الحديث عن موقف الصحافة المصرية من «القومية الإسلامية» أو «الجامعة الإسلامية» كما كانت تسمى في فترة البحث.. يتصل تمام الاتصال بطبيعة العلاقات المصرية العثمانية.. وبالتالي بموقف الصحف المصرية من الدولة العثمانية. فقد نشأت الجامعة الإسلامية أساساً كفكرة استغلها السلطان عبدالحميد الثاني ( ١٨٧٦ - ١٩٠٩ ) لتحقيق الأهداف التالية:

- ( أ ) أن تكون أداة تحقق التناغم بين الشعوب الإسلامية حول الخلافة العثمانية.
- ( ب ) تثبيت سيطرة الدولة العثمانية على الولايات العربية التابعة للدولة.
- ( جـ ) أن تكون بديلاً يواجه به التيار الديمقراطي الدستوري الذي أخذ يفتح أبواب الدولة العثمانية بعنف.

( د ) وسيلة للضغط على الدول الأوروبية عن طريق التهديد بإثارة الشعوب الإسلامية الواقعة تحت احتلال هذه الدول خاصة في المغرب العربي وبلاد التتار في روسيا القيصرية وفي الهند<sup>(١)</sup> وفي مصر بطبيعة الحال.

وكانت مصر - رسمياً - إحدى ولايات الدولة العثمانية حتى معاهدة لندن عام ١٩٤٠ حيث ارتفع مركز مصر من مجرد ولاية عثمانية لا تختلف عن سائر ولايات السلطة إلى دولة مستقلة استقلالاً مقيداً بقيود السيادة التركية<sup>(٢)</sup>.

وفي الفترة التي تمتد من توقيع معاهدة لندن حتى بداية الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢ حكم العلاقات المصرية العثمانية قانون ثابت: فعلى حين كانت الدولة العثمانية تعمل على تكبيل مصر بمزيد من قيود السيادة العثمانية.. كانت مصر تسعى إلى تحقيق مزيد من الاستقلال عن السلطة العثمانية.<sup>(٣)</sup>

(١) د. محمد أنيس - الدولة العثمانية والشرق العربي - ص ٢٣٨.

(٢) لقد اعترفت معاهدة لندن ١٨٤٠ بأن لمصر مركزاً دولياً مستقلاً عن تركيا فقد جعلت حكومتها وراثية في أسرة محمد علي - وكانت ولاية العهد في ذلك الوقت هي أبرز مظاهر السيادة والاستقلال.. ولكن كان يحد من ذلك الاستقلال عدد من القيود التي فرضتها المعاهدة لصالح الباب العالي مثل ضرورة دفع جزية سنوية لتركيا وسريان معاهدات الدولة العثمانية في مصر.. واعتبار قوات مصر الحربية جزءاً من قوات السلطة العثمانية (عبدالرحمن الرافعي - عصر محمد علي - الطبعة الثالثة - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٥١ - ص ٢٤١).

(٣) فعقب معاهدة لندن مباشرة حاول الباب العالي استغلال تكاتف الدول الأوروبية ضد مصر فغالى في الفرمانات التي أصدرها لمحمد علي وغلها بالقيود.. وخاصة في الفرمان الأول الصادر في ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ ولكن محمد علي اعترض لدى الدول على تلك القيود وقد تدخلت الدول الأوروبية لدى السلطان واضطره لتعديل هذه القيود في لائحة ٩ أبريل سنة ١٨٤١ ثم في فرمان أول يونيو ١٨٤١ ولقد حاول الباب العالي مرة أخرى أن يعيد مصر إلى باشوية عادية من الباشويات العثمانية وحرمانها من الوضع الذي خولته لها معاهدة لندن والفرمانات التي صدرت مقرة للمعاهدة.. فطالب الباب العالي عباس الأول.. بتطبيق التنظيمات الخيرية في مصر باعتبارها ولاية عثمانية ولكن عباس عارض في ذلك وأيدته المجترة ففشل التدخل العثماني.. ومن الناحية الأخرى فقد عمل الخديوي إسماعيل على تحرير مصر من أكثر القيود التي فرضتها الفرمانات العثمانية بل وبعض القيود التي نصت عليها معاهدة لندن عن طريق استخدام وساطة الدول الكبرى وبالأموال التي أثنى منها بسخاء على رجال الدولة العثمانية فكانت الفرمانات التي أصدرها السلطان بتوسيع حدود اختصاصات الخديوية والتي انتهت بالفرمان الشامل الصادر في ٩ يونيو ١٨٧٣ الذي منح إسماعيل حق =

ولكن الأمر اختلف تماماً بعد الاحتلال البريطاني لمصر.. فقد تطلع المصريون أو الجزء الأكبر منهم.. إلى تأييد الدولة العثمانية ومساعدتها في التخلص من الاحتلال الإنجليزي وصار التمسك بمظاهر السيادة العثمانية- في نظر الفضائل الرئيسية العاملة في الحركة الوطنية المصرية- ضمان لحماية مصر ومن أن تتحول إلى مستعمرة بريطانية ووجدوا في دعوة الجامعة الإسلامية - عامل دعم لهم في نضالهم ضد الاحتلال البريطاني.

والأمر الذي لا شك فيه أن صحيفة (العروة الوثقى) التي أصدرها جمال الدين الأفغاني في باريس بمعاونة الشيخ محمد عبده قد لعبت الدور الرئيسي في بلورة المحتوى الأيديولوجي لفكرة الجامعة الإسلامية .. ويرجع إلى جمال الدين الأفغاني ومقالاته في (العروة الوثقى) الفضل في أن فكرة الجامعة الإسلامية لم تقف عند الحد الذي أراده لها السلطان عبد الحميد الثاني.. فقد منحها جمال الدين الأفغاني محتوى تحريراً ومضموناً معادياً للاستعمار.<sup>(١)</sup>

فالأفغاني في (العروة الوثقى) يربط بين الوحدة الإسلامية ومقاومة الاستعمار الأوروبي الذي كان يستهدف في نظره القضاء على الإسلام<sup>(٢)</sup>. والتحكم في الشعوب الإسلامية. والأفغاني يرى أن هناك قومية إسلامية تجمع بين المسلمين مهما اختلفت أوطانهم ذلك «أن الأصول الدينية الحققة تنشئ للأمم قوة الاتحاد وإتلاف العمل وتبعيتها على إقتناء الفضائل وتوسيع دائرة المعارف وتنتهي بها إلى أقصى غاية في المدنية».<sup>(٣)</sup>

وهو يرى «أن لا جنسية للمسلمين إلا في دينهم»<sup>(٤)</sup> و «علمنا وعلم العقلاء أجمعين أن المسلمين لا يعرفون لهم جنسية إلا في دينهم واعتقادهم»<sup>(٥)</sup> وكان كثيراً ما يطالب المسلمين بأن

= سن القوانين واللوائح الداخلية على أنواعها ومهمها: كانت مراميتها وحق عقد اتفاقيات جمركية ومعاهدات تجارية وحق اقتراض أى قروض بشاؤها في مصلحتها.. بلاد وحقه في زيادة الجيش أو ضعفه كما يشاء وحق بناء السفن الحربية ما عدا المدرع منها.. ولم يرد في النمران ما ينص على أن القوانين الأساسية السائدة في مقاطعات الدولة الأخرى تطبق في مصر.. وسمح النمران لمصر بحذر عقد إتفاقيات تجارية من الدول الأجنبية دون تعد على معاهدات الباب العالي السياسى. ولما كانت بعض المعاهدات التجارية المعقودة بين الباب العالي والدول الأوروبية - وهى التى تنطبق على مصر - ينتهى أجلها في عام ١٨٧٦ فقد كانت الدول الأوروبية في حل من أن تتباحث مباشرة مع الحكومة المصرية في شروط تجديدها (د. أحمد عبدالرحيم مصطفي - علاقات مصر بتركيا- ص ١٧٩ - ١٨١) وبعد عزل إسماعيل وتولية توفيق حاول الباب العالي استغلال الفرصة لإعادة سيادته الكاملة على مصر وذلك بإلغاء الإمتيازات التى منحت لإسماعيل بمقتضى فرمانات ١٨٦٦ ب ٦٧ و ١٨٧٣ لكى تعود مصر مجرد باشوية عادية من باشويات الدولة ولكن المجترة وفرنسا وقفتا في وجه السلطان وأرغمته على إصدار النمران في ٧ أغسطس سنة ١٨٧٩ مؤكداً حتى الخديو في التصرف التام في شئون بلاده المالية والداخلية.

(١) محمد عمارة - الأعمال الكاملة للأفغاني - دار الكاتب العربى - القاهرة - ١٩٦٨ - ص ٣٤ .  
(٢) د. أحمد سويلم العمري - المجمع العربى وتطورات الاجتماعية السياسية - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة ١٩٦٥ - ص ٢٠٧ .

(٣) العروة الوثقى - ١٤ يوليو سنة ١٨٨٤ مقال بعنوان (الوحدة الإسلامية).

(٤) العروة الوثقى - ٢٦ يوليو سنة ١٨٨٤ مقال بعنوان (الجنسية والديانة الإسلامية).

(٥) العروة الوثقى - ١٤ أغسطس سنة ١٨٨٤ مقال بعنوان (الوحدة والسيادة).

«يعتصموا بحبال الرابطة الدينية التي هي أحكم رابطة اجتمع فيها التركي بالعربي والفارسي بالهندي والمصري بالمغربي وقامت لهم مقام الرابطة الجنسية»<sup>(١)</sup>.

ويحاول الأفغاني أن يستخدم التاريخ ليؤكد به آراءه فيقول: «هذا ما أرشدنا إليه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم إلى الآن لا يقيدون برابطة الشعوب وعصبيات الأجناس وإنما ينظرون إلى جامعة الدين لهذا نرى المغربي لا ينفر من سلطة التركي والفارسي يقبل سيادة العربي والهندي يذعن لرياسة الأفغاني لا إشمئزاز عند أحد منهم ولا إنقباض وأن المسلم في تبدل حكوماته لا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه أشكالها وانتقالها مادام صاحب الحكم حافظاً لشأن الشريعة ذاهباً مذهبها»<sup>(٢)</sup>.

وقد كان الأفغاني يعتقد أنه لن تقوم للشرق قائمة إلا إذا كان «الإصلاح يعتمد على أساس ديني».

وعلى عكس ما يقول بعض الكتاب<sup>(٣)</sup> فقد كان «ميخائيل عبد السيد» صاحب (الوطن) القبطية يتخذ موقف الدفاع عن الدولة العثمانية ويدعو للحفاظ على روابط مصر بالدولة العلية وكان من رأيه أنه كلما قويت الدولة العثمانية كان في ذلك حماية لمصر من الأطماع الأوروبية .. وكلما ضعفت الدولة زاد الخطر على مصر .. وعلى ضوء ذلك نراه يعتقد أن «كل ما كان موافقاً للدولة العلية عزيزة مهابة أمنت مصر على نفسها من جور الجائر وصارت في أمن متين وحسن حصين بخلاف ما إذا كانت ضعيفة فإن ضعفها يطمع الطامعين في التعدى عليها»<sup>(٤)</sup>.

وفي أزمة العقبة<sup>(٥)</sup> .. وقف ميخائيل عبد السيد في صف تركيا وهاجم تدخل الدول الأوروبية وخاصة إنجلترا في المسألة وقال إن هذا الخلاف مسألة داخلية لا حق لأحد غير مصر وتركيا في بحثها «إن مسألة العقبة مسألة داخلية .. فإنها بين الدولة العلية وبين مصر فقط ولكن البعض (يقصد إنجلترا) حاول جعلها من المسائل الدولية فقد أخلت هذه الدول وتلك ولا نرى وجهاً لتداخل أى دولة من الدول فيها»<sup>(٦)</sup>.

(١) العروة الوثقى - ٢٤ أغسطس سنة ١٩٨٤ مقال بعنوان (عصية الجنس وعصية الدين).

(٢) العروة الوثقى - ٢٨ أغسطس سنة ١٨٨٤ - مقال بعنوان (أمة واحدة).

(٣) د. ذوقان قرقوط - الفكرة العربية في مصر - ص ١٧٦

ود. سامي عزيز - الصحافة وموقفها من الاحتلال البريطاني ص ١٥٩ .

(٤) الوطن - ٢ مارس سنة ١٨٩٢ .

(٥) أزمة العقبة: لقد تسببت في هذه الأزمة محاولة تركيا سلب مصر شبه جزيرة سيناء بما فيها خليج العقبة وكان ذلك وراء تأخير فرمان تولية الخديو عباس حلمي الثاني ولكن إنجلترا أرغمت تركيا على التراجع وصدر فرمان تولية عباس حلمي الثاني معترفاً بملكية مصر لشبه جزيرة سيناء حتى العريش أما خط العقبة وتوابعها فصار في يد تركيا.

(٦) الوطن ٣ مارس سنة ١٨٩٢ مقال بعنوان (مسألة العقبة)

وكانت الوطن سبابة إلى نشر خبر إنهاء الخلافة وتفاصيل الاتفاق بين مصر وتركيا فهي تبشر «المصريين بأنه بقيت الحدود على مرام جناب السلطان المعظم وعلى مرام جناب خديونا المعظم ودخل في حدود مصر العرب والسويس أما خط العقبة وتوابعها فيكون في يد الدولة العلية أما جبل الطور إلى السويس فيكون في يد الدولة ولكنه يبقى تحت إدارة مصر مؤقتاً ليكون محطة لضرب الحاجر الصحي على الحجاج»<sup>(١)</sup>.

ثم يعلق ميخائيل عبد السيد على هذا الاتفاق فيحاول التقليل من دور إنجلترا في حل الخلاف ويخرج من ذلك بالدعوة إلى تأييد ارتباط مصر بالدولة العثمانية معلناً أن مصر بأكملها ليس سوى جزء من الدولة العلية فهو يقول «ومسألة الحدود مسألة بسيطة فإن مصر بحدودها وسودانها تابعة للدولة العلية.. وإذا نقصت حدود مصر أو لم تنقص فتلك الجهات ليس بمديريات مرهونة لأرباب الديون حتى تتعرض الدول لها» ويتساءل الكاتب «إذا كانت الحكومة الإنجليزية ألزمت مصر على ترك السودان برمه والتنازل عن «مصوع» لإيطاليا فهل يجوز التشديد مع الدولة العلية في مسألة العقبة.. والدولة العلية هي صاحبة السيادة على مصر ومصر تابعة لها «بل إن الكاتب يصل إلى حد القول بأنه لو فرض وكانت العقبة تابعة للحكومة المصرية وطلبها الباب العالي لحاجة إليها وجب على الحكومة المصرية منحها له «وعلى فرض أن العقبة كانت تابعة للحكومة المصرية والدولة العلية رأت لزومها لإطفاء وقمع الثائرين تعين على الحكومة المصرية إجابة طلبها بل المتعين عليها مساعدتها بالمال والرجال كما حصل في الحروب الروسية فإن مصر أرسلت نجدة عسكرية إليها كما هو شأن المتبوع المعتصم بالولاء».

ويتهى الكاتب إلى تأكيد ولاء مصر للباب العالي باعتبار أنه «لا يوجد شيء أفيد ولا أنفع من المحافظة على أحكام عروة الوفاق بين مصر والدولة العلية».

ولكن نظرة صحيفة الوطن إلى الدولة العثمانية سرعان ما تغيرت كلياً بعد وفاة ميخائيل عبد السيد» وتولى «لمجدي إبراهيم» مسئولية إصدار وتحرير الصحيفة.. فقد كان (لمجدي إبراهيم) من أنصار الإنجليز في مصر.. وأحد أدوات الاحتلال في الدعوة لإنجلترا وسياساتها في البقاء في مصر لذلك كان طبيعياً أن تتحول الصحيفة.. عن مناصرة الدولة العثمانية وتهاجم أي دعوة للارتباط بها وأن تعمل في نفس الوقت إلى محاولة فك الارتباط (الإسمى) بين مصر والدولة العثمانية خدمة للمصالح الإنجليزية الساعية إلى تحويل مصر إلى مستعمرة بريطانية مرتدية رداء الدعوة إلى القومية المصرية.. وتظهر تلك السياسة الجديدة لصحيفة الوطن في إتخاذها موقف الدفاع عن وجهة النظر البريطانية في أزمة طابا<sup>(٢)</sup>. فقد أرجع لمجدي إبراهيم المشكلة إلى «استبداد السلطان.. وإن الأتراك تزعموا علامات الحدود عند العريش<sup>(٣)</sup>».. ثم يهدد الباب العالي

(١) الوطن - ٥ مارس سنة ١٨٩٢ - مقال بعنوان (الفرمان السلطاني.. ومسألة العقبة).

(٢) أزمة طابا: وهي نقطة على الحدود المصرية قرب منطقة العقبة استولت عليها الجنود التركية في عام ١٩٠٦ بحجة حماية حدود الدولة العثمانية من غارات الثوار العرب في شبه الجزيرة العربية.. ولكن إنجلترا أرغمت تركيا على الانسحاب منها.

(٣) الوطن - ٢٨ أبريل سنة ١٩٠٦.

معللاً «إننا لا نقدر على الاستمرار في السكوت عن مثل هذه الأعمال فإنها تشجع المحرضين على الشر وأصحاب الدسائس من أهل مصر الساعين إلى تهيج الخواطر وبعضهم يحتل مراكز عليا في البلاد».

ويلاحظ أن (نجدي إبراهيم) في هذا المقال يذكر - ولعلها المرة الأولى في الصحافة المصرية حتى ذلك الوقت - اسم السلطان مجرداً من عبارات التعظيم. والتفخيم المعتادة عند ذكر اسمه في الصحف .. كذلك فهو يقول (الأترك) بدلاً من (الدولة العلية) وهو بذلك يصور المسألة باعتبارها صراعاً بين قوميتين: التركية والمصرية وأخيراً فهو يشير إلى أعوان السلطان والدولة العثمانية في مصر ويستعدى عليهم سلطات الاحتلال عندما يقول أن بعضهم يحتل مراكز عليا في البلاد.

ويرفض (نجدي إبراهيم) اعتبار مسألة العقبة «مسألة دينية إسلامية»<sup>(١)</sup>. وكذلك فهو يعترض على «الإشارة إلى كل مخالف للسلطان في أمرها اشارتهم إلى أعداء الدين والخلافة» وهو يستند في رفضه هذا إلى عدة اعتبارات:

**الأول:** «إن الخلاف عليها - يقصد العقبة) قائم بين أميرين من أمراء الإسلام هما السلطان وسمو الخديو المصري».

**الثاني:** «إن الحكاية لا تخرج عن خلاف بين اثنين على ملكية الأراضي».

**الثالث:** «إن الأديان لم توجد لتكون ملاحاً في المنازعات والخصومات ولكنها وجدت لأغراض أسمى وأهم لا علاقة لها باختلاف الناس على حدود أملكهم وتباين مصالحهم السياسية والمالية وبقيّة هذه الشؤون».

**الرابع:** «إن السلطان خليفة ورئيس ديني لأهل الإسلام جميعهم ولكن والإمارة المصرية مكونة من أمة فيها المسلم وفيها القبطي وفيها الإسرائيلي وفيها الأجناس الأخرى وأن أملك الإمارة المصرية أملكها من وجه قضائي أو مدني وليس من وجه ديني فإذا كان للمسلمين من أبناء مصر رئيس ديني. فليس يجوز لهذه الفئة أن تهب ما أراد من أملك الأمة بمجموعها وليس يحق لأفرادها أن تعد كل من خالفهم في هذه الهبة عد لدينهم لأن المسألة مسألة امتلاك وحقوق وليس مسألة مذهب ديني وهي أمر يتعلق بالأمة المصرية وبالبيت الحاكم في مصر وليست من الأمور المتعلقة بمبادئ الدين».

ثم انتهى الكاتب من ذلك كله إلى تأكيد ملكية مصر لسيناء فقال «إذا انتضح ما تقدم فنحن ننطق بلسان مصر وأبنائها ونقول إن بلاد سيناء لمصر وليست لتركيا وأن إعتداء تركيا عليها في هذه الأيام لا يجوز وأن الأمة المصرية لا تريد التنازل عنها لأحد وكل قول غير هذا مردود وكل حجة غير حجة القانون والعقل في هذه المسألة من أدلة القاصرين».

(١) الوطن - ١١ مايو سنة ١٩١٦ مقال بعنوان (الرأي في العقبة)

وكثيراً ما هاجمت صحيفة الوطن دعوة الجامعة الإسلامية وكانت تتحيز الفرص للنيل من الدولة العثمانية وسلاطين آل عثمان وخاصة السلطان عبد الحميد الثاني، وكان (نجدي إبراهيم) يرى أن الجامعة الإسلامية (وهم) خلقه السلطان عبد الحميد الثاني لتهديد دول أوروبا فهو يقول: «إن السلطان عبد الحميد يهدد أوروبا في بعض الأحيان بذكر هذه القوة الدينية وهو يفعل ذلك إتكالاً على جهل أوروبا بالحقيقة.. لا على قوة صحيحة ناشئة عن رئاسته الدينية لأن هذه الرئاسة لا علاقة لها بالسياسة والأحكام ولا تقيم الشعوب الإسلامية لحرب على دولة آل عثمان ولو أن في هذه السيادة الدينية شيئاً صحيحاً من القوة يمكن للدولة العلية أن تستخدمه على أوروبا لفعلت وما تأخر سلاطينها عن الاستنجاد بهذه القوة من زمان طويل<sup>(١)</sup>» ثم افترض (نجدي إبراهيم) إمكانية السلطان إثارة المسلمين الخاضعين لدول أوروبا المسيحية ولكنه قال إن دول أوروبا يمكنها أيضاً أن تثير على السلطان الشعوب المسيحية الخاضعة لحكم الدولة العثمانية: «وحتى لو حاول السلطان أن يستخدم النفوذ الديني لإثارة الشعوب الإسلامية على أوروبا سهل على أوروبا أن تعامله بعملة وتثير عليه الشعوب المسيحية في بلاده وتمدها بالسلاح والمال فتكون العاقبة على الدول العلية أو ضح من الوبال.. فالذي يقيم في بيت من الزجاج لا يجوز له أن يرشق الآخرين بالحجارة».

وذكر الكاتب أن الشعوب الإسلامية لا يمكن أن ترضى بأن تستبدل الحكم الأوروبي بالإستبداد التركي وطرح فكرة غريبة تقول بأن الشعوب الإسلامية إذا خيرت بين نوع الدول التي تحكمها فإنها سوف تختار حكم الدول الأوروبية لأنه أقل ظلماً واستبداداً من الحكم التركي ثم تطوع الكاتب ناصحاً الدول الأوروبية الاستعمارية بأن كل ما يلزمها لتثبيت أقدامها في البلاد الإسلامية هو أن تسير في حكمها على خطة إنجلترا.. التي تحكم - في نظر الكاتب بالعدل والحرية» إنك لو سألت المسلمين في جميع البلاد عما يريدون رأيت أنه ليس منهم جماعة تريد أن تخلص من رمضاء الأحكام الأوروبية بنار المظالم التركية فمن العبث أن تعد الخلافة قوة في يد السلطان بعد هذا البيان وكل ما يلزم للدول الغربية في الأقطار الإسلامية هو أن تسير على خطة حكومة إنجلترا في العدل وإعطاء الحرية للأديان والأفراد».

وفي خضم هذا الصراع بين أنصار الجامعة الإسلامية وأعدائها يخرج بعض الكتاب بأفكار جديدة، فيدعو عبدالله النديم إلى (الجامعة الشرقية) وهي في رأيه تلك الجامعة التي «تحفظ الوحدة الشرقية من عرب وهجم وترك وجركس وكرد وأرمن وغيرهم على إختلاف الدين»<sup>(٢)</sup>. فالنديم كان يرى أن الوحدة يجب أن تقوم بين شعوب (الشرق جميعاً) وليس بين (مسلمى الشرق وحدهم) على اعتبار أن الخطر الاستعماري الأوروبي لا يهدد المسلمين في الشرق وحدهم بل يهدد الشرقيين جميعاً مهما اختلفت أديانهم.

(١) الوطن - ٢ يناير سنة ١٩٠٩ مقال بعنوان (الجامعة الإسلامية).

(٢) الأستاذ - ١٣ يونيو سنة ١٨٩٣.

وإذا كان «عبدالله النديم» يرفض (الجامعة الإسلامية) كفكرة دينية ويدعو بدلاً منها (الجامعة شرقية) كان «سليم تقلا» يرفض أيضاً (الجامعة الإسلامية) ولكنه يقدم «الجامعة العثمانية» بديلاً عنها.. فهو يطالب «بوجوب تأييد التبعية العثمانية واحترامها وتوفيقها والمحافظة عليها بالنفس والتفيس فهي معقلنا وحصننا وسياجنا»<sup>(١)</sup> ووقف (الأهرام) في صف الدولة العثمانية في أزمة العقبة.

فعندما تأخر وصول فرمان تولية عباس حلمي الثاني كتب سليم تقلا يقول: «ثبت من الأخبار الخصوصية عن دار الخلافة أن علة تأخير فرمان من إنجلترا التي تنوعت في سياستها وتفتنت في مطالبها وتعززت في إشتراطاتها كأنها هي المالكة لمصر وصاحبة الأمر المطلق فيها مما نفر الجناح السلطاني واضطره إلى أن يأمر بتأخير فرمان فيعرف الإنجليز أن جلالتهم مطلق التصرف في بلاده يتصرف تصرف المالك الشرعي في أرضه سواء كان ذلك في مصر أو في ما بين النهرين فكلاهما واحد لديه»<sup>(٢)</sup>. وأعلن أن المصريين جميعاً يؤيدون الباب العالي في موقفه من مسألة العقبة «ونحن نعلم علم اليقين أن المصريين كلهم مرتاحون من سياسة الخليفة أمير المؤمنين» ثم نبه (تقلا) كبار المسئولين في مصر أن عليهم أن يعرفوا أن مصلحة مصر في مزيد من الارتباط بالدولة العثمانية وأنهم من يهمل العمل من أجل هذا الارتباط بالخيانة في حق وطنه «وتود من المصريين عموماً والقابضين على زمام الأمر منهم خصوصاً أن يعرفوا أن مصلحة مصر السياسية لا تقوم إلا بالسلطنة السنية قيام مصالحتهم العلية بالخلافة العثمانية فإذا أهملوا الأول فقدوا الثانية وهذه جريمة وتلك خيانة وكلاهما ذنب لا يغتفر».

ورد (الأهرام) على صحيفة المقطم التي ادعت أن إنجلترا في وقوفها في وجه السلطان في مسألة العقبة «إنما تدافع عن مصالح مصر والمصريين»<sup>(٣)</sup> فقال (الأهرام) «إذا قيل أن إنجلترا إنما تروم ذلك خدمة لمصر قلنا إن خدمة مصر تقوم بالمحافظة على الرضى السلطاني الشريف»<sup>(٤)</sup>.

ويلاحظ أن موقف (الأهرام) المتعدد في الدفاع عن الدولة العثمانية و (الجامعة العثمانية) قد هبطت حدته بعد الاتفاق الودي الذي تم بين إنجلترا وفرنسا عام ١٩٠٤ وبمقتضاه اعترفت فرنسا بنفوذ إنجلترا الخاص في مصر مقابل اعتراف إنجلترا بنفوذ فرنسا الخاص في المغرب العربي فقل هجوم الأهرام على سلطات الاحتلال إن لم نقل أنه قد ندر وتقلص اهتمامها بالرابطة العثمانية واتخذت موقفاً أقرب إلى الحياد من الصراع التركي البريطاني على مصر.

وبدأ «الشيخ على يوسف» حياته الصحفية مؤيداً متحمساً للجامعة العثمانية.. وداعية لتوثيق الروابط بين مصر والدولة العثمانية.. فقد كان يرى: «إن دوام ارتباط مصر بالجامعة العثمانية عنوان على حياة البلاد الأبدية»<sup>(٥)</sup>.. وإنه «بقدر ما يكون الجفاء بين مركز مصر السياسي وبين دار الخلافة العظمى يكون التدلي بالأولى إلى مكان سحيق من الضعف والإنحلال كما أنها

(١) الأهرام - ١٠ فبراير سنة ١٨٩٢ (مقال بعنوان (لمحة - مستقبلنا)

(٢) الأهرام - ٢٤ مارس سنة ١٨٩٢ مقال بعنوان (حول مسألة العقبة)

(٣) المقطم - ٢٥ مارس سنة ١٨٩٢ .

(٤) الأهرام - ٢٦ مارس سنة ١٨٩٢ - مقال بعنوان (لمحة - من جرى في عنان أمله عثرت رجله بأجله).

(٥) المؤيد - ٦ فبراير سنة ١٨٩٢ مقال بعنوان (الجامعة العثمانية).

قتربت منها صفاء ورابطة زادت حيوية واشتدت أزرًا وقويت أملاً في المستقبل.. وهو يؤكد أن تدعيم روابط مصر بالدولة العثمانية لن يمس أبداً إمتيازات مصر الإستقلالية التي منحت إياها بمقتضى فرمانات الشاهانية ذلك أن «إمتيازاتها الخصوصية أكبر ضامن لها على بقائها من شدة القرب في دائرة الإستقلال الإدارى الذى برهن على مر الأزمنة وكر الحوادث على أنه مفيد لمصر من كل وجه».

وكان على يوسف يعتقد أن التضامن بين الشعوب الإسلامية.. والدولة العثمانية أمر ضرورى لحفظ هذه الشعوب من الضياع.. وهاجم المحاولات التى تجرى فى بعض أملاك الدولة العثمانية وخاصة فى الولايات العربية للاستقلال عن الدولة وقال إن الخروج عن الولاء للدولة العثمانية لا بدليل له سوى الوقوع فى براثن الإستعمار الأوروبى: «فليس أمام الأقاليم العثمانية إلا أحد أمرين إما الرضى بما عليه من الإجتهد فى تقوية هذه الرابطة والصبر على نيل أمانى الإصلاح بقدر ما تسمح به الفرص وتساعد عليه الظروف وإما خروج عن حيزهم القديم إلى غايات مسكونة بالوحوش الكاسرة والأسود المفترسة فيقعون فى مضغة أفواههم».

وأخذ يضرب الأمثلة التى تؤيد رأيه مثل تمرد حكام تونس على الدولة حتى نالوا استقلالهم عنها فلم يلبثوا أن وقعوا فريسة للإستعمار الفرنسى «فهذه بلاد تونس استنكف أمرؤها فى الأيام الماضية أن تسير تابعة إلى دار الخلافة العظمى وطلبت لها مميزات خصوصية على أمل أن ذلك أدعى لزيادة الإصلاح والكمال وبعد أن حصلت على تلك المميزات لم تلبث زمناً طويلاً حتى وقعت فريسة للفرنساويين».

ثم ضرب مثلاً آخر بمصر «وهذه مصر كم حاربت وأراقت الدماء فى مدة حكامها السالفين لنيل الإستقلال بادارة أمورها الداخلية حتى كان لمحاربتها نصيب مهم فى زيادة مشاكل الدولة وتأخرها وبعد أن وصلت بشق الأنفس ومداخله الغرباء إلى نوع من الاستقلال صارت إلى حالتها الحاضرة لا تستطيع أن تحرك صغيرة ولا كبيرة إلا بإشارة المحتلين». ثم قال إن «ما جرى لهذين الإقليمين جرى لغيرهما أيضاً من البلاد العثمانية مما هو معروف لدى العامة والخاصة».

وفى أزمة العقبة أيد على يوسف الدولة العثمانية وحمل إنجلترا مسئولية هذا الخلاف فقال «إن إنجلترا هى التى خلقت هذا الاشكال وفتحت باباً لتدخل قناصل الدول فى شئون مصر»<sup>(١)</sup>. وذكر أن إنجلترا تريد أن تجعل من «جامعتنا العلية وربطتنا العثمانية اسماً بلا مسمى»<sup>(٢)</sup>.

وعندما نشب النزاع بين تركيا واليونان عام ١٨٩٧ حول جزيرة «كريت» وفكرت الدولة فى إعادة بناء الأسطول العثمانى ودعت المسلمين جميعاً إلى الاكتتاب لمساعدة الدولة العثمانية فى بناء هذا الأسطول.. تحمس «على يوسف» لهذه الدعوة وقاد فى مصر حملة الدعاية لهذا الاكتتاب وبدأ ينشر يومياً على صفحات المؤيد كشوقاً بأسماء الذين اشتركوا فى هذا الاكتتاب والمبالغ التى دفعوها تشجيعاً لغيرهم من المواطنين على الاكتتاب ثم كتب يشيد بإقبال المصريين على هذا الاكتتاب فقال: «لقد برهنت الأمة المصرية بإقبالها الشديد على مشروع الاكتتاب الوطنى لإعانة العسكرية الشاهانية إنها تعرف مصلحتها الحقيقية الموقفة على حفظ وسلامة الدولة العلية وجامعة الخلافة الكبرى»<sup>(٣)</sup>.

(١) المؤيد - ٩ أبريل سنة ١٨٩٢ - مقال بعنوان (الفرمان العالى)

(٢) المؤيد - ١١ أبريل سنة ١٨٩٢ - مقال بعنوان (رلى أى طريق نحن سائرون)

(٣) المؤيد - ٢٠ مارس سنة ١٨٩٧ - مقال بعنوان (مشروع الاعانة العسكرية الشاهانية).



وعندما تشبثت الحرب بين تركيا واليونان وقف على يوسف يؤيد الأتراك ويدافع عنهم وكانت أخبار الحرب تحتل الصفحات الأولى من (المؤيد). وفي أحد تعاقباته على حوادث هذه الحرب هاجم المجترا وأعلن أن انتصار الدولة العثمانية هو انتصار لمصر وطالب بتدعيم روابط الولاء بين مصر والدولة فقال «يعلم المصريون كافة أن في سلامة الدولة العلية سلامة مصر وفي المحافظة على حياتها صيانة مستقبل بلادنا المحبوبة.. ويعلم الناس كافة أن الإنجليز أشد أعداء الخلافة والدولة وعملوا ويعملون لتقويض أركان السلطنة العثمانية وأنهم ما أشهروا عداؤهم لها إلا من يوم توثيق العلاقات والروابط بينها وبين مصر فكل سوء يمس بسلطنة آل عثمان يمس مصر.. ولا محالة أن كل فوز لها فوز لمصر واعلاء لشأنها»<sup>(١)</sup>.

وعندما كتب (فارس نمر) في (المقطم) يهاجم فكرة الجامعة الإسلامية ويقول إن المسلمين إذا أرادوا الرقي «فعليلهم بأشياء ثلاثة: تعميم المدارس الابتدائية في جميع البلدان الإسلامية وطبع الكتب المفيدة ونشر الجرائد بين العامة وإنشاء الجمعيات في كل المدن الكبرى وإرشاد الناس إلى ما فيه خيرهم وصلاتهم»<sup>(٢)</sup>.

ورد (علي يوسف) على فارس نمر فقال إن ما يطلبه فارس نمر لا يمكن أن يقوم إلا إذا وجدت فكرة كبرى توجهه وهي فكرة الجامعة الإسلامية.. ولا بد لهذه الفكرة من يد قادرة على قيادتها مثل الدولة العثمانية: «ليت شعري إذا كانوا يرون من لوازم ترقى الأمم الإسلامية إنشاء المدارس في جميع بلدانها ونشر الجرائد الصادرة بين العامة وحشها على قراءتها ونشر الكتب الرخيصة بين الفقراء وإنشاء الجمعيات في المدن.. فهل يكون ذلك بلا قوة رئيسية مدبرة تمد العاملين في كل جهة بالمعونة التي تحتاجها لإرشاداً ونصيحة وتوحد جهد الكل حتى يكون العمل حقيقة أساساً متيناً لتحقيق الجامعة الإسلامية.. وإذا كان لابد من تلك القوة الرئيسية المدبرة فهل الأجدر بها أن تكون في بلد غير دار الخلافة العظمى حتى يكون لمكانها ومكانتها تأثير في نفوس عامة المسلمين إذ هي أرشدتهم إلى ما فيه خرمهم وصلاتهم»<sup>(٣)</sup>.

وعندما عاد (فارس نمر) في اليوم التالي يفند آراء على يوسف ويقول أن الجامعة الإسلامية تثير مخاوف المسلمين وتزيد من عداوة الأوروبيين للمسلمين<sup>(٤)</sup>. رد عليه الشيخ على يوسف في اليوم التالي قائلاً: «إن هذا يقوى حجتنا في أن تحقيق الجامعة الإسلامية من أنفع الأشياء للمسلمين لأنه إن كانت دول أوروبا جميعاً أعداء لنا ونحن معاشر المسلمين ضعاف.. وإنه إذا كانت أوروبا ترى تحقيق الجامعة ضد مصلحتها حتى إنها انتقمنا منا بأشد أنواع الانتقام عندما وجه أفراد قلائل منا وجوههم نحو الأستانة العلية عقب الحرب العثمانية الروسية فما ذلك إلا لأن تقارب المسلمين بعضهم ببعض وتبادلهم شعائر الوحدة العلية وشعورهم بأنها طريق القوة..

(١) المؤيد - ٢٣ مايو سنة ١٨٩٧

(٢) المقطم - ٨ أغسطس سنة ١٨٩٦

(٣) المؤيد - ٢٣ مايو سنة ١٨٩٧

(٤) المقطم ١١ أغسطس سنة ١٨٩٩

والقوة دعامة الحياة وسياجها.. وإذا كان الأمر كذلك لم يكن الاشتغال والبحث لتحقيق هذه الجامعة سعياً وراء ما يجلب الضرر على المسلمين وخصوصاً الذين هم تحت سلطة دول مسيحية فيكون هذا السعى مكروهاً من حيث هو، بل الواجب أن يتفق محبو الإسلام والدولة العلية خصوصاً على ألمحجج الوسائل لتحقيق تلك الجامعة»<sup>(١)</sup>.

ولكن موقف الشيخ على يوسف تغير بعد ذلك.. ولم يعد ذلك الكاتب المستحس للجامعة العثمانية وللدولة العلية وقد اتفق ذلك الموقف الجديد من بداية عصر (الوفاق) بين الخديو عباس حلمي وسلطات الاحتلال الإنجليزي بعد عزل كرومر.. فترى الشيخ على يوسف يكتب في عام ١٩٠٧ قائلاً إن الجامعة الإسلامية كعقيدة سياسية غير موجودة.. وهو يفسر ذلك بأن الجامعة الإسلامية قسمان: «دينية وسياسية.. والدينية موجودة بوجود العقيدة الإسلامية والسياسية غير موجودة ولم توجد لعدم وجود الرابطة بين الأمم الإسلامية.. وهى المصلحة.. ذلك أن المسلمين إذا أوجدوا جامعة سياسية إسلامية أوجد غيرهم جامعة مسيحية وهكذا فتكون المضرة من ذلك عليهم»<sup>(٢)</sup>.

وأعلن الشيخ على يوسف أنه «يؤمن بالجامعة الإسلامية من الناحية الدينية ولا يؤمن بها من الناحية السياسية».

وهذا يعنى فى الترجمة العملية أنه لم يعد يعترف بوجود الجامعة الإسلامية كحركة سياسية.. وهذا يتناقض تماماً مع كل ما كتبه من قبل عن الجامعة الإسلامية والرابطة العثمانية وبالذات فى رده على «فارس نمر» عام ١٨٩٩ .

وكان من رأى إبراهيم المويلحى أنه «لا وطن فى الإسلام.. بل الدين هو الوطن وشريعته الغراء هى الحكومة ودولته الزهراء هى الخلافة»<sup>(٣)</sup>.

وهو يرى أيضاً أن «الخلافة هى مرجع المسلمين فى أمورهم الدينية والدنيوية».

وكان «إبراهيم المويلحى» يرى أن جهود السلطان «عبد الحميد الثانى» فى الدعوة للجامعة الإسلامية وتوحيد كلمة المسلمين قد أثمرت نتائجها وباتت الدول الأوروبية تعمل حساباً للدولة لدرجة أنها صارت تستعين بنفوذ الخليفة فى تهدئة ثورات بعض الشعوب الإسلامية المحكومة لها: «لقد أدركت الدول الأوروبية تأثير مقام الخلافة على نفوس المسلمين كافة فى أنحاء الأقطار وما أيقنت به من اجتماع قلوبهم على تقديس هذا المقام والأخذ بالطاعة فى ما يأمر به والإمتثال لما ينهى عنه حتى تحولت الدول من السعى فى مقاومة ذلك النفوذ فى البلاد الإسلامية التى تحت سلطتها إلى الاستفادة منه والإستعانة به والإنتصار بسلاحه فى سلمها وحربرها وهذه الدولة الإنجليزية لما قدمت على أهل الترנסقال جميع قواها الحربية رأت لنفسها من أسباب الوقاية والظفر أن يطلب من الخليفة أمير المؤمنين إشارة للمسلمين من أهل (كمبرلى) ليقيموا على سكوتهم ولا يشتركوا مع أهل الترنسغال فى عداونهم وهذه الدولة الألمانية التى تقود الأمم

<sup>(١)</sup> المؤيد - ١٣ أغسطس سنة ١٩٠٧ .

<sup>(٢)</sup> مصباح الشرق - ٢٢ مارس سنة ١٩٠١ مقال بعنوان (بحار يون القرآن - لا السلطان).

الغربية إلى جهاد الصين رأت الاستعانة المعنوية بنفوذ الخلافة الإسلامية مما يرد عنها حرب المسلمين من الصينيين ويكفيها غائلهم بما لم يكفه سن السيف ونيران المدافع فطلبت من الخليفة أمير المؤمنين إرسال وفد إلى أهل تلك البلاد يشير عليهم بالسكون فما أعظم هذا المقام مقام الخلافة وما أعز شأنه لم يتقدم (روبرتس) بجيوشه في أرض الترنسفال إلا وبه حاجة إلى نفوذ الخليفة معه ولا أقام (والدرس) بجنوده في أرض الصين إلا وهو في حاجة للإنتصار به (١).

ثم طالب الكاتب المسلمين «بالسعى على اتصال علائق المسلمين في أقطار الأرض بعضهم ببعض وربط الصلة بينهم جميعاً وبين مقام الخلافة بأن يتدب باب المشيخة الإسلامية جماعة من نخبة العلماء ليتوزعوا في الأنحاء الإسلامية ويعقدوا بين المسلمين أوامر الاتحاد وأواصر الألفة ويرشدوهم إلى ما فيه الخير في حياتهم ومعادهم».

ونفى الكاتب أى احتمال لقيام معارضة لهذه الخطوة ومن جانب الدول الأوروبية التي تسيطر على الشعوب الإسلامية فقد أيقنت هذه الدول «المتغلبة على أرض الإسلام بمبتانة هذا الارتباط بين المسلمين ودولة الخلافة فانتفعت به وربما دعتها مصلحتها إلى المساعدة على توسيع نطاقه ليكون لها عاصماً عند الحاجة».

وضرب الكاتب مثلاً لذلك بالعريضة «التي نشرتها جريدة (وطن) الغراء من جرائد الهند تطلب فيها بالنيابة عن أربعين مليوناً من المسلمين أن يرسل إليهم الخليفة مندوباً عثمانياً يقيم في أرضهم كالمعتمد الدينى ويكون واسطة مستحدثة بينهم وبين دار الخلافة وما كان ذلك إلا من رضى الدولة الإنجليزية (٢)».

إن أقوال المولى توكد - لما هو معروف عن علاقته الوثيقة بالباب العالي - إن فكرة الجامعة الإسلامية لم تكن في نظر السلطان عبد الحميد الثانى وأعوانه سوى وسيلة لتقوية مركز الدولة العثمانية بين الدول الأوروبية ولعل أكبر دليل على ذلك هو استعداد السلطان بل موافقته على استخدام دعوة الجامعة الإسلامية لتأييد النفوذ الاستعماري في بعض البلاد التي يدين سكانها بالإسلام كما حدث في الصين والترنسفال والهند وبذلك تحولت الدعوة من سلاح في خدمة الشعوب الإسلامية في صراعها ضد الاستعمار الأوروبي إلى سلاح في يد الإستمارة الأوروبي في مواجهة حركات التحرر الوطنى في البلاد الإسلامية.

أما مصطفى كامل فكان يعتقد أن في الارتباط بالدولة العثمانية مصدر حماية لمصر من أن تتحول إلى مستعمرة بريطانية وكان يحاول بكل جهده للإستفادة بنفوذ الدولة العثمانية وحثها الشرعى في السيادة على مصر لإخراج إنجلترا بين الدول ودفعها للجلاء عن الأراضي المصرية.. لذلك كان يحرص دائماً على الدفاع عن الدولة العثمانية ويدعو المصريين إلى تعميق ولائهم للدولة العثمانية.. وقد اعتبر أن خير إنقلاب حدث في عصر الخديو عباس حلمى الثانى هو «توثيق روابط الاتحاد بين مصر والدولة العلية» (٣)

(١) مصباح الشرق - ١٥ مارس سنة ١٩٠١ مقال بعنوان (نهضة ننتهز)

(٢) مصباح الشرق - ١٥ مارس سنة ١٩٠١

(٣) اللواء - ٨ يناير سنة ١٩٠٠ مقال بعنوان (الأمة والأمير)

وإن الأمة المصرية بأسرها تأمل من صميم الفؤاد «بناء الصلة بين عابدين وبلدز قوية مثبتة.. وأن يظل ارتباطها الأكيد بالدولة العلية صاحبة السيادة الحقيقية على مصر والمصريين».

ويرى مصطفى كامل أن حماية الإسلام من دسائس أعدائه رهن بتحقيق شرطين:  
الشرط الأول: «أن يقوم من بنى الإسلام رجال يضحون بحياتهم لخدمة الإسلام ويهبون أعمارهم لأحبائه وإعلاء شأنه فيكونون فينا كالجزويت والقرير الذين يقضى الواحد منهم عمره لخدمة دينه ونشر مبادئه»<sup>(١)</sup>.

والشرط الثاني: «التعلق الصادق برأية الخلافة الإسلامية العثمانية».

وعندما حاول البعض أن يوقع بين مصطفى كامل والسلطان كتب مصطفى كامل يعلن إخلاصه للسلطان فقال «إنى كما يعلم عموماً من أول يوم ناديت فيه بحقوق بلادى لم أتحول عن المبادئ التى اتخذتها أو الخطة التى سرت عليها حيث رسخ فى نفسى واعتقدت إعتقاداً لا تنزع من قلبى الحوادث والأيام أن سلامة بلادى وإعلاء شأن الإسلام أمران لا يتحققان إلا بالعمل لجلاء الإنجليز عن مصر أولاً.. ويجمع كلمة المصريين حول أمير البلاد ثانياً وتوثيق عرى الارتباط والإتحاد بين مصر والدولة العلية ثالثاً وباحترام وتقديس مقام الخلافة العظمى والسلطنة السنية رابعاً»<sup>(٢)</sup>.

وفى عيد جلوس السلطان عبد الحميد الثانى كتب مصطفى كامل يهنئ الخليفة وقال إن له أمنتين لدى الخليفة: الأولى «أن يسعى جلالة مولانا أمير المؤمنين مستعيناً بالله الذى هو خليفة رسوله ويستعمل نفوذه الدينى المقدس فى جعل الإتحاد الإسلامى المعنوى إتحاداً إسلامياً مادياً مؤلفاً من جميع إمارات الإسلام وممالكه ليقوى على إحتمال صدمات تيار الاتحادات الأوروبية لأن المجترة أصبحت خليفة اليابان وكلتاها دولتان ضخمتان وروسيا حليفة فرنسا.. وألمانيا حليفة النمسا وإيطاليا وكلهن يسعين إلى اجتذاب الولايات المتحدة إليهن فعدم وجود إتحاد إسلامى أمام هذه الإتحادات العظمى أمر لا تخفى نتيجته على ذكاء جلالة مولانا أمير المؤمنين»<sup>(٣)</sup>.

أما الأمتية الثانية فهى «مضاعفة الإهتمام ببحرية الدولة العثمانية ليرى المسلمون منشأتها تجرى فى البحر كجوارى الدول الأخرى فيرفعون رؤوسهم إعجاباً وفخاراً إعتقاداً على الله وعلى قواها».

وفى أزمة طبابا كان من الطبيعى أن يقف مصطفى كامل فى صف الدولة العثمانية.. وكانت حجته فى ذلك هو تدخل المجترة فى المسألة فهو يقول «نحن لا نعرف كيف تدعى المجترة لنفسها حتى حماية مصر ضد تركيا وهى «هى» صاحبة السيادة الشرعية على وادى النيل»<sup>(٤)</sup> وأعلن مصطفى كامل أن «تركيا تحتل فى «طابه» أرضاً عثمانية»<sup>(٥)</sup>.

(١) اللواء - ٥ مارس سنة ١٩٠٠ مقال بعنوان (كيف يحمى الإسلام)

(٢) اللواء - ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٠٠ مقال بعنوان (الدسائس والوشايات).

(٣) اللواء - أول سبتمبر سنة ١٩٠٢ مقال بعنوان (عيد الخليفة والإسلام)

(٤) اللواء - ٧ مارس سنة ١٩٠٦ مقال بعنوان (مسألة العقبة)

(٥) اللواء - ١٧ مارس سنة ١٩٠٦ .

ويرى أحمد لطفى السيد أن «الجامعة الإسلامية لا أثر لها في مصر ولا نظن لها وجوداً في مصر»<sup>(١)</sup>

ورغم ذلك فهو يقول بأن فكرة الوحدة الإسلامية قد تحول أحياناً بخواطر بعض الناس «الذين لا يزالون بعيدين عن الاشتغال بالسياسة والنظر في الأمور العامة بشئ من التدقيق.. ولكن تلك الفكرة لم تخرج عن حيز الخواطر التي تظهر وتختفي تبعاً للحواث».

ويبرر لطفى السيد إنتشار فكرة الجامعة العثمانية في مصر بأنه «كلما رأى المصريين اتفاق رجال السياسة الأوروبية على شئ يضر بمصلحة مصر أو يبعد ميعاد استقلالها أو ينفذ إستمرار الاحتلال إلى الأبد قارنوا بين مصر وبين غيرها من ولايات البلقان التي استقلت واستتجوا من ذلك أن ذنب مصر أنها أمة إسلامية وأن أوروبا لا تساعد في الشرق إلا الأمم المسيحية فتمنى بعضهم أن لو كان للمسلمين وحدة، كما للمسيحيين في أوروبا.. هذه الوحدة التي يتخللون وجودها وأنها كانت الحامل لأوروبا على التداخل في أمر ولايات البلقان وأرمينية.. نقول ذلك ونحن لا نعرف أنه يوجد في اللغة كلمة جامعة مسيحية (بانيكر يستبانسم) كما خلفت كلمة جامعة إسلامية (بانيسلامسم) على أن عقلاء المصريين لا يرون لكليهما وجوداً في العالم ولكن السياسة تخلق ما تشاء فليس لأوروبا أن تتوجس خيفة من فكرة ساذجة كهذه بعيدة عن أن تؤدي إلى اعتداء ومن جهة المصريين ولا أن تسبب قلق المستعمرين من الأوروبيين.. بل يرى هؤلاء العقلاء أن الذي خلق هذا الخطر الساذج هو مظاهر السياسة الأوروبية في الشرق».

ويؤكد لطفى السيد أن الجامعة الإسلامية ليست «موجودة وجوداً حقيقياً كما أنها ليست مقصداً من المقاصد التي يسعى المسلمون لتحقيقها».

ويرى لطفى السيد أن الدين ليس بكاف وحده ليجمع بين الأمم.. إذ لا يجمع بين الناس سوى المنافع فقد «علمنا التاريخ وطبائع البشر أنه لا شئ بين الناس إلا المنافع فإذا تناقضت المنافع بين قبيلتين استحال عليهما أن يجتمعا لمجرد قرابة في الجنسية أو وحدة في الدين.. وأن أبلغ مثل على ذلك هو إنشقاق المسلمين على أنفسهم في خلافة أمير المؤمنين على بن أبى طالب مما هو مشهور ومأثور» وعندما انتشرت في مصر الدعوة للاكتتاب لصالح إنشاء أسطول عثمانى بعث لطفى السيد بمقال إلى (الجريدة) وكان وقتها في زيارة لأوروبا هاجم فيه الدعوة لهذا الاكتتاب وقال إن مصر أحق بكل دعم «إن كان الغرض من هذا التبرع الدفاع عن الأمة العثمانية وتقويتها فإن تقوية مصر والدفاع عنها أوجب على المصرى من كل واجب يميزه وأما إذا كانت قيمة المساعدة أدبية صرفة معناها إرتباط الأمة المصرية.. بالأمة العثمانية فذلك أبلغ في العبث من المساعدة الحقيقية المادية»<sup>(٢)</sup>.

وعندما وقعت الحرب الإيطالية الطرابلسية عام ١٩١١ وقادت صحف الحزب الوطنى الدعوة إلى مساعدة الدولة العثمانية في حربها ضد الإيطاليين فى ليبيا كتب لطفى السيد مجموعة من

(١) الجريدة - ٧ مايو سنة ١٩٠٧ .

(٢) الجريدة - ٧ سبتمبر سنة ١٩٠٩ مقال بعنوان (عليكم أنفسكم)

المقالات بعنوان (سياسة المنافع لا سياسة العواطف) اعترض فيها على «هذه الحركة التي ابتدأت بفكرة الجهاد الديني والتي هي من أكبر الأخطار على مصر لأن أي حركة من حركات التشيع أو إظهار المساعدة (الحرية الدينية) من شأنه أن يزيد مركز مصر إرتباكاً على إرتباك.. فالمصريون لا يجهلون أنهم أحق الناس بالمساعدة من كل وجه فمن العبث أن يكون المرء غريقاً ثم هو يتشبث بمساعدة غيره مساعدة لا تنفع الغير ولكنها تضربه ضرراً بليغاً»<sup>(١)</sup>.

وعلى ذلك يرى لطفى السيد «انه يجب على المصريين لمصلحة بلادهم الا يجعلوا الدين - في هذه الظروف - قاعدة لاعمالهم السياسية - بل يجب عليهم ان ينقوا عنهم اليوم كما نقوا عنهم في الماضي كل تهمة من تهم التعصب الديني (البانيسلاميسم) و(الغاناتسم) ولقد علموا ان هذه التهمة كانت من أكبر الذرائع التي تذرع بها الانجليز الى البقاء في مصر وينذرون بها الى اليوم «ثم اعلن لطفى السيد انه يقول ذلك تطبيقاً لمذهبه الذي طالما نادى به وهو ان «أعمالنا السياسية يجب أن تكون قاعدتها المنفعة وذلك لأننا في زمان هو كذلك ولان التمدين الحاضر الذي نستمد منه كل قوة هو كذلك.. والغرب يحارب بهذا السلاح فمن الخطر الشديد علينا أن لا نقلده فيه».

ويرد لطفى السيد على كتاب الحزب الوطني «الذين يدعون إلى الجهاد الديني والخطباء الذين يخطبون بما يفيدهم فما بالهم يجرون بعيداً إلى طرابلس.. وطرابلس تحتلها دولة مسيحية - كما أن مصر تحتلها دولة مسيحية فلماذا يختارون أن تكون طرابلس هي مسرح الحرب الدينية ومصر أقرب ما يكون»<sup>(٢)</sup>.

ثم يلخص لطفى السيد موقفه من المسألة كلها فيقول: «نظريتنا هي تقوية شخصيتنا وإثبات شعور الحرية في نفوسنا والإلتفات إلى داخلينا وإصلاحها.. وبذلك نكون قد ساعدنا أنفسنا قبل أن نشدق بمساعدة الغير مساعدة لا تفيدهم ولكنها تضر بنا من الوجهة السياسية».

وفي صحيفة (العلم) لسان حال الحزب الوطني بعد (اللواء) كتب إسماعيل شيمى (أحد أعضاء اللجنة الإدارية للحزب الوطني) يطالب الشعب المصرى بمساعدة الدولة العثمانية في الحرب الطرابلسية بأن «يقف في وجوه المعتدين لينجى الدولة العثمانية.. تلك الدولة حامية القرآن الشريف فالويل لمن الويل لمن يتجاسر على مساسها»<sup>(٣)</sup>.

ويكتب على فهمى كامل - شقيق مصطفى كامل ونائب رئيس الحزب الوطني مقالاً بعنوان (النجدة- النجدة) يهيب فيه المصريين ان يقدموا العون للدولة في حربها ضد الإيطاليين في طرابلس «فالإلى أهل الغيرة العربية والحمية العلية والنخوة الإسلامية نكتب سائلين النجدة- النجدة. فإن فقرا مع الكرامة لهو العز كل العز فإننا ندعو الأمراء وكبار الأغنياء إلى تشكيل اللجان في كل مكان جمعاً للأعانات فإن النفوس متعطشة لمثل هذا التبرع»<sup>(٤)</sup>.

(١) الجريدة- ٢١ أكتوبر سنة ١٩١١ مقال بعنوان (سياسة المنافع لا سياسة العواطف).

(٢) الجريدة- ٢٣ أكتوبر سنة ١٩١١ (مقال بعنوان) (سياسة المنافع لا سياسة العواطف).

(٣) العلم- ٤ أكتوبر سنة ١٩١١ مقال بعنوان (القضاء المبرم)

(٤) العلم- ٤ أكتوبر سنة ١٩١١ - مقال بعنوان (النجدة.. النجدة)

ونفس الدعوة للوقوف بجانب الدولة العلية في حربها الطرابلسية يقول بها (عبدالرحمن الراجعي) الذي كتب يطالب الشعب المصري «بمعونة اخواننا المجاهدين بجوارنا لأننا أول من يسأل عنهم ونحن الآن أمام مسألة حياة أو موت فلنكن من الأحياء يكن معنا الله»<sup>(١)</sup>.

وعلى صفحات (العلم) أيضاً قام الشيخ عبدالعزيز جاويش بالتصدي للرد على لطفى السيد عندما كتب يهاجم الذين يدعون لمساعدة الدولة العثمانية في الحرب الطرابلسية.. فوجه إليه خطاباً مفتوحاً بدأه مخاطباً لطفى السيد ومطلقاً عليه اسم (عدو الإسلام) وقال: «أى عدو الإسلام نقمت منا أن ندعو المسلمين لتجدة المسلمين ونستنفر الموحدين لإغاثة الموحدين فماذا كنت تريد؟ أردت أن نتقدم إلى الباب بيد ميسوفة ورءوس خاشعة وأبصار مغضوطة وأدعية ضارعة أن يدفع عنا بلاء أمة تقول بصليبه وتدين بمذهبه إذن لقد ضل عقلك وخطل رأيك فلقد نشر أمام النصرانية - يقصد البابا - ذلك المنشور الذى بارك فيه الحملة الإيطالية على طرابلس - ثم دعا فيه أهل المسيح باسم المسيح وشفاعة المسيحية أن يستبيحوا المحارم وألا يكون فيهم غير ظالم.. ذلك قول خليفة المسيح فى الأرض وممثل المسيحية فى العوالم البشرية»<sup>(٢)</sup>.

وقال جاويش إن ذلك يؤكد أن الإيطاليين هم الذين أعلنوها حرباً دينية لا المسلمين ولا رجال الحزب الوطنى كما قال لطفى السيد فى إحدى مقالاته: «إذن فمن الذى دعا باسم الدين أنحن مسلمى مصر أم بابا روما؟»

ثم تساءل الشيخ عبدالعزيز جاويش «خبرنا ماذا كنت تريد من مخالفتك الإجماع ومناهضتك أهل البر والمرؤة؟ أردت أن تحلى صدرك بوسام من الملك عمويل أم أردت أن يضع الفرنجية على رأسك الأكاليل أم أردت أن تجهر بمعاداة العالم الإسلامى لتطابق بين العمل والعقيدة.. لقد ضلت والله مذهبك وشأيتك غاياتك ومآريك».

ثم أخذ الشيخ جاويش يستعدى شيوخ حزب الأمة على لطفى السيد فقال: «أى عدو نفس.. تزعم أن لك حزباً من ذوى التفكير.. والرأى فهل هذا كل آراء حزبك ومبلغ تفكيره.. إذا فلتعبر مصر فى شيوخ من أبنائها زاهقوا الثمانين من عمرهم فهم فى زمرك الطائشة الرعاء كالأك بين أقدام المتلاعبين».

وأخذت صحيفة (العلم) تنشر فى أعدادها التالية برقيات وخطابات تصل إليها من أفراد الشعب المصرى تستنكر آراء وخطة لطفى السيد فى الحرب الطرابلسية.

ولقد استمر الإتجاه المؤيد للدولة العثمانية والجامعة الإسلامية مسيطراً على كتابات الحزب الأكبر من الصحفيين المصريين حتى نشوب الحرب العالمية الأولى ودخول تركيا الحرب فى صف ألمانيا وضد إنجلترا فكان أن فرضت إنجلترا حمايتها على مصر وقطعت آخر خيط يربط مصر بالدولة العثمانية.. حيث بدأ الإتجاه الداعى للوطنية المصرية أو القومية المصرية يسود الحركة الوطنية المصرية وقد تجسد ذلك بأوضح ما يكون فى ثورة ١٩١٩.

(١) العلم - ٣١ أكتوبر سنة ١٩١١ مقال بعنوان (إلى مدير الجريدة.. أى عدو نفسه).

ولكن فكرة الجامعة الإسلامية سرعان ما طرحت على الرأى العام المصرى من جديد وذا.. حين فصلت الحكومة التركية الجديدة بعد الحزب منصب الخلافة عن منصب الدولة.. ثم أُلغى منصب الخلافة نفسه وطردت الخليفة العثمانى من تركيا.

فقد كتب الدكتور طه حسين فى صحيفة السياسة يعلق على فصل الخلافة عن الدولة فأكد أن المسلمين جميعاً قد فهموا الخلافة على أنها منصب دينى وسياسى معاً.. فإن «المسلمين على اختلاف آرائهم وتباين مذاهبهم وأحزابهم فى الخلافة قد أجمعوا فى جميع العصور والأمكنة على أن الخلافة منصب دينى وسياسى معاً، كذلك فهم المسلمون الخلافة ولا يزالون يفهمونها: فهي سلطة دينية لأنها مستمدة من القرآن، سياسية لأنها مدبرة لحياة الناس.. وقد تغيرت العصور واختلعت الأزمان ولم يستطع المسلمون أن يفرقوا بين الدين والسياسة وأن يعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله.. لأن الإسلام لا يرى أن لقيصر فى الأرض شيئاً وهو يرى أن الله وحده هو المسيطر على ما فى الأرض وهو المسيطر على ما فى السماء»<sup>(١)</sup>.

وقال الدكتور طه حسين إن المسلمين يواجهون اليوم تناقضاً حاداً بين إيمانهم بالخلافة من ناحية وبين تطورهم فى الحياة المدنية بما يخالف هذا الإيمان من ناحية ثانية: «إن إيمان الأمة الإسلامية كلها بنظرية الخلافة وسلطانها وإن كل شئ يجب أن يرجع إلى الخلافة سواء أكان دينياً أو سياسياً يتناقض من أخذهم بالحياة الحديثة الذى قضى بأن يتطور وجودهم العلمى تطوراً يخالف حياتهم العقلية فأصبحوا مدنيين فى العمل دينيين فى التصور والنظر».

ثم تحدث طه حسين عن تفكير الأتراك فى الفصل بين منصب الخلافة وبين السلطة السياسية فى تركيا بحيث يتحول منصب الخلافة إلى منصب دينى فقط وقال: «لقد نشأت فى البلاد الإسلامية فكرة جديدة لا عهد للإسلام بها وهى فكرة السلطة الزمنية والسلطة الدينية والفصل بين هاتين السلطتين».

وفى حالة الفصل بين السلطتين فى تركيا فإن طه حسين يرى أنه يصبح من غير الضرورى عندئذ أن تدين البلاد الإسلامية جميعاً للخليفة التركى حيث لم يعد هناك مبرر لإحتفاظ الأتراك بمنصب الخلافة «فإذا فقد الخليفة قوته السياسية وأصبح شيئاً يشبه شيخ الإسلام أو البابا فليس هناك ما يدعو إلى أن تدعن له البلاد الإسلامية بل ليس هناك ما يدعو إلى أن ترضى البلاد المختلفة بأن يحتفظ الترك لأنفسهم بهذا المنصب الدينى الجديد».

وفى رأى الدكتور طه حسين أنه لم يعد هناك ما يمنع فى هذه الحالة من أن يكون إختيار الخليفة بالإنتخاب «لقد كان الأتراك يحتفظون بالخلافة لأن الخلافة سلطة سياسية تؤيدها القوة وكانوا هم أصحاب القوة فى العالم الإسلامى فإذا أصبحت الخلافة سلطة دينية فليس ما يمنع أن يكون الخليفة عربياً أو فارسياً أو هندياً وبعبارة أخرى ليس ما يمنع من أن يعود الأمر شورى بين المسلمين كما كان قديماً وكما هو الآن عند الكاثوليك فينتخب الخليفة إنتخاباً كما كان ينتخب فى صدر الإسلام وكما ينتخب البابا الآن.. فالإسلام لا يعرف توارث الخلافة وإنما اضطرت إليه».

(١) السياسة - ٥ نوفمبر سنة ١٩٢٢ - مقال بعنوان (مسألة الخلافة).



قوة الملوك وعصبياتهم فإذا زالت هذه القوة والعصبيات زالت وراثته الخلافة وعاد الأمر إلى نصابه القديم».

وطالب طه حسين بوجود «هيئة إسلامية منظمة تنتخب الخليفة كلما خلا منصبه وهذه الهيئة الإسلامية يجب أن تمثل البلاد الإسلامية كلها تمثيلاً دينياً».

وعندما قامت الجمعية الوطنية التركية بعزل الخليفة العثماني (عبدالمجيد) وطرده إلى سويسرا تصدى (أمين الرافعي) في صحيفة (الأخبار) للحكومة التركية وأخذ يكتب سلسلة من المقالات يهاجم فيها الحكومة التركية لهذا القرار وقال إنه ليس من حق الجمعية الوطنية التركية إصدار هذا القرار.. فالخليفة لم يعينه الأتراك وحدهم وإنما «العالم الإسلامي كله قد بايع الخليفة الحالي عبدالمجيد وارتضاه لهذا المقام الجليل وليس من حق الجمعية الوطنية التركية نقض هذه البيعة من جانبها في حين أن جميع المسلمين مرتبطون بها»<sup>(١)</sup>.

وهاجم قرار إلغاء الخلافة وخاصة توقيته «فليس من حسن السياسة أن صدر ذلك القرار المشؤم في الوقت الذي يسعى فيه الإنجليز وغيرهم لإسناد الخلافة إلى بعض صنائعهم حتى يكون ذلك المقام الجليل العوبة في أيديهم».

وأعلن (أمين الرافعي) أن مصر مستعدة لاستقبال (الخليفة إذا رغب في ذلك: « هذا وإن مصر لترحب بمقدم جلالة الخليفة إليها وهي ولا شك ستقوم بواجبها المقدس نحوه ونحو أسرته الكريمة»<sup>(٢)</sup>.

وطالب علماء الدين في مصر بدعوة الخليفة إلى المجرى إلى مصر «كما نرجو من علمائنا أن يدعوا جلالة الخليفة للحضور إلى مصر ليعيش وأسرته في بلد إسلامي ويكون متصلاً بالمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها لأن فكرة إبعاده إلى سويسرا لا يقصد منها سوى الحيلولة بينه وبين المسلمين»<sup>(٣)</sup>.

ونشرت الأهرام مقالاً بعنوان (الخلافة الإسلامية ومشيخة الأزهر) بقلم (محمد قنديل الرحمانى) المحامى الشرعى وهو رد على بيان كانت مشيخة الأزهر قد أصدرته بعد عزل الخليفة ونفيه.. وذكر الشيخ الرحمانى جانباً من بيان المشيخة الذى قالت فيه «إن الإمام يصير إماماً بالبيعة من أهل الحل والعقد أو استخلاف إمام قبله ولا بد من هذا من نفاذ حكمه في رعيته خوفاً من قهره وسلطانه فإن بايع الناس الإمام ولم ينفذ حكمه فيهم بعهزه لا يصير إماماً بالبيعة أو الاستخلاف وتستفاد الأمة أيضاً بطريق التغلب وحده فإذا تغلب شخص على الخليفة واغتصب مكانه انعزل الأول وقد وجد التغلب مع البيعة أو الاستخلاف كما حصل لأكثر الخلفاء في الصعور الماضية وهذا كله مستفاد صراحة من نصوص السادة الخنفية».

وتصدى الشيخ الرحمانى لتفنيد ونقد هذا الرأى الذى قالت به مشيخة الأزهر فقال: «ونقول لمشيخة الأزهر المحترمة: إنك أجملت إجمالاً وأهملت إهمالاً وناءيت في حكم الله تعالى في

(١) الأخبار - ٣ مارس سنة ١٩٢٤ .

(٢) الأخبار - ٤ مارس سنة ١٩٢٤ .

(٣) الأخبار - ٥ مارس سنة ١٩٢٤ .

الخلافة والخليفة عن جادة الإفصاح إذ أن عمل الكماليين من الخليفين (وحيد الدين (عبدالمجيد) ليس من باب تغلب سلطان قاهر على خليفة إسلامي بانتزاع سلطاته قهراً وغلبة به هو مرق (خروج جماعة من الممتين للإسلام على خليفهم) والحكم الشرعي في ذلك وجوب محاربة الخوارج على الخلافة ومقاتلة الفتنة الباغية على الخلافة فإن تقاعس المسلمون وأحجب المؤمنون وتقاعد الموحدون السنيون على كثرتهم البالغة مئات الملايين عن نصرة الخلافة والخليفة غضب الله عليهم جميعاً وأثموا فرداً فرداً يا مولانا الشيخ الأكبر<sup>(١)</sup>.

ثم قال الشيخ الرحمانى «فاللهم لا حول للإسلام والمسلمين ولا قوة للخلافة الإسلامية وأمير المؤمنين إلا بك وحدك فهى لدين الإسلام من أمره رشداً وامتحة ولياً مرشداً وأبعد الأيدي السياسية من التدخل فى شئون دينك الذى أصبح سلعة يبيعها زيد ويشتريها شهاب الدين ووفق علماء دينك إلى الدفاع عنه بغيرة وصرامة».

وواضح أن الشيخ الرحمانى يتهم الأزهر بالرضوخ لبعض (الأيدي السياسية ويقصد بها فى ذلك الوقت الملك فؤاد الذى كان يطمع فى منصب الخلافة لنفسه).

وكان من الطبيعى أن يثير هذا المقال نائرة مشيخة الأزهر.. فطالبت الشيخ الرحمانى للتحقيق أمام رئاسة المحكمة الشرعية العليا بتهمة إهانة الأزهر.. إذ ينشر (الأهرام) تحت عنوان (مقالات الخلافة الإسلامية والشيخ محمد قنديل الرحمانى) مقالاً يقول فيه «إن الأزهر رأى فى هذه المقالات خطأً بالأزهر فحول الشيخ إلى التحقيق أمام رئاسة المحكمة العليا الشرعية ولكن المحكمة بعد التحقيق اتضح لها سلامة نية الشيخ الرحمانى وقرر حفظ الشكوى المقدمة ضده من مشيخة الأزهر<sup>(٢)</sup>.

وهكذا لم يكن الشيخ (على عبدالرازق) صاحب كتاب (الإسلام وأصول الحكم) هو أول من اصطدم بالأزهر عندما تصدى لمناقشة قضية الخلافة الإسلامية.. ولكن الفرق بين الرجلين أن الشيخ الرحمانى كان يدافع عن بقاء الخلافة بينما كان الشيخ على عبدالرازق لا يجد لها أى مبرر للبقاء.

ورغم ما أثاره عزل الخليفة العثمانى فى المصريين من عطف على الخلافة.. إلا أن ذلك لم يغير شيئاً من طبيعة التطور السياسى الجديد الذى سارت فيه الحركة الوطنية المصرية بعد ثورة ١٩١٩ حيث تبلورت الوطنية المصرية (الخالية من أية ارتباطات دينية).

\* \* \*

(١) الأهرام - أول أبريل سنة ١٩٢٤ مقال بعنوان (الخلافة الإسلامية ومشيخة الأزهر)

(٢) الأهرام - ١٢ يوليو سنة ١٩١٤ .

الكتاب الخامس

الفكر الديموقراطي  
في الصحافة المصرية



## الفصل السادس عشر

**الديموقراطية .. ومفهومها  
في الصحافة المصرية**



## ١٠ الديمقراطية:

ليس هناك معنى واحد محدد لكلمة ديمقراطية.. ولكنها على وجه الإجمال قد تشير إلى معنيين: مثل أعلى.. ونظام سياسى.. ورغم ذلك فالديموقراطية لا تتمثل فى شكل سياسى واحد.. وإنما هى نتاج لتطور الحياة الغربية.. ولذلك يشترك فى القول بها أصحاب مبادئ ونظم متعددة وقد تكون متعارضة.. إذ يقول بها الليبراليون والاشتراكيون والشيوعيون أيضاً.. فهناك الديمقراطية الاجتماعية والديموقراطية الاشتراكية والديموقراطية الشعبية.

ولكن الديمقراطية فى جوهرها تعنى سيادة مبدأ الشرعية.. فالسلطة تكون شرعية فقط فى حالة ما إذا كانت تنبع من الشعب وبرضاؤه.. وحرافياً تعنى الديمقراطية: سلطة الشعب أو حكم الشعب (١).

وترى دائرة المعارف البريطانية أن الديمقراطية تستخدم بعدة معانٍ.. فالتعريف الأصلى للكلمة: إنها شكل من أشكال الحكم يمارس فيه مجموع المواطنين مباشرة حق اتخاذ القرار السياسى تطبيقاً لحكم الأغلبية.. وهو ما يطلق عليه اسم الديمقراطية المباشرة.. وهناك «الديموقراطية التمثيلية» أو النيابية وهى شكل من أشكال الحكم يمارس فيه الأفراد الحقوق نفسها ولكن من خلال ممثلين عنهم يختارونهم.. ويصرون مسئولين أمامهم، وهناك شكل آخر من أشكال الديمقراطية يقترب من الديمقراطية التمثيلية إلا أن سلطة الأغلبية فيه تظل مقيدة فى إطار القيود القانونية التى تضمن للأقلية التمتع بحقوق جماعية وفردية مثل حرية الكلام والدين وهو ما يعرف باسم «الديموقراطية القانونية». كذلك فإن كلمة ديمقراطية قد تستخدم أحياناً لوصف أي نظام سياسى أو اجتماعى دونما اعتبار لماذا كانت الحكومة ديمقراطية بالمعنى الثلاثة السابقة أم لا.. وخاصة فى النظم التى تتجه إلى تقليل الفوارق الاقتصادية والاجتماعية بين الأفراد بالذات الفوارق الناشئة عن التوزيع غير العادل للملكية الخاصة.. وهى نظم تعرف بالديموقراطية الاجتماعية أو الاقتصادية أو الشعبية (٢).

وتعنى الديمقراطية فى نظر دائرة المعارف الأمريكية.. الطرق المختلفة التى يشترك بواسطتها الشعب فى الحكم.. ومن هذه الطرق الديمقراطية المباشرة وتعنى اشتراك الشعب فى اتخاذ القرارات وتنفيذ السياسة كما كان حادثاً فى المدن اليونانية القديمة.

وهناك الديمقراطية الليبرالية وهى السائدة فى الولايات المتحدة وبريطانيا وهى تعتمد على الحكومة الدستورية والتمثيل الشعبى وحق الانتخاب العام.. ثم هناك الديمقراطيات غير السياسية.. وهى التى يطلق عليها الديمقراطيات الاقتصادية والاجتماعية والشعبية.. وأكثر مفاهيمها- فى نظر دائرة المعارف الأمريكية- غامضة (٣).

والتعريف الحرفى للديمقراطية فى رأى «أرنولد توينبى هو: السيطرة الفعالة على الشؤون

(1) International Encyclopedia of Social Sciences, V. 4. The Macmillan Company- U. S. A. 1968 - pp.: 112 - 121.

(2) Encyclopedia Britannica- Volume 7 - U. S. A., 1973 pp: 215-224 .

(3) The Encyclopedia Americana- Volume 8 - Americana Corporation. U.S.A.- 1963 - pp. 639 - 650

الإنسانية من جانب الجماهير الشعبية.. ولكنه يرى أن هذا مثل أعلى نادراً ما يتم في الواقع. ويعتقد «توينبى» أن العالم سيتجه في المستقبل إلى الحصول على مزيد من التقدم نحو الديمقراطية بمعنى المساواة الاجتماعية أكثر منه نحو الديمقراطية بمعنى المساواة الاجتماعية أكثر منه نحو الديمقراطية بالمعنى السياسى أى الحكم الذاتى<sup>(١)</sup>.

ويعتقد «رينهولد نيور»: أن الحكومة الديمقراطية لا بد لها من ثلاثة شروط:

الأول: وحدة وتضامن المجتمع بالدرجة التى تسمح بالمناقشة دون تحديد لوحدة المجتمع نفسه

الثانى: الإيمان بحرية الفرد وحماية ملكيته.

الثالث: تحقيق الانسجام والتوازن بين القوى الاقتصادية والسياسة والاجتماعية لتحقيق العدل الاجتماعى<sup>(٢)</sup>.

ويفرق «رايموند أرون» بين الليبرالية والديموقراطية فيقول إن الليبرالية مفهوم متعلق بالغايات وحدود السلطة.. أما الديمقراطية فمفهوم متعلق بوسائل ممارسة هذه السلطة وتحقيق هذه الغايات وإن كان منطق الليبرالية يؤدي إلى الديمقراطية فإنه لكى تصبح الديمقراطية حقيقية لا بد من احترام الحريات الليبرالية كحرية التعبير وحرية المناقشة وحرية الاجتماع<sup>(٣)</sup>.

أما «هارفى هولبر» فيعتقد أن الديمقراطية هى الجانب السياسى لليبرالية.. وهى فى رأيه «تعنى أن السيادة لا بد وأن تكون للفرد.. فالديمقراطية ما وجدت إلا لتحقيق المصلحة الفردية». وعلى ذلك فهو يعتقد أن الديمقراطية الاقتصادية لا تعنى تحقيق العدل الاجتماعى كما يقول بذلك الاشتراكيون.. وإنما هى تعنى تحقيق الثروة الفردية وحمايتها<sup>(٤)</sup>.

ويرى «رولاند بينوك» أن الديمقراطية تعنى حكم الشعب نفسه وب نفسه.. وهى تعنى أيضاً أن كافة الأمور السياسية الهامة يجب أن تقرر عن طريق الشعب أو ممثليه.. الذين يأتون عن طريق الانتخابات الحرة.. وهو يعتقد أن وجود الديمقراطية رهن بتطبيق مبدأ سيادة القانون» فالحكم الديمقراطى هو الحكم القانونى.. وعلى ذلك فلكى تكون الحكومة ديمقراطية لا بد أن تتوافر لها الشروط التالية:

١ - أن لا يعاقب إنسان إلا فى حالة خرقه للقانون.

٢ - أن يطبق القانون على الجميع.

٣ - العقاب يجب أن يكون مناسباً للجرم.

(1) Toynbee. Arnold J. - Democracy in The Atomic Age- Oxford University Press- London, 1956 - p.2 .

(2) Niebuhr - Reinhold and Sigmund Paulo. E- ..The democratic experience - Frederick And A. Praeber Publishers. U.S.A, 1962-p. 73

(3) Aron- Raymond-.. An Essay on Freedom - The World Publishing Company- U. S. A. , 1970. p. 101.

(4) Wheeler.Harvey-.. Democracy in revolutionary Erepclican Book - London, 1971 n.



١٠ - صديق مبدأ سيادة القانون على مختلف نواحي الحياة فى الحكومة.

ويعتقد «بينوك» أن الليبرالية السياسية تتطابق مع الديمقراطية حين لا تفرق الحكومة بين الأفراد سواء فى النواحي التشريعية أو النواحي الإدارية.. وأن تطبق القانون عليهم جميعاً تطبيقاً عادلاً (١).

ويقول «جون بلا منتس» إن هناك اتفاقاً عاماً على أنه فى الديمقراطية يصبح من حق المواطنين التجمع معاً فى ضوء أى هدف أو مبدأ طالما أن أغراضهم ليست ضارة بغيرهم.. ولكنه فى نفس الوقت يعترف بأنه من الصعوبة تعريف ما هو ضار ولكنه مع ذلك يرى أنه ليس هناك أكثر ضرراً من حرمان الشعب من ممارسة حقوقه الطبيعية.. وهو يرى أيضاً أن الديمقراطية قد تعنى المساواة السياسية بمعنى المشاركة فى إصدار القرارات السياسية وفى الرقابة على القرارات الحكومية (٢).

ويرى «وليام ادوارد» و «مارتبول ليكى» أن هناك حالات لا تتطابق فيها الديمقراطية مع الحرية (Liberty) فوضع القوة السياسية الأساسية فى المجتمع فى يد الطبقات الجاهلة يعنى وضعها فى الأيدي الأقل اهتماماً بالحرية السياسية.. والذين قد يسرون - بولاء مطلق - وراء قائد قوى (٣).

أما «ادوارد بينيس» فيعتقد أن الديمقراطية هى فلسفة تبرير الحقوق الشرعية.. وقد قامت باعتبارها الجانب السياسى للبرالية بدور ثورى فى تفويض الملكية المطلقة فى أوروبا وأدت إلى قيام عامل جديد وهو خلق الطبقة البورجوازية فى الحياة الاجتماعية فى القرن التاسع عشر.. وهو يعتقد أن إعلان الديمقراطية للحقوق الإنسانية قد مكن من خلق الرأسمالية الصناعية الحديثة (٤).

ويرى «ب. هـ. بيللى» أن الديمقراطية نظام اجتماعى يسمح للفرد بأن ينمى إمكاناته وفى نفس الوقت يشارك فى الحياة العامة.. والمجتمع الديمقراطى يعبر عن نفسه بعدة طرق.. فى الحكومة وفى الدين.. وفى التعليم والنظام الاجتماعى.. وعلى ذلك فالديمقراطية وسيلة وليست غاية.

والمفهوم الرئيسى للديمقراطية هو أن الحكومة يجب أن تعبر عن الشعب.. وفى الديمقراطية الشعب هو الدولة.. وهو يفرق بين كلمة "Freedom" وكلمة "Democracy" ويرى أنهما لا تعنيان نفس الشيء.. ذلك أن "Freedom" تعنى التخلص من القيود وعلى ذلك فهى مرحلة ممهدة للديمقراطية.. كذلك فإن Democracy لا تعنى أيضاً Liberty ذلك أن Liberty هى المفهوم السياسى لـ (Freedom) فالشعب الديمقراطى شعب محرر (Liberated) ولكن الشعب

(1) Pennoek. Rolend:- Liberal Democracy- Rinehart And Company- U.S.A., 1950- pp. 98 - 100 .

(2) Plamenats. John:- Democracy And Illusion- Clarke Deble And Brendon H.D. , London, 1973, pp. 183-185.

(3) Edward. William And Lecky. Harpole:- Democracy And Liberty- Longmans Green And Company:- London, 1896 p. 214.

(4) Benes. Edward- Democracy- The Jacmillan company- New York- 1939, p. 11 .

المحرر ليس دائما ديمقراطيا.. فالشعب قد يكون حرا سياسيا ولكن ليس ديمقراطيا فلا استقلال.. لا يعنى الديمقراطية<sup>(١)</sup>.

وفى رأى صول - ك وبادوفو "أن ثمة مظهرين عامين للديموقراطية.. هما المظهر النظامى السياسى.. والمظهر السلوكى.. والديموقراطية باختصار هى نظام سياسى يقتسم فيه المواطنون السلطة ويختارون حكامهم بحرية ويحتفظون لأنفسهم بالرقابة الدائمة على حكومتهم. وللديموقراطية مالا يقل عن خمس مميزات أو مبادئ فى مجال السياسات والنظم وهى:

١ - المساواة أمام القانون.

٢ - المساواة فى الاقتراع.

٣ - انتخاب الممثلين النيابيين دوريا.

٤ - التشريع بموافقة الأغلبية.

٥ - حرية العمل السياسى ووضع البرامج السياسية.

وقد يضاف إلى هذه المبادئ الخمسة مبدأ سادس هو الرفاهية الاجتماعية.. ولكن يبقى ان العامل الرئيسى الذى لا يمكن المساس به فى الديمقراطية هو حق الشعب فى اختيار حكامه او الاستغناء عنهم فى مواعيد محددة وفى إطار الحريات السياسية أو بلا خوف من البوليس او السياسيين.

أما على المستوى السلوكى فللديموقراطية مجال أوسع للتطبيق فهى طريقة حياة.. الى طريقة: للنظر إلى الأشياء والشعور إزاء الإنسانية والمجتمع والسلوك السياسى.. إنها طريقة للترصف حيال بنى جنسك بل حيال أسرتك<sup>(٢)</sup>.

ويقول "هارولد لاسكى" إن الثورة الصناعية هى التى أوصلت الطبقة البورجوازية للسلطة فأقامت الديمقراطية الرأسمالية.. وقد كانت هذه الديمقراطية ناجحة طالما أن الظروف كانت فى صف نمو وازدهار الرأسمالية.. ولكن الوضع اختلف حين اضطرت الطبقة البورجوازية لمواجهة خطر نمو الطبقة العاملة.. فسرعان ما تنكرت للحقوق الديمقراطية وكثيرا ما لجأت إلى الدكتاتورية لقمع الشعب.. وقدم لاسكى العديد من الأمثلة التى تؤكد رأيه مثل قيام النظم النازية فى ألمانيا الفاشية فى إيطاليا للدفاع عن النظم الرأسمالية فى مواجهة القوى الشعبية عقب الأزمة الاقتصادية التى تعرض لها العالم الرأسمالى عام ١٩٣٠.. وكان ذلك دليلا على عجز الديمقراطية البورجوازية - فى رأى لاسكى - فى تحقيق المساواة فى المشاركة السياسية لكل

(١) Bailey, P. H.: What is Democracy - The Comstock Publishing - U. S.A., 1918 - PP. 35- 45.

(٢) صول. ك. بادوفو - معنى الديمقراطية - ترجمة جورج عزيز - دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع - القاهرة - ١٩٦٧ - ص ١٩ - ٢٠.

الديمقراطيين .. وعلى ذلك فلاسكى يستهى الى القول بأن المثل الأعلى الديمقراطي لا معنى له إذا لم يحتج المساواة فى المجال الاقتصادى<sup>(١)</sup>.

وقد انتقد الماركسيون الديمقراطية... وقد أوضح ماركس وانجلز الطابع الطبقي للحضارة البورجوازية والديموقراطية البورجوازية والبرلمانية البورجوازية، واعتبروا أن أكثر الجمهوريات البورجوازية ديموقراطية ليس سوى آلة لقمع الطبقة العاملة<sup>(٢)</sup>.

ويرى "لينين" أنه طالما كانت هناك طبقات متميزة لا يمكن التحدث عن الديمقراطية الخالصة "بل يقتصر الحديث على الديمقراطية الطبقيّة فقط.. إن الديمقراطية الخالصة ليست سوى تعبير كاذب للبرالى يخدع العمال.. إن التاريخ يعرف الديمقراطية البورجوازية التى تحل محل النظام الإقطاعى والديموقراطية البروليتارية التى تحل محل الديمقراطية البورجوازية.. كذلك فإن الديمقراطية البورجوازية إن كانت تشكل خطوة تاريخية كبيرة إلى الأمام بالنسبة للقرون الوسطى تظل أبداً مع ذلك - ولا يمكنها إلا أن تظل كذلك فى النظام الرأسمالى - ديموقراطية مبثورة .. مزورة .. منافقة .. فردوساً للأغنياء وفخاً وخديعة للمستثمرين.. للفقراء .. ويكرر لينين رأى ماركس وانجلز بأن الدولة التمثيلية العصرية هى أداة لاستثمار العمل المأجور من قبل الرأسمال.

ويقول لينين: خذوا القوانين الأساسية فى الدول الديمقراطية .. خذوا إدارتها خذوا حرية الاجتماع أو حرية الصحافة.. خذوا مساواة المواطنين أمام القانون.. ترون فى كل خطوة نفاق الديمقراطية البورجوازية الذى يعرفه جيداً كل عامل شريف ومدرّك فليس ثمة دولة حتى أوفر الدول ديموقراطية لا يتضمن دستوراً منافذاً أو تحفظات تمكن البورجوازية من توجيه الجيوش ضد العمل وإعلان الأحكام العرفية ... الخ.. فى حالة مخالفة النظام.. أى فى الواقع حين تخالف الطبقة الخاضعة للاستقلال وضمها الاستعبادى وتحاول أن لا تسلك سلوك العبد<sup>(٣)</sup>.

والخلاصة أن كلمة ديموقراطية (Democracy) تشتق من Demos وهى بالإغريقية تعنى "شعب" Kiaton وتعنى سلطة.. فهى إذن تعنى سلطة الشعب أو حكم الشعب.. فالسلطة فى الحكومة الديمقراطية فى يد الشعب أو أغليته يتولاها بنفسه أو بواسطة نواب ينتخبهم ليحكموا باسمه.. والحكم الديمقراطي أو المبدأ الديمقراطي أساسه أن السلطة فى الدولة مصدرها الشعب ولا يمكن أن توجد فى هيئة أخرى.. فرداً كان أو جماعة.. فالشعب إذن هو الذى يجب أن يدير شئونه بنفسه (الديموقراطية المباشرة) أو بواسطة نواب يمثلونه (الديموقراطية النيابية) وهو الذى ينتخب الحكام الذين يحكمونه أو على الأقل الهيئة التى تراقب هؤلاء الحكام مثل البرلمان أو المجلس النيابى<sup>(٤)</sup>.

(1) Iaski, Harold, J. - Democracy in Crisis - George Allen And Unwim, London, 1933 - PP. 49 - 53.

(٢) كارل ماركس - الحرب الأهلية فى فرنسا - دار التقدم. موسكو - ١٩٦٣ ص ١٩-٢٧. ومقدمة انجلز لنفس المؤلف السابق.

(٣) لينين - المختارات - الجزء الأول - المجلد الثالث - دار التقدم - موسكو - ١٩٦٧ - ص ٩٧ - ١٠٧، ١٩٨ - ٢١٧.

(٤) د. وحيد رأفت ود. وايت إبراهيم - القانون الدستورى - المطبعة العصرية - القاهرة - ١٩٣٧ - ص ٩٨ - ٩٩.

والفكرة الديمقراطية قديمة ترجع إلى مدن اليونان القديمة.. وأشارت إليها بعض الأديان والحديث هو تطبيق هذه الفكرة.. فالديموقراطية كما نعرفها الآن والتي ترمى إلى إشراك أكبر عدد ممكن في الحكم أما بطريقة مباشرة (الديموقراطية المباشرة) أو بطريقة غير مباشرة (الديموقراطية النيابية) لم تطبق عمليا في الدول الحديثة (إذا استثنينا المقاطعات السويسرية) إلا منذ أواخر القرن الثامن عشر بعد الثورة الأمريكية والثورة الفرنسية.. وكثير من الديمقراطيات القديمة لم تكن سوى ديمقراطيات إسمية كديموقراطية أثينا أو اسيرطة لم تكن سوى ديموقراطية الأحرار... وليس ديموقراطية للعبيد.. الذين كانوا يكونون أغلبية السكان في هاتين المدينتين والذين لم يكن لهم حق التمتع بالحقوق السياسية.

ولابد أن نفرق بين الديمقراطية كمذهب فلسفى سياسى واجتماعى.. والديموقراطية كنظام من أنظمة الحكم.

فالديموقراطية كمذهب ترجع أصل السلطة السياسية أو مصدرها إلى الإرادة العامة للأمة، أى أن هذه السلطة لا تكون شرعية إلا إذا كانت وليدة إرادة عامة.

أما الديمقراطية كنظام للحكم.. فهي تعنى ذلك النظام الذى يستلهم روح المذهب الديمقراطى أى أنه ذلك النظام الذى ينشأ كوليده الأمة ويقرر أصحابه أنه نظام شرعى لأنه يقوم على أساس تلك الإرادة<sup>(١)</sup> أى (إرادة الأمة).

وفى كل الحالات فإن الديمقراطية يجب أن تقوم على أساس المساواة السياسية بين الأفراد ومعارضة احتكار الامتيازات السياسية لأى طبقة من طبقات الشعب وتؤكد على ضرورة وضع الحكم بين أيدي الأغلبية وعلى ضرورة أن تصدر القوانين بموافقة الرأى العام<sup>(٢)</sup>.

والديموقراطية ليست غاية فى ذاتها<sup>(٣)</sup> وإنما هى وسيلة لكى يتولى الشعب حكم نفسه بنفسه بحيث لا يستبد بالسلطة فرد أو طائفة وبذلك تصان حريات الأفراد من العبث والاستغلال.

وقد اقترن ظهور الديمقراطية فى العصر الحديث بانتصار الطبقة البورجوازية على الإقطاع فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر حيث كانت الديمقراطية هى الفلسفة التى استولت عن طريقها البورجوازية على السلطة السياسية فى أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية.

وكما كانت الرأسمالية هى الفلسفة الاقتصادية للبورجوازية.. فقد كانت الديمقراطية هى فلسفتها السياسية.. وكون الاثنان معا.. مجمل الفلسفة الليبرالية بجانيها: السياسى والاقتصادى.

وقد كان هدف الديمقراطية الليبرالية هو تقليص القيود التى تضعها الدولة على الفرد إلى

(١) د. عبد الحميد متولى - القانون الدستورى والأنظمة السياسية - الجزء الأول - الطبعة الخامسة - منشأة المعارف - الاسكندرية - ص ١٠٧.

(٢) د. بطرس بطرس غالى - ود. محمود خيرى عيسى - المدخل فى علم السياسة - الطبعة الأولى - مكتبة الأنجلو - القاهرة - ١٩٥٩ - ص ٦٥٢.

(٣) د. محمد عزيز الحبانى - من الحريات إلى التحرر - دار المعارف - القاهرة ص ٢٠.

ادعى -ند<sup>(١)</sup>.. وحصر دور السلطة فى ثلاثة أهداف فقط هى تحقيق أمن الفرد وسلامته وخيره  
العام.. نالديموقراطية الليبرالية ترى أن الفرد هو خير حكم على الأعمال التى تعود عليه  
بالخير<sup>(٢)</sup>.. أما المجتمع فلا يمكن أن يحكم إلا على الأضرار التى قد تلحق بالآخرين.. فالجانب  
الوحيد من تصرفات الفرد الذى يقع تحت طائلة المجتمع هو ذلك الجانب الذى يدخل ضمن  
شئون الأفراد الآخرين.. وكما قال جون ستيوارت مل : "يجب أن يكون للفرد السيادة المطلقة  
على نفسه وجسده وعلى عقله"<sup>(٣)</sup> فالمبرر الوحيد لوجود السلطة فى نظر الديموقراطية الليبرالية  
هو منع الضرر عن الفرد.. فهى ترفض أى مبرر لتدخل الدولة فى شئون الأفراد حتى ولو ادعت  
أنها بذلك تريد تحقيق مصلحة لهم.. ذلك أن الديموقراطية الليبرالية تعتقد أن الفرد يعرف صالحه  
بأفضل مما تعرفها الدولة.. وأن الأفراد يمكنهم تحقيق مصالحهم بصورة أفضل مما لو حدث أى  
تدخل يحد من حريتهم.

ولكن بعد نجاح الثورات الديموقراطية وتمكن البورجوازية من الوصول إلى السلطة واجهت  
امتحانا عسيراً فى مواجهة الأقطار الاشتراكية التى بدأت تطالب بتدخل الدولة لتنظيم الحياة  
الاقتصادية والاجتماعية ولتحقيق الرفاهية العامة. ولذلك امتاز النصف الأخير من القرن الماضى  
والنصف الأول من القرن العشرين.. بالتوسع الكبير فى الأعمال الحكومية<sup>(٤)</sup> فى الدول  
الديموقراطية الليبرالية.

ولقد أثبت المفهوم الليبرالى للديمقراطية قصوره وبالذات فى مواجهة الأفكار الاشتراكية حيث  
تبلور مفهوم جديد يرى أن الديموقراطية السياسية لا معنى لها إلا إذا ارتبطت بديمقراطية اجتماعية  
تلغى الاستغلال الطبقي وتحقق المساواة الاجتماعية بين افراد الشعب.. وحينئذ تتعدد ممارسة  
الديموقراطية داخل المجتمع - فلا تصبح قاصرة على الانتخابات البرلمانية التى قد لا تتم إلا كل  
عدة أعوام. بل تشمل أكثر مجالات الحياة.. كانتخاب مجالس الإدارات.. ومجالس المنتجين..  
والمجالس الشعبية فى القرى والمدن.. وبذلك تتحول الديموقراطية من ديمقراطية شكلية إلى  
ديمقراطية حقيقية.. ومن ديمقراطية لطيفة معنية إلى ديمقراطية لكل الشعب.

### مفهوم الديموقراطية فى الصحافة المصرية:

كان ميخائيل عبدالسيد.. صاحب «الوطن» هو أول من تصدى لتعريف الديموقراطية.. حيث  
أطلق عليها «سلطة الأمة»<sup>(٥)</sup> وكان يرى أن الديموقراطية «نظام للحكم» وهو.. أفضل أنواع

(1) Bowle, John - Politic And Opinion in the Nineteebth Century Aleden Press, London, 1954- PP. 201- 204.

(2) Cancasters. Lane. W. - Masters of Political thought - Hegel to Dewey - Volume 3- George G. Harrap and Co. Ltd. London, 1959- P. 112.

(3) MI. John Stuart - on Liberty - Macmillan. Oxford - U. S. A., 1925, P. 267..

(٤) د. بطرس بطرس غالى.. ود. محمود خيرى عيسى- المدخل فى علم السياسة - ص ٦٦٠ - ٦٦١ .

(٥) الوطن- ٢٨ نوفمبر سنة ١٨٨٨ .

النظم».. والحكومة الديمقراطية في رأيه هي «التي يكون فيها الملك مقيداً ومربوطاً بشرائع البلاد وحيث لا يجوز له الخروج عن مقتضاها ولا المروق عن فحواها مثل ملكة انجلترا مثلاً ف، لا تقدر أن تأتى أمراً منافياً لشرع البلاد وقوانينها ولا تقدر أن تجور على رعاياها بأن تحملهم المغامر وتوقع عليهم مظلمة من المظالم.. وهذه الحكومة شبيهة بالجمهورية أكثر شبيهاً بالملكية فإن الأمر والنهى والحل والربط بيد وزرائها ومجلس نوابها المعبرين عن شعبها»<sup>(١)</sup>.

ويرى عبدالله النديم أن الديمقراطية هي «القطب المعادى للحكم المطلق» وأن الديمقراطية وجدت عندما «رأت ممالك أوروبا أن الملوك كثيراً ما يقعون في أخطاء الرأي بالانفراد فيه فأحدثوا مجالس الوزراء والشورى التي تقيدت بها الممالك ظاهراً فالقت أوزارها على عاتق أعيان الأهالي ومنتخبهم لتستمد من أفكارهم ما به يحسن النظام وتبقى المملكة حية بحياة قواها العاملة وصار للأمم الثقة بملوكهم ووزرائهم لعلمهم أنهم لا يصرفون شيئاً ولا يحدثون عملاً ولا يبرمون أمراً إلا بمشورة نوابهم.. ويتبادل الأفكار بين الوزراء والنواب ظهرت ثمرات عظيمة واشتد عضد الدول وعظمت قوتها واتسعت تجاربها ومعارفها وكثر المرشحون للأعمال والإدارات العالية بالترقية في المجالس النيابية»<sup>(٢)</sup>.

ويعتقد النديم أن دول الشرق لم تعرف الديمقراطية بسبب «الجهالة التي عمت الأمم الشرقية فلم يكن عند ملوكهم ثقة بأعيانهم ووجهائهم ولا يحبون كثرة العقلاء خوفاً من التغلب الذي يحلم به كل ملك شرقي وهو وهم لا حقيقة ولذا نراهم إذا نبغ في ممالكهم أناس وضعوهم تحت سوط التضييق حتى يبغض الغير طريق العقلاء والنبهاء فراراً من الوقوع فيما وقعوا فيه من البلاء والعناء».

أما «تأدرس المنقبادي» فيرى أن «الديموقراطية هي رد الفعل المناقض للاستبداد»<sup>(٣)</sup>.. وأنها ظهرت وانتشرت عندما «سئمت الأمم جور الحكومات المطلقة ويشت من الفوز بأمانيسها في العدالة وحسن السياسة.. وعلى يدها- يقصد الديمقراطية- أجبرت الممالك على وجوب تشكيل الهيئات النيابية والشورية حتى تنوب عن أفراد الهيئة وتشير علي الهيئات الحاكمة بما هو لازم ومتمم لقوام الملك وعدالة الحكم». و«المنقبادي» يرى أن الهيئات النيابية ليست فقط مفيدة للمحكومين.. بل هي مفيدة أيضاً للحكام ذلك أنها «تنبهما بخفايا اللوازم والضروريات التي يعسر عليهما العلم بها لإشتغالها بأمور عمومية لا تمكنهما من الاطلاع عليها.. وبهذه الوساطة نرى أن كل مملكة قويت فيها دعائم الشورى وتعززت بينها الأصوات الديمقراطية صارت أريح في القوة وأثبت في الملك وأوسع في الثروة وأشهر في الصيت، ولا غرو فإن أمثال هاتيك الممالك تتوافر فيها شروط العدل.. والعدل أساس الملك».

(١) الوطن - ٢٨ نوفمبر سنة ١٨٨٨ .

(٢) الأستاذ- ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٩٢ - مقال بعنوان لهم تقدموا.. وتأخرنا والخلق واحد».

(٣) مصر- ٦ ديسمبر سنة ١٨٩٥ - مقال بعنوان (الشورى)

أما مصطفى كامل فقد كان يعتقد أن معنى الديمقراطية هو «أن تنال الأمة حقوقها كاملة.. فتصبح الأمة سيادة نفسها»<sup>(١)</sup>.. وهو يرى أن الأمم لا تنال حقوقها الديمقراطية من حاكمها الأعلى إذا أرهبته وخشى سر غضبتها فالحقوق لا تلتبس كسا يلتبس الإحسان بل تطلب بالصوت العالي.. بالكلمة التي تدوى في الوجود».

وهو يرى أن الديمقراطية لا تتحقق إلا إذا كان الشعب «نائلاً استقلاله.. وغير واقع تحت تحكم الأجنبي» وعلى ذلك فهو يعتبر أن أي ديمقراطية تمنح الشعب في ظل الاحتلال ما هي إلا «ديمقراطية لا معنى لها».

ويتفق أحمد لطفى السيد مع ميخائيل عبد السيد في اعتباره أن الديمقراطية هي «سلطة الأمة» فهو يعتقد «أنه لا يمكن الاعتراف بوجود ذاتي للأمة أو حياة حقيقية لها إلا إذا كان لها من إدارة أعمالها الحظ الملائم لدرجتها في الرقي الاجتماعي»<sup>(٢)</sup>. وبناء على ذلك فإن «مظاهر الديمقراطية تختلف من دولة لأخرى حسب درجة تطور كل شعب وتقدمه السياسي».. كذلك فإن سلطة الأمة وسيادتها تابعتان في ظهورهما لكفاءة نوابها وإخلاصهم.. وعلى ذلك «فكل عمل أو قانون لا يخول للأفراد الحق في انتخاب نوابهم من فئة الأكفاء المخلصين فهو عمل استبدادي يحت وقانون يشف عن سوء النية أو الجهل بمصلحة الأمة».

ولطفى السيد يعتقد أن القول بالديمقراطية أو «بسلطة الأمة أو بسيادتها ليس حديثاً في العلم ولا في العمل وليس هو بدعة في فقه الدين الإسلامي وليس هو حيلة سياسية تضار بها السلطات.. ولكنه المبدأ الطبيعي المعقول الذي قال به علماء اليونان قبل الدين المسيحي بعهد بعيد»<sup>(٣)</sup>.

ويقول لطفى السيد إن الديمقراطية ليست نظاماً حديثاً بل عرفته البشرية منذ مدن اليونان القديمة.. ثم يحاول أن يعقد مصالحة بين الفكرة الديمقراطية وبين الإسلام فيقول إن الإسلام قد عرف الديمقراطية وسماها (بالشورى) ويقول: «إن الدين الإسلامى فى الحقيقة قد وضع الشورى فى نظام الإسلام وأقام على ذلك الخلفاء الراشدون ومن بعدهم زمناً ما حين كان الدين معمولاً به فى كل الأمور الاجتماعية والمبادئ السياسية».

ويقول لطفى السيد إن حكم الأغلبية على الأقلية «حق طبيعى وإن لم يكن طبيعياً فإنه الطريقة الوحيدة لإمكان تنظيم العلاقات الاجتماعية بين أفراد الأمة الواحدة فيكون كالطبيعى من حيث إنه لا غنى للاجتماع عنه بحال من الأحوال، ولا شك أن الأغلبية فى كل أمة هى الشعب والأقلية هى الحكومة وجيشها وأنصارها»<sup>(٤)</sup>.

(١) اللواء - ٢٥ فبراير ١٩٠٦ مقال بعنوان «ننال حقوقنا».

(٢) الجريدة - ١٨ مايو سنة ١٩٠٧ مقال بعنوان (المجالس النيابية)

(٣) الجريدة - ١٦ يناير سنة ١٩٠٨ - مقال بعنوان (سلطة الأمة)

(٤) الجريدة - ٢٨ يونية سنة ١٩٠٨ مقال بعنوان (ضحايا الأحرار.. وحق القوى).

والحكومة - فى رأى لطفى السيد - ما رتبت «إلا لمصلحة المحكومين لا لمصلحة الحكام.. لأن الحكومة هى وكالة سببها مصلحة الموكل، وأما مصلحة الوكيل فى الأجرة فإنها عارضة ليست هى السبب فى الوكالة ضرورة.. وليس للوكيل أن يستبد برأيه على الموكل الذى له أن يعزله كما يعينه.. وعلى هذين الأصلين بنيت الشورى فى الحكومات الشورية».

والديموقراطية - فى رأى «الشيخ محمد رشيد رضا» - «تقضى بما حكم به الشرع والعقل.. أى بوجوب جعل الحكام أجراء للأمة»<sup>(١)</sup>.

وهو يتفق مع «لطفى السيد» فى القول بأن الإسلام عرف الفكرة الديموقراطية.. ذلك أن «حكومة المسلمين فى أول عهدها كانت حكومة ديمقراطية».. وهو يرى أن «الديموقراطية أو الشورى فى المسلمين لم تكن من أثر الارتقاء الاجتماعى فيهم ولذلك لم يطل عليها العهد وإنما كانت ائتماراً بأمر الدين وعملاً بهدايته.. وقد تغلبت العصبية فى الأمة قبل أن يستقر هذا النوع من الحكومة ويلقى بوانيه - أى ثبت وقيم - بهدى الدين ويصير طبيعياً فى الأمة».. وهو يربط بين ظهور الحكومة الديموقراطية وبين نشأة الدول القومية فيقول: «وللحكومات آجال مقدرة بقدر أحوال المحكومين الاجتماعية والمدير الكون فيها سنن لا تبدل ولا تتحول، فما قصر أجل حكومة الشورى فى المسلمين إلا لأن ذلك المجموع المؤلف من جميع الشعوب والأجناس لم يكن مستعداً لأن يكون مسيطراً على حاكميه لقلته معارفه الاجتماعية ولانتفاء الوحدة التى تجعل الأمة كرجل واحد.. وإنما يستفيد الناس من الدين والدنيا فى كل زمان بقدر استعدادهم.. ولو كانوا شعباً واحداً فى قطر واحد لرجى لهم طول هذا الأجل كما طال أجل حكومة الرومان ثم قضى عليها بالتوسع فى العمران ودخول الشعوب الكثيرة تحت سلطانها».

ويقدم «محمد فريد وجدى» تعريفاً للديموقراطية يقول فيه إن «الديموقراطية هى المبدأ الذى يعترف لكل أمة بشخصيتها المستقلة وإرادتها الحرة التى يمكن تمثيلها على حقيقتها أو ما يقرب منها بواسطة مجلس أو مجلسين ينتخب أو ينتخبان من عقلائها أو أصحاب المصالح فيها على قواعد مقررة ونظام معين وأن هذه الإرادة العامة لا تعدو المصلحة بوجه من الوجوه»<sup>(٢)</sup>.. كذلك فإن الحكومة الديموقراطية فى رأى (محمد فريد وجدى) «لا بد أن تقوم على مبدأ دستورى تصير فيه إرادة الأمة هى الحاكمة دون سواها».

ويرى «الدكتور محمد حسين هيكل» أن «الديموقراطية ما وجدت إلا لتخفيف وطأة الفرد سواء أكان متوج الرأس بالتقاليد الرسمية أو كان متوجاً بافتان الشعب به.. لهذا فإنه كلما ثبتت النظم النيابية والفكرة الديموقراطية فى حياة أمة من الأمم زادت فيها ميول الحرية والمساواة فتوزعت السلطة وابتعدت عن التركيز فى أيدي فرد أو أفراد قلائل، ولهذا فإنه كلما نضجت

(١) المنار - ١١ مارس سنة ١٩٠٧ مقال بعنوان (سنن الاجتماع فى الحاكمين والمحكومين).

(٢) الشعب - ٢١ أبريل سنة ١٩١٠ مقال بعنوان (الأمة.. والحكومة فى نظر العلم السياسى).



التعريب، في تربيتها السياسية أخذت بنظم الحرية والمساواة فحرصت عليها وخافت من أن يعتدى عليها طامع في الاستهتار بحقوقها ووجدت من تجاربها السياسية ما يقيها خطر الافتتان بأشخاص<sup>(١)</sup>.

فالجوهر الأساسى للديموقراطية عند الدكتور هيكل هو «توزيع السلطة على الشعب كله». وفي صحيفة «السياسة» أيضاً كتب الدكتور طه حسين يعرف الديمقراطية فقال إنها «مظهر من مظاهر الحياة السياسية ولون من ألوان الحكم ونوع من أنواع النظم التى تجعل الحكم للشعب.. يختار لنفسه وبخلافه من يحكمه»<sup>(٢)</sup>. ويرى الدكتور طه حسين أن الديمقراطية فى العصر الحديث «أخذت تتطور وتتسع شيئاً فشيئاً بحيث تجاوزت السياسة واتصلت بالشئون الاقتصادية ثم اتصلت بالشئون الاجتماعية ونشأ عن هذا التطور ما نشأ من المذاهب التى تتصل بتنظيم الحياة فيما يجاوز شئون الحكم».. وهو يرى أن مفهوم الديمقراطية فى تطوره الحديث صار يؤمن «بإنصاف الضعيف والفقير من الغنى وتحقيق العلاقات التى تقوم على العدل بين الأفراد وبين الجماعات وبين الطبقات»..

وهذا المقال يكشف أن الدكتور طه حسين كان يدرك منذ وقت مبكر من حياته الفكرية.. أهمية الجانب الاجتماعى من الديمقراطية فى وقت كانت فيه مصر لا تزال تسعى للحصول على شىء من الديمقراطية السياسية.

ولكن المضمون الاجتماعى للديموقراطية يكشف عن نفسه بوضوح عند «عزيز ميرهم» الذى قال إن هناك ثلاثة معايير أو شروط تكون الحد الأدنى فى الديمقراطية الصحيحة وهى:

١ - أن تتوافر فى البلاد الحريات العامة والخاصة وبمعنى آخر أن تتوافر الديمقراطية السياسية.

٢ - أن تضيق ما أمكن مسافة البعد فى الثروة بين الغنى والفقير.

٣ - أن تجنى الضرائب بالعدل وأن يوجه مصرفها فى خدمة المجموع<sup>(٣)</sup>.

وهو يعتقد أن «الديموقراطية سياسية واقتصادية واجتماعية وخلقية معاً ولن يكون بلد ما ديموقراطياً حقاً إلا إذا حقق إلى جانب نواحي الديمقراطية فى النظم السياسية.. النواحي الديمقراطية الأخرى فى ميادين الاقتصاد والاجتماع»..

أما الدكتور .. منصور فهمى «فهو يرى أن الديمقراطية هى «حكم جميع الأفراد الراشدين فى جماعة ما لشئون أنفسهم وعملهم فى سياسة مصالحهم المشتركة .. إذ يشتركون فى هذا الحكم ويسوسون هذه المصالح، فالجماعة الديمقراطية توجب إذن أن يضطلع الجميع بمهام الحكم مباشرة

(١) السياسة - ١٦ أكتوبر سنة ١٩٢٣ مقال بعنوان (خطر افتتان الشعب بالأشخاص) ويلاحظ أن المقصود بمقال الدكتور هيكل هو سعد باشا زغلول زعيم حزب الوفد .. الذى كان يتهمة الدكتور هيكل بأنه يحاول فرض «دكتاتورية الأغلبية».

(٢) السياسة - ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٢٣ .

(٣) الأهرام - ١١ سبتمبر سنة ١٩٢٢ .

أو بالواسطة وإذن فهي تدع لهم أن يضعوا النظم والقوانين والمناهج التي يريد أفراد الجماعة أو أكثرهم انتهاجها لصالح المجموع ويرون في تلك المناهج ما يرضيهم لأن فيها الحق والعدل والسعادة والخير في هذه الحياة الدنيا»<sup>(١)</sup>.

وقد تعرض «عباس العقاد» لما حدث من تطور لمفهوم الديمقراطية في السنوات الأولى من القرن العشرين فقال «إن الديمقراطية تمتحن في هذا العمر امتحاناً عسيراً شديداً في أكثر الأمم دستورية.. ففي كل أرض رجال أقوياء يشعرون الأمم بأن التمثيل النيابي وحده لا يكفي لقيادة الشعوب وحصر الجهود ومنع الفوضى في بعض الأطوار التي تعرض للمجتمع.. وإلى جانب هذه الأمم تقوى طائفة من ذوى البأس والمغامرة والعناد في أكبر الأمم الأوروبية عدداً وأقربها إلى الشرق (يقصد روسيا) شبهاً فتعلن إفلاس الديمقراطية وتقول إن المجالس النيابية لا تحكم الشعوب وإنما هي آلة في أيدي ذوى المال والنفوذ يديرونها من وراء السلطة التنفيذية التي تتظاهر بإطاعة تلك المجالس والعمل بما تمليه عليها من نصائح وأوامر»<sup>(٢)</sup>.

ويعلق العقاد على رأى البلاشفة في الديمقراطية فيقول: «ورغم أقوالهم فلا شك أن الديمقراطية على إطلاقها خير من الاستبداد على إطلاقه».

ومع ذلك فإن العقاد يرى بأن الديمقراطية «تحتاج للتقييم والتهذيب في أرقى الأمم وأعرفها دستوراً.. وأن المهمة الأولى للديمقراطية وهي مهمة إعلانها وتغلبها على الاستبداد قد انتهت بانتحاء العالم في القرن الماضي.. وبدأت مهمة جديدة يعالجها العالم في القرن الحالى والذي يليه وهي مهمة التصفية والتوفيق بين تجارب الإنسانية المختلفة في حكم الشعوب».

ويرى «العقاد» أن موضع النظر في الديمقراطية يجب أن ينصب على أمرين: الأول: مبدأ المساواة.. والثاني طريقة.. التمثيل.. «أما مبدأ المساواة فقد أسئ فهمه.. فالحق أن الناس لا يصلحون على فكرة المساواة التامة في جميع الحقوق والواجبات وأن الحكم القديم في هذه القضية هو حكم القرآن الكريم القائل: «وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات» أما «طريقة التمثيل» فلا تزال الديمقراطية ناقصة حتى يتهيأ لها أن تجمع في المجالس النيابية بين تمثيل الشعب.. وإيجاد القوى التي تستطيع أن تعلق عن الشعب وتدفعه إلى الأمام وتراقبه كما يراقبها في حدود المصلحة العامة ودستور الطبيعة المعقول».

ولا يفوتنا أن نسجل ملاحظتين رئيسيتين على مفهوم الديمقراطية كما عبرت عنه الصحف المصرية الصادرة في فترة البحث:

(١) الأهرام - ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٢٣ .

(٢) البلاغ - ١٢ نوفمبر سنة ١٩٢٤ مقال بعنوان (كلمة عن الديمقراطية في يوم افتتاح البرلمان).

الملاحظة الأولى: أنها قليلاً ما كانت تستخدم كلمة (ديموقراطية) فى الفترة التى تبدأ من الاحتلال حتى نهاية الحرب العالمية الأولى فقد كان يستعاض عنها بأى من الاصطلاحين التاليين: «سلطة الشعب» أو «حكم الشورى».

الملاحظة الثانية: أن الديموقراطية بالمفهوم الليبرالى أى التى تقف عند حدود الديموقراطية السياسية ظلت تسود الفكر المصرى وتطبع أغلب كتابات الصحفيين والكتاب المصريين حتى نهاية الحرب العالمية الأولى.

ثم بدأت تظهر بعد الحرب.. وبالذات بعد ثورة ١٩١٩ إرهابات للمفهوم الاجتماعى أو الاشتراكى للديموقراطية فى بعض الكتابات.. وخاصة عند بعض الكتاب ذوى الميول الاجتماعية مثل عزيز ميرهم.. أو عند بعض الكتاب الليبراليين من الذين كانوا يتميزون بنزعة إنسانية تقدمية مثل الدكتور طه حسين.

\* \* \*



## الفصل السابع عشر

**الصحافة المصرية ..  
والدعوة للحكم المقيد**



عرفت مصر.. لفترة طويلة من تاريخها الحديث.. وحتى إعلان دستور ١٩٢٤ لونا من الحكم كان مزيجاً من الحكم الاستبدادي<sup>(١)</sup>.. والحكم المطلق<sup>(٢)</sup>.. وعندما حصل الاحتلال البريطاني بمصر عام ١٨٨٢.. لم يغير شيئاً من طبيعة الحكم فيها.. فهو حين استقطع جزءاً من نفوذ الحكومة الخديوية الاستبدادية المطلقة فإنه لم يضعها في حساب الشعب المصرى.. وإنما أخذها لنفسه مضيفاً إليها سلطة جديدة.. استبدادية ومطلقة أتاحها له القوة القاهرة لجيش احتلال أجنبي.. وهكذا صار المعتمد البريطاني في مصر.. سلطة تستبد بالحكومة الخديوية.. وبالشعب المصرى معا.

ولذلك كان من الطبيعى أن يشتد الهجوم على الحكم المطلق والسلطة الاستبدادية.. وتنشط الدعوة إلى الحكومة المقيدة<sup>(٣)</sup>..

بدأ الهجوم على الحكم المطلق في مصر على استحياء شديد.. بعد فترة ليست بالقصيرة من الاحتلال.. ويمكن تفسير ذلك عندما نتذكر أن الثورة العربية قد قامت في الأصل لمواجهة استبداد الخديوية المصرية.. إلا أن هذه المواجهة قد انتهت.. كما نعلم، بالتدخل الأجنبي وبالاحتلال البريطاني لمصر.. لذلك فقد ترسب في العقل المصرى - ولدة ليست بالقصيرة - أنه لو لم تقع هذه المواجهة بين الثورة والخديو لما وقع الاحتلال.. وبناء على ذلك ظهرت دعوة تقول أن «استبداد الخديوية لأفضل ألف مرة من استبداد المحتل الأجنبي»<sup>(٤)</sup>.

لذلك كان من الطبيعى - عندما يحاول «ميخائيل عبد السيد» في صحيفة الوطن أن يهاجم الحكم المطلق في مصر - أن يلجأ إلى الهجوم على الحكم المطلق في مراكش.. وقد كانت تلك

(١) الحكومة الاستبدادية: هي الحكومة التى لا يخضع فيها الحاكم.. فرداً كان أو جماعة للقوانين الوضعية ولا يعرف لسلطانه حدًا فهو يستعمل سلطته كما يريد وكيف يريد وإرادته هي القانون.. وقد كان هذا شأن معظم الملكيات القديمة كفرنسا في القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر.

(٢) الحكومة المطلقة وهي الحكومة التى تكون جميع السلطة فيها مركزة في شخص واحد أو هيئة واحدة بدون أن يكون بجانب هذا الشخص أو هذه الهيئة سلطة أخرى تشترك معه أو معها في الحكم.. ولكن هذا الشخص أو هذه الهيئة التي تنحصر فيها السلطة تحكم بواسطة قوانين تخضع لها وبذلك تختلف الحكومة المطلقة عن الحكومة الاستبدادية إذ أن الحكومة الاستبدادية لا تخضع للقوانين.

(د. وحيد رافت ود. راتب إبراهيم - القانون الدستورى ص ٧٤ - ٧٥)

(٣) الحكومة المقيدة: هي الحكومة التى تكون السلطة فيها موزعة بيد هيئات مختلفة تراقب بعضها بعضاً ففى الحكومة الملكية المقيدة مثلاً نجد أن سلطة الملك مقيدة بوجود مجلس نيابى كله أو بعضه منتخب يشترك مع الملك في ادارة شئون الدولة ولذلك يطلق أيضاً على الملكية المقيدة اسم الملكية الدستورية.

(د. وحيد رافت ود. وايت إبراهيم - القانون الدستورى - ص ٧٤ - ٧٥).

(٤) الأهرام - ١١ مارس سنة ١٨٨٣

والبرهان - ١٢ إبريل سنة ١٨٨٣

والصادق - ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٨٦.

طريقة شائعة في ذلك الوقت يلجأ إليها الكتاب عندما يخوضون في بعض المسائل التي قد تعرض كاتبها لمساءلة السلطة.. وذلك بالحديث عن بلد آخر - ثم إسقاط كل ما يريدون قوله عن مصر.. على أحوال تلك البلد.

فتحت عنوان «مراكش والاستبداد فيها» بهاجم ميخائيل عبد السيد جميع «الحكومات الملكية المطلقة التي يكون الحل والربط فيها بيد الملك.. فيتصرف بخلق الله كيف يشاء»<sup>(١)</sup>

ثم يتصدى لتعريف معنى الاستبداد من أجل أن «يفهم أهل بلادنا معناه فإن بيد سلطان مراكش الأمر والنهي فيفعل برغبته كيف يشاء.. فيميت ويبقى ويقرب وينفى ويغنى ويفقر ويجبر ويكسر ويوضع ويرفع ويذل ويعز ويمنع ويوهب ويعطى ويسلب وغير ذلك حسب هواه ورغبته. ثم يكشف الكاتب عن مضار الاستبدادية فيقول: «كما أن الاستبداد.. مضر.. ويكون سبباً في اختلال الإدارة وخراب الممالك وزوال رونقها ومجدها وأقول سعدا».

ولكن «ميخائيل عبد السيد» لا يلبث أن يستدرك قائلاً: «إن التطرف في الحرية مضر أيضاً.. فإنه إذا خول الأهالي القدر الزائد من الحرية وكان أكثر مما يتحملونه لجهل فيهم تمكن الطيش منهم وركبهم الغرور فلا يبعد أن يقوموا على ما يضر باستقلال بلادهم ويعبثوا بحقوق ملكهم. وواضح أنه يشير بذلك إلى مصر وخاصة عندما يربط بين القدر الزائد من الحرية.. وما ينتج عنه من طيش قد يضر باستقلال البلاد.. فكأنه يرى أن الحرية التي حصل عليها الشعب المصري أثناء الثورة العرابية كانت فوق حاجته.. فأدت إلى الطيش الذي أودى باستقلال البلاد. وعلى ذلك فالكتاب يعلن عن إيمانه بأنه لا يجوز إعطاء شعب من الحرية إلا بالقدر الذي يتفق مع درجة تطوره وتمدنه إذ لا يليق في رأيه «جعل الحكومة شورية مع جهل الأهالي وعدم تمدنهم.. فوضع الأمور في مكانها هو عين الصواب».

أما «تادرس المنقبادي» فقد اهتم في صحيفة (مصر) بالبحث عن الأصول التاريخية للاستبداد إذ يقول ان الاستبداد نشأ تاريخياً منذ أن «دعت دواعي العمران إلى إقامة الهيئات الحاكمة حتى تقوم بضمانة سلامة الهيئة المحكومة والمحافظة على حقوقها ووقايتها من غوائل أعدائها.. فإنه لما أطلقت للحاكم سلطة التصرف في الأحكام توغل في مزج المقاصد العامة بالأغراض الخاصة فنغذ شهوة استبداده المطلقة حتى أوصل البعض منهم نفسه إلى درجة الألوهية وطلب العبادة له دون الله فنشأ عن ذلك الظلم وتقلص خبر الملك وخبراته»<sup>(٢)</sup>.

ويؤكد «المنقبادي» على أن «الميل للإستبداد ميل فطري و غريزي في الإنسان».

ثم ينتقد من يتصورون أن مجرد اسناد الحاكم سلطة تنفيذ قراراته إلى وزارة.. يعد من قبيل الحكم المقيّد ذلك أن الحاكم المطلق لجأ إلى الوزارة «لأنه كان يتعذر عليه أن يحيط بأطراف وشئون رعيته نظراً لتنوعها وكثرة شعبها فلذلك اضطرت الملوك إلى أن تستخدم من يثقون بهم

(١) الوطن - ٢٨ نوفمبر سنة ١٨٨٨ (مراكش والاستبداد فيها).

(٢) مصر - ٦ ديسمبر سنة ١٨٩٥ مقال بعنوان (الشورى).



فى إدارة شئون الملك.. وأقاموا الوزارات.. ومن ذلك لم تتوفر فى الدولة شروط العدالة المطلوبة بالنظر لكون كبار الوزراء والرجال الذين يشتغلون بمعاونة ملوكهم يلتهمون فى الغالب عن صالح المملكة أو الرعية لصالح الحاكم أو الملك من صوالهم الخصوصية.. وقد ساعد على ذلك خلو البلاد من أى مجالس شورى تراقبهم «فالوزارة لا قيمة لها فى رأى «المنقبادى» إلا إذا كانت مسئولة أمام مجلس نيابى لا أمام ملك أو أمير».. وعلى ذلك فهو يرى أنه لا صلاح للحكومات إلا عندما تشكل الهيئات النيابية والشورية حتى تنوب ضمن أفراد الأمة وتغير على الهيئات الحاكمة بما هو فى صالح الرعية».

ولقد ساهم الشيخ على يوسف بدوره فى الهجوم على الحكم المطلق فى مصر.. وقاد فى حالات كثيرة الدعوة لتقييد الحكومة المصرية عن طريق دستور ومجلس للنواب يعبر عن مصالح الأمة.. ولكن يلاحظ على كتابات الشيخ على يوسف أنه لم يكن يقصد بالحكومة المطلقة أو الاستبدادية فى مصر.. كرسى الخديوية وإنما كان يوجه سهامه إلى الاستبداد الذى كانت تمارسه سلطات الاحتلال البريطانى إما بشكل مباشر عن طريق المعتمد البريطانى ومستشاريه فى أغلب المصالح والدواوين الحكومية أو بشكل غير مباشر عن طريق الوزة المصرية التى كانت تأتمر بأوامر ورغبات المعتمد الإنجليزى أكثر مما كانت تأتمر بأوامر ورغبات خديو مصر.

ولقد بدأ الشيخ على يوسف هجومه على استبداد سلطات الاحتلال بالتصدى للحملة الدعائية التى كانت تقوم بها إنجلترا داخل البلاد وخارجها وبالذات بين دول أوروبا مدعية أن مصر قد «صارت بلاد الدستور والعدالة وأن لا سلطة فيها فوق سلطة القانون لذلك أصبحت سعيدة بعد أن كانت شقية وحكومتها عادلة بعد أن كانت مستبدة وجبذا لوصح ما يقولون وما أعظمها من شهادة لمصر لو صدقوا فيما يزعمون»<sup>(١)</sup>

وقد فند الشيخ على يوسف هذه الادعاءات فذكر «أن الحقيقة تؤكد أن الدستور فى مصر اسم لا مسمى له إلا الأهواء السياسية وشهوات القابضين على أزمته وأن القانون فيها مداس بالأجل ينفذه أصحاب السيطرة متى شاءوا ويبطلونه متى شاءوا فأرادة القوم فوق القانون.. وإذا تبع القانون فى بلد إرادة الحكام وأهواءهم سقطت كرامته من النفوس.. وصارت الهيبة للأشخاص والرهبة من الحكام لا من القانون وذلك شأن الحكومات الاستبدادية لا محالة.. وما أتعس حالة الأمة عندما يصبح القانون فى قبضة حكومتها لتقضى به بما تشاء منه على من تشاء من الناس ولتمثل معه من جهة أخرى حملة الفوضى وإطلاق العنان للمفسدين».

ويتفق الشيخ على يوسف مع «ميخائيل عبد السيد» فى ضرورة ملائمة نوع الحكومة فى أى بلد لدرجة تمدن أهل هذا البلد.. فخير حكومة فى الأرض عند «الشيخ على يوسف» هى الحكومة «التي ترضى أوضاعها وقوانينها بحسب رعاياها فلا تكبلهم تكبلاً ولا تعطيهم فوق

(١) المؤيد- ٢٢ يوليو سنة ١٨٩٩ مقال بعنوان (حكومة الاستبداد فى مصر)

حقوقهم واستحقاقهم .. ولا تطفف عليهم فتسلبهم فيما تأهلوا إلى نيله وحق الإستمتاع به.. وهكذا حكومة مصر التي تمتع الشورى عن مصر من أنها باتت تستحقها من سنين <sup>(١)</sup>» فالكاتب يرى أن الأمة المصرية قد «دخلت في طور الحكومات المتقدمة منذ زمن طويل وما برحت تدرج في قوانينها وأوضاعها بتدرج أهلها في اقتباس المدنية الأوروبية حتى أن كل عاقل ليعذرهما فيما تطالب به من حكومة مقيدة أسوة بالأمم المتقدمة لأنها إن لم تكن قد استعدت لها استعداد الشعوب الكبرى فهي إذا نالت هذه النعمة بضع سنين حتى تتمرن على العمل وتحسن المدخل والمخرج في شئونها العامة والخاصة.. وما قط جاء عمل تام إلا وأن منذ أول البداية به».

ثم ينتقد الشيخ على يوسف الحكومة المصرية لكثرة ما وعدت به من منح الأمة دستوراً ومجلساً نيابياً حتى يصير الحكم مقيداً بإرادة الشعب.. ولكن الحكومة بإخلافها لوعودها أثبتت أنها «قوالة لا فعالة.. ولو كانت تريد حقيقة أن تبدأ العمل وترشح الأمة لحكم الشورى لما صعب عليها اليوم أن توسع سلطة مجلس الشورى واختصاص مجالس المديريات ليكون لنا غداً دستوراً نافعاً ناله بالحنى.. وحكومة شورية مقيدة برغبات وأوامر الأمة».

ويختم الشيخ على يوسف مقاله مهاجماً سلطات الاحتلال البريطاني معلناً مسئوليته عن استبداد الحكم في مصر فيقول «والواضح أن طائفة كبيرة من رجال الحكومة الإنجليزية في مصر هم أصحاب الحل والعقد في النظارات المصرية ويخرجون عن جادة الصواب في أكثر أعمالهم ويسخرون بما لديهم من القوانين الصادرة من بعد قرارات مجلس النظار والشورى وبعد تذييلها بأوامر الجناح العالي الخديو.. كل هذا يعمل على مرأى وسمع من الأمة وأفرادها ساكتون مستسلمون حتى ألف الانجليز هذا العبث وعدوا الأمة في حكم الأموات الذين لا يسمع لهم صوت ولا يبدو منهم حراك» <sup>(١)</sup>.

ويؤكد المؤيد هذا الاتجاه في محاربة الحكم المطلق والاستبداد والدعوة إلى حكم الشورى، فتتشر مقالاً هاماً يصاحب الدولة الأمير «ملككم خان مبرزاً» <sup>(٣)</sup>» عن الاستبداد الشرق .. مترجماً عن (مجلة باريس) الفرنسية التي كانت تصدر في باريس.. وفي هذا المقال يرى ملككم مبرزاً أن مصدر الانحطاط في البلاد الإسلامية هو «الاستبداد الأسوي» الذي يعرفه الكاتب بأنه ذلك النوع من الحكم الذي لا وازع له من الشفقة والذمة ولا يقف عند حد القانون ولا يعتبر الحق بل يدوسه

(١) المؤيد - ٢٦ مايو سنة ١٩٠٧ مقال بعنوان (الدستور في الشرق)

(٢) المؤيد - ٨ يناير مقال بعنوان (أنضعون القوانين وتعبثون بها).

(٣) قدمت المؤيد (ملككم خان مبرزاً) قائلة: «وهو ليس من أهل فارس ولا من نسب يدلى به إلى العائلة المالكة في إيران.. بل هو مسيحي الأصل اندرج في خدمة العائلة الإيرانية واختص بمجبتها.. وعلى كل حال فالرجل له أفكار سامية وكتابات شتى يذب فيها عن الإسلام.

بالأقدام.. فهو والحالة هذه سطوة عمياء تحقق كل الحقوق الإنسانية وتبيد جميع عناصر التقدم والإتقاء وهو أيضاً مصدر شقاء شعوب الشرق.<sup>(١)</sup>

يذكر الكاتب أن الإسلام في مبدأ ظهوره قد حارب هذا الاستبداد ولكن بمرور الوقت «وهنت قوى الإسلام عن مكافحة هذا العدو الغشوم حتى استسلم لسيطرته القاسية فتغيرت لذلك مبادئه واختلطت» ثم يؤكد الكاتب أن أوروبا بدلاً من أن تدفع قوى الحرية والتقدم في الشعوب الإسلامية والشرقية إذا بها تتعامل مع هذا الاستبداد وتقويه على الشعوب «فبعد أن كان أمير المؤمنين بمقتضى الشريعة الإسلامية مثل أحد المسلمين في الحقوق.. صار بمقتضى المعاهدات الأوروبية الملك المقدس البعيد المرام الغير مسئول.. بعد أن رفعت أوروبا مقام الاستبداد إلى هذا الحد وأيدته بكل ما يتصوره العقل من الكفالات والضمانات» ثم يتساءل الكاتب «ولا تدرى إلى من وجهت قولها حينما أرادت إدخال الإصلاحات في الشرق؟».

ثم يطالب الكاتب بأن «يقتصر فعل أوروبا على ترك الحكم المطلق الراهن كما هو عليه ومساعدة حركة التقدم بالوسائل القانونية ودفعها بالسرعة التامة نحو زمام الأحكام وإشهار حكومة مقيدة ونظام نيابي موافق لمقتضيات الزمن».

ولعل أغرب ما في هذا المقال تصور كاتبه إمكانية قيام دول أوروبا الإستعمارية بمساعدة الشعوب الشرقية عامة والشعوب الإسلامية خاصة في إقامة حكومات نيابية وفي دفع حركة الحرية والتقدم في هذه البلاد.. فقد غاب عن ذهنه أن مثل هذا يتناقض مع مصلحة هذه الدول الأوروبية في استمرار استعمار واستغلال الشعوب الشرقية والإسلامية وأن مصلحة أوروبا كانت تتفق مع بقاء الحكم الاستبدادي المطلق بين شعوب الشرق.. ففي بقاء هذا النوع المتخلف من الحكم: ضمان لاستمرار تخلف هذه الشعوب في مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في غيبة القوى السياسية الشعبية التي يمكنها أن توقف تسلسل النفوذ الأوروبي الإستعماري هذا فضلاً عن استمرار اعتماد الحكومات الاستبدادية على مساعدة الدول الأوروبية الاستعمارية ودعمها في قمع تطلعات شعوبها إلى حكم نفسها بنفسها..

وفي المؤيد أيضاً يكتب عبدالرحمن الكواكبي<sup>(٢)</sup> معرّفًا الاستبداد بأنه «صفة للحكومة المطلقة العنان التي تتصرف في شئون الرعية كما تشاء بلا خشية حساب ولا عقاب محققين.. ومنشأ الاستبداد ما هو من كون الحكومة غير مكلفة بتطبيق تصرفها على شريعة أو على أمثلة أو على إرادة الأمة.. وهذه حالة الحكومات المطلقة»<sup>(٣)</sup>

(١) المؤيد - ١٣ يناير ١٨٩٩ مقال بعنوان (الاستبداد الأسوي)

(٢) بدأت صحيفة المؤيد في ١٥ أكتوبر سنة ١٩٠٠ تنشر سلسلة مقالات عن الاستبداد تحت عنوان «اقتراح على المحررين السياسيين» لكاتب عربي رصين) وكان يوقع باسم (مجبب) وكان الكواكبي يخفي اسمه خوفاً من بطش الباب العالي.. ولقد تسبب نشر هذه المقالات في صدور قرار يمنع دخول المؤيد الممالك العثمانية.

(٣)- المؤيد - ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٠٠ مقال بعنوان (جواب الامتزاج على المحررين السياسيين، ما هو الاستبداد بقلم أحد أفاضل الكتاب المجيدين)

ويرى الكواكبي (أن الاستبداد السياسى متولد من الاستبداد الدينى<sup>(١)</sup>) كذلك فإن الكواكبي يعتقد أن لا استعباد ولا اعتساف مالم تكن الرعية تخبط فى ظلامه الجهل.. فأخوف ما يخافه المستبدون من العلم أن يعرف الناس حقيقة أن الحرية أفضل<sup>(٢)</sup>.. وهو يرى أن من طبائع الاستبداد أن «الأغنياء أعداءه فكراً وأوتاده عملاً.. فهم رباط المستبد يذلهم فيأتون ويستدرهم فيحنون.. ولهذا يرسخ الذل فى الأمم التى يكثر أغنياءها.. أما الفقراء فيخافهم المستبد خوف النعجة من الذئب»<sup>(٣)</sup>. وكذلك فإن الاستبداد يؤثر فى أخلاق الناس فهو «برغم الأخبار منهم على ألفه الرياء والنفاق ويعين الأشرار على إجراء فى نفوسهم آمين حتى من الانتقاد لأن أكثر أعمالهم تبقى مستورة يلقى عليها الاستبداد رداء خوف الناس من تبعة الشهادة»<sup>(٤)</sup>

ويؤكد الكواكبي أن الاستبداد هو سبب انحطاط الأمم وأن ترقى الأمم رهن بالقضاء على الاستبداد «وخلاصة القول أن الأمم التى أسعدها جسدها لتبيد استبدادها نالت من الشرف الحسى والمعنوى مالا يخطر على فكر أسوار الاستبداد»<sup>(٥)</sup> ومع ذلك فإن الكواكبي يرى أن الاستبداد لا يقاوم بالشدة إنما يقاوم بالحكمة والتدرج «فالوسيلة الوحيدة الفعالة لقطع دابر الاستبداد هى ترقى الأمة فى الإدراك والإحساس.. وهذا لا يتأتى إلا بالتعليم والتحميس كما أن إقناع الفكر العام وإذعانه إلى غير مألوفه لا يتأتى إلا فى زمن طويل لأن العوام مهما ترقوا فى الإدراك لا يسمحون باستبدال القشعريرة بالعافية إلا بعد التروى المديد وربما كانوا معذورين لأنهم ألفوا أن لا يتوقعوا من الرؤساء والدعاة إلا الغش والخداع.. ثم إن الاستبداد محفوف بأنواع المخاطر التى منها قوة الإرهاب وقوة الجند.. وبناء عليه يلزم لمقاومة تلك القوات الهائلة مقابلتها بما يفعله الثبات والعتاد»<sup>(٦)</sup>

وفى «اللواء» يعلن مصطفى كامل عن رأيه فى الاستبداد، فيرى أن من واجب كل أمة «أن تناقش الحاكم الحساب وتحتج على المظالم وترفع صوتها عالياً فى كل ما له مساس بحياتها وجوهرها»<sup>(٧)</sup> وفى رأيه أيضاً أن مسئولية الأمة فى محاسبة الحاكم ومقاومة استبداده تزداد فى حالة ما إذا كان هذا الحاكم أجنبياً.. وفى حالة إذا كانت البلد غير مستقلة.. فعندئذ تصير مقاومة استبداد الحاكم «أشرف عند العقلاء» وأدعى لاستمالة الأمم إليها لأنها فى أغلال الاستعباد للخلافة الحرة فإنه لا جناح عليها إذا قبلت ما شئت وأعلنت ما تريد..

(١) المؤيد- ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٠٠ - مقال بعنوان (الاستبداد والدين)

(٢) المؤيد- ٦ نوفمبر سنة ١٩٠٠ مقال بعنوان (الاستبداد والعلم)

(٣) المؤيد- ٣ ديسمبر سنة ١٩٠٠ - مقال بعنوان (الاستبداد والمال)

(٤) المؤيد- ١٥ ديسمبر سنة ١٩٠٠ مقال بعنوان (الاستبداد والأخلاق)

(٥) المؤيد- ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٠٠ - مقال بعنوان (الاستبداد والترقى)

(٦) المؤيد- ١٣ يناير سنة ١٩٠١ مقال بعنوان (الاستبداد والتخلص منه)

(٧) اللواء- ٢٦ يوليو سنة ١٩٠٦ مقال بعنوان (ارفعوا أصواتكم)

وقد اعتبر مصطفى كامل حادث دنشواى مظهرًا من مظاهر «الحكم الاستبدادى الشخصى فى مصر.. ونتيجة من نتائج السلطة المطلقة التى مارسها اللورد كرومر على رقاب المصريين»<sup>(١)</sup>

وطالب مصطفى كامل المصريين بمقاومة هذه السلطة الشخصية سواء كان «القابض على هذه السلطة الشخصية وطنيا أو أجنبيًا حتى تحصل على المجلس النيابى» وكان مصطفى كامل يحمل السلطة الشخصية المطلقة التى حكم بها كرومر مصر مسئولية «خراب مصر» وذلك لأنها عدوة الإنسانية وعدوة الإنصاف وعدوة العدل. وعدوة الشرف.. وعدوة الحرية.

وتطالعنا اللواء أيضا بمقال (لمحمد صادق عنبر) يقارن فيه بين الحكومة النيابية والحكومة الاستبدادية فيقول أن الحكومة النيابية هى «خير تضامن لإقتران الحكم بالعدل وأوفى كفيل يسير الإدارة فى نهج الإصلاح وأقوى رادع لهوى الحاكم الأعلى إن عبث بالحقوق الجزئية والحقوق الكلية وفيها الخير كله للهيئتين الحاكمة والمحكومة على السواء والتدرج بكليتهما فى سلم الكمال المقدر لأى هيئة من الهيئات الاجتماعية أن تبلغ إليه»<sup>(٢)</sup>.

أما الحكومة المطلقة فهى فى رأى «محمد صادق عنبر» «شر كامل.. لأنه مهما سمى نفس القائم بها وشرفت مشته إلا أن ذلك لن يمنعه من الخطأ والجسور على اختلاف أشكالهما إذ أنه من المستحيل أن يتولى هو نفسه النظر فى كل فرع من فروع الحكومة كما أنه من المستحيل أن يكون ممثلوه فى هذه الفروع منزهين جميعاً عن شوائب الأعراض النفسية بعيدين عن التأثير بأهواء المآذب الذاتية».

ويؤكد الكاتب أنه فى الحكومة المطلقة ليس «أقرب من أن يلبس الفرد ثوب النزاهة ويدخل الهوى من باب الحكم ويجرى الدم الفاسد فى شرايين السلطة فيكون القانون إذ ذاك أداة صورية معرضة للثلث وتحل الفوضى محل النظام ولا تبقى إلا إرادات أولئك الممثلين للحاكم الأعلى مستترة وراء ترس من مظاهر السلطان عابثة بالحقوق كما يشاء الحكم المطلق ولا رقيب من الأمة ولا حسيب».

ويرى الكاتب أن فى كل أمة من الأمم استعداداً خاصاً لتلقى الحكم النيابى وفى صورة ثلاث مرات درجة استعدادها ورقبيتها.. ثم يضرب المثل بمصر ويعلن أن «مصر اليوم أرقى بشهادة التاريخ عشر مرات من أمم شتى نالت الحكم النيابى.. فإذا لم يسوغ منحها الحكومة النيابية كونها ذات عهد بها من قبل وأن الشورى مبدأ قديم من المبادئ التى ركزت فى طبيعة المسلمين لأنها حكم من أحكام الشريعة الإسلامية فى إدارة شئون الأمة.. فإن لها بأشباهها من الأقطار الأخرى أسوة حسنة ومثالا منظورا».

وفى «اللواء» أيضاً يكتب «إسماعيل شيمى» .. أحد أعضاء اللجنة الإدارية للحزب الوطنى.. مقارناً بين الحكومة المطلقة والحكومة المقيدة.. مؤكداً إن أى عاطل لا بد وأن يميل إلى الثانية ضد

(١) اللواء - ٤ يوليو سنة ١٩٠٧ - مقال بعنوان (الحكم الشخصى فى مصر)

(٢) اللواء - ١٩ مايو سنة ١٩٠٨ مقال بعنوان (الدستور النيابى والرأى العام).

الأولى «فمن ذا الذى لا يفضل حكومة تصون الحقوق لأربابها على حكومة شعارها الاستبداد ومبدأها التنازل عن حقوق المجموع إلى فرد من الأفراد وشتان ما بين حكومتين: حكومة تضم لأصحاب الحقوق التمتع بحقوقهم كاملة وحكومة تجعل الحق فى يد المستبد يصرفه كما يشاء وتشاء أهواؤه وشهواته<sup>(١)</sup>».

ويلجأ الكاتب فى دفاعه عن الحكومة المقيدة إلى استخدام فكرة العقد الاجتماعى كما جاءت فى فلسفات جون لوت وجان جاك روسو .. وذلك ليؤكد أن الحكم المطلق.. نظام يجافى حكم الطبيعة فيقول «خلق الإنسان حرّاً فليس لأحد أن يجعله أسير الإرادة غير اللهم إلا بما يقضى به نظام المجتمع وتستلزمه طبيعة العمران من تنازل الأفراد عن جزء من حقوقهم الفطرية متى كان من ورا ذلك توفير مصالح المجتمع الذى تناول تلك الحقوق لا لغرض سوى أن يعود فيوزعها بينهم ثانية بطريقة حكيمة عادلة بخلاف ما لو استبد بها الفرد فإنه يصرفها إذ ذاك فى شهواته ويضحّيها فى سبيل منفعته الخصوصية وهناك لا يكون للأفراد ضمانه تصان بها حقوقهم التى تنازلوا عنها».

ويلجأ «إبراهيم المويلحى» فى صحيفة (مصباح الشرق) إلى أسلوب المقارنة بين نظام الحكم فى إنجلترا وبين نظام الحكم فى الصين ليعين الفرق بين الحكومة المستبدة والحكومة المقيدة<sup>(٢)</sup> . فيهاجم الحكم الاستبدادى فى مصر عن طريق الهجوم على استبداد الحكومة فى الصين فيقول أن «الشعب الصينى شعب شقى.. بما يعانى من ظلم واستبداد إمبراطوره<sup>(٣)</sup>». وهو يرى أننا إذا بحثنا عن شفاء أى داء فلن نجد له سبباً سوى الظلم «فإذا بحثنا عن الشفاء فلا نجد له فى دولة من الدول سبباً إلا الظلم». وعلى ذلك فإن موجبات السعادة للشعوب «هو العدل - فالعادل من الملوك أقلهم تعباً لأنه يضع شئون الجمهوريين دفتى القانون فيستريح ويريح».

ولقد كان الهجوم على الحكم المطلق والدعوة للحكم المقيد.. من أبرز القضايا التى اهتم بها أحمد لطفى السيد فى (الجريدة) .. ويمكن تفسير هذا الاهتمام بأن لطفى السيد إنما كان يعبر عن رأى حزب الأمة وهو حزب الأعيان وكبار ملوك الأراضى الزراعية الذين كانوا يطمحون فى تقييد سلطة الخديو المطلقة وممارسته فى الحكم.. باعتبارهم .. أصحاب المصالح الحقيقية فى البلاد» كما كان يحلو للطفى السيد أن يطلق عليهم.

ويعرف لطفى السيد الحكومة المطلقة بأنها «الحكومة التى لا تستمد أصلها إلا من القوة القاهرة<sup>(٤)</sup>».

(١) اللواء - ٢٥ فبراير سنة ١٩٠٩ مقال بعنوان (من هم المجرمون)؟

(٢) وهو بذلك يستخدم نفس الأسلوب الذى سبق أن استخدمه «ميخائيل عبد السيد» فى صحيفة «الوطن» وهو الحديث عن مصر.. عن طريق الحديث عن بلاد أخرى تشابه ظروفها معها.

(٣) مصباح الشرق - أول فبراير سنة ١٩٠١ مقال بعنوان (إمبراطورية الهند وإمبراطورية الصين أو السعادة أو الشقاء) ..

(٤) الجريدة - ٢٩ مارس سنة ١٩١٠ مقال بعنوان (الحكم الذاتى فى مصر)

وعلى ذلك فهو يرى أن الحكومة المطلقة يستحيل أن تكون «حكومة شرعية لأن القوة تنافى الحق والشرعية» .. ويرى لطفى السيد أن هناك أشكالا كثيرة للاستبداد «فلا ينحصر الاستبداد بالحكومات بل يكاد يكون الناس كلهم مستبدين إذا استطاعوا.. فكل واحد يحب أن يستبد- ولكن لا يتسنى الاستبداد لغير الأقوياء- وعند التكافؤ يموت الاستبداد وعند رجحان أحد الطرفين يولد<sup>(١)</sup>».

ويعتقد لطفى السيد أن الرضى بحكومة الفرد «عبودية وتنازل عن الحرية.. كما أنه ليس للفرد أن يتنازل عن حريته فليس لأمة أن تتنازل عن حريتها.. وكل تنازل عن حريتها باطل بطلاناً أصلياً فكل من ينصح الأمة أن تصبر على حكومة الإطلاق.. وأن لا يكون لها من أمرها إلا الطاعة فإنما هو ناصح لها بالتنازل عن حق كونها أمة.. إنه ناصح لها بالعبودية والفناء<sup>(٢)</sup>»

ويلاحظ هنا تأثير لطفى السيد الواضح بأفكار جان جاك روسو.. وخاصة نظريته فى العقد الاجتماعى.. فجوهر نظرية روسو يركز على فكرة أن الإنسان قبل وجوده فى دولة كان يعيش فى حالة فطرية، الجميع فيها متساوون وتخضع تصرفاتهم للمشاعر الفطرية وليس للعقل وتحركها المصالح الذاتية وعندما ظهر المجتمع السياسى كان نتيجة عقد تنازل بموجبه كل فرد عن حقوقه الطبيعية للمجتمع بأسره بإعتباره كيانا واحداً.. وهذا التنازل أوجد شخصية سياسية مستقلة تنفصل عن إرادة الأفراد المكونين وهذه الشخصية السياسية هى الدولة والسيادة التى تترتب على هذا التعاقد هى التى تميز الدولة عن المجتمعات الأخرى ولكل فرد نصيب من هذه السيادة يساوى نصيب الآخر وهذا الجزء الذى يخصه من السيادة لا يمكن إنتزاعه ولا يمكن التنازل عنه وبموجب هذا الحق يكتسب الفرد جميع الحقوق التى كان قد تنازل عنها للمجموع وتتولى الدولة صيانة هذه الحقوق.. والأفراد حينما اتفقوا على التنازل للمجموع عن حقوقهم فى السيادة كان معنى ذلك أن نشترك إرادة الفرد مع إرادة الأفراد الآخرين لتكوين ما يسمى «بالإرادة العامة» .. ولأن الإرادة العامة عند روسو هى نفسها السيادة.. فهو يعتبر بالتالى أن كل عمل من أعمال السيادة إنما هو عمل من أعمال الإرادة العامة فمثل هذا العمل ليس قانوناً يفرضه الأعلى على الأدنى وإنما هو قانون من المجموع للمجموع.. ولذلك فهو عمل عادل لأنه يعتمد على التعاقد الاجتماعى وقائم على المساواة لأنه يطبق على الكل ومقيد للجميع وهدفه تحقيق الخير العام- وروسو بذلك يؤكد أن العقد الاجتماعى هو حق مقدس وقاعدة لكل الحقوق الأخرى ولكن المشكلة كانت فى رأيه هى كيفية إيجاد القواعد التى تحمى وتدافع عن الإرادة العامة للأفراد بحيث يظل حراً حتى وهو يتحد مع الأفراد الآخرين<sup>(٣)</sup>.

(١) الجريدة - ٢٧ مارس سنة ١٩٠٧ مقال بعنوان (كلمة فى الاستبداد)

(٢) الجريدة - ٢٩ مارس سنة ١٩١٠ مقال بعنوان (الحكم الذاتى)

(3) Sabine, H. George: A History of Political Theory - Library of Congress- U. S. A, 1961, p p. 587- 588

وتأثر لطفى السيد بروسو يظهر فى إيمانه بأن الحرية حق طبيعى «لقد ولد الإنسان حراً»<sup>(١)</sup>.. وكذلك فى اعتقاده أنه ليس من حق الأمة أن تتنازل عن حريتها «فليس للأمة أن تتنازل عن حريتها.. وكل تنازل عن حريتها باطل بطلاناً أصلياً»<sup>(٢)</sup>. بل إن لطفى السيد يستشهد بأحد أقوال روسو ليؤكد رأيه فى عدم شرعية الحكومة المقيدة وشرعية الانقلاب ضدها «فهو يقول : «أما القوة فإنها تنافى الحق.. فلا يمكن أن يكون من حق الملك الاستبداد برأيه دون أغلبية أمة.. إلا أن يكون حقه مرتكزاً على أن آباءه قد كسبوه بالقوة وانتقل إليه بالوراثة.. ولكن هذه القوة لا يمكن أن تكون سبباً له بل كل حق أخذ بالقوة يمكن أن يسترد بالقوة.. فالملك الوارث إنما يرث المتاح ولكن ذلك لا يمكن أن يمنع أمة من استرداد حقها وإنا نقول فى هذا المقال كما قال روسو.. «لئن غلبت أمة على أمرها وسكنت فحسناً صنعت» - فإن قدرت على استرداد أمرها وفعلت فقد صنعت أحسن»<sup>(٣)</sup>.

وطرح لطفى السيد للمناقشة قضية علاقة الشعب المصرى بالحكومة.. ومن البداية قرر أن الجفاء هو السمة المميزة للعلاقة بين الاثنين.. ثم حاول أن يقدم تفسيراً لهذا الجفاء.. فاستعرض تاريخ علاقة الشعب المصرى بالحكومات التى تعاقبت عليه فأكد أن التاريخ يعلمنا «أن الأمة المصرية من أزمان بعيدة ما حكمت إلا بالقوة القاهرة.. وكانت قاعدة حكومة مصر هى الاستبداد فكان ما يشرعه الحاكم من القوانين وما يأتبه من الأعمال ملحوظاً فيه مصلحة الحاكم بالذات»<sup>(٤)</sup>.

ويرى لطفى السيد أن من بين أسباب الجفاء التاريخى بين الشعب المصرى وحكومته أن «الحكومة دائماً كانت أجنبية تخالف الأمة فى الجنس أو فى الدين واللغة والعادات والأخلاق أو فيها جميعاً.. وكانت الأمة بذلك فى غاية التحفظ والاحتراش من أن تخلص لحكومتها إخلاصاً حقيقياً كما كانت الحكومة أبعد من أن تستحق ذلك الإخلاص».

ولكن لطفى السيد يشير إلى أن المصريين كان مضطرين «لمصانعة الحاكم يستقبلونه ببشر كاذب وقلوبهم تلعنه.. يظهرون له الطاعة بأقوالهم وأفعالهم ولكن قلوبهم عاصية كارهة.. يتخيرون إرضاءه بالألفاظ ويمتدحونه فى وجهه فإذا انصرفوا عنه وخلوا إلى أنفسهم دعوا الله وتمنوا زوال سلطانه» ويرى لطفى السيد أن «هذه الإحساسات فى الأمة ظلت تتوارث أزماناً طويلة من الآباء إلى الأبناء وإن اقتلاعها يحتاج إلى أمد طويل فى الحرية بجميع معانيها وبالبراهين التى يجب أن تقدمها الحكومة للأمة على إثبات حسن قصدها وأنها تخالف

(١) رد بطرس بطرس غالى ود. محمود خيرى عيسى - المدخل فى علم السياسة ص ٢٨٥ - ٢٨٧

(2) Jones, W. T.- Masters of Political Thought, Volume Two, pp. 280 - 281

Osborn, Annie Marion: Rousseau and Burke- Oxford University Press, London, 1940, p. 157.

(٣) الجريدة - ٢٨ يونيو سنة ١٩٠٨

(٤) الجريدة - ٢ أبريل سنة ١٩٠٧ مقال بعنوان (الجفاء بين الأمة والحكومة أسبابه ونتائجه).



الحكومات السابقة.. ثم أكد لطفى السيد أن الحرية التى نالت مصر جزءاً منها قبل الاحتلال كان من شأنها أن تزيل علاقة الجفاء القائمة بين الشعب والحكومة إلا أن الاحتلال جاء فزاد من هذه الجفوة وصار هناك «اعتقاد عام فى الأمة بأن هذه الحكومة أو السلطة الجديدة هى أشبه بالحكومات القرية القديمة لا تعمل إلا لامتهان الرعية واستعبادها».

وفى صحيفة (الأحرار) يشبه «محمد بك وحيد» العلاقة بين الحكومة المطلقة وبين الأمة بالكونت إيجولا الإيطالى «الذى جاع فأكل أولاده السبعة ولما سُئل فى ذلك قال: أكلهم أبوهم لكى يعيش لهم.. ومثل الكونت إيجولا من أبنائه مثل السلطة المطلقة مع الأمة فإنها تأكل ما حولها من السلطات وتلتهم ما عداها من السیادات لكى تبقى وحدها بين جماعة ضعاف تذهب بمجموعهم واحداً بعد آخر»<sup>(١)</sup>.

والكاتب يرى أن العلاقة الصحيحة بين الحكومة والأمة يجب أن تقوم على أساس «إن بقاء السلطة متعلق على بقاء الأمة - إذ أنه من البديهي أن زوال الأولى متوقف على زوال الثانية ولا ينطبق عكس هذه القضية البديهية بأى حال من الأحوال إلا فى مخيلة عباد السلطة المطلقة لأن أقل ما ينتج من استمرار قلة الذمة فى الخدمة العامة تغلب الباطل على الحق فى اعتقاد صاحب تلك الذمة وهذا الاعتقاد لايسهل إزالة ما علق به من الأدران الفاسدة» وأرجع الكاتب تخلف مصر فى العصر الحديث إلى استبداد العائلة الخديوية وهاجم استبداد الخديو إسماعيل وذكر أن «السلطة المطلقة فى عصر إسماعيل أزهدت روح الحرية الشخصية من البلاد بتوالى المظالم والمغارم بل فعلت أكثر من ذلك مما سود صحيفة تاريخ مصر السياسى وقتئذ فقد سلبت الأموال وهتكت الأعراض وسفكت دماء الأبرياء وأثقلت البلاد بالديون الباهظة التى أخذت من دم الفلاح وأنفقت فى لذات إسماعيل وشهواته الذاتية «ثم يهاجم الكاتب محمد على باشا أيضاً ويدلل على استبداده بشهادة من تاريخ عبدالرحمن الجبرتنى فيقول «وقد قضى الجبرتنى فى تاريخه على محمد على قضاء المؤرخ الصادق على الحاكم الظالم المستبد بالرعية المستهين بحقوقها». ولم يسلم الخديو توفيق والد الخديو عباس حلمى الثانى من هجوم محمد وحيد حيث ذكر أن «السلطة المطلقة فى عهد توفيق أنشأت الحقوق الوطنية فحرمت أبناء البلاد من الوظائف وأسندتها إلى جماعة من غير المصريين كانوا دونهم فى الكفاءة بمراحل وزاد حفظ السلطة المطلقة على الوطنيين فأحدث انفجاراً فى العواطف قاموا على أثره فى وجه توفيق يطالبونه بإقامة العدل ومراعاة حقوق الوطن وكان من أمرهم معه ما كان من قيام الثورة العراقية وما تبعها» ويدافع محمد وحيد عن عرابى مؤكداً أنه لم يفعل سوى أن وقف فى وجه السلطة المطلقة.. «إن عرابى لم يكن رجلاً خائناً بل كان رجلاً أبى النفس يتقد غيرة على وطنه ولا

(١) الأحرار - ٢٢ مارس سنة ١٩٠٨ مقال بعنوان (السلطة المطلقة ونواب الغد).

يحتمل هضم حقوق أبنائه فهو في الحقيقة إنما قام يطالب بحق مهضم ويسعى وراء تحرير المصريين من رق الخديو واستبداده فالجريمة الصغرى التي ارتكبتها عرابى في نظر التاريخ هي بنت الجريمة الكبرى التي ارتكبتها توفيق وحكم التاريخ على الرجلين حكمه على سيد مستبد ضعيف الرأى مع خادم ساذج أبى النفس».

ويتهى محمد وحيد من ذلك الاستعراض العام للسلطة المطلقة في عهد أسرة محمد على بحكم يؤكد فيه أن «السلطة المطلقة في عهد إسماعيل وتوفيق ومن تقدمهما من الخديويين كانت موجهة في الغالب إلى الاستهانة بحقوق الأهالى والعبث بأموالهم وأرواحهم وأعراضهم وعمل ما يمكن لاستعبادهم واستذلالهم وهذه هي الأسباب الطبيعية المتأصلة فيما يظهر على غالب أهل الجيل الماضى من دلائل الضعف والجن بتملق السلطة المطلقة والخضوع لها والتراعى على أقدامها».

ومن الغريب أنه في الوقت الذى كان فيه «محمد وحيد» يشهد تلك الحملة العنيفة على كرسى الخديوية نراه لا يتعرض ولو بكلمة واحدة للاستبداد الذى تمارسه سلطات الاحتلال البريطانى، ولكن يمكن فهم هذا الموقف إذا ما عرفنا أن (محمد بك وحيد) كان هو منشئ الحزب الوطنى الحر.. وهو الحزب الذى كان يدافع عن الانجليز ويحسن كل أعمالهم في مصر ويدعو الشعب المصرى إلى «مسألة المحتلين والسعى في نيل ثقتهم»<sup>(١)</sup> ويعتبر فترة الاحتلال البريطانى لمصر «فاتحة عصر من أسعد عصور مصر وأزهرها»<sup>(٢)</sup>

وفي صحيفة «الدستور» يكتب (محمد كامل السيوفى) مقالاً يذكر فيه أن الحكومة المطلقة لا تستهدف سوى «إهمال الأمة واستخدام ما لها من قوة السلطان على حكومتها وإعتقادها أنها يجب عليها طاعتهم واحترامهم فزادت عندها علة الإهمال لدرجة جعلت الحكومة تستولى على جميع شئونها تصرفاً وتقليباً»<sup>(٣)</sup> ثم طالب الكاتب الأمة المصرية بأن «لا تغفل طرفة عين عن محاسبة حكامها ومراقبتهم وإبداء ملاحظاتها عليهم وتقديم الاحتجاجات على كل ما نراه مخالفاً لصالحها».

ويؤكد الكاتب أنه قد صار من العار على مصر أن تظل حتى اليوم تحت حكم السلطة المطلقة بينما نالت الشعوب الأقل منها في التمدن حكومات نيابية» وعار والله ألف عار على المصريين أن يكونوا اليوم أرقى من أمم كثيرة ولا يزالون محرومين من الدستور الذى ناله غيرهم من الأمم التى لا تضارعهم في المدنية بل تماثلهم في القوة الأدبية والمادية».

ويلجأ «أحمد حلمى» في صحيفة «القطر المصرى» إلى طريقة مبتكرة في ذلك الوقت للهجوم على استبداد أسرة محمد على فيكتب سلسلة من المقالات التى يهاجم فيها الأسرة الخديوية

(١) المقطم - ١٨ مايو سنة ١٩٠٧

(٢) المقطم ١٦ سبتمبر سنة ١٩٠٧

(٣) الدستور - ٢٥ أبريل سنة ١٩٠٨ - مقال بعنوان «قوة الأمة في سلطتها»

مدعياً أنه إنما ينقل هذه المقالات عن صحيفة تركية تصدر في الأستانة اسمها (العدل)، ويعد الكاتب القراء بأنه سوف يرد على ما جاء في هذه المقالات بعد أن ينتهي من نشرها.. ولكنه نادراً ما كان يحاول الرد.. وإذا رد.. وقف في صف المعانى التي تعبّر عنها هذه المقالات وليس ضدها.. بل وكثيراً ما كان الرد يؤكد ماسبق نشره.. أى ضد الحكم الخديوى مباشرة..

وكان الهدف العام لهذه المقالات إثبات أن أسرة محمد على هى السبب فى كل البلايا التى رزئت بها مصر فى عصرنا الحديث ولذلك وجب على الشعب المصرى التخلص من حكم هذه الأسرة. وقد بدأ أحمد حلمى مقالاته مؤكداً بأن «مصر من اليوم الذى رمتهم - يقصد أسرة محمد على - إليها مقدونيا إلى الآن وهى مائة عام كانت كافية لأن تبلغ فى خلالها ما بلغته فرنسا من التقدم فى العلم والرقى والأخلاق والعادات والاستعداد لحكم نفسها بنفسها»<sup>(١)</sup>.

ويذكر «أحمد حلمى» أن أسرة محمد على قد حالت بين المصريين وبين التقدم قاصدة ذلك لأنها تعلم «أن مصر بلغت رشدها، لا تقبل ذل حكم الأجنبى ولا ترضى بأن تسلم زمام أمورها ومصالحها للغرباء».

ويهاجم (أحمد حلمى) بعض الكتاب من «عباد السلطة المطلقة الذين يكذبون على التاريخ ويدعون من وقاحتهم أن العائلة المحمدية العلوية خدمت مصر ويستدلون على ذلك بوجود بعض المدارس أنشأوها ليضللوا الناس فى أوروبا لكى تكون بأيديهم كالحجج الدامغة على خدمة العلم وما أنشأوها إلا خداعاً وغشاً حتى لا يتسنى لأحد أن يذكر قبح أثرهم وسوء تاريخهم فى مصر «ويعدد الكاتب ألوان المظالم التى مارستها أسرة محمد على على المصريين فيقول أنهم «كانوا يصوبون المدافع على القرى فيهلكونها بأهلها تسليّة حتى اعترض أحد الناس على هذا الفعل وعابه على سعيد باشا أعدلهم وأرحمهم وأشفقهم فقال له «لا تعارضنى فيما أفعل فإنى ما استلهم بعدد».

ثم يطالب الكاتب المصريين بالعمل على التخلص من هذه الأسرة المستبدة الظالمة «فإذا عرف المصرى مما تقدم أن شقاءه وبلاءه كان السبب فيها عائلة محمد على يجب عليه وينبغى له أن يتخلص منها لأن أقل واحد من مواطنيه أشفق عليه وأرأف به منهم» ثم يحمل الكاتب الأسرة العلوية مسئولية الاحتلال البريطانى لمصر فيقول «وعائلة محمد على هى التى بتبذيرها وغيره سلمت مصر إلى الانجليز» وذكر الكاتب أن آخر دليل على استمرار عداء الأسرة الخديوية للشعب المصرى أن الخديو الحالى عباس حلمى الثانى قد أعلن «عداوته للأمة بعدم منحها مجلس النواب» وبناء على ذلك يطلب الكاتب من الأمة المصرية أن (تعلن أن لا حاجة لها به وترسل الوفود إلى الممالك الموقعة على معاهد «لندرة» لإخبارها بأنها غير راضية بأن يحكمها واحد غير مصرى الجنسية».

(١) القطر المصرى - ٨ يناير سنة ١٩٠٩ مقال بعنوان (مصر للمصريين)

وأخيراً يتساءل أحمد حلمى: «ثم بأى حق مشروع تأخذ عائلة محمد على من الخزينة المصرية ثلاثمائة وخمسين ألف ليرة سنوياً وأى شر دفعوه عنها أم أى خير جلبوه لها حتى يكال لهم المال جزافاً»<sup>(١)</sup>.

ويقارن (محمد فريد وجدى) فى صحيفة (الشعب) بين الحكومة المطلقة والحكومة المقيدة فيقول إن الحكومة المطلقة هى النظام السياسى الذى «لا إرادة فيه فوق إرادة المسيطرين فيها فإن اختلفت مثل هذه الحكومة يوماً ما مع جمهور الأمة فى تقدير نتائج مسألة نفذت آراءها رغماً عن كل معارضة ولو كان بإزائها الإجماع»<sup>(٢)</sup>.

ومن الصفات المميزة للحكومة المطلقة فى رأى (محمد فريد وجدى) أنها «لا تستطيع» أن تحفظ وجودها ولا وجود الأمة التى تسيطر عليها إلا إذا كانت بمعزل عن المكافحات الاجتماعية فإن احتك بها الأجنى تغلب عليها وهى الأمة بقليل من الدهاء والعنف لأنه لا يجد أمامه إلا أفراداً يسهل عليه ادھاسهم بقوته وتدويخهم ببطشه فينقادون إليه مرغمين ولو كانوا من أكبر خلق الله أفئدة وأكثرهم شماً».

أما الحكومة المقيدة فإن (فريد وجدى) يرى لها أشكالا عدة (تقترب أو تبعد عن الغاية التى فيها تتمثل إرادة الأمة أكمل تمثيل فهى إما ملوكية مقيدة أو جمهورية.. والملوكية إما أرستقراطية أو ديمقراطية وهى بأشكالها إما برلمانية أو وزارية».

فالحكومة «الملوكية» المقيدة هى «التي يتولى القوة التنفيذية فيها ملك مقيد الإرادة بدستور كامل أو ناقص».. أما الجمهورية فهى «التي على رأسها رئيس ينتخب لمدة معينة» والحكومة الأرستقراطية هى «التي يغلب فيها نفوذ الأعيان وأصحاب الأملاك كإنجلترا».. والحكومة الديمقراطية هى «التي لا إرادة فيها إلا للشعب برمته دون أى طبقة من طبقاته».. والحكومة البرلمانية هى «التي تبلغ فيها مسئولية الوزارة أقصى غاياتها فهى تقضى بانفصال بعض السلطات عن بعضها ولها ملك أو رئيس جمهورية بصفة رئيس هيئة تنفيذية ولكن جميع الأعمال التى تصدر باسمه يجب أن تحضر بواسطة وزاراته المسئولة ليتنافس فيها مجلس الأمة».. أما الحكومة الوزارية فهى التى تكون «الوزارة فيها مشتركة بين السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية فالوزراء يعتبرون أعضاء فى المجلس لأنهم ممثلون للسلطة التنفيذية فيه».

ولكن فريد وجدى (يستدرك قائلاً إن الحكومة الواحدة «قد تكون أرستقراطية برلمانية أو أرستقراطية وزارية أو ديمقراطية برلمانية إلى آخر ما يمكن حصوله من تنوع هذه الأشكال وفى الأرض أمم تمثل كل هذه الخلافات».

وفى صحيفة «الشعب» أيضاً يكتب الشيخ (عبدالعزیز جاویش) عن خير أنواع الحكومات فيدافع عن الحكومة المقيدة ويقول إنها أفضل أنواع الحكومات التى عرفتها البشرية.. ثم يحاول

(١) ولقد تسبب هذا المقال فى تقديم أحمد حلمى إلى المحاكمة وحكم عليه بالسجن تسعة أشهر.. مع كفالة قدرها ألف جنيه مع إيقاف التنفيذ

(٢) الشعب - ٢٠ أبريل سنة ١٩١٠ مقال بعنوان (الأمة والحكومة فى نظر العلم السياسى قديماً وحديثاً).

أن يثبت أن الإسلام قد عرف الحكومة المقيدة.. ففى رأيه أنه قد وجد.. «الملوك الدستوريين فى الإسلام.. ولكنهم كانوا قليلي العناية أو الدراية بالطرق النظامية التى بها تدوم مشاركة الرعايا لرعاتهم فى تدبير المصالح العامة» ومنهم من كان يصرفه عن التفكير فى ذلك وجود القرآن الكريم الذى هو ينبوع العدل ونبراس الاستقامة وأساس المدنية الصحيحة الكاملة كما ورد عن عمر بن الخطاب يوم أراد الرسول عليه الصلاة والسلام وهو على فراش الموت أن يملئ على المسلمين كتاباً لا يختلفون بعده أبداً فأجابه سيدنا عمر: إنا لا نختلف وفينا كتاب الله»<sup>(١)</sup>.

ويذكر الكاتب: لو أن أمراء المسلمين «وضعوا لأنفسهم ولخلفائهم فى البلاد الإسلامية من النظام والتدبير ما يضمم الروح الدستورية التى هى روح القرآن لما أصاب الممالك الإسلامية من الذل والهوان ولما امتدت إليها يد الدهر بالتقويض أو الدمار».

ولا ينسى الشيخ عبدالعزيز جويش أن يؤكد أن من بين أسباب عدم شيوع الروح الدستورية فى التاريخ الإسلامى قيام عدد من رجال الدين الإسلامى المنافقين فى كل عصر لتأويل آيات القرآن بما يخدم أغراض الحكومات المستبدة فيقول: «إن من علماء الدين فى كل جيل من يتأولون آيات الله تعالى ويصرفون أحكامه عما تصدر منها لا لسبب سوى رغبتهم فى هبات حكامهم أو رهبتهم لجبروتهم».

ويطالعنا عبدالرحمن الرافعى فى صحيفة «الأخبار» بعشر مقالات هامة نشرها متتابعة فى منتصف عام ١٩٢٢ تحت عنوان «السياسة الرجعية فى مصر» وترجع أهمية هذه المقالات إلى أنها قد تصدرت بالهجوم لأنه بدأت تظهر فى الحياة السياسية المصرية فى ذلك الوقت وزارات هى (وزارات الأقلية) التى كانت تستبد بالحكم دون أى سند من رضى الشعب مكتفية بتأييد الانجليز أو القصر أو الاثنين معاً.. وقد تفشت هذه الظاهرة عقب استقالة وزارة الأغلبية الوفدية فى نهاية عام ١٩٢٤ عقب أزمة مقتل السردار.. ومنذ ذلك الوقت تعاقبت على حكم مصر.. وزارات تستند إلى أحزاب الأقلية.. لدرجة أن حزب الأغلبية لم تزد السنوات التى تولى فيها الحكم طوال الثمانية والعشرين عاماً التى تبدأ بدستور ١٩٢٤ حتى ثورة يوليو عام ١٩٥٢.. عن خمس سنوات وبضعة شهور وقد كانت هذه الظاهرة أحد الأسباب الرئيسية التى أدت إلى إفساد التجربة الديمقراطية فى مصر.

ولقد بدأ الرافعى مقالاته محذراً الانجليز قائلاً «إذا اعتقد الانجليز أن من الميسور حكم الأمة على غير إرادة أهلها وقيام وزارة بالأمر فيها دون أن تتصل بالرأى العام أو تعتمد على تأييده.. فإن هذا الاعتقاد باطل وأشر حكم يصدر على الأمة المصرية»<sup>(٢)</sup>.

فمعنى ذلك «أن الأمة لا يصح أن يحسب لإرادتها حساب أو يعبا بشعورها وكرامتها» ومن الطبيعى عندئذ أنه لن «يرضى أحد بهذا الحكم.. ومن ذا الذى يقبل أن يكون فى عمله وموقفه أقوى حجة على الأمة وأمضى سلاح يشهر فى وجهها».

(١) الشعب - ٢٥ مارس سنة ١٩١٠ مقال بعنوان (خير أنواع الحكومات)

(٢) الأخبار - ٣ يوليو سنة ١٩٢٢ مقال بعنوان (السياسة الرجعية فى مصر.. وزارات الأقلية).

ويمضى الرافعى مؤكداً أنه إذا كانت الوزارة هى مظهر الحكم فى البلاد «فإن الحكم الآن تتولاه أقلية سياسية أوجدتها الحوادث وهى لا تتصل بروح الأمة ولا تحوز ثقتها»<sup>(١)</sup>.

وهذه أقلية فى رأى الرافعى إنما تحكم البلاد على «غير رغبة أهلها وتتحكم فى الأمة وتستبدل القوة العاشمة بالثقة العامة» وهو ما اعتبره الكاتب (افتتاناً على حقوق الأمة وتعطيلاً لإرادتها ومواهبها مما يحتمل تبعته المسئولون من سياسة الوزارة).

وينفرد «الدكتور محمد حسين هيكل» فى صحيفة السياسة بالحديث عما سماه بظاهرتين جديدتين من ظواهر الاستبداد فى مصر - وهما : - فى رأيه - الاستبداد الناتج عن افتتان الشعب بالأشخاص والزعماء.. والاستبداد الدستورى.

وفيما يتعلق بالظاهرة الأولى وهى ما سماها بالاستبداد الناتج عن افتتان الشعب بالأشخاص والزعماء فهو يرى أنه «يأتى على الشعب فى أوقات محنته حيتا من الدهر ينسى فيه أن حياته ليست معلقة على إرادة الجميع بقدر ما هى معلقة على إرادة شخص يفتن به الناس افتتاناً فيرون فيه رمزاً ويرفعونه من مقام إلى مقام أسنى منه حتى يصل إلى ذروة السلطة فيعبد بالجميع وينسى الوعود ويصبح أشد خطراً على حياة الأمة من المحنة التى أراد الناس أن يكون واسطة الخلاص منها»<sup>(٢)</sup>.

ومن الواضح أن الدكتور هيكل يقصد بهذا المقال افتتان الشعب بسعد زغلول. أما الظاهرة الثانية.. وهى ما يسميها الدكتور هيكل بالاستبداد الدستورى فقد عنى بها ذلك الاستبداد «الذى تلجأ إليه الأغلبية لقهر الأقلية مستغلة فى ذلك حماية الدستور»<sup>(٣)</sup>.

ويرى الدكتور هيكل أن الاستبداد الدستورى «أشهر أنواع الاستبداد وأكثرها ضرراً فاستبداد الحاكم الفرد ممقوت علنا وكل واقف فى سبيله يلقى من الناس تأييداً صريحاً وعطفاً خالصاً وكل ظلم يحل بالناس من جرائم يزيد الناس حباً فى الحرية وتشبهاً بها وتضحية فى سبيلها.. أما الاستبداد الدستورى فيقوم باسم الحرية ويتكلم باسم الأمة ويدوس الوطن باسم منفعة الوطن.. وهو لذلك أشد أنواع الاستبداد خطراً وهو إذا ظل زمناً طويلاً تعرضت البلاد التى يقوم فيها لشر أنواع التحكم والظلم ولم تطقه أمة حية قام فيها إلا ريشما اقتنعت بأنه مهدد لحياتها».

فيفصح الدكتور محمد حسين هيكل عن هدفه فيهاجم حزب الوفد وهو حزب الأغلبية وبتهمة بأنه يمارس فى البلاد استبداداً دستورياً معتمداً على أغليبيته فى البرلمان فيقول «ونحن فى مصر نعيش تحت حكم الاستبداد الدستورى منذ أيام الانتخابات للبرلمان ولقد كان للناس فى هذا النظام الاستثنائى أمل أن يصل بهم إلى تحقيق مطالبهم القومية وهامهم اليوم يرون ما كان من نتائج الاستبداد الدستورى أن وقف الانجليز فى وجه مطالبنا فلم يكن من نتائج وقوفهم

(١) الأخبار - ٤ يوليو سنة ١٩٢٢ مقال بعنوان (السياسة الرجعية فى مصر.. أسباب ونتائج).

(٢) السياسة - ١٦ أكتوبر سنة ١٩٢٣ - مقال بعنوان (خطر افتتان الشعب بالأفراد)

(٣) السياسة - ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٢٤ - مقال بعنوان (الاستبداد الدستورى وخطره على مصير البلاد..)

وإصرارهم على الانفراد بالأمر فى السودان وعلى احتلال مصر إلا أن فر جنود الاستقلال التام أو الموت الزؤام من الميدان السياسى فى صراحة».

وهكذا ينطلق الكاتب من موقف حزبى بحث لا يرى أبعد من مصالحه الحزبية.. فالغريب أننا لم نقرأ له قبل هذا الهجوم على حزب الأغلبية - الذى وصل إلى الحكم عن طريق انتخابات حرة والذى شكل لأول مرة فى تاريخ مصر الحديث.. «حكومة الشعب»- أى كلمة هجوم أو نقد لاستبداد الوزارات التى نصبها الاحتلال فى السنوات القليلة التى سبقت الانتخابات والتى كانت ألعوبة فى يد القصر وسلطات الاحتلال والتى لم تكن تعبر بأى حال من الأحوال عن إرادة الأمة، فلقد مارست على الشعب استبداداً بشعاً تمثل فى مطاردة القوى الوطنية والحجر على الاجتماعات العامة.. وحرية التعبير فى الصحافة..

\* \* \*





## الفصل الثامن عشر

**الصحافة المصرية...  
والحياة النيابية**



بعد فشل الثورة العربية .. وإحتلال الإنجليز لمصر .. أرسلت الحكومة الإنجليزية اللورد دوفرين - السفير البريطاني في تركيا - إلى القاهرة ليعيد تنظيم جهاز الحكم في مصر .

وقد وضع اللورد دوفرين تقريراً أوصى فيه بإلغاء مجلس شورى النواب<sup>(١)</sup>

توفيق بنظام برلماني يتكون من هيئات ثلاث هي : مجالس المديرية<sup>(٢)</sup> .. ومجلس شورى القوانين<sup>(٣)</sup> .. والجمعية العمومية<sup>(٤)</sup> .. ولقد أصبح تقرير اللورد دوفرين هو القانون الأساس لنظام الحكم في مصر<sup>(٥)</sup>

(١) أنشئ مجلس شورى النواب المصري في نوفمبر عام ١٨٦٦ .. وكان هدف الخديو إسماعيل من إنشائه كسب طبقة الملاك الزراعيين وكبار التجار إلى جانبه لكي يدعمونه في مواجهة الأزمة المالية التي كانت تحيق به .. وكذلك من أجل الدعاية لنفسه في أوروبا لدعم موقفه المالي من البيوت المالية هناك .. ولكن المجلس سرعان ما أخذ يتطور في طريق الاستقلال عن الخديو، ففي دورة يناير ١٨٧٩ طالب المجلس بأن تعرض عليه الميزانية فما كان من الحكومة التي كان يرأسها توفيق باشا ولي العهد في ذلك الوقت وتضم وزيرين أجنيين إلا أن أصدرت مرسوماً بحل المجلس وذهب رياض باشا وزير الداخلية في ذلك الوقت لإبلاغ المجلس بقرار الحل .. ولكن الأعضاء رفضوا الانقضاء واجتمع الأعيان والعلماء والتجار والموظفون وأصدروا في ٢ أبريل ١٨٧٩ المحضر الوطني يطلبون فيه من إسماعيل منح مجلس شورى النواب الحرية التامة وجميع الحقوق في كافة الأمور المالية والداخلية كما هو جار في بلاد أوروبا وتعديل طريقة الانتخاب لتماثل ما يحدث في أوروبا وإقرار مبدأ مسئولية الوزراء أمام المجلس. (راجع محمد خليل صبحي ب تاريخ الحياة النيابية في مصر - الجزء الخامس - ص ٩٩ - ١٠٦) وأوعز إسماعيل إلى ابنه توفيق بالاستقالة وتشكلت وزارة شريف باشا من العناصر الموالية للدستور في ٧ أبريل ١٨٧٩ ولقد سعت وزارة شريف إلى إصدار لائحة المجلس الأساسية ولائحة الانتخاب وإلى منح مجلس شورى النواب سلطة الجمعيات التأسيسية تمكيناً له من إصدار هاتين اللائحتين .. ولكن ما كاد المجلس يقر اللائحة الأساسية ولائحة الانتخاب ويرفعها إلى الخديو إسماعيل ليصدق عليها حتى ضغطت الدول الأوروبية على الباب العالي في تركيا فخلع إسماعيل وولي محله ابنه توفيق في ٢٥ يونيو ١٨٧٩ وعندما رفع شريف باشا اللائحتين إلى الخديو توفيق للتصديق عليهما .. امتنع عن التصديق عليهما بتحريض من إنجلترا وفرنسا اللتين عاونته في الإطاحة بكل المكاسب الدستورية التي تحققت للشعب المصري .

وبعد مظاهرة عابدين في ٩ سبتمبر ١٨٨١ حدث انقلاب دستوري في مصر إذ عهد إلى شريف باشا بتأليف وزارة دستورية ودعى مجلس شورى النواب للانعقاد في ٢٦ ديسمبر ١٨٨١ .. وعندما كان النظام الجديد يستعد لإعلان اللائحة الأساسية التي تضمنت الأسس الدستورية للحياة النيابية في مصر .. قدم قنصل إنجلترا وفرنسا في ٨ يناير ١٨٨٢ مذكرة مشتركة إلى الخديو يعلنان وقوفهما بجانبه وتأييد سلطته المطلقة وفي نفس الوقت نسب خلاف بين الحكومة ومجلس شورى النواب حول حق المجلس في مناقشة الميزانية .. وكان هذا الخلاف بالإضافة إلى المذكرة المشتركة سبباً في إستقالة وزارة شريف وتولية محمود سامي البارودي . وكان أبرز ما عنت به الوزارة الجديدة هو إعلان الدستور الذي تقرر فيه مبدأ سيادة الأمة وحق المجلس في نظر الميزانية .. ولكن عمر هذا الدستور كان قصيراً فما لبثت الحرب أن نصبت بين العربيين والإنجليز وضاعت جميع المكاسب الدستورية باحتلال بريطانيا لمصر (راجع: عبدالرحمن الرافعي، الثورة العربية والاحتلال الإنجليزي - ص ١٩ وأحمد شفيق باشا، مذكرات في نصف قرن - الجزء الأول ص ١١٣ - ١١٥ ود. محمد حسين هيكل، شخصيات مصرية وغربية - ص ٣١ ود. عبدالعزيز الرفاعي - فجر الحياة النيابية في مصر الحديثة - ص ٧٦ - ١٠٨).

(٢) كانت مجالس المديرية تشكل على مستوى كل مديرية وبالتالي كان يختلف عدد أعضائها بين أربعة وخمسة وكانوا ينتخبون من مشايخ القرى .

(٣) كان مجلس شورى القوانين يؤلف من ٢٦ عضواً - ١٢ منهم تعينهم الحضرة الخديوية بناء على موافقة رأى مجلس النظار أما الستة عشر الباقون فينتخبهم أعضاء مجالس المديرية .

(٤) كانت الجمعية العمومية تتألف من ثمانين عضواً وهم الثمانية نظار وأعضاء مجلس شورى القوانين وعددهم ٢٦ عضواً و ٤٦ عضواً ينتخبهم مشايخ القرى .

(٥) جاكوب لانداور - تاريخ الأحزاب والحياة النيابية في مصر - ص ٥٢

وقد كان رأى تلك المجالس استشارياً لا يفيد النظار بشئ ولا يحتم على الحكومة الأخذ به وإن كان عليها أن تبين الأسباب التى دعته إلى عدم الأخذ بأرائها وهذا البيان لا يقبل الاعتراض.. كما كان محظوراً على هذه المجالس المناقشة فى المسائل السياسية غير الداخلة فى اختصاصهم.. أما تقرير الضرائب فيكون قرار الجمعية العمومية قاطعاً<sup>(١)</sup>.

ولقد اعترف اللورد دوفرين فى تقريره أن هذا النظام ليس نظاماً نيابياً إذ كان يرى أن مصر فى ذلك الوقت ليست من الأهلية أو الكفاءة بحيث تتمكن من التمتع بالحكم النيابى الكامل فهو يقول فى التقرير: «ورب قائل يقول إن هذا النظام لا يشمل المبدأ البرلمانى من حيث هو فى الواقع.. ونفس الأمر حيث إن حقيقة المجلس العمومى (يقصد الجمعية العمومية) ومجلس التشريع (يقصد مجلس شورى القوانين) هما إلى جانب التشريع أقرب منه إلى جانب الاستشارة.. فنحبيه إن كل من يذهب إلى أن مصر وصلت الآن إلى درجة يتأتى معها إنشاء حكومة ديمقراطية محضة وإنما إذا حاولنا فى الظروف الحالية إدخال نظامات من شأنها أن توقع البلاد فى شراك الارتباك والاختلال يوم تتركها وشأنها فإن أشد أهل البلاد حباً للحرية يرى سوء العاقبة من إدخال تلك النظامات»<sup>(٢)</sup>.

ثم أعلن اللورد دوفرين أنه وضع هذا النظام من أجل أن يحيا المصريون حياتهم التى ألفوها وأن يديروا حكومتهم<sup>(٣)</sup>.. ولقد صدق من وصف هذا النظام فى مجلس العموم البريطانى بأنه «صورة كاذبة للحكم الدستورى أجيد رسمها»<sup>(٤)</sup>.

ورغم ذلك وافقت الحكومة الإنجليزية على هذا التقرير مع الارتياح والسرور وانتقلت السلطة كلها فى مصر إلى يد المعتمد البريطانى وإلى أعوانه المنتشرين كمستشارين فى النظارات المختلفة.. وصحيح أنه لم يتعهد الخديو ولانظاره كتابياً بطاعة المعتمد البريطانى. وموظفيه.. ولكن هذه الطاعة أصبحت توقعها أمراً معلوماً والتشدد فى طلبها واجباً وإن أنكر اللورد دوفرين هذه النية.. وانحطت مكانة الخديو الذى طالما عنيت الحكومة الإنجليزية بارتجاع سلطته ولم يعد له من الأمر شئ وأصبح النظار وعامة رجال الإدارة خاضعين للموظفين الإنجليز والحقيقة أن اللورد دوفرين إنما جاء بحماية مقنعة ليس غير..<sup>(٥)</sup>

ولم يكن مستغرباً فى بداية الاحتلال أن ترفع نصائح مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية إلى الحكومة وكأنها استجداء مغلف بترانيم الولاء.. ومع ذلك فلم يكد يطل عام ١٨٩٢ حتى بدا وكأن المجلسين قد استطاعا أن يستجمعا ثقتهم بنفسيهما وساعدهما على ذلك بداية عهد الخلاف بين الخديو عباس حلمى الثانى واللورد كرومر.. ففى ديسمبر ١٨٩٢ رفض

(١) أحمد شفيق- مذكراتى فى نصف قرن- الجزء الأول- ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(٢) الوقائع المصرية- ٢٣ أبريل سنة ١٨٨٣ - نص تقرير اللورد دوفرين.

(٣) المصدر السابق

(٤) تيودور رتشتين- فصول من المسألة المصرية- ترجمة عبد الحميد العبادى ومحمد بدران- لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة ١٩٥٩ ص ١٢٣ .

(٥) المصدر السابق- ص ١٣٣ .

مجلس شورى القوانين النظر فى ميزانية عام ١٨٩٣ بحجة أنها لم تقدم إليه فى صورتها النهائية.. وفى عام ١٨٩٣ تحفظ مجلس شورى القوانين على المصروفات الضخمة التى قررت لقوات الاحتلال وفى عام ١٨٩٦ احتج المجلس لأنه لم يستشر فى ميزانية الحملة السودانية وفى نفس العام طالب المجلس بزيادة الاعتمادات المخصصة لترقية التعليم. ولقد تولى رئاسة المجلس فى الفترة التى تقع بين عام ١٨٩٩ وعام ١٩٠٢ «إسماعيل محمد باشا» صديق «مصطفى كامل» الذى أشاع روح السخط على الحكومة والاحتلال فى المجلس<sup>(١)</sup>.

ورغم أن المجلس أخطأ بالتصديق بعد ذلك على أحكام دنشواى إلا أنه تدارك موقفه بعد نجاح مصطفى كامل فى إثارة رأى العام المصرى والأوروبى ضد استبداد اللورد كرومر.. وأصدر المجلس قراراً بالإفراج عن معتقلي دنشواى وكانت روح المناقشة كلها تتسم بالعداء للإنجليز بدليل أن المجلس طالب فى نفس الجلسة بإقامة حكومة وبرلمان دستوريين وتعيين المصريين فى جميع المناصب الرسمية العليا وأن تكون اللغة العربية هى اللغة الرسمية الوحيدة فى مصر.. ووقف امتيازات الشركات الأجنبية فى مصر<sup>(٢)</sup>.

كذلك فقد رفضت الجمعية العمومية مشروع مد امتياز شركة قناة السويس العالمية عام ١٩١٠ بعد أن جرت مناقشات حامية ضد المشروع داخل الجمعية وألقيت كلمات نارية من بعض الاعضاء استغرقت حوالى خمس ساعات من نهار ١٤ أبريل ١٩١٠ وفى نهاية المناقشة كانت كل الأصوات ضد المشروع.. وكانت هذه هى المرة الأولى التى تنصح الجمعية العمومية الحكومة بنصيحة وتضطرها إلى الانصياع لرأيها فقد استسلمت الحكومة لرأى الجمعية العمومية.

وبمراجعة سجل مضابط مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية نجد أنها قد سجلت فى الفترة من عام ١٩٠٥ إلى عام ١٩١٢ أكثر من رغبة لزيادة السلطة التشريعية للأعضاء. وفى ١٤ يونيو ١٩٠٥ اقترح الشيخ على يوسف الذى كان عضواً بالجمعية العمومية أن تعطى مصر تمثيلاً نيابياً حقيقياً وعلى مدى أوسع حتى يمكن الانتفاع بذكوى الخبرات من المصريين.. وفى عام ١٩٠٧ أثير الموضوع من جديد حيث طالبت الجمعية العمومية فى مارس ١٩٠٧ بمجلس نيابى للبلاد وقد ردت الحكومة فى فبراير ١٩٠٨ بما يفيد أن الأوان لم يحن بعد لذلك وأن الحكومة تنظر فى توسيع اختصاصات مجالس المديرىات<sup>(٣)</sup>.

وقد كانت فكرة توسيع مجالس المديرىات من صنع (جورست) المعتمد البريطانى الذى خلف اللورد كرومر فى مصر والذى لم يكن من أنصار التوسع فى الحكم الذاتى أو إنشاء مجلس نيابى بحجة أن المصريين لم يصلوا بعد إلى الدرجة التى تؤهلهم لممارسة حقوقهم النيابية<sup>(٤)</sup>.. ولكى يصرف الأمة عن طلب المجلس النيابى تقدم بمشروعه لتوسيع مجالس

(١) جاكوب لاندوا - تاريخ الأحزاب والحياة النيابية فى مصر ٥٥ - ٥٦

(٢) نفس المرجع - ص ٨٧ - ٥٨ .

(٣) الدكتور حسين فوزى التجار - الجريدة - تاريخ وفن - رسالة دكتوراه غير منشورة ص ٩٧ .

(٤) المصدر السابق - ص ١٢٥ .

المديريات<sup>(١)</sup>.. وكان هذا المشروع لا يزيد على مجرد إعادة تنظيم مجالس المديريات بحيث يمثل فيها مراكز المديرية وبنادرها وتكون بمثابة مجالس استشارية لتوجيه مديري المديريات ولها حق إصدار بعض اللوائح فيما يختص بالشئون المحلية للمديرية كالتعليم وتعيين الخفراء فى القرى وإنشاء الأسواق وتطهير الترع وإقامة الجسور كما أعطاهما الحق فى فرض ضرائب جديدة- لا تتعارض مع الامتيازات الأجنبية- لإنفاقها فى شئون التعليم الأولى.

وبدأ جورست يبحث هذا التنظيم الجديد عام ١٩٠٨ ولكنه لم يطبق فعلاً إلا فى يونيو ١٩٠٩<sup>(٢)</sup>. ولقد اتضح أن مجالس المديريات الجديدة- إذا استثنينا مالها من حق إنشاء المدارس الإبتدائية تحت إشراف نظارة المعارف- لم تكن تختلف فى شئ عن المجالس القديمة القاصرة التى أنشئت عام ١٨٨٣، أى أنها كانت على أكثر تقدير مجالس استشارية ليس لها حق حيث إنها كانت خاضعة تماماً لسيطرة المدير والوزارة.. ولما قدم المشروع إلى مجلس شورى القوانين لم يرفضه.. وإن كانت لجته التى تولت دراسته لم تتردد فى أن تحكم بأنه من الوجهة الإصلاحية يكاد يكون عديم الفائدة<sup>(٣)</sup>.

وإزاء إصرار الحركة الوطنية على مطلب المجلس النيابى اضطرت المجترة إلى اقتراح مجلس جديد يحل محل الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين على أن يتمتع بحقوق أكثر وسلطات أوسع.. فأصدر الخديو عباس حلمى الثانى القانون النظامى رقم ٢٩ بإنشاء الجمعية التشريعية فى أول يوليو ١٩١٣ وكان هذا التغيير يستهدف- كما قالت مقدمة القانون «تحسين الأسلوب التشريعى وذلك باستبدال القوانين النظامية الحالية بقوانين ترمى إلى ضم مجلس شورى القوانين مع الجمعية العمومية فى هيئة واحدة وإلى تقرير طريقة للانتخاب تكون أوسع نطاقاً وأكثر انطباقاً على الحكمة.. وإلى إزدياد عدد الممثلين الذين يعهد إليهم بالمشاركة فى أعمال السلطة التشريعية وإلى تحويل الهيئة الجديدة.. الاختصاصات الممنوحة لكل من مجلس شورى القوانين، والجمعية العمومية.. فى الاستشارة وفى اقتراح وضع القوانين لكى تزداد استفادة الحكومة عن ذى قبل من آراء هذه الهيئة الجديدة ومقترحاتها فيما يتعلق بإدارة الشئون الداخلية فى القطر المصرى»<sup>(٤)</sup>.

ولقد نص قانون إنشاء الجمعية التشريعية على أن تتكون من أعضاء قانونيين هم الوزراء وأعضاء منتخبين عددهم ستة وستون عضواً يمثلون محافظات ومديريات القطر المصرى يتم انتخابهم على درجتين بواسطة مندوبين خمسينيين يقومون بانتخاب عضو الجمعية التشريعية كل فى دائرته.. وأخيراً من أعضاء معينين عددهم سبعة عشر عضواً يمثلون الأقباط والبدو والتجار

(١) دكتور خليل صابات ودكتور سامى عزيز ودكتور يونان ليب- حرية الصحافة فى مصر- ص ١٤٩

(٢) د. حسين فوزى النجار- الجريدة تاريخ وفن- ص ١٢٥

(٣) تيودور رنشتين- فصول من المسألة المصرية - ص ١٩٢

(٤) محمد خليل صبحى - تاريخ الحياة النيابية فى مصر- الجزء الخامس ص ٣٩١ - ٣٩٢

والأطباء والمهندسين ورجال التربية العامة أو الدينية والمجالس البلدية وذلك بنسب متفاوتة .. ويتم تعيين رئيس الجمعية من بين الأعضاء المعيّنين أما الوكيلان فأحدهما - كالرئيس - يعين من بين الأعضاء المعيّنين والثاني ينتخبه الأعضاء المنتخبون .. ومنحت الجمعية التشريعية اختصاصات المجلسين القديمين مع التوسع في بعض النواحي كتخويلها الحق في إقرار أو رفض زيادة الضرائب وحق تحضير مشروعات قوانين وحق مناقشة ردود الحكومة على ملاحظاتها دونما إلزام للحكومة بها.

وفي ١٣ ديسمبر ١٩١٣ أجريت انتخابات الجمعية فأُسفرت عن انتخاب خمسة وعشرين عضواً ممن كانوا أعضاء في مجلس شورى القوانين السابق .. وفي يوم الخميس ٢٢ يناير ١٩١٤ افتتحت الجمعية التشريعية وألقى الخديو خطاب الافتتاح واستمر دور الانعقاد حتى يونية ١٩١٤ حيث صدر أمر عال في ١٨ أكتوبر ١٩١٤، بتأجيل دور الانعقاد المحدد له ١٥ نوفمبر ١٩١٤ إلى أول يناير ١٩١٥ ثم إلى ١٥ أبريل ثم إلى أول نوفمبر .. وأخيراً أجل إلى أجل غير مسمى بموجب المرسوم الصادر في ٢٧ أكتوبر ١٩١٥ ولم تجتمع الجمعية التشريعية بعد ذلك بسبب قيام الحرب العالمية الأولى<sup>(١)</sup>.

ولقد ظل الأمر على هذه الحال طوال الحرب العالمية الأولى، ولم تكد الحرب تنتهي حتى اشتعلت البلاد بثورة ١٩١٩ ثم ما تلاها من أحداث حتى صدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ من جانب الإنجليز وما نتج عنه من إعلان الاستقلال في ١٥ مارس ١٩٢٢ والمناداة بالسلطان فؤاد ملكاً، ثم تأليف لجنة لوضع الدستور في ٣ أبريل ١٩٢٣ وصدور الدستور بعد ذلك في ١٩ أبريل ١٩٢٣ الذي قضى بإنشاء حياة نيابية تتكون من مجلسين أحدهما للنواب والثاني للشيخوخ ويؤلف مجلس الشيخوخ من أعضاء ينتخب ثلاثة أخماسهم ويعين الباقيون (الخمس) بنسبة عضو لكل مائة وثمانين ألفاً من الأهالي ويؤلف مجلس النواب من أعضاء جميعهم منتخبون بنسبة نائب عن كل ستين ألفاً. ومدة عضوية عضو الشيخوخ عشر سنوات يتجدد نصفهم كل خمس سنوات ومدة عضوية النائب خمس سنوات.

وقد نص الدستور على مسئولية الوزارة أمام مجلس النواب فإذا قرر مجلس النواب عدم الثقة بها وجب عليها أن تستقيل، وإذا كان القرار خاصاً بأحد الوزراء وجب عليه اعتزال الوزارة، وللملك حق حل مجلس النواب، وإذا حل بسبب معين فلا يجوز حل المجلس الجديد من أجل نفس السبب مرة أخرى.. كذلك نص الدستور على أنه لا يصدر قانون إلا إذا أقره البرلمان بمجلسيه وصدق عليه الملك.. كذلك نص الدستور على أن الملك يدعو البرلمان سنوياً إلى عقد جلساته العادية قبل يوم السبت الثالث من شهر نوفمبر فإذا لم يدع إلى ذلك يجتمع بحكم القانون في اليوم المذكور<sup>(٢)</sup>.

(١) د. حسين فوزي التجار الجريدة تاريخ وفن - ص ٢٤٢ - ٢٤٣.

(٢) عبد الرحمن الرافعي - في أعقاب الثورة المصرية (ثورة ١٩١٩) الجزء الأول - دار الشعب - القاهرة - ١٩٦٩ ص ٦٣ - ٦٥

وفى ٢٠ أبريل ١٩٦٣ صدر قانون الانتخاب.. وهو أول قانون للانتخاب صدر فى عهد الدستور<sup>(١)</sup>.. وقد قرر هذا القانون أن حق الانتخاب مقرر لكل مصرى بلغ إحدى وعشرين سنة ميلادية وأن الانتخاب لأعضاء مجلس النواب على درجتين، الأولى هى انتخاب المندوبين الثلاثين.. والثانية: هى انتخاب النواب.. ففى المرحلة الأولى ينتخب كل ثلاثين ناخباً مندوباً عنهم يشترط أن لا تقل سنه عن خمس وعشرين سنة والمرحلة الثانية هى انتخاب النواب فى دوائرهم . أما انتخاب أعضاء مجلس الشيوخ فكان يتم على ثلاث درجات، فالأولى انتخاب المندوبين الثلاثين والثانية انتخاب المندوبين عن المندوبين وذلك كل خمسة منهم ينتخبون من بينهم مندوباً عنهم يشترط ألا تقل سنة عن ثلاثين سنة وهؤلاء المندوبون عن المندوبين هم الذين ينتخبون عضو مجلس الشيوخ فى دوائرهم<sup>(٢)</sup>

ويلاحظ أن قانون الانتخاب لم يشترط فى الناخبين والمندوبين أو مندوبى المندوبين شروطاً مالية أو ثقافية كذلك لم يشترط الدستور شروطاً مالية فى النائب وإنما اشترطها لعضو مجلس الشيوخ.. وكان من شأن ذلك توسيع قاعدة المشاركين فى الحياة السياسية فى البلاد.. وإتاحة الفرصة لشرائح اجتماعية أخرى غير كبار الملاك فى المساهمة فى الحياة النيابية وبالذات فئات المثقفين والمتعلمين والبرجوازية الصغيرة بالمدن.

ولكن كان يعيب ذلك القانون إنه اشترط على من يرشح نفسه للبرلمان دفع تأمين قدره ١٥٠ جنيهًا وهو تأمين باهظ كان من شأنه صد الطبقة العاملة وصغار الفلاحين والأجراء عن الاقتراب من مقاعد البرلمان<sup>(٣)</sup>.. فإذا أضيف إلى ذلك عجز هذه الطبقات عن تحمل نفقات المعارك الانتخابية فى ذلك العهد أدركنا السبب فى عدم وصول أى من العمال أو صغار الفلاحين إلى مقاعد ذلك المجلس.

(١) بعد فشل الثورة العربية ودخول قوات الاحتلال إلى مصر أشار ممثلو الدول الأجنبية على الخديو توفيق بإلغاء القانون الانتخابى الذى صدر أثناء الثورة العربية عام ١٨٨٢ وصدر قرار الخديو عام ١٨٨٣ بأن يحصر الانتخاب فى كل مصرى فى سن العشرين وأن يكون الانتخاب بطريق غير مباشر بواسطة مندوبين وقسمت المديرية إلى بلاد.. والمدن إلى أقسام وكل بلد أو قسم تنتخب مندوباً عنها وعلى المندوبين فى كل مديرية أن ينتخبوا عضوين عن كل مركز ويتكون من هؤلاء مجلس المديرية وهذا ينتخب عنهم عضواً، لمجلس شورى القوانين ولا بد، للعضو أن يكون قد سبق انتخابه عضواً بمجلس المديرية.. وقد استمر العمل بموجب هذا النظام حتى ٣١ مارس سنة ١٩٣١ حيث حل نظام الجمعية التشريعية وفى يوليو ١٩١٣ صدر قانون الإنتخاب الجديد وبمقتضاه أعطى حق الإنتخاب لكل مصرى فى سن العشرين أيضاً وأن يكون الانتخاب على درجتين فينتخب الأفراد مندوبين عنهم.. كل مندوب يمثل خمسين ناخباً والمندوبون الخمسين هم الذين ينتخبون أعضاء الجمعية التشريعية، وقد استمر العمل بهذا القانون حتى صدور الدستور فى ١٩ أبريل سنة ١٩٢٣ وما أعقبه من صدور قانون الانتخاب الجديد فى ٣٠ إبريل ١٩٢٣ (عبدالمعنى رجب - المثل الديمقراطية والنظام النيابى فى مصر - الطبعة الأولى - دار الفكر الحديث - ص ١٥٣ - ١٥٤).

(٢) عبد الرحمن الرافعى (١) - فى أعقاب الثورة المصرية - الجزء الأول ص ٩٥ - ٦٦ .

(٣) د. عبد العظيم رمضان - تطور الحركة الوطنية المصرية - ص ٣٩٣



وقد حدد يوم ٢٧ سبتمبر ١٩٢٣ لانتخاب المندوبين الثلاثينين.. وحدد يوم ١٢ يناير ١٩٢٤ لانتخابات النواب.. وقد اكتسح مرشحو الوفد وفازوا بتسعين في المائة من مقاعد البرلمان.. وجرت انتخابات الشيوخ يوم ٢٣ فبراير ١٩٢٤.. ولم تدخل الوزارة في الانتخاب وتركت حراً ففاز المرشحون الوفديون أيضاً بأكثر دوائر مجلس الشيوخ ثم افتتح البرلمان يوم السبت ١٥ مارس ١٩٢٤ وكان يوماً مشهوداً في تاريخ مصر الحديث فلأول مرة منذ حل الاحتلال البريطاني بالبلاد.. يجتمع النواب المنتخبون انتخاباً حراً في برلمان تتمثل فيه سلطة الأمة (١).

وبدأت مصر تعيش تجربتها الأولى - بعد الإحتلال - مع حياة نيابية حقيقية.

ولقد اتخذ إهتمام الصحافة المصرية بالحياة النيابية ثلاثة أشكال رئيسية:-

**الأول:** نشر أخبار الهيئات والمجالس النيابية ومناقشات أعضائها وجانب من محاضر جلساتها الرسمية.

**الثاني:** التعليق على نشاط هذه الهيئات النيابية وعلى مناقشتها والقرارات أو القوانين التي تصدرها.

**الثالث:** النقد المستمر لطبيعة تشكيل هذه الهيئات النيابية والدعوة لتطويرها واستكمالها لمقومات المجالس النيابية كما هي قائمة في دول أوروبا النيابية وقد أدى ذلك إلى خوض الصحف العديد من المناقشات والمعارك الفكرية والسياسية التي كانت تستهدف إقامة حياة نيابية صحيحة في مصر.

فبعد أيام من نشر تقرير اللورد دوفرين الذي يقضى بإلغاء مجلس شورى النواب المصري والاستعاضة عنه بمجلس شورى القوانين والجمعية العمومية علق ميخائيل عبد السيد.. في صحيفة (الوطن) على بعض جوانب هذا التقرير منبهاً إلى أن سلطات هذه المجالس استشارية فقط «فمن خصائص مجالسنا وفجوها عدم الخروج عن حد الاستشارة فلا يجوز للمجالس المناقشة في شيء» (٢)

ورغم ذلك فإنه يؤكد أن هذه المجالس بما فيها من نقائص سوف تكون مفيدة للبلاد: «نعم إن الاستشارة تفتق الذهن وربما توصل إلى الصواب بقدر الإمكان وإذا نظرنا إلى أحوال الممالك وغيرها وجدناها لم تتحصل على قانون نافع أو دستور جامع إلا بعد عناء شديد».

ثم يطالب المصريون بالصبر على هذه النقائص.. والإيمان بأن المستقبل كفيل بأن يوصلهم إلى مرادهم من الحياة النيابية الكاملة «أما نحن المصريون فالواجب علينا أن نشكر الله إذ قد كدنا ننال بهمة رجال حكومتنا كل هذه الأمور بدون تعب ولا لغب ولا نصب بل ونحن على فراش السكون مضطجعون وعلى بساط الأمن والسعادة نائمون.. ونحن نقول من تأنى نال ما تمنى ولا يكون النصر إلا بالصبر وأول المطر طل ثم سيل والله يحسن الحال في المبدأ والمآل».

(١) عبدالرحمن الرافعي - في أعقاب الثورة المصرية - الجزء الأول ص ٢٠

(٢) الوطن - ٥ مايو سنة ١٨٨٣ .

وعندما بدأت انتخابات مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية أعلن ميخائيل عبد السيد أنه «لا يصح أن نجعل طريقة انتخاب المصريين لنوابهم كالطريقة الجارية في بلاد أمريكا مثلاً بأن يكون لكل إنسان صوت في الانتخاب بل الأولى الاقتداء بالإنجلترا فإنه لا يجوز لأحد الانتخاب إلا بشروط معينة»<sup>(١)</sup>.

وهو يرى أن الطريقة المثالية للانتخاب هي أن تجمع الحكومة «مائة رجل من كل مهنة ممن تعهد فيهم الرزانة والصيانة والعقل والفضل وفوضت لهم انتخاب رجل عاقل فاضل من بينهم لكان أفضل.. ويعد تقدم المصريين ومعرفتهم المقصود من الانتخاب تزيد عدد المنتخبين في الانتخاب الثاني بأن تجمع مائتين من العقلاء لانتخاب نائب منهم وهكذا».

والكاتب يرفض إطلاق عملية الانتخاب ويرى حصر الناخبين في فئات خاصة.. إذ هو لا يجد «معنى لجمع الحمارين والشيالين والكيالين للانتخاب بينما المعلوم أن هؤلاء القوم أكثر عدداً من غيرهم ولا يعرفون إلا من شاكلهم».. لذلك فهو يعتقد ضرورة إيجاد مثل هذه الفئات عن الانتخاب إذ لابد أن «يكون الأعضاء من النواب الكفاة الهداه العارفين بحال مصر وبحال أهل بلدهم ويكون الواحد منهم مطلعاً على طرف من السياسة».

ويلاحظ أن ميخائيل عبد السيد لم يكن من أنصار مبدأ الاقتراع العام.. أى أن يكون لجميع المواطنين حق الانتخاب دون تقييد بشروط العلم أو الثروة فقد كان يرفض هذا المبدأ ويعترض على التوسع في منح (١) المواطنين حق الانتخاب ولعله كان متأثراً في هذا بأفكار «جون ستيوارت مل» الذي كان يرى ضرورة أن يتوافر في الناخب شروط المعرفة بأوليات القراءة والكتابة ومبادئ الحساب وكان من رأيه حرمان الجهلاء من حق التصويت لأنهم لا يصلحون لممارسة هذا الحق<sup>(٢)</sup> وجون ستيوارت مل يختلف في هذا مع «روسو» الذي كان يرى أن يكون لجميع المواطنين حق الانتخاب بدون التقييد بشروط العلم أو الثروة<sup>(٣)</sup>.

وفي صحيفة «مصر» أعلن «تادرس المنقبادى» بمناسبة انتخابات مجلس شورى القوانين أن هذا المجلس «عديم التأثير على السلطة التنفيذية بالنسبة لغيره من الهيئات النيابية الأوروبية»<sup>(٤)</sup>.

ورغم ذلك فهو يعده من «المنح العظيمة التي حلت بها الحكومة الخديوية جيد البلاد المصرية». وهو يأمل أن يتطور هذا المجلس ليصير مجلساً نيابياً حقيقياً ومؤثراً على السلطة التنفيذية كبرلمانات أوروبا «ولا نزال نقول في أنفسنا أن هذا الهلال سيصير يوماً من الأيام بديراً كاملاً».. وقال إن وصول مصر إلى النظام النيابى الكامل أمر يتوقف تحقيقه «على ما يبدو من أحوال نوابنا في مجلس الشورى من دلائل الحكمة والكفاءة والدراية».. وانتقد الكاتب تدخل السلطة في عمليات الانتخاب وأكد أن هناك شكوى «في كثير من الجهات من التدخل في حرية

(١) الوطن - ٨ سبتمبر سنة ١٨٨٣.

(٢) المصدر السابق - ص ٧٠٤

(٣) د. بطرس بطرس غالى والدكتور محمود خيرى عيسى - المدخل فى علم السياسة ص ٧٠٥ - ٧٠٦

(٤) مصر - ٦ ديسمبر سنة ١٨٩٥ مقال بعنوان (الشورى).

الانتخابات وعدم خلوها من شوائب الأغراض الأمر الذى يعكس شرف الغاية ويقلب المقصد النبيل إلى ضده على خط مستقيم».

ويحاول الكاتب أن يبرهن على صحة كلامه فيذكر أن «من توفرت لهم أصوات الانتخاب رجال أُميون لا يدرون من حقوق الشورى أو المشورة شيئاً كما لا يعلمون من واجباتهم أمام الهيئة الحاكمة أو الحكومة إلا الاسم بينما نرى الرجال المتوافرة فيهم كل هذه الشرائط ساقطين في الانتخابات» وينبه الكاتب قراءة بعد ذلك إلى أمور ثلاثة:-

أولاً: أن يعلموا «أن الغرض من انتخاب عضو في مجلس الشورى» هو لكي يقوم مقام كل فرد من أفراد منتخبيه أمام الهيئة الحاكمة فى كل ما يلزمه من الضروريات وهذا لا يتم إلا فى الشخص الذى تتوفر فيه شروط الجدارة والإمام ودقة الاختيار وسعة الإطلاع».

ثانياً: إن هذه الوظيفة «ليست إلا من الوظائف الوطنية الخطيرة التى يعار على طالبى صالح بلادهم أن يراعوا فيها تباين المذاهب أو اختلاف الأديان».

ثالثاً: أن تمتع أبادى «الضغط بالطرق المتنوعة وتطلق حرية الاختيار التامة فى الانتخاب بلا إجبار أو إكراه».

أما الشيخ على يوسف فكانت أول مساهمة فكرية من جانبه فى الحياة النيابية تعليقاً كتبه فى (المؤيد) بمناسبة الطلب الذى تقدم به مجلس شورى القوانين إلى الوزارة يطلب حضور وزير الحقانية جلسات المجلس عند النظر فى بعض القوانين الجديدة.. وقد وافقت الحكومة على طلب المجلس بل ووعدت بأن تبعث إلى المجلس بمن يطلبه من الوزراء أو الموظفين أو المستشارين عندما يعرض على المجلس أمر يستلزم حضور أى من هؤلاء.. وقد رأى الشيخ على يوسف أن هذا الموقف الذى اتخذه المجلس بطلب وزير الحقانية لحضور اجتماعات المجلس يعطى «منظراً جديداً لمجلس شورى القوانين.. برهن فيه حضرات أعضائه على حرية أفكارهم واستقلال آرائهم وأنهم رجال مصلحة الأهالى ونوابهم الذين يدافعون عن حقوقهم»<sup>(١)</sup>. وناشد الكاتب أعضاء المجلس أن يعملوا للحفاظ على هذا المركز المرموق الذى نالوه باحترام الحكومة والأمة لرغباتهم «ولا ترتاب فى أن حضراتهم يحافظون على هذا المركز تجاه الاعتبار الممنوح لهم فإنهم أهل لأن يقوموا بما عليهم من المسئولية للأمة والبلاد».

وعندما أجريت الانتخابات العامة لمجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ومجالس المديرية فى يناير ١٩٠٢ كتب الشيخ على يوسف سلسلة من المقالات تحت عنوان (الانتخابات العمومية فى القطر المصرى) تعرض فيها بالنقد لعدة جوانب من قانون الانتخاب وكشف عن الفساد الذى يستشري فى عمليات الانتخاب.. وقد بدأ مقالاته بنقد العيوب فى قانون الانتخاب مركزاً على عيوب أسلوب التقييد فى إعطاء حق الانتخاب وذكر أن مدينة القاهرة التى كان يقطنها فى ذلك الوقت ستمائة ألف نسمة أى مثل مديرية كبرى أو مديرتين من الدرجة الثانية

(١) المؤيد - ١١ يونيو ١٨٩٢ - مقال بعنوان (مجلس شورى القوانين).

فى ذلك الوقت أيضاً «لا يمثلها فى الانتخابات العمومية سوى ١٢ مندوباً ينتخب منهم واحد لمجلس شورى القوانين وأربعة للجمعية العمومية.. وموضع الخلل فى هذه الطريقة ظاهر فى قلة العدد أولاً.. لأنه لا يوافق القياس بحالة المديرىات التى قد يفوق مندوبو إحداها المائة والمائتين وثانياً لأن انحصار عدد المندوبين فى هذه القلة يمكن المساعى غير الشريفة من الفوز والنجاح على غير الوجهة المقصودة بالذات من عمل الانتخاب وهو اختيار الأكثر كفاءة وجدارة وفضلاً على غيره»<sup>(١)</sup>.

ثم يتساءل الشيخ على يوسف، كيف كان للانتخاب قيمة وللنيابة عن قسم كبير من الأمة معنى «إذا كان الذين ينتخبون الشخص أربعة أشخاص أو خمسة أو ستة مق أثنى عشر.. ومن الذى يعدم مثل هذا العدد أصدقاء ومثله أعداء ثم يكون انتخاب زيد دون عمرو لأنه صديقهم أو هو غير عدوهم».

وأكد الكاتب أنه لا ريب أن انتخاباً مثل هذا لا يكون «له معنى إلا إلقاء بذور الأحقاد والبغضاء والإنقسام بين النفوس وليس معناه اختيار الكفاء وذى الفضل على غيره بخلاف ما لو كان عدد المندوبين المنتخبين أضعاف ذلك كما تقدم».

وينطلق الكاتب من هذه الحقيقة إلى المطالبة: «بتعديل قانون الانتخاب إعطاء للأكثرية من الأمة نصيبها من حقوق الانتخاب العامة وتحقيقاً للغرض المقصود منه وهو الوصول إلى انتخاب أكثر الناس كفاءة وأهلية للنيابة عن الآخرين فى تلك- المجالس النيابية».

ثم يهاجم الشيخ على يوسف مظاهر الانقسام والفوضى والفساد فى عمليات الانتخاب فى الأقاليم فيقرر أن «ما يجرى الآن فى انتخابات الأرياف شراء للأمم بل بيع لها ووقوف على أبواب قاعات الانتخابات مع التعرض بالسباب والشتائم والإغراء وكل ما يولد الأحقاد وينمى العداءات بين الناس وينشر الفساد»<sup>(٢)</sup>.

ويعلن الشيخ على يوسف أن سر هذا الفساد هو الإقبال المتزايد على الترشيح لعضوية مجلس شورى القوانين.. وأن هذا الإقبال سببه طمع المرشحين فى «نيل الرتب والنياشين»<sup>(٣)</sup>.. ويضرب الكاتب مثلاً بعضو مجلس شورى القوانين عن مديرية جرجا الذى نال رتبة المتمايز الرفيعة قبل والده الذى هو أكبر منه مظهراً وأعلى مكانة.. لمجرد أنه عضو فى مجلس شورى القوانين «لذلك فهو يقترح إلغاء منح الرتب والنياشين لأعضاء مجلس الشورى والمديرىات والجمعية العمومية ليقول التزاحم المضر عليها وليوجه الانتخاب لها إلى وجه المصلحة العامة المرادة من هذه المجالس النيابية».

ويطالعنا الشيخ على يوسف فى جريدة المؤيد بسلسلة أخرى من المقالات ابتداء من العدد الصادر فى ٢٩ فبراير ١٩٠٤ تحت عنوان (مطالب الجمعية العمومية) يدافع فيها عن إقتراحه

(١) المؤيد- ٢٠ يناير سنة ١٩٠٢ مقال بعنوان (الانتخابات العمومية فى القطر المصرى).

(٢) المؤيد - ٢١ يناير سنة ١٩٠٢ (الانتخابات العمومية فى القطر المصرى).

(٣) المؤيد - ٢١ يناير سنة ١٩٠٢ (الانتخابات العمومية فى القطر المصرى).

الذى تقدم به بصفته عضواً فى الجمعية العمومية بإنشاء مجلس نيابى مصرى وهو المطلب الذى تبنته الجمعية وتقدمت به إلى الحكومة.. وكانت هذه المقالات بمثابة حملة صحفية يدعم بها مطلب إنشاء مجلس نيابى كامل المسئولية.. وقد بدأ الشيخ على يوسف هذه المقالات مشيداً بموقف الجمعية التى «أثبتت فى مباحث جلساتها الأخيرة أهلية فائقة وتعتلاً واثقاً على مبدأ العمل لصالح الأمة ولقد أكدت أنها تعرف مالها وما عليها»<sup>(١)</sup>.

ثم أشار الكاتب إلى موقف الجمعية العمومية فيما يتعلق بطلب المجلس النيابى فقال «وقد كان من أهم مطالب الجمعية التى نظرتها وقررتها طلب إنشاء مجلس نيابى تكون له سلطة المجالس الدستورية ووظائفها فى الأمم مع الحكومة».

وبهذا الموقف برهنت الجمعية العمومية - فى رأى الشيخ على يوسف - على «كفاءتها العالية وعلى أنها لا تطلب إلا مصلحة البلاد ولا تسأل الحكومة إلا ما يصح لها أن تسألها فيه»<sup>(٢)</sup>.

وهو يرى أن النظام «النيابى الحالى فضلاً عن قصوره ضائع النتيجة واهن القوى وعلة العلل فى هذا الوهن والضعف وعدم عناية الحكومة بأراء النواب، كون هذه الآراء شورية لإقرارات واجبة القبول»<sup>(٣)</sup>.. ويضيف قائلاً أنه إذا كان المبرر لمثل هذا النظام يوم وضع أن حالة الأمة فى ذلك الوقت بعد الثورة العراقية كانت تستدعى الاحتياط والحذر وتطلب التقيد لا الإطلاق إلا أنه بعد «تلك الرحلة الشاسعة التى بلغت فيها البلاد من وسائل الرقى والتقدم وجب تغيير ذلك النظام إلى دستورى نيابى حقيقى».

ويهاجم الكاتب أقوال الذين يدفعون الحكومة إلى عدم الموافقة على منح المجلس النيابى بحجة عدم أهلية الشعب المصرى للحكم النيابى.. فىقول: «كيف يشير أعداء مصر فى بعض ما يكتبون إلى أن البلاد غير مستعدة لإنشاء مجلس نيابى مع أن البلاد فى حالة رقى تجعلها فوق بلاد اليونان والصرب والبلغار مثلاً من كل وجه وهذه البلاد تنتقل من حال إلى حال بفضل مجالسها النيابية انتقالاً يحسدها عليه أهل مصر»<sup>(٤)</sup>.

ثم يستطرد مؤكداً أن استعداد الأمة المصرية لإنشاء مجلس نيابى موجود «منذ الآن وقبل الآن.. موجود منذ كانت مصر فى درجة مثل تلك الأمم الثلاث التى ضربنا بها المثل اليوم يوم أنشئت لها مجالس النواب».

ويطرح الشيخ على يوسف ثلاثة أسئلة يجيب عليها بالتفصيل.. وكان السؤال الأول هو، هل يشكل مجلس النواب المقترح خطراً على السلطة الخديوية؟

(١) المؤيد - ٢٩ فبراير سنة ١٩٠٤ مقال بعنوان (مطالب الجمعية العمومية).

(٢) المؤيد - أول مارس سنة ١٩٠٤ مقال بعنوان (مطالب الجمعية العمومية.. اقتراح بإنشاء مجلس نيابى).

(٣) المؤيد - ٣ مارس سنة ١٩٠٤

(٤) المؤيد - ٩ مارس سنة ١٩٠٤ مقال بعنوان (مطالب الجمعية العمومية - إنشاء مجلس نواب مصرى).

وفى إجابته على السؤال يؤكد الشيخ على يوسف أن الخديو يحكم أمته منذ تولى الخديوية على القاعدة النظامية التى وضعها الخديو إسماعيل فى ٢٨ أغسطس ١٩٧٨ وجرى عليها الخديو توفيق وهى حكم الرعية بالسلطة المشتركة بينه وبين مجلس نظاره بدلاً من السلطة الشخصية « وهذه السلطة المشتركة قد وضعت على أن تكون مستندة إلى الدستور النيابى ومشروطة به وهو الذى يكون رقيباً على الحكومة وسفيراً للأمة وواسطة مفيدة بينهما كما هو شأن المجالس النيابية فى الممالك المتمدنية»<sup>(١)</sup>.

ويذكر الكاتب أن الحوادث قضت أن تزول هذه الوساطة أو تختفى تلك السفارة من الوجود فى ٢٦ مارس ١٨٨٢ «وهو اليوم الذى حددت فيه نهاية مدة اجتماع مجلس النواب بالأمر العالى الصادر فى ٧ فبراير من نفس السنة، وكان آخر اجتماع لذلك المجلس.. ثم كان بعد ذلك إنشاء القانون النظامى الذى شكل بمقتضاه مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية.. فلما ألغى مجلس شورى النواب أصبحت السلطة الممنوحة للنظار وهى جزء من سلطة الخديوية المصرية باقية عندهم بلا شرط وهم الآن يعملون بمقتضى هذه السلطة أحراراً.. فإن كان فى إعادة مجلس النواب المصرى إيجاد قيود مفقودة الآن فإنما ذلك على النظار لا على الجنب الخديو بالذات فليس ثمة خطر على السلطة الخديوية القائمة».

أما السؤال الثانى الذى طرحه الشيخ على يوسف فكان، هل يشكل المجلس النيابى المقترح خطراً على وجود الاحتلال البريطانى؟

وقبل أن يجيب الشيخ على هذا السؤال بوضح أن طرح السؤال بهذا الشكل يعنى «أنه يجب علينا أن نوفق بين رغبات الأمة ومصلحة الاحتلال ولكن لأن كل عاقل يعلم الآن أن للاحتلال خطة قوية ونفوذاً غالباً فى إدارة البلاد المصرية بحكم القوة فإذا استقر فى أذهان القراء أن فى إيجاد مجلس نواب خطراً على الاحتلال غلب عندهم أن هذا المطلب لا يحقق لاعتقادهم أن المحتلين لا يرضون أن يوجد هذا الخطر عليهم وفى قوتهم دفعه أو منعه».. ثم يؤكد الكاتب إقتناعه بأنه «لا خطر على الاحتلال الإنجليزى من إيجاد المجلس النيابى فى شىء مطلقاً لأن الاحتلال قوة عسكرية فى مصر فوق الحقوق الدولية والفرامانات الشاهانية فهو فوق قوة القانون المصرى المحلى من باب أولى.. ثم أنه يمكن وضع قاعدة أساسية فى نظام المجلس يجعل مسألة الاحتلال بعيداً عن مباحثه فلا خطر عليه إذن».

ويقترح الكاتب «أن يجعل مجلس النواب عمل المستشارين الإنجليز فى الدواوين مقيداً برغبات الأمة كما يجعل عمل النظار أنفسهم كذلك» ثم يؤكد أن مثل هذا الإجراء لن يشكل أى خطر على الاحتلال ذلك أن الإنجليز أنفسهم «ألفوا الدستور فى بلادهم نظاماً طبيعياً لهم..

(١) المؤيد- ١٤ مارس سنة ١٩٠٤ مقال بعنوان (هل من خطر على السلطة الخديوية والاحتلال بوجود مجلس نواب فى مصر؟).

ومهما أحب أحدهم إطلاق السراح فى الحكم والعمل فذلك منه نزوع إلى شهرة اعتاد أن يشكم جماحها كما يفرغ إلى عمل لم يألوه فإذا ما وجد من يرد أمياله إلى ما كانت عليه لم يكن ذلك صعباً مستعظماً عنده».

وكان السؤال الثالث الذى طرحه الشيخ على يوسف هو، هل فى إيجاد مجلس نيابى خطر على الأجانب؟

ويجب على ذلك قائلاً بأن الأجانب فى بلادنا «مقيمون داخل قلاع من الامتيازات الدولية هى أمنع من عقاب الجوّ.. ولهم محاكم مخصوصة ليس للحكومة المحلية عليها بسلطان»<sup>(١)</sup>. ثم يردف قائلاً أنه يمكن أن يراعى فى وضع سلطات هذا المجلس النيابى، «التطابق بين أحكام الامتيازات الأجنبية العامة والمصالح الداخلية عامة أو خاصة».

والجدير بالذكر أنه عندما رفضت الحكومة إجابة مطلب الجمعية العمومية بإنشاء مجلس نيابى بادر الشيخ على يوسف بتفنيد رد الحكومة على طلب الجمعية مؤكداً أن «هذا استخفاف بأحلام الأمة»<sup>(٢)</sup>.

وفى عام ١٩٠٨ وحول قضية المجلس النيابى أيضاً نشبت معركة حامية فى الصحافة المصرية شغلت صفحات العديد من الصحف وكان طرفاً تلك المساجلة الحامية بين الشيخ على يوسف من ناحية وكتاب صحيفة اللواء ورجال الحزب الوطنى من ناحية أخرى. إذ كان من رأى الحزب الوطنى أن المجلس النيابى لا يطلب إلا من الخديو.. وأن فى إمكان الخديو منح الأمة المجلس النيابى بصرف النظر عن موافقة الاحتلال أو عدم موافقته.

أما الشيخ على يوسف فقد كان يرى «أنه لا يمكن لخديو مصر أن يعطى هذا المجلس النيابى كاملاً كما نريد والاحتلال موجود فالاحتلال جعل الجنب الخديو فى ظروف لا يستطيع معها أن يعطى أمته ما تريده»<sup>(٣)</sup>.

وحول هذه النقطة تساءل الشيخ على يوسف قائلاً، «هل يمكن أن ننال مجلساً نيابياً كاملاً وكما يقول بذلك الحزب الوطنى.. يصح أن يكون من أول قراراته طلب الجلاء وإرغام الحكومة الخديوية على تنفيذه والاحتلال موجود فى مصر أو لا يمكن أن يناله؟»<sup>(٤)</sup>.

أما الخطة العملية التى يراها الشيخ على يوسف.. والتى يمكن معها الجمع بين طلب الجلاء وطلب المجلس النيابى فهى - فى رأيه - الخطوة التى جرى عليها حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية إذ قرر بين مبادئه المبدئين الآتين وهما: الاعتماد على الوعود والتصرّيات التى

(١) المؤيد - ١٦ مارس سنة ١٩٠٤ .

(٢) المؤيد - ٢٩ يونيو سنة ١٩٠٤ مقال بعنوان (أجوبة الحكومة على رغبات الجمعية العمومية).

(٣) المؤيد - ٢٩ أبريل سنة ١٩٠٨ مقال بعنوان (المجلس النيابى المصرى وطلبه - الدروس التاريخية).

(٤) المؤيد - ٤ مايو سنة ١٩٠٨

وعدت بها إنجلترا عند احتلال القطر المصرى ومطالبتها بالوفاء بها.. والمطالبة بمجلس نيابى تام السلطة فيما يختص بمصالح مصر والمصريين».

ويؤكد الشيخ على يوسف فى ختام كلامه أنه يطلب الجلاء ولكن «لا نغتر أنفسنا فنقول أن الطلب وحده كاف لتحقيق أمانينا بل نعتقد أن لكل شئ معدات والجلاء أيضاً لا يكون إلا بعد معدات نهى له.. وأهم من كل شئ نحب من حملة معدات الجلاء إيجاد مجلس نيابى مصرى».

وعندما يعلن عن قيام مجلس المبعوثان العثمانى فى تركيا يبادر الشيخ على يوسف بنشر النص الكامل للنظام الداخلى لهيئة المبعوثان ومجلس الأعيان العثمانى. ويتشر معه عدداً من التعليقات غير الموقعة التى تبين راحة الشعب المصرى بذلك الحدث (١) وبعد أسابيع قلائل يسافر الشيخ على يوسف إلى تركيا ويمر فى طريقه بالشام ومن هناك يبعث بمقال إلى (المؤيد) يدعو فيه إلى اشتراك مصر فى مجلس المبعوثان، وقد كانت حجته فى ذلك أن «المصرى لم يزل عثمانياً بالمعنى العام وهو خاضع فى أحكام حقوق الدول للقوانين العثمانية العامة إذا خرج قيد شبر عن بلاده كان عثمانياً من كل وجه يرجع فى أموره إلى سفراء وقناصل الدولة العلية فى الخارج ومصر فى أحكام الجمارك خاضعة للنظام العثمانى وفى أمر الامتيازات الأجنبية، كذلك وفى التشريع الذى يخص الأحوال الشخصية وكل ما يدخل فى دائرة القضاء الشرعى نابعة رأساً إلى إرادة جلالة السلطان الأعظم والقاضى الأكبر من قبله.. وعلى مصر خراج سنوى يؤدى لخزينة الدولة والسكة لا تزال تصدر باسم جلالة السلطان والخطبة لا تزال باسمه وألقاب الشرف لا تصدر إلا متوجة به والراية التى تنشر على أرجاء مصر هى الراية العثمانية وفى القانون الأساسى حقوق عامة للعثمانى لا يدركها المصرى وهو من جملة العثمانيين» (٢).

وعلى ضوء هذه المبررات ينتهى الشيخ على يوسف إلى المطالبة «بأن كل ما يستفيد العثمانى بوجه عام من ذلك القانون ولا تعطيه للمصرى امتيازاته يجب أن يأخذه من القانون الأساسى لأنه من حق كل عثمانى بوجه عام فإذا لم تصبح حكومة مصر نيابية بعد اليوم.. وجب على أهلها أن يفكروا فى أمرهم من هذا القبيل وأن يدرسوا مسألة اشتراكهم فى مجلس المبعوثان درساً دقيقاً يجلى غوامضها».

والجدير بالذكر أن هذه الفكرة قد قوبلت بالرفض من جانب أكثر الصحف المصرية.. بل أن الحزب الوطنى - الذى يتم (بالعثمانية) - رفض هذه الفكرة وأتهم الشيخ على يوسف أنه يريد الانتقاص من استقلال مصر (٣).

وبجبرنا موقف الحزب الوطنى من اقتراح الشيخ على يوسف إلى تسليط الضوء على أحد الأخطاء الشائعة القائلة بأن مصطفى كامل قد انشغل - ومعه الحزب الوطنى - بأمر الجلاء

(١) المؤيد - ١٧ يوليو سنة ١٩٠٨ .

(٢) المؤيد - ١٣ أغسطس سنة ١٩٠٨ مقال بعنوان (حقوق مصر العثمانية - مصر ومجلس المبعوثان).

(٣) اللواء - ١٦ أغسطس سنة ١٩٠٨ .



والاستقلال.. فلم يوجه اهتماماً كافياً إلى الحياة النيابية ولم يشارك في المطالبة بالمجلس النيابي إلا في الفترة الأخيرة من حياته.. والجدير بالذكر أن مثل هذه الأقوال قد ترددت أيضاً عقب وفاة مصطفى كامل بأشهر قليلة وكانت موضوعاً لمناظرة فكرية وحزبية بين الشيخ على يوسف.. ومحمد فريد ورجال الحزب الوطني.. سوف تعرض لتفاصيلها في الفصل الذي خصصناه للحديث عن الصحافة المصرية والحياة الحزبية.

ولكن الحقيقة - كما تبين لنا أثناء قيامنا ببحثنا هذا - ان الحياة النيابية ومطلب المجلس النيابي المصري قد استحوذ على اهتمام مصطفى كامل منذ وقت مبكر.. أي منذ السنوات الأولى لإصداره صحيفة «اللواء» فهو يكتب في العدد الصادر في ١٢ ابريل سنة ١٩٠٢ مقالاً بعنوان (الروح النيابية في مصر) يطالب فيه بأن تكون الحكومة «قدوة للأمة في أفعالها حتى يمكن للأمة أن تحترم الدستور وتحافظ على القوانين»<sup>(١)</sup> ويتهم الحكومة بأنها «تهزأ بالدستور وتدوس بقدميها القانون» ويعلن أن هذا ليس سلوك الذي يريد أن يكون قدوة لغيره.. ثم يذكر أن المجالس النيابية في أوروبا تقوم قيامتها إذا خالفت الحكومة نظاماً أو اعتدت على أحد كائناً من كان واضطهدها بغير مسوغ قانوني ولكن ماذا نرى في مصر؟ «نرى غير ذلك على خط مستقيم.. نرى كل إنسان كبيراً كان أو صغيراً غير آمن على مركزه.. غير مطمئن على مستقبله مهدداً في كل آن ولأى سبب».. وبناء على ذلك فإن مصطفى كامل يدعو الأمة المصرية إلى «المطالبة بإيجاد المجلس النيابي الذي وعد به دوفرين لتكافأ القوى ويتم التوازن ويكون هناك مدافع عن حقوق الأمة وحقوق الموظفين من عبث العابثين ولعب اللاعبين ويطلب كل محب لمصر وراغب في خيرها «ان لا يكون له نشيد إلا.. نجب المطالبة بالمجلس النيابي.. نجب المطالبة بالمجلس النيابي.. فترفرف علينا الروح النيابية».

وعندما قام الشيخ على يوسف في الجمعية العمومية يطالب بإنشاء من جلس نيابى مصرى وقف مصطفى كامل إلى جانبه يؤيده بعدة مقالات كتبها في اللواء أعلن فيها موافقته وتأييده لهذا المطلب مشيراً في نفس الوقت ان مطلب المجلس النيابى واحد من أهم مطالبه السياسية وطالما نادى به في مقالاته وخطبه منذ عشر سنوات سابقة فهو يقول: «لعل قراء اللواء وغيرهم من أفراد الأمة المصرية يذكرون ما قلناه من فوق المنابر وكتبناه في هذه الجريدة وغيرها على وجود إنشاء مجلس نيابى منذ عشر سنوات كاملات كما يسرنا ان هذا المطلب العزيز صار على ألسنة الكثيرين من أهالى القطر.. لأنه الأنشودة التى يجب أن يترنم بها المصريون بعد طلب الاستقلال»<sup>(٢)</sup>.

ويؤكد مصطفى كامل في مقاله سالف الذكر أنه فى ظل غياب المجلس النيابى سوف يظل «يسيراً على صاحب السلطة أن يغير من النظمات ما شاء ويقلب فى أوضاع الحكومة كما أراد وكلما أراد».

(١) - ١٢ ابريل سنة ١٩٠٢ مقال بعنوان (الروح النيابية في مصر).

(٢) اللواء - ٩ مارس ١٩٠٤ مقال بعنوان (إنشاء مجلس نيابى).

ويدافع مصطفى كامل عن حق الجمعية العمومية في طلب المجلس النيابي قائلاً إن القضية الأساسية هي «هل الأمة بلغت الاستعداد الذي يؤهلها لوجود مجلس نيابي لها أم لا؟»، لا أخال أن أحداً من الناس ولو كان عدواً للمصريين يدعى أن الصرب والبلغار أرقى منا وبينهم علماء وفضلاء أكثر ما بيننا حتى يتمتعوا هم بالحقوق النيابية ونحرم نحن منها».

وكان مصطفى كامل يعتقد أنه «ليس للاحتلال مصلحة في إيجاد مجلس نيابي لهذه البلاد» ورغم ذلك فهو يدعو «لأن يعلو صوت الأمة على صوت الاحتلال وأنه إذا تمكنت الأمة بمطليها ودعت إليه وطالبت وجاهدت بقوة الرأي والفكر والثبات التي هي أكبر القوى الفعالة في حياة الأمم فلسوف نصل إليه.. وهي تخطو بالوصول إليه أكبر خطوة في طريق الاستقلال».

ولكن مصطفى كامل سرعان ما يصطدم بالشيخ على يوسف عندما حاول الشيخ أن يتوجه بمطلب المجلس النيابي إلى اللورد كرومر وليس للخديو.. عندئذ تصدى مصطفى كامل للرد عليه.. واستنكر موقف على يوسف واعتبره «دليلاً على ضعف إدراك الكاتب.. بقدر ما بين صغر نفسه لأن القاعدة التي أيدها التاريخ ألف مرة وليس لها استثناء وهي أن الأمة لا تنال من حاكمها «الأهلي».. حقوقها النيابية إلا إذا أزهنته وخشى شر غضبها.. فكيف تنال الأمة المصرية هذه الحقوق من حاكمها (الأجنبي) عفواً منه وإحساناً»<sup>(١)</sup>.

ويؤكد مصطفى كامل أن الأجنبي المسيطر على بلاد القابض على أزمة أمة من مصلحته «أن تبقى هذه الأمة متأخرة متفرقة ضعيفة القوة والحوال غير قادرة على إظهار إرادتها وتعزيز أقوالها بالأفعال فمطالبته بمنحها الحقوق التي تصير بها أمة عالية الصوت لا تعد فقط جهلاً بالسياسة وأصولها والتاريخ وحكمه ونواميس الأمم والحكومات بل تعد إعلاناً بضعف هذه الأمة واستسلامها البالغ حد الموت لأن الحقوق لا تلتبس كما يلتبس الإحسان بل تطلب بالصوت العالي والكلمة التي تدوى في الوجود» ثم يعلن مصطفى كامل أن السائل الذي يلتبس الحقوق النيابية من اللورد كرومر «يهين بلاده بغير سبب فضلاً عن أنه يطلب المحال لأن اللورد مكلف من ضميره ومن قومه بخدمة وطنه وليس من مصلحة إنجلترا مطلقاً أن تكون السلطة البريطانية في مصر مقيدة بإرادة المصريين».. وفي رأى مصطفى كامل أن الأمة المصرية تنال حقوقها النيابية وغير النيابية «يوم تعلم الدنيا كلها أنها ذات رأى قوى وإرادة فعالة وأن فيها رجالاً لا يخافون في الحق لوماً أو عقاباً وأن روح الاستقلال الذاتي دب في الصغير والكبير ومهدت الأسباب للاستقلال العام».. وهو يعتقد أن الأمة المصرية لا تبلغ هذه الدرجة «إلا بالتعليم الأهلي الصحيح وبمحاربة كل كاتب أو خطيب أو متصدر للأعمال العامة يهين الأمة ويحقرها ليخدم مصالحه الذاتية وبعض أغراضه الشخصية» وهنا يطالب مصطفى كامل أحرار المصريين بمحاربة الحائنين بكل الوسائل وإعلان آرائهم في كل وقت وفرصة حتى تثبت الأمة قوة حياتها وتنال حقوقها وتعطي وطنها مكانه من السؤدد والعظمة والاحترام».

(١) اللواء - أول يناير سنة ١٩٠٦ مقال بعنوان (بم نال حقوقنا).

وعندما يقع حادث دنشواى يطالب مصطفى كامل مجلس شورى القوانين بأن يعلن موقفه من الحادث وأن يستنكره وأن ذلك لا يكون «إلا بأن يرفع المجلس صوته فى هذه الحادثة التى خالف القائمون فيها بالأمر نموذج الإدارة العمومية وارتكبوا الشطط الذى استوجب سحق الأمة الممثلة فى هذا المجلس.. ويكون هو غير جائز عن الواجب عليه إذا طلب إعادة نظر فى هذه القضية.. بل الواجب عليه فوق ذلك أن يطلب محو الأمر العالى الصادر فى سنة ١٨٩٠ بإنشاء المحاكم المخصوصة لما حصل من سوء استعماله»<sup>(١)</sup>.

وفى عام ١٩٠٨ يقود الحزب الوطنى حملة لجمع التوقيعات لتقديمها إلى الخديوي يطلب المجلس النيابى والدستور ويكتب محمد فريد فى اللواء يكشف عن حجم هذه الحركة فيقول «لقد جمعنا حتى الآن خمسة وأربعين ألفاً من الأصوات وقد قدمنا عرائض الانتماس التى جمعت للآن إلى الديوان الخديوى حسبما أمرنا الجانب العالى حين تقابلت مع سموه يوم السبت الماضى وستقدم لسموه كل ما يتجمع لدينا من العرائض بعد الآن أولاً بأول وإن كان العدد الذى قدمناه كافياً لإقناع أولى الحل والعقد بأن فى البلاد رأياً عاماً يجب احترامه»<sup>(٢)</sup>.

وفى نفس المقال رد «محمد فريد» على تساؤل الشيخ على يوسف عن إمكانية توفيق الحزب الوطنى بين المطالبة بوجود مجلس نيابى حقيقى قادر على تنفيذ قراراته وبين وجود جيش الاحتلال.. فقال «لا أدري ما يريد أصحاب هذا الاعتراض؟ أيريدون أن لا نطالب بالدستور والمجلس النيابى ما دام الاحتلال موجوداً أو أن نلتزمه من إنجلترا حتى تصبح بلادنا مستعمرة إنجليزية مثل كندا وأستراليا؟ نحن قلنا ونقول إن الاحتلال يعرقل أعمال مجلس النواب ولذلك فإننا نطلب الجلاء ولكن أملنا فى الحصول عليه لا يمنعنا من طلب الدستور والمجلس النيابى نلتزمه من إنجلترا حتى تصبح بلادنا مستعمرة إنجليزية مثل كندا وأستراليا؟ نحن قلنا ونقول إن الاحتلال يعرقل أعمال مجلس النواب ولذلك فإننا نطلب الجلاء ولكن أملنا فى الحصول عليه لا يمنعنا من طلب الدستور والمجلس النيابى من حاكم البلاد الشرعى الذى يريد ذلك البعض الإيقاع بينه وبين الحزب الوطنى مع أنهم يعلمون أن حزبنا مخلص الولاء لعرش الخديوي.. ملتف حوله ومطالب برد ما سلب من حقوقه وأنا لا نريد من صاحب هذا العرش أن يضحي باستقلال البلاد لإعطائنا الدستور والمجلس النيابى بالصفة التى يريدونها هؤلاء المعارضون بل نفضل أن نحرّم منه مؤقتاً على أن نناله بهذه الصفة القاتلة للاستقلال».

وعلى النقيض من موقف مصطفى كامل والحزب الوطنى تبدو مساهمة «أحمد لطفى السيد» وصحيفة «الجريدة» فى الدعوة للمجلس النيابى .. مساهمة ضئيلة.. لا تناسب مع حجم ادعاءات هذا المفكر أو صحيفته بانتصارهم للمبادئ الديمقراطية.. فقد استقبل «لطفى السيد» هذه الدعوة إلى المجلس النيابى باهتمام ضئيل، إن لم يكن ببرود فقد كان رأى لطفى السيد

(١) اللواء - ٢١ يوليو سنة ١٩٠٦ مقال بعنوان (مجلس شورى القوانين وحادثة دنشواى).

(٢) اللواء - ٢ مايو سنة ١٩٠٨.

الاكتفاء مؤقتاً «بتوسيع اختصاص مجلس شورى القوانين ومجالس المديرية»<sup>(١)</sup>.. حتى تتحقق استنارة الحكومة برأى الأمة ووقوفها على حقيقة ما تحس الرعية بالحاجة إليه من مصالحها ومن منتخبي الأمة مشاركة الحكومة فى الرأى والبحث فى النظمات والقوانين تطبيقاً على المصلحة العامة». وهذا من شأنه فى رأى الكاتب أن «يعد الأمة لأن تحكم نفسها بنفسها»<sup>(٢)</sup>.

وعما يذكر أن لطفى السيد أيد موقف الحكومة فى رفض طلب الجمعية العمومية بإنشاء مجلس نيابى قائلاً «إن الحكومة ترى أن الحالة لا تسمح بمنح البلاد مجلساً نيابياً كامل السلطة بل هى ترتضى توسيع سلطة مجالس المديرية ثم تنتظر بعد ذلك فى ما تجد زيادته حتى تصبح للأمة مشاركة فعلية لا سلطة نيابية عليا»<sup>(٣)</sup>.

ويعلل لطفى السيد موقفه بأنه «يريد مجلساً نيابياً لبلادنا ولكن بعد أن تتكون الأمة فالمسألة الآن هى إنشاء روح وطنية لا روح عناد واضطراب وهى روح الاحترام لولاة الأمور».

وابتداء من العدد الصادر من الجريدة فى ١٨ مايو سنة ١٩٠٧ يكتب لطفى السيد سلسلة مقالات تحت عنوان (المجالس النيابية- مطلب الأمة من السير جورست) يتوجه بها إلى المعتمد البريطانى الجديد (جورست) شارحاً له وجهة نظر الأمة المصرية (من الزاوية التى يراها) فى كيفية مشاركتها فى السلطة. ويبدأ لطفى السيد هذه المقالات معترفاً بأنه إنما يعبر عن «عدد غير قليل من كبراء البلاد يدينون بالسعى بالمسألة والاعتدال فى نيل الأمة حياة سياسية بالتدرج الممكن ثم ادعى أن هؤلاء الأعيان لا يعبرون عن أنفسهم فقط وإنما عن الأمة المصرية بأسرها باعتبار أنهم أصحاب المصالح الحقيقية فى البلاد»<sup>(٤)</sup>.

ويعلم لطفى السيد أن قصارى ما يريده المصريون هو «أن تقتصر سلطتنا التشريعية على القوانين التى تختص بنا مباشرة ولا يضار بها أحد غيرنا سواء كان من النزلاء الأوروبيين أو من المحتلين وأن لا تصل هذه القوانين إلى مس مصالحهم بأية صورة من الصور»<sup>(٥)</sup>.

ثم يطرح الكاتب سؤالاً سبق أن طرحه قبل ذلك الشيخ على يوسف ولكن بصيغة مختلفة وهو: هل يرضى الخديو بالتنازل عن جزء من سلطته التشريعية؟

وفى إجابته على السؤال يؤكد لطفى السيد أن حكومة مصر مازالت إلى الآن «حكومة استبدادية والسلطة التشريعية والسلطة التنفيذية فيها هما حق لسمو الخديو وأن ما يوجد فى البلد الآن من شبه الدستور أو رائحة الدستور إنما هو محض هبة قابلة قانوناً للرجوع فيها»<sup>(٦)</sup>.. ومعنى ذلك فى رأيه أنه يجوز قانوناً العدول عنه «إذ أنه لم تبين السلطة التشريعية التى يملكها الخديو إلا تقسيماً واهياً إذ ليس فيه ما يدل على أن الخديو الذى وضعه قد تنازل عن جزء من

(١) الجريدة- أول ابريل سنة ١٩٠٧ .

(٢) الجريدة- أول ابريل سنة ١٩٠٧ مقال بعنوان (حديث البلد).

(٣) الجريدة- أول ابريل سنة ١٩٠٧ مقال بعنوان (جواب الحكومة على طلب المجلس النيابى).

(٤) الجريدة - ١٨ مايو سنة ١٩٠٧ مقال بعنوان (المجالس النيابية مطالب الأمة من السيرالدون جورست).

(٥) الجريدة - ٢٠ مايو سنة ١٩٠٧ .

(٦) الجريدة- ٢١ مايو سنة ١٩٠٧ .

سلطته التشريعية لأنه حفظ الحق لحكومته في إصدار كل قانون يدخل في هذا ضمناً للقانون الذي يلغى القانون النظامي الذي هو خيال للدستور.. والذي تريده الأمة الآن في نظر لطفى السيد هو أن تعطى «جزءاً من السلطة التشريعية أى أن سمو الخديو يتنازل لها عن ذلك الجزء ولا طريق لذلك ألا أن ينص في التعديل المطلوب على أنه لا يجوز تعديل هذا القانون النظامي إلا بمعرفة مجلس المصرية «لا تريد أن يكون لها مجلس كمجلس العموم الإنجليزي وإنما هي تطلب فقط الجزء الذى يس حاجتنا إليه من السلطة التشريعية أى أن يكون رأى مجلس الشورى قطعياً فى القوانين التى تطبق على المصريين دون سواهم على فكرة أن الحكومة هى التى تسن القانون وتعرضه على المجالس ولا يتكرر المجلس شيئاً إلا على سبيل إبداء الرغبة كما هو الآن».

ويتفق «محمد غانم» رئيس الحزب الجمهورى مع لطفى السيد فى اعتراضه على توقيت طلب المجلس النيابى بحجة أن الوقت لم يحن فى مصر بعد لمثل هذا المطلب فيقول فى مقال له فى جريدة الأحرار، «هبتنا الآن نسلم بقول الذين يطلبون إنشاء المجلس النيابى لساعته فماذا تكون النتيجة من إنشائه؟ وكلنا يعلم أن معنى مجلس نيابى أن يكون مجلساً تام السلطة يقضى ويرم بحيث يكون مسموع الرأى نافذ الكلمة لا يسع أى سلطة أخرى أن تناهضه.. فإذا أنشئ المجلس النيابى فى الوقت الحاضر ألا يكون للاحتلال تأثير على نفوذه لأنه ما بقى المحتلون فى مصر فإنهم طبعاً لا يرضون بأى نفوذ يعلو على نفوذهم فيها إلا عن طريق القوة.. أين هى القوة التى يرغمون بها على تنفيذ مطالبنا فإن قيل الحق.. قلنا لقد استأثرت من قديم بكل حق فى السياسة ولم يبق الآن للقوة سوى القوة»<sup>(١)</sup>.

ويذكر الكاتب أنه فى حالة ما إذا وافق الإنجليز على منح المجلس النيابى فسوف «يحصرون نفوذ هذا المجلس فى دائرة معينة من نفوذهم المطلق لأنهم عندئذ يعطون له نفوذاً بقدر معلوم لا يؤثر فى سيطرتهم شيئاً فيصبح المجلس فاقداً الاستقلال الصحيح الذى يجب أن يعطى له ليعمل بحرية تامة ولمصلحة الأمة وباسم الأمة».

والحل الذى يقترحه (محمد غانم) هو أن علينا أن ننظر فى تشكيل هيئة حاكمة على تمام الاستقلال تضمن للوطنيين والأجانب دوام الأمن العام فى البلاد وبقاء العدل فيها فلا يغيب عنا أن الأجانب فى مصر على وفرة عددهم لهم فيها ممتلكات عظيمة ومصالح جمة يطلبون المحافظة عليها فهم يخشون من إنشاء حكومة أهلية بحثة أن يكون نصيبها من الاستقلال ضعيفاً فتذهب ريح الأمن العام وتفقد روح العدالة من القطر ويبتون مهتدين فى أموالهم ومصالحهم وهم أيضاً يرون أنفسهم من وجهة ثانية أكثر كفاءة مادياً وأدبياً من الوطنيين فتراهم لا يستأمنون من الثقة بهم فى الشئون والأحكام وهذا هو السبب فى بقاء المحاكم المختلطة والقنصليات إلى اليوم».. لذلك فالكاتب يطالب «بحكومة مستقلة يكون أمرها مشتركاً بين جميع أصحاب المصالح فى مصر. تكون نسبة الاشتراك فى أمر الحكومة بين هؤلاء بنسبة تلك المصالح لبعضها البعض».. ولا ينسى أن يؤكد أن «خير هيئة حاكمة لمصر ترضى الجميع ويسعى إليها الجميع هى الجمهورية بلا نزاع».

(١) الأحرار - ١٦ مايو سنة ١٩٠٨ مقال بعنوان (مصر.. مصر.. الجمهورية لا محالة)

ويلاحظ أن أقوال (محمد غانم) يغلب عليها التناقض.. إذ لا تعرف كيف يستقيم طلبه بإنشاء حكومة مستقلة في مصر.. دون وجود مجلس نيابي تام السلطة.. إذ ما دام الإنجليز رافضين لإقامة مجلس نيابي تام السلطة فهم أيضاً سوف يرفضون إقامة حكومة مستقلة تامة السلطة.. ثم كيف تكون هناك حكومة مصرية مستقلة بينما يشارك فيها الأجانب بحسب حجم مصالحهم.. ومثل هذا القول لا يختلف في شئ عن دعوة اللورد كرومر إلى دولية الجنسية المصرية.

ويدو لنا أن (محمد غانم) وحزبه (الجمهوري) كانا مجرد ديسية انجليزية قصد بها تشتيت قوى الحركة الوطنية المصرية وشغلها بمعارك جانبية تصرفها عن المطالبين الأساسيين وهما الاستقلال.. والحياة النيابية الصحيحة.

وفي مجال الدفاع عن حق الشرقيين في الحياة النيابية السليمة يكتب محمود بك حسيب.. يرد في صحيفة (ضياء الشرق) على المفترقات التي افترها الغربيون على الشرق مثل قولهم «إن الاستبداد الذي أن الشرق تحت أثقاله عصوراً طوالاً جعل الشرقيين عاجزين عن السير على مقتضى التنظيمات النيابية»<sup>(١)</sup>، فيؤكد «أن الأيام أثبتت كذب ما زعموا» ثم يضرب المثل بتجربتين شرقيتين في مجال الحياة النيابية.. فيتحدث عن «المجلس النيابي في اليابان وهي بلاد شرقية منحه الميكادو لأمة فسارت على مقتضى نظاماته وهي الآن في بحبوحة المجد والسؤدد» وعن «المجلس النيابي الفارسي وما أتى به من نجاح فاق كل تصور» ثم يخرج الكاتب من ذلك بنتيجة مؤداها حتمية نجاح التجربة النيابية في مصر ويطالب المصريين بأن «يدأبوا على المطالبة بالمجلس النيابي حتى نناله بإذن الله».

ويتساءل (محمود الشاعر) في صحيفة (وادي النيل)، ماذا لو كان لنا مجلس نيابي؟ فيؤكد أنه لو كان في مصر مجلس نيابي «لأشرف على أعمال الحكومة ولكان قوله الفصل في كل مشروع من المشاريع العامة ولوقفت الحكومة عند حدها في التصرف ولخرجت القوانين للناس مستوفا شروط التشريع كاملة ومراعية لمصالح الرعية نافذة على الجميع سواء بسواء واقفه في كل وجه يحاول العبث بحرية المواطنين»<sup>(٢)</sup> ويختتم الكاتب مقاله قائلاً «لو كنت ممن يميلون إلى الوشم لوشمت على ذراعي وذراع أولادي.. لو كان لنا مجلس نيابي».

وفي صحيفة (مصر الفتاة)، يكتب (سيد علي) مؤكداً أنه لا يرى في الوجود مرتبة «أسمى وأعلى من مرتبة النائب الذي تختاره أمته ليمثلها وينطق بلسانها ويعبر عن رأيها ولا مهمة أشرف وأجل من المهمة التي يعهد بها الشعب إلى واحد من أبنائه الصادقين المخلصين خدمة للوطن وسعيًا وراء خير وصلاحه»<sup>(٣)</sup>.

(١) ضياء الشرق - ٥ مايو سنة ١٩٠٨ مقال بعنوان (المجلس النيابي).

(٢) وادي النيل - ٢٢ يوليو سنة ١٩٠٨ فقال بعنوان (لو كان عندنا مجلس نيابي).

(٣) مصر الفتاة - ٦ ديسمبر سنة ١٩٠٨ مقال بعنوان (أثبتوا أن في مصر نوايا).

وفى ضوء هذه الرؤية يطالب الكاتب نواب مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية بأن «يرفعوا رؤوسهم وأصواتهم أينما حلوا وحيشما وجدوا فإن فى ارتفاع رؤوسهم ارتفاعاً لرأس الأمة التى يمثلونها وفى علو أصواتهم علواً لصوت الأمة التى أنابتهم عنها».

ثم يعلن أن الأمة المصرية خرجت اتفاق نوابها وثباتهم فى طلب المجلس النيابى ولكنها ترجوهم أن يحافظوا على هذا الثبات».

ويدعو الكاتب النواب بأن «يتمسكوا بموقفهم الأخير من طلب المجلس النيابى وأن يصروا على أن لم يكون لهم حق الاشتراك الفعلى مع الحكومة فى إدارة شئون البلاد أو بعبارة أخرى أن يعملوا على أن يردوا للأمة نصيبها فى السلطة والنفوذ».

أما بشارة تقلا صاحب «الأهرام» فإنه يستقبل المجالس الثلاثة شبه النيابية التى اقترحها اللورد دوفرين فى تقريره.. استقبلاً حماسياً.. ويعرب عن رأيه فى أن مجلس شورى القوانين.. والجمعية العمومية ومجالس المديرىات «بداية لحكم دستورى حقيقى.. وهى كافية لإرضاء الأمنى الحرة التى يتمناها شعب مصر»<sup>(١)</sup>.

وبتاريخ ٢٤ يناير ١٨٨٤ يكتب بشارة تقلا مبشراً بافتتاح أول دورة لمجلس شورى القوانين فيقول «وعداً يلتئم مجلس شورى القوانين طبقاً للأمر العالى الصادر بهذا الشأن للنظر فى حقوق البلاد نيابة عن أهلها الذين تخيروهم وكلفوهم النظر فى أمورهم»<sup>(٢)</sup>.. ويصف بشارة المجلس بأنه «النائب عن الأمة ولسان حالها كما يشير إلى ذلك قانونه».. ثم يشيد بقانون المجلس الذى «يقضى له بالنظر فى كل قانون ولائحة» ولقد بلغ عن تحمس بشارة تقلا لمجلس شورى القوانين أن طالب الحكومة «بأن تنشر محاضر جلساته» وذلك من أجل «تعميم الفائدة ولتقف الناس على أعماله وأقواله»<sup>(٣)</sup>.. بل إنه يطالب بنشر هذه المحاضر أيضاً مترجمة إلى الإنجليزية والفرنسية وذلك لتفنيذ مزايم القائلين بعدم أهلية المصريين للوظائف».

ويلاحظ أن بشارة تقلا كان يعطى لمجلس شورى القوانين قيمة وأهمية لم تكن له فى الواقع.. ولكن يمكن تفسير ذلك بأن صاحب الأهرام كان حتى ذلك الوقت مؤيداً لاجتلترا داعياً لها فى مصر وهو فى ذلك يسير وراء السياسة الفرنسية التى كانت تهادن المجتلترا فى مصر أملاً فى أن تشاركها النفوذ فيها ولكن عندما فشل مؤتمر لندن الذى عقد فى مايو سنة ١٨٨٤ والذى كان هدفه بحث الأوضاع المالية فى مصر وأرادت فرنسا أن تشمل مناقشاته وضع المجتلترا فى مصر.. وأمام إصرار المجتلترا على الانفراد بنفوذها فى مصر بدأت فرنسا تعمل ضد بقاء الإنجليزية فى مصر.. وبالتالي بدأ موقف الأهرام يتغير وقد شمل هذا التغير موقفها من المجالس شبه النيابية، إذ بدأت كتابات صاحب الأهرام تكشف عن عيوب النظام النيابى فى البلاد.. ومما يؤكد الرأى

(١) الأهرام - ٧ مايو سنة ١٨٨٣.

(٢) الأهرام - ٢٤ يناير سنة ١٨٨٤.

(٣) الأهرام - ٢٢ فبراير سنة ١٨٨٤.

الذى نذهب إليه أن بداية هذا التغير فى موقف بشارة تقلا من هذه المجالس كان بمناسبة عقد مؤتمر لندن سالف الذكر فقد طالب صاحب الأهرام الشعب المصرى بأن «يهب للمطالبة.. ولوم مجلس الشورى أن أهمل الواجب.. ويأفاد مواطن كبير من أعضائه يدافع عن وجهة نظر مصر فى المؤتمر»<sup>(١)</sup>.

ويمضى الكاتب فيطالب مجلس شورى النواب بأن يكفر عما ارتكبه من أخطاء فى حق البلاد ويذكر القراء باليوم الذى اكتتب فيه بعض أعضائه «لتقديم الهدايا لقواد جيش الاحتلال مكافأة لهم على فتح البلاد» وكان يومئذ ذلك إلى ما اتفق عليه سلطان باشا ووفد من أعيان الوجهين القبلى والبحرى من تقديم أنواع من الأسلحة الفاخرة للأميرال سيمور والجنرال ولسلى والجنرال لو قواد الحملة الإنجليزية التى دخلت البلاد<sup>(٢)</sup>.

وهاجم الكاتب أعضاء مجلس شورى القوانين الذين تركوا مستقبل مصر يتقرر فى مؤتمر لندن بينما ذهبوا إلى قراهم غير مهتمين فقال « وقد أخذتنا الدهشة بهم فإننا ننتظر منهم تحقيق الآمال فإذا بهم قد انفصلوا عن بعضهم وسافر كل منهم إلى بلده غير مالين المسئولية».

وبعدها أعلن بشارة تقلا أنه لم يعد له أمل كبير فى مجلس الشورى «فقد خيب آمال الأمة»<sup>(٣)</sup>. بل لقد وصل الأمر أن الأهرام تجاهلت أخبار المجلس تماماً لعدة سنوات بعد ذلك<sup>(٤)</sup>.

ولكن «الأهرام» يعود بعد فترة طويلة نسبياً فيسهم من جديد فى الحديث عن الحياة النيابية فى مصر وخاصة فى السنوات الأولى من القرن الحالى فى وقت كان مطلب إنشاء مجلس نيابى مصرى موضوع الاهتمام الرئيسى للحركة الوطنية المصرية.

ولقد أيد الأهرام هذا المطلب وأذر أعضاء الجمعية العمومية عندما تقدموا إلى الحكومة برغبتهم فى إنشاء مجلس نيابى وهاجم الحكومة عندما رفضت هذه الرغبة قائلاً «لو أراد امهر المصورين أن يصوروا للعاقين العاديين وللمدركين المنصفين جمال الحكم النيابى لو كان موجوداً فى هذه البلاد ودماة الحكم المطلق النافذ الكلمة فينا لما استطاع أن يصورها بشكل أتم مما صورتها أفلام النظارات فى جوابها على مطالب الجمعية العمومية»<sup>(٥)</sup>.

وعندما بدأ التفكير فى إلغاء مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية لتحل بدلاً منهما الجمعية التشريعية أيد الأهرام هذه الفكرة ولكنه اشترط لنجاح هذه الجمعية الجديدة أن «يزداد عدد الأعضاء وأن يكون انتخابهم مباشرة من الشعب لا من أعضاء مجلس المديرية»<sup>(٦)</sup>.

(١) الأهرام - ٢ مايو سنة ١٨٨٤ .

(٢) د. سامى عزيز- الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي ص ٢٦٤ . وسليم النقاش- مصر للمصريين- الجزء السادس، ص ١١ .

(٣) الأهرام - ١٤ مايو سنة ١٨٨٤ .

(٤) د. إبراهيم عبده- جريدة الأهرام تاريخ وفن - مؤسسة سجل العرب- القاهرة ص ٢١٤ - ٢١٥ .

(٥) الأهرام - ٢٦ فبراير سنة ١٩٠٨ .

(٦) الأهرام - ٢٤ مايو سنة ١٩١٣ .



كذلك كان من رأى الأهرام أن الجمعية التشريعية لن تكون لها قيمة حقيقية إلا إذا «كان رأى هذا المجلس قطعياً فى المسائل الإدارية البحتة التي تتعلق بالوطن مباشرة»<sup>(١)</sup> وعندما اقترب موعد انتخابات الجمعية التشريعية طالبت الصحيفة الناخبين بأن «يفيشوا عن المرشح الكفاء ولا يمنعهم من انتخابه تهديد ولا وعيد ولا صداقة ولا قرابة ولا منفعة ولا مديح ولا قدح لأن وطنكم بحاجة إليه كمحاجة العليل إلى الدواء الشافى»<sup>(٢)</sup>.

ورغم ذلك فإن الأهرام بعد انعقاد الجمعية التشريعية كان كثيراً ما يوجه سهام النقد إليها إذا أخطأت واعترفت .. فعندما نشب الخلاف داخل الجمعية فيمن يقدم علي الآخر وكيل الجمعية المعين<sup>(٣)</sup> .. أم وكيلها المنتخب؟<sup>(٤)</sup>

وهاجمت الصحيفة أعضاء الجمعية وطالبتهم «بالتعاضد لا التحاسد والتآزر لا التنافر .. والمناقشة لا المنافسة والعمل لمصلحة الجمهور لا لمصلحة الأفراد لخير مصر ولسلطة أمتها لا للمنايذة»<sup>(٥)</sup>.

وعندما لاحظت الصحيفة أن بعض أعضاء الجمعية يهملون حضور الجلسات هاجمتهم وقالت إن «للأمة عيوناً ترقيهم وأذاناً تسمعهم وألسناً تعنفهم على التقصير وتطالبهم بالجد والجهد والعمل بلا كلل»<sup>(٦)</sup>.

وعندما صار قانون الانتخاب فى ٣٠ أبريل سنة ١٩٢٣ تطبيقاً للدستور الجديد بعد إعلان الاستقلال نشره الأهرام فى صفحته الأولى وأخذ يدعو الجمهور للاشتراك فى الانتخابات وطالب بالحرص على «اختيار مرشحين يعملون للمصلحة القومية لا المصلحة الشخصية»<sup>(٧)</sup>.

وكان الأهرام يتابع أخبار الحملة الانتخابية وينشر بيانات الأحزاب وخطب وندوات المرشحين وفى بداية الأمر كان الأهرام يحرص على إظهار حياده تجاه جميع الأحزاب وطالب الصحف بأن «يقتصر عملها على إرشاد المواطنين إلى انتخاب من فيه الكفاءة والناس أحرار فى الأخذ بالنصح»<sup>(٨)</sup>.

وبعد انتخاب المندوبين الثلاثينيين... خاطب الأهرام هؤلاء المندوبين ودعاهم «إلى تحكيم الضمائر والعقول ووضع مصلحة البلد فوق الشهوات والنزعات فى اختيار نواب الأمة فى الغد القريب».

(١) الأهرام - ٢٦ مايو سنة ١٩١٣ .

(٢) الأهرام - ٨ ديسمبر ١٩١٣ .

(٣) كان عدلى باشا يكن.

(٤) كان سعد باشا زغلول.

(٥) الأهرام - ١٣ فبراير سنة ١٩١٤ .

(٦) الأهرام - ٨ مايو سنة ١٩١٤ .

(٧) الأهرام - ١٢ مايو سنة ١٩٢٣ .

(٨) الأهرام - ٢ أكتوبر سنة ١٩٢٣ .

ولقد وصل اهتمام الأهرام بالانتخابات أن نشر أسماء جميع من فاز من أعضاء المندوبين الثلاثين في جميع أنحاء البلاد<sup>(١)</sup>، ونشر أسماء الدوائر الانتخابية لمجلس النواب في جميع المحافظات والمديريات والمراكز على الصفحة الأولى<sup>(٢)</sup>.

وقد لوحظ أنه باقتراب موعد الانتخاب بدأ الأهرام يميل إلى مرشحي الوفد لدرجة أنه استحدث باباً يومياً باسم (الوفود في بيت الأمة)<sup>(٣)</sup>.

وبعد انعقاد البرلمان كان الأهرام يخصص جزءاً كبيراً من صفحاته لنشاط ومناقشات المجلس وخصص بابين ثابتين يومياً الأول باسم (في مجلس النواب) والثاني باسم (في مجلس الشيوخ) وقد كان الأهرام يحرص على انتقاد أى خطأ يقع فيه المجلس.. فهو يهاجم مثلاً عدم وجود نظام في المجلس وسيادة الضوضاء والفوضى قائلاً «على أننا نأمل أن يؤول ذلك كله بفضل النواب أنفسهم فيسود النظام في الجلسات وتسكن هذه الضجة الدائمة التي لا تنقطع ويمكن المجلس من درس كل رأى وتمحيصه درساً دقيقاً فلا يصدر أى قرار في كبر الأمور أو صغیرها إلا إذا اختص ذلك الرأى ونضج»<sup>(٤)</sup>

وينتقد (الأهرام) المعاملة التي تلاقيها الصحافة من المجلس «فقد وضعوها في مكان لا تسمع منه ولا ترى إلا ضجيج النواب فقط بل لعلو المكان وبعده عن مقاعد النواب»<sup>(٥)</sup>. ويطالب بأن «يفرد للصحافيين مكاناً خاصاً وراء مقاعد النواب إلى أن يتم إعداد أمكنة جديدة لهم».. ثم تؤكد الصحيفة أن «للصحافة حرمة وأن لها المهمة فحرمتها تقضى بالآ تمتهن ومهمتها تقضى بأن تمكن من أدائها بجميع الطرق الممكنة».

وعندما بدأ البرلمان يستعد لاختتام دورته الأولى يحاول الأهرام أن يقدم تقييماً لعمله في الشهور الثلاثة والنصف التي استمرت فيها جلساته فيؤكد أن «ثلاثة أشهر ونصف شهر كانت كافية لأن تتبين للأمة الخطوة الأولى من الحكم النيابي فإذا خيل إلى بعضهم أن هذا الحكم يعود بالنعمة السابعة على الأمة في أشهر قليلة كان هؤلاء المتخيلون على ضلال كبير»<sup>(٦)</sup>.

ومن ناحية أخرى يهاجم الأهرام الذين «يغالون القول بأن البرلمان لم يفعل شيئاً أيضاً.. لأن هذا البرلمان لم يكن له بد من تنظيم شئونه وهيأته قبل السير في طريق العمل ومثله مثل الجيش الذي يتأهب للمعركة فإنه في حاجة قبل كل شئ إلى أن يعد عدته وينظم صفوفه» ويدلل الأهرام على صحة قوله الأخير فيطالب بالمقارنة بين «الأيام الأولى من عمر البرلمان وبين الأيام الأخيرة من أعماله فإن الخطوة التي خطاها في دقة البحث وفي التمحيص والتدقيق وفي انتظار

(١) الأهرام - ٢ أكتوبر سنة ١٩٢٣.

(٢) الأهرام - ٤ أكتوبر سنة ١٩٢٣.

(٣) الأهرام - ٥ أكتوبر سنة ١٩٢٣.

(٤) الأهرام - ٨ أبريل سنة ١٩٢٤.

(٥) الأهرام - ٨ أبريل سنة ١٩٢٤.

(٦) الأهرام - ١٢ يونيو سنة ١٩٢٤.

الأعمال لهي خطوات واسعة لا تبشرنا بحسن المستقبل فقط بل هي تبشرنا بالنجاح التام المعلق أكثر على أعمال اللجان وهذه اللجان لم يكن بإمكانها الوصول في وقت قصير إلى تبين أسرار الدولة والحكم.. ولما توصلت إليه وأيدت فيه آراءها دل على صدق نظرها وحزمها وتوليها النافع لا بطريقة الانقلاب والتحول السريع بل بطريقة التدرج والعمل اللين المنتهج.

وعندما تقدم وزارة زيوار باشا على حل البرلمان عقب حادث مقتل السردار يعارض الأهرام هذا القرار ويعلن أن قرار الحل «ليس قراراً دستورياً ولم يكن من الواجب حله لما في ذلك من خطر على مستقبل حياتنا الدستورية»<sup>(١)</sup>.

ومن الطريف أنه عندما بدأ الإعداد للانتخابات الجديدة للبرلمان في أواخر عام ١٩٢٤ نشرت الأهرام خبر ترشيح صاحب الأهرام لمجلس النواب عن حزب الوفد ورغم ذلك أكد الأهرام أن سياسته لم تكن ولن تكون سياسة حزبية «فالأهرام وصاحبها لا يتلكان لحظة عن مؤازرة كل عامل في سبيل الوطن والدستور»<sup>(٢)</sup>.

نتقل بعد ذلك للحديث عن موقف كاتب كبير آخر من الحياة النيابية في مصر هو أمين الرافعي.

ولقد بدأ اهتمام أمين الرافعي بالحياة النيابية في مصر منذ أن كان محرراً في صحيفة اللواء- فكتب في عام ١٩٠٨ يهاجم فكرة الاستعاضة عن إنشاء المجلس النيابي بتوسيع مجالس المديرية وقال أن هذه الفكرة «إنما صدرت عن المعتمد البريطاني لا عن غيره»<sup>(٣)</sup>. ثم طالب مجلس شورى القوانين بالامتناع عن نظر المشروع المقدم إليه بتوسيع مجالس المدير باعتبار أن هذا المشروع «لا يمثل إرادة الأمة».. وهو في ذلك إنما كان يرد على أحمد لطفي السيد الذي كان يطالب بتشجيع العمل على توسيع مجالس المديرية وزيادة اختصاصاتها.<sup>(٤)</sup>

كذلك فقد كتب أمين الرافعي في اللواء يهاجم الفكرة التي دعا إليها الشيخ على يوسف باشتراك مصر في مجلس المبعوثان الذي شكل بعد صدور الدستور العثماني عام ١٩٠٨ وقال إن مثل هذه الدعوة تهدد بسلبنا حقوقنا الاستقلالية التي اعترفت بها فرمانات الشاهانية وأن قبول الخديو النزول عن سلطته لمجلس المبعوثان يعني أن يصبح كباقي الولاة الذين ليس لهم من الأمر شيء»<sup>(٥)</sup>.

وقال الرافعي أن ترديد هذا الرأي سوف يعطى أوروبا حجة تؤكد بها «أنهمنا صباح مساء بأننا لا نحتج على الاحتلال ولا نناصبه العداء إلا رغبة في استبدال حكم الأتراك بهذا الاحتلال وفي سلب مصر حكمها الاستقلالي الذي تمتعت به زمناً طويلاً».. ثم أكد أن من «العار والخزي أن تتنازل أمة عن حقوقها وامتيازاتها وأن من الخرف والضعف أن يقر امرؤ علي نفسه بدين لم ينقده».

(١) الأهرام- ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٢٤ .

(٢) الأهرام- ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٢٤ .

(٣) اللواء- ٢٥ يونيو سنة ١٩٠٨ مقال بعنوان (مجالس المديرية وموقف شورى القوانين إزاء الموضوع).

(٤) د. عبد اللطيف حمزة- أدب المقالة الصحفية- الجزء السابع (أمين الرافعي) ص ٨٧ - ٨٨ .

(٥) اللواء - ٩ أغسطس سنة ١٩٠٩ مقال بعنوان (الخلط القانوني والخطأ السياسي).

وعندما انتقل أمين الرافعي بعد ذلك إلى صحيفة «الشعب» ظل على اهتمامه بالحياة ٣٦٦  
النيابية وكان يحرص دائماً على متابعة جلسات مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ويعلق  
علي بعض مناقشتها وكان يحرص أيضاً على أن يوجه العديد من النصائح والإرشادات إلى  
الأعضاء في كل دورة جديدة لأي من هذين المجلسين.. فهو يكتب مثلاً بمناسبة افتتاح الدورة  
الجديدة للجمعية العمومية عام ١٩١٢ مخاطباً النواب الجدد فيقول لهم إن «الأمة تطالبكم أن  
ترفعوا أصواتكم وتدلوا ببالغة الحجج وغالبيتها إلى ولاية الأمر مفهمينهم أنه قد آن لهذه الأمة أن  
تسترد حريتها والابتقى بعد الآن مغلولاً بأغلال من النظام الحالي وأنها لابد بالغة طلبتها عاجلاً  
كان ذلك أو آجلاً»<sup>(١)</sup>

وبعد إنشاء الجمعية التشريعية.. فند الرافعي محاولات بعض الصحف لإعتبار إنشاء الجمعية  
دليلاً على أن النظام النيابي في مصر ترقى وأصبح أحسن حالاً عما كان عليه فقد كان يرى أن  
«القانون النظامي الجديد الذي أنشئت بمقتضاه الجمعية التشريعية عدل نظام الانتخابات ومنح  
الجمعية التشريعية حق التفتين في مسائل محصورة وأباح لها مناقشة مشروعات القوانين ثلاث  
مرات ولكنه فيما عدا ذلك وقف بالهيئة الجديدة حيث كانت الهيئات القديمة.. بل رجع بها إلى  
الوراء في بعض الشئون بأن حرم عليها الخوض في مسائل لم تكن محرمة وخوّل للحكومة حق  
حل هذه الهيئة إذا لم توافق على القانون في المرة الثالثة»<sup>(٢)</sup>. وعلى ضوء تلك الحقائق يصير  
الرافعي على أن الجمعية التشريعية بمقتضى هذا الواقع «أصبحت أكثر خضوعاً لسلطة الحكومة  
من مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية».

وعندما صدر قانون الانتخاب في ٣٠ ابريل سنة ١٩٢٣ عقب صدور الدستور كتب أمين  
الرافعي في صحيفة (الأخبار) عدة مقالات تصدى فيها للكشف عن الثغرات في هذا القانون..  
وكان مما اعترض عليه أن يكون انتخاب أعضاء البرلمان على درجتين.. فهو يعتقد «أن المجالس  
النيابية التي تتولد من انتخاب متعدد الدرجات لا يمكنها مطلقاً أن تعبر عن آراء الشعب بل أن  
الفرق يظهر كبيراً بين الآراء السائدة فيها والآراء السائدة بين الشعب نفسه»<sup>(٣)</sup>.. ولذلك طالب  
الرافعي أن يكون في مقدمة أعمال البرلمان المصري «أن يحو هذه السبة عن البلاد وأن يرفع  
العوائق التي تحول دون دخول الأنظمة الانتخابية الصحيحة في مصر».

ولقد وجه أمين الرافعي إهتماماً كبيراً لانتخابات مجلس النواب.. وخصص أكثر صفحات  
صحيفة (الأخبار) لنشر أخبار المرشحين وندواتهم وخطبهم وكان يحرص على توجيه النصائح  
إلى الناخبين بانتخاب المرشح الأصح بصرف النظر عن الحزب الذي ينتمي إليه.. وإن كنا  
نلاحظ أن أمين الرافعي كان يظهر في بعض الأحيان ميله إلى مرشحي الحزب الوطني..

(١) الشعب - ٢٥ مارس سنة ١٩١٢ مقال بعنوان (اليوم المشهود - أمل الشعب في نوابه).

(٢) الشعب - ٢ يناير سنة ١٩١٤ .

(٣) الأخبار - ٨ مايو سنة ١٩٢٣ مقال بعنوان (حول قانون الانتخاب - عيوب طريقة انتخاب النواب).

وعندما أجريت الانتخابات وظهرت النتائج الأولية وظهر منها اكتساح الوفد لأغلبية الدوائر كتب «أمين الرافعي» يعلق على هذه النتيجة معلناً «أن الأغلبية الساحقة في مجلس النواب ستكون للسعديين.. ولم يكن هذا مستغرباً فقد ظهر ذلك من ميول الناخبين منذ البداية»<sup>(١)</sup>. وطالب بأن تكون نهاية المعركة الانتخابية «نهاية أيضاً لكل أسباب الخصام الذي كاد يمزق أحشاء البلاد مع وجود الغاصب بيننا» وذكر النواب بأن الأمة «تبقى تعديل كثير من أحكام الدستور وقانون الانتخاب وأنها تريد التخلص من القوانين الاستثنائية المقيدة لحريتها السياسية السالبة لحقوقها النيابية» فوجب النواب الجدد في رأى الرافعي «أن يسعوا في تحقيق هذه الغاية بكل ما أوتوا من غيرة وسيجدون من الأمة أكبر معضد لهم ماداموا يسرون في الطريق الذي رسمته لهم من قبل».

ثم أخذ أمين الرافعي يتابع باهتمام كبير مناقشات النواب.. وأثار العديد من القضايا الهامة.. فهاجم مثلاً محاولة الحكومة الوفدية تعيين وكلاء برلمانيين من أعضاء مجلس البرلمان وتساءل «ليقولوا لنا ما فائدة وجود هذا الوكيل البرلماني بجانب الوزير وهل تراكمت الأعمال على أصحاب الدولة والمعالى الوزراء إلى درجة أنه أصبح لا يستطيع كل منهم أن يحضر بنفسه إلى البرلمان إذا استدعى الأمر حضوره؟»<sup>(٢)</sup> وقال أنه يمكن للوزراء أن «يستعينوا في البرلمان بما شاء ومن كبار موظفي دواوينهم أو أن يستنيبهم عنهم.. فما هي الحاجة إذن لإيجاد وكلاء برلمانيين تثقل مرتباتهم عبء الميزانية بلا ضرورة ولا مبرر».

وتعرض أمين الرافعي أيضاً لقضية مكافآت النواب وذكر أن المجلس ناقش اقتراحاً تقدم به أحد أعضائه يقضى بمنح النواب مكافأة سنوية قدرها ستمائة جنيه وتذكرة سفر بالدرجة الأولى على خطوط السكك الحديدية.. وقد سجل الرافعي على هذا الاقتراح أربع ملاحظات:-

**الملاحظة الأولى:** أن مجلس النواب «لم ينظر للآن في أى مشروع قانون فلا يحسن أن يكون أول قانون يفحصه هو القانون الخاص بمكافأة أعضائه».

**الملاحظة الثانية:** أن هذه المكافأة الواردة في الاقتراح «مبالغ فيها ولا سيما إذا قارناها بما يحصل عليه النائب من مكافأة في إنجلترا وفرنسا».

**الملاحظة الثالثة:** أن النواب لا يشتغلون «إلا نحو ستة أشهر في العام فإذا قررت المكافأة المقترحة كانت نتيجتها أن يتناول النائب مائة جنيه شهرياً».

**الملاحظة الرابعة:** أنه لا ضرورة مطلقاً «لتذكرة سكة حديد على طول الخطوط لأن النائب لا يحتاج لهذه التذكرة إلا بين القاهرة وبلدته».

(١) الأخبار - ١٤ يناير سنة ١٩٢٤ مقال بعنوان (موقف البلاد الآن بعد انتخاب أعضاء مجلس النواب).

(٢) الأخبار - ٨ أبريل سنة ١٩٢٤ مقال بعنوان (الوكلاء البرلمانيين).

كذلك هاجم أمين الرفاعي في أحد مقالاته قراراً اتخذته الأغلبية الوفدية في البرلمان تقرر فيه أن للمجلس الحق في إبداء رغبات غير ملزمة للحكومة بأن تنفذها وقال الرفاعي أن الأكثرية في مجلس النواب «لم تكن حريصة على حقوق الأمة يوم أصدرت هذا القرار وقد تكون هذه أول مرة يعتمد فيها مجلس من المجالس النيابية إلى تقييد سلطته وانتقاص حقوق الأمة ولكن الأكثرية السعدية في مجلسنا لا يضيرها أن تفعل ذلك الذي لم يسبقها إليه أحد لمجرد إرضاء الوزارة»<sup>(١)</sup>.

كذلك هاجم الكاتب سلوك بعض المنتمين للأغلبية السعدية في البرلمان الذين يعملون على «أن يخنقوا أصوات المعارضة في المجلس.. ولقد شاهدنا كيف حوربت هذه المعارضة بالمقاطعة وبإقفال المناقشة في وجهها وبمنعها من الكلام وبالتهويش عليها وبإخراج بعض أعضائها من الجلسة إلى غير ذلك من الوسائل التي كان يقصد بها اضطهاد المعارضين وحملهم على عدم مناقشة الحكومة بالحساب مهما كان في هذه المناقشة من مصلحة البلاد»<sup>(٢)</sup>.

وعندما قامت وزارة زيوار باشا بحل البرلمان عقب مقتل السردار هاجم أمين الرفاعي هذا القرار وأعلن أنه قرار «يتعارض مع الدستور» وصدر من منطق الحكم المطلق في عهد الدستور»<sup>(٣)</sup> ثم فند الحجج التي أعلنتها الحكومة تبريراً لحل البرلمان فقال:

«بنيت الوزارة قرار حل مجلس النواب على عدة أسباب جعلت في مقدمتها استحالة اشتراك البرلمان في المهمة التي أخذت على نفسها القيام بها وهي «مهمة إعادة صفو العلاقات مع الحكومة البريطانية».. وهو سبب غريب لا نظن أن وزارة في أي بلد آخر اجتترأت أن تجعله ذريعة للتخلص من مجلس النواب لا سيما إذا كانت الحكومة التي يراد إعادة صفو العلاقات معها ليست حكومة موالية للبلاد وإنما هي حكومة غاصبة ومعتمدة»<sup>(٤)</sup>.

ويجربنا الحديث عن أمين الرفاعي إلى الحديث عن كاتب آخر من كبار كتاب تلك الفترة هو عبدالقادر حمزة.

ورغم أن «عبدالقادر حمزة» بدأ حياته محرراً في صحيفة «الجريدة» إلا أن اهتمامه بالحياة النيابية لم يبدأ إلا بعد أن تولى مسئولية تحرير صحيفة (الأهالي) وكان رأيه في المجالس النيابية التي أقامها الاحتلال أنها «مجالس صورية لا قول لها ولا عمل.. وإنه لم يبق من معاني الحكم سواء للحاكم الشرعي (بقصد الخديو) أو للنظار أو للموظف المصري أياً كان إلا غشاء ظاهري يوشك أن يسقط فيسقط معه كيان مصر»<sup>(٥)</sup>.

(١) الأخبار - ٢١ مايو سنة ١٩٢٤ مقال بعنوان (مجلس النواب وانتقاص سلطة الأمة).

(٢) الأخبار - ٤ أغسطس سنة ١٩٢٤.

(٣) الأخبار - ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٢٤ مقال بعنوان (حل مجلس النواب ومذكرة الوزارة).

(٤) الأخبار - ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٢٤ مقال بعنوان (حل مجلس النواب).

(٥) الأهالي - ١٩ يوليو سنة ١٩١١ مقال بعنوان (الحكم الذاتي).

وكان عبدالقادر حمزة دائم المطالبة بمنح مصر مزيداً من الحكم الذاتى ولكنه كان يعتقد «بأن الحكم الذاتى يجب أن يتم بالتدريج.. فنحن لا نرى العنف سببياً إلى إدراك مطالب البلاد»<sup>(١)</sup>.. وهو يرى أن الحكم الذاتى: «لا نعطاء منحه ولا نغتصبه بالقوة ولكننا نأخذها» ونحن آمنون شر العثرة واثقون من النجاح». وبناء على ذلك رحب عبدالقادر حمزة بقيام الجمعية التشريعية وكان يرى أنها خطوة كبيرة نحو تحقيق الحكم الذاتى لمصر وهو يعدد بميزات الجمعية التشريعية مقارناً إياها بمجلس شورى القوانين فيؤكد أن «عدد النواب فى هذه الجمعية الجديدة سيصبح سبعة وستين عضواً بعد أن كانوا سبعة عشر نائباً فقط.. وأن انتخاب الأعضاء سيكون بطريقة دستورية أصح من الطريقة القديمة»<sup>(٢)</sup>. ويعتبر عبدالقادر حمزة الجمعية التشريعية ثمرة من ثمرات «سياسة الوفاق التى جرت عليها السلطات الفعلية والشرعية منذ مجئ جورست». كذلك فهو يرى أن «هذه الجمعية تعتبر الخطوة الدستورية الأولى من الخطوات التى خطوها نحن المصريين فى سبيل الحياة النيابية والحكم الذاتى منذ مجئ الاحتلال البريطانى إلى اليوم».

ولقد تضاعف اهتمام عبدالقادر حمزة بالحياة النيابية بعد أن أصدر صحيفة (البلاغ) فى ٢٨ يناير سنة ١٩٢٣ وخاصة أن الصحيفة كانت تعتبر لسان حال سعد باشا زغلول.. لذلك فقد لوحظ أنه بعد صدور الدستور أخذ عبدالقادر حمزة يطالب بسرعة إجراء الانتخابات وأعلن تخوفه من أن يكون التلكؤ فى إجراء الانتخابات سبباً «إن السياسية الإنجليزية متخوفة حذرة أن يتبوأ مقاعد النواب الرجال الصادقون الذين تعرف هي قبل غيرها ما هو رأيهم فيها»<sup>(٣)</sup>.

وعندما بدأت الانتخابات خصص عبدالقادر حمزة غالبية صفحات (البلاغ) للحديث عنها وكان يفرد الصفحات الكاملة لخطب وندوات مرشحي الوفد.. وقد كتب أثناء هذه الفترة مجموعة من المقالات حاول أن يشرح فيها جانباً من تاريخ الحياة النيابية فى مصر وكفاح المصريين من أجل الحصول على مجلس نيابى دستورى ولقد خرج من مقالاته تلك بنتيجة تؤكد أن «المصريين قد وصلوا إلى هذا المجلس النيابى بعرقهم وبدموعهم».

ولقد جند عبدالقادر حمزة قلمه بعد افتتاح البرلمان للدفاع عنه وعن أغلبية السعدية ضد المعارضة.. فمن ذلك أنه كتب مقالاً يهاجم فيه المعارضة ويتهمها بمحاولة الإيقاع بين نواب الوفد وحكومتهم وإثارة الشكوك حول نواب الأغلبية وكان مما قاله فى ذلك المقال: «أنه كان من المفروض أن تهدأ ثورة المعارضة (يقصد أعضاء الحزب الوطنى والأحرار الدستوريين) بعد فشلهم فى الانتخابات وأن يعيشوا فى عزلة تامة ولكن لم يفعلوا وكما أن أقوالهم وأعمالهم كانت تنم عن حقد على سعد وعلى الوفد أيام الانتخابات فكذلك أعمالهم الآن.. ولكنهم فى هذه المرة لا يثيرون شكوك الجمهور وإنما يريدون أن يثيروا شكوك النواب»<sup>(٤)</sup>.

(١) الأهالى - ٢٦ نوفمبر سنة ١٩١١ .

(٢) الأهالى - ٩ يوليو سنة ١٩١٣ .

(٣) البلاغ - ٢٢ أغسطس سنة ١٩٢٣ مقال بعنوان (متى ينعقد البرلمان وفى مصلحة من يكون تأجيله).

(٤) البلاغ - ١٠ إبريل سنة ١٩٢٤ .

وبعد أن استقالت وزارة سعد زغلول بعد مقتل السردار تألفت وزارة أحمد زيوار باشا التي أصدرت مرسوماً بتأجيل البرلمان شهراً وكان ذلك في ٢٥ نوفمبر ١٩٢٤ وقبل نهاية الشهر بيوم واحد صدر مرسوم ملكي بحل البرلمان عندئذ انبرى (عبدالقادر حمزة مهاجماً حل البرلمان ومؤيداً موقف النواب الوفديين الذين تقدموا إلى الملك بالتماس بعقد البرلمان للمناقشة في شئون البلاد)<sup>(١)</sup>.. وأعلن عبدالقادر حمزة إن قرار حل البرلمان قرار غير حكيم وغير مفيد وطالب بإلغاء قرار الحل على أساس أن «نتيجة أية انتخابات قادمة معروفة إذ سيكون النجاح فيها أيضاً للوفديين ولا جدوى من تعطيل البلاد بانتخابات جديدة معروفة نتائجها مقدماً»<sup>(٢)</sup>.

أما الدكتور محمد حسين هيكل فقد انفرد دون باقي الكتاب بالإشادة بقانون الانتخاب الذي صدر في ٣٠ أبريل سنة ١٩٢٣ حيث قال إن من شأنه .. السير بالنظام الانتخابي في سبيل التطور وأنه بالصورة التي صدر بها يصلح وسيلة لاختيار أعضاء أول برلمان مصري إذا أحسن تنفيذه»<sup>(٣)</sup>.

وفي أثناء الحملة الانتخابية تصدى الدكتور هيكل للرد على الحملة التي قام بها عدد من كتاب الوفد على كبار المزارعين وأصحاب الثروة في الأقاليم» حتى يخيل إليك أن الجمع بين الوطنية والملكية محال وإن الجمع بين الفطنة والثروة محال»<sup>(٤)</sup>.

وقال أنه «ليس من الضروري أن يكون النائب ممن يحسنون توقيع الكلام وتنميق المقالات وتسخير العقول بروائع الخطب.. ثم أكد الكاتب أن «المزارعين وكبار الملاك هم سواد مصر الأعظم وهم ينبوع ثروتها ومنهم تحي الأموال على نفقتهم بتنظيم الحكم في البلاد».. والدكتور هيكل هنا كان يدافع - بطبيعة الحال - عن طبقة كبار ملاك الأراضي من أعضاء حزب الأحرار الدستوريين التي صدرت صحيفة السياسة لتعبر عنهم.

كذلك هاجم الدكتور هيكل أثناء الحملة الانتخابية الأسلوب الذي كان يستخدمه سعد زغلول في دعايته الانتخابية حيث يذكر أن سعد زغلول يخطب في الناس كل يوم فإذا وصل في الكلام إلى خصومه السياسيين «نزل عن كل احتشام في العبارة وعن كل وزن للقول ورماهم بأشنع التهم ووسمهم بالخيانة والمروق فإذا سئل عن ذلك قال هي الحرب الانتخابية»<sup>(٥)</sup>.. وأكد الكاتب أن الحرب الانتخابية لا بد أن تكون من أرقى أنواع النضال لأن المعركة الانتخابية هي المظهر المباشر لكل أمة».. وقال الدكتور هيكل «إن سعدا وجرائده وأنصاره ليقتلون الآن الحياة النيابية باسم حرب الانتخابات».

(١) البلاغ - ١٠ أبريل سنة ١٩٢٤.

(٢) البلاغ - ٩ ديسمبر سنة ١٩٢٤.

(٣) البلاغ - ١٤ ديسمبر سنة ١٩٢٤.

(٤) السياسة - ٢ مايو سنة ١٩٢٣ مقال بعنوان (قانون الانتخاب).

(٥) السياسة - ٣ أكتوبر سنة ١٩٢٣.

(٦) السياسة - ٣ أكتوبر سنة ١٩٢٣.



وبعد افتتاح البرلمان ظل الدكتور هيكل يتابع مناقشات وقرارات المجلس وتعرض بالنقد لكثير من القرارات التي اتخذها المجلس فهاجم حكومة سعد زغلول لتعيينها عدداً من النواب السعديين في وظائف الحكومة وطالب النواب أن «يعلنوا خلو أماكن النواب الذين عينوا في وظائف حكومية»<sup>(١)</sup>.. ثم تساءل الكاتب «أليس هذا استغلالاً لجانب من جوانب ضعف النفس الإنسانية على حساب وظائف الدولة أليس هذا ترغيباً للنواب في مؤازرة الوزارة حتى يكون لهم أمل في حظ كحظ زملائهم الذين تعينوا في الوظائف».

كما هاجم الدكتور هيكل نية الحكومة لتعيين وكلاء برلمانيين مستقفاً في ذلك مع أمين الرافعي.. إذ قال أن النظام النيابي المصري «لا يقتضى وجود الوكلاء البرلمانيين ونعلم أكثر من ذلك أن الحكومة الفرنسية ألغت وظائف وكلاء البرلمانات عندها أخيراً حرصاً على توفير أموال الدولة لإنفاقها فيما يفيد»<sup>(٢)</sup> الدولة.

وأعلن الدكتور هيكل أن الحكومة تريد من تعيين الوكلاء البرلمانيين «أن ترضى أنصارها ذوي السلطة والنفوذ».

وهاجم الدكتور هيكل أيضاً قرار البرلمان بتخصيص مكافأة سنوية للعضو قدرها ستمائة جنيه وأطلق على المجلس (مجلس الستمائة) وعلى حزب الوفد (حزب الستمائة) فقال «دعوا أنفسهم حزب الوفد النيابي وقديماً كانوا جماعة سعد ودعونا نحن حزب الحكومة وعباد سلطتها ولهم فوق ذلك صفة غيرها.. تلك هي جبههم للمال فلم يرض على تأليفهم ساعات حتى كان أول عمل تشريعي أقروه أن قرروا لأنفسهم ستمائة جنيه وكأنما كانت هذه هي الأمانة الأخيرة من الأمانى التي طالما منوا بها الأمة وكأنما كانت مقابل المزايم الكثيرة التي ملأوا الدنيا بها ضجة وصياحاً»<sup>(٣)</sup>.

وعندما أصدرت وزارة زيوار قرار حل البرلمان عقب مقتل السردار أيد الدكتور هيكل قرار الحل وأظهر شماته كبيرة بالبرلمان الوفدى وقد كشف هذا الموقف عن التناقض الصارخ بين أفكار الدكتور هيكل وأعماله فعلى حين نراه ينصب من نفسه ومن حزب «الأحرار» حماة للحياة النيابية وللدستور نجده ينفرد من بين كبار الكتاب والمفكرين المصريين بتأييد قرار حل البرلمان وهو بذلك يعترف بالإجراء غير الدستوري الذي اتخذته وزارة زيوار عندما قامت بحل البرلمان.. وهو الأمر الذي يتعارض تماماً مع الدستور الذي استعار هيكل وحزبه اسمه ليكون عنواناً لحزبهم. وتظهر شماته هيكل في أعضاء البرلمان المنحل واضحة عندما يكتب معلقاً على قرار الحل الذي أصدرته وزارة زيوار فيقول «انصرفوا مأجورين أيها السادة.. فقد مات عهد الطغيان وأذن الله أن يسوى عليه التراب.. انصرفوا مأجورين لا مشكورين أيها السادة فقد أذن الله أن يحل مجلسكم وأتاح الله لهذا البلد أن يتنفس هواء طلقاً مطهراً لا تفسده جرائم الأثرة والجهل

(١) السياسة - أول أبريل سنة ١٩٢٤ مقال بعنوان (ذهب المعز النواب في وظائف الحكومة).

(٢) السياسة - ١٣ أبريل سنة ١٩٢٤.

(٣) السياسة - ٢٨ أبريل سنة ١٩٢٤ مقال بعنوان (حزب الستمائة).

والعطرسية ولا تشوبه آفات البغى والاستبداد «ويحرض الدكتور هيكل الحكومة ضد الوفديين ناصحاً إياها أن تحول بينهم وبين الدخول فى أية انتخابات جديدة فيقول: «أرجو أن تكون الأمة قد عرفت سرائركم حتى لا تستخدم بكم وأن تكون الحكومة فى هذه المرة أحزم من أن تمالككم وأشجع من أن تخلى بينكم وبين الفساد».

ويلاحظ على هذا المقال أنه يحمل بين طياته فكرتين خطيرتين:

الأولى: أن الكاتب يصف عهد وزارة الأغلبية التى حكمت مصر فى ظل برلمان منتخب من الشعب بأنه (عهد الطفيلان) بينما يرى فى عهد وزارة زيوار باشا التى تحكم بغير إرادة الأمة أو نوابها بأن عهداً «هواد طلق مطهر».

الثانية: عندما يدعو الكاتب الحكومة «أن تكون فى هذه المرة أحزم من أن تمالككم وأشجع من أن تخلى بينكم وبين الفساد» فهنا دعوة صريحة لحكومة زيوار أن تضرب الوفد وتحول بينه وبين الانتخابات ولنا أن نتصور الطريقة التى يمكن أن تمنع بها الحكومة الوفديين من الانتخاب.. فليس هناك من سبيل أمامها لتحقيق ذلك سوى أن تلغى الدستور وتقبض على النواب الوفديين وتحكم بغير سند من إرادة الأمة.

فإذا ما قارنا هذا الموقف بموقف مفكر وصحفى آخر.. هو أمين الرافعى.. الذى كان من أشد المعارضين لسعد وللوفد.. نرى الأخير يستنكر قرار حل البرلمان ويهاجم الوزارة التى اتخذت القرار ويعلن أنه قرار غير دستورى.. فأمين الرافعى قدم مصلحة الوطن.. على مصلحته الشخصية أو الحزبية.. أما الدكتور هيكل فقد قدم مصالحه الحزبية على مصلحة الوطن.

وعندما أصدر «أحمد حافظ عوض» صحيفة «كوكب الشرق» فى نهاية عام ١٩٢٤ خصص جانباً كبيراً من اهتمامه للحياة النيابية ومتابعة مناقشات وقرارات مجلس النواب فهو يستقبل افتتاح الدورة الثانية لمجلس النواب معلناً أنه ليس فى وسع أحد وإن كان من أشد خصوم الأمة عداء لها «أن ينكر على نواب الأمة رغم كل انتقاد واعتراض أنهم وهم حديثو عهد بالحياة البرلمانية قد أثبتوا بما أيدوا من رزانة وبعد نظر وتفكير على أن المصرى لا يقل فى استعدادة للحياة النيابية عن كثير من الشعوب الأوروبية العريقة فى الدستور»<sup>(١)</sup>.

واهتم الكاتب بالتعليق على خطبة العرش التى ألقى فى الدور الثانى لإنعقاد البرلمان فأكد أن ما ورد فى الخطبة «سياسة لا يوجد مصرى لا يقرها لأنها تتضمن المحافظة على حقوق البلاد كاملة»<sup>(٢)</sup>.

(١) كوكب الشرق - ١٢ نوفمبر سنة ١٩٢٤ - مقال بعنوان (غداً يجتمع البرلمان).

(٢) كوكب الشرق - ١٣ نوفمبر سنة ١٩٢٤ .

وعندما قامت حكومة زيوار بوقف عمل البرلمان عقب مقتل السردار واستقالة سعد زغلول أعلن أحمد حافظ عوض أن قرار وقف عمل البرلمان «كان عملاً مخالفاً لنصوص الدستور الصريحة فهل يذهب بنا الظن أن الحكومة تعرف ذلك وتتجاهله»<sup>(١)</sup>.

وكانت الحكومة قد ألقت القبض على عدد من النواب الوفديين فأعلن الكاتب أن الحكومة لا حق لها في القبض على النواب لأنهم يتمتعون بالحصانة البرلمانية قرار غير دستوري» وربما جال بخاطر الحكومة أن الحصانة البرلمانية تسقط عنهما لوقف أعمال البرلمان في الوقت الحاضر ولكن هذه الحجة تسقط من نفسها لأن وقف البرلمان لا ينافي أنه في دور انعقاد اعتيادي يتمتع فيه أعضاؤه بالحصانة القانونية».

وعندما صدر قرار حل مجلس النواب كتب (أحمد حافظ عوض .. يقول إن ما وقع كان منتظراً وأعلن أن الوزارة بهذا القرار قد خالفت الدستور» ولسنا في حاجة إلى التذليل بأن الوزارة قد خالفت بعملها هذا أحكام الدستور المصري وجميع دساتير العالم»<sup>(٢)</sup>.

ثم خاطب الكاتب المعارضة فقال: «وبعد فلتلق الوزارة وليثق أنصارها من رجال الحزب الوطني وحزب الأحرار الدستوريين أن السعديين لم يألموا مما لجأت إليه من حل مجلس النواب وجعل الانتخاب من درجتين لأنهم واثقون.

ومع اقتراب موعد الانتخابات الجديدة لمجلس النواب يوجه أحمد حافظ عوض خطاباً إلى الأمة المصرية قال فيه إن مصير كل أمة بيد أبنائها وقد «وضع اليوم مستقبل مصر في يد المصريين فإن كانوا راغبين في الحياة والنهضة والاستقلال انتخبوا رجالهم الذين جربوا إخلاصهم وامتنحوا إيمانهم فعرفوا فيهم قواداً ذوى حزم وعزم وحكمة وسداد وعظماء ذوى نفوس جبلت على الشجاعة والتضحية والثبات كخير ما سجلته صحائف التاريخ بين الإجلال والإعجاب»<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

(١) كوكب الشرق - ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٢٤

(٢) كوكب الشرق - ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٢٤ مقال بعنوان (حل مجلس النواب)

(٣) كوكب الشرق - ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٢٤ .

## الخلاصة:-

يتضح مما تقدم أن موقف الصحافة المصرية من قضية الحياة النيابية في فترة البحث قد تميز بعدة خصائص يمكن أن نكملها فيما يلي:

أولاً: يرجع إلى الصحافة المصرية الفضل الأول في دفع مطلب المجلس النيابي ليحتل مكانه في مقدمة أهداف الحركة الوطنية المصرية في فترة البحث بحيث صار هذا المطلب يقف مباشرة بعد مطلب الجلاء.

ثانياً: إن التيار الرئيسي والغالب على الصحافة المصرية كان التيار المنادي بإنشاء المجلس النيابي وإقامة حياة نيابية حقيقية وقد عبر عن هذا الاتجاه صحف الحزب الوطني.. وصحف الوفد وأكثر الصحف المستقلة كالأهرام والوطن.

ثالثاً: وجد تيار ثان.. لا يرفض مبدأ إقامة حياة نيابية حقيقية ولا إنشاء مجلس نيابي ولكنه يعتقد أن الظروف السياسية في مصر لم تنضج إلى الحد الذي يمكن معه إعطاء الشعب التصرف في هذه الحقوق لذلك كانت مطالب أكثر المندرجين تحت هذا الاتجاه تنحصر في مجرد العمل على تطوير وتوسيع اختصاصات المجلس شبه النيابية القائمة حتى تصل بالتدرج إلى المجلس السابق وكان يمثل هذا الاتجاه الشيخ على يوسف في المؤيد.. ولطفى السيد في الجريدة (مع بعض الاختلافات الثانوية بينهما) ثم الدكتور هيكل في السياسة بالإضافة إلى عدد من الصحف التي تربطها علاقات خاصة مع سلطات الاحتلال كصحيفة المقطم أو صحيفة الأحرار التي كانت لسان حال الحزب الوطني الحر.. أو صحيفة الوطن بعد وفاة ميخائيل عبد السيد وتولى مجدى إبراهيم مسئولية تحريرها وكان معروفاً بعلاقاته الوثيقة بالاحتلال.



## الفصل التاسع عشر

# الصحافة المصرية .. والدستور



طرح قضية الدستور في الصحافة المصرية بعد الاحتلال بصفتها جزءاً عضوياً من مطلب المجلس النيابي.. ذلك أن المفهوم السائد للدستور في ذلك الوقت كان يقتصر في معناه على نوع خاص من التنظيم السياسي تقيد فيه سلطات الحكم وتقرر ضمانات هامة لحريات الأفراد.. فالدستور بهذا المعنى كان يطلق فقط على تلك القواعد الأساسية التي تقرر نظاماً سياسياً ديمقراطياً.. والواقع أن هذا المفهوم قد ظهر عقب الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر.. ويعبر عن هذا المفهوم للدستور المادة ١٦ من إعلان حقوق الإنسان الذي أصدرته الثورة الفرنسية عندما أكدت أن كل مجتمع لا يقرر فيه ضمانات لحقوق الأفراد ولا يسود فيه مبدأ فصل السلطات هو مجتمع ليس له دستور. (١)

ولقد تطور مفهوم الدستور مع الزمن.. فسار يعني في قرننا هذا مجموعة القواعد الأساسية التي تبين شكل الدولة ونظام الحكم فيها ومدى سلطاتها إزاء الأفراد.. (٢) بصرف النظر عما إذا تضمنت تلك القواعد البنود الضامنة لحريات الأفراد أو لم تتضمنها. (٣)

فاذا كان الدستور يعني في القرن التاسع عشر «تنظيم الحرية» فقد صار يعني في القرن العشرين.. تنظيم السلطة.. وبعد أن كان «الحكم الدستوري».. لا يطلق إلا على الدول التي تتبع نظاماً سياسياً حراً.. أصبح «الحكم الدستوري» يمكن أن يشمل معظم الدول حتى تلك الدول ذات الحكم المطلق يتساوى في ذلك أن يكون الدستور مكتوباً أو غير مكتوب. (٤)

فاذا حاولنا أن نطبق المفهوم الأول للدستور على تاريخ مصر الدستوري في العصر الحديث فسوف لا نجد حتى نهاية فترة البحث سوى دستورين فقط الأول هو اللائحة الأساسية التي صدر مرسومها في ٧ فبراير سنة ١٨٨٢ أثناء الثورة العربية وهي التي تعرف بدستور ١٨٨٢. (٥) أما الثاني فهو الدستور الذي صدر في ١٩ أبريل سنة ١٩٢٣ والذي يعرف بدستور ١٩٢٣.. أما إذا أخذنا بالمفهوم الثاني للدستور باعتباره مرادفاً للقواعد الأساسية المنظمة للسلطات العامة في الدولة لقلنا إن مصر عرفت بجانب دستور ١٨٨٢ ودستور ١٩٢٣ «قانون السياسة» الذي صدر في شهر يوليو ١٨٣٧ في عصر محمد علي.. ثم اللائحة الأساسية التي صدرت في ٢٢ أكتوبر ١٨٦٦ في عصر اسماعيل وبموجبها انشئ مجلس شورى النواب.. ثم القانون النظامي المصري الصادر في عام ١٨٨٣ على أساس الاقتراحات التي وردت في تقرير اللورد دوفرين

(١) د. مصطفى أبوزيد فهمي - الدستور المصري - الطبعة الثانية - منشأة المعارف بالاسكندرية - ١٩٥٨ ص ٩.

(٢) د. وحيد رأفت ود.. وإيت إبراهيم.. القانون الدستوري - ص ٣-١٨. ود. بطرس بطرس غالي ود. محمود خيرى عيسى - المدخل في علم السياسة - ص ٦٩٢.

ود. عبد الحميد متولى - القانون الدستوري والأنظمة السياسية - ص ٢٠.

ود. محسن خليل - النظام الدستوري - منشأة المعارف بالاسكندرية ١٩٥٩ ص ١٥-١٧.

(٣) د. مصطفى أبوزيد فهمي - الدستور المصري - ص ٧-٩.

(٤) المصدر السابق - ص ٩.

(٥) عبد الرحمن الرافعي - عصر اسماعيل - الجزء الثاني - ص ٢٣٧.

والذى انشئ بموجبه مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ومجالس المديریات.. ثم يلي ذلك القانون النظامى الصادر فى أول يوليو سنة ١٩١٣ والذى أنشت بموجبه الجمعية التشريعية.

وبصرف النظر عن المفهومين السالفين فمن المفروض منه أن المفهوم الذى ساد الصحافة المصرية- فى فترة البحث.. كان المفهوم الذى يعتبر الدستور مرادفا للنظام الذى يقرر حريات الافراد ويعطى البلاد حق انشاء المجلس النيابى الممثل للأمة تمثيلا حقيقيا.. بدليل أن مطلب الدستور عندما طرح فى الصحافة المصرية مع بداية هذا القرن كان مقرونا بالمجلس وكان الاصطلاح المستخدم فى ذلك الوقت للتعبير عن مطلب الدستور «هو» الدستور النيابى».

لذلك يلاحظ أن كثيرا من القضايا التى أثرت حول المجلس النيابى.. أثير مثلها عند طرح قضية الدستور مثل قضايا مدى أهلية المصريين للدستور؟ ومن يطلب الدستور.. من الحديث صاحب السلطة الشرعية أم الاحتلال صاحب السلطة الفعلية؟

كذلك يلاحظ أن قضية الدستور لم تطرح- كقضية حية- ومطلب شعبى- فى الصحافة المصرية إلا بعد عام ١٩٠٤ عندما تقدمت الجمعية العمومية إلى الحكومة-بناء على اقتراح من الشيخ على يوسف- يطلب انشاء المجلس النيابى-.. فقد جر الحديث عن المجلس النيابى إلى طرح مطلب الدستور على أساس أن المجلس النيابى لا يقوم بدون وجود الدستور الذى يحدد شكل النظام السياسى للدولة وحقوق المصريين وواجباتهم ومن بينها المجلس النيابى.

وإذا كان عام ١٩٠٤ هو بداية المرحلة التى صار فيها الدستور مطلبا رئيسيا من مطالب الحركة الوطنية المصرية وقضية من القضايا الهامة التى تتداولها الصحافة المصرية إلا أن هذا لا يعنى عدم وجود كتابات عن الدستور قبل هذا العام... وإن كانت مجرد اشارات متفرقة وقليلة.. وفى هذا المجال لابد من تأكيد حقيقة تاريخية هامة وهى أن مصطفى كامل كان أول من طالب بالدستور فى مصر بعد الاحتلال.(١) «فقد بدأ مصطفى كامل يروج للفكرة الدستورية وهو بعد طالب فى مدرسة الحقوق حين أخذ يشرح فى مجلة (المدرسة) أنظمة الحكم من ملكية مقيدة وجمهورية.. وقد دفعه ذلك إلى الحديث عن الحكومة الدستورية وكيف ان الحكم فيها» موزع بين سلطات ثلاث.. سلطة تشريعية.. وسلطة قضائية.. وسلطة تنفيذية.. وإن كل منها توازى الاخرى ولا تنطفئ عليها.(٢)

فاذا تذكرنا أن مصطفى كامل دخل مدرسة الحقوق وهو فى السادسة عشرة من عمره وأنه فى السنة الثانية من التحاقه بها أصدر مجلة «المدرسة».. عرفنا أن هذه الآراء الواضحة القوية.. هى آراء صبي فى السابعة عشرة وهو بذلك أسبق الكاتبين فى الدعوة إلى الدستور بهذا الوضوح والجللاء.(٣)

(١) وقعت معركة حزبية عنيفة بين الشيخ على يوسف ومحمد فريد وبعض أعضاء الحزب الوطنى حول من هو أول من طالب بالدستور النيابى فى مصر.. على يوسف ام مصطفى كامل.. وسوف نشرح تفاصيل هذه المعركة فى الفصل التالى عن الصحافة الحياة الحزبية فى مصر.

(٢) المدرسة- ١٧ مايو سنة ١٨٩٣.

(٣) فتحى رضوان- مصطفى كامل- ص ١٩٥-١٩٦.



ولم يكف مصطفى كامل عن انتهاز كل فرصة له وهو يصف مشاهداته في أوروبا- التي كان ينشرها في الأهرام عام ١٨٩٢ ومابعدا- لكي ينوه بمزايا الحكم الدستوري.

وفي عام ١٩٠٢ كتب مصطفى كامل في اللواء يهاجم الحكومة حيث ذكر أنها «تعمل لكي تحرم الأمة من الحصول على الدستور- فهي تهزأ بفكرة الدستور وتدوس بقدمها على القانون»<sup>(١)</sup>.. وهو يرى أن من الواجب على كل كاتب في مصر «أن يستلفت نظر الأمة كلها إلى المطالبة بالدستور.. ثم أكد أن هذا المطلب.. ليس مطلباً لشخص معين أو فئة معينة وإنما هو مطلب الأمة المصرية كلها» ولا يهولن القارئ صعوبة هذا المطلب فإن متابعة الطلب لا بد وأن تأتي بالثمرة المقصودة خصوصا إذا كان المطالب أمة بأسرها».

ولقد تصدى مصطفى كامل لتعريف الدستور قائلا «إن الدستور هو منح الأمة حق الاشراف على الأعمال كافة ومراقبة ما تجريه الحكومة لخيرها أو لضررها وسؤال الوزارة على كل صغيرة وكبيرة وتغييرها بغيرها إذا أساءت استعمال السلطة أو تهافتت في خدمة البلاد.. الدستور هو ألا يستطيع أحد مهما كان عظيما- وطنيا أو اجنبيا أن يمس القوانين والأنظمة بشيء».

ويربط مصطفى كامل بين مطلب الدستور ومطلب الجلاء فيسأل: «هل يوجد رجل واحد في هذه الأمة يجرؤ على القول بأننا اليوم متمعمون بنعمة الدستور وأن المحتلين لو شاءوا أن يعتبروا أى نظام موجود أو حزق سياج أى قانون لا يستطيعون- لعمري ما يسميه المحتلون أو أنصارهم الدستور لهو الفوضى في لباس النظام والاختلاف في قالب الاحتلال.. نحن نرى من العار والخيانة عدم المطالبة بالجلاء.. ونحن نرى من الجبن ومن الموت عدم المطالبة بالدستور».

وفي رأينا أن هذا المقال «وكان تلخيصا لخطبة ألقاها مصطفى كامل في الاسكندرية» دليل آخر يؤكد أن مصطفى كامل كان أول من ربط مطالب الدستور بمطلب الجلاء وذلك قبل ان يتقدم الشيخ على يوسف باقتراحه إلى الجمعية العمومية بطلب المجلس النيابي عام ١٩٠٤.

والجدير بالذكر أنه بعد وفاة مصطفى كامل في فبراير ١٩٠٨ وانتقال زعامة الحزب الوطنى إلى محمد فريد.. قام الحزب بتنظيم حركة تشارك فيها الجماهير وتنقل المطلب من صفحات الجرائد إلى صفوف الشعب.. فأعد لذلك عشرات الآلاف من طلب مطبوع موجه إلى الخديو يطالبه فيه بإقامة الدستور والحياة النيابية في البلاد، وقد تم توقيع ٤٥ ألفا من المصريين على هذا الطلب وقدمه محمد فريد للخديو عباس حلمى الثانى فى ٢٥ من أبريل سنة ١٩٠٨ واتسع نطاق الدعوة للدستور والمجلس النيابى واصبح المطلب الثانى للمصريين بعد الجلاء.<sup>(٢)</sup>

ويصف محمد فريد هذه الحركة الشعبية للمطالبة بالدستور فى مقال له باللاء قال فيه: «قام الحزب الوطنى بواسطة لجنته الادارية ولجانه الفرعية واعضائه المديرين المنتشرين فى طول البلاد وعرضها بجمع أصوات المطالبين بالدستور النيابى لتقديمها للجناب العالى الخديو حتى اذا ما

(١) اللواء- ٢٢ مايو سنة ١٩٠٢ مثال بعنوان (الجلاء والدستور).

(٢) فتحى رضوان- مصطفى كامل - ص ٢٠٠.

تأكد سموه بأن الأمة مثقفة على التماس ماكان لها وأخذ منه مراعاة لبعض الظروف.. وأن تلك الظروف التي قضت بسحب تلك المنحة قد تبدلت وتغيرت وأصبحت الأمة عن بكرة أبيها محافظة على العرش الخديوى ومخلصة فى الولاء له- منحها سموه ماكان والده قد منحها من قبل وتنازل لها عن سلطته الفردية وأشركها معه فى الأمر كما صرح به مرارا وتكرارا. (١) ثم ذكر محمد فريد أن «طلبات الدستور النيابى أخذت تنهال على رئاسة الحزب الوطنى حتى أصبح ما جاء منها يزيد عن عشرات الالوف وعمما قريب نقدم هذه العرائض إلى سمو الامير الذى تاكد بالخبرة ماتكسبه الأمة من اشتراكها مع حاكمها فى وضع القوانين ومراقبة تنفيذها.. وأشار محمد فريد إلى أن هذه «الحركة الدستورية المباركة لم ترق فى عين الحكومة الانجليزية التى تريد ان تستأثر دون غيرها بسلطة الامير فتكون هى المسيطرة على الحكومة المصرية والقابضة على أمورها..» وأشار محمد فريد أيضا إلى التصريح الذى أدلى به (السيراد وارجراى) وزير خارجية إنجلترا فى ذلك الوقت فى اجابته على سؤال (المستركتل) عما اذا كان من حقوق الخديوى منح الأمة المصرية دستورا نيابيا أو أى نظام شورى آخر.. فقال (السيراد وارجراى) إنه نظرا للظروف الحالية لايمكن منح شىء من هذا للأمة المصرية إلا بعد استشارة الحكومة الانجليزية.

وقد علق محمد فريد على تصريح وزير الخارجية البريطانية فأعلن أن «الحكومة «الانجليزية تريد تجريد الخديو من حقه الشرعى والمشهور أمام الملأ بأن سموه لايمكنه ان يمنحنا ما نطلبه إلا برأيها وموافقتها وهو افتئات واضح وحق ظاهر هى سلطة سموه التى مأتى الانجليز مصر لتأييدها كما يقولون».. وأعلن محمد فريد انه باسم الحزب الوطنى «يحتج بشدة على ماتخوله إنجلترا لنفسها من الحق غير الشرعى فى التداخل بين الأمة واميرها صاحب السلطة فى منح الدستور الذى تكرر طلبه».

واشترك (على فهمى كامل) فى المعركة التى نشبت بين اللواء.. و(المؤيد) حول ممن يطلب الدستور؟ من الخديوى صاحب السلطة الشرعية؟ أم من الاحتلال صاحب السلطة الفعلية؟ فكيف يرد على الشيخ على يوسف قائلا «كيف يطلب الحزب الوطنى المجلس النيابى مع انه لا يكون بلا جلاء الاحتلال؟ هكذا يتساءل الشيخ على يوسف.. ونحن نجيب اليه.. إن المجلس النيابى من حقوق الخديو الرجعية وكذلك الدستور.. لان المرحوم والده كان قد منحه للأمة ثم ابطله مؤقتا حتى تهدأ الاحوال وتسكن الخواطر بعد تلك الثورة المشؤمة من أجل أن يمنحه فى أى وقت يشاء.. وهامى الأمة جميعها ترى انه قد حان هذا الوقت (إلا الشيخ على يوسف طبعا فانه لا يراه اليوم كما رآه وطلبه امس)» (٢)

وعن العلاقة بين الدستور والجلاء أكد (على فهمى كامل) إن الجلاء: «شىء آخر لا يكون طلبه إلا من الحكومة الانجليزية التى أفصح رؤساؤها بتنفيذه فى مواقف عدة وفى أزمان مختلفة تارة باسم التاج البريطانى وتارة بشرف المملكة وأخرى باسم العهود والوعود أمام الدول جمعاء».

(١) اللواء - ٤ أبريل سنة ١٩٠٨.

(٢) اللواء - ٣٠ أبريل سنة ١٩٠٨.

ورد (على فهمي كامل) على سؤال آخر طرحه الشيخ على يوسف على الحزب الوطني وهو: «هل يمكن أن ننال دستوراً نيابياً يصح أن يكون من أولى نتائجه طلب الجلاء إرغام الحكومة الخديوية على تنفيذه والاحتلال موجود في مصر أولاً يمكن أن نناله؟

وقال على فهمي كامل في إجابته على السؤال «إن الدستور النيابي الكامل هو الذي تختص أحكامه على إدارة البلاد الداخلية والتي تدخل تحت معنى الاستقلال الإداري.. فالدستور الذي نطلبه يكون على قدر استقلال مصر كما قررت معاهدة «لوندرة» في عام ١٨٤٠ وضمنته فرمانات السلطانية وذلك الاستقلال الضامن عرش مصر لعائلة محمد على والضامن الاستقلال الداخلي للبلاد.. هو الاستقلال الذي وعدت إنجلترا باحترامه وتعهدت رسمياً بذلك».

وفي «اللواء» أيضاً كتب عبدالرحمن الرافعي يعلن أن «الدستور حق طبيعي لكل أمة مهما تدنت أو ارتفعت لأن مثله مثل الحرية الشخصية للأفراد يتساوى فيها العالم والجاهل والقوى والضعيف» (١).

وفي مطلب الدستور - وفي اللواء أيضاً - كتب الشيخ عبدالعزيز جوايش عندما صدر الدستور العثماني عام ١٩٠٨ يطالب بمنح الأمة المصرية الدستور النيابي على اعتبار أن «بلادنا جزء من المملكة العثمانية فكيف يكون الدستور النيابي هناك وغير النيابي هنا» (٢).

أما الشيخ على يوسف فقد بدأ اهتمامه بمطلب الدستور منذ عام ١٩٠٤ وكان هو - كما قدمنا - صاحب الاقتراح الذي تبنته الجمعية العمومية للمطالبة بالدستور النيابي وإنشاء مجلس نواب من الحكومة» وقد كان الشيخ على يوسف يطالب «بدستور نيابي تكون له وظائف الدستور في الأمم المتقدمة» (٣) وكان يرى أن الدستور النيابي «حق طبيعي من حقوق الأمم الحرة».. كما كان من رأيه أن كل شيء قد أصابه التغيير والتقدم في البلاد المصرية ماعداً القانون النظامي الذي شكل بمقتضاه مجلس شوري القوانين والجمعية العمومية فلم يصبه أي تطور حتى الآن في حين لم يبق شيء في البلاد على ما كان عليه قبل ٢٢ سنة.. لذلك فالشيخ على يوسف يطالب بوجوب «تغيير ذلك النظام الى نظام دستوري نيابي حقيقي» (٤).

وكان الشيخ على يوسف يعتقد أن «مصر أهل للدستور النيابي كما انها في حاجة شديدة إليه» (٥).

وأما كونها أهل للدستور فلأنها في نظر الشيخ على يوسف «منحته قبل الاحتلال ولم يكن هو ينبوع الثورة حتى قال إنه أضر وما نفع.. بل كان ينبوع الثورة ومنشؤها قبول الحكومة الإدارية من رجال العسكرية التداخل في شؤون إدارتها وعدم الاخلاص في صدهم عن هذا التداخل من القادرين عليه.

(١) اللواء - ٤ أكتوبر سنة ١٩٠٨ مقال بعنوان (آملنا في الدستور).

(٢) اللواء - ٢ مايو سنة ١٩٠٩ مقال بعنوان (الدستور هنا وهناك؟)

(٣) ٢٩ فبراير سنة ١٩٠٤ - مقال بعنوان (مطالب الجمعية العمومية - الدستور النيابي)

(٤) المؤيد - ٣ مارس سنة ١٩٠٤ مقال بعنوان (اقتراح بإنشاء دستور نيابي)

(٥) المؤيد - ١٦ أكتوبر سنة ١٩٠٦ مقال بعنوان (قصر الدوبارة في يوم الأربعاء - حكومة نيابية).

ويتساءل الشيخ على يوسف عن «الضرر الذى يخشاه الاحتلال من منح مصر حكومة نيابية ودستور نيابى وقد منحت إنجلترا هذا الدستور للترنسفالين الذين اثخنوها بالامس جراحا؟ أفلا يخشى الانجليز من هؤلاء أكثر مما يخافون المصريين الذين برهنوا كل مدة الاحتلال على لين وسلامة وقبول للنصائح» بل وصبر عظيم على ما يضر ويغيظ.. ثم يفند الادعاء الذى يقول بأن مصر إذا حصلت على الدستور النيابى فانها تلقى بنفسها فى أحضان تركيا قائلا إنه: «ادعاء يقصد به ذر الرماد فى العيون ليس إلا لأنه لا يوجد مصرى واحد يفكر فى مثل هذه النتيجة التى بسط بها تاريخ وادى النيل مضارها ونقشه على كل حجر من آثارها فمصر لا تتطلب حكومة نيابية الالتسير فى طريق الترقى».

وحول قضية ، من الذى له حق منح الدستور - الخديو ام الاحتلال؟ يذكر الشيخ على يوسف أن الخديو «كان قد صرح فى العام الماضى لمكاتب (الطان) بأنه ميال لاعطاء الأمة المصرية حظ مشاركة الحكومة فى اعمالها.. أى إعطاء حكومته دستورا نيابيا ومع ذلك اضطر ان يرأس مجلس النظار الذى قرر ان طلب الجمعية العمومية ايجاد مجلس نيابى طلب سابق لاوانه وما ذلك إلا لأن الحكومة البريطانية تمنع فى منح الأمة الدستور النيابى والسيرجراى صرح مرارا بأنه لم يحن الوقت لإعطاء مصر دستورا نيابيا كما قالها اللورد كرومر مرارا»<sup>(١)</sup>. وفى ضوء ذلك ينتهى الشيخ على يوسف إلى أن مسؤولية حرمان الأمة المصرية من الدستور النيابى «واقعة على عاتق إنجلترا» وعلى ذلك فان مطلب الدستور النيابى «لن تناله مصر الا اذا رضيت إنجلترا.. فطلب الدستور فى يد الانجليز وليس فى يد الخديو.. وعلى ذلك فطلبه لا بد ان يكون منهم».

والجدير بالذكر أن الشيخ على يوسف هاجم حركة جمع التوقيعات لطلب الدستور والمجلس النيابى التى قام بها الحزب الوطنى.. كذلك هاجم البرقيات التى بعث بها رجال الحزب الوطنى إلى السلطان العثمانى لكى يتدخل لدى الخديو لاصدار الدستور واتهم رجال الحزب الوطنى بالطيش والغفلة وباللعب على عقول الناس الى حد ان يستكتبوم تلغرافات ترفع الى جعلة السلطان الاعظم، يلطبون منه التوسط لدى الجناب العالى الخديو فى منح الدستور إلا بعلم جلالته وهو زكتر ملوك الأرض علما بضروب السياحة العالمية ان مصر محتلة بدولة الانجليز وان هذه الدولة قد استأثرت بأكثر السلطة فيها حتى باشرت بنفسها مخابرة جلالته فى مسألة العقبة منذ عامين حتى أرغمت الدولة العلية على إخراج عساكرها من (طلبا) قبل فوات موعد الانذار الذى اندرتها به- فهل يتجاهل جلاله السلطان مركز الانجليز فى مصر كما يتجاهل المتحمسون هنا ليقول للخديو اعط مصر الدستور النيابى وهو يعلم علم اليقين أن لارادة الانجليز دخلا كبيرا فى هذا. ولذلك تحققنا ان جلاله السلطان الأعظم لما عرض عليه أمر هذه التلغرافات أمر ان لايعرض عليه شىء منها فصارت تلقى فى سلة المهملات كلما وصلت الى المابين<sup>(٢)</sup>.

(١) المؤيد- ٤ ابريل سنة ١٩٠٨ مقال بعنوان (من الذى يمنح الدستور النيابى؟)

(٢) المؤيد- ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٠٨ مقال بعنوان (متى يرشدون.. كيف يطلبون الدستور.. وكيف ينجح الطالبون؟).

ثم أكد الشيخ على يوسف أن «كل مصرى مطلع على مركز القطر السياسى يرى أن مسألة منح الدستور لا يمكن إخراجها إلى الوجود من غير أن يكون للدولة المحتلة يد فعالة فيها».. ثم خاطب رجال الحزب الوطنى: قائلا «فقدروا لهذا الاحراج نتائج أخرى أنتم فى غنى عنها والوطن العزيز كذلك فى غنى عنها».

وتنشر (المؤيد) بعد ذلك خطبة كان الشيخ على يوسف قد القاها فى افتتاح الجمعية العمومية لحزب الاصلاح على المبادئ الدستورية وفيها حاول ان يقدم إجابة على السؤال الذى كان مطروحا على الراى العام المصرى فى ذلك الوقت وهو بماذا نال الدستور؟ وقال الشيخ على يوسف «نحن لن ننال الدستور بالقوة القاهرة لأنها ليست موجودة لدينا وان تكون موجودة فالمصلحة الوطنية تقتضى بعدم استعمالها والانجليز لا يحكمون برشدنا عفوا واميرا لبلاد تمنعه ظروف الأحوال ان يستأثر بالامر ويعطى الدستور والانجليز معارضون كما يعلم ذلك كل ذى حظ من العقل والجواب على هذا السؤال اتنا نسال الدستور بجهادنا المعقول ولكن بحملة وسائل مضمونة إلى بعضها»..<sup>(١)</sup> فمنها أن نسير فى «رقيتنا الأدبى باكثر مما نحن سائرون ولكن يلزمنا مع هذا ان نرى ملكاتنا فى جميع أقوالنا وأعمالنا على المبادئ الدستورية فننظر إلى كل اصلاح جديد من وجهة تلك المبادئ ولا يمكن أن تنموفينا هذه الملكات إلا باحترام الحرية السياسية بيننا كما نحترم المذاهب الدينية لأنها مبنى خلاصتنا الدنيوى كما أن الاديان مبنى الخلاص الأخرى».. ولقد أكد الشيخ على يوسف فى خطبته تلك انه اذا «تناقضت أعمالنا وأقوالنا مع مطالبنا كنا كمن يحاول ان يبنى معالم الدستور وهو يهدم أساسه».

ثم تقدم بافتراضين آخرين لنيل الدستور فى حالة فشل الاقتراح الأول أو إذا طالت مدته: الاقتراح الأول: هو أن ينتظر أعضاء مجلس شورى القوانين جواب الحكومة على طلبى الدستور والمجلس النيابى فان كان بالايجاب وهو مانظنه حاصل والا كان جوابهم الاستقالة من عضوية المجلس».

الاقتراح الثانى: هو ان «يمنتع الشعب مرة واحدة عن أداء الضرائب امتناعا لا يقصد منه العصيان على الحكومة بل الجاؤها إلى الاعتراف بحقوق الأمة الذاتية فإن آخر مبدأ أصولى للأحرار فى البلاد التى رسخ فيها الدستور ارتباط الحقوق بالواجبات ارتباطا متضامنا لانفكاك فيه - فما دام من حق الأمة الطيبعى ان تراقب وكلاءها فى إدارة شؤون البلاد مراقبة عملية نافذة تشخص سلطة اشتراكها مع الحكومة فى إدارة الأعمال فى حقها أيضا أن لاتقوم بواجب دفع المال لوكلائها اذا اغتصبوا ذلك الحق ونصبوا أنفسهم سادة على الشعب».. ولكن الشيخ على يوسف يستدرك مؤكدا أن «هذه الطريقة لاتحتاج إلى صياح فى الطرقات كما أنها بعيدة عن الأعمال الثورية - لأنها طريقة سلبية ولكن وقتها لم يحن خصوصا وأن الحكومة منعطفة الآن نحو الشعب ويعنيها أن تفاهم معه تفاهما معقولا».

(١) المؤيد - ٧ يناير سنة ١٩٠٩.

ويلاحظ أن الشيخ على يوسف في هذا المقال يردد لأول مرة في الصحافة المصرية بل وفي الفكر المصرى الحديث كله المبدأ الدستورى الذى يقول "No Taxation Without Represen-lation" أى لاضريبة بدون تمثيل.

نتنقل بعد ذلك للحديث عن موقف أحمد لطفى السيد من الدستور. ولقد استرعى نظرنا انه على العكس من الموقف المتحفظ الذى اتخذ من مطلب المجلس النيابى كان احمد لطفى السيد من أشد المتحمسين لمطلب الدستور. وتفسير ذلك ان نظرة لطفى السيد للدستور كانت مخالفة لنظرة مصطفى كامل أو الشيخ على يوسف له .. فعلى حين كان مصطفى كامل يتفق مع الشيخ على يوسف فى أن الدستور يعنى انشاء مجلس نيابى مصرى يعبر عن سلطنة الأمة وارادتها (وان اختلفا فى كيفية الحصول على هذا الدستور أو ذلك المجلس النيابى) فان لطفى السيد كان يرى ان «الدستور لا يخلق للأمة نظاما ديمقراطيا من العدم.. ولا يهبها قدرة على مواجهة حكومتها.. لكن الدستور هو تدوين الواقع من قدرة الأمة على امرها واخذها بزماس مصالحها.. فالدستور لا يخلق فى مراقبة الأمة على حكومتها لأن هذا الحق طبيعى صرف موجود فى طبائع الأمم وفى طبائع الحكومات.. ولكن الدستور يحمى كل الصفقات وينميتها ولا يجعل بعد ذلك للاستبداد عليها سبيلا.. الدستور لا يخلق حق مراقبة الأمة على حكومتها.. ولكن الدستور يقر هذا الحق ويجعل الحكومة تعترف به اعترافا صريحا»<sup>(١)</sup> ومن الواضح أن مفهوم لطفى السيد يقترب من المفهوم المعاصر للدستور باعتبار أنه مجموعة القواعد الاساسية التى تبين نظام الحكم فى البلاد وبذلك ليس شرطا ان يشمل الدستور انشاء مجلس نيابى كامل السلطة فالدستور قد يكون موجودا.. والشعب فاقد حق التعبير عن إرادته أو جزء من ارادته ومن هنا يمكن ان نفهم لماذا كان لطفى السيد متحمسا للدستور وفى نفس الوقت غير متحمس لمطلب المجلس النيابى ولماذا كان يرى ان توسيع اختصاصات مجالس المديريات أقرب إلى ظروف مصر ودرجة ترقىها الأدبى والسياسى وان فى وجود الدستور إعترافا وتأكيدا لسلطة مجالس المديريات وانه يخلق امكانية تطوير هذه المجالس حتى تحصل البلاد على المجلس النيابى..<sup>(٢)</sup>

وكان من رأى لطفى السيد كذلك انه «إذا اعوزنا الدستور المكتوب لايعوزنا العمل على قواعد الدستور.. وإذا نقصنا ان يكون لنا نواب يسألون الوزراء عن تصرفهم فى نظاراتهم فلا نعلم ان نسألهم على صفحات جرائدنا وكما تكون الوزارة رهينة ثقة النواب بها كذلك تسعى ان يكون الوزراء رهينة ثقة الرأى العام.. وهو يؤكد ان السير على هذا النحو فى فهم الدستور سوف ترقىها «يختصر لنا الطريق إلى الدستور وكان أخذه من أقرب ما يكون»<sup>(٣)</sup>.

ولقد تصدى لطفى السيد للرد على حجة عدم كفاءة الأمة المصرية لنيل الدستور.. كما رد على الادعاء الذى رافق مهمة عدم الكفاءة وهو القول بان الرأى العام فى مصر لا يطلب الدستور وإنما طلبه محصور فى فئة قليلة من المثقفين المصريين فقال: «لقد كانت هذه الحجة بالامس

(١) الجريدة- ٣٠ أغسطس سنة ١٩٠٨ مقال بعنوان (علينا وعلى الوزارة).

(٢) الجريدة- ٣١ أغسطس سنة ١٩٠٨ - مقال بعنوان (اين نحن من الدستور؟).

(٣) الجريدة- أول سبتمبر سنة ١٩٠٨ مقال بعنوان (الحركة الدستورية فى مصر).

منقوضة بالقضايا العلمية ولكنها أصبحت اليوم منقوضة بالأمثلة الحسية أيضا<sup>(١)</sup> ثم ذكر أن الخديو عباس حلمي الثاني سبق له أن أدلى بتصريحين أكد فيهما أنه يؤمن بأن الحكومة الشخصية صارت حملا ثقيلًا على كتفيه ويرى أن الأمة المصرية متسعدة لقبول رقيها المعنوي الذي أوله بالضرورة أن تكون دستورية وبهذه المناسبة كشف لطفى السيد عن رأيه فيمن له الحق في منح الأمة المصرية الدستور الخديو أم الاحتلال؟ فقال إن منح الدستور من حق الخديو وليس من حق الإنجليز ذلك «أن سموه يعطينا الدستور وذلك حق من حقوقه لا من حقوق الاحتلال.

وعندما أعلن السير «الدون جورست» أن الأمة المصرية ليست أهلا للدستور انبرى لطفى السيد يرد عليه فحذر المصريين من «خطأ الوقوع في إثارة فكرتين خطيرتين يجب على كل مصري أن يحاربهما قياما بواجب الخدمة الوطنية انتصارا للحق»<sup>(٢)</sup>

أما الفكرة الأولى: فهي: «القول بأن الدستور متوقف على شهادة الحكومة المطلقة بأن الأمة كفء له».

أما الفكرة الثانية: فهي القول «بأن السواد الأعظم في مصر هو من العيشة الراضية بحيث لا يريد تغيير الحال من حكومة مطلقة إلى حكومة دستورية».

ثم أخذ لطفى السيد يشرح خطة الإنجليز لمجابهة الحركة الدستورية في مصر فقال انه «إذا عرضت فكرة الدستور طرحوا على بساط البحث كفاءة الأمة للحكم الذاتي أو عدم كفاءتها له وهي مغالطة اخترعوها ليجروا الأمة من حيث لا تشعر الى البحث في كفاءتها من عدم كفاءتها ولا شك ان البحث في ذلك هو تسليم بهذا المبدأ الفاسد مبدأ ان الأمة تحتاج في حريتها العامة أو في نيل الدستور إلى شهادة بالكفاءة «ثم يؤكد لطفى السيد «أن من حق الأمة في الدستور هو كحق الفرد في الحرية وكذلك يكون حرمان الأمة من الدستور كحرمان الفرد من الحرية بحجة أنه زنجي أو أنه لا يقرأ ولا يكتب أو انه لم يتخرج في العلم على الغزالي أو على ابن رشد».

ولقد وقف «الأهرام» بجانب صحف الحزب الوطنى فى المطالبة بالدستور .. وهاجم الذين يقفون ضد تحقيق مطالب الأمة فى الحصول عليه.. فنشر مقالا ذكر فيه أنه «إذا أنكر أمرؤ فضل الدستور وما ينطوى تحته من الحرية المستعجة فى إعطاء الأمة حقوقها فى السيطرة على أرزاقها وأعناقها فهو كمن ينكر أشعة الشمس فى كبد السماء.. وإذا ذم أحد الدستور لبعض عيوب تلازمه فهو كمن يذم البدر لكلف فى مجاه»<sup>(٣)</sup>

وعندما أعلنت بعض الصحف الإنجليزية استنكارها لطلب المصريين للدستور بحجة الأمة المصرية لم تترق بعد إلى الدرجة التى تستحق فيها نيل الدستور.. انبرى «الأهرام» يرد على هذه الأقوال متسائلا: كيف يستنكر الإنجليز علينا طلب الدستور.. أما يذكرون أنهم قالوا بل يقولون دائما أنهم هناك ليعلموا المصرى حكم نفسه؟ فهل اذا طلب المصريون الدستور وهو مايعد به الإنجليز.. يطلبون غير انجاز الوعد»<sup>(٤)</sup>

(١) الجريدة- أول سبتمبر سنة ١٩٠٨ مقال بعنوان (الحركة الدستورية فى مصر).

(٢) الجريدة- ٢ يناير سنة ١٩٠٩.

(٣) الأهرام- ٦ يناير سنة ١٩٠٦.

(٤) الهرام- ٦ مايو سنة ١٩١٠.

وكان «الأهرام» يفرد صفحاته للحدث عن التطور في البلاد الشرقية كتركيا وإيران (١) .. كذلك كثيرا ما كان ينتشر خطابات يبعث بها إليه القراء الذين يطالبون بالدستور .. كذلك فقد كان يحرص على نشر برقيات الحزب الوطنى وبياناته عن الدستور (٢) التى تفيض حماسة (٣) وعندما حاول بعض كتاب صحفية المقطم المشايعين لانجلترا إدعاء أن القانون النظامى الصادر فى يوليو ١٩١٣ والذى انشئت بموجبه الجمعية التشريعية .. ماهو الا «دستور يخطو بمصر خطوة كبيرة نحو الحكم النيابى» (٤) رد عليهم «داود بركات» رئيس تحرير الأهرام فى ذلك الوقت مؤكدا أن القانون النظامى «ليس دستورا ولا رائحة فيه للحكم الدستورى الذى تنشده الأمة المصرية يملء جوارحها وتتغنى به أنديتها بل تتغنى به الامهات فوق مضاجع اطفالهن (٥) «ويستطرد» «داود بركات» مبينا ان الأمة المصرية «طلبت الدستور والأمة المسيطرة عليها أعطت النظام الجديد وهى تقول أنه خلوة الى الدستور فردت الأمة المصرية بأن النظام الجديد أخذ ما كان للامة من السلطة» وينهى داود بركات مقاله حاثا أعضاء الجمعية التشريعية «بأن يسعوا للحصول على الدستور لأن الجمعية التى تضمهم لاتمثل رغبة المصريين وأمانهم وخاصة إذا ثبت لهم باهمال الحكومة لمقترحاتهم انهم لايفضلون فى جمعيتهم مجلس الشورى أو الجمعية العمومية».

ولقد شارك «الأهرام» عقب اعلان تصريح فى ٢٨ فبراير وماتلاه من اعلان الاستقلال .. فى الدعوة الى انتخاب جمعية وطنية تتولى وضع الدستور .. نشر مقالا (لمحمود رشاد) (رئيس محكمة مصر سابقا) طالب فيه: «بالعمل على وضع دستور البلاد من الآن ولكن من المهم جدا أن يستوفى حقه من البحث والتنقيب» (٦).

وأكد الكاتب انه لكى يأتى الدستور المصرى دستورا حقيقيا نابعا من إرادة الأمة يجب عمل انتخابات جديدة بحسب القانون القديم لتكوين هيئة نيابية مؤقتة إلى أن يسن قانون الانتخابات بالطريقة التى سن بها الدستور أى بعد الاطلاع على قوانين الانتخابات فى الدول الأخرى والاستئناس بها» وعلى هذه الهيئة المؤقتة أن تؤدى وظيفتها حالا ولكن لا على دستور معين ولا على قانون مخصص لان الدور الذى نحن فيه هو دور انتقال بل تسترشد فى اعمالها بنور العقل والبصيرة مستمدة كل قوتها من إخلاصها وصدق وطنيتها وقال الكاتب أنه متى صدر الدستور «تنحل الهيئة المذكورة مشكورة على خدمتها ليحل محلها البرلمان الحقيقى المنتخب بحسب قانون الانتخاب الجديد الذى سيكون افتتاحه بأبهة وعظمة بتشريف جلالة الملك».

(١) الأهرام - ٥ مايو سنة ١٩١٠.

(٢) الأهرام - ١٥ ديسمبر سنة ١٩١٠.

(٣) د. ابراهيم عبده - جريدة الأهرام .. تاريخ (مصر) ص ٣٥٣-٣٥٤.

(٤) المقطم ١٤ يناير سنة ١٩١٤.

(٥) الأهرام - ١٧ يناير سنة ١٩١٤ مقال بعنوان (هل نطلب الجمعية التشريعية الدستور؟).

(٦) الأهرام - ٢١ مارس سنة ١٩٢٢ مقال بعنوان (دستور مصر).



وذكر الكاتب أن أول شيء يعرض على البرلمان «قانون الانتخاب والدستور فان أقرهما كما هما صدر الدكريتو الملوكى بتأييدهما وجعلهما أساسا للعمل وإن أدخل البرلمان عليهما بعض تعديلات صدر الأمر الكريم بهما معدلين».

وبعدها بأيام نشر الأهرام مقالا افتتاحيا بعنوان (النظام الدستوري في مصر) ذكر فيه أن هناك اتجاهين في النظر إلى الدستور : اتجاه يرى بان يختار رئيس الوزراء بناء على أمر الملك هيئة من رجال القانون والطوائف لاعداد مشروع الدستور ورأى يقول بضرورة ان تدعى الأمة الى انتخاب جمعية وطنية تضع هذا النظام الدستوري الذى تجرى الانتخابات على سته- وقد أعلن الأهرام موقفه من كلا الاتجاهين حيث أكد أن «الفرق بين الحالتين هو أن الدستور فى الحالة الاولى يعد نظريا منحة من ولى الامر لامته بيد أنه فى الحالة الثانية يعد مستمدا من الأمة مباشرة» (١)

وبعد تشكيل لجنة الدستور.. تعرض الأهرام لجوانب كثيرة من عملها.. وكان أهم مقال نشره فى تلك الفترة.. مقال قام فيه الأهرام بتقييم مشروع الدستور وانتهى من هذا التقييم إلى: «أنه الدستور المشوه.. إنه الدستور المسوخ وانه الدستور الذى لايعطى للنواب سلطة الجمعية التشريعية» (٢) وإلى أن: «هذه البلاد تطلب لنفسها دستورا وتطالب لنفسها حكما دستوريا.. فما دام هذا الدستور ناقصا ومادام الحكم الدستوري غير كامل فليس بالامكان اسكات الشعب بالنصوص والألفاظ دون بلوغ أمانيه.. ثم تستطرد الصحيفة مؤكدة انهم عندما يعطون الأمة دستورا ناقصا كان مآل ذلك ونتيجته أنهم يكرهون الأمة على أن تجمع قواها مرة أخرى حتى تصل إلى الدستور الذى لا يمكن ان يكون له وجود ولا يمكن دستورا إلا اذا كان اوله وآخره سلطة الأمة».

وتختتم الصحيفة مقالها محذرة بأن: «هذا الدستور الرجعى ليس فى مصلحة أحد والذين يدافعون عنه لا يخدمون أحدا بل هم على ضد ذلك يعرضون «البلاد للمتاعب والأخطار».

وعندما صدر الدستور فى ١٩ أبريل سنة ١٩٢٣ نشر (محمود عزمى) سلسلة مقالات فى «الأهرام» بعنوان (رأى فى الدستور) تعرض فيها لنقد الدستور، فأكد من البداية أن أكثر عيوب الدستور راجعة إلى أصليين اولهما «تعدد الأيدى التى عملت فى الدستور وتنوع الروح التى استوحيتها تلك الأيدى المتعددة» (٣) «وثانيهما أن جميع من عملوا فى الدستور لم يعنوا إلا بنصوص الدساتير الأجنبية التى استأنسوا بها دون ان يفكروا فى مصر فى بعض هذه النصوص وتأثير العمل البريطانى فيها حتى أصبح بعضها غير معمول وأصبح البعض الآخر محل تحايل من جانب البرلمانات للهروب من معقله».

ويستطرد الكاتب فى تسجيل عيوب الدستور مبتدئا بموقف الدستور من حرية الصحافة فيذكر «أن الدستور المصرى أقر حريات المصريين العامة منها والخاصة ونصت المادة الخامسة عشرة

(١) الأهرام- ٣٠ مارس سنة ١٩٢٢ مقال بعنوان (النظام الدستوري فى مصر).

(٢) الأهرام- ٢ مارس سنة ١٩٢٣ مقال بعنوان (مشكلة الدستور هل هى موجودة .. فإن وجدت ماذا تكون نتيجتها).

(٣) الأهرام- ٢٣ أبريل سنة ١٩٢٣ مقال بعنوان (رأى فى الدستور)

من مواده على أن الصحافة حرة في حدود القانون ولكن الدستور خرج لنا بذيل للمادة ولعل هذا الذيل من سيئات التعديلات النسبية..<sup>(١)</sup> جاء فيه إلا إذا كان ذلك ضروريا لوقاية النظام الاجتماعي - هذا الاستثناء يبطل مفعول الحرية الصحفية تماما ويخضع الصحافة المصرية في العهد الدستوري إلى ما كانت خاضعة له في عهد التحكم الفردي تماما.

ويشرح معنى حملة (وقاية النظام الاجتماعي) فيؤكد أن هذه الوقاية معناها الحيلولة دون دخول مبادئ المذاهب الضارة بالافراد والجماعات كمذاهب الاشتراكية والبلشفية مثلا.. لكن من يضمن لنا هذا التفسير الذي لا يفهم سواه «كل عقل مستنير؟ ومن يضمن لنا استمرار هذا التفسير؟ ومن يضمن لنا إذا ما أُلقت الظروف بوزارة رجعية على مناصات الحكم أن تعتبر مجرد الشرح العلمي لرأى واحد من الفلاسفة الغربيين تهديدا للنظام الاجتماعي بمقدم الوزير على وقف الصحيفة التي نشرته أو إغلاقها إغلاقا».

ثم يتعرض (محمود عزمي) بعد ذلك لحرية الاجتماع في الدستور فيذكر أن «المادة العشرون تقرر حق المصريين جميعا في الاجتماع وهو حق طبيعي واجب تقريره.. ولكن وزارة نسيم باشا أضافت ذيلاً لمشروع المادة كما وضعت اللجنة الثلاثين وهذا الذيل يقول «كما أنه - حكم حرية الاجتماع» لا يقيد أو يمنع أى تدبير يتخذ لوقاية النظام الاجتماعي.. عاد الدستور إلى اصطلاح - النظام الاجتماعي» وهو ذلك الاصطلاح المطاط الذي يتحكم به فى كل شىء وقال لنا الدستور أنه ليس هناك شىء يحول دون اتخاذ السلطة الادارية (أى) تدبير بدعوى وقاية ذلك النظام الذي لا يستطيع أحد أن يحدد أوله من آخره».<sup>(٢)</sup>

ويحذر الكاتب أنه بدعوى هذه الوقاية لما يسمونه نظاما اجتماعيا «يخرجك البوليس من دارك أو دار صاحبك ويفصلك عن إخوانك فى الشارع أو فى الأندية بل ويفتشك على باب الجامعة المصرية وأنت ذاهب الى هذا المعهد العلمى.

ويعترض (محمود عزمي) كذلك على «إشراك الملك مع البرلمان فى السلطة التشريعية فإن ذلك يعنى إخراج له عن الحيدة المقررة وتؤول به إلى ميدان المنازعات الحزبية».<sup>(٣)</sup> ويومىء إلى أن اشراك الملك مع الوزارة فى السلطة التنفيذية تعريض لذاته المصونة أن تكون محل نقد من جانب البرلمان أو تساؤل من جانب الشعب».

ثم يصرخ الكاتب قائلا: «أنا لا أفهم حكمه ولا محلا فى دستورنا المصرى لمادته الرابعة والعشرين التى تقول أن «السلطة التشريعية يتولاها الملك بالاشتراك مع مجلس الشيوخ والنواب».. وللمادة التاسعة والعشرين التى تقول أن السلطة التنفيذية يتولاها الملك فى حدود هذا الدستور».

(١) يقصد بذلك وزارة محمد نسيم باشا.

(٢) الأهرام - ٢٤ أبريل سنة ١٩٢٣ مقال بعنوان (رأى فى الدستور - حرية الاجتماع).

(٣) الأهرام - ٢٧ أبريل سنة ١٩٢٣ مقال بعنوان (رأى فى الدستور السلطات وسلطة الملك).

ولا ينسى محمود عزمى ان يشير إلى أن البرلمان فى أوربا هو وحده الذى «يتولى السلطة التشريعية وأن الوزارة وحدها هى التى تتولى السلطة التنفيذية كما تتولى المحاكم وحدها السلطة القضائية. ومع ذلك فالكتاب يعقد الأمل على أن: «العمل البرلماني سيقضى على المادة الرابعة والعشرين من الدستور بأن تكون مادة عامته ويقضى بأن يعطى معنى (التوقيع) لعبارة التصديق الواردة فى المواد الخامسة والعشرين والرابعة والثلاثين والخامسة والثلاثين.. ويقضى بتنظيم حل مجلس النواب وهو ما تصرح أنه أحد اختصاصات الملك المقسمة يستعلمه كبحا لجماع شهوة الحزبية فى البرلمان.. بحيث لا يكون هذا الحل إلا فى حالات محددة معينة تستلزم بطبيعتها الرجوع إلى الشعب وتحكيمه فى أمر هذه الحالات المحددة المعينة»..

أما (عبدالقادر حمزة) فقد بدأ اهتمامه بقضية الدستور منذ أن كان محررا فى صحيفة (الجريدة) اذ كتب يطالب «بمنح الأمة المصرية دستورا يعترف بسلطة الأمة وإرادتها الحرة (١) وكثيرا ما كان يقارن بين درجة التقدم فى مصر وكل من تركيا وإيران ويتساءل كيف يردا بمصر ألا تلج فى طلب الدستور وهى ترى الأمة الفارسية، والأمة التركية قد أخذتا وهى التى قامت لأجله على قدم وساق منذ ثمانية وعشرين عاما وأخذته فعلا ثم جاء الاحتلال البريطانى وحرّمها منه (٢).

ولكن موقف (عبدالقادر حمزه) من مطالب الدستور سرعان ما أصابه الفتور بعد ان تولى رئاسة تحرير صحيفة (الأهالى) التى صدرت بالاسكندرية تحت رعاية محمد سعيد باشا رئيس الوزراء (١٩١٠-١٩١٤).. فلم تذهب مطالب عبدالقادر حمزه فى ذلك الوقت الى أبعد من الحصول على الحكم الذاتى للمصريين (٣) وهو مطلب ينحصر فى هدفين:

الاول: «أن يحل المصريون محل الانجليز فى الوظائف الكبرى بحيث لا يصبح المصريون محكومين بالمفتش الانجليزى أو المستشار الانجليزى ولكن برؤساء من جنسهم» (٤).

الثانى: «أن تتوسع الهيئات التشريعية التى أقامها الاحتلال فى اكتساب حقوق دستورية جديدة كلما وسعها ذلك».

ولكن موقف عبدالقادر حمزة سرعان ما أصابه تغير ثالث.. اذ أصبح من أشد المتحمسين لقضية الدستور وخاصة بعد اندلاع ثورة سنة ١٩١٩.. وانضمامه إلى الوفد واصداره لصحيفة البلاغ فى ٢٨ يناير سنة ١٩٢٣ وهى الفترة التى يمكننا أن نعتبرها بحق فترة انتعاش الدستور (٥).

(١) الجريدة- ٧ أبريل سنة ١٩١٠ (الأمة والدستور).

(٢) الجريدة- ٢٤ أبريل سنة ١٩١٠ (الدستور أيضا).

(٣) د. عبد اللطيف حمزه- ادب المقالة الصحفية فى مصر- الجزء الثامن- (عبدالقادر حمزة) الطبعة الاولى- القاهرة - ١٩٦٣- ص ١٧٦.

(٤) الأهالى- ٢٦ فبراير سنة ١٩١٤ مقال بعنوان (الحكم الذاتى)

(٥) د. عبد اللطيف حمزه- أدب المقالة الصحفية فى مصر- الجزء الثامن ص ١٧٥.

ولم يتح لنا الحصول على رأى عبدالقادر حمزة فى نص الدستور المصرى.. ذلك أن الدستور صدر فى ١٩ أبريل سنة ١٩٢٣ بينما كان قد صدر قرار بتعطيل «البلاغ» بأمر السلطة العسكرية منذ ٦ مارس ١٩٢٣ حتى ٩ يونيو سنة ١٩٢٣ ومع ذلك فإن وجهة نظر عبدالقادر حمزة كانت تتفق مع وجهة نظر الوفد الذى كان يرى أن الدستور لم يكن يخلو من عيوب كثيرة.<sup>(١)</sup>

ورغم ذلك فقد تحول موقف (عبدالقادر حمزه) بعد أن تولى الوفد الوزارة وفاز بأغلبية البرلمان فصار من المدافعين عن الدستور ثم ازداد حماسة فى الدفاع عن هذا الدستور بعد أن استقالت وزارة سعد عقب مقتل السردار وبدأت وزارة زيور باشا تتلاعب بالدستور فتغير من قانون الانتخاب وتحل البرلمان.. فهو يعلن أن: «وزارة زيور التى اعتدت على الدستور لا تمثل رايا فى البلد ولا حزبا له قيمة الاحزاب السايسية وليست تقوم على ظل من ثقة الأمة وقد أنكر النواب والشيوخ وأنكر الرأى العام معهم كل اعمالها وهاجم الوزارة لانها خالفت الدستور عندما «ألغت مجلس النواب وعندما ألغت قانون الانتخاب وعندما تحاول أن تسن تشريعا جديدا فى أهم الحقوق الوطنية.. وتلك لعمري هى الجرأة بعينها وما اقسمت عليها وزارة زيور باشا إلا وهى معتقدة أن فى استطاعتها مدامت معتمدة على الحكومة الانجليزية أن تعبت بمصر والمصريين».

ثم يتحدث عبدالقادر حمزة عن اغتصاب الوزارة لحق من الحقوق التى منحها الدستور لمجلس النواب وهو سلطة التشريع فيقول: «فاما اغتصابها لنفسها سلطة التشريع خلافا لما يقضى به الدستور فإن المادة ٢٤ من الدستور تقول «السلطة التشريعية يتولاها الملك بالاشتراك مع مجلس الشيوخ والنواب»<sup>(٢)</sup> ولكن الوزارة استصدرت بغير اشتراك مجلس الشيوخ والنواب مرسومين تشريعيين قضت فى واحد منهما بطلان انتخاب المندوبين الثلاثينين وأمرت بانتخاب مندوبين آخرين وقضت فى الثانى بإهمال قانون الانتخاب الجديد وتنفيذ القانون القديم ثم زادت فأخرجت مزيجا من القانونين وأمرت بالعمل به».

ويعلن عبدالقادر حمزة أن الدستور «ليس حبرا يخط على الورق ثم يحفظ فى السجلات وإنما هو نظام بوضع وينفذ وليست المحافظة على الدستور أن تدعى أنك مغرم به وتغار عليه بينما أنت تعبت به وتهدمه وإنما هى أن تخلص فى تنفيذه وفى الحرص على قواعده».<sup>(٣)</sup>

ويشير الكاتب إلى خطورة العبث بالدستور فى هذه الفترة الحاسمة والحساسة التى تمر بها البلاد المصرية محذرا أنه «قد يكون عبث الحكومة بالدستور قليل الخطر فى بلاد تأصل الحكم النيابى فيها لأن هذا العبث يأتى مخالفا للتقاليد الموروثة فيكون شاذا لا ينشئ فيها سابقة تتبع».. أما فى البلاد الحديثة العهد بالدستور والخارجة من حكم فردى استبدادى مختلط به حكم الأجنبى.. فإن العبث فيها بالدستور شديد الخطر لأنه من جهة ينشئ سابقة ضارة ومن جهة

(١) البلاغ - ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٢٤.

(٢) البلاغ - ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٢٤ (اغتصاب لسلطة التشريع - ومخالفة للدستور فى أهم (حكامه).

(٣) البلاغ - ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٢٤ (أين الدستور؟).

أخرى يجد أمامه أمة لم تتطبع بعد على الحكم الدستوري وتقاليده فقلما ترده.. وترد صاحبه.. ومن هنا يمكن أن ينزل الدستور في مهواة الضياع ويمكن أن يدرجه مضيعوه في قبره وهم يشيعونه دائما بدعوى الغرام به والحرص عليه والعمل بقواعده.

ورغم ندرة ماكتبه أمين الرافعي عن الدستور في صحف «اللواء» و«الشعب».. إلا أن موضوع الدستور صار القضية الرئيسية التي كرس أمين الرافعي قلمه للتحديث عنهما في صحيفة (الأخبار) في الفترة التي أعقبت تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ حتى نهاية فترة البحث عام ١٩٢٤.. فهو لم يكن يترك في تلك الفترة فرصة أو مناسبة تطرح فيها قضية الدستور من قريب أو بعيد إلا وأدلى فيها برأى.. ولقد ساعدته دراسته وثقافته القانونية على أن يلعب دور المفكر والباحث القانوني الدستوري في تلك الفترة لدرجة أن سعد زغلول اعترف بسلامة أكثر الانتقادات التي وجهها أمين الرافعي لمشرق الدستور.. وأشاد بجهد الرافعي في الكشف عن عيوب الدستور علنا في رسالة بعث بها من اكس لبيان في ١١ مايو سنة ١٩٢٣ إلى طاهر بك اللوزي<sup>(١)</sup>.. رغم الخلاف السياسي بين الاثنين.. وقد بدأت مساهمة أمين الرافعي الفعلية في قضية الدستور عقب تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ إذ ترددت وقتها إشاعات عن تفكير الحكومة في تشكيل لجنة لوضع الدستور.. فبادر أمين الرافعي إلى الاعتراض على هذه الفكرة مناديا في الوقت نفسه بضرورة انتخاب جمعية وطنية تتولى مهمة وضع الدستور، وكان مما كتبه في هذا الشأن قوله: «فما الذي يضمن لنا مدامت الأمة ستظل بعيدة عن تشريع الدستور أن لا يكون في النظام الحديث كثير من الأمور المحرم بحثها ومناقشتها ثم يقولون لنا بعد ذلك أن في البلاد حكما دستوريا ومجلسا نيابيا ومسؤولية وزارية»<sup>(٢)</sup>.

فلقد كان من رأى أمين الرافعي أن الحياة الدستورية «لا تتحقق إلا إذا كان للأمة وحدها حق تقنين دستورها كما هو الواقع في البلاد الأخرى».

وعلى ضوء تلك الحقيقة فإن الرافعي يعتقد أن «القاعدة القانونية الطبيعية تقضي بأن تجرى الانتخابات أولا لعقد جمعية وطنية هي التي تنفرد بوضع دستور شامل للبلاد ويحدد سلطة الهيئات المختلفة ويضع قانون الانتخابات للبرلمان الجديد ومتى انتهت الجمعية من هذه المهمة انفضت على أن تبدأ الانتخابات وفقا للقانون الذي وضعته وتكون نتيجة الانتخابات إبعاد هيئة برلمانية تحكم البلاد على قاعدة الدستور الذي وضعته الأمة نفسها».

وما أن تنتهي لجنة الدستور من صياغة مشروعها للدستور وتقدمه لمجلس الوزراء حتى يبدأ أمين الرافعي سلسلة من المقالات يقيم فيها مشروع الدستور. وكانت القضية الأولى التي تعرض لها في هذه المقالات هي مدى فائدة<sup>(٣)</sup> وجود مجلس الشيوخ فهذا المجلس في رأيه «ليس له أية

(١) الأخبار- ٢٥ مايو سنة ١٩٢٣ (سعد باشا والدستور)

(٢) الأخبار- ١٤ مارس سنة ١٩٢٢ مقال بعنوان (من الذي يملك وضع الدستور؟!).

(٣) الأخبار- ٨ أكتوبر سنة ١٩٢٢ (حول مشروع الدستور... مجلس الشيوخ).

فائدة.. أما اذا كان لا بد من وجوده «فلا مندوحة عن أن يكون جميع أعضائه منتخبين لأن مبدأ التعيين ضار اذ من نتيجته ان يصبح المجلس آلة في يد الوزارة تعطل به قرارات مجلس النواب ولا سيما أن اللجنة ساوت في الحقوق بين المجلسين».

ويوالى الرافعى بعد ذلك كشفه لثغرات مشروع الدستور.. فيؤكد منذ البداية أن هناك حقيقة لاسبيل إلى إنكارها وهى أن مشروع الدستور الذى قدمته اللجنة للحكومة يختلف اختلافا كبيرا من المشرع الأصلى الذى وضعت اللجنة الفرعية.<sup>(١)</sup>

ويبين الكاتب أوجه هذا الاختلاف فيذكر أن المشروع الأول كان قائما على «مجموعة من المبادئ الرجعية العتيقة الهادمة لسلطة الأمة».. أما المشروع الأخير فإنه تخلص من طائفة من هذه المبادئ السقيمة ولكن هذا التخلص لم يكن مع الأسف شاملا اذ لا تزال فى أحكام المشروع بعض المبادئ الرجعية التى لاتتفق مع النظريات الحديثة والتى تقف عقبة فى سبيل تحقيق مظاهر سلطة الأمة وإرادتها بصفة كاملة».

ثم يأخذ الكاتب على الحكومة «استثناها بوضع الدستور مما يعد افتئاتا صريحا على حقوق البلاد.. ويلوم لجنة الدستور على مشاركتها الحكومة فى الافتئات على حقوق الأمة وقد كان جدير بها أن تجعل أول كلمة فى تقديرها أنها وضعت المشروع وانها تطالب الحكومة أن لاتلبث فيه منفردة بل يجب عليها ان تعقد جمعية وطنية منتخبة يكون لها القول الفصل فى هذا المشروع..

وهاجم أمين الرافعى ماجاء فى مشروع الدستور من «حذف وصف السيادة عن مصر بانها تامة وجعلت النص - مصر دولة مستقلة سيدة حرة مستقلة - بعد أن كانت مصر دولة تامة السيادة حرة مستقلة - حتى لا تسد الطريق للوصول إلى اتفاق مع إنجلترا».<sup>(٢)</sup>

كذلك فإنه ينتقد عدم شمول الدستور للسودان «اذ جاء بمادته (١٤٥) إن احكامه تجرى على المملكة المصرية جميعها عدا السودان .. فمع أنه جزء منها يقرر نظام الحكم فيه بقانون خاص - فالكاتب يرى أن «ذلك يترك يد الانجليز مطلقة فى حكم السودان».<sup>(٣)</sup>

كذلك هاجم الرافعى النص فى مشروع الدستور على أن يكون الانتخاب لمجلس النواب من درجتين فهو يرى «أن أعظم قاعدة دستورية دل العلم على صلاحها هى أن يكون مجلس النواب وليد للانتخاب المباشر فهل احترمت اللجنة هذه القاعدة وحاولت تثبيت تلك التقاليد فى مشروعها؟ كلا بل أحدث أولا وأخيرا على ان يكون مجلس النواب الممثل للأمة وليد انتخاب درجتين فالناخبون لا ينتخبون نواب البلاد مباشرة بل إنهم ينتخبون مندوبين وهؤلاء المندوبون هم الذين يعهد إليهم انتخاب أعضاء مجلس النواب وتلك قاعدة عتيقة لايجرؤ واحد من الاعضاء

(١) الأخبار - ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٢٢ (حول مشروع الدستور)

(٢) الأخبار - ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٢٢ (حول مشروع الدستور)

(٣) الأخبار - ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٢٢ (حول مشروع الدستور)

ان يصفها بأنها من الأنظمة الحديثة ولا أن العمل دل على صلاحها فضلا عن أنها لا تؤدي إلى تمثيل الأمة تمثيلا صحيحا» (١)

وبعد صدور الدستور في ١٩ أبريل سنة ١٩٢٣ يبدأ أمين الرافعي سلسلة أخرى من المقالات تحت عنوان (ملاحظاتنا على الدستور) يستهلها مقررًا أن معنى إصدار الدستور «أن يسرى مفعوله في الحال وأن يتمتع الناس بما تضمنه من حقوق وحريات وأن يستفيد الشعب من الضمانات الواردة فيه للدفاع عن حريته وللمطالبة بتطبيق المبادئ التي اشتمل عليها حتى لو كانت ناقصة» (٢)

ويذكر الرافعي أن «المادة الثالثة والستين بعد المائة نصت على ما يأتي: (يعمل بهذا الدستور من تاريخ انعقاد البرلمان)، ومعنى ذلك أن الدستور الذي أطلقت له المدافع ورفعت الرايات سيبقى حبرا على ورق حتى ينعقد البرلمان.. ومتى ينعقد هذا البرلمان حتى يعمل بالدستور ذلك في علم الغيب ولم يؤذن لأحد بالاطلاع عليه».

ويأخذ أمين الرافعي في إحصاء عيوب الدستور فيجمع منها ٢١ عيبا نذكر منها أهمها:  
أولاً: إن أكبر عيب اشتمل عليه الدستور هو ما نص عليه بشأن السودان فقد بينا ان المادتين ١٥٩، ١٩٠ اخرجتا السودان من المملكة المصرية واقتصرتا على الإشارة إلى حقوق موجودة تكون لمصر في السودان ويبقى تحديدها تحت رحمة المفاوضة مع الانجليز. (٣)  
ثانياً: لم يبين الدستور حدود الدولة المصرية وهذا خطأ سبق أن اشترك فيه مشروع لجنة الثلاثين مع مشروع الوزارة النسيية.

ثالثاً: إن «الدستور يصف مصر بأنها دولة ذات سيادة وهي حرة مستقلة ملكها لا يتجزأ ولا ينزل عن شيء منه وحكومتها ملكية وراثية وشكلها نيابي.. وعيب هذا النص وصف الدولة المصرية بغير الوصف الذي اصططلحت عليه الأمة وهو «أن مصر دولة مستقلة استقبالا تاما» ولكن اللجنة رأت- وتابعتها الحكومة في رأيها- أن لا تتعدى في الوصف ما ورد في تصريح ٢٨ فبراير فقد نص هذا التصريح على ان الحماية البريطانية على مصر قد انتهت وتكون مصر دولة مستقلة ذات سيادة».

رابعاً: انتهت اللجنة بوضع النص الآتي وهو «الصحافة حرة في حدود القانون والرقابة على الصحف محظورة وإنذار الصحف أو وقفها أو إلغاؤها بالطريق الإداري محظور كذلك» وقد كان من المنتظر أن يبقى هذا النص على حاله حتى يكون من مظاهر العهد الدستوري تمتع الصحافة بالحرية التي تقررت لها في الدساتير الأخرى ولذا يعتبران الوزارة لامتيل إلى حرية الصحافة ولذلك رأت أن تحتفظ لنفسها بسلاح خطر تستخدمه عند الاقتضاء للتخلص من الصحافة التي تعارضها فأضافت إلى المادة التي وضعتها لجنة الثلاثين فقرة تهدم ماتضمنته من مبدأ حرية الصحافة فبعد أن قالت المادة

(١) الأخبار- ٦ نوفمبر سنة ١٩٢٢ (حول الدستور).

(٢) الأخبار- ٢٢ أبريل سنة ١٩٢٣ (ملاحظاتنا على الدستور).

(٣) الأخبار- ٢٣ أبريل سنة ١٩٢٣ (ملاحظاتنا على الدستور).

١٥ أن إنذار الصحف أو إلغاؤها بالطريق الإدارى محظور كذلك.. لم تقف عند ذلك بل أضافت إليها ما يمسحها شر مسح اذ قالت «إلا إنما كان ذلك ضروريا لوقاية النظام الاجتماعى» فهذه العبارة سلبت الصحافة حريتها الصحفية لأن محاسبة الصحف بالطريق الإدارى إنما هو قضاء على الصحافة وحريتها».

خامسا: لقد جاء فى المادة العشرين- للمصريين حق الاجتماع فى هدوء وسكينة غير حاملين سلاحا وليس لأحد من رجال البوليس أن يحضر اجتماعا منهم ولا حاجة إلى إشعاره.. لكن هذا الحكم لايجرى على الاجتماعات العامة فإنها خاضعة لأحكام القانون.. ولقد اتبعت الحكمة مع هذا النص الخاص بحرية الاجتماع نفس الطريقة التى اتبعتها فى حرية الصحافة إذ أنها أضافت إلى أصل المادة فقرة طعنت بها حرية الاجتماع طعنة ممتة لأنها بعد أن أشارت إلى حق المصريين فى الاجتماع كما ورد فى نص لجنة الثلاثين «جعلت هذا الحق لغوا بقولها كما أنه- هذا الحكم- لايقيد أو يمنع أى تدبير يتخذ لوقاية النظام الاجتماعى «وهى نفس العبارة المشؤمة الموجودة فى المادة الخاصة بحرية الصحافة ونتيجة هذا التعديل أن السلطة التنفيذية أصبحت فى حل من عدم احترام حرية الاجتماع كما أصبح فى استطاعها العبث بحكم دستور الذى ضمن للمصريين حق الاجتماع وبالقواعد التى سنتظم طريقة استعماله بمقتضى القانون.(١)

سادسا: احتفظ دستور ١٩ أبريل بالقاعدة الرجعية الخاصة بتصديق الملك على القوانين وهى تلك القاعدة التى سقطت سقوطا تاما باهمال العمل بها فى إنجلترا كما ولدت ميتة فى فرنسا على أن عيب هذه القاعد لم يقف عند رجعتها بل أن الدستور الحالى بالغ فى زيادة قيودها باشتراطه أن مشروع القانون الذى لا يصدق عليه الملك ويرده إلى البرلمان فى مدى شهر لا يمكن أن ينفذ إلا اذا وافق عليه البرلمان مرة ثانية بأغلبية ثلثى أعضاء كل من المجلسين .. ولا يخفى أن هذه العيوب كانت واردة فى لجنة الثلاثين ومشروع الوزارة النسبية من فرق واحد وهو أن المشروع الأول كان يقضى بأن الأعضاء المعينين فى مجلس الشيوخ لايزيدون عن الثلاثين أى أنهم يكونون دائما أقل من الثلث وبذلك يكون تصويت الأعضاء المنتخبين فى هذا المجلس للمرة الثانية كافيا لصدور القانون متى وافقت عليه أغلبية الثلثين فى مجلس النواب.. أما حسب الدستور الحالى الذى يجعل الأعضاء المعينين فى مجلس الشيوخ بمقدار الخمسين فإن تصويت جميع الأعضاء المنتخبين لا يكفى لنفاذ القانون حتى لو وافق عليه مجلس النواب بالاجماع فى المرة الثانية لان اشتراط اغلبية الثلثين لايتوفر الا باشتراك فريق من الأعضاء المعينين فاذا امتنعوا لم يصدر القانون وتأجل النظر فيه عاما آخر فيتبين من هذا أن اقتباس حكم من أحكام مشروع الوزارة النسبية زاد قاعدة التصديق تقييدا فوق قيودها السابقة».(٢)

(١) الأخبار- ٢٤ أبريل سنة ١٩٢٣- (ملاحظاتنا على الدستور).

(٢) الأخبار- ٢٤ أبريل سنة ١٩٢٣.



سابعاً: فى مسألة التشريع بين أدوار انعقاد البرلمان يؤكد أمين الرافعى أن الدستور أخذ بقاعدة لها عيبان: الأول «التوسع فى بيان الأحوال التى يباح فيها إصدار مراسيم لها قوة القانون فى أثناء عدم انعقاد البرلمان وقد كان مشروع لجنة الثلاثين أكثر احتياطاً.. والثانى: «عدم تحديد الميعاد الذى يجب أن يدعى فيه البرلمان إلى اجتماع غير عادى لعرض هذه المراسيم عليه وقد لاحظنا فى هذه النقطة أن مشروع الوزارة التسمية المسوخ كان ينص على دعوة البرلمان إلى الاجتماع فى الحال ولكن دستور ١٩ أبريل حذف هذا القيد.. فهور من هذه الوجهة أكثر رجعية حتى من المشروع السابق.

تتبعاً: قضى الدستور الحالى «بأن إنشاء الرتب والنياشين ومنحها يعد حقاً من حقوق الملك غير مقيد بأحكام القوانين فى حين أن مشروع لجنة الثلاثين كان ينص صراحة على أن هذا الحق مقيد بالقوانين التى يضعها البرلمان».

تاسعاً: فى مسألة الأحكام العرفية يرى الرافعى أن الدستور لم يأخذ بقاعدة مشروع لجنة الثلاثين التى تقضى بأنه عند اعلان الأحكام العرفية فى غير دور الانعقاد يجب دعوة البرلمان ليجتمع فى مدى الثلاثة أيام التالية للإعلان وإنما أخذ بقاعدة الوزارة النسبية المسببة وهى وجوب دعوة البرلمان على وجه السرعة.

عاشراً: يرى الكاتب أن الدستور قد «قضى بأن حق تعيين وعزل الضباط غير خاضع لأحكام القوانين كحق تولية وعزل الموظفين المدنيين وإنما هو حق من حقوق الملك غير مقيد بأى قانون.. وهذا مخالف أيضاً لمشروع لجنة الثلاثين».

حادى عشر: كان مشروع لجنة الثلاثين يحتم على الملك أن يحلف اليمين قبل أن يباشر أمور الحكم «أما الدستور فقد اشتمل نصاً مبهماً بأن جعل حلف اليمين قبل أن يتولى الملك سلطته الدستورية ولا يخفى أن النص الأول هو الذى أخذت به الدساتير الحديثة فضلاً عن أنه لا يمحتمل أى تأويل بخلاف النص الآخر».

ثانى عشر: كان مشروع لجنة الثلاثين ينص بأن يقسم النواب يمين الاخلاص للوطن والملك (الدستورى) ولكن الدستور حذف الوصف بغير حق».

ثالث عشر: كان مشروع لجنة الثلاثين ينص على أن الصلة بين الملك والوزراء تكون راساً بالذات.. ولكن الدستور الحالى حذف هذا النص مع أن هذه القاعدة من القواعد الدستورية العامة التى لا يجوز المساس بها.

رابع عشر: كان مشروع لجنة الثلاثين يقتضى بأن أوامر الملك لا تحل الوزراء وغيرهم من عمال الدولة من المسؤولية.. ولكن الدستور حذف «وغيرهم من عمال الدولة» وقصر المادة على الوزراء ولا يخفى ما فى هذا البتر من حذر.

خامس عشر: أهمل الدستور النص على أنه ليست للملك حقوق غير التى خولت له صراحة بمقتضى الدستور وقد وقعت لجنة الثلاثين فى هذا الإهمال نفسه».

سادس عشر: أخذ الدستور بالنص الممسوخ الوارد في مشروع الوزارة النسبية فيما يتعلق باستجواب الوزراء ففضى بأن المناقشة في الاستجواب لا تجرى قبل ثمانية أيام إلا إذا توافر شرطان وهما حالة الاستعجال وموافقة الوزير في حين أن النص الاصلى للجنة الثلاثين كان يكتفى بتحقيق أحد هذين الشرطين لإباحة المناقشة في الاستجواب قبل ثمانية أيام.

سابع عشر: وأخيرا يؤكد أمين الرافعى أنه على الرغم من هذه العيوب الأساسية العديدة في الدستور «فإنه جعل تنقيح الدستور في حكم المستحيل تقريبا باشتراط تصديق الملك تصديقا مطلقا على كل تنقيح أى أن كل قرار يصدره البرلمان بالتنقيح يكون عرضة للاهمال والتعطيل مادام الملك لا يوافق عليه... وقد أخذ الدستور هذه القاعدة الرجعية المعطلة لسلطة الأمة واراقتها من مشروع الوزارة النسبية».

وقد عاد أمين الرافعى إلى إثارة هذه النقطة الأخيرة بعد انعقاد البرلمان والقاء خطبة العرش اذ لاحظ أنه لم يرد بها ما يشير إلى نية الحكومة الوفدية إلى تعديل بعض النصوص الرجعية في الدستور فقال: «ومن الغريب أن هذا الدستور الذى وصفه الوفد ورئيسه من قبل تولى الحكم بتلك الصفات المعروفة لم ترد عنه فى خطبة العرش كلمة واحدة تشير إلى تعديله.. فالدستور الذى كان رجعيا قبل تأليف الوزارة الجديدة.. أصبح اليوم مرتكزا على المبادئ العصرية كما قال سعد باشا فى خطبة العرش» (١).

وينفرد الدكتور محمد حسنين هيكل دون غيره من الكتاب بالإشادة بمشروع الدستور الذى أعدته لجنة وضع الدستور - فيهاجم منتقدي مشروع الدستور متهمًا إياهم بعدم الصدق والموضوعية وأن المصالح الحزبية هى التى تقف وراء انتقاداتهم وليس مصلحة الوطن... وينكر فى هذا الشأن: «لما تألفت لجنة وضع الدستور قام غير واحد من الكتاب يتهمها بأنها رجعية فى ميولها وانها لا تريد ان تحقق سلطة الأمة تحقيقا كاملا وتطرف بعضهم فى الاتهام فرماها بأنها صنيعة الاحتلال وأنها تريد مسالة الانجليز» (٢). ثم يؤكد الدكتور هيكل أنه على الرغم من هذه الاتهامات القاسية فقد «بدأت اللجنة عملها وجعلت تنقب وتبحث مخلصا لخير البلاد عاملة كل ما فى وسعها لوضع خير دستور يمكن أن يسمى بحق وثيقة السعادة لمصر وهو دستور ليس فى دساتير الأمم المتقدمة مثله كثير.

ويصب الدكتور هيكل جسام غضبه على من يسميهم «الذين لا يعرفون من قواعد الدستور شيئا.. الذين لم يقرأوا فى علوم القانون كتابا يتصدون للنقد الجارح والطعن المر إمعانا فى طريق الخصومة غير ناظرين لمصلحة بلادهم ولا لما يوجهه الانصاف ويقضى به الذوق بل العدل»..

(١) الأخبار - ١٦ مارس سنة ١٩٢٤ مقال بعنوان (حول خطبة العرش - عيد ولا العيد. الدستور اليوم وأمس).

(٢) السياسة - أول نوفمبر سنة ١٩٢٢ (لجنة الدستور).

ثم يذكر أن أعداء الدستور عمدوا إلى انقاص قيمة الدستور في مواضع هم أول من يشعر بأن نقدها لا تبرره أى خصومه سياسية «ويتساءل الدكتور هيكل قائلا» هب أن مشروع الدستور الذى وضعته اللجنة كان ناقصا وهب أن الأمة فى طموحها إلى الحرية تريد إرادة صادقة ان تحصل منها على نصيب أكثر مما تقرر فى المشروع فإن ذلك من أيسر الأمور.. إذ نص على حق البرلمان فى التنقيح وترك له أن يعدل فى مواد الدستور بما يتفق ومصلحة الأمة».

ويعلن الكاتب رأيه الصريح فى الدستور- كما هو قائم- فيقول: «بل نقول ونحن نعلم الأسباب التى أدت إلى وضع هذه النصوص ان ليس اليوم فى الامكان ابداع مما كان «والجدير بالذكر أنه بعد صدور الدستور كتب الدكتور هيكل سلسلة من المقالات ناقش فيها الدستور ولكنه كان فى هذه المرة أميل إلى الهجوم على الدستور من الدفاع عنه.. وتفسير ذلك أن الدكتور هيكل كان يدافع عن مشروع الدستور الذى وضعته لجنة الدستور والتى كان أغلب أعضائها من الأحرار الدستوريين.. ولكن وزارة محمد نسيم باشا ادخلت تعديلات كثيرة على مشروع الدستور قبل اصداره لم تلاق هوى عند الأحرار الدستوريين.. لذلك فقد بدأ الدكتور هيكل سلسلة مقالاته التى اختار لها عنوان (أوجه النقص فى الدستور) متقددا للحكومة «بما نقضت عن حدود لجنة الثلاثين فى غير موضع ونود أن نبين مافى هذا النقص من مناقضة الروح الدستورية الصحيحة مناقضة جعلت بين بعض هذه النصوص والبعض الآخر تضاريا غير معقول».(١)

ثم يبدأ الكاتب فى استعراض أوجه النقص فى الدستور فيركز على عيبين رئيسيين: الأول يتعلق بالمادة الخاصة بالصحافة فقد أعلن أن «المادة الخاصة بحرية الصحافة فى مشروع الثلاثين تجرى بما يلي- الصحافة حرة فى حدود القانون والرقابة على الصحف محظورة وانذار الصحف أو وقفها أو الغاؤها بالطريق الادارى محظور كذلك- وقد أقر الدستور هذا النص ولكنه اضاف إليه- إلا اذا كان ذلك ضروريا لوقاية النظام الاجتماعى- هذا الجزء المضاف جزء مبهم فليس من الهين تحديد مايكون ضروريا لوقاية النظام الاجتماعى ومايكون النظام الاجتماعى غير معرض للتأثر به وفى مقدور الحكومة والمعتمدة على أن الأكثرية التى تؤيدها لن تتخلى عنها لأنها أقفلت جريدة من الجرائد وفى هذا المساس بأقدس الحقوق التى قررها الدستور «أما العيب الثانى الذى رآه الدكتور هيكل فى الدستور فيتعلق بحرية الاجتماع فقد نصت المادة ٢٠ من مشروع لجنة الثلاثين على أن «للمصريين حق الاجتماع فى هدوء وسكينة غير حاملين سلاحا وليس لأحد من رجال البوليس أن يحضر اجتماعهم ولا حاجة بهم إلى إشعاره لكن هذا الحكم لايجرى على الاجتماعات العامة فإنها خاضعة لأحكام القانون.. وقد أضيف فى الدستور الى هذا النص العبارة الآتية: «..كما أنه لايقيد أو يمنع أى تدبير يتخذ لوقاية النظام الاجتماعى».

(١) السياسة - ٢٢ أبريل سنة ١٩٢٣ (أوجه النقص فى الدستور).

ويعلق الدكتور هيكل على هذه الإضافة إلى نص القانون فيؤكد أن «هذه التدابير التي يصح أن تتخذ قد تكون تدابير قمع تعتدى السلطة التنفيذية بها على كافة الحريات التي قررها الدستور شأن الاجتماع.. مع أن النظام الاجتماعي لا يكون بحيث يتأثر بهذا الاجتماع.. ولكن اعتماد الحكومة على أكثرية في البرلمان يغرى بها إلى سوء استعمال هذا الحق وسوء استعمال هذا الحق من شأنه أن يبعث القلق إلى النفوس.. وقلق النفوس يورث الاضطراب والذساتير إنما توضح لضمان النظام والطمأنينة ولتلافى كل سبب يمكن أن يؤدي إلى القلق أو الاضطراب».

\* \* \*

## الفصل العشرون

الصحافة المصرية..  
والحياة الحزبية



لم تعرف مصر الحياة الحزبية بالمفهوم الليبرالي<sup>(١)</sup>..إلا في عام ١٩٠٧.. حيث شهد النصف الثاني من ذلك العام قيام الأحزاب الثلاثة الكبيرة:

حزب الأمة<sup>(٢)</sup> (٢١ سبتمبر سنة ١٩٠٧) الذي تزعمه محمود باشا سليمان .. وتولى وكرالته حسن باشا عبد الرازق وعلى شعراوي باشا وكان احمد لطفى السيد السكرتير الدائم للحزب.. وحزب الاصلاح على المبادئ الدستورية<sup>(٣)</sup>.. (٩ ديسبر سنة ١٩٠٧) برئاسة الشيخ على

(١) الحزب.. فى المفهوم الليبرالى يعنى جمعية يتم تنظيمها على أساس تحقيق مبدأ معين أو بلوغ سياسة بعينها عن طريق السيطرة على الحكم - بالانتخابات وبالوسائل الدستورية - Maciver, R.M. The Modern State- London-1968,p.369 ولايعترف هذا المفهوم بالتكوينات الحزبية الأخرى التى تحاول الوصول إلى السلطة من غير طريق الانتخاب كما أنه لايعترف بنظام الحزب الواحد- وهذا المفهوم عكس المفهوم الاشتراكى للحزب حيث يعنى مجموعة من الناس تربطها مصالح اقتصادية فى المحل الأول وتحاول أن تصل إلى الحكم عن طريق الاصلاح أو الثورة(موسوعة الهلال الاشتراكية- دار الهلال- القاهرة- الطبعة الأولى - ١٩٦٨-ص١٩٤-١٩٥) كذلك يختلف هذا المفهوم عن المفهوم الماركسى للحزب حيث هو طليعة الطبقة العاملة (ستالين- اسس اللينينية-ص١٣٣).. فإذا نظرنا إلى الحزب بالمفهوم الليبرالى فسوف نستبعد على الفور كل ألوان النشاط الحزبى التى عرفتها مصر قبل عام ١٩٠٧.. فالمعروف أن مصر عرفت قبل هذا التاريخ ألوانا من النشاط الحزبى مثل (الحزب الوطنى) الذى نشأ نشأة شبه سرية عام ١٨٧٩ ثم لعب دورا رئيسيا أثناء الثورة العربية حيث تولى احمد عرابى زعامته بعد أن امتزج جناحه المدنى بجناحه العسكرى ثم تسلم هذا الحزب الحكم فى الأشهر الأخيرة التى سبقت الاحتلال البريطانى - Hourani-Albert-Arabic Thought in the Lib- 1970,pp.194-eral age-Oxford University Press-London الذى اسمه الخديو عباس حلمى الثانى عام ١٨٩٤ والذى كان يضم مصطفى كامل وأحمد لطفى السيد والشيخ على يوسف وغيرهم.. كذلك عرفت مصر ألوانا من الجمعيات السياسية السرية كتلك التى قامت عقب الاحتلال البريطانى مباشرة والتى كانت مسئولة عن منشورات التهديد التى وصلت للخديو توفيق ورجال حكومته.

(٢) ظهر حزب الأمة أولا كشركة اصدرت صحيفة الجريدة فى ٩ مارس سنة ١٩٠٧ وكانت هذه أول مرة فى الصحافة المصرية تتكون فيها شركة لإصدار صحيفة فقد كان المؤلف أن تكون الصحيفة ملكا لفرد (الدكتور حسين فوزى النجار- الجريدة تاريخ وفن- ص٣٤٧) ثم تحولت الشركة إلى حزب سياسى فى ٢١ سبتمبر سنة ١٩٠٧- وقد كان اللور كرومر يسمى رجال هذا الحزب باتباع الشيخ محمد عبده وكذلك سماهم رشيد رضا (محمد رشيد رضا- تاريخ الاستاذ الامام- ص٥٩١) ولقد تكون الحزب من عنصرين: عنصر المفكرين من ذوى العقائد الحرة وعنصر الاعيان من اصحاب الملاك الواسعة (محمد شفيق غربال- تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية- الجزء الأول- ص٢٨ ود. عبد العظيم رمضان، تطور الحركة الوطنية المصرية- ص٤١-٤٢) وكان اعضاء الحزب يسعون للحصول على الدستور لانه يتيح لهم فرصة الاشتراك فى الحكم والحد من سلطة الخديوية (د. عبدالعزيز الرفاعى- ثورة مصر ١٩١٩- الطبعة الأولى- دار الكاتب العربى- القاهرة- ١٩٦٦- ص٢٣) وكذلك كانوا يطلبون الاستقلال عن تركيا وانجلترا ورفعوا لواء دعوة (القومية المصرية).

(٣) لقد تجمع حب الاصلاح على المبادئ الدستورية حول شخص واحد هو الشيخ على يوسف الذى لعب ادوارا هامة فى حياته لعل أهمها رئاسته لتحرير صحيفة (المؤيد) لمدة تزيد على ٢٣ عاما وعلاقته الوثيقة بالخديو عباس حلمى الثانى (Ahmed-Gamal Mahmoud-The intellectual Originsof Egyptian Nationalism- Oxford University Press-London 1966-pp.79).

يوسف والحزب الوطني (١) (٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧) بزعامة مصطفى كامل.

وقد أعقب ظهور هذه الأحزاب الثلاثة - قيام طائفة من الأحزاب الأخرى الأقل أهمية بحيث لم ينصرم عام ١٩٠٩ حتى كان قد أعلن عن قيام الحزب الوطني الحر (٢) .. والذي غير اسمه بعد ذلك إلى حزب الأحرار وتزعمه (محمد بك وحيد الأيوبي) .. وحزب مصر الفتاة أو الحزب الدستوري (٣) الذي أنشأه (ادريس بك راغب) وحزب النبلاء (٤) برئاسة (حسن حلمي زاده) ووكالة (فرج الجرجاوي) وسكرتارية (محمود طاهر حقي) .. والحزب المصري (٥) أو حزب مصر المستقلة الذي تزعمه (اخنوخ أفندي فانوس) وهو أول حزب قبطي في مصر والحزب الجمهوري

= لذلك فقد أنشأ حزب الإصلاح ليكون عاملاً من عوامل التوازن بين الحزب الوطني من جهة وحزب الأمة من جهة أخرى - (أحمد شفيق باشا - مذكرات في نصف قرن - الجزء الثاني - القسم الثاني - ص ١٢٦) ولتأييد السلطة الخديوية كما جاء في البند الأول من برنامج الحزب (المؤيد - ٩ ديسمبر سنة ١٩٠٧) لذلك كانت سياسة الحزب أكثر من معتدلة (جاكوب لاندوا - الأحزاب والحياة النيابية في مصر ص ١٤٤) وكان يقف في كثير من القضايا موقفاً محافظاً. (تسالز ادورد الإسلام والتجديد في مصر - ترجمة عباس محمود - ص ٢١٦-٢١٧).

(١) أسسه مصطفى كامل قبل وفاته بقليل كرد فعل لظهور حزب الأمة (د. أحمد عبدالرحيم مصطفى - تاريخ مصر السياسي من الاحتلال حتى المعاهدة - دار المعارف - القاهرة - ١٩٦٧ - ص ٣٨) ولكن الحزب كان قائماً في الواقع - ولكن بشكل غير رسمي - لسنوات خلت أي منذ بدأ مصطفى كامل عمله السياسي وخاصة بعد إصداره لصحيفة اللواء وقد اعترف بذلك مصطفى كامل في خطبته على مسرح زيزينا بالاسكندرية في ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ عندما أبدى نيته في تشكيل الحزب الوطني حين قال ان الحزب قد انشئ منذ وقت طويل وان ما يحدث الان هو تنظيمه فقط .. أما عن برنامج الحزب فقد كان أبرز بند فيه هو الاستقلال الذاتي لمصر طبقاً لمعاهدة ١٨٤٠ (أحمد بهاء الدين - أيام لها تاريخ - كتاب اليوم - ص ٨٢-٨٤) أما البند الآخر الهام في برنامج الحزب فهو الدعوة إلى حكومة نيابية ودستور كما كان يطالب أيضاً بتقوية الروابط بين مصر والدولة العثمانية أحمد رشاد - مصطفى كامل - ص ٢٦٧-٢٨٤).

(٢) نشأ الحزب الوطني الحر أولاً على سياسة صحيفة (المقطم) الاحتلالية في منتصف يونيه سنة ١٩٠٧ ثم اختلف مؤسسة (محمد وحيد بك الأيوبي) مع أصحاب المقطم وأصدر صحيفة خاصة به سماها (الأحرار) وغير اسم الحزب إلى (حزب الأحرار) وكانت للحزب مبادئ ستة بدور أغلبها حول الدعوة إلى مسألة المحتلين والسعي إلى نيل ثقتهم والاتفاق معهم على خير القطر وهو مائنص عليه البند الأول من برنامج الحزب (الأحرار - ١٥ مارس سنة ١٩٠٨).

(٣) كان الحزب الدستوري أو حزب مصر الفتاة يدين بالولاء للسلطتين الشرعية (الخديوي) والفعالية (الاحتلال) ويجسد سياسة الوفاق بينهما (المؤيد - ٩ فبراير سنة ١٩١٠) ولكن الحزب لم تكن له أية قيمة فعلية. (٤) لقد ضم حزب النبلاء بقايا الارستقراطية التركية التي رأت أن من حقها أن تنشئ حزباً سياسياً مثلما فعلت الارستقراطية المصرية بإنشاء حزب الأمة - لذلك فقد كانت لزعماء هذا الحزب جميعاً أصول تركية قريية وقد كان الحزب يدعو للدفاع عن كرسى الخديوية وعن الخلافة العثمانية وفي نفس الوقت كان يدعو للتعاون مع سلطات الاحتلال لتحقيق الهدفين السابقين.

(٥) عبر الحزب المصري عن الفكر السياسي للأقباط في ذلك الوقت (د. يونان لبيب رزق - الحياة الحزبية في مصر ص ٣٨) وقد ظهر كرد فعل لتعاظم فكرة الجامعة الاسلامية في مصر وكانت أهم القيود التي احتواها برنامج الحزب، وحدة مصر والسودان واستقلال مصر وتحقيق صداقة حقيقية بين مصر وبريطانياً والفصل بين الدين والسياسة بقانون. (صحيفة مصر - ٢ سبتمبر سنة ١٩٠٨).



الذى تزعمه (محمد غانم)<sup>(١)</sup> والحزب الاشتراكي المبارك<sup>(٢)</sup> برئاسة (الدكتور حسن جمال الدين) وحزب العمال بالقطر المصري.. والسودان<sup>(٣)</sup> برئاسة (السيد محمد).

وقد ظلت هذه الاحزاب جميعا تعمل بشكل اوبآخر حتى قيام الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ واعلان الحماية الانجليزية على مصر.. فاخفت بالتدريج وبدون اعلان باستثناء الحزب الوطنى الذى نقل معظم نشاطه إلى خارج مصر.. وخاصة إلى أوروبا وتركيا.

وفى ١٣ نوفمبر ١٩١٨ تشكل (الوفد المصرى) برئاسة سعد زغلول فى شكل تجمع وطنى جمع كل القوى السياسية فى البلاد بما فيها بقايا الاحزاب القديمة.. ولكن الخلاف بين أعضاء الوفد سرعان ما أعاد النشاط إلى الحياة الحزبية فى مصر فعاد الحزب الوطنى يمارس نشاطه من جديد وفى أكتوبر ١٩٢٢ أنشئ حزب الأحرار الدستوريين<sup>(٤)</sup> برئاسة عدلى باشا يكن.. وقد ظل الوفد المصرى كتجمع وطنى حتى ١٤ مايو سنة ١٩٢٤.

(١) بدأ التفكير فى انشاء الحزب الجمهورى فى ديسمبر سنة ١٩٠٧ ولكن لم يعلن عنه إلا بعد ذلك بشهرين أى فى فبراير سنة ١٩٠٨ وكان يرأسه (محمد غانم) الذى نشر العديد من المقالات يدعو فيها إلى مبادئ الحزب فى صحيفة (الأخبار) ذات الميول اليسارية وفى صحيفة (الأحرار) التى كان يصدرها محمد وحيد الايوبى زعيم حزب الأحرار الذى فتح صفحات الصحيفة لأفكار الحزب ومقالات رئيسية ولكن سرعان ما دب الخلاف بينهما عندما كتب محمد غانم مقالا يهاجم فيه الاحتلال البريطانى مما يتصادم مع سياسة حزب الأحرار الاحتلالية فحسبت صفحات (الأحرار) عن الحزب الجمهورى فمات ولم يسمع عنه أحد شئ بعد ذلك. وكان الحزب الجمهورى يهدف إلى اعداد مصر للنظام الجمهورى بعد أن يتم الحصول على الاستقلال وكان يرى أن تتحقق خطته بالتدريج وبدون عنف (صحيفة الأحرار ١١ ابريل سنة ١٩٠٨).

(٢) تركز عمله فى الريف وبين الفلاحين لرفع مستوى معيشتهم وانصافهم ولكن لم يكن للحزب برنامج اشتراكى متكامل وإنما مجرد نظرات انسانية تعالج مشاكل الريف المصرى.. فالحزب يدعو إلى «تحسين احوال الفلاحين وتحديد اوقات عملهم فى الحقل وأن يحصل الفلاح على نصيب من عائد الأرض.. ومنح معاشات للفلاحين عن العجز والمرضى ومعاملة الفلاح معاملة طيبة من كبار الملاك. (د. يونان لبيب- الحياة الحزبية فى مصر ص٦٦).

(٣) وهو بعكس الحزب السابق فقد تركز عمله فى المدن وكان يعتبر نفسه (جامعة عمومية تجمع أواصرها كل طوائف ونقابات العمال وتكون هذه الجامعة عصمة أدبية اجتماعية لحقوقهم) (صحيفة الأخبار - ١٨ يوليو سنة ١٩٠٩ مقال بعنوان «المستخدمون والعمال فى مصر بقلم السيد محمد) ولكن الحزب لم يكن له برنامج متكامل وقوبل بمعارضة شديدة من جانب النقابات والقادة النقابيين الذين رأوا أنه لا يمثل سوى صاحبه (الأخبار - ٢٠ يوليو سنة ١٩٠٩).

(٤) يتصل حزب الأحرار الدستوريين بالدم والنسب إلى حزب الأمة القديم (محمود سليمان غنام- أضواء على أحداث ثورة ١٩١٩ - دار الفكر الحديث - ١٩٧١ - القاهرة ص ٤٨٠-٤٨١) وقد نشأ الحزب كنتيجة للخلاف بين سعد زغلول وعدلى يكن وضم الحزب احمد لطفى السيد وعبد الحميد البكرى والشيخ محمد بخيت و ابراهيم الهلباوى وحسن عبدالرازق وعبد اللطيف المكباتى وعلى شعراوى وصالح ملوم وتوفيق دوس ومحمد حسين هيكل وغيرهم. وقد اعتبر الحزب تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ اتفاقا مرضيا لمصر وكانوا يطالبون بالاستقلال التام وانهاء الاحتلال العسكرى لمصر والتمسك بعدم فصل السودان عن مصر وادخال مصر فى عصبة جمعية الأمم دولة مستقلة ذات سيادة وتأييد النظام الدستورى والمحافظة على سلطة الأمة =

حين تقرر تحويله إلى حزب سياسى باسم (حزب الوفد النيابى) (١) وانتخبت له لجنة تنفيذية برئاسة سعد زغلول.

أما عن الأحزاب المتأثرة بالفكر الاشتراكى فقد شهدت مصر منها (الحزب الديمقراطي المصرى) (٢) الذى أسسه بعض شباب المثقفين فى ١٠ يناير ١٩١٩... والحزب الاشتراكى المصرى (٣) الذى أسسه فى ٢٩ اغسطس ١٩٢١ جوزيف روزنتال وحسنى العربى وعلى العنانى وسلامه موسى وعبدالله عنان.

=حقوق العرش والسعى فى ترقية شأن الهيئات النيابية المحلية والدفاع المستمر عن حقوق الفرد فلا تقيد حريته إلا فى مصلحة عامة- والسعى فى تشجيع الشركات المصرية وتنمية اطماعها المشروعة والسعى فى تنظيم العلاقات فى المصانع والمتاجر بين العمال وارباب العمال على قاعدة العدل (السياسة ٣١ أكتوبر سنة ١٩٢٢) وتمعكس برنامج حزب الأحرار الدستوريين طبيعة البورجوازيين الكبار فالحزب كان يمثل الاغنياء واصحاب الاراضى ثم بعض الارستقراطيين من سلالة العائلات التركية (جاكوب لاندائو- الاحزاب والبرلمانات فى مصر- ص ١٧٤).

(١) لقد تحول الوفد إلى حزب سياسى عندما فشل فى توحيد الأحزاب السياسية واتجه التفكير جدياً إلى تشكيل الحزب نتيجة بعض الأخطاء التى كان يرتكبها المؤيدون للوفد فى البرلمان عام ١٩٢٤ بإخراج الحكومة أو معارضتها فى اخذ الاصوات وفى بيت حمد الباسل باشا قرأ مكرم عبيد الاعلان التشريعى لتشكيل الوفد واختير له اسم حزب الوفد النيابى وفى ١٤ مايو سنة ١٩٢٤ قرر الشيوخ الوفديون تكوين الهيئة الوفدية بمجلس الشيوخ.. وكذلك فى مجلس النواب وقد صنعت ثورة ١٩١٩ لحزب الوفد مبدأه السياسى الذى تجسد فى العمل من أجل استقلال مصر وإقامة حكومة دستورية تحترم حقوق الأجانب والامتيازات الاجنبية والدين العام وطبيعة قتال السويس واضيفت فى فترة لاحقة مبادئ اصلاح التعليم وتحسين مركز الفلاحين المادى والمعنوى (جاكوب لاندائو- الاحزاب.. البرلمانات فى مصر ص ١٥٩).

(٢) تألف الحزب من كل من ابراهيم الشواربى المحامى وأحمد ابى النصر المحامى وامين عامر المحامى وحسن يوسف عامر المحامى ومحمد سامى كامل الطيب ومحمود عزمى المحامى والكاتب و. مصطفى عبدالرازق سكرتير المعاهد الدينية والدكتور منصور فهمى وعزيز مرهم المحامى (د. عبدالعظيم رمضان- تطور الحركة الوطنية المصرية- ص ٥١) وكان الحزب يدعو إلى سيادة الشعب باعتباره مصدر كل السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية وان يكون الحكم نيابياً دستورياً.. كذلك نص برنامج الحزب على حرية القول والكتابة والاجتماع (صحيفة النظام ٨ سبتمبر سنة ١٩١٩) وكان من مبادئ الحزب ايضا العمل على ترقية الطبقات العاملة اديبا وماديا والإعانة لمن يستطيع العمل واثراء البلاد وجعلها بحيث يستفيع بها السكان جميعاً.. كذلك نص فى مقدمته على استقلال مصر وحق كل أمة فى تقرير مصيرها (عزیز مرهم- أثر الديمقراطية فى الحياة الاقتصادية- محاضرة فى الجامعة الامريكية.. القاهرة- ١٩٤٥- ص ٣٧).

(٣) كانت أهم مبادئ هذا الحزب كما يكشف عنها برنامجها: تحرير مصر من نير الاستعمار الاجنبى واقضاء ذلك الاستعمار عن وداى النيل بأسره.. والعمل على الغاء استغلال جماعة لأخرى ومحو التفريق بين طبقات المجتمع فى الحقوق الطبيعية والسعى الى مجتمع اقتصادى يقوم على دعائم المبادئ الاشتراكية التى تقوم على مبدئين: توحيد الثروة الطبيعية ومصادر الانتاج لمجموع الأمة.. والتوزيع العادل للثمرات على العاملين طبقاً لقانون الانتاج والكفاءة الشخصية واهتمام المزاخمة الرأسمالية وقد حدث انقسام كبير فى الحزب بعد انشائه بعام واحد طرد منه على أثره سلامه موسى وعدد آخر من كبار أعضائه المعتدلين وتحول الحزب بعد ذلك بوحى من روزنتال إلى الحزب الشيوعى المصرى) ثم مالبث أن طرد روزنتال نفسه من الحزب.. ثم وقع الصدام بعد ذلك بين الحزب وحكومة سعد زغلول حيث صفى الحزب وقدم قاده الى المحاكمة.. وتمت سيطرة الوفد على الحركة النقابية العمالية عن طريق عبدالرحمن فهمى.

وثمة ظاهرة هامة صاحبت ظهور الحياة الحزبية في مصر وربما انفردت بها مصر تلك هي ظهور الأحزاب المصرية في كنف دور الصحف فبدلاً من أن تنشئ الأحزاب صحفاً ناطقة باسمها.. أنشأت الصحف أحزاباً كتجسيد مادي لإرادتها<sup>(١)</sup>.. ولقد ظلت هذه هي السمة الغالبة على تكوين الأحزاب في مصر حتى الحرب العالمية الأولى<sup>(٢)</sup>. ويمكن تفسير هذه الظاهرة بأن حرية الصحافة قد سبقت حرية العمل السياسي والعمل الحزبي فقد نتج عن السياسة التي اتبعتها إنجلترا في إطلاق حرية الصحافة أن ظهرت جماعات من الكتاب والمفكرين تدرجوا حتى أصبحت تدور حولهم وحول صحفهم أحزاب سياسية.<sup>(٣)</sup>

فقد أنشأ مصطفى كامل صحيفة اللواء.. في أول يناير سنة ١٩٠٠ على حين نراه لا يعلن عن قيام الحزب الوطني إلا في نهاية عام ١٩٠٧... كذلك أصدر الشيخ علي يوسف (المؤيد) في عام ١٨٨٩ بينما لم يعلن عن حزب الإصلاح إلا في عام ١٩٠٧ أيضاً... كذلك فقد صدرت الجريدة في أبريل سنة ١٩٠٧ بينما لم يعلن عن حزب الأمة إلا في سبتمبر من نفس العام - كذلك فقد نشأ على سياسة صحيفة (المقطم) الاحتلالية التي صدرت في عام ١٨٨٨ الحزب الوطني الحر والذي أعلن في نهاية عام ١٩٠٧<sup>(٤)</sup>.. وبذلك كانت الأحزاب ثمرة من ثمرات الصحافة ونتيجة من نتائجها.. على عكس ما هو حادث في أكثرية أمم العالم المتمدينين حيث تشكل الأحزاب السياسية ثم ينشئ كل حزب صحيفة أو عدة صحف يجعلها لسان حاله المعبر عن سياسته.<sup>(٥)</sup>

ولقد ظلت الصحافة المصرية طوال الفترة التي تناولها هذا البحث حلقة الاتصال الرئيسية بين الحزب وقواعده والادارة الرئيسية التي تربط الحزب ب جماهيره.. والوسيلة الفعالة.. إن لم تكن الوحيدة- للتعبير عن فكر الحزب وسياساته وبرامجه.. وفي كثير من الاحيان كانت الصحف أعلى صوتاً من الأحزاب السياسية التي تحتلها كما هو الشأن مع صحيفة (المؤيد) لسان حال الأحرار الدستوريين.<sup>(٦)</sup>

فاذا ما طبقنا هذه الملاحظة على الواقع الفعلي اكتشفنا أن وجود حزب وطني مصري كان- بخلاف ما يذهب إليه بعض المؤرخين<sup>(٧)</sup>.. حلماً قديماً عند مصطفى كامل- ولكن كان يحول دون تحقيق ذلك الحلم.. قرب العهد بالاحتلال من ناحية وعدم نضج الاتجاهات السياسية للحركة الوطنية المصرية وتبلورها من ناحية ثانية.

(١) د. يونان ليب رزق- الحياة الحزبية في مصر-ص ١١٢.

(٢) جاكوب لاندواو.. الأحزاب والبرلمانات في مصر-ص ١١١.

(٣) جورجى زيدان.. مشاهير الشرق- الجزء الأول- ص ٢٩٣.

(٤) قسطنطين الحلبي- تاريخ تكوين الصحف المصرية- مطبعة التقدم ١٩٢٨ القاهرة ص ١٣٩-١٤٣.

(٥) د. سامى عزيز- الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال البريطاني ص ١٤٨-١٥٠.

(٦) د. خليل صابات وآخرون- حرية الصحافة في مصر. المقدمة.

(٧) يقول الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى: «إن مصطفى كامل كان لا يؤمن بإنشاء حزب رسمى اعتقاداً منه أن ذلك من شأنه أن يؤدي إلى انقسام الأمة(د. عبد الرحيم مصطفى- تاريخ مصر السياسى من الاحتلال حتى

المعاهدة- ص ٣٨)

ومما يؤكد أن فكرة الحزب لم تغب عن تفكير مصطفى كامل منذ عمله في الحركة الوطنية مشاركته في تجربتين تنظيميتين: أحدهما مع لطيف سليم باشا حيث شكلا مع مجموعة من المستشارين والكتاب والصحفيين والأعيان وعدد من أعضاء مجلس شورى القوانين ما اسمياه (الحزب الوطني) أو (حزب الاستقلال) ولكن الكيان التنظيمي لذلك الحزب لم يكتمل ابدا وانهار بانتهاء عزيمة الكثير من أعضائه<sup>(١)</sup>، أما التجربة الثانية فكانت بالتعاون مع الخديو عباس حلمي الثاني حيث شكلا (الحزب الوطني) وكان اسم الخديو الحركي في هذا الحزب السري (الشيخ) وتسمى مصطفى كامل (بأبو الفداء) وكان من أعضائه أحمد لطفى السيد ومحمد فريد وسعيد الشيمي ومحمد عثمان وليب محرم.. ولكن هذا التنظيم لم يكتب له أيضا البقاء طويلا.. ورقم أن هاتين التجربتين التنظيميتين لمصطفى كامل كانتا أقرب إلى الجمعيات السرية إلا أنهما يؤكدان أن العمل الحزبي كان واردا في خطط مصطفى كامل وهو يعمل على قيادة الحركة الوطنية المصرية.

لذلك لم يكن غريبا أن يسبق مصطفى كامل معاصريه في الدعوة إلى قيام حزب وطني مصري. ويكشف عن هذه الحقيقة ما جاء في مقال كتبه مصطفى كامل في العام الأول من صدور صحيفة اللواء<sup>(٢)</sup> قص فيه قصه لقائه بـسياسي الإنجليزي حر التفكير أبدى دهشته «لأمركم معاشر المصريين- وإنني أعرف أنكم كلكم تكرهون الاحتلال والمحتلين وتودون جلاء الانجليز عن دياركم ولكني كنت انتظر تأسيس حزب وطني حر في مصر ينشئ ناديا عموميا ويضع خطة سياسية وينشرها في كل أنحاء الأرض ويوضح فيها آماله ومطالبه ويحارب الاحتلال بأقلام نخبة من الكتاب والسياسيين في أوروبا وينشئ المدارس الأهلية الحقيقية والمكاتب المالية ويبرهن بجلال أعماله على أن مصر جديرة بالاستقلال حقيقة برعاية العالم وعنايته»<sup>(٣)</sup>.

وقد علق مصطفى كامل على أقوال السياسي الإنجليزي معلنا أمله في أن يرى مثل هذا الحزب الوطني في مصر فقال: «فشعرت عند سماع هذه الأقوال بألم شديد في الفؤاد وارتياح عجيب لسلامة ضمير هذا الرجل الشريف.. فهل يسمح لي الزمان بأن أرى في مصر هذا الحزب الوطني الحر الشريف المبادئ المتحد الأعضاء الناهض بالامة إلى مراقي النجاح، والفلاح». ثم أشار مصطفى كامل إلى ان «البائسين سيقولون أن تأسيس حزب كهذا أمر محال فقال «.. ولكني اذا كنت لا أياس من خلاص بلادى فمحال على أن أياس من تحقيق هذا الأمر الجليل.

وفي اللواء أيضا يبشر محمد فريد- في حياة مصطفى كامل وقبل اعلان الحزب الوطني- بفكرة الحزب الوطني المصري ويطالب أحرار مصر «بتأسيس جمعية وطنية تضم إليها كل غيور

(١) أحمد رشاد- مصطفى كامل- ص ٤٥.

(٢) أحمد لطفى السيد- قصة حياتي- ص ٣٥-٣٦.

(٣) اللواء- ٢ يونيو سنة ١٩٠٠ مقال بعنوان (حزب وطني حر في مصر)

على وطنه لا يخشى في المطالبة بحقوقه لومة لائم ولا يمنعه عن خدمته احتمال وصول الأذى إليه ولا يضطره خوف الذل إلى البقاء في الذل»<sup>(١)</sup>.

واقترح محمد فريد أن «توضع لائحة بكيفية تشكيل هذه الجمعية وانتخاب أعضائها وتنتمي لها من بينهم لجنة إدارية تقوم بحاجاتها وانتخاب من يوفدون إلى أوروبا وفي تدبير المال اللازم لهم وباعطائهم التعليمات التي يجب السير عليها هناك وتتخذ هذه الجمعية ناديا لإجتماع أعضائها تكون أبوابه مفتوحة لكل قاصد خير الوطن وأهله.. ويلاحظ أن الحزب الوطني عندما أعلن تشكيله بعد ذلك لم يخرج عن هذه الأفكار التي طرحها محمد فريد في ذلك المقال.

وقد يثار تساؤل: كيف يمكن التوفيق بين هذه الرغبة القديمة لمصطفى كامل ومحمد فريد في تكوين حزب وبين كون الحزب الوطني كان آخر الأحزاب الكبيرة التي تم الاعلان عنها عام ١٩٠٧.

ولكن هذا التساؤل سرعان ما يتلاشى عندما نعرف أن مصطفى كامل كان يؤمن بالحزب الواحد على اعتبار أن تعدد الأحزاب يمكن طالما لم يكن الوطن في خطر وأما بوجود الاحتلال فإن مصر تواجه هذا الخطر كل صباح ومن ثم «فإن الحزب الذي ينادى بالاستقلال صباح مساء وهو الحزب الوطني يجب أن يكون الحزب الوحيد في البلاد»<sup>(٢)</sup>.. والواقع أن درسا هاما من الدروس التي وعها مصطفى كامل من فشل الثورة العربية هو أن تفتت الجبهة الداخلية كان من أهم أسباب فشل هذه الثورة<sup>(٣)</sup> لذلك فقد كانت أكثر مقالات مصطفى كامل في النصف الثاني من عام ١٩٠٧- تؤكد هذا المعنى أي ضرورة المحافظة على وحدة الحركة الوطنية المصرية ولعل ذلك يكشف لنا السر في استقبال اللواء لقيام حزب الأمة بالهجوم الشديد- وكان مصطفى كامل وقتها مسافرا في أوروبا- اذ يكتب على فهمي كامل غنيم فيتهم حزب الأمة بالاعتدال<sup>(٤)</sup>.. ويلمح بما يشير إلى أنه ظهر بوحي من اللورد كرومر لمحاربة الشعور الوطني<sup>(٥)</sup>- فلما وصل مصطفى كامل قادما من أوروبا شن حملة عنيفة على حزب الأمة واتهم زعماءه بانهم يعملون على تفتت وحدة الأمة<sup>(٦)</sup> ودعاهم إلى العودة إلى الرشد والعمل في الحزب الوطني وقاد حملة مركزة على صحيفة (الجريدة) ومحررها أحمد لطفى السيد واتهمه بالعمل «لغير مصلحة الوطن»<sup>(٧)</sup> وتساءل كيف أن «مساهمينها الكثيرين قد تركوا مديرها سائرا في غبه دون أن يحاؤلوا إيقافه..» وفي خطبة مصطفى كامل المشهورة التي القاها في ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ في

(١) اللواء- ٩ سبتمبر سنة ١٩٠٦ مقال بعنوان (المطالبة بالحقوق).

(٢) اللواء- ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٠٧ مقال بعنوان (الحزب الوطني واتحاد المصريين).

(٣) د. يونان ليب رزق- الحياة الحزبية في مصر- ص ٥٥- ٥٦.

(٤) اللواء- ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٠٧.

(٥) اللواء- ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٠٧.

(٦) اللواء- ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٠٧ مقال بعنوان (الحزب الوطني واتحاد المصريين).

(٧) اللواء- ١٨ يناير سنة ١٩٠٨ مقال بعنوان (رأينا في الجريدة ومساهمينها).

مسرح زرينا بالاسكندرية والتي أعلن فيها عن نيته لتكوين الحزب الوطنى والتي نشرتها اللواء كاملة هاجم حزب الأمة واتهم أعضائه بأنهم «الجواسيس وخدام المحتلين والخونة والاشرار» (١)

وقد استقبل مصطفى كامل اعلان الشيخ على يوسف قيام حزب الاصلاح على المبادئ الدستورية باهمال شديد ولعل ذلك كان راجعا إلى ماكان يعرفه مصطفى كامل عن علاقة الحزب الجديد بالخدويو.. ولكن الصراع بين الحزب الوطنى وحزب الاصلاح أو بين (اللواء) و(المؤيد) أخذ شكلا بالغ الحدة والعنف بعد وفاة مصطفى كامل وخاصة حين أراد الشيخ على يوسف استغلال وفاة مصطفى كامل للتهوين من قدرة الحزب الوطنى على البقاء والاستمرار- ولقد تصدرت «اللواء» حملة الشيخ على يوسف على زعامة محمد فريد للحزب الوطنى فكتبت تقول «ووقف شيخ المؤيد فى ادارته وخلف منضدته التى أصبحت قبلة السباب ومحط المبتذل من الهجو المكروه والشتم المردول لينتقد وليته عرف كيف ينتقد..» (٢)

وقررت الصحيفة أن حقد الشيخ على يوسف على محمد فريد إنما هو امتداد لحقده القديم على مصطفى كامل «إذا كان صاحب المؤيد لم يكسر للأُن سلاح الضغينة والحقد الذى كان يحارب به المرحوم مصطفى كامل باشا وقام بشهره فى وجه رئيسنا الحاضر فيعلم أنه لابد من كسره لأن المكر السىء لا يحق إلا بأهله وليس عند الله أبغض من رجل لا يقف قلبه فى المبادئ عند حد محدود.»

وأشارت الصحيفة إلى أن الشيخ على يوسف يهاجم الحزب الوطنى ورئيسه الجديد بايعاز من سلطات الاحتلال «وإذا كان الشيخ لا يريد بما كتب إلا أن يأكل أكلة أخرى على حساب فريد بك كالأكلة التى أكلها على حساب المرحوم بطل الوطنيه أو تخلع عليه خلع من الذين يسميهم المصادر العالية (قصر الدوبارة طبعاً) فليقل ماشاء فقد انفضح أمره وأصبح المصريون جميعاً منه ساخرين».

وفى اللواء أيضا رد محمد فريد على ادعاء الشيخ على يوسف أن «كل انسان فى مصر يعلم أن طلب المجلس النيابى فى هذا العهد هو من ابتكارنا ومانجاسر شخص أن يرفع صوته به قبل أن نرفع صوتنا فى اخرج المواقف» (٣) وقد علق محمد فريد على هذا الادعاء مؤكدا أن مصطفى كامل هو أول من دعا المجلس النيابى فقال: «إن أول صوت رفع فى البلاد يطلب المجلس النيابى هو صوت فقيدنا العظيم مصطفى كامل باشا».. وذكر محمد فريد القرار (بالخطبة الرنانة التى القاها الفقيد العظيم بمدينة الاسكندرية مساء يوم ٢١ مايو سنة ١٩٠٢) والتى قال فيها أبى هو الدستور؟ أين ذلك الدستور الذى يلجم الحكومة بلجام من حديد ويهب الأمة حرية الرأى والفكر وحق المراقبة على أعمال الحكام وسن القوانين والشرائع.. ثم تسأل محمد فريد «فهل أيقن صاحب المؤيد اذن أن أول صوت رفع فى البلاد يطلب المجلس النيابى بعد الاحتلال البريطانى إنما هو صوت فقيدنا العظيم وأن جريدة المؤيد لا اللواء هى التى اضطرت لأن تشترك

(١) اللواء- ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٠٧.

(٢) اللواء- ٢٠ أبريل سنة ١٩٠٨ مقال بعنوان (وافضيحتاه).

(٣) اللواء- ٢٨ أبريل سنة ١٩٠٨.

فى هذا البحث بعد مرور زمن طويل على ذلك الاقتراح أى بعد أن تشبع به الرأى العام وصارت مشاركتها فيه ضرورة لصالحها الحيوى.

وقد بلغت حدة الصراع الحزبى بين «اللواء» والمؤيد أقصاها وتردى هذا الصراع إلى أدنى مستوى من الاتهامات والشتائم حتى اضطر اللواء إلى تشريع يعلن فيه «تخرج جريدة المؤيد فى هذه الأيام محشوة بالسفاسف والمفتريات ولقد طلب إلينا مئات من الأفاضل الأنشغل أوقات القراء بالرد عليه فإجابة لطلبهم يعلن اللواء أنه سيعامل المؤيد معاملة الجرائد الساقطة فلا يعبر ما ينشره اقل التفاف حرصا على أوقات العالم أن تضيع سدى» (١).

ولقد ظل اللواء لسان حال الحزب الوطنى حتى وقع الخلاف بين على فهمى كامل شقيق مصطفى كامل ووكيل الحزب الوطنى وبين بقية الورثة فأصدرت المحكمة حكما يقضى بتعيين (يوسف المويلحى) حارسا قضائيا على اللواء. (٢)

وأخذ المويلحى يتدخل فى شئون الصحفية حتى صارت قيда على حركة الحزب الوطنى فما كان من الحزب إلا أن تخلى عن اللواء واتخذ من صحيفة (العلم) لسان حاله.. وقد ظهرت العلم فى تلك الفترة التى بدأت فيها سلطات الاحتلال تضيق الخناق على نشاط الحزب الوطنى ملاحقة صحفه بالانذار والتعطيل والمصادرة.. ولقد صدر أكثر من قرار بتعطيل «العلم».. وحاولت بعض الصحف المعادية للحزب الوطنى استغلال هذه الظروف التى يمر بها الحزب لتعلن أن الحزب قد تدهور ولم يعد له جمهور أننفوذ فى البلاد.. وقد تصدت (العلم) للرد على هذه الحملة بقلم محمد فريد نفسه الذى كتب يؤكد «ان أعداء الحزب الوطنى يتمنون أن تكون همته قد فترت وانه لم يتحمل أصابه من حبس بعض أعضائه أولا ومن تعطيل لسان حاله ثانيا وأن أفضاءه أخذوا فى الانزواء خوف اضطهاد الحكومة لاسيما بعد مجيء اللورد كتشتر معتمد الانجليز فى مصر.. تلك أمانهم ولكنها بعيدة عن الحقيقة بمراحل (٣)» وعلن محمد فريد ان «حزبنا هو لا يمكن لأى قوة فى العالم أن توهنه كما يتمنون وقد ظهر ذلك عند ظهور العلم وعودة اللواء إلى حالته الأولى واقبال القراء عليها وعلى باقى جرائد حزبنا».. وأكد محمد فريد ان «الحزب الوطنى تتجسم فيه فكرة الوطنيه، الحققة والفكرة لا يمكن وقوفها بل تسير دائما إلى الامام رغم كل اضطهاد».

وعندما بدأت السلطات تلاحق الحزب الوطنى وتستغل اية حادثة تقع فى البلاد لتستدعى زعماء الحزب إلى النيابة وتحقق معهم، وتصدت (العلم) لهذا الأمر وسمته «ارهاب الحكومة

(١) اللواء - ١٢ أكتوبر سنة ١٩٠٨ مقال بعنوان (اللواء والمؤيد)

(٢) اللواء - أول مارس سنة ١٩١٠.

(٣) العلم - ٢٢ مارس سنة ١٩١٢.

المدفوعة من سلطات الاحتلال ضد الحزب الوطني وزعمائه»<sup>(١)</sup>.. وأخذت الصحيفة تنشر أخبار التحقيق مع قادة الحزب وانصاره، وقد تساءلت الصحيفة في إحدى المقالات قائلة: «كتب على الحزب الوطني أن لا يعامل إلا بمعاملات استثنائية؟ وإذا كان الأمر كذلك فبأى حق وبمقتضى أى قانون أو لائحة؟ إننا نتساءل عن ذلك ونسأل سعادة الوطني الكبير نائبنا العمومي<sup>(٢)</sup>.. صاحب القول المأثور: الحرية حق طبيعي للأمم.. وتلك كلمتنا اليوم واننا لما سبرى من المنتظرين.<sup>(٣)</sup>

وفي نفس العدد ردت العلم على مقال نشره الشيخ على يوسف فى المؤيد يتهم فيه محمد فريد بالجبن لهروبه من مصر عند طلبه للتحقيق فقالت العلم: «ياشيخ المؤيد.. كفاك ثرثرة واختلاقا.. لم يكن فى وسع القوانين التى أحلتك منصب السادة الصوفية أن تسلم من نفسك حلتين الحق والاختلاق تأججت فى صدرك نار الأولى وظللت تحملها حتى أبدتها حادثة سفر فريد بك تلك التى صورتها كما شئت لك الضغينة وأبت الحلة الثانية إلا أن تعاون اختها فافترت فريتك الشائنة وكذلك بفعل المخلوق الحقود<sup>(٤)</sup>» ثم ذكرت الصحيفة أن سفر محمد فريد كان لحضور مؤتمر المستشرقين وذلك قبل أن يدور فى خلد أحد أنه سيكون موضع اتهام او تحقيق كما روته الجريدة فإن الذى يدفعه آباؤه إلى تقديم نفسه للمحاكمة وهو بعيد عن أيدي طالبيه يأبى عليه هذا الخلق الوعر أن يقر كما تقول «ثم أكدت الصحيفة أن محمد فريد لو أورد برحيله هذا انقاذ عقاب يتهدهه «لما كان ذلك منه جبنا وقد سبقه محمد رسول الله إلى الهجرة وله فيه ﷺ خير أسوة ولم يجد المسلمون فى حياة نبيهم حادثا أعلى شأننا ولا أجل قدرا من تلك الهجرة حتى جعلت مبدأ تاريخهم وعلى ضوء ذلك فقد أعلنت الصحيفة انها ترجو أن يبقى رئيسنا بعيدا عن مصر الآن ليعلم على تحقيق أمانيه أمانا مطمئنا حتى لا تقطع عليه أيام السجن حبال العمل.. واعلم ياشيخ المؤيد أن حياة العامل المجد أقصر من أن تتسع للنوم فى مقصورات السجون وأن من الجناية على الأمة ان يختزل أبطالها أيام عملهم - كما أن من اسى ما يفكر به المسىء عن ذنبه ويتقرب به إلى ربه وامته ان يحفر لنفسه قبرا فيأوى فيه ليأمن الناس أذاه».

وقد تصدت العلم للرد على تصريح اللورد كتشنر المعتمد البريطانى فى مصر الذى أخذ فيه على المصريين انقسامهم إلى أحزاب.. فردت الصحيفة عليه وأثارت قضية العلاقة بين الديمقراطية والحياة الحزبية حيث أكدت ان الديمقراطية لا توجد حيث لا توجد أحزاب سياسية فقالت «أخذ اللورد كتشنر على المصريين انقسامهم إلى أحزاب ونحن نرى العكس مما ذهب إليه اللورد.. نرى أن الديمقراطية هى التى تجعل المجال واسعا للأحزاب إذ أنها تحرر الجمعية من القيود غير الطبيعية فيصبح لكل فرد ولكل فرد ولكل طائفة وجود حقيقى ولا تكون الحياة مقصورة على فئة قليلة تتحكم فى قارب الناس بما توافق مصلحتها دون مصلحة سواد

(١) العلم - ٣٠ مارس سنة ١٩١٢.

(٢) هو عبدالحالق باشا ثروت.

(٣) العلم - ٣ أبريل سنة ١٩١٢ مقال بعنوان (التحقيق مع الحزب الوطنى ماهو الغرض الذى ترمى إليه النيابة).

(٤) العلم - ٣ أبريل سنة ١٩١٢.



لأمة وبذلك يكون المرء حراً في تكوين معتقده السياسي والاجتماعي وحرراً في الانضمام إلى من يشاركه في هذا المعتقد ليؤلفوا هيئة تناضل عما يروونه المصلحة. (١)

وتساءلت الصحيفة «اليس الديمقراطية هي النظام الذي يستلزم المساواة في الحقوق وأمام القانون فهل هذا النظام من شأنه أن يقيد أفكار الناس فلا يخالف بعضهم بعضاً فيما يأخذون من آراء؟ هل هذا النظام الذي يمنع الأغلبية من الاستبداد بالأغلبية أو بالفرد.. يكون من مستلزماته أن يسلب المجموع حرية الانقسام إلى فرق تأخذ كل واحدة بما تراه صائبا من الإرادة ثم أجابت الصحيفة على كل هذه التساؤلات مؤكدة أن «النظام الديمقراطي هو الذي إذا وجد وجدت الأحزاب وإذا محى لم يكن للفكرة الحزبية بقاء.. وليست هذه حقيقة نظرية.. وإنما هي حقيقة واقعية أيضا يؤيدها التاريخ كذلك أكدت الصحيفة أن نظام وجود الأحزاب «لا يتفق مع غير الديمقراطية التي تنادى باحترام آراء الغير ومساواتهم ببعضهم».

وقد كانت صحيفة العلم من اليوم الأول لإصدارها شديدة اللهجة على الحكومة وعلى سلطات الاحتلال. بحيث لم تنطق الحكومة يومئذ بطريقتها في تحدي السلطة فاضطرت لوقفها شهرين كاملين في سنتها الأولى (سنة ١٩١٠) فعمد الحزب الوطني إلى إصدار صحيفة جديدة باسم (الاعتدال المصري) ثم سرعان ما ألغيت هذه الأخيرة وحلت محلها صحيفة جديدة باسم الحزب الوطني هي (الشعب) (٢). الذي تولى تحريرها (أمين الرافعي) وقد استمرت (الشعب) في الصدور بعد ذلك حتى ٢٧ نوفمبر سنة ١٩١٤ حين احتجبت احتجاجاً على قرار الحكومة الإنجليزية بإعلان الحماية على مصر - وحتى لاتضطرب إلى نشر الخبر. (٣)

ولم تكن «اللواء» و«العلم» و«الشعب» هي الصحف الوحيدة الناطقة بلسان الحزب الوطني فقد شهدت تلك الفترة مولد صحف أخرى تشايح هذا الحزب وتنطق باسمه وتدافع عن مبادئه (٤).. ففي أواخر عام ١٩٠٧ ظهرت (الدستور) التي كان يملكها ويحررها (محمد فريد وجدي) ومنذ البداية كانت مبول تلك الصحيفة واضحة نحو الحزب الوطني ولكن تأكدت هذه الميول. عقب وفاة مصطفى كامل فقد ظلت تكرر أعدادها الأسبوعية بعد الوفاة لمقالات عن مناقب وحياة مصطفى كامل ثم أعلنت بعد ذلك التزامها بالمبادئ العشرة للحزب الوطني وأخذت تهتم اهتماماً كبيراً بأخبار الحزب التي أصبحت باباً ثانياً في الجريدة.. وفي أوائل مايو من العام التالي سنة ١٩٠٨ صدرت صحيفتان أخرتان للحزب أحدهما في القاهرة باسم (ضيء الشرق) يملكها ويحررها محمد حسيب بك (٥) وقد جاء في أول أعدادها أنها «الخادمة المخلصة لمبادئ الحزب الوطني التي هي أظهر وأشرف مبادئ يخدمها خادم لبلاده وتؤسس عليها دعائم جريدة

(١) العلم - ١٤ يونيو سنة ١٩١٢ مقال بعنوان (هل الديمقراطية تنافى وجود الأحزاب؟).

(٢) د. عبد اللطيف حمزة - أدب المقالة الصحفية في مصر - الجزء السابع - أمين الرافعي - ص ٩٤.

(٣) عبد الرحمن الرافعي - محمد فريد رمز الاخلاص والتضحية - الطبعة الأولى - مطبعة مصطفى البابلي الحلبي - القاهرة - ١٩٤١ - ص ٣٨٧.

(٤) د. خليل صابات وآخرون - حرية الصحافة في مصر - ص ١٤٩ - ١٥٠.

(٥) المرجع السابق - ص ١٥٠ - ١٥١.

وطنيه<sup>(١)</sup> ويحكى محمود حسيب قصة انشاء تلك الصحيفة فيذكر أنه «بعد عودة المغفور له صديقي المرحوم مصطفى كامل باشا من اوربا في المرة الأخيرة استدعاني وعرض على أمر اصدار جريدة يومية تدافع مع اللواء عن مصلحة الأمة وتعبر معه في المطالبة باستقلالها يدا بيد».. ثم قص اقتراح مصطفى كامل بتشكيل شركة تؤسس الجريدة ولكن حسيب بك رفض الاقتراح مؤكدا أنه لا يريد أن يكون تابعا في عمله ورايه لأحد وإنما يعبر عن جهده واستقلال فكره ولذلك أصدر الصحيفة باسمه وماله فقط ثم ذكر محمود حسيب أن صحيفة المؤيد قالت خطأ أو عمدا عندما وصلته نشرتنا عن ضياء الشرق أنه سيكون لسان حال الحزب الوطنى فى حين أنى لم أقل ذلك وشتان ما بين القول بأنها ستكون الخادمة المخلصة لمبادئ الحزب الوطنى التى هى أشرف وأطهر وأجل مبادئ يخدمها خادما لبلاده وتؤسس عليها دعائم جريدة وطنية وبين القول بأنها ستكون لسان حاله لا تكتب إلا بوحى منه لأن الأحزاب لها مركز سياسى خاص يمنعها من الخوض فى بعض المسائل وأنا لا نريد ان يؤخذ الحزب الوطنى بما نكتبه لأن الجريدة ربما خاضت فى مواضيع لا يسمح مركز الحزب بتبنيها».

أما الصحيفة الأخرى فقد صدرت فى الاسكندرية وهى جريدة «وادي النيل» التى كان يملكها ويحررها (محمد افندى الكلزة) وقد سافر محمد فريد إلى الاسكندرية خصيصا للاحتفال بافتتاح هذه الجريدة وجاء فى خطبته فى هذا الاحتفال «إنه أصبح للحزب بذلك أربع جرائد يومية هى اللواء والدستور ووادي النيل وضياء الشرق<sup>(٢)</sup> وقبل أن ينتهى عام ١٩٠٨ تظهر الجريدة الخامسة من جرائد الحزب الوطنى وهى جريدة (مصر الفتاة) التى قال (سيد على) رئيس تحريرها عن مبادئها «هى المبادئ التى قامت على دعائمها الشعوب القاعدة وارتفعت على سلمها الأمم المنحطة ونال بفضلها المتمدنون ما هم فيه من مجد وسؤدد وسعادة واستقلال وهى مبادئ الوطن من مبادئ فقيد الوطن من مبادئ حزب الوطن<sup>(٣)</sup> ويضاف إلى تلك الصحف صحيفة (القطر المصرى) التى ظهرت على شكل مجلة اسبوعية فى ٢٤ أبريل سنة ١٩٠٨ وتحولت إلى جريدة وإن ظلت أسبوعية اعتبارا من ١٦ أكتوبر من العام نفسه وكان يحررها احمد حلمى.<sup>(٤)</sup>

والمتتبع لاعداد صحيفة (القطر المصرى) يلاحظ أنها كانت تعبر عن أحد الأجنحة المتطرفة للحزب الوطنى - فقد كانت الصحيفة تمثل موقف الرفض (للسلطة القائمة) الخديو والاحتلال كذلك يلاحظ أن (القطر المصرى) رغم أنها لم تحمل عبارة (لسان حال الحزب الوطنى) إلا أنها كانت تتخذ مواقف عنيفة ضد الأحزاب الأخرى المتنافسة للحزب الوطنى - فترى أحمد حلمى يشن هجوما عنيفا ضد حزب النبلاء وحزب الأحرار.. فقال عن الحزب الأخير: «تلك الطائفة التى لعبت المقطم على قفاها اياما ثم تركها ولقد سموا انفسهم أصحاب المصلحة الحقيقة والفوا

(١) ضياء الشرق - ٢ مايو سنة ١٩٠٨.

(٢) اللواء - ٢ مايو سنة ١٩٠٨.

(٣) مصر الفتاة - ٢ ديسمبر سنة ١٩٠٨.

(٤) د. خليل أصابات وآخرون - حرية الصحافة فى مصر - ص ١٥٠ - ١٥١.

حزبا عدد أعضائه من أربعة وسموه بحزب الأحرار»<sup>(١)</sup>.. وهاجم حزب النبلاء فقال عنه ثم لما انقسم هذا الحزب (يقصد حزب الأحرار) على نفسه بعد أن صار أضحوكة البلد وسخرية السوق والعمد قام أحد المنشقين عنه فدعا نفسه (حزب للنبلاء) ولو انصف لدعا نفسه (حزب العطلاء).

ثم تعرض أحمد حلمى.. لحسن حلمى زادة رئيس حزب النبلاء فقال عنه: «ولما كان القراء يجلبهون من هو (حسن حلمى) النبيل نقول أنه شخص جاءت به الصدفة فى بيت رجل كريم طيب من المصريين هو سعادة على باشا حلمى وهو من الذين قيل فيهم (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا) أما صناعته فهى اقتراض النقود من خرسو وخرلامبو وكوهين وصبيح على ميعاد يحل بعد وفاة سعادة على باشا حلمى فلما رأى الرجل اعوجاج سير هذا الشخص طرده من داره وأعلن براءته منه وستنشر اعلان البراءة فى عدد تال. فما زال اعوجاجه يشتد وسيرته تسوء وحالته تضحل حتى ساقته مفاصده إلى المحكمة فحكمت عليه بالحبس ستة أشهر ونفذ الحكم فعلا (وسنأتى على صورته بعد العثور عليه) وما زال سجيناً حتى أصابه دخل فى عقله فصدر أمر بمعافاته من بقية العقوبة مراعاة لقواه العقلية ومازالت حالته تظهر وتختفى بمظاهر متعددة حتى كان آخر مظهر لها هو ذلك الذى قرأناه فى الصحف عما سموه حزب النبلاء».

كذلك هاجم أحمد حلمى الشيخ على يوسف وصحيفة المؤيد وحزب الإصلاح واتهمه بمحاولة الايقاع «بالقطر المصرى» انتقاماً من الحزب الوطنى فذكر أن الشيخ على يوسف رفع قضية على صاحب (القطر المصرى) - وهو أحمد حلمى نفسه - وعلى الشاعر أحمد أفندى نسيم أمام النائب العام بسبب نشر «القطر المصرى» لقصيدة الشاعر نسيم فى هجاء الشيخ على يوسف وكان مما قاله أحمد حلمى تعليقا على هذه القصة وقد اثبتنا فى محضر التحقيق أن لاختصومة شخصية بيننا وبين الشيخ على يوسف ولكن الاختصومة السياسية قائمة بيننا وبين صاحب المؤيد ورئيس حزب الإصلاح الذى يسير على مبدأ فاسد ضار بالوطن ويتمسك بسياسة عرجاء هى التى يسميها سياسة الاعتدال.<sup>(٢)</sup>

وكان للحزب الوطنى أيضا صحيفة (البلاغ المصرى) التى صدرت فى ٩ يوليو ١٩١٠ وكان يملكها المسيو جاك دار جيلا - وهو أسباني - ورأس تحريرها المسيو البان ديروجا وهو كاتب فرنسى وكانت الصحيفة تصدر فى قسمين أحدهما بالعربية باسم (البلاغ المصرى) والثانى بالفرنسية تحت اسم (La Depeche Egyptienne) وقد التزم القسمان بالتعير عن موقف الحزب الوطنى سواء من الاحتلال أو الخديو أو نشر خطب وتصريحات محمد فريد زعيم الحزب الوطنى.. كذلك كان يكتب فى القسم العربى عدد من كبار كتاب الحزب وزعماءه من أمثال (على فهمى كامل) و(اسماعيل شيمى) - وأحيانا (الشيخ عبدالعزيز جاويش) ممن وجدوا فى هذه الصحيفة متنفسا لبعض آرائهم التى لونها فى الجرائد المرتبطة بالحزب لعادت عليها بأوخم

(١) القطر المصرى - ١٦ أكتوبر سنة ١٩٠٨ مقال بعنوان (يا ارض ابلى حزب النبلاء ويا سماء اقلعى حزب الأحرار).

(٢) القطر المصرى - ٢٢ يناير سنة ١٩٠٩ مقال بعنوان (صاحب المؤيد بغض الحزب الوطنى فى شخص صاحب القطر المصرى).

العواقب في ظل التهديد بتطبيق قانون المطبوعات، اما (البلاغ المصري) المتمتع بالحماية التي وفرتها لها اداراتها الأجنبية فقد كانت ميدانا فسيحا لنشر هذه الآراء<sup>(١)</sup>. ورغم ذلك فقد تمكنت سلطات الاحتلال من اغلاق هذه الجريدة في مطلع عام ١٩١١ وذلك بعد اتصالات دولية معقدة تمكنت في نهايتها من نفى دار جيلا وديروجا من الأراضي المصرية بعد أن نشر الأخير مقالا طعن فيه على الخديو.<sup>(٢)</sup>

كذلك فقد أصدر الحزب الوطني عام ١٩٠٧ جريدتين احدهما باللغة الفرنسية (ليتندار اجبسيان) والثانية باللغة الانجليزية (ذى اجبسيان ستاندرد) وذلك لمخاطبة الرأي العام الأوربي من ناحية والأجانب الذين يعيشون في مصر من ناحية ثانية.. ولكن هاتين الصحيفتين لم تعمرا طويلا فقد تم تصفية (لتندار) في أوائل عام ١٩٠٩ بعد أن كان قد تم تصفية الصحيفة الانجليزية قبل ذلك نتيجة للمتعاب المالية.

ورغم أن حزب الاصلاح على المبادئ الدستورية أعلن في أكتوبر سنة ١٩٠٧ إلا أن المؤيد أخذت تمهد الرأي العام لاستقبال الحزب الجديد منذ مدة طويلة - فقد نشرت مقالين متتاليين (لكرد على) في (آداب الأحزاب) شرح فيها الكاتب مفهوم الحزب حيث قرر «إن علماء اللغة عرفوا الحزب بأنه الصنف من الناس وحزب الرجل أصحابه الذين على رأيه وكل قوم تشاكلت قلوبهم وأعمالهم فهم أحزاب وان لم يلق بعضهم بعضا.. وقال علماء اللغة من الأفرنج أن الحزب هو اجتماع عدة أشخاص على غيرهم تجمعهم مصلحة واحدة ورأي واحد<sup>(٣)</sup>.. وأكد الكاتب أن «الأحزاب في الأمم طبيعية مثل تمصير الأمصار وقيام الحكومات وهي اذا راعى القائمون بها سنة الأدب والاعتدال كانت من موجبات نهوض البلاد.<sup>(٤)</sup>

وعندما أعلن عن قيام حزب الأمة كتب الشيخ على يوسف مقالا انتقد فيه خطة الحزب حيث أخذ عليه الملاحظات التالية:

أولاً: «لقد ترك هذا الحزب من المبادئ الأساسية للأحزاب أهم قاعدة تبنى عليها الأحزاب عملها وأعنى به الحرية الشخصية فقد ذكر سعادة الخطيب مبادئ الحزب ستة أشياء في جدول مرقوم ولم يذكر في مقدمتها ولا من بينها الحرية الشخصية.<sup>(٥)</sup>

ثانياً: «وترك الحزب مطلب التعليم بالعربية في مدارس الحكومة وهو الأمر الذي قرره الجمعية العمومية بأغلبية تكاد تكون اجماعا فالتعليم بلغة البلاد من المطالب الوطنية الأولى ولا يوجد حزب من الأحزاب بين الأمم التي وصلت إلى درجة تشكيل الأحزاب السياسية لا يفديه بالنفس والمال لأن اضاعة اللغة تسليم للذات».

(١) د. يونان ليب رزق- الحياة الحزبية في مصر - ص ١٤٣-١٤٤.

(٢) المصدر السابق- ص ١٤٤.

(٣) المؤيد- ٢٦ فبراير سنة ١٩٠٧ مقال بعنوان (آداب الأحزاب)

(٤) المؤيد- ٢٧ فبراير سنة ١٩٠٧.

(٥) المؤيد- ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٠٧ مقال بعنوان (المطالب الوطنية والأحزاب).

ثالثاً: ذكر الحزب بين المبادئ التي قررها ان الاشتراك مع الحكومة في وضع القوانين والمشروعات العامة حق طبيعي للأمة ولكنه بين ذلك بأن يسعى أولاً في توسيع اختصاص مجالس المديرية ومجلس شورى القوانين والجمعية العمومية حتى يكون للوطنيين رأى محدود في القوانين التي يعاملون بها حتى تصل بالتدريج الى المجلس النيابي الذي يوافق حالنا السياسية.. فناقض آخر الكلام أوله أو أضعفه لأن من مقتضى كون المشاركة حقاً طبيعياً ان تكون مستحقين أول وهلة للمحكم الذاتي بكل معاونه بينما مقتضى قوله (ان نصل بالتدريج إلى المجلس النيابي الذي يوافق حالنا السياسية) أننا لسنا الان مستحقين لهذا المجلس مع تقييده بقييد (الذي يوافق حالنا السياسية) وبهذا القول يخالف (حزب الأمة) مآثرته الجمعية العمومية في أوائل هذا العام من أنها تطالب مجلس النواب طلباً أصلياً ذاتياً ولكنها تطلب توسيع اختصاصات الهيئات النيابية الحاضرة طلباً احتياطياً.

رابعاً: تلاحظ على الحزب في تشكيله ودعواه أنه يمثل الأمة من كل جهاتها مع تقصيره في الدعوة للاجتماع وقصده نفسه على المشتركين في (الجريدة) من أول الأمر - وكان خيراً لهم أن يعمموا الدعوة ولم يجعلوا انفسهم شركة فيها كثيرون من الشركاء لا يدرون من الأعمال السياسية.

ثم اشتدت حملة المؤيد على حزب الأمة اذ نشرت مقالا للسيد حسن موسى العقاد هاجم فيه حزب الأمة وصحيفة (الجريدة) لسان حاله وقال إنها مملثة للاحتلال وظهرت بوحي منه فهو يعلن انه «قد ذاع قبل صدور الجريدة أنها احتلالية في صورة وطنيه.. فتكون المقطم الثاني أو تحل محله لعدم تأثيره» (١).

كذلك فتح (المؤيد) صفحاته لكل من (عثمان بك سليط) و(محمد بك الاتريبي) اللذين كانا من أعضاء شركة الجريدة لينشرا كتاباً مفتوحاً يتهمان فيه مدير الجريدة بالاستبداد وينكران فيه تسمية شركة الجريدة بحزب الأمة.. (٢) ولقد وصل هذا النزاع إلى القضاء وفيما يتعلق بموقف صحيفة المؤيد من اعلان الحزب الوطني بزعامة مصطفى كامل.. فقد تجاهلت الأمر في البداية وهي عكس ما فعلته مع حزب الأمة ولكن الشيخ على يوسف لم يستطع أن يخفى غيرته من شعبية الحزب الوطني فكتب يعلن أن قيمة أي حزب «إنما بما فيه من العقلاء والتصحاح لا بكثرة ما فيه من المهرجين والغوغاء» (٣).

كذلك هاجم الشيخ على يوسف محاولة الحزب الوطني استقطاب طلبة المدارس وطالب بابتعاد «التلاميذ عن السياسة حتى لا يتصرفوا عن دروسهم» (٤).

(١) المؤيد - ٤ يناير سنة ١٩٠٨.

(٢) المؤيد - ٤ يناير سنة ١٩٠٨.

(٣) المؤيد - ٣ نوفمبر سنة ١٩٠٧.

(٤) المؤيد - ١٢ نوفمبر سنة ١٩٠٧.

ولكن المعركة بين الشيخ على يوسف ورجال الحزب الوطنى مالبت أن انفجرت عيفة بعد أشهر قليلة من وفاة مصطفى كامل وكان سبب الخلاف هو تباين وجهة نظر الاثنين حول قضية الدستور والمجلس النيابى وكيفية الحصول عليهما<sup>(١)</sup>.

ولقد وصل النزاع بين الشيخ على يوسف واللواء حدا جعل الشيخ يرفع قضية ضد اللواء ورئيس تحريرها الشيخ عبدالعزيز جاويش وقد كتب الشيخ على يوسف مقالا يكشف فيه عن السر فى رفعه هذه القضية ضد اللواء فقال «لقد تجاوز اللواء الحد فى سبابنا إلى قذفنا باسناد جريمة فظيعة لو كانت صدرت منا لأوجبت عقابنا فعلا ولحرمتنا من حقوقنا المدنية - كما زعم ذلك هو الذى اضطرنا إلى رفع الدعوى ولقد كنا نرخصي العنان لرئيس تحرير اللواء فيما يتعلق بسياسة الجريدة فينسبنا إلى المروق من الوطنية وخيانة الوطن فقلنا هى الفاظ اعتادها قلمه فى مثل هذه المباحث ولكن وصوله إلى درجة أننا سرقنا قبل الآن وأتينا حوكمنا على هذه السرقة وان انتخابنا سقط لمثل هذا بجعل لنا عذرا كافيا فى أن ندعوه إلى القضاء فهو الذى يحكم بيننا وبينه وهو خير الحاكمين»<sup>(٢)</sup>.

ولكن الشيخ على يوسف تنازل عن هذه القضية عندما بدأت محاكمة الشيخ عبدالعزيز جاويش بمناسبة نشره مقالا عن ذكرى دنشواى رأت فيه النيابة قذفا فى بطرس باشا غالى فقال الشيخ على يوسف نظرا للظروف التى يمر بها الشيخ عبدالعزيز جاويش (بعد محاكمته لمقال ذكرى دنشواى) قررنا التنازل عن القضية التى كنا رفعناها ضده<sup>(٣)</sup>.

كذلك أبدى بعد ذلك الشيخ على يوسف استنكاره للحكم على محمد فريد زعيم الحزب الوطنى فى قضية ديوان (وطنيتى) لعلى الغاياتى فقال «ونحن نأسف أشد الأسف على صدور هذا الحكم الذى نعتبره شديدا عما كان ينتظر لمثله فى هذه القضية»<sup>(٤)</sup>.

وبجانب هذه المعارك الفكرية والصحفية التى خاضتها المؤيد وخاصة للدفاع عن حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية ضد هجومات الأحزاب المنافسة - فقد كانت الصحيفة تفرد صفحاتها لأخبار الحزب واجتماعاته وندواته وخطب أعضائه.

ويكتب الشيخ على يوسف المقالات مدافعا عن الأحزاب وأهميتها فى الحماية السياسية للأمم فيؤكد فى أحدها أن «وظيفة الأحزاب السياسية فى الأمم هى أن تحصر الأفكار المتشعبة وأن تلم شعث الرأى فى تيارات محددة تجرى فى مجاريها لتكون كل طائفة منها متجانسة فى المبادئ والأميال قائمة بذاتها حيال الطائفة التى تخالفها غالبا فى الجوهر ونادرا فى العرض.. ولكن هذه

(١) انظر الفصل الخاص بالصحافة والحياة النيابية والصحافة والدستور.

(٢) المؤيد - ١٠ يوليو سنة ١٩٠٩ مقال بعنوان (قضايا اللواء).

(٣) المؤيد - ٧ سبتمبر سنة ١٩٠٩ مقال بعنوان (المؤيد واللواء).

(٤) المؤيد - ٢٣ يناير سنة ١٩١١.

التيارات المختلفة انما تروى غرائس أقطار الوطن وتتشرب الثمر النافع له اذا كانت فى البلاد هيئات نيابية تتصل بها اتصال السالب بالموجب فى القوى الكهربائية الفعالة» (١)

وهو يرى أن الأحزاب «اذا لم تكن بجانب هيئات نيابية كانت وظيفتها قاصرة على توسيع الحركة الفكرية وفى هذه الحالة قد يروج الخطأ فى أفكار بعض الأحزاب ويطول أمده لأن المحكمة الفاصلة التى تصدر القرارات فى الآراء والمبادئ المختلفة غير موجوده وأعنى تلك المحكمة الهيئة النيابية- «فالهيئات النيابية اذن أول ماتشمر فى الوسط التى تشاد فيه هو ان تصلح فساد الأفكار والآراء وبعد ذلك تقوم النظام المعوج».

ويرد الشيخ على يوسف على البعض القائل بأن فائدة الأحزاب المصرية «محدودة لعدم وجود حياة نيابية بل قد يكون من وراء بعضها الضرر الكثير». فيقول بأنه يكفى لنا «تلك الفائدة المحدودة للأحزاب المصرية.. ويجب أن نتذكر أنها كانت معدومة من قبل ثم وجدت وأما ضرر بعضها على فرض وجوده فليس هو من طبيعة وجود الأحزاب ولكن من طبيعة وجود الأفكار الفاسدة مع السعى فى ترويجها من أى طريق كانت دائماً الواجب على المحق من هذه الأحزاب أن يكون أقوى جهادا فى العمل من المبطل لتكون كلمة الصواب هى العليا وكلمة الخطأ هى السفلى».

أما «الجديدة» فقد كانت لسان حال الأمة ولقد سبقت (الجريدة) حزب الأمة فى الصدور تماما كما حدث بالنسبة للواء والمؤيد ولكنها تميزت عنهما بانها لم تكن ملكا لفرد- فقد صدرت عن طريق شركة ضمت ٧٣ مساهما» (٢).

ورغم أن الجريدة كانت تعبر عن حزب الأمة إلا أن المتتبع لسياستها يلاحظ أنها كانت قبل كل شئ لسانا ناطقا بفلسفة محررها أحمد لطفى السيد وأفكاره واتجاهاته أكثر مما كانت لسانا ناطقا بلسان الحزب الذى تحمل اسمه. لم يكن رجال حزب الأمة يتفقون فى كثير من الاحيان مع احمد لطفى السيد فى أفكاره واتجاهاته (٣).. مثلما حدث فى الحرب التركية الايطالية فى طرابلس حيث كانت غالبية أعضاء حزب الأمة لايتوافق على خطة لطفى السيد المعارضة لحركة جمع الترعات لمساعدة المقاومة الطرابلسية ضد الغزو الايطالى.

ويلاحظ أن الجريدة قد استغلت الفترة مابين صدورها فى (٩ مارس سنة ١٩٠٧) واعلان حزب الأمة فى (٢١ سبتمبر سنة ١٩٠٧) فى تمهيد رأى العام لإعلان الحزب والدعوة للحياة الحزبية بشكل عام وكتب أحمد لطفى السيد أكثر من مقال فى هذا الشأن ولعل أهم هذه المقالات هو ماتحدث فيه عن حقيقة الاتجاهات السياسية فى مصر وموقفها من الاحتلال وتعرض لمفهوم الأحزاب السياسية وتساءل هل هذه الأحزاب موجودة

(١) المؤيد- ٧ يناير سنة ١٩٠٩ مقال بعنوان (وظيفة الاحزب).

(٢) الجريدة- ٩ مارس سنة ١٩٠٧.

(٣) د. حسين فوزى النجار- الجريدة- تاريخ وفن- ص ١٢.

فى مصر أم لا رغم أنها غير معلنة؟ وقد بدأ مقالته بتعريف مفهوم الحزب فقال إن «كل حزب سياسى إنما يتكون من مجموع افراد يعرف بعضهم بعضا فى حال التكوين على الأقل ثم يتبادلون أفكارهم ويتفاوضون فيها ثم يكون من ذلك الاتفاق على مبدأ معين ترسم غايته والوسائل الواجب استخدامها لبلوغ هذه الغاية أى الاتفاق على اللائحة التى يسير عليها عمل ذلك الحزب» (١).

ثم طبق هذا المفهوم على الواقع السياسى فى مصر وخرج من ذلك بنتيجة أكد فيها انه «ليس فى مصر على ما نعلم شىء من هذا القليل .. فلم يكن من جماعة انهم افكروا شأن ترقى بلادهم وتفاوضوا فى الوسائل الممكنة التى تؤدى إلى هذا الرقى ووضعوا لها لائحة معروفة» .. ورغم ذلك فلطفى السيد يؤكد أن الأرض مهددة فى مصر لقيام أحزاب سياسية لأنه يوجد فى البلاد «طبقة مستتيرة من بين الموظفين فى الحكومة والمتشغلين بالأشغال الحرة والأعيان يشعرون بحاجة البلاد إلى رأى عام يتكون من الأفكار الصححية وهؤلاء يزيد عددهم يوما فيوما».

وبعد اعلان حزب الأمة أخذ أحمد لطفى السيد يتصدى للرد على انتقادات الصحف الأخرى لخطه الحزب وبرنامجه ومن ذلك رده على انتقادات الشيخ على يوسف وبالذات فيما يتعلق بما لاحظته عن غياب مبدأ الحرية الشخصية من برنامج الحزب فقال فى رده «الحرية الشخصية فى مصر موجودة بقوة القانون موجودة بالعمل واصبحت معروفة ومحترمة عند جميع طبقات الناس فما مثل الذى يجعل الحرية الشخصية ونحن على هذه الحال مطلباً يسعى إليه إلا كمثل الذى يطلب لنا أن نكون مصريين تابعين لسيادة الدولة العلية محتلة بلادنا بالانجليز .. فأن ذلك كله هو الواقع من أمرنا» (٢).

ويكشف أحمد لطفى السيد عن سبب هجوم صاحب المؤيد على حزب الأمة فيذكر أن «صاحب المؤيد غاضب لأنه سبق له أن طلب الانضمام إلى شركة الجريدة وإلى الحزب فى اول عام تاليه عند انشاء الجريدة فقد قال له محمود باشا سليمان انه سوف يسأل أعضاء الشركة الذين رفضوا قبول على يوسف فى حزبهم لانه لايسير ولايكتب بما يعبر عن رأيهم وعلى حد قولهم .. «لو انا راضون عن خطة المؤيد لما كان بنا من حاجة إلى انشاء جريدة جديدة بل كنا نتخذ المؤيد لسانا لنا فكيف يكون سعادة صاحب المؤيد عضوا منا ونحن لانوافق على خطته ومبادئه المتعلقة بعلاقة الحاكم بالمحكوم ولا فى سياسته ولم يكن هناك داع اخر لاسمح الله لعدم قبوله عضوا فى شركة الجريدة المصرية أى فى حزب الأمة إلا ماذكرنا من المخالفة فى السياسة».

وعندما أعلن الشيخ على يوسف عن قيام حزب الاصلاح على المبادئ الدستورية ناقشت الجريدة برنامج الحزب الجديد وأكدت أنه «لم ينل عناية الجمهور ماكان للحزبين السابقين حزب الأمة والحزب الوطنى» (٣).

(١) الجريدة- ١٨ مايو سنة ١٩٠٧.

(٢) الجريدة- ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٠٧.

(٣) الجريدة- ١١ ديسمبر سنة ١٩٠٧ مقال بعنوان : اصلاح المبادئ الدستورية.



وانتقدت الجريدة خلو برنامج حزب الاصلاح من مبدأ (الحرية الشخصية) وهو المبدأ الذى سبق وعاب خلو برنامج حزب الأمة منه «فأين مبدأ الحرية الشخصية الذى تشدق به سعادة رئيس حزب الاصلاح».

ولقد شنت الجريدة هجوما شديدا أيضا على الحزب الوطنى حين اعلانه ولكن لا بد أن نلفت النظر إلى أن هذا الهجوم كان رد فعل للهجوم العنيف الذى شنه الحزب الوطنى ومصطفى كامل ضد حزب الأمة - وكان من أبرز القضايا التى ركزت الجريدة الهجوم عليها هى دعوة مصطفى كامل الأحزاب إلى حل نفسها والاكتفاء بالحزب الوطنى كحزب واحد يعبر عن ارادة الأمة فقالت الجريدة «أن الكاتب الذى يريد أن يجمع الأمة كلها فى حزب واحد ويقضى على الاثنى عشر مليوناً بأن يفكروا على منوال واحد ويتخذوا وسائل متشابهة للبلوغ إلى الغاية.. انما هو جاهل بطباع البشر غافل عن التباين الغريزى بين الأفراد» (١).

ويلاحظ أن عام ١٩٠٨ قد شهد بداية تقارب بين حزب الأمة والحزب الوطنى وقد حدث ذلك بفعل عاملين هامين: الأول: أن هذا العام شهد بداية التقارب بين السلطتين الفعلية والشرعية بعد عزل كرومر وتعيين جورست معتمدا لبريطانيا فى مصر وقد أدى ذلك إلى وقوع الخلاف بين الحزب الوطنى وبين الخديو من ناحية.. بينما زادت عوامل الشك من جانب حزب الأمة فى سلطات الاحتلال من ناحية ثانية مما خلق موقفا وأرضا مشتركة بين كلا الحزبين.. والعامل الثانى وهو تلك الوفاة الفجائية لمصطفى كامل فى ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ عن ٣٤ عاما وقد أثرت هذه الوفاة الدرامية فى الكثير من قيادات حزب الأمة وبالذات فى أحمد لطفى السيد الذى وصل به الامر أن تبنى الدعوة للاكتساب لإقامة تمثال لمصطفى كامل.

لذلك لم يكن غريبا أن يكتب أحمد لطفى السيد عن مصطفى كامل قائلا انه «الوطنية.. فقد كأن شعاره الوطنية ووسيلته الوطنية وغرضه الوطنية وكلماته الوطنية وحياته الوطنية حتى لبسها ولبسته فصار بينهما التلازم فإذا ذكرت مصطفى كامل باشا بخير فإنما تطرى الوطنية وإذا قلت الوطنية فإن أول مايمثل فى خيالك شخص مصطفى كامل كأنما هو الوطنية والوطنية هو» (٢).

وعندما صدر الحكم على الشيخ جاويش بالسجن ثلاثة شهور وانذار جريدة اللواء لشربها مقالات عن الناصر الهندى (دنجرا) الذى اعدم لاغتيااله (السيركزون ويلي) علق حين عبدالرازق على الحكم والانذار فقال «أن لصدور الحكم والانذار فى يوم واحد معنى يشير إلى أن الحكومة تريد باللواء سوءا وهى فى نظرى سياسة عنف تشف عن شىء من دلالة الضعف» (٣).

(١) الجريدة - ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٠٧ مقال بعنوان (هل الامة حزب واحد؟).

(٢) الجريدة - ١٣ فبراير سنة ١٩٠٨ مقال بعنوان (تمثال مصطفى كامل - تمثال الوطنية).

(٣) الجريدة - ٢٦ أغسطس سنة ١٩٠٩ مقال بعنوان (حكم وانذار).

ولكن هذا التقارب بين حزب الأمة والحزب الوطنى لم يكن يحول دون اختلافهما فى كثير من الحالات والمواقف ولعل أعنفها تلك المعركة الصحفية العنيفة التى نشبت بين الشيخ عبدالعزيز جاويش وبين أحمد لطفى السيد حول الحرب الطرابلسية.. حيث كان الحزب الوطنى يقود حملة الدعاية للاكتتاب لاعانة الجيش العثمانى فى حربه ضد الايطاليين الذين غزوا طرابلس.. بينما كان لطفى السيد يرى أنه لاعلاقة لمصر بهذا الامر وأن الواجب عليها أن توجه جهودها لشئون مصر وحدها.. مما دفع الشيخ جاويش إلى اتهام لطفى السيد بأنه عدو الاسلام.

ويلاحظ أن بقية الأحزاب الأخرى الصغيرة فشلت أو عجزت عن أن يكون لها صحف دائمة تعبر عن سياستها أو تنطق باسمها فعندما فكر (ادريس راغب) فى أن يعثر على صحيفة للحزب الدستورى حاول أن يتخذ من صحيفة (مصر الفتاة) التى كانت تنتمى إلى الحزب الوطنى لسان حاله وعلى الرغم من اتفاقه مع (يوسف المويلحى) بمول الجريدة إلا أن محرريها من رجال الحزب الوطنى رفضوا تحويل جريدتهم إلى النطق باسم حزب آخر.. كذلك فشل (اخنوخ فانوس) مؤسس الحزب المصرى فى ايجاد صحيفة له رغم اعلانه عن نيته فى اصدار جريدة باسم (الرأى المصرى) ولكنها لم تصدر مطلقا ونفس الفشل واجهه (محمد غانم) رئيس الحزب الجمهورى.

أما الحزب الوحيد الذى استطاع أن ينشئ جريدة تعبر عنه فهو حزب الأحرار الذى بدأ نشاطه على صفحات المقطم ثم تمكن مؤسسة محمد وحيد من اصدار صحيفة (الأحرار).

ومن أهم الصحف الحزبية إلى صدرت بعد ثورة ١٩١٩ صحيفة السياسة لسان حال الأحرار الدستوريين.. ويشرح الدكتور محمد حسين هيكى رئيس تحريرها.. فى أول مقال له فيها طبيعة العلاقة بين الصحيفة والحزب فيقول «إن جريدة السياسة تظهر اليوم لإذاعة رأى حزب الأحرار الدستوريين وهى تنشر اليوم مبادئ الحزب وخطاب رئيسه. وهى بذلك تقوم بواجبها فى الحياة الحزبية حيث يقتضى الأمر تنظيم جهود الأمة ولن يكون ذلك إلا اذا نشرت الأحزاب آراءها وقام كل بنصرة مبادئه الخاصة وتضامنت جميعا فى سبيل تحقيق الأغراض القومية» (١)

وقد تصدت السياسة للرد على مهاجمة الصحف الأخرى لحزب الأحرار الدستوريين عقب اعلانه وخاصة الصحف المناصرة لسعد زغلول فكتب (محمد توفيق دياب) يفند حجة الذين يقولون أن انشاء حزب الأحرار الدستوريين يفرق وحدة الأمة فقال «كيف يزعم زاعم أن فى تاليف حزبنا اضعافا لوحدة الأمة أو عملا على تفريقها. اليس الأحزاب على تعدادها خدمة للامة ومن ذا يقول أن كثرة الخدم تنقص من سعادة المخدم» (٢)

كذلك تصدى الدكتور هيكى لهذا الهجوم وأعلن أن هجوم الوفد على حزب الأحرار الدستوريين ليس له من سبب سوى «رغبة سعد زغلول فى احتكار زعامة البلاد رغم أنه ليس كفتا له» (١)

(١) السياسة - ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٢٢ مقال بعنوان (السياسة)

(٢) السياسة - ٢ نوفمبر سنة ١٩٢٢ - مقال بعنوان (حزبنا يدعو إلى الاتحاد)

(٣) السياسة - ١٢ نوفمبر سنة ١٩٢٢ مقال بعنوان (أينا أهلى سيلا؟)

وعندما اغتيل حسن باشا عبد الرازق وإسماعيل بك زهدى قطبى الاحرار الدستوريين اثناء خروجهما من مقر الحزب كتب الدكتور طه حسين مقالاً افتتاحياً حمل فيه الوفد والصحف المناصرة له مسؤولية الحادث بعمليات التهيج التى مارسها ضد حزب الاحرار الدستوريين فقال «لم نكن نعلم إلى اليوم أن الخلاف فى رأى يسبب القتل.. وهذا النظام الجديد الذى وصلنا إليه نظام الارهاب والقتل.. وهذا النظام الجديد الذى وصلنا إليه نظام الارهاب والقتل السياسى مقدمة لأسوأ النتائج التى يمكن أن تحيق بالبلاد لأنه يدل على حكم المجرمين والبله والسفلة والادنياء منها» (١)

وبعد اعلان الدستور وبدأ الاستعداد لأول انتخابات برلمانية فى مصر هاجم الدكتور هيكल الوفد واتهمه بأنه حزب لا برنامج له فقال: «لابد من برنامج لكل فرد أو حزب يريد أن يرشح نفسه ولاسيما للبرلمان المقبل.. فما رأى الوفد فى التحفظات الاربعة- وفى تصريح ٢٨ فبراير وفى مسألة السودان وفى مسألة الجيش المحتل (٢)». وتحدى الكاتب أن يقدم الوفد «أجوبة صريحة تستريح إليها الأمة».

وبعد تولى سعد زغلول رئاسة الوزارة المصرية بعد فوز الوفد الكاسح فى الانتخابات تصدى الدكتور هيكل فى «السياسة» لتقد خطبة العرش التى تشرح برنامج الوزارة فى الحكم فكتب عدة مقالات مبينا أوجه انتقاده. وكان من أهم هذه الانتقادات التى نسوقها على لسانه:

أولاً: «أن الوزارة أقرت فى ثلاثة أسطر سياسة إنجلترا قبل مصر على صورة لا تتفق مع ما يقتضيه الدستور- فهى أقرب تصريح ٢٩ فبراير سنة ١٩٢٢ وأقرته بدون تحفظ ولا احتياط.. أقرته وهى التى طالما قالت قبل ولاية الحكم أنه نكبة على الوطن» (٣)

ثانياً: «كيف انقلب فى رأس الحكومة الدستور الرجعى دستورا عصريا فهل هذه عهدكم للامة ومواثيقكم امام ضمائرهم» (٤)

ثالثاً: «لقد قدمت الوزارة تنازلاً شنيعاً حين تكلمت عن مهمة النواب فقصرتها على تحقيق استقلال مصر.. دون السودان» (٥)

كما هاجم الدكتور هيكل الوزارة الوفديه لانها «تعزل من العمل رجالاً ذوى كفاءة لا لشيء إلا أنهم مغايرون لها فى رأى السياسى ومن أجل الشره فى مكافأة المحاسيب والأنصار بالوظائف» (٦)

- 
- (١) السياسة- ١٩ نوفمبر سنة ١٩٢٢ مقال بعنوان (القتل السياسى).
  - (٢) السياسة- ١٩ مايو سنة ١٩٢٣ مقال بعنوان (ماببرنامج الوفد؟)
  - (٣) السياسة- ١٦ مارس سنة ١٩٢٤ مقال بعنوان (خطبة العرش).
  - (٤) السياسة- ١٧ مارس سنة ١٩٢٤ مقال بعنوان (خطبة العرش).
  - (٥) السياسة- ١٨ مارس سنة ١٩٢٤ مقال بعنوان (خطبة العرش).
  - (٦) السياسة- ١١ أبريل سنة ١٩٢٤ مقال بعنوان (وزارة الشهوات لاوزارة الشعب).

وبعد استقالة وزارة سعد زغلول عقب حادث مقتل السردار تم حمل البرلمان والاستعداد لانتخابات جديدة شنت صحيفة السياسة هجوما عنيفا على الوفد وعلى زعيمه سعد زغلول بالذات وقد تعدى الهجوم النقد الموضوعى إلى الشتائم الشخصية وهى اشيء لم تشهدها الحملة الانتخابية السابقة. فتحت عنوان ( عاد إلى التضليل.. حول نداء سعد الأخير) تكتب السياسة قائلة: «ومتى انقطع سعد عن التضليل؟ ومتى برئت حياته من التضليل؟ كان مضللا قبل أن يلى الحكم وكان مضللا حين ولى الحكم وهو مضلل بعد أن انزل عن الحكم.. كتب الله عليه أن يكون مضللا وهو إن انقطع برهة عن التضليل إلا ليتورط فى اشر منه وهو الجبن وخور العزيمة والتسليم فى حقوق الوطن» (١)

ومع أنه كان يوجد عدد غير قليل من الصحف المناصرة (للفرد) ولسعد زغلول والمدافعة عنه ضد معارضيه كصحيفة (النظام) و(الافكار) و(المحروسة) و(مصر) و(الأهلى) فى سنواتها الاخيرة إلا أن هذه الصحف كلها كانت تعبر عن مواقف أصحابها أكثر مما كانت تعبر عن (الوفد) كتنظيم سياسى وحزبى.. وكثيرا ماكانت تتغير مواقف أوقناعات أصحابها.. مثلما حدث بالنسبة لصحيفة (الاخبار) التى اصدرها امين الرافعى لتدافع عن الوفد حتى حدث الخلاف حول اساس المفاوضات بين امين الرافعى وسعد زغلول فتحوّلت الصحيفة إلى صف المعارضة لسعد وللوفد.

لذلك يمكن القول أن صحافة الوفد الحزبية لم تبدأ إلا باصدار (البلاغ) (لعبد القادر حمزه) فى ٢٨ يناير ١٩٢٣ وكوكب الشرق (أحمد حافظ عوض) فى ٢١ سبتمبر سنة ١٩٢٤ والصحيفتان كانتا لسان حال الوفد وتصدران على مبادئه.

واذا مابدأنا حديثنا (بالبلاغ) سوف نلاحظ مساهمة عباس محمود العقاد فى كتابه المقالات السياسية بها بجانب رئيس تحريرها عبدالقادر حمزة ولقد تسببت مقالاته فى تعطيل الصحيفة أكثر من مرة كان أولها فى ٦ مارس ١٩٢٣ بعد ثلاثة اشهر من صدورهما وقد اعتقل صاحبه فى معتقل قصر النيل ثم عاود البلاغ الصدور فى ١٨ يونيه سنة ١٩٢٣ ثم عطل بعد ذلك أكثر من مرة.

ومن المقالات الهامة التى تناولت مناقشة الحياة الحزبية.. مقال نشرته البلاغ للعقاد بعنوان «تعدد الأحزاب فى المجالس النيابية وهل فيه خطر على حرية الأمة؟» ذكر فيه الكاتب أنه يسهل على رئيس الدولة أن يعيث بارادة الأمة» اذا كثر عدد الاحزاب وتشعبت مآربها وتفرقت اهاؤها فيؤلف الوزارة على هواه ووفق رضاه ولايتقيد بمشيئة الأمة ولا بمشيئة الأحزاب المتفوقة بل يسهل على رئيس الدولة ماهو أعظم من ذلك.. يسهل عليه أن يسيطر على الانتخابات فلا يفوز بالأكثرية غير الحزب الذى ينتمى إليه وينصره فيلعب بالأمة لعب المالك المستعبد المتعسف وهو يمتن عليها فى ظاهر الأمر بالحرية والأنظمة الديمقراطية» (٢)

(١) السياسة - ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٢٤ مقال بعنوان ( عاد الى التضليل).

(٢) البلاغ - ٤ يوليو سنة ١٩٢٣ مقال بعنوان (تعدد الاحزاب فى المجالس النيابية هل فيه خطر على حرية الامة).

وللعقاد ايضا جولات عتيقة ضد المعارضة وصحفها.. فهو يتصدى للرد على هجوم قامت به أثناء الحملة الانتخابية جريدة السياسة على المرشح الوفدى (سينوت بك حنا) حيث اتهمته الصحيفة بأنه لايعرف الخطابة.. فوجدها العقاد فرصة للنيل والسخرية من زعيم الأحرار الدستوريين عدلى يكن فقال: «ألا تذكرون يوم عاد صاحبكم من لندن بعد أن رفع فيها رأس البلاد ألا تذكرونه ناكس الرأس خافض الطرف متلعثم اللسان متعثرا فى موقفه لا يكاد يسمعه.. أقرب الناس إليه ويوشك ألا يبلغ كلامه إلى اذنيه.. ألا تذكرون كيف شل لسانه وخانه؟ فى أربعة اسطر مكتوبة له فلم يقول على التلفظ بها وهو الذى ذهب إلى لندن ليغلب كرزون بخلاصة لسانه وبراعة البيان؟ إليس هذا هو عدلى يكن ام قد نسيتموه؟ ثم أن سينوت بك لم يدع الزعامة على الأمة ولا هو يطلبها وانما هو نائب عن اقليم يجله ويثق به ويعتقد فيه الكفاءة للنيابة عنه». (١)

كذلك تصدى العقاد للدفاع عن حكومة سعد زغلول بعد ذلك ومن أهم هذه المقالات مارد فيه على أمين الرافعى محرر الأخبار الذى هاجم مفاوضات سعد؟ فقال العقاد «والا بله امين الرافعى ماذا يقول؟ يقول أن سعدا أخطأ بمحادثاته التى أسفرت عن تصريح انجليزى أسوأ أثرا من تصريح ٢٩ فبراير فسياسة الانجليز التى بسطوها فى الكتاب الأبيض هى اذن نتيجة المحادثات التى طالب فيها سعد بجميع حقوق البلاد.. فهل هناك احد يقف على قدميه لاعلى رأسه يفوه بمثل هذا الهراء؟ وهل يلام سعد لأنه أعلم الانجليز بمطالب أمته وبين لهم ماتريده وما لا يمكن أن نعدل عنه.. أليس هذا ما كان يطلبه هذا الايله ليل نهار ويتهم وزارة سعد بالضعف والاستسلام لأنها كما كان يتوهم لم تجابه الانجليز بهذه المطالب ولم تتمسك أمامهم بحقوق مصر!!

ثم أنهى العقاد مقاله قائلا «هذه هى المعارضة فى مصر فحواها كلمة واحدة وهى أنهم لا يريدون من سعد أن يطالب بحقوق مصر وينضح عن حوزنتها ولكنهم يريدون منه أن يكون عرضة للوم على كل حال». (٢)

وبعد مقتل السردار واستقالة وزارة الوفد رفعت أحزاب المعارضة شعار اتحاد الاحزاب فهاجم العقاد هذه الدعوة وقال «كان يفكر هؤلاء المناكيد المناحيس فى اليوم الذى قالوا فيه أن موقف مصر لم يصل إلى مثل هذا الجرح فى تاريخنا الحديث.. بالوزارة كانوا يفكرون والسيف مصلت على رأس مصر بالوزارة لاستقلال مصر ولا بمستقبل السودان ولا بشيء مما يكرب الأمة وريجثم على صدرها جثوم الكابوس المخيف».. ثم أضاف «هؤلاء هم الأحرار الدستوريون وهذه هى الوجوه التى يظهرون بها للناس لكل يوم فى صحيفة معروضة للتداول والانتشار ولو بقيت لها بقية من الحياء لاتخذوا من ورق تلك الصحيفة براقع يتوارون خلفها من الأنظار». (٣)

(١) البلاغ - ٦ يوليو سنة ١٦٢٣ - مقال بعنوان (معرض الأسبوع)

(٢) البلاغ - ١٠ أكتوبر سنة ١٩٢٤ - مقال بعنوان (ماذا يقولون؟).

(٣) البلاغ - ٧ ديسمبر سنة ١٩٢٤ مقال بعنوان (دعوتهم إلى الاتحاد)

ولقد بلغ الصراع الحزبي حدا جعل العقاد يتهم الحزب الوطنى والأحرار الدستوريين بالعمل على تحقيق هدف الانجليز فى هدم سعد زغلول والوفد فقال «ليس من شك فى أن الانجليز والأحرار الدستوريين وبقايا الحزب الوطنى يعملون الآن فى اتجاه واحد يقصدون إلى نتيجة واحدة هى هدم سعد والتشهير بسياسته» (١)

أما «كوكب الشرق» لأحمد حافظ عوض فقد سارت هى أيضا مع (البلاغ) فى الهجوم على المعارضة للوفد ولسعد وافهمت المعارضين بانهم الخوارج على الأمة.. وهم الوزراء والمستوزرون وعباد المناصب ومنفذو مشيئات الاحتلال وخادمو غاياته.. وهم داعاة الهزيمة والتردد» (٢)

وكانت كوكب الشرق.. أميل إلى أسلوب السخرية من المعارضة فهى تشهر بهم قائلة إنهم «فرشوا الملاية كما يقول العوام ياسيدى.. واعوزتهم الحجة على كتاب الأمة فلجأوا إلى سلاح الضعفاء والمهمشين إلى (الردح) والسب والغمز واللمز والقذف والطعن» (٣)

ولا يسلم الدكتور هيكمل من سخرية أحمد حافظ عوض الذى يهاجمه فيقول: «للشيخ (سلطة) أسلوب خاص هو نفاسة (التعاسة) خلوه من الذوق والكياسة».

وتدافع كوكب الشرق عن سعد زغلول ضد هجوم المعارضة فتقول إن سعدا ليقف كل ساعة أمام الأمة وكتابة منشور غير مطوى قائلا: هاؤم أقرأوا كتابى مقدما بشجاعته المعروفة على كل تضحية فى سبيل الوطن وحمل كل ألم من أجل حريته واستقلاله» (٤)

ثم هاجم الكاتب الاحرار الدستوريين فيسميهم «بالأحرار الوصوليين».. «فهم اذا استن النضال واحتدم القتال ليسوا إلا كحمر مستنفرة فرت من قسوره».

\*\*\*

ويقدم لنا (الأهرام) نموذجا للصحيفة المستقلة غير الحزبية..  
والحقيقة إن موقف الأهرام من الحياة الحزبية كان يتحكم فيه عاملان:  
الاول: الوقوف بعيدا عن الخلافات والمعارك بين الاحزاب حرصا منه على عدم الدخول تحت لواء حزب معين.

الثانى: التعاطف دائما مع الاتجاه السائد فى الحركة الوطنية المصرية..  
ومع أكثر الأحزاب تمثيلا وتعبيرا عن هذه الحركة. لذلك لم يكن غريبا أن نجدها تميل فى المرحلة الأولى من الحياة الحزبية إلى الحزب الوطنى بينما تتعاطف فى المرحلة الثانية أى التى تلت ثورة ١٩١٩ مع حزب الوفد.

(١) البلاغ - ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٢٤ - مقال بعنوان (الحلفاء الثلاثة يظهرون).

(٢) كوكب الشرق - ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٢٤ مقال بعنوان (من هم المعارضون؟).

(٣) كوكب الشرق - ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٢٤ مقال بعنوان (خواطر).

(٤) كوكب الشرق - ٣١ ديسمبر سنة ١٩٢٤ (هاؤم أقرأوا كتابى.. السعديون وخصومهم فى المعركة الانتخابية).

ورغم ذلك الميل والتعاطف فقد ظلت الأهرام محافظة على استقلالها عن الأحزاب حتى أن ترشيح الوفد (الجبرائيل ؟) صاحب الأهرام عن دائرة مصر القديمة فى الانتخابات الثانية لمجلس النواب فى نهاية عام ١٩٢٤.. لم تخرج الأهرام على استقلالها عن الأحزاب مع استمرار تعاطفها مع الوفد طبقا للمنهج الذى بيناه فى أول حديثنا عنها.

وأبلغ تعبير عن سياسة الأهرام ما جاء فى افتتاحية لها تعلن فيها «إننا فى هذا البلد لانتبع ولايجوز أن نتبع سياسة حزبية قيل أن نتخلص ونتملص ممن ينتقص استقلالنا من جوانبه وهو لنا بالمرصاد- فقوموا سياستنا اذن «القومية» حتى نصل إلى الاستقلال الكامل».(١)

وانطلاقا من هذا الموقف المستقل من الأحزاب تفسح الأهرام صفحاتها لأخبار ونشاطات وبيانات مختلف الأحزاب العاملة فى الحياة السياسية المصرية. وعلى سبيل المثال فإنها تنشر بيانات الحزب الاشتراكى المصرى وكثيرا من مقالات أعضائه كسلامة موسى وحسنى العربى وفى الوقت نفسه الذى تفتح فيه صفحاتها لمعارضى هذا الحزب من الكتاب والقراء.

وتقدم لنا صحيفة (الأخبار) لأمين الرافعى نموذجا آخر للصحيفة المستقلة غير الحزبية ولكنها كانت على النقيض من الأهرام تعارض الوفد وتميل إلى الحزب الوطنى.. ولقد بدأت الأخبار حياتها اصلا كصحيفة تعبر عن الوفد المصرى عندما كان لا يزال تجمعا وطنيا غير حزبي ولكن هذا الموقف سرعان ماتغير بعد أن عاد سعد زغلول من أوروبا فى أبريل سنة ١٩٢١ واختلاف أمين الرافعى معه حول دخول المفاوضات فقد طالب الرافعى (بتعديل الاساس) مستهدفا وضع أساس صالح للمفاوضات قبل دخوله على أن يكون هذا الاساس هو إلغاء الحماية البريطانية ورفع الاحكام العرفية والغاء التحفظات الأربعة كلها أمور قال بها سعد زغلول قبل تولي الحكم.. غير أن سعد زغلول رفض رأى أمين الرافعى وحمل عليه حملة عنيفة اثارته الجماهير فقامت المظاهرات تهاجم دار الاخبار وتقذفها بالحجارة. وعندما أعلن سعد فى جموع الشعب أنه يقرأ الأخبار بدلا منهم هوى توزيعها وهبط هبوطا كبيرا- غير أن أمين الرافعى لم يتحول عن رأيه وصمد فى مواجهة الحملة العاصفة.(٢)

ولقد تكررت هذه المواجهة بين أمين الرافعى وسعد زغلول بعد تولي سعد الوزارة فقد انتقد أمين الرافعى خطبة العرش(٣).. وطالب بأن يتحول البرلمان إلى جمعية وطنية تقوم بتعديل النصوص الرجعية فى الدستور(٤) ورفض سعد زغلول رأى الرافعى مرة أخرى فقامت

(١) الأهرام- ٣٠ مارس سنة ١٩٢٢ مقال بعنوان (النظام الدستورى فى البلاد).

(٢) أنور الجندي- الصحافة السياسية فى مصر- ص ٢٣٢.

(٣) الأخبار- ١٥ مارس سنة ١٩٢٤ مقال بعنوان (حول خطبة العرش).

(٤) الأخبار- ١٧ مارس سنة ١٩٢٤ مقال بعنوان (حول خطبة العرش).

المظاهرات الوفدية تهاجم دار الأخبار وتقذفه بالحجارة<sup>(١)</sup>.. بل كانت المظاهرات تحول دون توزيع الاخبار. ويعبر امين الرفعى عن ذلك الخلاف ويصفه فيقول «لقد عجزوا عن الدفاع عن خطبة العرش فأخذوا يبعثون عن وسائل أخرى يصلون بها إلى أغراضهم ولو كان فى اتباع هذه الوسائل القضاء على الروح الدستورية وتعطيل الوظيفة وشل لضمائر النواب والشيوخ.. لقد ذهبوا يهددون النواب والشيوخ بأن الوزارة تستقبل اذا عدلت خطبة العرش.. بل إن روح التهديد والتظاهر العدائى لم تقف عند النواب وحدهم بل يراد بها نشر الارهاب فى الجو كله لذلك فقد وجهت المظاهرات إلى الصحف المطالبة بالتعديل ومنها الأخبار ولم يكن عمل المتظاهرين مقصورا على الهاتف وحده وإنما تعداه إلى محاولة الايذاء المادى».

\*\*\*

وفى ختام هذ الفصل عن الصحافة والحياة الحزبية فى مصر لابد لنا من أن نسجل الملاحظتين التاليتين:-

الملاحظة الأولى: أنه اذا كانت الأحزاب السياسية فى مصر ثمرة من ثمرات الصحافة فإن العكس صحيح أيضا بمعنى أن الصحافة المصرية وانتعشت فى ظل الحياة الحزبية .. ذلك أن وجود الاحزاب ساعد على نمو الصحف واتساع حجم قرائها بما خلفته من نشاط سياسى فى المجتمع المصرى أدى إلى ازدياد عدد المتابعين ؟ كذلك يرجع إلى النشاط السياسى الذى خلفته الاحزاب الفضل فى تعدد الصحف السياسية لزيادة الاهتمام بصحافة الرأى وتبلور الكثير من الاتجاهات السياسية والفكرية والاجتماعية لدى الجماهير كما أن المناقشات الحزبية بين الصحف قد هيأت الفرصة لمظهر جيل كامل من الكتاب والمعلقين السياسيين.

الملاحظة الثانية: إن أى محاولة معاصرة لادانة أو انتقاد التجربة الحزبية السابقة فى مصر تصير محاولة بعيدة عن الموضوعية اذا ما تجاهلت بأن تلك التجربة كانت محكومة باعتبارين هاميين كانا يعوقان نموها وأول هذين الاعتبارين: يتمثل خلال المرحلة الأولى من التجربة الحزبية (١٩٠٧ - ١٩١٤) فى انعدام الحياة النيابية التى هى المستفس الطبيعى للأحزاب السياسية. أما ثانى هذين الاعتبارين فيتمثل فى وجود سلطات الاحتلال التى كانت تعمل بلا هوادة على افساد الحياة الحزبية أما عن طريق الارهاب والقمع وإما عن طريق الترغيب وشراء الضمائر والنفوس الضعيفة.. وإذا كانت قد توفرت للتجربة الحزبية فى مرحلتها الثانية (١٩١٩ - ١٩٥٢) الحياة النيابية إلا أنها ظلت - سواء التجربة الحزبية أو الحياة النيابية - محكومة بالاعتبار الثانى وهو وجود احتلال اجنبى يستخدم الترغيب والترغيب لافساد الحياة الحزبية فى مصر بالقدر الذى يتلاءم مع مصالحه.

\*\*\*

(١) الأخبار - ٢٢ مارس سنة ١٩٢٤ مقال بعنوان (تعديل خطبة العرش تهدد النواب والصحف بالمظاهرات).



الكتاب الشاوي

الصحافة المصرية ..  
وقضايا الحريات



## الفصل الحادى والعشرين

**الصحافة المصرية -  
وحرية الفكر والتعبير**



لم تكن حرية الفكر والتعبير - مجرد قضية من القضايا الهامة التي تعرضت لها الصحافة المصرية فى فترة البحث - وإنما كانت بمثابة معركة نخوضها الصحافة المصرية يومياً من أجل الدفاع عن النفس ضد عمليات التعطيل والمصادرة والإلغاء وإذا كانت حرية الفكر والتعبير تتضمن حرية الكتابة والنشر والقول والخطابة والاجتماع - فإن حرية الصحافة كانت فى حقيقة الأمر المقياس والمحك الفعلى لسائر الحريات التى تمتع بها المجتمع المصرى كله فى فترة البحث.

وتؤكد هذه الحقيقة عندما نعرف أن الحرية النسبية التى تمتعت بها الصحافة المصرية فى تلك الفترة - هى التى أتاحت للصحافة المصرية فرصة أداء الدور القيادى الذى قامت به فى المجتمع المصرى - بحيث جاءت أوقات أدت فيها الصحافة دور الأحزاب السياسية - ودور المجالس النيابية لذلك لم يكن غريباً أن يتفق أكثر الكتاب والمفكرين والصحفيين الذين عملوا فى هذه الفترة - رغم تباین اتجاهاتهم السياسية والفكرية - على تقدير خطورة الدور الذى تلعبه حرية الفكر .. وبالذات حرية الصحافة - فى تقدم المجتمع المصرى فهذا عبدالله التديم يؤكد أن حرية الفكر هى السبب فى تقدم شعوب أوروبا وأن غيابها هو السبب فى تخلف شعوب الشرق ويرى «إن إطلاق حرية الكتاب فى نشر أفكارهم بين الأمم لحياة أفكار العامة باحتكاكها بأفكار العقلاء وبهذه الوساطة ربي الكتاب الأمم وهذبوها ونقلوها من حضيض الجهل والحمول إلى ذروة العلم والظهور ووجدت الدول رجالاً مدربين لم تنفق فى تربيتهم درهماً ولا ديناراً وإنما رباهم المحررون والعلماء<sup>(١)</sup>».

ويعتقد التديم أن الشرق تخلف عندما (أخطأ هذا الطريق فخاف ملوكه من الكتاب والعقلاء فضغطوا على أفكارهم حتى أماتوها فى أذهانهم)

وكان الشيخ على يوسف يرى ان الله ميز الإنسان عن باقى الحيوانات بأمر كثيرة... أجلها حرية الفكر... وعلى هذا الأساس (فليس فى استطاعة أية قوة أن تحجر على الإنسان أن يفكر فى أى شئ كان مهما عظمت تلك القوة<sup>(٢)</sup>) وهو يرى أن حرية الفكر هى التى تجعل الإنسان (مستقلاً أى ليس منقاداً لعامل آخر وهو من أجل حق طبيعى منحت الحكمة الإلهية لأفراد هذا النوع لما يترتب عليه من حرية التصرف فى جميع الأحوال).

وكان الشيخ على يوسف يهتم كثيراً بقضية حرية الصحافة لذلك نراه يخصص المقال الثانى من سلسلة مقالاته عن (قصر الدوبارة فى يوم الأربعاء) للحديث عن حرية الصحافة وقد بدأ المقال بأن ذكر أن (فى القطر المصرى الآن سلطة قوية قادرة هى الصحافة الوطنية لا أدعى لها الكمال ولكنى أقول ولا أخشى لومة لائم أنها قوة قادرة وكلمة نافذة وصوت يخترق الأسماع ويؤثر على القلوب - قد تخطئ أحياناً ولكنها تصيب غالباً وللأمة تعلق بها وميل إليها وثقة بأدائها واعتماد على صحة وطنيتها<sup>(٣)</sup>) وقرر الشيخ على يوسف أن الصحافة المصرية - على

(١) الأستاذ - ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٩٢ مقال بعنوان (هم تقدموا وتأخرنا والخلق واحد).

(٢) المؤيد - ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٨٥ مقال بعنوان (توحيد السلطة)

(٣) المؤيد - ١٥ أكتوبر سنة ١٩٠٦ مقال بعنوان (حرية مراقبة - تقييد)

علائنها وهى (السلاح الوحيد الذى سمح به الاحتلال أو أوجده فى يد الوطن لدفع المكروه بإعلان استيائه فالاحتلال استولى على كل نفوذ فى كل دائرة من دوائر الأحكام بواسطة المستشارين ولم يبق حراً فى مصر غير الصحافة فهى موضع أمل المصرى فى شدته وكرهه ينقل بواسطتها شكواه أو يعلن رضاه ) وذكر الكاتب أنه لما حدثت حادثة دنشواى والعقبة من قبلها ( رأى جناب اللورد كرومر إن تلك القوة الصحافية قد عظمت وتفاقم أمرها فأراد أن يسكتها واتهمها أولاً بأنها كاذبة وأنها أبرع جرائد العالم فى اختراع الأراجيف، ثم اتهمها وكيه بأنها إنما صاحت صيحتها التى أزعجت كل موظف انجليزى فى مصر بعامل الرشوة ثم قام اللورد يتهدد الصحافة المصرية من طرف خفى»... وذكر الكاتب أن بعض الذين خيل لهم أن اللورد كرومر (ربما اهتم بأمر الصحافة الوطنية عند رجوعه وذهبوا مذاهب كثيرة فيما عسى أن يفعله إذا أراد أن يفعل شيئاً- هل يبقى لها حريتها الحالية؟ هل يهتدى إلى طريقة مراقبتها؟ هل يقيدها؟» ثم أكد الشيخ على يوسف مبدئين هامين: الأول: أنه: «لا يجوز معاقبة الصحافة المصرية عموماً بجريرة صحيفة واحدة متطرفة» والثانى: أنه: (إذا كانت جريدة مصرية قد تطرقت فى احداثها لوطنها ومصلحته ورأى جنابة أنها تستحق العقاب فما حال جريدة تطرقت أيضاً فى حديثها ضد مصلحة مصر والمصريين؟... وكان الشيخ على يوسف يقصد بذلك جريدة (المقطم) .. وقد أكد الشيخ على يوسف أيضاً أن الحكمة تقضى على من يريد أن يكسب (قلوب مصر لا طوبىها فقط أن يخفف من عنت سلطته القاهرة... وإنما نضمن له إذا فعل وأبقى للأمة المصرية حرية الصحافة تعزية لها على مصابها باحتلال أجنبي أن لا يرى فى الصحافة المصرية ما يراه الآن. ويومئذ يكون التطرف فى بعض جرائد الوطنية مؤذياً لها لا مروجاً»... وحذر الكاتب اللورد كرومر أنه إذا راقب الجرائد أو قيدها «فإنه لا ينال الغاية التى يرمى إليها لأن الامتيازات الأجنبية تساعد من أراد على الاحتماء بأجنبي لإبراز ترائه وإذا احتاط جنابة لذلك من باب ... فقد لا يمكنه سد أبواب كثيرة من هذا القبيل...» كذلك أشار الكاتب إلى أن «أحب شئ إلى الإنسان ما منع... وأن حجز حرية الجرائد يزيد الأهالى تعلقاً بالمتطرفة منها وينشئ فى النفوس ربما وفى الناشئة نزوعاً إلى أعمال منكرة قد لا تخطر له الآن على بال) ثم اقترح الشيخ على يوسف على اللورد كرومر أن .. (لا يراقب ولا يقيّد ولكن من الحكمة أن يسهل للجرائد على الإطلاق الاعتدال فى كتابتها وذلك إنما يكون لو اهتم وعنى بمطالبها وأنفذ الحق العادل منها ومتى رأت الأمة استثمار شجرة الحرية من هذه الطريقة ألفتها وقضت على الشذوذ فيها القضاء الذى يحاول بعضهم الوصول إليه من غير طريقة الحقيقة).

وبعد عزل اللورد كرومر من مصر - شاع بين المصريين عن مساع بذلها اللورد فى العاصمة البريطانية للإطاحة بحرية الصحافة فى مصر.. فتصدى الشيخ على يوسف لهذه المحاولة وكتب مقالاً ذكر فيه (أن اللورد كرومر يسعى فى المجترة لمصادرة حرية الصحافة فى مصر وقد أعلن رأيه

فى مجلس العموم فى الأسبوع الماضى إن هذه الحرية أعطيت تسامحاً فى مصر والهند كتجربة طال زمنها ولكنها أنتجت فى آخر الأمر رأياً عاماً ملفقاً... ويعنى ذلك أن الرأى العام الذى أوجدته هذه الحرية فى مصر أو الهند هو خليط من الحق والباطل<sup>(١)</sup>.

وأشار الشيخ على يوسف إلى عكس هذا الكلام الذى كان يقوله اللورد كرومر وهو فى مصر... من أن (حرية الصحافة أفادت ولم تضر.... فىرى القراء من هذا أن اللورد يريد أن يثار لنفسه من الصحافة المصرية)... وذكر الكاتب أن هناك (فارقاً كبيراً بين مصر والهند أولاً فى حرية الصحف وثانياً فى استعداد الشعب للهيّاج وثالثاً بالنسبة لوجود الامتيازات فى مصر وعدم وجودها فى الهند)... وحذر الشيخ على يوسف من النتائج التى يمكن أن تترتب على اضطهاد الصحافة المصرية وأشار إلى أن (الاضطهاد الصحفى بهذا المعنى يعنى تحويل الصحافة المصرية من قوة وطنية إلى قوة أجنبية وأنهم يعرجون صدور الوطنيين حتى يفسدوا أفكارهم وأميالهم على حكومتهم».

وعندما بدأت تروج الإشاعات عن نية الحكومة إلى إحياء قانون المطبوعات الصادر فى عام ١٨٨١<sup>(٢)</sup>. وهو قانون يقيّد حرية النشر ويعطى للسلطات الإدارية حق تعطيل الصحف بدعوى المحافظة على النظام العام أو الدين أو الآداب.. وهى أسباب يمكن لكل حاكم أن يتذرع بها إذا أراد القضاء على صحيفة تعارض سياسته<sup>(٣)</sup> ونشرت المؤيد نص هذا القانون ثم علق الشيخ على يوسف على الإشاعات قائلاً: «أن هذه خطة دبّرتها المجلترة منذ زمن طويل ولكنها كانت تتربص بها الفرص فلما كانت الحوادث الأخيرة التى لعب فيها المتطرفون (يلاحظ أن الشيخ على يوسف يريد أن يحمل الحزب الوطنى مسئولية إعادة العمل بقانون المطبوعات) على أفكار العامة كما شاءوا حتى كادوا أن يحدثوا ثورة داخلية بلا سبب ولا موجب..... رأت أن تتجرد هذه الحملة لتقضى بها على حرية الصحافة المصرية فلم نجد الوزارة المصرية لها من دافع<sup>(٤)</sup>».

ثم انتقد الشيخ على يوسف قانون المطبوعات... وقال أنه يفتح الباب واسعاً لتحكم الإدارة فى الصحافة وعلى ذلك فقد أكد أنه (إذا أصبحت حياة الصحافة المصرية فى أبهى من تنقذ أعمالهم وتشهر عيوبهم فقدت وظيفتها أو معظمها لا محالة لأن ولادة الأمور يغضبون لأنفسهم ككل الناس.. فإذا كان فى استطاعتهم أن يكتموا أفواه الجرائد حتى لا تشهر عيوب أعمالهم

(١) المؤيد - ٥ يوليو سنة ١٩٠٨ مقال بعنوان (حرية الصحافة فى مصر)

(٢) صدر قانون المطبوعات فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٨١ وهو أول تشريع للصحافة فى مصر يربّ شئونها ويحدد واجباتها وقد صدر فى ٢٣ مادة نص فيها على وجود طلب الترخيص قبل إصدار أية صحيفة كما فرض وضع تأمين قدره مائة جنيه لكل صحيفة وأعطى الحكومة حق تعطيل أو مصادرة أو غلق الصحيفة بأمر من ناظر الداخلية بعد إنذارها وبقرار من مجلس النظائر بدون إنذار كذلك نص القانون على أن لوزير الداخلية أن يمنع دخول أية صحيفة أجنبية إلى البلاد (المؤيد - ٢٤ مارس سنة ١٩٠٩ - قانون المطبوعات العام سنة ١٨٨١).

(٣) د. خليل صابات - الصحافة رسالة واستعداد وفن وعلم - دار المعارف القاهرة الطبعة الأولى - ١٩٥٩ - صفحة ٢٣٢ - ٢٣٣.

(٤) المؤيد - ٢٤ مارس سنة ١٩٠٩ تقييد حرية المطبوعات المصرية.

فعلوا ذلك في الغالب) وأعلن الكاتب أن الصحافة المصرية (ستصاب في مجموعها وفي وظيفتها على كل حال ومصيبتها فيها مصيبة الأمة في أعظم وسائل رقيها وسعادتها واستقلالها المنشود).

وبعد أيام صدقت الإشاعات وصدر قرار مجلس الوزراء بإعادة العمل بقانون المطبوعات الصادر في ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٨١ ونشرت المؤيد نص القرار ثم علقت عليه قائلة: ( من هذا القرار يرى أن الحكومة بنت عملها على سببين:

الأول: طلب الجمعية العمومية لقانون المطبوعات في عام ١٩٠٢ ومجلس شورى القوانين عام ١٩٠٤ بناءً عن أن الجرائد تجاوزت كل حد في التطرف ونهش الأعراس وهتك حرية الآداب والسبب الثاني: تمادى هذه الصحف الآن في تطرفها وإغراقها في التهور<sup>(١)</sup> وأكدت الصحيفة أنه «مهما يكن من الأمر فإن الأمة قابلت هذا العمل بالاستياء العظيم حتى أن جماعة من الدين طلبوا تقييد حرية الصحافة قبل أربع سنوات كأصحاب السعادة محمود سليمان باشا وطلبة سعودى باشا ومحمود عبدالغفار بك لم يسعهم الآن أن يكونوا في مقدمة المعترضين فأرسلوا التلغرافات تترى إلى ولاية الأمور يعترضون اعتراضاً شديداً على عمل الحكومة ويقولون أن قانون المطبوعات جاء ضربة قاسية على تلك الحرية الشخصية التى هى حق طبيعى للأمة كنا نتنظر دوامه والمزيد عليه). ثم أعلنت الصحيفة (أما نحن معاصر الصحفيين فيجب أن نؤدى وظيفتنا المطلوبة منا مهما أقيمت فى طريقنا العوائق - نعم أن العوائق التى توضع بين أيدينا مضرّة بنا ولكن الواجب يزداد حكمه على الأشخاص قدر ما توجد الصعوبات فى سبيل أدائه» وبجانب هذا المقال أخذت المؤيد تنشر فى أعدادها التالية خطابات وتلغرافات الاحتجاج من الأمة على عودة قانون المطبوعات.

وبما يلفت النظر أن أول مقال لمصطفى كامل عن حرية الصحافة كان ضد هذه الحرية رافضاً لها.. مطالباً الحكومة بالحد منها.. ولكن وجه الغرابة فى هذا الموقف يزول عندما نكتشف أن مصطفى كامل كان يعبر بهذا المقال عن استنكاره لسماع الوزارة المصرية للصحفيين والكتاب الهاربين من وجه الدولة العثمانية بحق إصدار الصحف والمجلات التى تطعن فى الدولة العلية وتهاجم السلطان العثمانى فهو يقول (والطامة الكبرى أن الحكومة بالغت فى مبدأ حرية الجرائد مبالغته كلها وبال عليها وعلى الأمة حيث أغضت البصر عن المشردين الذين جاءوا إلى مصر تخلصاً من حكم صدر عليهم فى بلاد الدولة أو هروباً من محاكمة وأصدروا وريقات إليها ينتمى السباب ومنها يخجل كل ذى شعور شريف)<sup>(٢)</sup>.

وتساءل مصطفى كامل: (فإلى متى تسكت الحكومة عن المطاعن السافلة التى توجه كل يوم إلى مقام جلالة مولانا السلطان الأعظم وإلى متى تبقى مصر مأوى للخوارج والفوضويين وأى

(١) المؤيد - ٢٨ مارس سنة ١٩٠٩ م

(٢) اللواء - ١٣ مايو سنة ١٩٠٠ (الحكومة والصحافة فى مصر)..



شرف للحكومة فى هذه الفوضى التى عمت البلاد وأصبحت عاراً عليها وشتاراً بل كيف تحترم الأمة حكومتها وهى لم تعمل على احترام سلطاتها وخليفاتها وصاحب البلاد الشرعى... وأى فخار لأصحاب الجرائد الحرة وأرباب الآراء السديدة وقد سارت الحكومة بينهم وبين صعايك يتاجرون بالقبائح والدنيا). ثم . طالب مصطفى كامل بوضع حد لهذه الفوضى وتشريف مقام الكتابة والكتاب

ولم يمر أكثر من عامين على هذا المقال الرافض لحرية الصحافة... حتى تغير موقف مصطفى كامل... حيث صار من أكثر المتحمسين لهذه الحرية مهما نتج عنها من أخطاء أو رافقها من ثغرات.. فعندما تقدم عدد من أعضاء الجمعية العمومية باقتراح يطالب الحكومة بوضع قانون « يوقف فوضى المطبوعات عند حد يأمن معه الناس فوضى السفهاء فى أعراضهم»<sup>(١)</sup>. تصدى مصطفى كامل لهذه المحاولة حيث أعلن أنه لما كانت الجرائد فى جميع الأمم هى المقياس الذى لا يختل مقاسة (فلذلك نقول أن حريتها دليل على إنصاف الحكومة وتمسكها بالدستور واعتدال تحريرها دليل على ارتقاء الأمة وآدابها.. وإذا قيل أن الغاية التى يرمى إليها صاحب الاقتراح هى إلجام السفهاء- قلنا أن هذه الغاية حاصلة الآن ضمن دفتى القانون- والمحاكم لا ترد من يسألها نصاب العدل فما على الذين يلحقهم شئ من سفاهة السفهاء إلا الالتجاء إلى العدل والقانون فهو المنصف لهم وحدهم من المعتدين عليهم الذين إليه إياهم ثم إن عليه حسابهم» وعندما بدأت فى مجلس شورى القوانين عام ١٩٠٤ محاولة مماثلة لما حدث فى الجمعية العمومية عام ١٩٠٢ لتقييد حرية الصحافة من جانب بعض أعضاء المجلس- تصدى مصطفى كامل للمحاولة الثانية أيضاً ولكن بعنف شديد فهو يذكر أنه (كلما) قام صعلوك من رعاى الناس بإصدار ورقة للالتجاء بالمطاعن فيها اهتز بعض ذوى العقول الضعيفة.. وأعلنوا سخطهم على الصحافة وتذمرهم منها كأن أشرف المهن وأسمى الوظائف لطخ بتحكك الأسافل والأوباش بها أو كان أمة عالية المنار رفيعة الشأن تنزل فى مصاف الأمم الساقطة بوجود بعض لصوص وقطاع للطريق بين أبنائها)<sup>(٢)</sup> وقال مصطفى كامل أنه يغيب عن أنظار أولئك التذمرين الساخطين أن الذى يطالب الحرية بأن تكون مصدر الخيرات والحسنات (وليس إلا مطالبا بالمحال لأنها كما تسعد الشعوب بالسياسى المحنك الذى يخدمها ويناضل عن حقوقها... ويعلى مقامها... يبتليها بالفوضى الذى يهدد أغنياءها وكبراءها وعظماءها وقادة أمورها- وكما تمنحها الكتاب القادرين الذين سيرشدونها إلى الصراط المستقيم والطريق السوى ويملاون أرجاء بلادها علماً ونوراً... تسلط الأوباش على ذوى المقامات السامية لتظهر الرذيلة والفضيلة متنافرتين أمام الأبصار...» وأكد الكاتب أنه غنى عن البيان (أننا أول من ينفر من أولئك السياسيين الطاعنين ويطلب محاكمتهم بكل قسوة وشدة... ولكننا لا نذهب مع الداهيين إلى القول بأن مصر وحدها التى امتازت لهذه البلية وأن صحف الممالك الأخرى منزهة عن نقائص صحافتنا... فهذه

(١) اللواء - ١٦ مارس سنة ١٩٠٢ مقال بعنوان (الجمعية العمومية والجرائد)

(٢) اللواء - ٢٧ يناير سنة ١٩٠٤ مقال بعنوان (الصحافة فى مصر).

انجلترا وفرنسا تأمل للجرائد فيها تجد بينها وريقات مثلت التناهي في الدناءة والسباب بل اذهب إلى مراسيحها وأسمع الأناشيد التي يسخر فيها من الرؤساء والحكام لتعلم أن الخروج عن الحد من لوازم الحرية في كل مملكة... وإنه مهما أستاذ العقلاء من هذه الحالة وشدد القانون في معاقبة الآثمين لا يمكن محوها إلا بهدم ركن من أركان الحرية وتضييق نطاقها وأضعاف سلطاتها) وأشار مصطفى كامل إلى إحدى الجرائد المتصلة بالاحتلال - ويقصد المقطم التي بحثت في (سبب ظهور الوريقات السافلة بذلك المظهر البذئ) وادعت أن مطاعن الصحف الحرة على الاحتلال وسياسته وخدامه من المصريين هي التي حركت أقلام السفهاء للاعتداء على كل مقام عال في البلاد) وأكد الكاتب أن صحيفة المقطم لو كانت (تكتب ما يمليه عليها ضميرها ويعرفه الخاص والعام لقالت إن جرائد الاحتلال هي التي حرّضت الرعاع وفاسدى الأخلاق على التعرض للجناب العالى والظعن عليه.. ومنها تعلموا كل ألفاظ السباب - ولو ناقشت في ذلك لسهل علينا تذكيرها بما كتبت لتعلم أنها المسئولة وحدها عن الفوضى التي صارت إليها الصحافة الساقطة في مصر فإن المحتلين شجعوا ويشجعون كل متجاوز للحدود وأكد الكاتب أن انتقاد الجرائد الحرة على رجال الحكومة والاحتلال واستعمال الشدة في التعبير عن أعمالهم ووصف أحوالهم هي (أمر مشروع في كل زمان ومكان.. بل معدود من الأدوات الفعالة في حياة الشعوب وارتقاها وهذه صحف العالم المتمدين أغلبها يسلق الوزراء بألسنة حداد ويصفهم بما لم يوصف به وزراء مصر مع ما بين هؤلاء وأولئك من فرق جسيم) وذكر الكاتب إن حزب المعارضة في كل أمة (أفضل الأحزاب لاستقامة الحكومات لأنه المبينه لها على عوراتها وعيوبها المراقب لحركاتها وسكناتها وإذا كان هذا الحزب حيويًا للبلاد الأخرى فهو في مصر فوق ذلك لأن من الهوس مطالبة أمة احتلت بلادها بالسكوت عن الاحتلال والرضاء بما يعمل... وكل ما يعمل هدم للسلطة الأصلية وقضاء على بقية الاستقلال) وأخيراً يؤكد مصطفى كامل أن (وجود السفهاء بين العقلاء أمر قديم في العالم.. والمحرضون على وجودهم في مصرهم صنائع الاحتلال وعماله... ودواء هذا الداء هو قيام النيابة برفع الدعوى العمومية على كل طاعن على مقام أمير البلاد وعزيزها العلى الشأن ومشاركة كل واحد من الأهالي يسب ويقيم الدعوى لتأديب من اعتدى عليه) أما القائلون بمحاربة الصحافة في حرّيتها فهم في رأى مصطفى كامل (جاهلون بمزاياها وخدماتها وداعون لمحو الخير الكثير لوجود الشر القليل بجواره).

وفي اللواء أيضاً كتب محمد توفيق العطار المحامى... سلسلة مقالات عن (حرية الصحافة) أكد فيها أن (الصحافة والتأليف هما الضمانتان اللتان تكفلان تهذيب كل نظام حكومى استبدادى وكذلك هما اللتان تندرجان بالناس من القبيح إلى ومن الغفلة إلى التيقظ ومن الخمول إلى الحياة الحقيقية)<sup>(١)</sup>.

كذلك كان يرى الكاتب أن (بحرية الصحافة والتأليف يتمكن. ولى الأمر من الوقوف على رأى قومه في حكومته. لولا ذلك لعرض نفسه إلى قيام ثورة فجائية لا تبقى ولا تذر).... وذكر

(١) اللواء - ٩ فبراير سنة ١٩٠٩ مقال بعنوان (حرية الصحافة)

الكاتب أنه فى حالة ما إذا هم ملك أو أمير بتقييد حرية الصحافة والطباعة (فكأنما يريد أولاً أن يحرم الناس من أعظم وسائل الإصلاح ثم أنه فسوق ذلك يثير فى قلوبهم سوء الظن به وبحكومته)... ويؤكد الكاتب أن (الكتابة- وخصوصاً بعد اختراع المطبعة- من أعظم أسباب تحرير الأمم ومن أقوى العوامل فى تقويض عروش الظلمة والمستبدين حيث بها انتبعت الشعوب إلى حقوقها وتبينت مناهج الرشاد).

وعندما فكرت الحكومة فى إعادة العمل بقانون المطبوعات.. تصدى الشيخ عبدالعزيز جويش فى اللواء لهذه الفكرة حيث ذكر أنه (إلى مثل ذلك الحصن الضعيف تلجأ الحكومات الاستبدادية التى لا تدعى لرعاياها حرمة وتتخذ الحكومات الاستبدادية أمثال تلك القوانين سلاحاً تقتل به الباحثين المرشدين الأمرين بالمعروف والناهيين عن المفكر<sup>(١)</sup>).. ثم تساءل الكاتب ليت شعري ماذا جنت الصحافة المصرية التى يقودها الاحتلال ويأمرها بالرغم من إعلانها يوم نصبت إنها حرة فى تصرفاتها السياسية وإنها تستهين الأمة فحذرتها بتد الأموال سفها فأذنتها وتسيئ التدبير فأرشدتها ووقفت لها موقف الرقيب الحسيب المحب لخير البلاد الشغوف بسعادتها لا موقف العدو المبيد العامل على تدميرها وخرابها.. ولكنه الاستبداد الغشوم يتساوى أمامه العدو والصاحب والمرشد والناصح والمسهر الناضج) يهاجم الكاتب حقيقة المؤيد وكذلك الجرائد الاحتلالية مثل المقطم.. ومصر.. والوطن.. اللاتى أرادت أن تحمل اللواء مسئولية تفكير الحكومة فى العودة إلى قانون المطبوعات فقال (تقول جرائد المنافقين أنه مما حمل الحكومة على ذلك الا خطر اللواء وتهوره... فماذا عمل اللواء سوى جهره القول ورميه بالنقد غير كاسح إلى حصانه ولا طامع فى رتبة أو مقابلة... فقد رأى الأمة فى حذر فنبهها أو فى سبات فأيقظها أو فى جهل فعلمها أو فى ضلال فهداها وأرشدتها. تجنب السرف فى المدح والذم مما استطاع وكال للمسئ وللمحسن الصاع بالصاع لا تتفاضل أمامه أفراد الأمة إلا بمقدار ما يفيدون بلادهم وأمتهم فلا الإمارة بملجته عن الجهر بالحق ولا الوزارة بمرهته أن يقول الصدق ولا الاحتلال بمرهبة أن ينشر فى الآفاق مخازيه وسيئات تدبيره) وأكد الكاتب أنه (أليس على اللواء تبعة ما تفعل الحكومة وما تدبر ولكنها طبيعة الإستبداد تتخذ من خيوط العنكبوت حبالاً مثبتة تملك بها فى سبيل نيل مآربها الاستبدادية).

ولما صدر قرار العودة إلى العمل بقانون المطبوعات أبدت اللواء عجبها من خطة الحكومة التى اتخذتها إزاء الجمعية العمومية من «احتقار مطالبها وفى مقدمتها الدستور وطرحها لها فى زوايا الإهمال مع إنها هذا العام قد اتخذت إحدى مطالب الجمعية العمومية- وهو العمل على وضع حد للجرائد السافلة- ذريعة لإعادة قانون المطبوعات ومتكاً للقضاء على الحرية الفكرية فى البلاد<sup>(٢)</sup>».

(١) اللواء - ٢٤ مارس سنة ١٩٠٩ مقال بعنوان (تقييد حرية الصحافة)

(٢) اللواء - ٢٨ مارس سنة ١٩٠٩ .

وقالت الصحيفة قد (تذرعت بذلك لتوقع مسئولية هذا القضاء المبين على أعضاء الجمعية العمومية وتصمهم بوصمة الكارهين للحرية الجاهلين لفائدتها. وعلى ذلك فقد طالبت الصحيفة بأن (يبادر حضرات الأعضاء بالجمعية العمومية بالاحتجاج على هذا العمل ومطالبة الحكومة بإلغاء هذا القانون وإلا عدوا عضواً متمماً للحكومة لا ينطقون بلسان الأمة ولا يعبرون عن شعورها.

أما أحمد لطفى السيد فكان يطالب مدفوعاً بإيمانه بأن حرية الفكر هي الركن الأساسى فى (مذهب الحريين)<sup>(١)</sup>. وهى الصياغة العربية التى ابتكرها لطفى السيد للتعبير عن إتباع المذهب الفردى الحر أو المذهب الليبرالى بأن «تكون حرية التفكير وحرية الكناية والخطابة والاجتماع غير محدودة إلا بحدود القانون العام»<sup>(٢)</sup>.

وكان ينادى بأن حرية الأفراد لن تتحقق (بدون حرية الفكر والكتاب وحرية الاجتماع والخطابة وحرية العمل الفكرى فى داخل منطقة القانون العام)<sup>(٣)</sup>.

ولقد احتلت قضية حرية الصحافة ركناً هاماً من اهتمام لطفى السيد وكان هذا يرجع إلى اعتقاده بأن الصحافة قوة هائلة لا سيما فى الدول الدستورية التى تجرى على قاعدة الانتخاب العام فهى (تزعزع أركان الحكومة ما بين شروق وغروب فأبقوا لها تهيج الشعب فيدفع نواية إلى إسقاط الوزراء عن كراسيهم وإقامة وزارة جديدة)<sup>(٤)</sup> ويؤكد الكاتب أن الصحافة فى الامة (برلمان غير منظم وكل صحافى يشبه نائباً عن قسم من الأقسام الانتخابية فى البلاد وكل صحيفة تختلف لهجتها عن لهجة الأخرى كاختلاف الفته التى تمثل أُمياله وأرائها.. ثم اكد الكاتب أن هذا الاختلاف طبعى بل هو واجب لمصلحة البلاد ولقد وقف احمد لطفى السيد ضد عودة العمل بقانون مطبوعات عام ١٨٨١ منذ جاءت الاخبار عن نية الحكومة فى اصداره وكتب فى ذلك عدة مقالات هاجم فيها هذا القانون... اذ كان يعتقد ان فكرة العمل بهذا القانون جاءت نتيجة اتفاق السلطين (يقصد سلطة الخديوى وسلطة الاحتلال) وبعد ان لم يبق من احدهما على الاخرى رقيب يذبح عنها اعمالها فى انحاء التمدن الاوروى وامنت كلتاها ايقاع الاخرى

(١) إن مذهب الحريين كما يراه لطفى السيد يقضى فى أصله (بألا يسمح للمجموع فى البلاد الحرة أو للحكومة فى بلاد كمصر خاصة أن تضمحى بحرية الأفراد لحرية المجموع أو الحكومة فى التصرف فى الشؤون العامة وهذا المذهب يقضى فى أصل وضعه بألا يكون للحكومة سلطان إلا على ما ولتها الضرورة إياه وهو ثلاث: ولاية البوليس وولاية القضاء وولاية الدفاع عن الوطن وأما فيما عدا ذلك من المرافق والمنافع فالولاية فيه للأفراد أو للجمايع الحرة إذ الحكومة بأصل نظامها مهما كان شكلها ليس لوجودها علة إلا الضرورة فيجب أن يقف سلطانها داخل حدود الضرورة ولا يتعداها إلى غيرها من سلطة الأفراد فى دائرة أعمالهم لأن كل حق تضيفه الحكومة إلى ذاتها إنما هو من حقوق الأفراد وكل سلطة تسندها إلى نفسها إنما تضغط بها على حرية الأفراد.. (الجريدة - ٢٠ ديسمبر سنة ١٩١٣ مقال بعنوان الحرية ومذاهب الحكم).

(٢) الجريدة - أول يناير سنة ١٩١٤ مقال بعنوان (حدود الحرية وحدود مذهب الحريين).

(٣) الجريدة - ٢٠ ديسمبر سنة ١٩١٣ مقال بعنوان (الحرية ومذاهب الحكم).

(٤) الجريدة - ٢٧ يونيو سنة ١٩٠٧ مقال بعنوان (الصحافة سلاح رهيب).

بها... لما اتفقنا على ما تسميه سياسة الوفاق جاءت الان تطرحان على بساط البحث رجوع قانون المطبوعات الصادر فى عام ١٨٨١ ذلك القانون الذى انقطع العمل به من زمان بعيد ذلك من أجل أن ترجع الصحافة إلى عهدها الاول فتستظل بجناح السلطان وتقف حياتها عليها<sup>(١)</sup>.

ويؤكد أحمد لطفى السيد ان هذا القانون لم يعد ملائما لمصر لأن "الزمن قد غير الاشياء والافكار ولم تعد الصحافة مجرد باب يرتزق منه بل الصحافة اصبحت رقابة حقيقية من جانب الامة والرأى العام على عمل الحكومة.. فاذا تعرضت الحكومة بالمناوأة فليس تعرضها إلى أشخاص قد يخرجون فى كتاباتهم عما تشتهى.. ولكن تعرضها سيكون لحرية الامة بأسرها ويعتبر مصادرة للرأى العام وحقوق امة فقدت كل شىء على حكومة بيدها كل شىء"

وفى مقال اخر يتساءل أحمد لطفى السيد قائلا.. "يا عجباً كل العجب لماذا يحيون قانون ٨١ ولا يحيون دستور سنة ٨٢ اكل مالنا فيه غرم محبوب لديهم وكل مالنا فيه غنم هم عنه يحيون"<sup>(٢)</sup>.

وفى مقال ثالث يؤكد أحمد لطفى السيد انه (لن يستفيد فرد من افراد الامة من هذا القانون وليس فى هذا القانون فائدة للامة ولا لبعض الافراد حتى ولا للحكومة المطلقة.. بل هو ضار بالحكومة لأنه اكبر العلامات على استهانتها بالحرية الشخصية وادل الاعمال على انها تزيد فى الهاوية من هاوية الجفاء التى حفرتها الحكومة بينها وبين الامة بتصرفاتها لاغية ضارية بالامة فى الحال وفى المستقبل"<sup>(٣)</sup>.

وبعد صدور القانون اعلن أحمد لطفى السيد ان الهدف من هذا القانون ما هو الا (قتل للحرية المقصودة من حياة الامم... وما السكوت على نقده وحمل الحكومة على الرجوع إلى نفسها فى امره مرة اخرى إلا سكوت عن البدعة الضارة والداء المعدى يأكل اسباب التقدم ويذهب بالشع الضئيل او الرمق القليل الباقي لنا من سلطة الامة"<sup>(٤)</sup>.

ثم بدأ أحمد لطفى السيد يطالب بإلغاء القانون على اساس "ان - قانون المطبوعات غير ضرورى وكل قانون غير ضرورى لاحق له من الوجود وانه قانون غير مقيد وكل قانون غير مقيد يقتطع حقه فى البقاء بانقطاع فائدته وانه قانون ضار وكل ضار يجب أن يزال من غير قيد ولا شرط"<sup>(٥)</sup>.

ولقد ظل أحمد لطفى السيد يهاجم قانون المطبوعات فى كل مناسبة يأتى فيها الحديث عنه.. لذلك نراه يكتب بعد مرور ثلاث سنوات من اصدار القانون مطالبا بإلغائه (لا نذكر ان عملا من اعمال الحكومة المصرية قوبل بالاحتجاج العام كما قوبل قانون المطبوعات فان هذا القنون من

(١) الجريدة - ٢٣ مارس سنة ١٩٠٩ مقال بعنوان (تقييد الصحافة)

(٢) الجريدة - ٢٥ مارس سنة ١٩٠٩ مقال بعنوان (تقتل الحرية فى وزارة الاحرار).

(٣) الجريدة - ٢٧ مارس سنة ١٩٠٩ مقال بعنوان (قانون المطبوعات غير ضرورى وغير مقيد).

(٤) الجريدة - ٣٠ مارس سنة ١٩٠٩ مقال بعنوان (من هو المستول).

(٥) الجريدة - ٣١ مارس سنة ١٩٠٩ مقال بعنوان (قانون المطبوعات).

يوم بعثه إلى اليوم وهو موضع الاحتجاج ومثار الانتقاد والتنديد من جميع طبقات الامة سواء في ذلك النواب او الصحف التي هي مرآة الرأي العام<sup>(١)</sup>.

ثم طالب الكاتب بضرورة إلغاء قانون المطبوعات حتى تطوى صفحة سوداء من تاريخ الحرية في بلادنا.

وفي صحيفة (مصر الفتاة) هاجم (ابو بكر لطفى المنفلوطى) الحكومة لتفكيرها في اصدار قانون المطبوعات الصادر فى عام ١٨٨١ حيث اكد ان الحكومة بهذا القانون (انما تنتقم فيه من نفسها قبل ان تنتقم من فئة من الصحافيين<sup>(٢)</sup>) "كذلك اشار الكتاب إلى ان هذا القانون سوف يقف "حاجزا بين الحكومة وبين الامة التى نشطت من عقالها فى السنين الاخيرة" .. ويعتقد الكاتب ان الهدف من اصدار هذا القانون هو ان "لا ترى الامة ما يراد بها بما يقع وراء جدران مصالح الحكومة ودواوينها.. وقصد به حجب نور الحرية والاستقلال عن أعين المصريين وحتى لا يتعدى صوت الامة البحار والقفار بحيث يصل إلى مسامع الاوروبيين فيقف العالم الغربى على ما يجرى هنا من التلاعب بأموال الحكومة المصرية الممتصة من دماء المصريين غنيهم وفقيرهم".

وفي صحيفة (مصر الفتاة) ايضا كتب (سيد على) رئيس تحريرها يعلق فيه على اصدار قانون المطبوعات فقال (قضى الامر وقيدت الاقلام ثم قرر ان الحكومة بهذا القانون قد (اوقفت النواب المصريين فى مجلس شورى القوانين وفى الجمعية العمومية فى موقف من اخرج المواقف اذا يؤخذ من معنى القرار الوزارى المنشور فى الجريدة الرسمية انها لم تعد لتنفيذ قانون المطبوعات إلا إجابة لطلب من مطالب النواب ولا شك انها ارادت - بهذا القول ان تتخلص من تبعه تقييد الحرية وان تلقىها على كواهل النواب وحدهم<sup>(٣)</sup>).

وحمل الكاتب النواب مسئولية إلغاء قانون المطبوعات (فنوابنا الآن هم المسئولون امام الامة التى انتخبتهم ليمثلوها بجانب الحكومة ويدافعوا عن حقوقهم وينظر فى مصلحتها. فاذا سكتوا وصمتوا ولم يرتفع لهم صوت كان سكوتهم دليلا على رضائهم بالتقيد وصحة ما عزته الوزارة إليهم من انهم السبب فيه ... ثم ذكر الكاتب ان الامة المصرية تنتظر من نوابها (ان يزيلوا الوصمة التى وصموا بها وان يسعوا بصفتهم وكلاء الامة وألسنة الدفاع عنها فى الاحالة بينها وبين تقييد الاقلام الناطقة بالحق الداعية إلى العدل الجارية فى أنهر الوطنية والاخلاص فان تقييدها تقييد للحسنات وكريم الخلال والفعال واطلاق للسيئات والعيوبات).

وبمناسبة مرور ثلاثة اعوام على اصدار قانون المطبوعات نشرت صحيفة (العلم) مقالا تصف الحال التى وصلت إليها حرية الفكر فى مصر بعد ثلاث سنوات من اصدار قانون المطبوعات فاعلنت أن حرية الفكر اصبحت هى وحرية القول والخطابة فى خطر شديد واصبح الذى يتوخى

(١) الجريدة - ٢٨ مارس سنة ١٩١٢ مقال بعنوان (إلغاء قانون المطبوعات).

(٢) مصر الفتاة - ٢٦ مارس سنة ١٩٠٩ مقال بعنوان (لماذا تقيدون حرية الصحافة).

(٣) مصر الفتاة - ٢٨ مارس سنة ١٩٠٩ مقال بعنوان (موقفنا ازاء القانون الجديد).

الصدق فيما يسطر عرضة لان يحل به ما يحل باللصوص المجرمين<sup>(١)</sup>.... "وذكرت الصحيفة ان (القابض على قلمه اصبح مخيراً بين امرين فإما ان يسدل على الحقائق ستارا كثيفا او يقلب هذه الحقائق رأسا على عقب فيمتدح - الاعمال الضارة ويذم الاعمال الناقصة واما ان يعد نفسه لكل أذى يتنزل به "واكدت الصحيفة ان" الكاتب الذى يقول الحق فى مصر مثله كمثلى الذى يقدم على خطر متوقع فلا يدري ان كان سينجو منه او يقع تحت طائلة اثقاله.. واصبح الصحافى وهو نخط الكلمات على الورق يتوقع ان يكون فى كل كلمة مما ينشره مجال لسوفة إلى حيث يلاقى صنوف الهوان.

واخيرا تلخص صحيفة العلم الوضع فى مصر فتعلق أنه لم يعد فى مصر لا حرية كتابة ولا حرية صحافة ولا حرية قول ولا حرية خطابة بل يريد الاحتلال ان يخيم على مصر السكوت وان ينشر السكون فوق البلاد".

وفى (الشعب) كتب (محمد رضا) مقالا عن (الحرية الفكرية) اعلن فيه ان الانسان لا يكون حرا (الا اذا كان له حق اختيار نوع الحياة التى يريد لها - ولا يكون كذلك الا اذا كان حرا فى تفكيره"<sup>(٢)</sup>.. وهو يرى ان الحرية (لا تكون حرية حقيقية الا اذا شيدت على دعائم حرية الفكر) اما عبد القادر حمزة فقد كان يعتقد ان (حرية القول هى ان يقول الانسان ما يعن له الا ما جرح عاطفة او احدث فتنة..... وحرية الفكر هى ان يبدى المرء من ارائه ما يشاء الا ما كان سقيما غير ناضج ضمنا بعقله ان تتناوله تخطئة المخطئين"<sup>(٣)</sup>).

ولقد هاجم الكاتب قانون المطبوعات حيث اكد انه (سيئة من سيئات القرن الماضى فلا يجب ان يتمشى على اهل العصر الحاضر نظر لتغاير الطباع والاخلاق وتطور الشعب من الاستبداد إلى الحرية".

ومع قيام ثورة ١٩١٩ يضاف عامل جديد إلى قضية حرية الفكر والتعبير فبعد ان كانت هذه القضية فى الفترة قاصرة على مجرد تأكيد لحق الامة المصرية فى التعبير عن رأيها وارادتها فى مواجهة سلطات الاحتلال البريطانى والسلطة الاستبدادية للخديوية... صارت فى فترة ما بعد ثورة ١٩١٩م وبداية العهد الدستورى تؤكد إلى جانب ذلك حق الاقلية السياسية فى التعبير عن رأيها ولو كان معارضا لرأى الاغلبية، وبذلك اكتمل مفهوم حرية الفكر والتعبير بمعناه الليبرالى أى حق الاقلية فى التعبير عن نفسها وارادتها بحرية كاملة ولكن التسليم بهذا المفهوم لم يتم بسهولة وتكشف عن ذلك المعركة التى نشبت بين أمين الرافعى محرر (الاخبار) وبين سعد زغلول زعيم الاغلبية الشعبية فعندما اختلف امين الرافعى مع سعد زغلول حول ضرورة تعديل اساس المفاوضات بين الوفد والمجتلر اعلن سعد زغلول فى احدى خطبه انه يقرأ صحيفة الاخبار بالنيابة عن الجماهير..... وطالب الشعب بعدم قراءة الصحيفة... وكان ذلك يعنى انهيار توزيع

(١) العلم - ٢٧ مارس سنة ١٩١٢ مقال بعنوان (ان منعت القول فلن تمنعوا العمل).

(٢) الشعب - ٨ يونيو سنة ١٩١٢ - مقال بعنوان (الحرية الفكرية).

(٣) الاهالى - ٢٣ يناير سنة ١٩١١ مقال بعنوان (حرية القول والفكر).

الصحيفة على النحو الذى بيناه فى فصل سابق .. لذلك فقد تصدى أمين الرافعى لسعد زغلول وعلن رفضه لأسلوب سعد فى مواجهة الافكار المعارضة وقرر ان (سعد باشا لا يريد ان يظهر فى البلاد سوى رأيه فاذا اخطأ وجب على الناس يعتبروا خطأه صوابا)<sup>(١)</sup> وعلن الرافعى ان (صحيفة الاخبار التى طالما تغنى الزعيم بمدحها هى اول صحيفة من ضحايا مذهب سعد باشا الذى يقضى بخلق حرية الراى ويقتل كل معارضة بإرغام الاقلام ان تكتب فى دائرة واحدة هى تحييد اعماله سواء كانت صالحة ام غير صالحة..".

ثم اتهم الرافعى سعد باشا بانه كثير التناقض (فإنه كان فى مقدمة العاملين على قانون المطبوعات سنة ١٩٠٩ ولكنه لما وجد الآن ان هذا القانون ينفذ ضد بعض جرائده اخذ يستنكره مع إنه هو الذى بعثه وهو لا يفتأ الآن يطالب بإلغائه... واذا كان هذا التناقض غريبا فأغرب منه ان يضع سعد باشا بنفسه قانونا آخر للمطبوعات يطبق على الصحف التى لا تسبح بحمده فهو يأمر الناس بعدم قراءة اية صحيفة تخالفه فكأن سعد باشا يريد ابدال قانون المطبوعات الحكومى بقانون مطبوعات آخر يكون تنفيذه فى (بيت الامة) ثم يقول بعد ذلك إنه نصير الحرية وعدو الاستبداد). وللرافعى موقف آخر يدافع فيه عن حرية الصحافة وكان ذلك تعليقا على ما جاء فى مشروع الدستور عن حرية الصحافة حيث هاجم الرافعى الزيادة التى ادخلتها الحكومة على مشروع لجنة الدستور الخاص بالصحافة عندما اعطت للادارة حق تعطيل الصحف اذا ما خالفت النظام الاجتماعى.. وعلن ان ذلك يتناقض لمبدأ حرية الصحافة<sup>(٢)</sup>.

وقد تعرض الدكتور محمد حسين هيكى ايضا لقضية حرية الصحافة فى مصر حيث اعلن ان الصحافة فى مصر (ليست حرة وإنما مقيدة بأنقل القيود واشدها - هى مقيدة بقانون المطبوعات. وهى لذلك عرضة للانداز والتعطيل والقفل كلما رأت الحكومة ذلك من غير اى مسئولية عليها وهى خاضعة بالاحكام العرفية فيمكن مراقبتها قبل طبعها ويمكن اصدار الاوامر لها بالعمل فى حدود معينة لا تتخطاها هذا فضلا عن قيود القانون العام<sup>(٣)</sup>).

وهاجم الدكتور هيكى الزيادة التى ادخلت على النص الخاص بحرية الصحافة فى مشروع الدستور والخاص بحماية النظام الاجتماعى وعلن إنه يقتل حرية الصحافة فى مصر قبل ان تبدأ<sup>(٤)</sup>.

وعندما قامت وزارة سعد زغلول بمنع جريدة (السياسة) من حضور حفل افتتاح الدورة الاولى للبرلمان هاجم الدكتور هيكى استبداد الوزارة الوفدية وعلن ان النبوغ السياسى الديمقراطى وصل برئيس الوزراء إلى ان يهين الحرية فى يوم عيد الحرية والا فهل يستطيع رئيس الوزراء

(١) الاخبار - ٧ اكتوبر سنة ١٩٢١ مقال بعنوان (حرية الراى فى نظر سعد باشا زغلول).

(٢) انظر فصل (الصحافة المصرية والدستور)

(٣) السياسة - ٧ ديسمبر سنة ١٩٢٢ مقال بعنوان (حرية الصحافة).

(٤) انظر فصل (الصحافة المصرية والدستور)



والوزراء واصحابه ان يفسروا لنا والناس منع (السياسة) من ان تشهد افتتاح البرلمان<sup>(١)</sup>. وذكر الدكتور هيكل ان بعض الصحفيين تحدثوا إلى سعد زغلول في منع السياسة فاجاب "ويا خير ما اجاب- اجاب بيانه منع السياسة عمدا ولم يتورط فيه لخطأ أو نسيان وقصد لكى يؤذى الحرية ويسئ إلى الصحافة فلما سئل عن ذلك اجاب ويا خير ما اجاب اتريدون ان تدعون من يهينوننا؟ نعم يا صاحب الدولة كنا نريد ان تدعو من اهانك لتكون حرا حقاً ولتكون ديمقراطياً حقاً ولتكون كريماً - كنا نريد ان تدعو من اهانك اذا كنت ترى النقد والارشاد اهانة ولكنك لست حراً فى ان تحتكم فيما لا تملك او تذود الناس عما يملكون وثق انك كنت مقيداً يوم افتتاح البرلمان وثق انك اسأت إلى الحرية يوم عيد الحرية .. وانك احتكرت هذا إليوم يوم الامة واحتكرت محضر الملك وهو حق للناس جميعاً".

واعلن الدكتور هيكل ان موقف رئيس الوزراء إزاء خصومه السياسيين وإزاء الصحافة لينذر بشيء غير قليل من الخطر فهو يفهم الدستور على نحو خاص ويشعر بالحرية وحقوقها شعوراً خاصاً ولئن كان لنا أمل نحرص عليه فهو ان يكون النواب والشيوخ اصدق فهما واحسن تصوراً للحرية والدستور.

ولسلامة موسى مقال هام نشره فى صحيفة (البلاغ) عن (الحرية الفكرية) ذكر فيه أن الإنسان مهما ظن نفسه حراً فهو اسير الوسط الذى يعيش فيه... فحرية فى احسن اوقاتها هى حرية مشوبة بالرمد لما تركب فى النفس البشرية من الانطباع والتأثر بالبيئة الاجتماعية وبالتاريخ الماضى وبحدود اللغة واثر المناخ وما إلى ذلك<sup>(٢)</sup>.

ويؤكد سلامة موسى إنه (مهما ادعى احدنا إنه حر الضمير طليق الفكر نزيه الراى فهو فى الواقع وفى اغلب افعاله قد اوغز إلى ضميره واوحى إلى فكره قد تشرب الغرض على غير وعى منه إلى جميع اغراضه.

ثم يطالب الكاتب بالعمل على "ان لا تزيد هذه القيود التى تقيد حرية الإنسان عفووا وعلى الرغم منه بقيود اخرى نضعها عمدا او توكل المحاكم فى تنفيذها وامضائها ونثير عواطف الناس عن كل مخالفة لهم فى الراى او - العادة ويقول سلامة فى ختام مقاله ان التقدم منوط بنزاهة الراى والجرأة على ارتياد الآراء فما لم نفعل ذلك وننظر إلى الآداب والعلوم - الاجتماعية والسياسية والدينية كما ننظر إلى الكيمياء فلن نتقدم إلى مدارج الرقى الفكرى خطوة.

وهكذا تناولت الصحافة المصرية قضية حرية الفكر والتعبير - لا كمجرد قضية من القضايا الهامة ولكن - كما قدمنا - كمعركة يومية من اجل الدفاع عن النفس وعن الحقوق الديمقراطية - للامة.

\*\*\*

(١) السياسة - ١٦ مارس سنة ١٩١٤ مقال بعنوان (عشت بالحرية يوم عيد الحرية).

(٢) البلاغ - ٢٧ اكتوبر سنة ١٩٢٤ مقال بعنوان (الحرية الفكرية).



## الفصل الثانى والعشرون

الصحافة المصرية ...  
والاقتصاد الحر



كان اهتمام الصحافة المصرية - في الفترة التي يتناولها البحث - بالاقتصاد الحر تعبيراً عن رغبة البورجوازية المصرية في متابعة السير في الطريق الرأسمالي الذي بدأ قبل الاحتلال بفترة يصل البعض بها إلى ما قبل الفتح العثماني لمصر<sup>(١)</sup> ... بينما يصل بها آخرون إلى عصر على بك الكبير<sup>(٢)</sup> .. او الحملة الفرنسية<sup>(٣)</sup> .. او عصر محمد علي<sup>(٤)</sup> ..

فمن المؤكد ان تحطيم المماليك - كطبقة - في عصر محمد علي<sup>(٥)</sup> وزوال الالتزام<sup>(٦)</sup> .. وتحول الإنتاج الزراعي من انتاج للاستهلاك المحلي إلى انتاج السلع المصدرة مثل القطن<sup>(٧)</sup> .. قد فتح الباب واسعا نحو تحول مصر من الاقطاع إلى الرأسمالية .. وقد دعم هذا التحول بعد ذلك انتقال علاقة الفرد بالارض من حق الانتفاع إلى حق التصرف<sup>(٨)</sup> .. ثم ظهور الملكية الفردية للارض<sup>(٩)</sup> .. مما زعزع مبدأ نظام ملكية الدولة للارض وفتح الطريق امام الاستغلال الرأسمالي للارض<sup>(١٠)</sup> ..

ولا شك أن طموح البورجوازية المصرية إلى التوسع والنمو قد اصطدم بالمنافسة الرأسمالية الأوروبية ومحاولتها السيطرة على السوق المصرية وربط الاقتصاد المصري بالنظام الرأسمالي الاستثماري<sup>(١١)</sup> .. العالمي. وبوقوع مصر تحت سيطرة الاحتلال الإنجليزي .. استقر الامر للرأسمالية الأوروبية في مصر وجرى تحويل البلاد إلى سوق للرأسمالية الأوروبية عامة وللرأسمالية الإنجليزية خاصة .. تستورد منه المواد الأولية .. وخاصة القطن بأرخص الاسعار وتصدر إليه منتجاتها الصناعية بأعلى الاسعار .. فقد استهدفت خطة الاحتلال الصناعة المصرية القائمة .. فأغلقت أو بيعت المصانع الحكومية مثل مصنع الورق ببولاق ودار سك النقود ومغازل القطن ومصانع النسيج التي كانت باقية منذ عهد محمد علي وعطلت الترسانة التي كانت تعمل في صب المدافع وصنع البنادق والذخائر وبيعت البواخر النيلية بأرخص الاثمان وعطل الخوض البحري لإصلاح السفن.

(١) صبحي وحيدة - في اصول المسألة المصرية - ص ٨٥ وفوزي جرجس - دراسات في تاريخ مصر السياسي منذ العصر المملوكي ص ٩ ود. سعيد عاشور - مصر في دولة المماليك البحرية ص ١٦٠.

(٢) د. محمد أنيس - المجتمع المصري في ظل الاقطاع ص ١٢ - ومحمد رفعت رمزيان - على بك الكبير ص ٢١٨، ٢١٨.

(٣) د. لويس عوض - تاريخ الفكر المصري الحديث - الجزء الاول - ص ٧٨.

والدكتور أمين مصطفى عفيفي - تاريخ مصر الاقتصادي والمالي في العصر الحديث ص ٢٦.

(٤) ابراهيم عامر - الارض والفلاح ص ٨٠ - ٨٢ وعبد المنعم الغزالي تاريخ الحركة النقابية المصرية - ص ٢-٤.

(٥) الدكتور محمد أنيس - المجتمع المصري في ظل الاقطاع ص ٩-١٠.

(٦) د. امين مصطفى عفيفي عبد الله - تاريخ مصر الاقتصادي والمالي في العصر الحديث - ص ٢٦-٢٧.

(٧) تيودور رثنين - فصول من المسألة المصرية - ص ١٦٣.

(٨) ابراهيم عامر - الارض والفلاح - المسألة الزراعية في مصر ص ٧٥-٧٦.

(٩) د. محمد أنيس - المجتمع المصري من الاقطاع إلى الرأسمالية - ص ١٢.

(١٠) ابراهيم عامر - ثورة مصر القومية - دار النديم - القاهرة ١٩٥٧ - ص ٤٣ - ٤٤.

(١١) أمين عز الدين - تاريخ الطبقة العاملة المصرية منذ نشأتها حتى عام ١٩١٩ - دار الكاتب العربي - القاهرة ص ٣٨ - ٣٩.

أما الهدف الثانى لسلطة الاحتلال فكان: تخطيط الحرف الصغيرة حتى تحل السلع الإنجليزية محل المصنوعات المحلية حتى بين افراد الجماهير الفقيرة<sup>(١)</sup>.. ويؤكد ذلك ما حدث لصناعة غزل القطن التى كانت تبشر بمستقبل كبير لقرب المادة الخام وانخفاض اجور العمال. الا ان اللورد كرومر اكراما لخواطر لوردات القطن فى لنكشيسر قد فرض رسما قدره ٨ ٪ على جميع المصنوعات القطنية المصرية وبذلك اندثرت تلك الصناعة من مصر<sup>(٢)</sup>.

لذلك كله كان من الطبيعى ان تسبر الدعوة إلى الاقتصاد الحر فى مصر فى مواجهة الاستعمار القائم فى خطين متلازمين:-

اولا : تشجيع النشاط الفردى الحر والدفاع عن الملكية الفردية وحرية النشاط التجارى والصناعى والزراعى والاهتمام بكل ألوان النشاط الاقتصادى القائم على المبادرة الفردية.

ثانيا: الهجوم المستمر - الذى قاده الصحافة المصرية على اختلاف اتجاهاتها فى تلك الفترة على تسلل الرأسمالية الاوربية وخاصة الإنجليزية إلى الاقتصاد المصرى.. فقد رفعت الصحف شعار.. الاستقلال المالى تارة او الاستقلال الاقتصادى تارة اخرى.. أو ما سمته فى السنوات الاخيرة التى تناولها البحث "بالتحرر الاقتصادى" على أساس ان الاستقلال السياسى لا قيمة له بدون الاستقلال الاقتصادى .. وعلى هذا الأساس ظهرت افكار مثل انشاء بنك وطنى مصرى بأموال وطنية.. وانشاء شركات مساهمة مصرية.. وذلك من أجل حماية المصريين من استغلال الاجانب.

فهذا (ميخائيل عبد السيد) يطالب الحكومة بإنشاء "بنك وطنى يكون تحت نظارتها وادارتها وتكون له أفرع فى جميع الجهات الريفيه لتعرض على الفلاحين السلف بفوائد مناسبة فإنهم مزارعون وفلاحون وكثيرا ما تطرأ عليهم اوقات يحتاجون فيها إلى الاقتراض فيقترض الواحد ما يحتاج بفوائد باهظة<sup>(٣)</sup>..

كذلك دعا ميخائيل عبد السيد سراة المصريين واغنياءهم للعمل على تأليف الشركات التجارية ذلك ان "قوة الممالك المتمدنة بشركاتها وجمعياتها فإنه لو كانت الدولة مقتصرة على همة موظفيها فقط لما اتسع نطاق تجارتها ولما اتسعت بلادها وممالكها ولكننا نرى الجمعيات والشركات التى تقطع البلاد والفيافى والتقفار والبحار وترسل بضائعها وتجاريتها وتستخرج بالتجارة التبر من الحجارة".

(١) شهدى عطية الشافعى - تطور الحركة الوطنية المصرية الطبعة الاولى دار المطبعة المصرية القاهرة ١٩٥٧ ص ٧-٨.

(٢) تيودور رشتين - فصول من المسألة المصرية ص ١٦٧.

(٣) الوطن - ٣٠ يوليو سنة ١٨٩٢ مقال بعنوان (البنك المصرى).

أما عبد الله النديم فإنه يحى مبادرة عدد من الشبان المصريين الذين أخذوا يعتمدون في حياتهم على مصنوعات بلادهم المحلية ويطالب أبناء الامة المصرية وبالذات اغنياءها بالاقتداء بهؤلاء "الوطنيين في تزيين بيوتهم بمصنوع بلادهم وبذلك يحيون ألوفاً من الصناع ويفتحون بيوتاً قفلها موت صناعة اهلها بترويج صناعة الغير"<sup>(١)</sup>.

كما اهتم النديم بالدعوة إلى تشجيع التجارة وطالب "بفتح مجال التجارة وإقامة شركات وطنية تجمع من سهام قليلة فتربح كثيراً وتفتح بيوتاً اغلقت ابوابها او كادت"<sup>(٢)</sup>.

وخاطب الكاتب اغنياء مصر قائلاً "ألا تقدرون على عقد شركات تشتري اجزاء من أطياف الدومين او السدائرة لتربخوا منها وتستخدموا فيها أخاكم الفلاح وتعوضوا بعض ما أضاعه الاسراف في الملاهى والخروج عن الحد وصبره في بد الاجنبى".

وفي صحيفة مصر طالب (تادرس المنقبادى) بالعمل على تصنيع البلاد حيث اكد ان "الصناعة ركن مهم يتمم أسس العمران في هذا الوجود"<sup>(٣)</sup>.. ويقرر الكاتب ان بلادنا المصرية وان كانت غنية بأرزاقها الطبيعية الناجمة عن الزراعة" الا ان عصر الترقى المالى واحتياجاته الجديدة فضلاً عن احتياجات الزراعة نفسها كل هذا يقضى علينا ان نسعى في تحسين طرق الصناعة وترقية شأنها". ثم يقرر ان ذلك سوف يوفر على مصر استيراد "المصنوعات الغربية حيث ان جميع هذه المصنوعات مع ان عنصرها الاصلى الاكثر جودة تجود به علينا الطبيعة ببلادنا ولكننا نبتاعه من أرباً أنواع وبافحش الاثمان.

ويستطرد تادرس المنقبادى مؤكداً أن الصناعة يمكن ان تستوعب أعداداً من الشبان المصريين المتعلمين الذين تضيق بهم وظائف الحكومة فيقول: "وكذلك لا يسعنا أن نذكر مع الاسف وجود الالوف من شباننا العطل الذين بعد مزاولتهم المدارس والتعليم يتهافتون على طلب الاستخدام بالدوائر الاميرية ومع ذلك يستخدم الواحد وألف لا يكون لهم نصيب في الخدمة".

ويبدى الكاتب خجله من ان "بلاداً كبلادنا خصتها الطبيعة بكل لوازمها الضرورية للحياة ومع ذلك لا تستطيع صناعتها وكل صناعتها أن يصنعوا ثوباً واحداً من البفنة لستر العورة ولا من صوف اغنامها طربوشاً يوضع على الرأس" ويتساءل قائلاً: "أليس عجباً ان بلادنا فضلاً عن توفر وجود القطن والتيل والكتان والجلود وغيرها فيها فان كثيرين من شباننا يقتلون الاوقات في العطل أو يرتضون بأقل الاجور.. فكيف مع توفر هذه الضروريات الاساسية وصعوبة نفقات النقل وعظم مصاريف الجمارك من وإلى بلادنا والبلدان الغربية لا يكون الضعف الصناعى بيننا شبيهاً بضرية او بضرية تشد اوجاعها في جسم الوطن كلما ازدادت احتياجاتنا بالنسبة لأميالننا لمباراة الغريب في استعمالها دون عملها".

(١) الاستاذ - ٤ أكتوبر سنة ١٨٩٢ ومقال بعنوان (بضاعتنا ردت اليها).

(٢) الاستاذ - ١٧ يناير سنة ١٨٩٣ مقال بعنوان (لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا).

(٣) مصر - ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٩٥ مقال بعنوان (الامة والصناعة).

ويشيد المنقبادى بمحمد على باشا الذى شغلته نفس هذه الأفكار "فباشر فعلا فى تأسيس جملة من المعامل والمصانع الوطنية فى كافة أنحاء البلاد المصرية حيث لا تزال آثارها الباقية تسمى بسمو مدارك ذلك الرجل العظيم وحسن أمياله الموجهة لترقية وتحسين شئون رعاياه".

ويؤكد المنقبادى أنه يكفى أن توجه الأنظار مليا "إلى تلك الأشباح الأثرية الكائنة بين ظهرانيها التى تناطح السماء علوا المخلفة عن آبائنا المصريين الأقدمين فإنها وحدها برهان على مجد وعظمة مصر حين كانت مجتهدة فى ترقية الصناعة".

وأخيرا يطالب الكاتب الحكومة وسراة البلاد بالاهتمام بالصناعة وبإنشاء الشركات الصناعية فيقول "ونحن لسنا ممن يعذرون الحكومة بالنظر لضيق ميزانيتها دون القيام بإحياء مثل هذه المشروعات النافعة بل بالعكس نرى حياتها وحياة رعاياها المالىتين تتوقفان على إحياء وسائط المعيشة المضمونة بها مالىتنا سيما وإننا طالما رأينا بين أرقام الميزانية ألوفا من الجنيهات تنفق فى أمور ليست ذات أهمية للأمة بقدر أهمية الصناعة لها".

وينشر قاسم أمين فى صحيفة (المؤيد) عدة مقالات يطرح فيها عددا من الأفكار الاقتصادية الهامة.. وقد بدأ هذه المقالات بأن وصف الحالة الاقتصادية فى مصر.. وتندر على "ما تقول به العامة أن مصر أم الدنيا.. والأصح إذا قورن بينها وبين مدن الممالك الأخرى مثل لندن وباريس وهامبرج وبروكسل وأمثالها أن تسمى خادمة الدنيا لأنها لو وضعت فى جانب هاته المدن لظهرت فى حالة فقر محزنة كما لو وضعت سائلة مكدية ذات أطمار بالية قدرة فى جانب عروس متحليه بأفخر الملابس وأثمن الحلى وأبهاها"<sup>(١)</sup>.

ثم يذكر قاسم أمين القراء بأن مصر "بلد فقير جدا نصف أهلها وهم الفلاحون يعيشون بالشئ الذى يقى الحى من الموت جوعا - والنصف الآخر ينقسم قسمين الأول يشمل التجار والصناع وهؤلاء ليس فيهم شخص واحد يقال إنه "مالى" والآخر يحتوى على الموظفين وأرباب المعاشات وهم الطبقة المتظاهرة بحالة اليسار نوعا ما فى معيشتهم ولكن أغلبهم إن حيل بينه وبين مرتب المعاش شهر واحد وقعوا فى العسرة والفتك الشديد.. أما أرباب الأتيان من الذوات "والعمد والمشايع والأعيان فى البلاد فحالهم يحال (رابيل) المؤلف الفرنساوى المشهور إذ قال فى وصيته "إنى لا أملك شيئا وعلى ديون كثيرة وأوصى ببقية ما أملك للفقراء".

ثم يؤكد قاسم أمين أن "المملكة لا تكون غنية إلا إذا كان أهلها أغنياء ولذلك قال أحد السواسى المشهورين اعطنى مالية حسنة اعطك سياسة حسنة".. وعملا بهذه القاعدة ينه قاسم أمين قراءه إلى أن أمم أوروبا وجهت التفاتها "إلى المسائل الاقتصادية فانشأت نظارة للتجارة وللصناعة وللمستعمرات وأكثر من إنشاء المدارس التجارية والصناعية وتهافتت على وسائل الاستعمار وصارت كل أمة تزاحم الأخرى فى هذا السبيل والتنافس بينها شديد بالغ حد الكفاح

(١) المؤيد - ١١ أكتوبر سنة ١٨٩٧ مقال بعنوان:

(الحالة الاقتصادية فى مصر.. اعطنى مالية حسنة - اعطك سياسة حسنة).



والجهاد - حتى إن رجال السياسة صاروا يعتبرون أنه لا بد وأن تقوم الحرب يوما ما بين إنجلترا وألمانيا لأن المنافسة بين الأمتين فى جميع أنحاء الدنيا أوصلتهما إلى درجة اعتقاد أن أحدهما لا يمكن أن تستمر فى طريقها إلا إذا سحقت الأخرى"... ثم يؤكد قاسم أمين أننا "نحن معاصر المصريين لا شغل لنا إلا الإشراف على ميدان هذا التنافس للتفرج على المتنافسين والإعجاب بهذه الأمة والاستهزاء بتلك.. كأننا عالم من كوكب آخر حضرنا إلى هذه الدنيا للتفرج على أهلها أياما معدودة ثم العودة إلى أوطاننا بعد ذلك بسلام.. والحقيقة أننا نحن موضع تنازعهم وسبب مشاكلهم.. نحن اللقمة الدسمة التى يريد كل منهم أن يتلعبها فى جوفه".

ويقرر الكاتب أن كل ثروة هى نتيجة عمل صاحبها "ترى الرجل مثلاً فى أمريكا يبتدئ فى تجارة أو صناعة حقيرة فيصل بعد بضعة سنين إلى مصاف المالىين الذين يحرزون الملايين فلماذا؟.. لأنه يشتغل ليكسب فالواحد منهم يشتغل دائماً.. يشتغل بالنهار ويفكر فى شغله بالليل.. وهو قد تربى على أن يشتغل وتربى على أن يعتمد على نفسه.. فالتربية والعادة قد أوجدتا فيه الإقدام على الشغل والعمل.. أما فى مصر.. فالعكس هو الذى يحدث.. إذ يرى قاسم أمين أن "الواحد منا معاصر المصريين أو الشرقيين كافه.. فهو كالبهيم الذى يعلق فى الساقية يمشى الهوينا خطوة خطوة حتى يسمع صوت الفرقة فيجاهد نفسه بخطوه.. ثم يقف وهكذا حتى المساء حيث يقدم له علفه فيأكله طيباً أو رديئاً ثم يهوى بجسمه كالشبح المروض على الأرض فينام تعباً كسولاً.. بل مكسراً مهشماً حتى الصباح..

وفى إحدى هذه المقالات يتساءل قاسم أمين: لماذا لا يوجد فى مصر أغنياء؟ وقبل أن يجيب على التساؤل يؤكد أن الأوربيين لم يصيروا أغنياء إلا بسببين: "احتقار الاستخدام فى وظائف الحكومة وعدم الالتجاء إليها عند الحاجة<sup>(١)</sup>" والثانى "احترام التجارة والإقبال عليها أكثر من إقبالهم على بقية العلوم الأخرى".. ثم قرر الكاتب إننا فى مصر على عكس ذلك "نحترم الوظائف الأميرية ونعدها منتهى الفخار والشرف ونحتقر التجارة ولا نقبل عليها حتى عند الحاجة المطلقة فكان نصيبنا الفقر الأسود".

ثم يذكر قاسم أمين أن الأوربيين يجمعون الأموال الهائلة "لا لأن الله خلقهم أشد منا عضلاً وأتم تركيباً ولا لأنهم أوتوا مفاتيح كنوز خفية لا يمكن أن نصل إليها نحن.. بل لأنهم فهموا أن التجارة هى علم الثروة الحقيقى وهى علم حقيقى لا يقل فى الفضل عن أشرف العلوم".

ونشرت (المؤيد)<sup>(٢)</sup> أيضاً مقالا وقع باسم رمزى (م.ر) أكد فيه كاتبه أن ثروة الأمراء وأغنياء البلاد يتبعثر معظمها فى ضروب السفسه والإشراف "فهم ينفقون الآلاف وعشرات الألوف فى سبيل الشبهوات والترف الذى يتوهمونه من الشرف"... ويذكر الكاتب أن كل عاقل فى مصر "يتأسف من صميم قلبه عندما يرى هذه الثروة الهائلة تنصب فى أحواض الأجانب فيمتلكون فيها مادة حياة البلاد ويقبضون على أزمة مصالحها ومنافعها".

(١) المؤيد - ١٦ أكتوبر سنة ١٨٩٧ مقال بعنوان: (لماذا لا يوجد فى مصر أغنياء؟).

(٢) المؤيد - ١٩ يوليو سنة ١٨٩٩ مقال بعنوان: (السياسة والسياسيون فى مصر).

ويقرر الكاتب "إن من يعمل عملا ماليا كبيرا يعود بالمنفعة على الأجانب هو أشر من يشايح الأجنبي على عمل سياسى مخالف لمصلحة الوطن لأن الموظف الذى يشايح الأجنبي له شبه عذر فى استيلاء الأجنبي بقوته عليه ولكن الغنى ليس لأحد عليه سيطرة إلا ما يجنيه على نفسه.. وأقول أيضا إن من يشتري من أجنبي متاعا يستغنى عنه أو يجد مثله عند الوطنيين فإن خيانتة لوطنه لا تقل عن خيانة الموظف الصغير الذى تحركه فى عمله عوامل السياسة الاجنبية لما ذكرنا من شبه العذر الذى يمكن التعلل به".

ثم يبدى الكاتب عجبه لاحتقار أغنياء المصريين للتجارة بينما هى "ينبوع الثروة الاكبر؟ لماذا يفضلون عليها الوظائف وهم يعلمون ان الموظف عبد مأمور والتاجر سيد أو أمير؟ جواب هذا هو ما أشرنا إليه فى الخطأ فى معنى الشرف".

ويتساءل الكاتب: "لماذا لا يؤسس أغنيأؤنا شركات وطينه للأعمال النافعة للبلاد؟ ولماذا لا يثقون إلا بالأجنبي فى جميع معاملاتهم فيساعدون الشركات الأجنبية ويخذلون كل عمل وطنى؟ لماذا لا ينشئون مدارس للعلم والصناعة تحيا بها البلاد والعباد وتكون لهم مورد رزق.. ولبلادهم مورد سعادة وارتقاء؟..".

وقد أرجع الكاتب الأمور السابقة كلها إلى أمرين هما:

"الجهل وفساد التربة اللذين هما علة كل بلاء وشقاء لأبناء البلاد".

وبتوقع رمزى (ص.ش) تنشر المؤيد مقالا بعنوان (الصناعة الوطنية) يذكر فيه كاتبه أن الاستقلال أمنية كل وطنى وأنشوده كل أمة تتطلع إلى الرقى ولكنه مع ذلك نتيجة لأعمال وثمره لجهاد ومن ذلك "الآخذ بيد الصناعة الوطنية والعمل لتحسينها بتشجيع الصناع الوطنيين بكل الوسائل من الإقبال عليها وتفضيلها على وارد الخارج مهما كان<sup>(١)</sup>".

ويطالب الكاتب بضرورة "مزاحمة الأجانب فى كل مرافق الحياة الاقتصادية بشرط أن يتصف المتاجرون بالصدق والإخلاص والأمانة" ويطالب الكاتب أيضا بإنشاء مدرسة تجارية وأبدى أسفه لأنه "لا توجد فى بلادنا على سعتها وكثرة غنى أهلها مدرسة واحدة لتعلم هذا الفن الحيوى الجليل".

ولعل مما يلفت النظر فى صحيفة اللواء أن (أحمد حلمى) المحرر الثانى فى الجريدة بعد مصطفى كامل كاد يتخصص فى كتابة معظم المقالات الاقتصادية فى الصحيفة بحيث يمكن أن تعتبره أول محرر اقتصادى متخصص عرفته الصحافة المصرية.. وكان أحمد حلمى يرى أن الثروة هى "المال الذى تتداوله أيدى الأمة فردا بعد فرد<sup>(٢)</sup>". وإنه بقدر ما يكون هذا المال محفوظا فى دائرة أهل الوطن "تكون سعادة الأمة وهناء الأفراد والمال كيفما انتقل بين طبقات الأمة فلا يضر بمجموعها". كما كان يرى أن الضرر البالغ للاقتصاد الوطنى يأتى عندما "تفتتح

(١) المؤيد - ١٣ أكتوبر سنة ١٩١٠ مقال بعنوان : (الصناعة الوطنية تستيقظ .. خذوا بيدها ايها المواطنين).

(٢) اللواء - ٢٨ أبريل سنة ١٩٠٠ مقال بعنوان : (طاعون الثروة المصرية).

لذلك المال ثغور ينفلت منها إلى يد الأجنبي .. ويعرض أحمد حلمى لآحوال الصناعة والزراعة والتجارة فى مصر فيذكر أن الزراعة فى تقدم ولكن "يا حسرتاه عليها فإنها فى يد غيرنا .. فالزراع المصرى يتأخر والأجنى يتقدم" أما عن الصناعة فإن الكاتب يصفها بأنها تعاني "نزاع الروح ان لم تكن أسلمتها .. فالبضائع الأجنبية أقل من البضائع المحلية ثمنا وأحسن رونقا ظاهريا لأنها مصنوعة بيد العلم ومركبة بأفكار العلم" ويتناول أوضاع التجارة فيقول أحمد حلمى: إن "التاجر المصرى لا يكاد يتجاوز رأس ماله خمسين جنيهًا وهو كل ما يملك إن اتسع عمله ففى أموال الغير التى تزيد فى كل لحظة عليه لفداحة فوائظها وهو مع ذلك يندب كساد السوق ووقوف حركة البيع لأن الشركات العظيمة الأجنبية برأسمالها العظيم تباع بأقل منه بكثير وهو لو جاراها لذهب ما فى يديه أدراج الرياح لكثرة ما فيه من الخسائر وقلة الأرباح".

وفى مقال آخر يهاجم أحمد حلمى "انتقال قسم كبير من أراضى الوطنيين إلى الأجانب<sup>(١)</sup>" ويطالب كل ذى قلم ولسان أن يجاهر بتخطئتها.

ويكشف أحمد حلمى عن سياسة الاحتلال المالية فى مصر فيذكر أن الاستعمار البريطانى رأى أن يدخل مصر "من باب الماديات ويختطف أبصارها بوهج الذهب وعلى هذه القاعدة بنى سياسته المالية .. مكان من سوء حظ مصر أن صار معظم الفائدة الناتجة عن هذه السياسة المالية (للشطار) من النازحين إلى القطر المصرى الذين أدركوها النتيجة وصلوا لها ما استطاعوا<sup>(٢)</sup>".

ويقرر الكاتب أن اللورد كرومر قد أوعز إلى "القابضين على زمام الأمور فى مصر أن لا يبيعوا أملاك الحكومة من الأراضى الزراعية التى فى إصلاحها أكبر الفوائد إلا لغير المصريين من أصحاب الأموال الأجانب ومما يزيد هذا الرأى تأييداً أن الأجانب الذين يشتغلون بأعمال يحتمل أن يستفيد منها المصرى رأوا منه كل صد و صلف إن لم تكن المعارضة أو الحماسة كما أصاب شركة الغزل والنسيج التى حاق بها الضيق والدمار وما ذلك إلا لأنها لو شجعت من الحكومة المصرية راجت أعمالها واتسعت أشغالها فربح منها الوطنيون وتلقوا عنها درساً عملياً يجعلهم أهلاً للانتفاع باقطان بلادهم".

ويدعو أحمد حلمى للتخلص من سيطرة السماسرة الأجانب على أسعار القطن المصرى فيطالب بأن "تؤلف نقابة من كبار الأعيان وأرباب الأقطان والمشتغلين بزراعة الأقطان وتنتخب هذه النقابة وفداً من أعضائها للسفر إلى أوروبا والطواف على المعامل ومخاطبة كبار التجار والاتفاق معهم رأساً بعد مساومة عدد كبير منهم على ثمن القطن المصرى المناسب للحالة العمومية وعقد الاتفاقات هناك وإبلاغ مضايمينها لتلغرافيا للصحف الوطنيه فى مصر ليعرف اللاعبون بمصر أن زمان الخطف والتضليل مضى وانقضى وأن عصر اليوم فى دور النهوض والحياة<sup>(٣)</sup>".

(١) اللواء - ١٥ يوليو سنة ١٩٠٢ مقال بعنوان (هذه شدتكم ألا تذكرونها يوم رقائقكم .. نظرة اقتصادية).

(٢) اللواء - ٢٨ يوليو سنة ١٩٠٧ مقال بعنوان (يقظة الأمة).

(٣) اللواء - ٢٠ يوليو سنة ١٩٠٧.

والجدير بالذكر أنه بعد بضعة أيام من نشر هذا المقال انهالت الرسائل على اللواء من رجال المال المصريين وعلى رأسهم كبير تجار القاهرة السيد حسن موسى العقاد يعلنون موافقتهم على فكرة أحمد حلمي بتأليف نقابة لتسويق القطن المصرى فى أوروبا<sup>(١)</sup>."

وعلى صفحات اللواء أيضا يطالب (عمر بك لطفى بإتشاء بنك مصرى وطنى" يدفع عن البلاد غوائل الضرائب<sup>(٢)</sup>."

وكتب (على فهمى كامل) يؤيد أهمية دعوة عمر لطفى ومؤكدا أنه إذا لم ينشأ هذا المصرف الضرورى حالا "تحقق لبلادنا الخراب.. والذى يجد الآن مائة جنيه لن يجد غدا مائة قرش فليتدبر ذلك الوطنى ويؤسسون البنك الوطنى ليقصد التجار فى الأسواق ويأمن معه الناس شر أزمات كثيرة مفتعلة<sup>(٣)</sup>."

ويؤيد (الدكتور عبد العزيز بك نظمى) فكرة البنك الوطنى مؤكداً فى مقال له باللواء ان "هذا البنك برأس ماله المصرى سيسهل على المصريين ويلاات الأزمة المالية الحالية والمستقبلية ويساعدهم على إنجاز أعمالهم الزراعية والتجارية بإعطائهم ما يحتاجون إليه من المال بشروط عادلة فضلا عن أن مثل هذا البنك مما يزيد من الثروة الحقيقية للأمة.. ويعلمها طريق الاعتماد على نفسها<sup>(٤)</sup>."

ثم يقترح الكاتب أيضا "تأسيس بنك رهونات مصرى لتسليف نقود للفقراء والبؤساء مجانا برهن حلى أو أمتعة أو ملابس وذلك للقضاء على محلات الرهونات التى تحتسب فوائد لا تقل عن ستين فى المائة وأصحابها من اليونانيين والإسرائيليين والأرمن."

ويكتب عبد الرحمن الرافعى (فى اللواء) أيضا فيحصر مصادر ثلاثة للخطر على اقتصاد مصر الوطنى هى فى رأيه:

### المصدر الأول:

"إن مصر قد انتحلت أطوار المدنية الغربية مند قرن من الزمان فتبدلت فيها مرافق الحياة وتغيرت العادات والأزياء فشعرت الأمة بحاجة مستحدثة اقتضاها تبدل معالم العمران. ولما كانت هذه الحاجات آتية عن طريقة الغرب تنذر على الأمة أن تقوم بها لجدتها و غرابتها فرأت نفسها مدفوعة إلى الاستعانة بالأجانب للحصول عليها وبذلك فتحت لهم مورداً سائغا للكسب وأخذ جزء عظيم من ثروة البلاد يذهب إلى العنصر الأجنبى وتحرم منه الأمة<sup>(٥)</sup>"

(١) اللواء - ١٠ اغسطس سنة ١٩٠٧.

(٢) اللواء ٢٣ أبريل ١٩٠٩ مقال بعنوان : (البنك الوطنى المصرى)

(٣) اللواء - ٣٠ أبريل سنة ١٩٠٨ مقال بعنوان (بنك وطنى).

(٤) اللواء - ٣ مايو سنة ١٩٠٨ مقال بعنوان (بنك رهن مصرى بالمجان).

(٥) اللواء - ١٤ يناير سنة ١٩٠٩ مقال بعنوان (حياتنا الاقتصادية فى خطر - مصادر الخطر).

## المصدر الثاني:

"إننا لم نعرف إلى الآن كيف نسير في حياتنا الشخصية باستقلال وإرادة وكيف نصنع لأنفسنا خطه متفقه مع مصلحتنا فتضمن لنا المستقبل.. بينما الأجنبي واقف بالمرصاد يجمع كل ما يتساقط من أيدينا ويستغله على حسابنا فيأخذ ما تقدر عليه مهارته من الثروة وبذلك لا تمر علينا سنة إلا وتقل ثروة البلاد وتنتقل شيئا فشيئا إلى يد الأجانب".

## المصدر الثالث:

فهو "أشد خطورة من الأولين.. وهو أن مصر أصبحت ميدانا لحرب اقتصادية اشتبكت فيها العناصر المختلفة من اهلية وأجنبية تتنافس كلها في استغلال موارد الثروة المصرية والاستثمار بخيراتها.. فاذا نحن نظرنا إلى العنصر المصرى رأيناه أقل العناصر وسيلة وأضعفها سلاحا فى الميدان.. لذلك نراه يضطر إلى التقهقر أمام خصمه الأجنبي القوى ينزل له ما كان بيده من مال".

ويقرر الراقعى انه لو كانت لنا وطنية حقاً.. "لجعلت من أهم مراميها انقاء ذلك الخطر الذى يتهدد الأمة فى أكبر مقوماتها ولأحاطت ثروة البلاد بسياج يحميها من غائلة التيار الأجنبى ولعنيت بترية الناشئة تربية اقتصادية صحيحة".

وتنشر "الجريدة" العديد من المقالات الاقتصادية لكاتب يوقع باسم رمزى هو (سهيل) ولعل من اهم تلك المقالات سلسلة بعنوان (الكفاءة المالية) أكد الكاتب فى أولها أن الكفاءة المالية لا تنال بمجرد وجود المال بين أيدينا بل "بمعرفة استثماره.. واستثماره يكون بإنشاء المصارف والشركات والاشتغال بأشغال البورصة المشروعة<sup>(١)</sup>..". ويكرر الكاتب المطالبة بإنشاء بنك وطنى مصرى اذ انه فى رأيه "قبیح لنا أن لا يكون لنا نصيب من حركة القطر المالية إلا كوننا زبائن وعملاء للبنوك والشركات الأجنبية ورغبنا فى أن تكون مدينين لا دائنين... وهذه الرغبة ناشئة عن الجبن المالى وخوف الاعتماد على أنفسنا والثقة بها".

ويتعرض الكاتب لادعاء عدد من الأجانب أن مصر يستحيل أن تكون أمة صناعية.. فذكر أنهم يقولون أن البلاد لا يمكن أن تكون زراعية وصناعية معا فاما الأولى وإما الثانية "وأعظم حجة لهم فى ذلك أن إتقان الزراعة والصناعة يحتاج إلى رؤوس أموال كبيرة فما ينفق منها على الزراعة لتقويتها يضعف الصناعة وبالعكس.. ومهما يكن فى هذه الحجة النظرية من القوة لم تخرج عن كونها سفسطة فى نظرنا لأن الشواهد الحسية تنقضها<sup>(٢)</sup>..". ويضرب الكاتب مثلاً بالولايات المتحدة الأمريكية فهى "أعظم البلاد زراعة وهى أعظمها صناعة أيضاً".

(١) الجريدة - ٢٤ أبريل سنة ١٩٠٧ مقال بعنوان: "الكفاءة المالية".

(٢) الجريدة - ٢٩ أبريل سنة ١٩٠٧ مقال بعنوان: (الكفاءة الصناعية).

ويؤكد الكاتب أننا متى استطعنا "إنشاء المعامل لنسج قطننا لم يقف ذلك فى سبيل تقدم زراعتنا البتة". ثم يشير الكاتب إلى ضرورة البدء أولا بعمل الصناعات التى تعتمد على الزراعة كصناعة الألبان "حتى يمكن توفير ما تدفعه فى استيراد هذه الاشياء من الخارج ومن أوروبا بالذات والجزر اليونانية خاصة". كما يطالب بزراعة التوت فى مصر "حتى يمكن صناعة الحرير.. وهناك أحد الوجهاء السوريين طلب من الحكومة أرضا تحت شروط معلومة لتجربة زراعة التوت نحو عشر سنوات فجاءت التجربة بالمرام على ما نذكر .. كذلك يطالب الكاتب بعمل مصانع "لتقديد الثمار وعمل العجوة بدلا من استيرادها من العراق والجزائر وطرابلس الغرب.. ثم تصديرها بعد ذلك.. فإن أشجار النخيل منتشرة فى مصر ومن نوع جيد يستطيع مزاحمة بلع الدول الأخرى فى السوق الخارجى "كما يدعو الكاتب إلى زراعة الكروم والتين فى مصر وكذلك زراعة العنب والزبيب لتقطير الخمور".

ويناقش الكاتب بعض ما أثير حول موضوع فتح البنوك والمصارف فيقول: "إذا كان يمنع مانع دينى منه فليس ثمة مانع يمنع المصريين المسيحيين من إنشائها فلم يستأثر الغريب بها". .. وأخيرا يؤكد الكاتب أنه إذا تحقق كل ذلك "فنحن حينئذ مستقلون فعلا إن لم نكن مستقلين اسما وإذا لننا الاستقلال الفعلى فلا أهون من نيل الاسمى".

وتطالعنا الجريدة أيضا بمقال هام لحضرة الكاتب الفاضل طلعت بك حرب تحت عنوان (حقيقة مرة) يقول فيه إن مصر تطلب الاستقلال التام وتطلب أن تكون مصر للمصريين وهذه أمنية كل مصرى ولكن "ما لنا لا نعمل للوصول إليها؟ وهل يمكننا أن نصل إلى ذلك إلا إذا زاحم طبيبنا الطبيب الأوربى ومهندسنا المهندس الأوربى والتاجر منا التاجر الأجنبى والصانع منا الصانع الأوربى<sup>(١)</sup>".

ثم يتساءل طلعت حرب قائلا: "هل يمكننا أن نصل إلى ما نطلبه ونتمناه إلا إذا وجدت عندنا تجارة وصناعة نستغنى بهما عن تجارة أوروبا وصناعاتها أو على الأقل نقلل من احتياجنا إليها فيهما".

ويحذر الكاتب من مغبة استمرار الوضع على ما هو عليه فى البلاد ببقائنا "تابعين لغيرنا فى جميع مرافقنا الحيوية ومحتاجين لسوانا فى ملبسنا ومأكلنا ومشربنا فماذا تكون حالنا ولا كبريتة يمكننا صنعها نوقد بها نارنا ولا إبرة لنخيط بها ملبسنا ولا فابريكة ننسج بها غزلنا.. ولا ولا بل ولا مركب أو سفينة نستحضر عليها ما يلزمنا من البلاد الأجنبية فما بالنا من ذلك لاهون ولا نفكر فيما يجب علينا عمله تمهيدا لاستقلالنا إن كنا له حقيقة طالبين وفيه راغبين".

ثم يدعو طلعت حرب أبناء الأمة المصرية لإحياء فكرة وملكة الصناعة فى أبنائنا "علينا أن نعلم التاجر من أهلنا كيف يتقن عمله والصانع كيف يحسن صناعته علينا أن ندعم بعضنا فى عمل تجارى أو فى صناعة صغيرة فتنمو وتروج".

(١) الجريدة - أول أكتوبر سنة ١٩٠٧ مقال بعنوان : ( حقيقة مرة ).

ويقترح طلعت حرب أن تشكل لجنة عمل يكون من وظائفها "طرق جميع أبواب الترقى العلمى وليقم من بيننا من يبارى الغير فى جميع ما تحتاج إليه البلاد فقد أصبحنا فى أزمة من جميع الوجوه وفى كل الأشياء". ويؤكد أنه فى اليوم الذى يكون "عندنا فيه الطيب والتاجر والمهندس العاملون بفنونهم وصناعاتهم والعاملون بها والمتقنون لها يحق لنا أن نقول إننا مع الأجنبى فى العمل سواء" وأنه فى اليوم الذى يصبح (فيه المصرى عاملا فى الشركات التى تستنفد يتابع ثروات البلاد.. وله نصيب وافر فى إدارة بنوكها ورأس مالها وله رأى محدود فى جميع المشروعات المالية.. والمال هو أس كل الأعمال فى هذا العصر وقوام كل ملك.. فى ذلك اليوم يحق للأمة أن تطلب الاستقلال بقوة المال وبقوة العلم الذى يجب أن توجه إليه جميع قواها وأريد هنا العلم العملى الذى يخرج رجالا أكفاء لتلك الغايات التى أوضحتها".

وأخيرا يحذر طلعت حرب أبناء وطنه أنه إذا ما بقينا على ما نحن فيه من جمود وخمود وتهاون وتقصاطع وتحاسد. (فقد سجلنا على أنفسنا عدم الكفاءة وعدم الأهلية إلى الأبد جنينا جنانية كبرى على أولادنا".

ويسهم أحمد لطفى السيد فى الدعوة إلى إنشاء البنوك والشركات الوطنية.. إذ يرى أن "بعد المصريين عن مجارة الأجانب فى فتح البنوك وتأليف الشركات المالية كل ذلك يبعد المصريين عن الاستقلال الفعلى"<sup>(١)</sup>.. ويطلب أحمد لطفى السيد أن "نجهتهد فى تأليف البنوك والشركات والبيوتات التجارية حتى لا نكون فى بلدنا غرباء أو عيالا على الأجانب فى المسألة المالية".

كما يطلب أحمد لطفى السيد بتشجيع الصناعة الوطنية حتى تستطيع أن تقف على قدميها فى مواجهة المنافسة الأجنبية فيقول: "فمن أراد تعضيد الصناعة المصرية وإنماء الكفاءة الصناعية فأول واجب عليه.. لا أقول أن يهب المصانع المصرية أو يقف ماله على المصانع المصرية.. بل يكفيه أن يشتري من المصانع المصرية بالثمن الذى يشتري به من المصانع الأجنبية وهو بذلك يحمى الصناعة المصرية ومن أحيا الصناعة فأنما دفع البلاد إلى الاستقلال"<sup>(٢)</sup>.. وفى مقال تال - ومع اشتداد حماسة لطفى السيد لتشجيع الصناعة المصرية نراه يخاطب الأمة مطالبا إياها بأن تنفضل مصنوعات البلاد عن المصنوعات الواردة من الخارج ولو كانت أقل منها ثمنا أو أقل بهجة لأنها دائما أكثر متانة. ولأنها بضاعة مصرية قبل كل شيء ويكفى أن تكون الصناعة مصرية لتكون موضع التفضيل للمصريين"<sup>(٣)</sup>

وفى صحيفة وادى النيل يكتب "سيد على" مقالا هاما عن الاحتلال المالى لمصر يذكر فيه "أن احتلال إنجلترا العسكرى والإدارى واللغوى لمصر لم يكن كافيا.. ورأت أن هذا الثلاثى الاحتلالى يحتاج إلى رابع لا يسهل زواله وهو الاحتلال المالى وبه تثبت القدم الإنجليزية فلا تنزعزع فأنشأت تستهوى المالىين علّا يد طاعتها اللورد كرومر وتسهل لهم أسباب الانتفاع فملأت الشركات كل شيء فى مصر وكاد الإنسان يحسب نفسه أنه تابع لشركة وأن ما يحركه شركة"<sup>(٤)</sup>

(١) الجريدة - ١٨ مايو سنة ١٩٠٨ مقال بعنوان (الحالة الحاضرة).

(٢) الجريدة - ٢٦ فبراير سنة ١٩١٢ مقال بعنوان (صناعتنا).

(٣) الجريدة - ٢٧ فبراير سنة ١٩١٢.

(٤) وادى النيل - ١٠ مايو سنة ١٩٠٨ مقال بعنوان (لا احتلال إلا بالمال).

ثم يقرر الكاتب أن الاحتلال العسكري والإدارى واللغوى لا ينال من الحماية شيئا إلا إن كانت بالقوة وهى فى غالب الأحيان تكون بعيدة عن العدل «ولكن الاحتلال المالى تحميه شرائع البلاد وهو احتلال لا تصل إليه إنتقادات المنتقدين ولا تشوّهه أيدى العاملين بل يكون فى حمى من كل إنسان وفى معزل عن الأحزاب ولكنه يعمل للسياسة الانجليزية فى طريق خفى وبذلك مابقى بمنعنا فى مصر للانجليز.

وفى صحيفة (الأهالى) يسهم (عبدالقادر حمزة) فى الدعوة إلى إنشاء بنك وطنى إذ كان يرى أنه «لابد للمصريين من باب يطرّفونه غير أبواب البنوك الحالية التى إن أعطت راحمة أخذت فوائد بمقدار المحصول فأخذت رأس المال المقترض وإن أعطت غير راحمة أسرع فى خراب المقترض وعجلت بإفلاسه.. وذلك الباب هو إنشاء بنك وطنى مصرى<sup>(١)</sup>.

ويؤكد عبد القادر حمزة أنه من الضرورى "إنشاء البنك الوطنى إما عاجلا أو آجلا.. أقول إما عاجلا أو آجلا لأن الحالة التى عليها الفلاح الآن وإجحاف البنوك به لابد أن يضطر فريق من غيورى المصريين وذوى اليسار منه إلى إنشائه".

وتشارك صحيفة (العلم) فى الدعوة إلى تصنيع مصر وعدم اقتتصار البلاد على الزراعة.. فتسائل فى إحدى المقالات قائلة: "كيف تبقى أمة ليس لها من أنواع الاقتصاد إلا نوع واحد هو الزراعة فى مصر.. بل وصنف واحد من أصناف الزراعة وهو القطن<sup>(٢)</sup>".

ثم تطالب الصحيفة ولاية الأمور فى البلاد بأن "يعيدوا زراعة الدخان والبحث فى أنواع زراعية أخرى".

كما تدعو الصحيفة أيضا إلى ضرورة "إنشاء المصانع ولو اللازمة منها للزراعة وحدها.. إذ إه إذا وجدت المصانع بجوار الزراعة فإن هذا مما يفيد الزراعة فائدة عظيمة".

والحقيقة أن إنشاء بنك مصر - كان تعبيراً عن هذه الرغبة الإجماعية للمصريين فى إنشاء بنك وطنى لذلك كان طبيعياً أن يواجه إنشاء البنك بحملة هجوم وتشكيك واسعة من جانب الصحافة الأوربية وخاصة الصحافة الإنجليزية وعدد من أغنياء الأجانب فى مصر المستفيدين من غياب البنك الوطنى المصرى.. ولقد تصدت صحيفة الأخبار لمواجهة هذه الحملة فنشرت مقالا هاما (طلعت حرب) يرد فيه على انتقادات الصحف الأوربية والاحتلالية ويذكرها أن فكرة تأسيس البنك المصرى "الذى يعمل لمصلحة مصر قبل أية أمة أخرى ليست بالحديثة.. بل فكرة قديمة قد أراد الله تحقيقها الآن<sup>(٣)</sup>...".

ثم يأخذ طلعت حرب فى الرد على الانتقادات الموجهة لبنك مصر بعد أن يحصرها فى ثلاثة اعتراضات رئيسية فيقول "ما كاد يظهر نبأ تأسيس البنك حتى وجهت إلينا الاعتراضات الآتية:

أولا: أننا أردنا لبنك مصر ورأسماله صبغة مصرية فأثبتنا تعصينا وتأخرنا فى المدنية..

ثانيا: أنه ليس فى مصر من يصلح لأعمال البنوك..

(١) الأهالى - ٩ فبراير سنة ١٩١١ مقال بعنوان (حاجتنا إلى بنك وطنى).

(٢) العلم - ١٧ أغسطس سنة ١٩١٢ مقال بعنوان (حالتنا الاقتصادية).

(٣) الاخبار ٩ مايو سنة ١٩٢٠ مقال بعنوان (استقلال مصر الاقتصادى)



**ثالثا:** أن الأمة مع كل الطبل والزمر اللذين احاطا بالمشروع لم يجمع منها سوى ٨٠٠٠٠ جنيها من أسماء كثيرين اكتتب كل منهم بمبلغ زهيد مما يدل على أن الأمة غير مستعدة للأعمال الاقتصادية"

ويتناول طلعت حرب الانتقاد الاول فيرد عليه مؤكدا "أن البنوك الأجنبية كثيرة في البلاد انما بعوز مصر حقيقة بنك برأسمال أهلى يعمل لمصر ولمصلحة مصر لضمان ذلك لم يجد من فكروا فى تأسيس البنك سوى جعل الأسهم اسمية واشتراط بقائها بيد مصرية ولهم أسوة حسنة بما يحصل فى البلاد الأخرى فى كل الأحوال التى يريدون فيها أن لا يتسلط الأجنبى على مرافق البلاد الحيوية.. يصلح ذلك كل متتبع لما هو جار فى البلاد الأجنبية ولما تقرره فرضها التجارية وحكوماتها لحماية هذه المرافق الاقتصادية والمالية .. وليرنا المعترضون صاحب حصه فى مال بنك إنجلترا غير انجليزى فلماذا لا يعاب مثل هذا على الأمم الراقية.. ويعاب علينا ان تشبهنا بهم وأردنا ان نحفظ لنفسنا وبلادنا بنكا واحدا يحترم مصالحنا.. وأى ضرر على غيرنا".

وفى رده على الانتقاد الثانى يقول طلعت حرب:

"يقولون ليس فى مصر من يصلح لأعمال البنوك وأن مجال الكلام فى هذه الكلام واسع نرى الأنسب عدم التوسع فى الخوض فيه. غاية ما نقوله أنه إن كان الرجال الصالحون للأعمال المالية بمصر قليلين فليس الذنب عليها ولذلك ظروف معلومة.. لن تحول دون البدء فى خلق الجيل الذى يصلح فمن لم تخرجه المدرسة.. العمل كفيل بإيجاده والوظيفة تخلق العضو.. قيل لنابليون حينما وضع نظام بنك فرنسا الحالى إنه ليس فى فرنسا رجال ماليون خبثون بأعمال البنوك فقال لهم.. هذه طائفة يجب خلقها.. وقد خلقت .. وأصبحت فرنسا بعد قرن يضرب المثل بخيرة رجالها الماليين وعلمهم.. فلماذا لا يصدق على مصر ما صدق على غيرها.."

ويفند طلعت حرب الانتقاد الثالث قائلا:

"فيما يتعلق بقولهم عدم استعداد الأمة للأعمال الاقتصادية.. فلا ننكر أن الأمة طفلة فى المشروعات الاقتصادية وما هى الأمة التى ولدت عالمة مستعدة بفطرتها لمثل هذه الأعمال؟ وهل الذنب كما قلنا على الأمة المصرية إذا لم يعلمها أو يعودها احد.. سلوا التاريخ أيضا ينبئكم عما قاست كل أمة فى بداية نهضتها.. وهل لكون الأمة غير مستعدة ان تبقى على عدم استعدادها إلى ما شاء الله".

وفى صحيفة الأخبار أيضا يكتب عبد الرحمن الرافعى مقالا يقارن فيه بين بنك مصر وبنك بولونيا.. وينتهى من هذه المقارنة إلى التأكيد بأن "بنك مصر سيكون كبنك بولونيا أساس استقلالنا الاقتصادى والمالى والمنقذ للبلاد من تلك التبعية المالية لرؤوس الأموال الأجنبية تلك التبعية التى تجعل حياتنا الاقتصادية فى يد أصحاب البنوك الأجنبية فى مصر وأوروبا<sup>(١)</sup>".

(١) الاخبار - ١٧ مايو سنة ١٩٢٠ مقال بعنوان (بنك مصر).

ويعمى الرافعى فى حءىءه مؤكءا أن ءأسس بنك مصر "هو ءءربة عملفة لكفاءة الأمة المصرفة ومبلع ءهءاءها للمءافظة على كفاءها بفن الأمم وعفاءها بالمشارفع والأعمال الءفوفة .. فعسى أن ءسفر هءه ءءربة عن أننا قوم نقرن القول بالعمل وأنا لا نقل وءنفة وكفاءة عن ءفرنا من الشعوب والأمم الناهضة الرافة".

وءسهم صءففة (الأهرام) أفضا فى الدعوة إلى إنشاء بنك وءنى.. فءكرر الدعوة ءلو المرة ءووسع فى إنشاء الشرءاء الوءنفة المصرفة... ولا ءمل ءرءفء أن الاسءقلال الاءءصاءى هو الطرفق الطففعى للاستقلال السفاسى ءلك انه "لا فمكن الفصل بفن الاسءقلال السفاسى والاستقلال الاءءصاءى والصناعى وقء ءل الاءءبار على أنه ففس بالمسءطاع صفاءة الواحد ءون الاسءناء إلى الآخر<sup>(١)</sup>.

ثم ءصفف الأهرام فى مءال ءعوءها للاستزاءة من ءنمفة ءروة القومفة قولها إن : "الءصوم عابوا علفنا بأنا لافملك الصناعة ولا ءءارة ولا نواءى الءفاة الاءءصاءفة فى هءه البلاد وءاب عنهم أن مصر ءطء ءطواء واسعة فى ٥٠ سنة مضء وأن كل شعب من الشعوب اذا اسءنفء ءروة الأرض عاد إلى المصارء الأءرى".

أما نحن فقء ضاعفنا بفصلاء الأرض ءروءنا ثم بءأء عنءنا الصناعة وءءارة - وكان ءطورها الوءنى سرفعا لا فعرفه من نظر إلفها الآن - بل فعرفه من نظر إلفها منذ عشرين سنة فالدعوة إلى الاسءزاءة ءءى نسءفن فماف عنءنا عما عند سوانا لهن ءمرة ءورة الفءرفة أو هى بالآخرى ءمرة النهضة الءءفة".

لقد صءقء الأهرام ءعبفر ءففنا ربءب بفن ءورة الصناعفة وءورة الفءرفة فى مصر فالنهضة الاءءصاءفة لم فكن فقرر لها النمو وءءطور الا فى ظل ءورة فءرفة مءءء لها الطرفق.

❖ ❖ ❖

(١) الأهرام - ٥ فءافر سنة ١٩٢٢ مقال بعنوان (أوله كلام).

## الفصل الثالث والعشرون

الصحافة المصرية -  
وتحرير المرأة



أحتلت قضية تحرير المرأة مكانا بارزا من اهتمام الصحافة المصرية فى الفترة التى تناولها البحث.. وذلك بفعل عاملين أساسيين:

### العامل الأول:

بداية ظهور حركة نسائية مصرية تسعى إلى اعطاء المرأة حقوقها فى التعليم والعمل.. وقد تمثلت الحركة الجديدة فى التزايد المطرد فى إنشاء مدارس البنات.. والإقبال - النسبى - على تعليمهن والإقدام على تشكيل عدد من الجمعيات النسائية التى استهدفت جميع جهود المرأة المصرية من أجل نيل حقوقها.. أضف إلى ذلك محاولات الأحزاب المصرية فى بداية نشأتها الانتشار فى صفوف النساء وإقامتها للعديد من الندوات النسائية فى عقار هذه الأحزاب.

ولقد كشفت هذه الحركة النسائية عن فاعليتها بمساهمة المرأة المصرية فى الحركة الوطنية عام ١٩١٩ ومشاركتها للرجل فى التظاهر والعمل ضد قوات الاحتلال والمطالبة بالاستقلال والدستور.

ومما ساعد على تغيير نظرة جانب كبير من المصريين إلى المرأة.. انتشار التعليم وتزايد احتكاك المصريين بالأجانب وخاصة الأوربيين، ذلك الاحتكاك الذى بدأ فى حقيقة الأمر بالحملة الفرنسية ثم بالبعثات العلمية إلى أوروبا.. ولعل تجربة الشيخ رفاع الطهطاوى فى باريس أكبر دليل على تأثير هذا الاحتكاك فى تغيير نظرة المصريين إلى المرأة حيث كان رفاع الطهطاوى أول من نادى بحق المرأة فى التعليم والعلم فى الفكر المصرى الحديث ولقد لعبت تجربة السان سمونيين فى مصر دورا مماثلا فى هذا التطور إذ يرجع إليهم الفضل فى إنشاء أول مدرسة للبنات فى الجيزة فى عصر محمد على... وليس من شك أن احتكاك المصريين بالأوربيين قد تعاضم بعد الاحتلال البريطانى وخاصة بعد أن صارت مصر هدفا لهجرة مكثفة من جانب عدد كبير منهم.

### العامل الثانى:

أما العامل الثانى الذى دعم قضية تحرير المرأة المصرية فيتمثل فى أن كثيرا من الكتاب والمفكرين والصحفيين نظروا إلى قضية تحرير المرأة - فى تلك الفترة - باعتبارها جزءا لا يتجزأ من دعوتهم لتوفير الحريات الديمقراطية بالمفهوم الليبرالى.

فعبد الله النديم يرد فى صحيفة "الاستاذ" على سؤال جاءه من إحدى القارئات المصرات تسأله رأى فى دعوى البعض بالمساواة بين الرجل والمرأة.. فذكر فى رده أنه ليست هناك امرأة مصرية واحدة فيما يتعلق بموضوع المساواة بين الرجل والمرأة.. اذ لا بد - فى رأيه - أن نفرق بين المرأة فى القرية.. والمرأة فى المدينة وحتى المدينة ليست المرأة أيضا واحدة فهناك فقيرة المدن... ومتوسطة المدن.. ثم أجرى مقارنة بين طبيعة عمل الرجل وطبيعة عمل المرأة على ضوء تقسيمه السابق لنوعيات المرأة المصرية وانتهى من ذلك إلى تقرير أن "الفلاحة أكثر تعباً من الرجل فى الأعمال، وأن فقيرة المدن تساوى الرجل المشتغل بعمل لطيف.. لا النجار والحداد والبناء مثلا،

والمرأة المتوسطة أقلهن عملاً.. والمرأة الغنية لا شغل لها إلا ذاتها اللطيفة ولا عمل لها إلا فيما يختص بالزينة والقلع واللبس والنوم واليقظة وعارض الولادة قصير المدة ينسى أمره بعد أسبوع غالباً.. فإذا تأملت السائلة هذا التقسيم والتفصيل علمت أن المرأة الريفية لا فرق بينها وبين الرجل ولا تعاني من مشكلة ما.. أما تحايل ربوات الرفاهة على مساواة الرجل بدعاويهن غير مقبول عند ذوى الاختيار.. فنحن نقول أن غير الفلاحية والفقيرة من النساء لا يساوين الرجال فى شىء من الاتعاب، وعلى الخصوص الفتيات اللاتي يشتغلن بغير ذاتهن فانهن على فراش الراحة فى الليل والنهار<sup>(١)</sup>.

ومن الواضح أن النديم يعتقد أن مساواة المرأة للرجل رهن بقدرة المرأة على مقاومة عمل يساوى أو يوازن عمل الرجل فالعمل فى رأى النديم هو الشرط الذى يعطى للمرأة حق التمتع بالحرية والمساواة التى يتمتع بها الرجل وعلى هذا نراه يعتبر المرأة الفقيرة فى المدن والمرأة الريفية مساوية تماماً للرجل ولا تقل عنه فى التمتع بحقوق الحرية بينما لا يرى مبرراً لطلب المرأة الغنية بالمدن هذه الحرية أو المساواة مادامت لا تملك شرط التمتع بهذه الحرية وهذه المساواة وهو شرط العمل.

ويكتب "أحد أدباء الثغر السكندري" فى صحيفة مصر مقالاً عن تأثير المرأة فى المجتمع الانسانى فيؤكد أن للمرأة شأناً مهماً إذ هى القائمة بحاجات الأسرة وهى تعيين الرجل فى أعماله وشريكته فى أتعابه وأشغاله وعليها يتوقف نمو الحياة الأدبية عند الأولاد<sup>(٢)</sup>.

"ويذكر الكاتب أن الاوربيين أدركوا هذه الحقيقة لذلك نراهم قد شيّدوا لها المدارس العلمية والصناعية وعملوا على حسن سيرها وانتظامها.. وقد نتج عن اهتمام الاوربيين بالمرأة أن "نبغ منهن الكاتبات الفاضلات والطيبات الحاذقات والأستاذات الماهرات وبرهن على حسن استعدادهن للتحدى بحلى العلوم والآداب بما نشاهد بمرأى العين يومياً من جميل منشور أعمالهن".. ثم يطالب الكاتب الأمة المصرية أن تهتم بتعليم البنات ويؤكد أننا إذا بذلنا فى سبيل تشييد مدارس البنات قدر نصف ما نبذله على مدارس الصبيان فى كل مدينة وقرية لتغير حالنا إلى ما نحب.. فإلى متى نستخف بأمر تهذيب الفتيات وقد عرفنا أن على تهذيبهن تتوقف سعادة أولادنا ومستقبلنا".

ويبدأ قاسم أمين فى النصف الأولى من عام ١٨٩٩ فى نشر سلسلة مقالات فى صحيفة "المؤيد" تحت عنوان (تحرير المرأة).. استهلها بدعوة "كل محب للحقيقة أن يبحث معنى فى حالة النساء المصريات وأنا على يقين من أنه سوف يصل وحده إلى النتيجة التى وصلت إليها وهى ضرورة الإصلاح فيها"<sup>(٣)</sup>.

(١) الاستاذ - ٤ أكتوبر سنة ١٨٩٢ مقال بعنوان (المساواة بين الرجل والمرأة).

(٢) مصر - ٢٨ يناير ١٨٩٦ مقال بعنوان (تأثير المرأة فى المجتمع الإنسانى).

(٣) المؤيد - ٢٠ مايو ١٨٩٩ مقال بعنوان (حالة المرأة فى الهيئة الاجتماعية تابعة لحالة الأدب فى الأمة).

وكان قاسم أمين كان يتوقع ما سوف تثيره هذه المقالات من ردود فعل عنيفة في المجتمع المصرى المحافظ.. إذ نراه ينبه منذ البداية إلى ان البعض سيقولون "إن ما أنشره اليوم بدعة فأقول نعم أتيت ببدة.. ولكنها ليست فى الإسلام.. بل فى العوائد وطرق المعاملة التى يحمد طلب الكمال فيها".

ثم يقرر قاسم أمين أن وضع النساء فى كل أمة يختلف باختلاف درجة رقى وتمدن المجتمع الذى نعيش فيه "ففى البلاد التى ارتفعت إلى درجة عظيمة من التوسع فإننا نرى النساء أخذن يرتقين شيئاً فشيئاً من الانحطاط السابق وصرن يقطعن المسافات التى كانت تبعدهن عن الرجال.. هذه تحبو وتلك تخطو وهذه تمشى وتلك تعدو كل ذلك يحسب حال الجمعية التى تنسب إليها ودرجة المدينة فيها، فالمرأة الأمريكية فى أول صف ثم تتلوها الإنجليزية، وتأتى بعدها الألمانية وتليها الفرنسية ثم النمساوية ثم التلانية ثم الروسية.. إلخ".

وفى مقال آخر يؤكد قاسم أمين أنه "لا شئ يمنع المرأة المصرية من أن تشتغل مثل الغربية بالعلوم والآداب والفنون والتجارة والصناعة إلا جهلها وإهمال تربيتها"<sup>(١)</sup>. ويعترف قاسم أمين أنه ليس "ممن يطلب المساواة بين الرجل والمرأة فى التعليم فذلك غير ضرورى وإنما أطلب الان ولا أتردد فى الطلب أن توجد هذه المساواة فى التعليم الابتدائى على الأقل على الأقل وان يعنى بتعلمهن إلى هذا الحد مثل ما يعنى بتعليم البنين"<sup>(٢)</sup>.

ويعتقد قاسم أمين أن لتعليم المرأة وظيفة أخرى هامة غير رفع مداركها وحسن إدارتها لبيتها وهى إعدادها للعمل فى الظروف التى تفرض فيها ضرورة العمل للمرأة فالنساء فى هذه الحالة "يحتجن إلى التعليم ليتمكنهن القيام بسد حاجتهن وحاجات أولادهن إن كان لهن أولاد أما تجريدنهن عن العلم فيلجسهن إلى طلب الرزق بالوسائل المخالفة للآداب أو إلى التطفل على بعض العائلات الكريمة"<sup>(٣)</sup>.

وفى مقال آخر يعلن قاسم أمين أنه على عكس ما يتوهم الكثيرون - بالنسبة لحجاب المرأة ويقول: "إننى لا أزال أدافع عن الحجاب وأعتبره أصلاً من الأصول التى يلزم التمسك بها غير أنى أطلب أن يكون مطبقاً على ما جاء فى الشريعة الإسلامية"<sup>(٤)</sup>. ويؤكد أن الشريعة الإسلامية "أباحة للمرأة أن تظهر بعض أعضاء من جسمها أمام الأجنبي عنها غير أنها لم تسم تلك المواضع وقال العلماء أنها وكلت مهمة تسميتها إلى ما كان معروفاً فى العادة وقت الخطاب واتفق الأئمة على أن الوجه والكفين مما شمله الاستثناء فى الآية ووقع الخلاف فى أعضاء أخرى كالذراعين والقدمين".

(١) المؤيد - ٢٨ مايو ١٨٩٩ مقال بعنوان (تربية المرأة.. الوظيفة الاجتماعية للمرأة).

(٢) المؤيد - ٢٩ مايو ١٨٩٩ مقال بعنوان (الوظيفة العائلية للمرأة).

(٣) المؤيد - ٢٨ مايو ١٨٩٩.

(٤) المؤيد - ٣ يونيو ١٨٩٩.

وهاجم قاسم أمين تعدد الزوجات حيث اعتبره يشكل "احتقاراً شديداً للمرأة لأنك لا تجد امرأة ترضى أن تشاركها في زوجها، امرأة أخرى كما أنك لا تجد رجلاً يقبل أن يشاركه غيره في حبه امرأته" (١).

ويعرض الكاتب أيضاً لقضية الطلاق فيقترح أن تصنع الحكومة نظاماً للطلاق ينص على أن لا يتم الطلاق إلا أمام القاضي (٢).

ولقد قوبلت مقالات قاسم أمين برد فعل عنيف من الرأي العام المصري من رجال الدين بصفة خاصة الذين تعصبوا للرد على أفكار قاسم أمين وخاصة بعد أن جمعها وأصدرها في كتاب. ومن أبرز هذه الردود سلسلة المقالات التي نشرها - في المؤيد أيضاً - "الشيخ محمد حسنين البولاقى" من علماء الأزهر الشريف تحت عنوان "أنيس الجليس في التحذير عما في تحرير المرأة من التلبس" .. وكان أبرز ما جاء في هذه المقالات اتهام الشيخ البولاقى لقاسم أمين بأنه "ليست له دراية بالعلوم الشرعية ولا إلمام بالكتب الفقهية، لهذا لا يستغرب منه صدور مثل هذا الكلام" (٣).

واستنكر الشيخ البولاقى دعوة قاسم أمين لمخالطة الخطيب الخطيبته قبل أن يقترب منها فيقول: "لقد كتب صاحب تحرير المرأة كلاماً طويلاً محصله أن الرجل لا ينبغي أن يقوم على تزوج امرأة إلا بعد أن يتأكد من ميلها له بأن يخالطها مدة يتحقق بها أنها تألفه ويألفها ويختلى بها ويلطفها وتلاطفه على حسب العادة الجارية بين أهل أوروبا وجعل الحديث الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو «انظر إليها فإنه أحرى أن ينجم بينكما» وسيلة لذلك وأقول أن الحديث المذكور لا يدل على جواز النظر لا غير وقد اتفق علماء المذاهب على أنه لا يجوز للمخاطب أن ينظر إلى المرأة المخطوبة إلا إلى وجهها وكفيها اقتصاراً على مورد النص ودرءاً للمفاسد فإن المرأة لما كانت محلاً للشهوات ويخشى من اجتماعها مع الرجل بدون عقد والخلوة بها حصول ما لا تحمد عقباه فإن الشيطان حينئذ ثالثهما كما في الحديث الوارد عن النبي ﷺ ومن عرف الأحوال والشواهد وعلم ماعليه الناس وجد أنه قد وقع ما لا تحمد عقباه من كثير ممن يستحسن هذا الأمر، بل أن البعض منهم عقد عليها بعد أن خلفت منه أولاد فقصر الشارع الرخصة على نظر الوجه والسيد من المخاطب عند إرادة الخطبة لأن الوجه مظهر الجمال فيعرف به جمالها والكفين دليل خصوبة البدن فيعرف بها خصوبته وما زالت الناس قديماً وحديثاً على هذا العمل ولم يحدث خراب، بل العار موجود وحصول النفور في بعض الأفراد لا يقدح في ذلك وكم وقع النفور بين من وقع بينهما اختلاط قبل عقد الزواج" كما ينتقد الشيخ البولاقى ما جاء في مقالات قاسم أمين ضد تعدد الزوجات قائلاً: "إن من عرف غرض الشارع الإسلامى من جواز تعدد الزوجات إنما هو تكثير النسل وعمار البلاد بالموحدين وأهل العبادة عرف انه لا عيب في تعدد الزوجات ولا طعن بذلك على الدين القويم، فمن كان قادراً على النفقات ووفق من نفسه بالعدل بين الزوجات فلا حرج في ذلك ولا إثم ولا لوم عليه ولا يرغب عنه فإنه قسم المباح وما

(١) المؤيد - ٥ يونيو ١٨٩٩ مقال بعنوان (تعدد الزوجات).

(٢) المؤيد - ٧ يونيو ١٨٩٩ مقال بعنوان (الطلاق).

(٣) المؤيد - ١٦ أكتوبر ١٨٩٩ مقال بعنوان (رد على كتاب تحرير المرأة).



على المباح من جناح.. وأما الوفاق بين الاشقاء والشقاق بين أولاد الأب.. فأمر موهوم وكم وقع بين الاشقاء من شقاق وأولاد الأب من وفاق والله الموفق في جميع الأحوال".

ويفند الشيخ البولاقى دعوة قاسم أمين إلى السفور وإزالة الحجاب مستشهدا على فساد رأى قاسم أمين بعدد من آيات القرآن والاحاديث النبوية التى تؤكد ضرورة وجود الحجاب " فهذه الآيات دلت دلالة صريحة واضحة لا ينكرها إلا مكابر على أنه يجب على المرأة أن تحتجب عن غير محارمها ولا يجوز لها أن تكشف شيئا من بدننها للأجنىبى" (١). ويقرر الشيخ البولاقى أن " هذه الآيات تدل دلالة واضحة على وجوب احتجاب المرأة وستر جميع بدننها إلا ما رخص فيه عند الحاجة وهما الوجه والكفان وعلى منع الرجال من النظر إلى النساء ومنع النساء من النظر للرجال" ... وأخيراً يصنف الشيخ البولاقى الحجاب تحت ثلاثة أقسام الاول " ستر جميع أجزاء البدن عن كل من ليس محرماً" والثانى "لزوم البيوت وعدم الخروج الا الحاجة " والثالث " ارخاء الحجاب بينهن وبين غير المحارم".

وعندما يصدر قاسم أمين كتابه الثانى (المرأة الجديدة) فى عام ١٩٠١ تبادر المؤيد بنشر مقتطفات من الكتاب الجديد داعية الكتاب إلى مناقشته والتعليق عليه.. ولكن يلاحظ أن الكتاب الجديد لم يمل من رأى العام الاهتمام الذى ناله كتابه الاول (تحرير المرأة) ولقد كان من أبرز ما نشرته المؤيد فى التعليق على كتاب قاسم أمين سالف الذكر مقال "لأحد أفاضل أساتذة المدارس بعنوان «تربية المرأة» هاجم فيه كتاب «المرأة الجديدة» وخاصة ما جاء به من الدعوة إلى تشجيع تعليم البنات ذاكراً أن «الناظر إلى حالة الشبيبة المصرية يجدها وإن تقدمت فى معرفة القضايا العلمية تأخرت كثيراً فى آدابها فكأنه كلما تقدمت العلوم تأخرت الآداب وانحطت وهذا التأخر مشاهد بين ظهرانينا يزداد كل عام فمجالس الفجور انتشرت وملاعب اللهو عمرت وكاد يختفى من الصغير احترام الكبير إلى غير ذلك من المضار التى ركبها القوم فساءت الحال وذلك نتيجة للمدنية الحديثة الأوربية ونزوع الأمة إلى الارتداء بثوبها، وقد ضلوا.. وكان ذلك نتيجة انتشار المدارس فهى لا تفيد من المنافع أكثر مما تصيبه من الأضرار وقد ضلوا ولذلك يخشى أن الناشئة من الأئمة متى عمها التعليم لا تلبث أن يؤول إلى ما آل إليه أمر الناشئة من البنين فنكون قد جنينا على أنفسنا جناية تجهز على ما بقى من حياتنا فيعم اليأس كل طيب» (٢).

وتطالعنا المؤيد بمقال هام عن مضار الحجاب: يؤكد فيه كاتبه الدكتور محمد توفيق صدقى أن الحجاب «يفسد صحة النساء ويمنعهن من الرياضة البدنية ومن استنشاق الأهوية لإتمام التربية والتعليم والتهديب وعائق لتثقيف عقل المرأة وتوسيعه وتكبيره بالتجربة وممارسة الأعمال ومخالطة الرجال فى بعض الأحيان فى اجتماعاتهم الصالحة» والحجاب أيضاً «يكثُر من حوادث التزوير فى سائر العقود وفى الشهادة والمحكمة» وهو أيضاً «يحول دون انتخاب الرجال لأزواجهم فيجعل الزواج تابعاً من الصدفة والاتفاق بدلا من الاختيار والانتخاب».

وهو «يمنع الفقيرات أو غير المتزوجات من الحصول على أقواتهن إلا يشق الأنفس ويعسر عليهن الأعمال أو الاشتغال بأى شىء يكتسبن منه رزقهن من نحو خدمة أو صناعة أو زراعة أو تجارة». كذلك فالحجاب كثيراً ما يحرم الرجل لذة الخروج مع زوجته وأولاده.

(١) المؤيد - ١٨ أكتوبر ١٨٩٩.

(٢) المؤيد - ٢٨ يناير ١٩٠١ مقال بعنوان (تربية المرزة).

وثمة اتهام لمصطفى كامل ولبقية كتاب الحزب الوطنى لصحيفته بأنهم «كانوا يقفون من دعوة تحرير المرأة موقفاً رجعياً وظل اللواء كذلك فى شأن الاصلاحات الاجتماعية رجعياً مستمسكاً بالقديم أشد الاستمسك»<sup>(١)</sup>. ويؤيد أصحاب هذه الدعاوى أقوالهم بأنه «حين أصدر قاسم أمين كتابه عن تحرير المرأة تزعمت صحف الحزب الوطنى الحملة على سفور المرأة وتحريرها واتهمت قاسم أمين بأفطع الاتهامات»<sup>(٢)</sup>.

والحقيقة التى وضعنا يادنا عليها من تتبعنا لأعداد صحيفة اللواء ولبقية الصحف التى أصدرها الحزب الوطنى أو التى أصدرها أنصاره، والمؤمنون بمبادئه، تؤكد مجانبية هذه الادعاءات للحق ويكفى للتدليل على بعد هذه الادعاءات عن الصواب أن قاسم أمين قد نشر مقالاته عن تحرير المرأة وجمعها وأصدرها فى كتاب عام ١٨٩٩ بينما لم تصدر اللواء إلا فى عام ١٩٠٠، كذلك فإن أغلب صحف الحزب الوطنى الأخرى لم تصدر إلا بعد إعلان الحزب فى أواخر عام ١٩٠٧ أى بعد صدور كتاب قاسم أمين بأكثر من ثماني سنوات.

ومن ناحية أخرى فإن المتتبع لصحيفة اللواء لن يعثر على مقال واحد لمصطفى كامل فى هذا الموضوع لا بالتأييد ولا بالمعارضة.

فالملاحظ مثلاً أنه عندما أصدر قاسم أمين كتابه الثانى (المرأة الجديدة) فى عام ١٩٠١ أفسحت المؤيد لبعض المقالات المتفرقة - منها ما كان ينتقد الكتاب ومنها ما كان يؤيده.. هذا بينما اتخذت صحيفة اللواء من الكتاب أو صاحبه «موقفاً أقرب إلى الحياد منه إلى المعارضة وكل ما قد يؤخذ على اللواء فى هذا المجال نشرها لخبر رفض الخديو عباس حلمى الثانى: قبول كتاب قاسم أمين وقولها إن فى هذا دليلاً على رفضه لما احتواه»<sup>(٣)</sup>.

والحقيقة أن الخط العام لصحيفة اللواء ولبقية صحف الحزب الوطنى كان يقف مع حرية المرأة لا مع تقييدها. فهذا (مصطفى صبرى) يكتب فى عدد اللواء الصادر فى ٩ يوليو سنة ١٩٠٧ (أى فى حياة مصطفى كامل وفى ظل توليه رئاسة تحرير اللواء) مقالاً بعنوان (مرجع تأخر الشرق)، كان مما جاء فيه قوله إن : «الشرق لن يتقدم إلا إذا تعلمت نساؤه وتهذبت فتياته وعرفن مركزهن فى الهيئة الاجتماعية وانهن لم يخلقن ليكن بائسات بهيمات مهضومات الحقوق المدنية.. ها هى مصرنا نصف عددها نساء كتب عليهن الشقاء فأين أفكارهن وأين العاملة منهم والمرشدة والواعظة الفاضلة»<sup>(٤)</sup>. ويتساءل الكاتب «هل يظن أبناؤهن وأزواجهن أنهن أنعام يتحكمون فى رقابها بلا إنصاف حتى صدأت أفكارهن وذبلت أزهارهن الفكرية».

أما الشيخ عبدالعزيز جاويش فإنه يكتب فى اللواء مطالباً بالاهتمام بتعليم المرأة مؤكداً «أن الزمن الذى كان الناس فيه مختلفين فى مسألة تعليم المرأة قد مضى وأصبح الكل تقريباً متفقين

(١) د. عبدالعظيم رمضان: تطور الحركة الوطنية المصرية - ص ٣٥.

(٢) أحمد بهاء الدين - أيام لها تاريخ - ص ٨٤.

(٣) اللواء - ٢٣ أبريل ١٩٠١ مقال بعنوان (الاحتجاب)

(٤) اللواء: ٩ يوليو ١٩٠٧ مقال بعنوان (مرجع تأخر الشرق).

فى ضرورة تعليمها للضرر الذى بدا لهم من فرط تفريطها فيه ولم يسعد بيتهم خلاف إلا فى اختيار التعليم المناسب لحالتها كيلا تتعدى الدائرة الطبيعية التى خلقت لتعمل فيها»<sup>(١)</sup>. ثم يشبه الشيخ عبد العزيز جاويش المرأة فى هذا الوجود «كمثل معلم فى مدرسة الرجل صاحبها والنشء تلاميذها ومتى عرفنا ذلك هان علينا أن ندرك تمام الإدراك مقدار ما يجب علينا أن يكون عليه ذلك المعلم من الرقى الأدبى والخبرة الفنية والإلمام التام بشئون وظيفته مع ما تستلزمه من حسن الأداة لإحسان الأداء» وأخيراً يؤكد الشيخ جاويش أنه «إذا تم تعليم المرأة وتربيتها فأنا الضمين بتطهير الهيئة النسائية المصرية من جميع صنوف الزرْكشة والكشكة».

ويكتب محمد فريد وجدى - أحد كبار كتاب الحزب الوطنى - فى صحيفة الدستور - إحدى صحف الحزب - مطالبا بإصلاح حال المرأة مؤكداً أن «من أقدم واجبات المصرى أن يعمل على انتشال المرأة المصرية من وهدة جهالتها الحالية والعمل على ترقيتها وتعريفها قدر نفسها ليتسنى للأمة أن تنتفع بما يزيد عن نصف مجموعها عدد»<sup>(٢)</sup>. وهو يرى أن سبيل ذلك هو «تعليمها وتربيتها التربية الصحيحة وأن ننمى فى روحها أنها مساوية للرجل لا تقل عنه فى شىء».

ويكتب الدكتور نجيب فناوى فى صحيفة وادى النيل وهى إحدى صحف الحزب الوطنى مهاجماً الحجاب سفنداً زيف أقوال أنصار الحجاب من كونه يصون شرف المرأة ويمنعها من الزلل مشيراً إلى أن عندنا ألوفاً من النساء يلبسن ذلك النقاب «البرقع الأسود مثلاً» وهن مع ذلك أحط نوعهن وأجهلهن ولم يجدهن هذا النقاب الكثيف نفعا سوى بقائهن مسلوبات حقوقهن الإنسانية ولا حظ لهن من الحياة إلا النظر إلى حيطان بيوتهن التى لا يبارحنها إلا إلى الرحلة الأخيرة فهن أكثر شبيهاً بالأطفال من حيث الجهل بما يتعلق بأمور الحياة»<sup>(٣)</sup>. ثم يؤكد الكاتب إنه «ليس صحيحاً أن بإزالة الحجاب يؤول الحياء فإن المرأة إذا أرادت التهتك فربما كان الحجاب مساعداً لها».

ويكتب (أحمد حلمى) - الكاتب الثانى بعد مصطفى كامل فى اللواء - مقالاً فى صحيفة (القطر المصرى) التى أصدرها على مبادئ - الحزب الوطنى يدافع فيه عن حقوق المرأة فيؤكد أنه «ما رأى أمة أخذت قسطاً من المدنية كبر أو صغر وضاع فيها حظ البنات فى الحقوق العامة إلا هذه الأمة المصرية من مبتدىء حياة البنات منذ كن أجنة فى بطون أمهاتهن، فإذا حملت المرأة .. وثبت حملها رأيت الآباء والأقرباء داعين ضارعين بأن يكون الحمل ولداً لا بنتاً كأن البنات عالة لا نفع منها فى الوجود.. فإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه أسود وركبه هم عظيم ويتوارى من القوم كأنه رمى بسهم من سهام الحياة .. ومن هذا الحين يبقى مقام البنت منحطاً فلا عناية

(١) اللواء ٣٠ يونيو ١٩٠٨ مقال بعنوان (حول تعليم المرأة).

(٢) الدستور - ٢٠ يونيو ١٩٠٨ مقال بعنوان (إصلاح حال المرأة).

(٣) وادى النيل - ٣٠ مايو سنة ١٩٠٨ مقال بعنوان (المرأة المصرية).

تربيتها ولا اهتمام بتعليمها، وكل هم أهلها ينصرف إلى تمنى أن تكون محسوبة في عداد ذوات الجمال كأن الجمال وحده هو قوام الحياة»<sup>(١)</sup>.

ويرى أحمد حلمي أن جمال المرأة الحقيقي «هو في كمال عقلها وتربيتها وتعليمها».

أما أمين الرفاعي فإنه يدافع في صحيفة (الشعب) - لسان حال الحزب الوطني - عن حقوق المرأة السياسية مؤكداً أن «الإنسان يستطيع أن يتنبأ بأن حقوق المرأة السياسية لابد أن تتسع وذلك بلا شك مما يعود على الهيئة الاجتماعية بالإصلاح والتقدم لأن المرأة إذا دخلت واشتركت مع الرجال في شئون السياسة والإدارة العامة تلطفت الحالة كثيراً عما نراه في الزمن الحاضر لأن المرأة كما يقول شكسبير خلاصة الخير الإنساني»<sup>(٢)</sup>.

ونترك الحزب الوطني وكتابه جانبا - بعد أن دفعنا عنهم ادعاء باطلا وموقفا وهميا من قضية تحرير المرأة كي نقف بعض الوقت عند مدافع آخر صلد عن حقوق المرأة هو أحمد لطفى السيد، فلقد كان أحمد لطفى السيد يرى أن «تعليم البنات أساس لتمدين الأمة وتمدين الأمة أساس استقلالها، فالذى يضع حجراً في بناء مدرسة للبنات إنما يضع حجراً في بناء الاستقلال»<sup>(٣)</sup>.

ويتابع أحمد لطفى السيد تطور الحركة النسائية المصرية الآخذة في النمو ويرجع سبب هذا النمو إلى عدة عوامل وفرت لتلك الحركة الانتصار على معارض حرية المرأة وهذه العوامل هي: أولاً: أنه كان من نصرائها الدين الحنيف الذى لم يحظر على المرأة من مقتضيات الحرية إلا ما يضر بكمالها الذاتى ولاشك أن حركة تتسلح بالشرعية إنما تتسلح بسيف يقطع حجج المحافظين وألسته سوء وتغترس الجاهلين»<sup>(٤)</sup>.

ثانياً: هبوب الأمة من نومها العميق للمطالبة بالحرية، على أن الحرية حق طبيعى لكل مخلوق فما استمجه حين يدعى هذه الدعوى ويمنع الحرية عن أمه وأخته وزوجته».

ثالثاً: سيل التمدن الجارف الذى جاءنا من الغرب بمبادئه الفاضلة ورذائله ونحن مكروهون على قبوله دفعة واحدة من غير أن نستطيع أن نقف في وجه بنائه السريع ذلك التيار المدنى قد جاء أيضاً لمصلحة المرأة وحريتها.

أما عن حصول المرأة على حقوقها السياسية فقد كان أحمد لطفى يلقى عبء التقصير في المطالبة بذلك على المرأة نفسها فيقول أنه: وإن كنا لا نعرف بوجود نص شرعى من نصوص الشريعة الإسلامية يحرمهم هذا الحق كما حرمه إخوانهم الغربيات بنصوص القوانين إلا أن السيدات المصريات لا يظهر أنهن يردن الاعتراف لأنفسهن لهذا الحق المدنى لأنهن لم يظهرن إلى الآن رغبتهن في أن يتحللن من ربة الاستعباد العملى إلى الحرية المخولة لهن شرعاً بنصوص الشريعة الإسلامية ولم يبرهن إلى الآن على حبهن للاستقلال الذاتى في القول والعمل.. فلتتركهن وشأنهن الآن»<sup>(١)</sup>.

(١) القطر المصرى - ١٣ نوفمبر ١٩٠٨ مقال بعنوان (حظ البنات من الحقوق العامة).

(٢) الشعب - ٢٤ فبراير ١٩١٢ مقال بعنوان (حق انتخاب النساء).

(٣) الجريدة - ١٦ مايو ١٩٠٨ (تعليم البنات).

(٤) الجريدة - ٢٧ يناير ١٩١١ مقال بعنوان (الحركة النسائية في مصر).

(٥) الجريدة - ٢١ مايو ١٩٠٧ مقال بعنوان (مجلس شورى القوانين).

والجدير بالذكر أن محمد حسين هيكل قد بدأ حياته الصحفية في (الجريدة) بالكتابة في موضوع المرأة والاهتمام بقضاياها وكان حماسه شديدا في الدفاع عن حقوق المرأة وحرياتها فهو يعلن «أن حالة المرأة الطبيعية.. حالة كونها ستصير يوما أما تربي أبنائها تحملنا على الإذعان بوجوب تعليمها.. وأما القول بإيقاف علمها عند حد محدود .. ليس إلا تعبرا عن ما تكنه كل نفس من حب الاستبداد»<sup>(١)</sup>.

وهو يرى أن قول الرجل باقتصار تعليم المرأة على قشور من العلم ليس إلا كقول المستعمر أن الدولة التي استعمرها لا تحتاج إلى جيش ما دام هو قد يرأ على المحافظة عليها.

وكان هيكل من أنصار السفور وأعداء الحجاب، فكتب في الجريدة يهاجم الحجاب ويقول أنه «عادة تسكن في الشرق وقوى تمكنها إلى حد عظيم حتى عدها قوم من الدين»<sup>(٢)</sup>. ثم يصفه بأنه «داء التحكم في الأمة فجعل يهدم من بنائها الشامخ ويقضى فيها على كل فضيلة ويقتل كل عاطفة».

ويتنقد عبدالقادر حمزة في صحيفة (الأهالي) ظاهرة تعدد الزوجات فيؤكد أنها «مسألة اجتماعية اقتصادية أكثر منها دينية وآية ذلك أن المعدد صاحب الاثنتين أو الثلاث أو الأربع أما أن يكون فقيرا أو غنيا فإذا كان الأول فهو غافل مرور لا يدري كم ينتج له التعدد من نكد العيش وبؤس الحياة وكم يشغله عن كسبه وانتجاع رزقه وأن كان الثاني فهو مسرف متلاف لا قيمة لصحته وماله في نظره أراد أن يسكن نزوة واحدة من نزوات نفسه الأمارة بالسوء فخلق لها من الآلام والمتاعب ما لا قبل لها به»<sup>(٣)</sup>.

ويؤكد عبدالقادر حمزة أن الحكمة من تعدد الزوجات كانت رغبة المسلمين الأوائل في تكاثر النسل ولكن هذا السبب توارى بتوالي الأعوام فأصبح المسلمون يتخذونه سبيلا للمتعة وارضاء للنفس فما هو إلا زمن وزمن حتى فقدوا الرباط العائلي ففقدوا القرابة ونما التضامن في صدورهم فتغيرت العائلات وركب كل مسلم رأسه فكان ما كان مما نندبه الآن ونبكى على زمنه الغابر ويطالب عبدالقادر حمزة الكتاب وذوى الآراء أن لا يقللوا من البحث في تعدد الزوجات وأن ينشروا آراءهم ما استطاعوا وبكل وسيلة حتى يخففوا عن كواهل أبناء الأمة وطأة الجهل بالسعادة المنزلية».

ومن الصحف الهامة التي لعبت دوراً كبيراً في قضية تحرير المرأة صحيفة (السفور) التي كان يصدرها (عبدالحاميد حمدي) فقد كانت الصحيفة تخصص نسبة كبيرة من صفحاتها للدفاع عن حرية المرأة وحقوقها.. إذ يكتب عبدالحاميد حمدي مؤكداً حق المرأة في المساواة بالرجال ومدللاً على ذلك باشتراك المرأة مع الرجل في النضال السياسي أثناء ثورة ١٩١٩ فيقول «منذ أعوام ثلاثة

(١) الجريدة - ١٦ يونيو ١٩٠٨ مقال بعنوان (المرأة المصرية).

(٢) الجريدة : ٢٩ سبتمبر ١٩٠٨ مقال بعنوان (حجاب المرأة).

(٣) (الأهالي : ١٦ يناير ١٩١١ مقال بعنوان (تعدد الزوجات)).

تعمل نساء مصر إلى جانب رجالها للقضية العامة قضية الاستقلال التام يعملن بجهد لا يعرفن الملل يعملن بنشاط واستمرار كذب ما طالما رمت به نساؤنا من الخمول وعدم الثبات»<sup>(١)</sup>.

ويعنف عبد الحميد حمدي العناصر الرجعية التي تقف دون ممارسة المرأة المصرية لحقوقها وحرياتها قائلاً: «عيب وأى عيب أن ترتفع من جانب الرجال في هذه الأيام أصوات تنكر على المرأة حقها في الحرية فهذا دليل عن أن هؤلاء الرجال سبة ونقص في فهمنا لمعنى الحرية»<sup>(١)</sup>. ويعلم الكاتب أن «تقاليد الأيام الغابرة قد تركت في نفوسنا أثراً يميل بنا إلى التحكم في المرأة بقدر ما تسمح لنا ظروف الزمان ولو أننا فكرنا بقليل من الروية لأدركنا أن وسائل ذلك التحكم المادية قد زالت بالفعل ولم يبق في يدنا غير الوهم ولو أن المرأة نادت علينا مجدة في ثورتها لما وجدنا من سلاح تقاوم به ثورتها لنسترد ما كان لنا عليها من سلطان عند ذلك يسقط في أيدينا ونصبح ضحكة المستبدين» وينصح الكاتب الرجال قائلاً «فخير لنا وألف خير أن ننزل من تلقاء أنفسنا عن ذلك السلاح فنبقى على مودة أخواتنا ونثبت للعالم كله أننا ونحن نطالب بحريتنا المغصوبة نلقى راضين مختارين ذلك السلاح الذي لم نسع إليه سعياً ولكن ظروف الزمان هي التي تركته عفواً بين أيدينا. وإلا فالويل لنا يوم أن تثور النساء»<sup>(٢)</sup>.

وما يجدر ذكره أن صحيفة (السياسة) كانت أول صحيفة تخصص صفحة كاملة أسبوعياً للسيدات سميتها (صحيفة السيدات) وكانت تحتل دائماً الصفحة الثالثة من الجريدة وتظهر يوم الجمعة من كل أسبوع وكانت تتضمن مقالات متعددة تدافع عن المرأة وحقها في التعليم والعمل وتدعو إلى الارتفاع بمستواها الثقافي والفكري. بل إن تلك الصفحة كثيراً ما قدمت أفكاراً جريئة - بمقياس ذلك العصر - مثل الدعوة إلى رفع سن زواج الفتيات حيث أكدت الصحيفة «أن تزويج الفتاة قبل بلوغها السن المعقولة عمل وخيم العواقب يؤدي صحتها ويضعف نسلها إلى حد خطير ويحرمها فرصة التعلم والاستنارة فتكون أما جاهلة لا تقدر على تربية أطفالها»<sup>(٣)</sup>.

ولقد شهدت تلك الفترة أيضاً ظهور عدد من الكاتبات المصريات اللاتي لعبن دوراً هاماً في الدعوة لتحرير المرأة.. وقد اتخذت مساهمة الكاتبات المصريات في قضية تحرير المرأة طريقين: الأول: الكتابة في الصحف الكبيرة مثل اللواء والمؤيد والجريدة والأخبار والسياسة والأهرام وغيرها.

الثاني: إصدار الصحف والمجلات النسائية مثل مجلة (الفتاة) الشهرية التي أصدرتها هند نوفل في الإسكندرية عام ١٨٩٢ ومجلة (مرآة الحسناء) نصف الشهرية التي أصدرتها بالقاهرة (مريم مرهم) في عام ١٨٩٦ ومجلة (السيدات والبنات) الشهرية التي أصدرتها (روزا انطون) بالإسكندرية عام ١٩٠٢ ومجلة (فتاة الشرق) الشهرية التي أصدرتها بالقاهرة (جميلة حافظ) عام ١٩٠٧ ومجلة (ترقية المرأة) الشهرية التي أصدرتها (فاطمة راشد)

(١) السفور - ٢٢ يناير ١٩٢٢ مقال بعنوان (المرأة في ميدان العمل).

(٢) السفور - ٣ فبراير ١٩٢٢.

(٣) السياسية : ٤ يونيو ١٩٢٣ مقال بعنوان (الفتاة المصرية وسن الزواج).

عام ١٩٠٨ ومجلة (الجنس اللطيف) الشهرية التي أصدرتها بالقاهرة ملكة سعد ومجلة (فتاة النيل) الشهرية التي أصدرتها بالقاهرة (سارة الميحية) في عام ١٩١٣ ومجلة (المرأة المصرية) الشهرية التي أصدرتها بلسم عبدالملك بالقاهرة في عام ١٩٢٠ ومجلة (النهضة النسائية) الشهرية التي أصدرتها لبيبة هاشم بالقاهرة عام ١٩٢١ ومجلة (السيدات) الشهرية التي أصدرتها بالاسكندرية روزا أنطون حداد، وصحيفة (الرجاء) الأسبوعية التي أصدرتها ليلي عبدالحميد الشريف بالقاهرة عام ١٩٢٢.

وتكتب سلمى طنوس في (المقتطف) تطالب بتعليم المرأة لإتاحة الفرصة أمامها للعمل إذا ما اضطرتها الظروف لذلك فتقول «وما هو ضروري للبنات أيضاً أن تتقن البنت علماً من العلوم أو فناً من الفنون أو حرفة من الحرف تحذرا من نوائب الزمان وتقلب الأيام»<sup>(١)</sup>.

أما (باحثة البادية) فإنها تكتب في صحيفة (الجريدة) العديد من المقالات تحت عنوان (نسائيات) جمعتهما بعد ذلك في كتاب ولقد كانت قضية تعدد الزوجات من أهم القضايا التي تعرضت لها حيث ذكرت أن المرأة إذا ابتليت بالضرة انطقاً سراج بهجتها وحل مكانه نار حقدّها وذوى غصن قدها وزرعت محله بذور شرورها»<sup>(٢)</sup>.

وتعلم الكاتبة أنها لا تعذر الرجل الذي يتزوج مرتين إلا إذا تعذر عيشه هنياً مع زوجته الأولى لسبب ما شرعياً كان أو غير شرعي، وهي ترى أن «الطلاق على كرهه أسهل وقعا وأخف ألماً من الضرة فالأول - شقاء وحرية والثاني شقاء وتقييد».

وتكتب لبيبة هاشم في (الجريدة أيضاً) تؤكد أن «المرأة خلقت مساوية للرجل في كل شيء بدليل أنها متممة له لا يمكن الاستغناء عنها لحفظ نوعه فكلاهما لازم للآخر على نسبة متساوية وبعبارة أصبح كليهما شخص واحد في جسمين ومتى سلمنا بهذه النظرية لا يسعنا إلا التسليم بها فلا يمكننا تفضيل شطر على شطر في ذلك الإنسان الكامل»<sup>(٣)</sup>.

وهي ترى أنه «الظلم بين أن لا تتعلم المرأة وتفهم أنها مخلوق حي كالرجل مماثلة له في الخلق والتركيب ولها حقوق كما عليها واجبات عظيمة الأهمية ثم ترى من جهة أخرى حقوقها مهضومة وشخصيتها مداسة ومنزلتها منحطة.. ولعمري فإنه لأفضل لها ألف مرة أن تظل عمياء جاهلة محاسن الوجود من أن تعالج عينيها حتى تبصر النور ثم تجبر على وضع عصابة تحول دون انطلاق بصرها في الكون».. ورغم ذلك تعلن لبيبة هاشم أنه «أما وقد أخذت المرأة تسير في سلم الارتقاء فصار يستحيل على الرجل أن يستمر على الوقوف في سبيل حريتها».

وتكتب (نبوية موسى) في صحيفة الأهالي تطالب بحق المرأة في العمل.. قائلة ان اقتنصار المرأة على تعلم أعمال المنزل وما يتعلق به يخفى كثيراً من مواهبها العقلية والجسمية لعدم

(١) المقتطف - أول ابريل ١٨٨٤ مقال بعنوان (تعليم النساء وتربيتهن).

(٢) الجريدة: ٢٢ ديسمبر ١٩٠٨ مقال بعنوان (تعدد الزوجات والضرائر).

(٣) الجريدة: ٦ يونيو سنة ١٩١٠.

استعمالها»<sup>(١)</sup>. ومؤكدة أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق المرأة عاجزة كما يزعمون بل خلقها كالرجل جسماً وذكاء واستعداداً فقد خلق لها عينيْن ولساناً وقدميْن وغير ذلك من الأعضاء الناقصة ولم يميز الرجل عليها في شيء من هذا ولم يكتب على هذه الأعضاء أنها إنما خلقت لطهو الطعام وتنظيف الأواني والمشى على البساط بل هي صالحة لذلك إذا وجد وهي فوق ذلك صالحة للأعمال الأخرى إن دعت الحاجة».

وترى (فاطمة راشد) أن أول سبب لانحطاط المرأة في الديار المصرية هو (الجهل وفساد التعليم.. أما الجهل فأمره أشهر من أن يذكر وأما فساد التعليم فيكفى دليلاً عليه أن البنات المتعلمة لا تزيد عن الجاهلة شيئاً يذكر بل ربما تكون الجاهلية أكمل منها في بعض الأحيان وذلك راجع إلى عدم اعتناء الحكومة بأمر تربيتها وإلى تهاون الآباء بذلك أيضاً»<sup>(٢)</sup>. ثم تطالب فاطمة راشد الحكومة «بالصرف على البنات كما تصرف على الذكور بالمساواة لأنهن نصف هذه الهيئة ولهن الحق في المطالبة بنصف ما تصرفه الحكومة لتعليم الذكور وحث الآباء والأمهات على عدم أخذ بناتهن من المدارس بمجرد القراءة والكتابة لأنها ليست الغاية المقصودة بل هي وسيلة توصلهن إلى الغاية».

وتطالب (ملكة سعد) في إحدى افتتاحيات مجلة (الجنس اللطيف) التي كانت تصدرها وترأس تحريرها بالعمل على «ترقية شعور المرأة - المصرية وإعدادها بالوسائل الأدبية أن تكون في يوم ما في مستوى واحد مع المرأة الغربية»<sup>(٣)</sup>.

ثم تؤكد الكاتبة أن «انحطاط المرأة المصرية قد أدى إلى انحطاط الشؤون العامة في مصر وهوى بها إلى أحط درجات الانحطاط»<sup>(٤)</sup>. وهي ترى أن الغرض من تعليم المرأة لا يجب أن يكون هدفه فقط الاختصار على القراءة والكتابة بل أن يعدّها لمزاولة بعض الأعمال تحسباً لظروف الحياة والزمن فهي تعتقد أن النساء إذا تعلمن تعليماً صحيحاً يمكنهن حينئذ أن يقمن بما يقوم به الرجال من الأعمال - بل يمكنهن مزاحمتهم في الأعمال ولو أن العناية وجهت لتعليم المرأة في العصور الخوالي واهتم المصلحون بكسر قيود التقاليد القديمة والعادات الرثة التي كانت مقيدة بها لأصبحت حالتها اليوم غير حالتها بالأمس ولكان لها في الهيئة الاجتماعية مقام غير هذا المقام»<sup>(٥)</sup>.

أما (سارة الميمنية) رئيسة تحرير مجلة (فتاة النيل) فإنها تعتقد أنه لا توجد بمصر نهضة نسائية كما يدعى البعض فالذي يمكننا أن نقوله إزاء هذه النهضة إن كان ثمة نهضة أنها نهضة وهمية ولا وجود لها إلا في عالم الصحف والنشر فقط»<sup>(٦)</sup>.

(١) الأهالي : ٢٣ مارس ١٩١١ مقال بعنوان (الرجل والمرأة واحتياجها إلى الرجل).

(٢) ترقية المرأة - صفر ١٢٢٦ هـ مقال بعنوان (أسباب انحطاط المرأة المصرية).

(٣) الجنس اللطيف - ٤ يوليو ١٩٠٨.

(٤) الجنس اللطيف : أغسطس ١٩٠٨ مقال بعنوان (المرأة في مصر).

(٥) الجنس اللطيف : فبراير ١٩٠٩ مقال بعنوان (هل يمكن للنساء أن يقمن بما يقوم به الرجال من أعمال).

(٦) فتاة النيل : أول محرم الحرام سنة ١٣٣٢.



لذلك تطالب الكاتبة بضرورة أن تقوم النهضة النسائية أولاً على أساس متين وأن تكون لها مبادئ صحيحة الغرض ثم يجب أن يقوم بها نساء يعقلن ويفهمن لكي يكون لهن رأى مقبول يدعم النهضة النسائية المأمولة فكل بناء يقوم على أساس غير متين يتداعى قبل أن يتم .. بل لا يتم».

وترى (لبية أحمد) رئيسة تحرير مجلة (النهضة النسائية) أن «المرأة والرجل عاملان قويان على رقى الأمة وبلوغها غاية من الكمال لا يستهان بها»<sup>(١)</sup>. وهى تعتقد أنه «إذا شق الرجل عصا الطاعة وخرج على زوجته فلم يحترم لها إرادة ولم يستشرها فى أمر من أمور بيتها .. فهنا تكون الطامة الكبرى».

وتؤكد الكاتبة أن تجاهل الرجل للمرأة دليل على أن الرجل المصرى «ما زال ينظر إلى المرأة نظرتة إلى الحريم فى العصور البائدة» وتطالب الكاتبة أخيراً بضرورة الاهتمام بتعليم المرأة لتقريب المسافة بينها وبين الرجل.

وفى مقال لليلى عبد الحميد الشريف رئيسة تحرير صحيفة (الرجاء) تذكر الكاتبة أن المرأة فى الزمن الماضى «كانت كمية مهملة ولا رأى لها ولا حياة ذات تأثير فى الأحوال الاجتماعية بل لقد تطرف بعض الهمجيين إلى أن عدوها عاراً على أبيها فوأدوها حية شنع الله عليهم فى محكم تنزيله»<sup>(٢)</sup>.. ثم تؤكد صاحبة الرجاء أن المرأة مساوية للرجل وأن التاريخ يؤيد ذلك «فهذه بلقيس أتت بالعجب العجائب من السياسة الناضجة التى رجحت كفتها على عظماء الرجال.. ولقد اعتلى عرش مصر فى أزمان عريقة فى القدم بعض السيدات المصريات وهذه حشيشة وفانها أدخلت الإصلاحات فى الديار المصرية ما سطره التاريخ من نور .. وبالجمله فتأثير المرأة فى التاريخ الإنسانى أعظم من أن يتجاهله أحد»<sup>(٣)</sup>.

وهكذا يتبين صحة ما ذهبنا إليه فى بداية هذا الفصل - من أن الدعوة إلى تحرير المرأة كانت تسير جنباً إلى جنب مع الدعوة إلى الحرية بشكل عام. فلم يكن طبعياً ولا منطقياً أن يدعو المجتمع المصرى إلى الحرية بينما ينكرها على المرأة المصرية ، التى تشكل نصف هذا المجتمع.

\* \* \*

(١) النهضة النسائية : آخر يوليو ١٩٢١ مقال بعنوان (السعادة الزوجية).

(٢) الرجاء : ٩ فبراير ١٩٢٢.

(٣) الرجاء : ١٦ فبراير سنة ١٩٢٢.

## الخاتمة

لقد أكدت هذه الدراسة صحة الفرض الذى طرحناه فى بداية البحث .. والذى يقول ان الفكر الليبرالى فى مصر كان نتيجة للتحويلات البرجوازية التى حدثت فى بنية المجتمع المصرى والتغير الذى أصاب تركيبه الاجتماعى والاقتصادى.. وحركة القوى الاجتماعية فيه خلال فترة الدراسة.

فالفكر الليبرالى فى مصر كان نتاج حركة اجتماعية وصراع طبقى بين الاقطاع والبرجوازية حين عجزت علاقات الإنتاج الإقطاعية المتخلفة عن التلاؤم مع قوى الإنتاج الجديدة.. وأنه قد ظهرت فى مصر أشكال اقتصادية رأسمالية دخلت بالتدرج فى صراع مع الأشكال الاقتصادية الإقطاعية.. وأنه بنمو الرأسمالية فى مصر تكونت أفكار ليبرالية بدأت تخوض صراعا ضد الأفكار الإقطاعية القديمة حتى نجحت فى أحوال كثيرة أن تهزمها وتحل محلها وبذلك يمكن فهم حركة الترجمة والبعثات العلمية إلى أوروبا.. ليس باعتبارها أدوات لاستيراد الفكر الليبرالى وإنما باعتبارها مظاهر لبعض جوانب الصراع الذى كان دائرا داخل المجتمع المصرى بين البرجوازية والإقطاع.

فالليبرالية المصرية هى إذن انعكاس للتحويلات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية على حركة الفكر المصرى. وإن كان هذا لا ينفى تأثير الفكر الأوربى على الفكر المصرى.

كما كشفت هذه الدراسة عن الدور البارز الذى لعبته الصحافة المصرية فى وضع الأساس الأيدىولوجى للفكر الليبرالى فى مصر سواء فى مجال الفكر القومى أو الفكر الديمقراطى أو فيما يتعلق بقضايا الحريات.

وفىما يتعلق بالفكر القومى فقد لاحظنا خلال دراستنا لصحافة تلك الفترة ان الفكر المصرى قد تصارعت ثلاثه تيارات رئيسية: تيار الوطنية المصرية.. وتيار العروبة وتيار القومية الإسلامى أو ما كان يسمى وقتها (الجامعة الإسلامية).

وفىما يتعلق بالتيار الأول.. فقد لوحظ أن فكرة «الوطنية المصرية» قد بدأت غامضة غير محددة .. ثم أخذت تتطور وتتكامل حتى أخذت شكل الاتجاه أو التيار الرئيسى فى الحياة الفكرية والسياسية فى مصر.. وقد تم ذلك عندما أخذت الفكرة طابعا علمانيا وتخلصت من أى ارتباط أو تأثر أو انفعال بدولة الخلافة العثمانية.

وقد كانت فكرة الوطنية تنطلق فى الصحافة المصرية من اعتبار أن الشعب المصرى (أمة) متكاملة له (قومية) متميزة عن غيرها من القوميات تماما كالقومية الفرنسية أو الإنجليزية.. وكانت الصحف المصرية ترى أن مقومات هذه الأمة وتلك القومية قائمة فى مصر منذ آلاف السنين.. إذ كانت فكرة العروبة ما تزال تنمو حتى نهاية فترة البحث . على استحياء شديد.

ولقد تكونت (الوطنية المصرية) فى الصحافة المصرية من خلال طرح عدة قضايا هامة فى مقدمتها قضايا: الوحدة الوطنية.. وإيقاظ الشعور الوطنى.. وبعث المجد المصرى القديم وطرح شعار مصر للمصريين. وقد ساعد على نمو فكرة الوطنية المصرية تحدى الاحتلال للشعور الوطنى عند الشعب المصرى.. لذلك فإن الدعوة للاستقلال ومحاربة الاحتلال الأجنبى كانت دائماً الخلفية القائمة وراء أية قضية من قضايا الوطنية المصرية.

كذلك فإن سيادة فكرة (الوطنية المصرية) على الفكر القومى فى مصر فى الفترة التى تناولها البحث لا تعنى عدم تداول أفكار قومية أخرى فى ساحة العمل الصحفى والسياسى فى مصر مثل فكرة العروبة أو فكرة الجامعة الإسلامية.

فى صحافة تلك الفترة (أفكار وآراء تدعو للوحدة العربية وأفكار أخرى تدعو للوحدة الإسلامية ورغم أن فكرة (الجامعة الإسلامية) كان لها نفوذ كبير فى الصحافة المصرية فى الفترة التى سبقت الحرب العالمية الأولى.. إلا أن السيادة ظلت لفكرة (الوطنية المصرية) ومن أجلها نشبت العديد من المعارك الفكرية بين دعاة الوطنية المصرية ودعاة العروبة ودعاة الوحدة الإسلامية.

وفى مجال الفكر الديمقراطى فقد لاحظنا أن الصحافة المصرية قليلاً ما كانت تستخدم كلمة (ديمقراطية) كان يستعاض عنها بأحد الاصطلاحين التاليين: «سلطة الشعب» أو «حكم الشعب».

كذلك فإن مفهوم الديمقراطية الليبرالية أى التى تقف عند حدود الديمقراطية السياسية ظل هو المفهوم السائد على الفكر المصرى والغالب على كتابات الصحفيين والكتاب المصريين حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ثم بدأت تظهر بعد الحرب وبالذات بعد ثورة ١٩١٩. ارهاصات للمفهوم الاجتماعى أو الاشتراكى للديمقراطية عند بعض الكتاب ذوى الميول الاشتراكية مثل عزيز ميرهم أو عند بعض الكتاب الليبراليين من الذين كانوا يتميزون بنزعة إنسانية مثالية مثل الدكتور طه حسين.

وفى مجال الفكر الديمقراطى أيضاً لعبت الصحافة المصرية دوراً كبيراً فى الدعوة إلى الحكم المقيّد عن طريق شن هجوم عنيف ودائم على أنظمة الحكم الاستبدادية المطلقة.

كذلك فقد اهتمت صحف تلك الفترة بالحياة النيابية فى مصر بحيث يرجع إلى الصحافة المصرية الفضل الأول فى رفع مطلب المجلس النيابى ليحتل مكانه فى مقدمة أهداف الحركة الوطنية المصرية وبحيث صار هذا المطلب يتلو مباشرة مطلب الاستقلال والجلاء.

وفىما يتعلق بإنشاء مجلس نيابى مصرى فقد تنازع الصحف المصرية تياران رئيسيين:

**التيار الأول:** وهو التيار الرئيسى والغالب على الصحافة المصرية.. وقد كان يطالب بإنشاء مجلس نيابى مصرى وإقامة حياة نيابية حقيقية.

**التيار الثانى :** وهو تيار لا يرفض مبدأ إقامة حياة نيابية ولا إنشاء مجلس نيابى ولكنه يعتقد أن الظروف السياسية فى مصر لم تنضج إلى الحد الذى يمكن معه إعطاء الشعب

المصرى مثل هذه الحقوق لذلك كانت مطالب أكثر المندرجين تحت لواء هذه التيار تنحصر في مجرد العمل على تطوير وتوسيع اختصاصات المجالس شبه النيابية القائمة حتى تصل البلاد بالتدرج إلى المجلس النيابى..

كذلك فقد طرحت الصحافة المصرية قضية الدستور بصفتها جزءاً عضويًا من مطلب المجلس النيابى.. وكان الاصطلاح المستخدم فى ذلك الوقت للتعبير عن مطلب الدستور هو «الدستور النيابى».

لذلك يلاحظ أن كثيراً من القضايا التى أثارت حول المجلس النيابى .. أثير مثلها عند طرح قضية الدستور مثل القضايا المتعلقة بمدى أهلية المصريين للدستور؟ ومن يطلب الدستور.. من الخديو صاحب السلطة الشرعية أم من الاحتلال صاحب السلطة الفعلية؟

كذلك يلاحظ أن قضية الدستور لم تطرح كمقضية حية ومطلب شعبى - فى الصحافة المصرية إلا بعد عام ١٩٠٤ عندما تقدمت الجمعية العمومية بطلب لإنشاء المجلس النيابى.. فقد جر الحديث عن المجلس النيابى إلى طرح مطلب الدستور على أساس أن المجلس النيابى لا يقوم بدون وجود الدستور الذى يحدد شكل النظام السياسى للدولة وحقوق المصريين وواجباتهم ومن بينها المجلس النيابى.

وعندما صدر دستور ١٩ إبريل سنة ١٩٢٣ اهتمت الصحافة المصرية بمناقشته وانتقاد بعض نصوصه وهاجمت المبادئ الرجعية فيه وطالبت بتعديله، كذلك قامت الصحف المصرية بالدفاع عن الدستور عندما بدأت محاولات القصر وسلطات الاحتلال للاعتداء على الدستور بعد مقتل السردار واستقالة وزارة سعد زغلول.. وحول الدستور وبسببه جرت كثير من المعارك الفكرية بين مختلف الصحف المصرية وإليها يرجع الفضل فى بلورة الكثير من المبادئ الدستورية فى البلاد. وأخيراً فإن تطور الفكر الديمقراطى فى مصر.. تجسد فى ظهور الأحزاب عام ١٩٠٧ وما بعدها ، وفى هذا المجال كشف البحث عن حقيقتين هامتين:

**الحقيقة الأولى:** أنه إذا كانت الأحزاب السياسية فى مصر ثمرة من ثمرات الصحافة .. (فقد نشأت الأحزاب من قلب الصحف المصرية: الحزب الوطنى من صحيفة اللواء وحزب الأمة من الجريدة وحزب الإصلاح من المؤيد).

فإن العكس صحيح أيضاً بمعنى أن الصحافة المصرية قد استفادت فوائد جمة وانتعشت فى ظل الحياة الحزبية فى مصر.. ذلك أن وجود الأحزاب ساعد على نمو الصحف المصرية.. واتساع حجم القراء بما خلقت من نشاط سياسى فى المجتمع المصرى أدى إلى ازدياد عدد المتابعين والمهتمين بتطور الأحداث والقضايا السياسية.. كذلك يرجع إلى النشاط السياسى الذى خلقت الأحزاب الفضل فى تعدد الصحف السياسية لزيادة الاهتمام بصحافة الرأى وتبلور

الكثير من الاتجاهات السياسية والفكرية والاجتماعية لدى الجماهير.. كما أن المناقشات الحزبية بين الصحف قد هيأت الفرصة لظهور جيل كامل من الكتاب والمعلقين السياسيين.

**الحقيقة الثانية:** أن أى محاولة معاصرة لإدانة أو انتقاد التجربة السابقة فى مصر تصير محاولة بعيدة عن الموضوعية إذا ما تجاهلت أن تلك التجربة كانت محكومة باعتبارين هامين كانا يعوقان نموها وأولها:

انعدام الحياة النيابية التى هى المتنفس الطبيعى للأحزاب السياسية خلال المرحلة الأولى من التجربة الحزبية (١٩٠٧ - ١٩١٤).

أما ثانى هذين الاعتبارين فيتمثل فى وجود سلطات الاحتلال التى كانت تعمل بلا هوادة على إفساد الحياة الحزبية إما عن طريق الإرهاب والقمع وإما عن طريق البذل والترغيب وشراء الضمائر والنفوس الضعيفة.. وإذا كانت قد توفرت للتجربة الحزبية فى مرحلتها الثانية (١٩١٩ - ١٩٥٢) الحياة النيابية إلا أنها ظلت (سواء التجربة أو الحياة النيابية) محكومة بالاعتبار الثانى وهو وجود احتلال أجنبي يستخدم التهيب والترغيب لإفساد الحياة الحزبية فى مصر بالقدر الذى يتلاءم مع مصالحه.

وأما فيما يتعلق بقضايا الحريات فقد لعبت الصحافة المصرية دوراً بالغ الأهمية فى الدعوة إلى حرية الفكر وما يرتبط بها من حرية الصحافة والكتابة وحرية النشر والقول والخطابة وحرية الاجتماع.

وقد خاضت الصحافة المصرية الكثير من المعارك الفكرية والسياسية من أجل تثبيت هذه الحريات فى الفترة التى تناولناها بالبحث وكانت الصحافة تعتبر دفاعها عن هذه الحريات وبالذات حرية الصحافة بمثابة دفاع - فى الوقت نفسه - عن وجودها واستمرارها فى مواجهة عمليات التعطيل والمصادرة التى تعرضت لها من قبل السلطة الاستبدادية للاحتلال والحدوية.. ثم القصر بعد ذلك.

كذلك فقد لاقت فكرة الحرية الاقتصادية أو الاقتصاد الحر باعتبارها الجانب الاقتصادى للبرالية اهتماماً ملحوظاً من الصحافة المصرية وخاصة أن الفترة التى تناولها البحث قد شهدت تطوراً ملموساً فى عملية انتقال المجتمع المصرى من الإقطاع إلى الرأسمالية.. وبداية غزو الرأسمالية الأوربية وخاصة الرأسمالية الإنجليزية لمصر ومحاولتها ربط الاقتصاد المصرى بالنظام الرأسمالى الاستعمارى العالمى.. لذلك كان من الطبيعى أن تسير الدعوة إلى الاقتصاد الحر فى مصر فى مواجهة الاستعمار القائم فى خطين متلازمين:

**أولاً:** تشجيع الصحف للنشاط الفردى الحر والدفاع عن الملكية الفردية وحرية النشاط التجارى والصناعى والزراعى والاهتمام بكل ألوان النشاط الاقتصادى القائم على المبادىء الفردية.

**ثانياً:** الهجوم المستمر الذى قادته الصحافة المصرية على اختلاف اتجاهاتها فى تلك الفترة.. على تسلل الرأسمالية الأوربية وخاصة الإنجليزية إلى الاقتصاد المصرى.. فقد رفعت الصحف شعار «الاستقلال المالى» تارة أو «الاستقلال الاقتصادى» تارة أخرى أو ما كانت تطلق عليه فى السنوات التى تناولها بالبحث (بالتحرر الاقتصادى على أساس الاستقلال

السياسى لا قيمة له بدون الاستقلال الاقتصادى.. وعلى هذا الأساس ظهرت أفكار مثل إنشاء مجلس وطنى مصرى بأموال وطنية.. وإنشاء شركات مساهمة مصرية من أجل حماية المصريين من استغلال الأجانب.

أما فيما يتعلق بالفرض الثانى: الذى افترضناه فى بداية هذا البحث فما لاشك فيه أن هذه الدراسة قد أتاحت الفرصة لنا لكى نضع أيدينا على كثير من الآثار الفكرية الهامة لعدد من كبار المفكرين والكتاب والصحفيين المصريين التى لم يسبق كشفها من قبل وبالتالي لم يسبق تناولها بالتحليل أو الدراسة.. وقد ألقى الكشف عن هذه الآثار أضواء جديدة على اتجاهات ومواقف هؤلاء الكتاب تجاه بعض القضايا الهامة التى شغلت العقل المصرى فى الفترة التى تناولها البحث مما يدفعنا إلى المطالبة بتصحيح كثير من الأفكار والمعلومات التى كشفت نتائج هذا البحث عن خطئها. مثال ذلك القول بأن الحركة الوطنية لم تنشأ إلا على يد مصطفى كامل والقول بأن الشعور الوطنى فى مصر قد انهار بعد الاحتلال البريطانى)..

والقول بأن مصطفى كامل وكتاب الحزب الوطنى قد اتخذوا موقفا رجعيًا من حركة تحرير المرأة.. والقول بأن الحياة الحزبية قد أدت إلى إفساد الحياة السياسية فى مصر.. فقد كشفت هذه الدراسة عن أن الحركة الوطنية المصرية قد بدأت منذ اليوم الأول للاحتلال البريطانى وأن الشعور الوطنى فى مصر لم ينهر وإنما ظلت المقاومة المصرية للاحتلال الإنجليزى قائمة طوال الفترة التى تناولناها بالبحث.

كذلك كشفت هذه الدراسة عن أن مصطفى كامل وكتاب الحزب الوطنى قد وقفوا مع حرية المرأة ونادوا بحقوقها فى التعليم والعمل.. بل والمشاركة فى الحياة السياسية للبلاد.

كما أكد هذا البحث أيضا أن الأحزاب المصرية قد لعبت دورا هاما فى مقاومة نفوذ الاحتلال الأجنبى فى مصر.. والسلطة الاستبدادية للخديوية ثم القصر بعد ذلك.. وإليها يرجع الفضل فى تدعيم صحافة الرأى وبلورة الكثير من المذاهب والتيارات الفكرية التى ساهمت بدورها فى تطوير المجتمع المصرى كذلك فقد لعبت الأحزاب المصرية دوراً كبيراً فى تدعيم الحياة النيابية فى مصر وحمايتها من تدخل القصر أ وسلطات الاحتلال البريطانى.

وبالإضافة إلى ذلك كله فقد كشفت هذه الدراسة عن الكثير من الحقائق الجديدة عن المعارك الفكرية التى خاضتها الصحافة المصرية ضد الحكم المطلق واستبداد الخديوية بعد ذلك وتدخل سلطات الاحتلال البريطانى فى شئون البلاد وتسلسل النفوذ الأجنبى السياسى والاقتصادى.

وأخيرا فلعل هذه الدراسة أن تؤكد أنه ما زال فى تاريخ مصر الحديث وفى تاريخ الصحافة المصرية الكثير من الصفحات المجهولة التى تحتاج إلى مزيد من البحث والاستقصاء ولعل ذلك أن يكون حافزا أمام الجيل الجديد من الدارسين والباحثين للتنقيب بين صفحات هذه الفترة الهامة من تاريخ الصحافة المصرية ومن تاريخ مصر الحديث.. لإعادة اكتشافها من جديد بل إعادة اكتشاف أنفسنا وإلقاء الضوء على مزيد من الحقائق المجهولة فى حياتنا الفكرية والثقافية المعاصرة.

## مصادر البحث ومراجعته

### أولاً : الصحف

١٨٢٨ / ١٢ / ٣	(١) الوقائع المصرية
١٨٧٤ / ١١ / ٢٩	(٢) روضة الأخبار
١٨٧٦ / ٨ / ٥	(٣) الأهرام
١٨٧٧ / ٤	(٤) مصر
١٨٧٧ / ١١ / ١٧	(٥) الوطن
١٨٧٨ / ٥ / ١٣	(٦) التجارة
١٨٧٨ / ٧ / ١١	(٧) الاسكندرية
١٨٧٩ / ٢ / ٢٤	(٨) مرآة الشرق
١٨٧٩ / ٥ / ١٥	(٩) الكوكب المصرى
١٨٧٩ / ٥ / ١٦	(١٠) الوقت
١٨٨٠ / ١ / ٥	(١١) المحروسة
١٨٨٠ / ١ / ٨	(١٢) العصر الجديد
١٨٨١ /	(١٣) النجاح
١٨٨١ / ١ / ٢	(١٤) الاتحاد المصرى
١٨٨١ / ٥ / ٥	(١٥) البرهان
١٨٨١ / ٧ / ١٠	(١٦) الطائف
١٨٨١ / ١٠ / ٥	(١٧) المفيد
١٨٨١ / ١٢ / ٣	(١٨) مصر (الثانية)
١٨٨٢ / ٣ / ٦	(١٩) الزمان
١٨٨٢ / ٤ / ٦	(٢٠) مرآة الشرق
١٨٨٢ / ٦ / ٢	(٢١) الأحوال
١٨٨٢ / ٧ / ٢١	(٢٢) الاعتدال
١٨٨٢ / ٨ / ٢١	(٢٣) السفير
١٨٨٤	(٢٤) المقتطف
١٨٨٥ / ١١ / ٢٣	(٢٥) القاهرة

١٨٨٦ / ٩ / ٢	(٢٦) الصادق
١٨٨٧ / ٢ / ٣	(٢٧) الآداب
١٨٨٩ / ٢ / ١٤	(٢٨) المقطم
١٨٨٩ / ١٢ / ١	(٢٩) المؤيد
١٨٩٢ / ٨ / ٢٣	(٣٠) الأستاذ
١٨٩٢ / ٩ /	(٣١) الهلال
١٨٩٢ / ١١ / ٢٠	(٣٢) الفتاة
١٨٩٣ / ٢ / ١٨	(٣٣) المدرسة
١٨٩٥ / ١١ / ٢٢	(٣٤) مصر
١٨٩٦ / ١١ / ١	(٣٥) امرأة الحساء
١٨٩٨ / ٣ / ١٥	(٣٦) المنار
١٨٩٨ / ٤ / ١٤	(٣٧) مصباح الشرق
١٨٩٩ / ٢ / ٢٧	(٣٨) عزل البنات
١٩٠٠ / ١ / ٢	(٣٩) اللواء
١٩٠٠ / ٤ / ١٥	(٤٠) الهوانم
١٩٠١ / ٣ / ٢٥	(٤١) المرأة في الإسلام
١٩٠٣ / ٤ / ١	(٤٢) السيدات والبنات
١٩٠٦ / ١٠ / ١٥	(٤٣) فتاة الشرق
١٩٠٧ / ٢ / ٢٧	(٤٤) الريحانة
١٩٠٧ / ٣ / ٩	(٤٥) الجريدة
١٩٠٧ / ٤ / ٢٥	(٤٦) المؤيد الأسبوعي
١٩٠٧ / ١١ / ١٦	(٤٧) الدستور
١٩٠٨ / ٣ / ٣	(٤٨) ترقية المرأة
١٩٠٨ / ٣ / ١٥	(٤٩) الأحرار
١٩٠٨ / ٤ / ٢٤	(٥٠) القطر المصري
١٩٠٨ / ٥ / ٢	(٥١) وادي النيل
١٩٠٨ / ٥ / ٢	(٥٢) ضياء الشرق
١٩٠٨ / ٧ / ٥	(٥٣) الجنس اللطيف



١٩٠٨/١٢/١	(٥٤) مصر الفتاة
١٩٠٩/٢/٥	(٥٥) الشعب
١٩١٠/٣/٧	(٥٦) العلم
١٩١٠/٧/٩	(٥٧) البلاغ المصرى
١٩١٠/١٠/١٩	(٥٨) الأهالى
١٩١٣/١١/٣٠	(٥٩) فتاة النيل
١٩١٤/٦/٥	(٦٠) الكشكول
١٩١٥/٥/٢١	(٦١) السفور
١٩١٩/٧/٣٠	(٦٢) النظام
١٩٢٠/١/	(٦٣) المرأة المصرية
١٩٢٠/٢/٢٢	(٦٤) الأخبار
١٩٢١	(٦٥) السيدات
١٩٢١/٧/	(٦٦) النهضة النسائية
١٩٢١/٨/٢٣	(٦٧) اللواء المصرى
١٩٢٢/٢/٩	(٦٨) الرجاء
١٩٢٢/١٠/٣٠	(٦٩) السياسة
١٩٢٣/١/٢٥	(٧٠) البلاغ
١٩٢٤/٩/١١	(٧١) المرأة الجديدة
١٩٢٤/٩/٢١	(٧٢) كوكب الشرق

## ثانياً : الكتب : والدراسات العربية

- ٧٣ - إبراهيم عبده - تطور الصحافة المصرية - مطبعة الآداب - القاهرة ١٩٥١.
- ٧٤ - إبراهيم عبده - جريدة الأهرام - تاريخ وفن - مؤسسة سجل العرب - القاهرة - ١٩٦٤.
- ٧٥ - إبراهيم عامر - الأر ض والفلاح - المسألة الزراعية فى مصر - مطبعة الدار المصرية للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة - ١٩٥٨.
- ٧٦ - إبراهيم عامر - ثورة مصر القومية - دار النديم - القاهرة - ١٩٥٧.
- ٧٧ - أحمد جامع - الرأسمالية الناشئة - دار المعارف - القاهرة - ١٩٦٨.
- ٧٨ - أحمد بهاء الدين - أيام لها تاريخ - كتاب اليوم - القاهرة.
- ٧٩ - أحمد رشاد - مصطفى كامل - مطبعة دار السعادة - القاهرة - ١٩٥٨.
- ٨٠ - أحمد لطفي السيد - حياتى - كتاب الهلال - القاهرة.
- ٨١ - أحمد عبدالرحيم مصطفى - علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديو اسماعيل - دار المعارف - القاهرة - ١٩٦٧.
- ٨٢ - أحمد عبد الرحيم مصطفى - تاريخ مصر السياسى من الاحتلال حتى المعاهدة - دار المعارف - القاهرة - ١٩٦٧.
- ٨٣ - أحمد شفيق باشا - مذكراتى فى نصف قرن - مطبعة مصر - القاهرة - ١٩٣٤.
- ٨٤ - أحمد شفيق باشا - حويات مصر السياسية - مطبعة شفيق باشا - القاهرة - ١٩٢٨.
- ٨٥ - أحمد طربين - الوحدة العربية - معهد الدراسات العربية العالية - القاهرة - ١٩٥٧.
- ٨٦ - أحمد سويلم العمرى - المجتمع العربى وتطوراتاه الاجتماعية والسياسية - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - ١٩٦٥.
- ٨٧ - أمين مصطفى عفيفى عبدالله - تاريخ مصر الاقتصادى والمالى فى العصر الحديث - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - ١٩٥٤.
- ٨٨ - أمين عز الدين - تاريخ الطبقة العاملة المصرية منذ نشأتها حتى عام ١٩١٩ - دار الكاتب العربى - القاهرة.
- ٨٩ - أنطون سعادة - نشوء الأمم - دار الثقافة - بيروت - ١٩٥٧.
- ٩٠ - أنور الجندى - القومية العربية والوحدة الكبرى - الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة - ١٩٦٢.
- ٩١ - أنور الجندي - الصحافة السياسية فى مصر - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - ١٩٦٢.
- ٩٢ - أنيس صايغ - الهاشميون والثورة العربية الكبرى - دار الطليعة - بيروت.

- ٩٣ - أنيس صايغ - الفكرة العربية في مصر - دار الطليعة - بيروت.
- ٩٤ - بطرس بطرس غالى ومحمود خيرى عيسى - المدخل فى علم السياسة - الطبعة الأولى - مكتبة الأنجلو - القاهرة - ١٩٥٩.
- ٩٥ - بيلينا / جينسكايا - مسألة الأمة - ترجمة رفعت السعيد - مكتبة يوليو للترجمة والنشر والتوزيع - القاهرة - ١٩٦٦.
- ٩٦ - تشارلز آدمز - الإسلام والتجديد فى مصر - ترجمة عباس محمود - لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية - القاهرة - ١٩٣٥.
- ٩٧ - تيودور رتشتين - فصول من المسألة المصرية - ترجمة عبد الحميد العبادى - ومحمد بدران - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٥٩.
- ٩٨ - تيودور مايرغرین - الليبرالية والموقف الليبرالى - ترجمة جورج زيناتى وفوزى قبلوى - المؤسسة الشرقية للترجمة والنشر - بيروت.
- ٩٩ - تشارلز فرنكل - أزمة الإنسان الحديث - ترجمة نقولا زيادة - مكتبة الحياة - بيروت - ١٩٥٩.
- ١٠٠ - جورجى زيدان - تراجم مشاهير الشرق فى القرن ١٩ - الجزء الأول والثانى - مطبعة الهلال - القاهرة - ١٩٢٢.
- ١٠١ - جورج سول - المذاهب الاقتصادية الكبرى - ترجمة راشد السراوى - مكتبة النهضة المصرية - الطبعة الرابعة - القاهرة ١٩٦٥.
- ١٠٢ - جاكوب لاندائو - الحياة النيابية والأحزاب فى مصر - ترجمة سامى الليثى - المؤسسة العربية للدراسات والنشر ومكتبة مدبولى - بيروت - ١٩٧٣.
- ١٠٣ - جمال حمدان - شخصية مصر - دراسة فى عبقرية المكان - كتاب الهلال - القاهرة - ١٩٦٧.
- ١٠٤ - جمال حمدان - استراتيجية الاستعمار والتحرير - كتاب الهلال - القاهرة - ١٩٦٨.
- ١٠٥ - حازم نسيبة - القومية العربية - ترجمة عبد اللطيف شرارة - دار بيروت للطباعة والنشر - بيروت - ١٩٥٩.
- ١٠٦ - حسين فوزى النجار - الجريدة - تاريخ وفن - رسالة دكتوراة - غير منشورة مقدمة لقسم الصحافة بآداب القاهرة.
- ١٠٧ - خليل صابات وسامى عزيز ويونان لبيب رزق - حرية الصحافة فى مصر - القاهرة - ١٩٧٣.
- ١٠٨ - خليل صابات - الصحافة رسالة واستعداد وفن وعلم - دار المعارف الطبعة الأولى - القاهرة - ١٩٥٩.

- ١٠٩ - ذوقان قرقوط - الفكرة العربية في مصر - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - ١٩٧٣.
- ١١٠ - رثيف خورى - معالم الوعي القومى - منشورات المكشوف - بيروت - ١٩٤١.
- ١١١ - ساطع الحصرى - محاضرات فى نشوء الفكرة القومية - الطبعة الرابعة - دار العلم للملايين - بيروت - ١٩٥٩.
- ١١٢ - ساطع الحصرى - أبحاث مختارة فى القومية العربية - دار المعارف - القاهرة - ١٩٦٤.
- ١١٣ - ساطع الحصرى - آراء وأحاديث فى الوطنية والقومية - مطبعة الرسالة - القاهرة - ١٩٤٤.
- ١١٤ - ساطع الحصرى - العروبة أولا - دار العلم للملايين - الطبعة الرابعة - بيروت - ١٩٦١.
- ١١٥ - ساطع الحصرى - ما هى القومية؟! - دار العلم للملايين - بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٥٩.
- ١١٦ - سامى عزيز - الصحافة وموقفها من الاحتلال البريطانى - دار الكاتب العربى - القاهرة - ١٩٦٨.
- ١١٧ - ستالين - أسس اللينينية - دار الفارابى - بيروت - ١٩٥٧.
- ١١٨ - ستالين - اللينينية والمسألة القومية - دار الفارابى - بيروت - ١٩٥٧.
- ١١٩ - ستالين - الماركسية والمسألة القومية - دار الفارابى - بيروت - ١٩٥٧.
- ١٢٠ - سعيد عاشور - مصر فى دولة المماليك البحرية - مكتبة الأنجلو - القاهرة.
- ١٢١ - سعيد عاشور - ومحمد أنيس - النهضة الأوربية فى العصور الوسطى وبداية الحديثة - الطبعة الأولى - القاهرة - ١٩٥٦.
- ١٢٢ - سليم خليل النقاش - مصر للمصريين - الجزء السادس - مطبعة المحروسة - القاهرة - ١٨٨٤.
- ١٢٣ - شهدى عطية الشافعى - تطور الحركة الوطنية المصرية - (١٨٨٢ - ١٩٥٦) - الدار المصرية للكتب - القاهرة - ١٩٥٧.
- ١٢٤ - صبحى وحيدة - فى أصول المسألة المصرية - مطبعة مصر - القاهرة - ١٩٥٠.
- ١٢٥ - صلاح عيسى - الثورة العرابية - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - ١٩٧٢.
- ١٢٦ - صول. ك. بادوفر - معنى الديمقراطية - ترجمة جورج عزيز - دار الكرنك للنشر والتوزيع - القاهرة - ١٩٦٧.

- ١٢٧ - طه حسين - مستقبل الثقافة في مصر - الجزء الأول والثاني - دار المعارف - القاهرة - ١٩٣٨.
- ١٢٨ - عبدالرحمن الرافعي - تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر - الجزء الأول - الطبعة الرابعة - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٥٥.
- ١٢٩ - عبدالرحمن الرافعي - عصر إسماعيل - الجزء الأول - الطبعة الثانية - مطبعة النهضة المصرية.
- ١٣٠ - عبدالرحمن الرافعي - الثورة العراقية والاحتلال الانجليزي - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٤٩.
- ١٣١ - عبدالرحمن الرافعي - عصر محمد علي - الطبعة الثالثة - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٥١.
- ١٣٢ - عبدالرحمن الرافعي - مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال - مطبعة النهضة - الطبعة الثالثة - القاهرة - ١٩٤٨.
- ١٣٣ - عبدالرحمن الرافعي - محمد فريد - رمز الاخلاص والتضحية - الطبعة الأولى - مطبعة مصطفى البابي الحلبي - القاهرة - ١٩٤١.
- ١٣٤ - عبدالرحمن الرافعي - ثورة ١٩١٩ - دار الشعب - القاهرة - ١٩٦٩.
- ١٣٥ - عبدالرحمن الرافعي - في أعقاب الثورة المصرية (ثورة ١٩١٩) الجزء الأول - دار الشعب - القاهرة - ١٩٦٩.
- ١٣٦ - عبدالعزيز الرفاعي - ثورة مصر ١٩١٩ - الطبعة الأولى - دار الكاتب العربي - القاهرة - ١٩٦٦.
- ١٣٧ - عبدالعزيز الرفاعي - فجر الحياة النيابية في مصر الجديدة - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر - القاهرة - ١٩٦٤.
- ١٣٨ - عبداللطيف حمزة - أدب المقالة الصحفية في مصر (ثمانى أجزاء) - دار الفكر العربى - القاهرة.
- ١٣٩ - عبداللطيف حمزة - الحركة الفكرية في مصر في العهد الأيوبي والمملوكى الأول - الطبعة الأولى - دار الفكر العربى - القاهرة.
- ١٤٠ - عبدالرحمن البزاز - بحوث في القومية العربية - معهد الدراسات العربية - القاهرة - ١٩٦٢.
- ١٤١ - عبدالحاميد متولى - القانون الدستورى والأنظمة السياسية - الجزء الأول - الطبعة الخامسة - منشأة المعارف - الاسكندرية.
- ١٤٢ - عبد العزيز الدورى - الجذور التاريخية للقومية العربية - دار العلم للملايين - الطبعة الأولى - بيروت - ١٩٦٠.

- ١٤٣- عبد الفتاح حستين العدوى - الديمقراطية وفكرة الدولة - الألف كتاب - القاهرة - ١٩٦٤.
- ١٤٤- عبد المنجى رجب - المثل الديمقراطية والنظام النيابى فى مصر- الطبعة الأولى - دار الفكر الحديث.
- ١٤٥- عبد الكريم أحمد - القومية والمذاهب السياسية - دار الكاتب العربى القاهرة - ١٩٧٠.
- ١٤٦- عبد العظيم رمضان - تطور الحركة الوطنية المصرية - دار الكاتب العربى - القاهرة ١٩٦٨.
- ١٤٧- عبد المنعم الغزالى - تاريخ الحركة النقابية المصرية - الطبعة الأولى - الشركة المصرية للطباعة - القاهرة - ١٩٦٨.
- ١٤٨- عبد الله عبد الدايم - القومية والانسانية - منشورات دار الآداب - بيروت - الطبعة الثانية - ١٩٥٩.
- ١٤٩- عباس محمود العقاد - سعد زغلول سيرة ونحية - مطبعة حجازى - القاهرة- ١٩٣٦.
- ١٥٠- عمر الدسوقي - فى الأدب الحديث - الجزء الثانى - لجنة البيان العربى - القاهرة ١٩٥٠.
- ١٥١- فتحى رضوان - مصطفى كامل - دار المعارف - القاهرة - ١٩٧٥.
- ١٥٢- فتحى رضوان - أخى المواطن - دار المعارف - القاهرة - ١٩٥٥.
- ١٥٣- فردريك هرتز - القومية فى التاريخ والسياسة - ترجمة عبد الكريم أحمد - دار الكاتب العربى - القاهرة - ١٩٦٨.
- ١٥٤- فؤاد محمد شبل - دور مصر فى تكوين الحضارة - الهيئة العامة للتأليف والطباعة والنشر - القاهرة - ١٩٧١.
- ١٥٥- فوزى جرجس - دراسات فى تاريخ مصر السياسى منذ العصر المملوكى مطبعة الدار المصرية - القاهرة - ١٩٥٨.
- ١٥٦- فيليب حنا داود وجرجس وجبرائيل غبور - تاريخ العرب - الجزء الثالث - دار الكشف - بيروت - ١٩٥١.
- ١٥٧- قسطنطين الحلبى - تاريخ تكوين الصحف المصرية - مطبعة التقدم - القاهرة ١٩٢٨.
- ١٥٨- كارل ماركس - الحرب الأهلية فى فرنسا - دار التقدم - موسكو - ١٩٦٣.
- ١٥٩- لويس عوض - تاريخ الفكر المصرى الحديث - جزئين - دار الهلال القاهرة - ١٩٦٩.
- ١٦٠- لينين - المختارات - الجزء الأول - المجلد الثالث - دار التقدم موسكو - ١٩٦٧.
- ١٦١- لينين - المختارات - المجلد الأول - الجزء الثانى - دار التقدم - موسكو ١٩٦٦.
- ١٦٢- لينين - المختارات - المجلد الأول - الجزء الثانى - دار التقدم - موسكو ١٩٦٦.

- ١٦٣- محمد أنيس - المجتمع المصرى فى ظل الاقطاع - من محاضرات المعهد العالى للدراسات الاشتراكية (محاضرات مطبوعة).
- ١٦٤- محمد أنيس - المجتمع المصرى من الاقطاع إلى الرأسمالية - من محاضرات المعهد العالى للدراسات الاشتراكية - (محاضرات مطبوعة).
- ١٦٥- محمد أنيس - محاضرات فى تاريخ الشرق الأوسط الحديث - (١٥١٦ - ١٩١٤) الجزء الأول - مكتبة دار العالم العربى - القاهرة.
- ١٦٦- محمد أنيس وآخرون - دراسات فى العالم العربى - مطبعة مخيمر - القاهرة ١٩٥٨.
- ١٦٧- محمد انيس والسيد رجب حراز - التطور السياسى للمجتمع المصرى الحديث - دار النهضة العربية - القاهرة .
- ١٦٨- محمد انيس - الدولة العثمانية والشرق العربى - مكتبة الانجلو المصرية القاهرة.
- ١٦٩- محمد حسين هيكل - مذكرات فى السياسة المصرية - الجزء الأول - مطبعة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٥١.
- ١٧٠- محمد حسين هيكل - شخصيات مصرية وغربية - كتاب روز اليوسف - القاهرة - ١٩٥٥.
- ١٧١- محمد زكى عبد القادر - محنة الدستور - الجزء الأول - كتاب روز اليوسف القاهرة - ١٩٥٥.
- ١٧٢- محمد خليل صبحى - تاريخ الحياة النيابية فى مصر - الجزء الخامس - مطبعة دار الكتب - القاهرة - ١٩٣٩.
- ١٧٣- محمد رفعت رمضان - على بك الكبير - دار الفكر العربى - القاهرة - ١٩٥٠.
- ١٧٤- محمد عمارة - الأعمال الكاملة لجمال الدين الافغانى - دار الكاتب العربى - القاهرة - ١٩٦٨.
- ١٧٥- محمد عمارة - العروبة فى العصر الحديث - دار الكاتب العربى - القاهرة - ١٩٦٧.
- ١٧٦- محمد عزيز الحبابى - من الحريات إلى التحرر - دار المعارف - القاهرة .
- ١٧٧- محمد رشيد رضا - تاريخ الاستاذ الامام - الجزء الأول مطبعة المنار القاهرة - ١٩٣٠.
- ١٧٨- محمد شفيق غربال - تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية - الجزء الأول - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٥٢.
- ١٧٩- محمود سليمان غنام - أضواء على أحداث ثورة ١٩١٩ - دار الفكر الحديث القاهرة - ١٩٧١.
- ١٨٠- محسن خليل - النظام الدستورى - منشأة المعارف - الاسكندرية ١٩٥٩.

- ١٨١- مريت بطرس غالى - سياسة الغدر - مطبعة الرسالة - القاهرة - ١٩٣٨ .
- ١٨٢- مصطفى كامل - المسألة الشرقية - الجزء الأول - مطبعة اللواء - الطبعة الثانية - القاهرة - ١٩٠٩ .
- ١٨٣- مصطفى أبوزيد فهمي - الدستور المصرى - الطبعة الثانية - منشأة المعارف - اسكندرية - ١٩٥٨ .
- ١٨٤- موسوعة الهلال الاشتراكي - دار الهلال - الطبعة الأولى القاهرة - ١٩٦٨ .
- ١٨٥- ميشيل عفلق - فى سبيل البعث - دار الطليعة - بيروت - ١٩٥٩ .
- ١٨٦- وحيد رأفت ووايت ابراهيم - القانون الدستوري - المطبعة العصرية - القاهرة - ١٩٣٧ .

### ثالثاً: المراجع الأجنبية :

#### أ- الكتب الاجنبية (٣٧)

- 187- **Ahmed. Jamal. Mohammed:** The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism, Oxford University Press, London, 1966.
- 188- **Aron. Raymond:** An Essay on Freedom. The World Publishing Company U.S.A., 1970.
- 189- **Bailey P. M.:** What is Democracy. The Comstock Publishing U.S.A. 1918.
- 190- **Benes. Edward:** Democracy - The Macmillan Company - New York, 1939.
- 191- **Bowle. John:** Politic and Opinion in The Nineteenth Century A Leden Press, London, 1954.
- 192- **Can Casters Lane W:** Masters of Political Thought (Hegel to Dewey) Volume 3, George G Harrap and Co. Ltd, London 1959.
- 193- **Closs. Felix :** European Ideologies Philosophical Library, New York, 1948.
- 194- **Deatsch. W. Karl:** Nationalism & Its Alternatives. Alfred M. KnoPhinc, U.S.A., 1961.
- 195- **Duner. Joseph :** Dictionary of Political Science, Philosophical Library, New York, 1964.



- 196- **Edward. William & Lecky. Martpole:** Democracy and Liberty. Longmans Green and Company, London, 1916.
- 197- **Emelson. Rupert:** From Empire to Nation. Harvard University Press, 1960.
- 198- **Jones. W.J.:** Masters of Political Thought, Volume 2, George V Mallap and Co. Ltd, London, 1959.
- 199- **Hourani Albert,:** Arabic Thought in The Liberal Age. Oxford University Press, London, 1970.
- 200- **Hoselits F. Bert,:** Theories of Economic Growth. The Free Press U. S. A., 1960.
- 201- **Kedourie. Elie:** Nationalism, Mutchins University Library, London, 1966.
- 202- **Kgalber. Fugene and Clossett. M. John :** Liberal and Conservative. Scott Foresman and Company, U. S. A., 1968.
- 203- **Kohn. Kans:** The Idea of Nationalism. Macmillan Copany, U.S.A., 1958.
- 204- **Laski. Harold J.:** Democracy in Crisis. George Allen and Unwin, London, 1933.
- 205- **Laski. J. Harold :** The Rise of European Liberalism. Unwin Books, London, 1962.
- 206- **Macconnell W. John,:** The Basic Teachings of Great Economists, The New Home Library, U.S.A., 1943.
- 207- **Maciver P.M.:** The Mcdern State. Unwin Books, London, 1968.
- 208- **Mill. John Stuart,:** On Liberty Macmillan, Oxford, U.S.A., 1925.
- 209- **Mill, John Stuart,:** Considerations on Representatives Government, The Liberal Arts Press, U.S.A., 1958.
- 210- **Minojue K.R.:** Nationalism Rekleen and Co. Ltd. London, 1967.
- 211- **Niebuhr. Reinhold and Sigmund, Paulo E.:** The Democratic Experience Frederick and A Praeber Publishers, U.S.A., 1962.
- 212- **Osborn, Annie Marion: Rousseau and Burke,:** Oxford University Press, London, 1940.

- 213- **Palmer. Monte (Editor):** The Human Factor in Political Development, Ginn and Company, U.S.A., 1970.
- 214- **Pennouk. Roland,:** Liberal Democracy. Rinehart and Company, U.S.A., 1950.
- 215- **Plamenats. John,:** Democracy and Illusion, Clarke Deble and Brendon M. d, London, 1973.
- 216- **Sabine. George H.:** A History of Political Theory Library of Congress, U.S. A., 1961.
- 217- **Smith D. Anthony,:** Theories of Nationalism. Herbert and Publishers U.S.A., 1969.
- 218- **Toynbee. Arnold J.:** Democracy in The Atomic Age. Oxford University Press, London, 1956.
- 219- **Wheeler. Harvey.** Democracy in a Pevolutionary Era. Pelican Books, London, 1971.
- 220- **Encyclopedia American,:** American Corporation, U.S.A., Volume 12, 1963.
- 221- **Encyclopedia Britanica,** Volume 16- William Benton Publisher, London, 1973.
- 222- Encyclopedia International Crobior Limited Volume 12, London, 1973.
- 223- Encyclopedia of The Social Science, Volume 9, The Macmillan Co., New York, U.S.A., 1959.
- 224- International Encyclopedia of The Social Sciences Vol. 4, The Free Press, U.S.A., 1968.

\* \* \*

## الفهرست

مقدمة:	٣
الجزء الأول: الفكر الليبرالى فى الصحافة - المصرية (٨ ٨٢ ١-)	٥
٨٨٢ م).	٧
تمهيد: أولاً: مفهوم الليبرالية	١٧
ثانياً: الاساس الاجتماعى للفكر الليبرالى فى مصر.	٢٥
الباب الأول: الفكر القومى فى الصحافة المصرية.	٢٧
نشأة الفكرة القومية فى مصر.	٣١
الفصل الأول: الوطنية المصرية فى الصحافة المصرية.	٥٣
الفصل الثانى: العروبة فى الصحافة المصرية.	٦٥
الفصل الثالث: القومية الاسلامية فى الصحافة المصرية.	٧٧
الباب الثانى: الفكر الديموقراطى فى الصحافة المصرية.	٧٩
تنشأة الفكر الديموقراطية فى مصر.	٨٧
الفصل الرابع: الصحافة المصرية بين الدعوة للحكم المطلق والدعوة للحكم المقيد.	١٠٧
الفصل الخامس: الصحافة المصرية والحياة النيابية.	١٢٧
الفصل السادس: أول يوتوبيا فى الفكر المصرى الحديث.	١٣٥
الباب الثالث: الصحافة المصرية وقضايا الحريات.	١٣٧
الفصل السابع: الصحافة المصرية ومفهوم الحرية.	١٤٥
الفصل الثامن: الصحافة المصرية وحرية الفكر والتعبير.	١٥٥
الفصل التاسع: الصحافة المصرية وسيادة القانون.	١٦٥
الفصل العاشر: الصحافة المصرية والحرية الاقتصادية.	١٧٧
الفصل الحادى عشر: الصحافة المصرية وحرية المرأة.	١٩٣
الجزء الثانى: الفكر الليبرالى فى الصحافة المصرية ( ٨٨٢ ١-)	١٩٥
٩٢٤ م).	١٩٧
الباب الرابع: الفكر القومى فى الصحافة المصرية...	
الفصل الثانى عشر: القومية والوطنية ومفهومها فى الصحافة المصرية.	

٢٠٩	الفصل الثالث عشر: الوطنية المصرية فى الصحافة المصرية.
٢٥٩	الفصل الرابع عشر: العروبة فى الصحافة المصرية....
٢٧٣	الفصل الخامس عشر: القومية الاسلامية فى الصحافة المصرية
٢٩٣	الباب الخامس: الفكر الديموقراطى فى الصحافة المصرية.....
	الفصل السادس عشر: الديموقراطية ومفهومها فى الصحافة
٢٩٥	المصرية.....
٣١١	الفصل السابع عشر: الصحافة المصرية والدعوة للحكم المقيد
٣٣١	الفصل الثامن عشر: الصحافة المصرية والحياة النيابية.
٣٦٧	الفصل التاسع عشر: الصحافة المصرية والدستور.
٣٩١	الفصل العشرون: الصحافة المصرية والحياة الحزبية.
٤١٩	الباب السادس: الصحافة المصرية وقضايا الحريات.
٤٢١	الفصل الحادى والعشرون: الصحافة المصرية وحرية الفكر والتعبير.
٤٣٧	الفصل الثانى والعشرون: الصحافة المصرية والاقتصاد الحر.
٤٥٣	الفصل الثالث والعشرون: الصحافة المصرية وتحرير المرأة.
٤٦٨	الخاتمة:
٤٧٣	مصادر البحث ومراجعته.



رقم الإيداع ٩٧ / ٣٧ ٨٩

الترقيم الدولي I . S . B . N .

977 - 232 - 104 - 1

مطبعة السلام الحديثة  
١٠ ش عبد السلام منسى - مذكور - فيصل  
ت : ٥٨٣١٩٣٠



